مطالع البدور في منازل السرور



علاء الدين الغزولي

مطالع البدور في منازل السرور

علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي الدمشقي

المسترسل العربي

مطالع البدور في منازل السرور

علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي الدمشقي

توفِّيَ المؤلف عام ٨١٥ هـ.

دار المسترسل العربيِّ

الغلاف: عمر الحجّ.

نسخة دار المسترسل العربيِّ عام ١٤٤٧ هـ.

كتب الدار وقفٌ لوجه الله تعالى.

ومما قاله السيد الفاضل الأديب البليغ محمد بن عبد الله بن أحمد الجوثي مقرضًا ومادحًا لهذا الكتاب:

هــذا كــتــاب لا يُــبــاع لأنَّــهُ   وَقْـفٌ عـلـى عـينِ الأديـب الـقـاري
أضــحى منازلَ للســرورِ كما اغتدت   مـنـه الســطور مـطـالـعَ الأقـمـارِ
هـو روضــةٌ لـلـعِـلـم إلَّـا أنـهـا   قـد دُبِّـجـت بـبـدائـع الأزهـار
نـجـم بـآفـاق الـفـوائـد طـالـعٌ   لا يَسـتَضِـي بِسِـوى سَـناه السـاري
سـِـفر من الأســفـار لكن جَمعُه   مُســتوجـبٌ سـَفَرًا من الأسـفـار
هـو كعبـةٌ لـلـعِلـم أوجـب حجـهـا   وحـلـول واديـهـا ذوو الأنـظـار
يـا أيُّـهـا الأدبـاء هـذا السـفـر في   آدابـكـم كـجـفـيـنـة الأخـبـار
فـابـروا لـه أقـلامـكم واسـتكتبوا   مـا بـين دفَّـيـه مـن الأسـطـار
فـالله يشــكـر ســعـي أقـلامٍ أتـى   في ســعيهن وجوب شــكر البـاري
ويـثـيـب عـن تـحصــيلـه فـتـمـامـه   لـمـقـاصــدي مـن أعـظـم الأوطـار
لـو أن ذا الـمجـموع في أقصــى بِلا   دِ الصــين أو أقصــى قرى بلـغـار
والـعـارفـون لـه بـأقصــى بـلـدةٍ   في الروم أو كـانوا على ســنجـار
لأتَـوا إلـيـه مـهـمْـلـعـاتٍ عيســهـم   مـتـحـمِّـلـين عـظـائـم الأخـطـار
كي يظفروا منـه بمـا ظفرت يـدي   مـن نـزهـة الأســمـاع والأبصــار
فـلـقـد ظـفـرتُ بـدُرَّةِ الـغـوَّاص مـن   هـذا الـكـتـاب ونـقـطـة الـبـيـكـار
وحـويـتـه مُـلـكًـا بـخـطٍّ يـدي وتـحـ   ــصـيلي بفضـل الواحد القهَّار
في عـام إحـدى بعد ألفٍ قد مضـت   أعـوامـهـا مـن هـجـرة الـمـخـتـار
صــلى عليـه الله مـا هبَّت صـَبـا   وتـغـنَّـت الأطـيـار فـي الأســحـار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل قلوب البُلَغاء أفلاكًا لمطالع البدور، وأسكنها من فسيح صدورهم في منازل السرور، وأطلعها من درج الفصاحة إلى بديع الطِّباق، وأحلَّها منازلَ سَعدٍ سَنيَّة الإشراق، يَظِلُّ تحت جناح شرفها كل منشد وقائل: لك يا منازلُ في القلوب منازل.

أحمده حَمْدَ من تخيَّر لعمله الصالح دارًا أسَّس بنيانها على تقوى، وجعل بابها مدخلًا إلى جنة المأوى، فأضحت مباركةَ العتبة لمن أمَّها بعد سيرٍ حثيث، وروى حديث فضلها المسندُ فأكرِمْ بدار الحديث.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً هي عدَّتنا في هذه الدار وعُمدتنا في دار المُقام، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله قائدنا إلى دار السلام، الكافي لمن يخافه ويرجوه، الهادي إلى طباق السعادة يوم تبيضُّ وجوه وتسود وجوه، صلَّى الله عليه وعلى آله ما رُفعَت أركان، وشُيِّد بنيان.

أما بعدُ؛ فهذا كتابٌ مجموعه لفريقِ أهل الأدب مفيد، وتذكرةٌ فيها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، جاء في تأليفه الشريف عُلويَّ النسب، وتاريخًا أدبيًّا لو سمعه الذهبي لكتبه بماء الذهب، ما وصل إلى حلاوة تأليفه ابن خلكان، ولا ينظر مع وجوده بوجه في مرآة الزمان، فيا له من مجموع أقسم بثاني اثنين أنه تفرد، وهامت به كتب الأدب وأمست عارية من الجلد وما عسى أن تتجلد، لقد أصبح من حِسان المعاني بِحُور مقصورات في خيام الطروس ممدودًا، وأوتي من كنوز الأدب وأبنائه مالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا، صرفتُ الذهن إلى ترصيفه واستعنتُ بالناقد البصير عند الصرف، وبالصانع القدير عند الرصف، وأعربت بناءه عن وصف دار ملك فجاء في حسنه زائد الوصف، فأقسمُ بمن وصف هذه الدار بالبيت المعمور أنها نزهة الناظر والسامع، وأتلو على بيت حاسدها: ﴿إِنَّ عَذَابَ

رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، ما مر الأدباء على أبوابها إلا سلَّموا سلام الخاشعين، عسى أن يقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾.

وإنِّي وإنْ لم أستطِع خلوةً بكم أمرُّ على أبوابكم فأسلِّم

فتح عليَّ مِن وصفها بخمسين بابًا فسبحان الفتاح، ولكن جعلتُ سواد نقشها وبياض طرسها نزهتي في الليل والصباح، وجاورتها بأوصاف عَلَت بحسن طباقها البديعة على بيوت الأشعار، فاستحقَّيت التمتع بها دون الغير، لأن جار الدار أحق بدار الجار؛ وتالله، لقد أحجم الفضلاء عن وصف هذه الدار المباركة أعتابها، فكيف إذا جاءوها وفُتحت أبوابُها، وأمست قلوب معانيها المختلفة بأنواع البدائع تتألف، وهي تتلو على بيت حاسدها: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ﴾، كم طرقتُ بابها بوصف فأتيت بالدقة الأدبية من الافتتاح، وأبديتُ بما لو ناظره ابن سُكَّرة لعسر ذلك عليه ولو أتى بالمفتاح، وإن دخلت إلى وصف الدهليز من بابه فما تركت لأحد فيه مدخل، أو إلى الباذهنْج نقلت حديث الهوى صحيحًا وإن كان معلَّل، أو إلى وصف الخدم استعبدت حر الكلام، وأظهرتُ قوة العزائم في الاستخدام، وإن ترويت من البركة رفعت لها من الوصف رايةً فوق قناتها، أو في النوفرة الغضة حففتها من زهور البديع بحضراتها.

كم سهرت في الفرش لوصف المساند وهم ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾، ودرتُ إلى وصف الدواليب وهالات بدورها ونجوم نثرتها ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وكم سجعتُ في وصف الطيور المسموعة بما يغني عن سجع المطوق وألحان السواجع، وهذبت النفس في وصف الشطرنج فعقد لي الدست من حسن فِرزنتي من غير مانع، وروَّحتُ الخاطر لوصف المروحة فهب لي نسيم القبول من غير تعب، واقتبست من شعل الذهن في وصف الشمعة والفانوس ولم أقل لِلَهيب الفكر: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وأطلقت عنان الذهن القادح في وصف السراج فكنت فارس القبيلة، وأتيت بما يفحم ولو طوَّل لسانه لقيل له: لا تكن طويل الفتيلة، وحدقت في البساتين ووصف غصونها وزرد خمائلها فهمتُ إلى بان الحمى وزرود، وتغزلت في رياحينها وورودها بما أخمل زهر الآداب وشوَّق إلى العوارض والخدود، وتمسكتُ بالغوالي من المعاني المعشوقة في وصف الطِّيب، فأطربت حتى قال أهل العود: طيب، ومِلْت إلى صرف الذهن في وصف الراح فمازجته من الشعر الذي يقطر ماء الحسن منه بصيب، ووصفت الأواني حتى قالت الكاسات: جاءنا دور وقهقهت فرحةً ثغورُ القناني، وحليت ساذجها بذهب الوصف حتى قالت: أنا ذهبية عصري وأواني.

وجرعت العدو في وصف النديم والصديق الحميم، وألفت في وصف الشعراء قصصًا تركت الحسود لما ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عنها في ألف لام ميم، وأتيت في وصف الفضلاء بنظم ونثر يحير الفاضل، وأرقصت طربًا في وصف المطربين وما خرجت عما هو في السمع داخل، واسترقيت في وصف الجواري والغلمان كل حر من المعاني دقيق، وجئت بما لو سمعه ابن نباتة لصار له عبدًا بسوق الرقيق، ووصفت الباءة بما يحرك الشهوات، وأتيت بما هو أوضح من الصبح ولكن لم يكن قاطع اللذات، ودخلت إلى الحمام بقلب وانشراح صدر فأبديت ما لو شاهده الحمامي لقال: ما أنا قبالة هذا التشبيه! ومن هنا عرفت حر الأشياء وباردها وأخذت الماء من مجاريه، وأضرمت الفكر في وصف النار فأتيت من الأدب بحشمة قَطعت عندها الألسن الجمرية، وأفحمت كل ذهن وقَّاد وأخمدت الأفكار اللَّهَبيَّة، وقعد لي الدَّست في الطباخ فأتيت في وصف القدور بما طاب وعلى سوقه استوى، وقلت للأفكار: ألا هُبِّي بصحنك، فأتت بما ترك قلوب الأعداء خوافقًا على غير الاستوا، وتصيدتُ من وصف الأسماك ما غصت خلفه من الشعر إلى أقصى البحور، وأتيت بما حير الثوراني والجزار في وصف الجزور، ولم أدخل إلى السفرة بجبن بل مددتها بما يليق بمثلي، وتركت البقول تقول لمن لا عنده رشاد وهو غير حاذق: ما أنت من خلٍّ بقلي، ومددت الخُوان بمائدة من المعاني صيرت الشعراءَ عند وصفها فرقان، وتنوعت في الأطعمة الشهية بألوان، وتفقهت في الوصف لما دخلت إلى باب المياه، وقلت وقد جرى جواد الفكر في وصف الماء: سبحان من أجراه!

وأتيت في وصف الحلوى بما لو ذاقه ابن الحلاوي لشبك عليه وعقد الخناصر، وفي وصف المشروب بما أصبح كل ظامٍ من أهل الذوق إلى مورده العذب صادر، وتركت الضد في بيت الخلاء حائرًا يبحث في باب الطهارة، وكم طلب أن يستعير له وصفًا ولم يطق وشابت ذقنه في باب الاستعارة، وعالجت وصف الأطباء وأعطيت الذهن دستورًا فأتى بما هو من القانون أطرب، وإن جحد ذلك حمار ضعيف الذهن فمفردات ابن البيطار له أوجب، وأتيت في وصف الوزراء بما لو ناظره الغير لقالوا عنه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، وباشرتُ وصف الحساب فأتيت بما لو شاهده ابن الصاحب لرجع عن ديوانه وعَلِمَ أني صاحب النظر، واصطبحت بخمرة الإنشاء في رياض الوصف فأتيت بما أشار إليه بأصابعه صاحب زهر المنثور، وطرقت بابه ففتح عليَّ ودخلت من غير دستور، وأتحفت الأسماع من الهدايا بكل هدية صالحة لطيفة، وجلبت من معادن الأدب في وصف الجواهر ما لو سمعه صاحب العقد نسي نظامه وتأليفه، وسننت الفكر في وصف السلاح فجزت الحد وكنت فارس الكلام، وتغزلت في حواجب القسي

وأصداغ السيوف وقامات الخطِّ وأهداب السهام، ووصف الكتب وأبوابها بكل قرينة صالحة وأسكنتها في أجمل بيت، وأتيت في وصفها بما لو ناظره الغير لـ﴿غَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ﴾، وركضتُ بشدة الحزم إلى وصف الخيل فلم ألحق في ذلك المضمار، وأتيت في وصف الدوابِّ بما لم يقع عليه حافر ولا يلحق له غبار، وقنصت في وصف المصائد ظباء البديع فما نفرت، وحشرت الوحوش في حظائرها وناهيك ﴿الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، وصدحت في وصف الحمائم بما يهيج البلابل حين علا أوراقه، وأصبح طائر قلب الضد واقفًا دونه ولو طار نحو بطاقه، وأطلت في وصف القصور فأتيت بكل بيت لم يكن له في علو طباقه مطابق، وأتيت في وصف الحصون المنيعة بما عوَّذته بالسماء ذات البروج من الطارق، وشوقت إلى الأوطان فأتيت في وصف علائم المنازل بأبيات، إذا رآها الشيق إلى أوطانه قال: هي المنازل لي فيها علامات، ودخلت إلى الجنة ففزت بأوصافٍ تركت الأعداء في نار الحسد يتقلبون، وتلي عليهم: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، واستوعبت هذه الأوصاف التي بَعُد مرامها وأمست ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، وهنا يحسن الالتفات فنقول: ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وهذا أوان إيراد الأبواب المذكورة، وشرح المحاسن المأثورة، وبالله التوفيق والإعانة في لطف الإنابة وحسن الإبانة، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

- **الباب الأول:** في تخيُّر المكان المتخذ للبنيان.
- **الثاني:** في إحكام وضعه، وسعة بنائه، وبقاء الشرف والذكر ببقائه.
- **الثالث:** في اختيار الجار والصبر على أذاه وحسن الجوار.
- **الرابع:** في الباب.
- **الخامس:** في ذم الحجَّاب.
- **السادس:** في الخدم والدهليز.
- **السابع:** في البركة والفوارة والدواليب وما فيهن من كلام وجيز.
- **الثامن:** في الباذهنج وترتيبه.
- **التاسع:** في النسيم ولطافة هبوبه.
- **العاشر:** في الفرش والمساند والأرائك.
- **الحادي عشر:** في الأراييح اللذيذة والمروحة وما شاكل ذلك.
- **الثاني عشر:** في الطيور المسموعة.
- **الثالث عشر:** في الشطرنج والنرد وما فيهما من محاسن مجموعة.
- **الرابع عشر:** في الشمعة والفانوس.
- **الخامس عشر:** في الخضراوات والرياحين.

- **السادس عشر:** في الروضات والبساتين.
- **السابع عشر:** في آنية الراح.
- **الثامن عشر:** في ما يستجلب به الأفراح.
- **التاسع عشر:** في الصاحب والنديم.
- **العشرون:** في مسامرة أهل النعيم.
- **الحادي والعشرون:** في الشعراء المجيدين.
- **الثاني والعشرون:** في الحذاق والمطربين.
- **الثالث والعشرون:** في الغلمان الحسان.
- **الرابع والعشرون:** في الجواري ذوات الألحان.
- الخامس والعشرون: في الباءة.
- **السادس والعشرون:** في الحمَّام وما غزا مغزاه.
- **السابع والعشرون:** في النار والطباخ والقدور.
- **الثامن والعشرون:** في الأسماك واللحوم والجزور.
- **التاسع والعشرون:** في السفرة والبقول.
- **الثلاثون:** في الخُوان والمائدة وما فيها من كلام مقبول.
- **الحادي والثلاثون:** في الوكيرة والأطعمة المشتهاة.
- **الثاني والثلاثون:** في الماء وما جرى مجراه.
- **الثالث والثلاثون:** في الحلوى والمشروب.
- **الرابع والثلاثون:** في بيت الخلاء المطلوب.
- **الخامس والثلاثون:** في نبلاء الأطباء.
- **السادس والثلاثون:** في الحُسَّاب والوزراء.
- **السابع والثلاثون:** في كتاب الإنشاء، وهو فصلان.
- **الثامن والثلاثون:** في الهدايا والتحف النفيسة الأثمان.
- **التاسع والثلاثون:** في خواصِّ الأحجار وكيانها في المعادن.
- **الأربعون:** في خزائن السلاح والكنائن.
- **الحادي والأربعون:** في الكتب وجمعها.
- **الثاني والأربعون:** في الخيل والدواب ونفعها.

- **الثالث والأربعون:** في مصائد الملوك الجليلة المقدار.
- **الرابع والأربعون:** في حظائر الوحوش المتخذة لنزهة الأبصار.
- **الخامس والأربعون:** في الأسد والزرافة والفيل.
- **السادس والأربعون:** في الحمام وما فيه من قيل.
- **السابع والأربعون:** في الحصون والقصور والآثار.
- **الثامن والأربعون:** في الحنين إلى الأوطان وما فيه من رائق الأشعار.
- **التاسع والأربعون:** في دار سكنت بها كثيرة الحشرات.
- **الخمسون:** في جنات النعيم، وما فيها من غرفات، وبتمامه تمت الأبواب.

والمقصود من الواقف على كتابنا هذا الإقصارُ عن تتبع خطأنا والصفح عما يقف عليه من إغفالنا، والتجاوز عما ينتهي إليه من إهمالنا، وإن أدَّاه التصفح إلى صواب نشره، أو إلى خطأ ستره، فقد كان يُقال: من ألف كتابًا فقد استشرف، فإن أصاب فقد استهدف، وإن أخطأ فقد استقذف، وكان يُقال: لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعرًا أو يضع كتابًا، وكان يقال: اختيار الرجل وافد عقله، ويقال: دلَّ على عاقل اختياره، وقيل لبعض العلماء: اختيار الرجل قطعةٌ من عقله، قال: بل مبلغ عقله، وقال الخليل بن أحمد: لا يُحسِن الاختيار إلا من يَعلم ما يحتاج إليه من الكلام، وقال الشعبي: العلم كثير، والعمر قليل، فخذوا من العلم أرواحه (يعني: عيونه) ودعوا ظروفه، وقال ابن عباس رضي الله عنه: العلم أكثر من أن يحصر فخذوا من كل شيء أحسنه. ونحن نستعين الله على كل حاسد، ولله در القائل:

لَـنْ أبـوح بشـــعـري حـينَ أَنْـظُـمـه   أم مَـن أخـصُّ بـمـن فـيـه مـن الـزبـدِ
إمَّـا جَـهـول فـلا يـدري مـواقـعـه   أو فـاضـــل فهو لا يخلو من الحســد

على أن الإنصاف من شيم الأشراف، وهذا أوان الشروع في إيراد ما قصدناه، والأمر الذي نحوناه، وبالله تعالى المستعان.

الباب الأول

في تَخيُّر المكان المتَّخذ للبُنيان

قال أرسطوطاليس: أول الصناعات الضرورية الصيد، ثم البناء، ثم الفلاحة، وذلك لو أن رجلًا سقط في فلاة لا أنيس بها ولا زرع لم يكن همه إلا حفظ قوام نفسه بالغذاء، فليس يفكر إلا فيما يصيد، فإذا صاد واغتذى فليس يفكر بعد ذلك إلا فيما يسكن فيه وهو البناء، فإذا تم له ذلك، فكَّر حينئذ فيما يزرعه ويغرسه.

وقال إبراهيم بن إسحاق المصعبي: كيمياء الملوك العمارة، ولا تحسن بهم التجارة.

وقال ابن كلدة: جميع خصال الدار المستحسنة أن تكون على طريقٍ نافذ، وماؤها يخرج منها، وليس عليها مستشرف، وحدودها لها، وتكون بين الماء والسوق، ويصلح فناؤها لحط الرحال، وبلِّ الطين، ووقوف الدوابِّ. وإن كان لها بابان فذاك أمثل، وينبغي أن تكون أيضًا في طرف البلد، لأن الأطراف منازل الأشراف.

وقال البحتري:

عَجِب الناس لاعتزالي وفي الأطـ ـــراف تلقى منازل الأشراف
وقعودي عن التلفُّت والأر ض لمثلي رحيبةُ الأكناف
ليس عن ثروة بلغتُ مداها غير أنِّي امرؤ كفاني كفافي

قيل: وإنما كانت الأطراف منازل الأشراف لأنهم يتناولون ما يريدونه بالقدرة، ويصل إليهم من يريدهم بالحاجة إليه.

وقيل لرجل: في أي موضع من القرآن: الأطراف منازل الأشراف؟ فقال: قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، فهذا أشرفهم وكان ينزل أقصى المدينة.

وقيل: ليس في الأرض بخيل ولا جواد إذا ابتاع دارًا إلا بنى فيها شيئًا، وهدم شيئًا، وإن قلَّ، لأن حاجته ومنافعه ومرافق المالك الأول لا يستويان.

قال الجاحظ: رأيت بخلاءَ في نهاية البخل يسرفون في الإنفاق على البنيان.

وقال الحكماء: لذة الطعام والشراب ساعةٌ، ولذة النوم يوم، ولذة المرأة شهر، ولذة البنيان دهر، كلما نظرتَ إليه تجددت لذته في قلبك وحسنه في عينك.

وقال ناصر بني أمية في مبانيه العظيمة بمدينة الزهراء بالأندلس:

همُ الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فَبِألسُنِ البُنيان
إن البناء إذا تعاظم شأنُه ... أضحى يدلُّ على عظيم الشان

ولما دخل الرشيد إلى منبج قال لعبد الملك بن صالح الهاشمي، وكان لسان بني العباس: هذا البلد مقرك. فقال: يا أمير المؤمنين، هو لك ولي بك. قال: كيف منازلك به؟ قال: دون منازل أهلي وفوق منازل غيرهم. قال: وكيف صفة مدينتك؟ قال: عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدواء. قال: كيف ليلها؟ قال: سحر كله، وهي تربة حمراء، وسنبلة صفراء، وشجرة خضراء، وفيافٍ فيح، بين قَيصوم وشِيح. فقال الرشيد: والله، هذا الكلام أحسن منها!

ولما بنى عيسى بن جعفر قصره بالرصافة دخل إليه عبد الصمد فقال: بنيتَ أجلَّ بناءٍ، بأطيب فناء، وأوسع فضاء، على أحسن بهاء، بين صحارٍ وحيتان وظباء. فقال: كلامك أحسن من بنائها.

ولما بنى جعفر البرمكي داره دخلها أبوه يحيى فقال له: هل ترى فيها عيبًا؟ فقال: نعم، اتصالها بمساكن العامَّة.

وكان جعفر بن سليمان الهاشمي يقول: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، وداري عين المربد.

وقال بعض أهل التجربة: إذا ابتنى أحدكم دارًا فليترك في واجهتها ثُلْمةً تقيها شر عين الكمال.

قلت: ولا بأس بإيراد نبذة مما يتعلق بكِراء الدار.

فمن ذلك ما حُكِي أن رجلًا دخل حجرة يكتريها فقال: أين المطبخ؟ فقيل له: في الجيران من يطبخ لك ويكفيك المؤنة. فقال: أين المخبز؟ فقيل: إذا اختمر العجين خبزوا لك أيضًا. قال: فبيت الخلاء؟

فقيل: بالقرب خربة تقضي فيها الحاجة. قال: فالسطح؟ فقيل: على الباب ساحة يطيب فيها النوم في الصيف. قال: فأنا في دار وما أعلم بروحي! فأستمر ما أنا فيه وأربح الأجرة.

وقال الحكم بن سعيد: قال لي ملك بسرنديب: صف لي معايش أهل البصرة. فقلت: قوم منهم لهم فضول منازل يكرونها، وقوم لهم أرقاء يستعملونها، وقوم لهم رؤوس أموال يغدون إلى أسواقهم فيأكلون فضولها، وقوم لهم نخيل يأكلون ثمارها. فقال: من كان معاشه من كراءٍ فلئام الناس، ومن استعمل الأرقَّاء فكلاب الناس، والذين يعدلون إلى أسواقهم فذئاب الناس، ولكن أصحاب النخيل هاءَ وهاء.

وقال بعضهم:

قد رضينا من الزمان بقُوتٍ ... وثبوت ومسكن لا زيادةْ
ورضينا من الإله بما يَرْ ... ضَى ومن غيره تركنا الإرادةْ
غير أنَّا نروم خاتمة الخيـ ... ـر فإن يُسِّرَت فتلك السعادةْ

لطيفة

ذكرها الحريري في كتابه الموسوم بتوشيح البيان أن أحمد بن المعدل كان يجد بأخيه عبد الصمد وجدًا شديدًا على تباين طريقتهما، لأن أحمد كان صوَّامًا قوَّامًا، وكان عبد الصمد سكيرًا خميرًا، وكانا يسكنان دارًا واحدة، ينزل أحمد في غرفة أعلاها وعبد الصمد أسفلها، فدعا عبد الصمد ذات ليلة جماعة من ندمائه، وأخذ في القصف واللذات والعزف حتى منعوا أحمد الوِردَ ونغصوا عليه التهجد، فاطلع عليهم وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾، فرفع عبد الصمد رأسه وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

قلت: وعلى ذكر الغرفة فما ألطف ما ذكره علاء الدين الوداعي في تذكرته، قال: رأيت مكتوبًا على غرفة يُصعد منها إلى سطحِ قبة الصخرة المقدسة قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾، فعجبت من اتفاقها وكأني لم أسمعها، ورأيت أيضًا في طاقة زجاج بقبر طالوت عليه السلام بسفح قاسيون قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهذا من عجيب ما يُكتب على طاقة زجاج.

نادرة

كان بعضهم في دار بكِراء، فقال لصاحبها: اعمر لي السقف، فإنه يتفرقع إذا مشينا عليه! فقال: لا بأس عليك، فإنه يسبِّح الله. فقال: أخشى أن تدركه الرقة فيسجد.

وطلب بعضهم دارًا للكراء فدلُّوه على دار، فدخل غيرها فوجد واحدًا ينيك أمردَ، فاستحيى وقال: عندكم دار للكراء؟ فقال له: ما أحمقك! نحن من الضيق على بعضنا بعض.

وكان بعض النحويين له مال كثير وليس له سكن يأوي إليه فقيل له: ابنِ بيتًا. فقال: والله، لا بنيت ما اتفق النحويون على إعرابه!

ومما قاله المرحوم القاضي فتح الدين بن الشهيد، وكتبه على عمارة له:

بنيتُ على وقف المكارم والعلا ... فللفتح أبوابي وصدريَ للضمِّ

سنا الملك يبدو في موشح زينتي ... ومن أجل ذا دار الطراز على كمي

ومما كتبه على رفرف قوله:

رفعت كما شاء الترفه رفرفًا ... أزيِّن سمائي بل أزين سماحي

فلا بدع أن الناس يهوون بهجتي ... ويمشون في ظلي وتحت جناحي

الباب الثاني

في إحكام وضعه وسَعة بنائه وبقاء الشرف والذكر ببقائه

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه أن سعدًا وأصحابه بنوا بالمدر كتب: أكره لكم البنيان بالمدر؛ فأما إن فعلتم فعرِّضوا الحيطان وأطيلوا السُّمك، وقاربوا بين الخشب.

ولما بنى معاوية داره بدمشق باللبن دخلها وفد الروم فقالوا: ما أحسن ما بناها للعصافير! فهدمها وبناها بالحجر.

ورأى بعضهم رجلًا قد بنى حائطًا بالحجر وهو يبيِّضه فقال: هذا يستر الذهب بالفضة!

وحكي أن يحيى بن خالد كان جالسًا للقصص، فرفعت إليه قصة متظلم من بعض عمَّاله فقربه وسأله عن ظلامته، فقال له: إن عاملك فلانًا ظلمني وأخذ مالي واغتصب ضيعتي وهدم شرفي. فقال له: فهمت جميع ما ذكرته إلا قولك: هدم شرفي، فما معناه؟ فقال له: أنا من أبناء فارس، كانت لي ضيعة وبالقرب منها قصر على الطريق، فيه سقاية ينزلها الناس ويسقون منها، ويذكرون بانيها، ويترحمون عليه، فغصبني الضيعة وهدم القصر. فأمر يحيى بالكتابة إلى العامل أن: ترد عليه ضيعته وجميع ما أخذته منه، وتبني القصر حتى ترده على هيئته كما كان. وقال لبنيه: ابنوا، فإن الذكر والشرف باقيان ببقاء البنيان.

وقيل لأبي الدهمان: أين دارك؟ فقال: إذا دخلت سكة بني العنبر فالدار التي تدل على شرف أهلها داري.

وعلى ذكر السؤال، فما أحسن ما ذكره ابن رشيق في الأنموذج أن عبد الرحمن بن محمد الفراسي جلس مع بعض شيوخ تونس، وكان الشيخ نهايةً في المجون، فاجتاز بهم رجل يسأل عن دار ابن عبدون، فأقبل الشيخ عليه فقال: هي في تلك الربعة حيث يقوم أيرك. فقال الفراسي: لأنظمنَّه، فما رأيت مثل هذا المعنى! وأنشد من وقته:

إن شئت أن تعرف عن صحةٍ دارَ التي تعزى لعبدونَهْ
فامشِ فإنْ أيرَكَ أبْصَرْتَه قامَ فإنَّ الباب من دونهْ

وقد عكس صلاح الدين الصفدي هذا المعنى فقال، ومن خطه نقلت:

أقول لمن يسائل عن محلِّي: تقدَّم وامشِ من خلف السوارِ
ومرَّ فحيثما تلقى حِكاكًا بسُرمك لا تَعدُ فثمَّ داري

رجع

خرَّج الخطيب الحافظ أبو بكر في تاريخه، قال: لما بنى المهدي قصره بالرصافة دخل يطوف فيه ومعه أبو البختري وهب بن وهب، فقال له: هل تروي في هذا شيئًا؟ قال: نعم، حدثني جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ صحونكم ما سافرت فيه أبصاركم».

وقال المأمون يومًا لجلسائه: أتدرون من أهنأ الناس عيشًا؟ فقالوا: أمير المؤمنين. قال: لا. قالوا: فأمير المؤمنين أعلم. فقال: أهنأ الناس عيشًا رجلٌ له دار قوراء، وامرأة حسناء، وكفاف من العيش، لا يعرفنا ولا نعرفه.

قال سلمة الأحمر: دخلت على الرشيد في قصره الذي بناه فقلت:

أمَّا بيوتك في الدنيا فواسعةٌ فليتَ قبرك بعد الموت يتَّسع

فجعل يبكي.

وقيل: إن خالد بن الوليد رضي الله عنه شكا إلى النبي ﷺ ضيق مسكنه، فقال: «ارفع البناء، وسل الله السَّعة».

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر وقد همَّ ببناء دار: استوسِع، فإن الهمَّة في السَّعة.

سُئِل بعضهم: ما الغنى؟ فقال: سعة البيوت، ودوام القوت.

وقال بعضهم: طيب المساكن بثلاثة: سعة الصحن، وخرير الماء، وشيء من الخضرة.

وقال يحيى بن خالد: الدنيا ثمانية: الطعام الطيب، والماء البارد، والثوب اللّيِّن، والفراش الوطيء، والدار الواسعة، والمرأة الموافقة، والخادم الفاره، والقدرة على الإخوان بالإحسان.

وكان يقال: جنة الرجل داره.

وذكرَ الأحنفُ الدورَ فقال: ليكن أول ما يشترى، وآخر ما يباع.

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر: دارك قميصك، توسعه كيف شئت.

وقيل لبعضهم: ما السرور؟ فقال: دار قوراء، وامرأة حسناء، وفرس مرتبط بالفناء.

وينشد:

ومِنَ المروءةِ للفتى ما عاش دارٌ فاخرةْ
فاقنعْ من الدنيا بها واعملْ لدارِ الآخرةْ

وكان يقال: دار الرجل عشه وفيها عيشه.

قال السلامي في كتابه نتف الطرف: الدور للناس كالأعشَّة للطير، والأوجرة للوحش، والحجرة للحشرات، فدار الرجل جمال نفسه، وموضع أمنه، ومسكن قلبه، ومجمع أهله، ومحرز ملكه، ومأنس ضيفه، وملتقى صديقه وعدوه، ولا شيء أصعب على الناس من الخروج من ديارهم. وقد قرن الله سبحانه وتعالى الخروج منها بالقتل حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

وقال أحد الأشراف لابنه: يا بني، أحسن أثرك في هذه الدنيا بالبناء الحسن، واسمع قول الشاعر:

ليس الفتى بالذي لا يُستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار

ولا تنس قول الآخر:

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ومن أحسن ما قيل في بناء الملوك قول علي بن الجهم:

وما زلت أسمع أن الملو ك تبني على قدر أخطارها

فلما رأيت بناء الإمام رأيت الخلافة في دارها

حكي أن أبا العيناء دخل على المتوكل في قصره فقال له: كيف ترى دارنا هذه؟ فقال: الناس بنوا دورهم في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك.

أخذه اليزيدي فقال:

لما بنى الناس في دنياك دورَهم بنيت في دارك الغرَّاء دنياها
فلو رضيتَ مكانَ البسط أعينَنا لم يبقَ عين لنا إلا فرشناها

الباب الثالث

في اختيار الجار

والصبر على أذاه وحسن الجوار

قيل: الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق.

وقيل لبعضهم: أين معك في القرآن: الجار قبل الدار؟ فقال: قوله تعالى: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾.

وقال ﷺ: «من أشراط الساعة سوء الجار».

وقال: نعوذ بالله من ثلاث هن القوافر: إمام السوء إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر؛ ومن جار السوء إن رأى حسنًا ستره، وإن رأى قبيحًا أذاعه؛ ومن سوء امرأة إن غِبتَ عنها خانتك، وإن دخلت عليها سبَّتك.

حكى أبو السعادات بن الشجري في شرح الحماسة أن العباس بن الفرج الرياشي قال: وفد زياد الأعجم على حبيب بن المهلب وهو بخراسان، فبينما هما يشربان ذات عشيَّة إذ سمع زياد صوت حمامة تغني على شجرة في دار حبيب فقال:

تغنَّيْ أنتِ في ذِممي وعهدي ... بأن لا يذعروك ولا تضاري
إذا غنيتني وشربتُ كأسًا ... ذكرت أحبَّتي وذكرت داري
فإمَّا يقتلوك أخذتُ ثأرًا ... لأنك في حماي وفي جواري

فأخذ حبيب سهمًا فرماها فأنفذها، فقال زياد: قتلت جاري، بيني وبينك المهلب! فاختصما إليه فقال المهلب أبو أمامة: لا يروع جاره، وقد ألزمتك العقل ألف دينار. فدفعها إليه من يومه.

ولما بنى كسرى إيوانه كانت بجواره دويرة لعجوز لا يكمل تربيع الإيوان إلا بها، فدفع لها جملة من المال فقالت: لا أبيع جوار الملك بملئها ذهبًا، ولا أخرج عن جواره طائعة، فإن غصبني إياها فهو قادر على ذلك. فعلم كسرى بذلك، فقال: تُترَك ويبنى الإيوان. فقيل: لا يجيء مستحكم التربيع. فقال: يبنى على ما اتفق. وكان فيه عوج، فكان بعد ذلك يقال له: ما أحسن بناء هذا الإيوان لولا هذا العوج! فيقول: بهذا العوج تمَّ حسنه.

قلت: وعلى ذكر الإيوان، فما أحسن ما أنشدني من لفظه لنفسه إجازةً الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله تعالى، أحجية كتب بها إلى الشيخ صلاح الدين الصفدي تغمده الله بالرحمة:

يا مَن له الطول في المعالي ... وبالمعاني لنا يبصر
إنِّي كما قلت في سؤالي ... ما مثل قولي نعم مقصر

رجع

وكان لابن المقفع بجنب داره دار، وكان يستامها من صاحبها، وهو يمتنع من بيعها، فاتفق أنه ركبه دَيْن فاحتاج إلى بيعها، فعُرِضت عليه، فسأل عن سبب بيعه إيَّاها بعد غبطته بها فأخبره بقصته، فقال: ما قمت إذًا بحرمة الجار إن اشتريتها وقد باعها معدمًا. فحمل إليه ثمن الدار وقال: أبقِ دارك عليك، بارك الله لك فيها وردَّ هذا في دينك.

وقال الأصمعي: رأى بعضهم عدي بن حاتم الطائي يفتُّ للنمل خبزًا بفناء داره، فقال له: يا أبا طريف، ما تصنع؟ فقال: جاراتٌ ولهنَّ حرمة.

قلت: وعلى ذكر حاتم الطائي، ذكرت ما أنشدنيه سيدي الجناب المجدي فضل الله ابن المرحوم الصاحب الفاضل فخر الدين عبد الرحيم بن مكانس سلمه الله تعالى، قال: أنشدني والدي من لفظه قال: أنشدني صاحبنا الشيخ شمس الدين الواسطي لنفسه مواليًا:

ما مِتُّ حتى جفاني كلُّ مَن في الحي ... وملَّني وقلاني كل من لو شي
وأنت ما في العجم والعرب مثلك حي ... يا من طوى بالمكارم ذكر حاتم طي

قلت: وأنشدني من لفظه لنفسه الصاحب المرحوم فخر الدين بن مكانس من قصيدة، وذلك بمنزله بقنطرة قدادار بتاريخ عاشر صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة:

وكم طربت لما أُبديه من ملح يصبو له كل ذي عقل وآراءِ
وجدت بالتبر من مالي ومن أدبي فكنت في كلِّ حالٍ منهما الطائي

رجع لما كنا بصدده

وقال محمد بن عبد الرحمن الزهري: كانت بيني وبين أبي العباس ثعلب مودة أكيدة، وكنت أستشيره في أموري، فجئت يومًا أشاوره في الانتقال من دار إلى أخرى لِتَأَذِّينا بالجوار، فقال: يا أبا محمد، العرب تقول: صبرك على أذى من تعرفه خير لك من استحداث ما لا تعرفه.

ومن غريب الاتفاق أن بشار بن برد كان قد حلف أنه لا يجاور حماد عجرد ولا يظله وإياه سقف بيت ولا مسجد، وأنه يهجوه بألف قصيدة، فاتفق أنْ مات حماد في قرية من سواد البصرة وعرضت لبشار هناك حاجة، فمات فيها ودفن إلى جانب حماد عجرد.

وقريبٌ من هذه الحكاية ما حكي أن روحَ بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان واليًا على السِّند وأخوه يزيد واليًا على إفريقية، فتوفيَّ بها في سنة سبعين ومائة بالقيروان، فقال أهل المدينة، أعني إفريقية: ما أبعد ما يكون بين قبرَيْ هذين الأخوين، فإن أخاه بالسند وهذا هنا. فاتفق أن الرشيد عزل روحًا عن السند وسيَّره إلى موضع أخيه يزيد، فدخل إلى إفريقية، فلم يزل واليًا بها إلى أن مات ودفن مع أخيه في قبر واحد، فعجب الناس من غريب هذا الاتفاق.

عود

وكان لأبي حنيفة جار إسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع، فإذا جنَّ الليل رجع إلى منزله بلحمٍ أو سمك، فيطبخ اللحم أو يشوي السمك، فإذا دبَّ فيه السُّكْر أنشد:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

فلا يزال يشرب ويردد البيت إلى أن يغلبه السُّكْر وينام، وكان أبو حنيفة يصلي الليل كله ويسمع جلبته وإنشاده، ففقد صوته ليالٍ فسأل عنه، فقيل: أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس، فصلى

صلاة الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الأمير، فقال: ائذنوا له وأقبلوا به راكبًا حتى يطأ البساط. ففعل ذلك به، فوسَّع له الأمير في مجلسه وقال: ما حاجتك؟ فقال: لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال فتأمر بتخليته. فقال: نعم، وكل من أخِذ من تلك الليلة إلى يومنا هذا. ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة رحمه الله تعالى وتبعه جاره الإسكاف، فلما وصل إلى داره قال له أبو حنيفة: أترانا أضعناك؟ فقال: لا، بل حفظتَ ورعيت، جزاك الله خيرًا عن صحبة الجوار ورعاية الحق، ولله عليَّ أن لا أشرب خمرًا أبدًا! فتاب ولم يعد إلى ما كان عليه.

قلت: وقد ضمن هذا البيتَ الشيخ برهان الدين القيراطي تضمينًا حسنًا فقال:

دعاني منيتي لكريه راحٍ ورشف الثغر منه عُقَيبَ سُكْر
فقلت له: دعوتَ فتًى يُرجَّى ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

ونقلت من المستجاد في فعلات الأجواد: عرض محمد بن الجهم دارًا بخمسين ألف درهم، فلمَّا حضروا ليشتروا قال: بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص؟ وكان بجواره، فقالوا: وإن الجوار ليباع؟! فقال: وكيف لا يباع ويفرد بثمن وهو جوار مَن إذا سألته أعطاك، وإن سكتَّ ابتدأك، وإن أسأت أحسن. فبلغ ذلك سعيدًا فوجَّه إليه بمائة ألف درهم وقال: أمسك عليك دارك.

وعلى ذكر الجار فما أحسن قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

بروحي جيرةٌ أبقَوا دموعي وقد رحلوا بقلبي واصطباري
كأنَّا للمجاورة اقتسمنا فقلبي جارهم والدمع جاري

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب وقد انتقل النيل السعيد عن بَرِّ مصر إلى البر الغربي شط الجيزة:

يا أيُّها السلطان إنَّ النِّيلَ عن مصرٍ تنقَّل بعد طول جِوار
فاحفظْ لنا جَريانه وجِوارَه فالله قد أوصى بحفظِ الجار

وأنشدني سيدي وأخي الجناب المجدي فضل الله بن مكانس — أبقاه الله تعالى — من موشحة لنفسه:

أجريت ما بين دموعي الغزار مثل البحار

ولـم يَـدَعْ لـي طولَ دهـري قـرار

هـجـر حـبـيـبـي وهـو مـنـي قـريـب مـع الـرقـيـب

قـد صـــيَّرانـي بـين قـومـي غـريـب دأبي النحيـب

فـآه مـن جـورك يـا ذا الـحـبـيـب على الكئيـب

ومـا احـتـيـالـي فـي قـريـب الـديـار نـائـي المـزار

وهو على الحـالين يـا قلـبُ جـار

رجع إلى ما كنا فيه

كان أبو سفيان إذا نزل به جار قال له: يا هذا، إنك قد اخترتني جارًا، واخترت داري دارًا، فجناية يدك على دونك، وإن جنيتُ عليك فاحتكم حكم الصبي على أهله.

وذكر ابن الجوزي في كتاب الأذكياء: قال رجل: يا رسول الله، إن لي جارًا يؤذيني. قال: انطلقْ وأخرج متاعك إلى الطريق. فانطلقَ فأخرج متاعه، فاجتمع الناس إليه فقالوا: ما شأنك؟ قال: لي جار يؤذيني. فجعلوا يقولون: اللهم العنْه، اللهم أخزه، اللهم أخرجه. فبلغه ذلك فأتاه فقال: ارجع إلى بيتك، فوالله لا أوذيك بعدها. وهذه من الحيل التي أباحها الشرع. وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده.

وورد أن أبا مسلم الخراساني صاحب الدعوة عُرِض عليه فَرَس سابق، فقال لأصحابه: لما يصلح هذا الفرس؟ فقالوا: ليوم الحرب. فقال: كلا، ولكن ليُهرَب عليه من جار السوء.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث كنَّ في الجاهلية، الإسلام أولى بها: كان الرجل منهم إذا نزل به ضيف سعى له أهلُ البيت — كبيرهم وصغيرهم — حتى ينقلب وهو راضٍ، وكان الرجل منهم إذا طال ثواء امرأته معه كره طلاقها لئلَّا تذِلَّ بعده، وكان الرجل إذا جنى جارُه جريرةً باع فيها — ولو ولده — حتى ينقذ جاره».

الباب الرابع

في الباب

الباب يُجمع على أبواب، وقد قالوا فيه: أبوبة، للازدواج. قال الشاعر:

هَتَّاكُ أخبيةٍ ولَّاجُ أبوبةٍ ولو أفردوه لم يجر

وقيل: أبواب مبوَّبة، كما قيل: أصناف مصنفة.

ولبعضهم فيما يكتب عليه:

لُذْ بِذا البابِ كلَّما خِفْتَ ضيقَ المناهج
فهو باب مجرَّب لقضاء الحوائج

وأنشد الأصمعي في أبيات المعاني قول بعض العرب:

وذي رجلين لا يمشي عليها ولكن في القيام له صلاح
فندفعه إذا احتجنا إليه ونجذبه إذا حان الرواح

وقال الحاتمي في بابٍ بمصراعين:

عجبت لمحرومَيْن من كل لذَّة يبيتان طولَ الليل يعتنقان
إذا أمسيا كانا على الناس مرصدًا وعند طلوع الفجر يفترقان

وقال الشيخ شمس الدين بن دانيال:

قل للوزير محمد بن محمد: يا مَن هو المسك الذكي لمن درج

أنــت الــذي دارُ الســـــعــادة داره طـولَ الـزمـان وبـابـه بـاب الـفـرج

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

بشِّـــرْ أمير المعـالي بـاتصـــــالِ هَنـا يحفُّه الســَّـعـد من أقصـــى جوانبـه
واكتـب على بـابـه الغربي معتمـدًا عــزٌّ يــدوم وإقــبــال لصـــــاحـبـه

وقال:

أيـا دارُ دارَ الـيُـمْـنُ من كـل وجـهـة عـلـيـكِ ولا زال الـهـنـا لـك يُـجـلـب
ولا عــدم الــقصـــــَّــادُ بــابـك إنــه لنجح الرجـا بـاب صـــحيح مجرَّب

قلت: قوله صحيح على غير طائل، وصاحب الذوق السليم يشهد، والمعنى يقدَّم.

ولمؤلف الكتاب في الخواجا شمس الدين بن المزلق عند سكنه بستانه الموسوم ببستان ابن العز مضمِّنًا:

لـيَـهـنِـكَ عـزًّا قـد حـويـتَ بـمـنـزل غـدا بـابُـه لـلـرزق بـابٌ مـجـرَّب
وذاك مـكـان أنـبـت الـعـز أرضـــــه وكـل مـكـانٍ يـنـبـت الـعـز طـيِّب

ابن نباتة:

يـا زائري قـاضـــي القضـــــاة ليَهنِكم مـا صـــحَّح التجريـب من أبوابـه
أقســـمـتُ مـا الـحجر المكرم للغنى إلا الــذي تـغشـــون مـن أعـتـابـه

وقال:

يـا مـالـكًـا تَقصـــُـر عن وصـــفـه بــدائــعُ الشـــــاعــر والــكــاتــب
فــي بـابـك الـعـلـم وفـيـض الـنـدى فــلا خــلا بــابـك مــن طــالــب

وقال ناصر الدين ابن النقيب في المجون:

قــال لــي الــخـارج: صـــِـفْ لـي مــثــلــمــا أعــرف وصـــــفـك
أيــن بــاب الــخــرق قــل لــي قــلــت: بــاب الــخــرق خــلــفـك

وعلى ذكر الخرق فلا بأس بإيراد نبذة مما قيل في باب زويلة، فمن ذلك قول إبراهيم المعمار:

زويلة بابك هذا سفيه　　　يشرب ماء الخمر جهرًا بفيه
ولم يزل يألف سفك الدما　　　وكل ما يقطعه الشرع فيه

وله فيه:

حاذِرْ زويلةَ إن مررتَ ببابها　　　وطعامُها كُن آيسًا مِن خيره
فموسط القتلى يقول به: انظروا　　　من لمْ يَمُتْ بالسيف مات بغيره

وقال شهاب الدين بن أبي حجلة:

برَّت زويلةُ إذ أمسى يقول لنا　　　بابٌ لها قولَ صدقٍ غيرِ مكذوب
إذا وعدت حراميًّا بسفك دمٍ　　　في الحال علق من وعدي بعُرقوب

وقال الشيخ شمس الدين الضفدع فيما يُكتَب على الباب:

من ذا الذي ينكر فضلي وقد　　　فزت من الحسن بمعنًى غريب
عندي لمن يخذله دهرُه　　　نصرٌ من الله وفتح قريب

وقال إبراهيم المعمار:

يا من بباب علاه　　　العيش للناس طابا
أرسلت مدحي غلامًا　　　إليك يخدم بابا

وما أظرف قول من قال وإن كان من غير ما نحن فيه:

لا تحسبه لك وحدك، إن كنت راقدًا فانتبه، كما فتحتَ الطاقة غيرك يسدُّ الباب.

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ملغِّزًا فيه:

أي شيء تراه في الدور والكتب　　　مجازًا هذا وذاك محقق
يحفظ المال والحريم ولوْ　　　لاه حفيظًا لكان ذلك يُسرق

هـو زوج وتـارةً هـو فـرد ... وهـو فـي أكـثـر الأحـايـين يـطـرق
وطـلـيـق فـي نشـأتَـيْـه ولـكـن ... بـحـديـد مـن بـعـد ذلـك يـوثـق
وثـلاثًـا تـراه فـي الـخـطِّ لـكـن ... هـو اثـنـان كـلـه إن يـفـرق
وتـراه لـلـحشـو يـنسـب حـيـنًا ... وهـو مـع ذلـك لا يُرى يـتـزنـدق
وهـو فـي الـقـلـب يسـتـوي وتـراه ... بـان تصـفـيـحـه لمـن يـتـرمَّق
فـأجـبـنـي عـنـه بـقـيـتَ مُطـاعًا ... لسـتَ في حلبة الفضـائل تُسـبَق

كتب الشيخ شرف الدين عبد العزيز الحموي المعروف بشيخ الشيوخ إلى والده ملغزًا:

مـا واقـفٌ فـي المـخـرج ... يـذهـب طـورًا ويـجـي
لسـتَ تـخـاف شـره ... مـا لـم يـكـن بِـمُـرْتَـجِ

فكتب إليه والده الجواب:

ذهاب ومجيء، وخوف شر، هذا باب خصومة؛ والسلام.

وكتب الأديب نصر الدين الحمامي إلى السراج الوراق، وكان السراج يسكن بالروضة:

كم قـد ترددتُ لـلـبـاب الـكـريـم لـكـي ... أبـلَّ شـوقي وأحيي ميْت أشـعـاري
وأنـثـنـي خـائـبًـا فـيـمـا أؤمـلـه ... وأنـت في روضـةٍ والقلـب في نـار

فكتب الجواب إليه:

الآن نـزَّهـتـنـي فـي روضـة عـبـقـت ... أنـفـاسـُـهـا بـين أزهـار وأثـمـارِ
أسـكرتني بشـذاهـا فـانثنيتُ بهـا ... وكـلُّ بـيـت أراه بـيـتُ خـمَّـار
ولا تغـالط فمن فينـا السـراج ومن ... أولـى بـأن قـال: إن الـقـلـب فـي نـار

وقال الصاحب جمال الدين ابن مطروح في قصيدةٍ يمدح بها الملك الأشرف مظفر الدين موسى:

مـا كـان أشـوقـنـي لِـلَـثـمِ بَـنـانـه ... ولـقـد ظـفـرت بـلـثـمـهـا فـلِيَـهـنِـنـي
ودخـلـتُ مـن أبـوابـه فـي جـنـةٍ ... يـا لـيـتَ قـومـي يـعـلـمـون بـأنـنـي

وقال علاء الدين الوداعي:

مَن أمَّ بـابـك لـمْ تـبـرح جـوارحـه ... تروي أحـاديـث مـا أوليـت من مِنَنِ
فـالعين عن قرَّة والكفُّ عن صـلـةٍ ... والقلب عن جابرٍ والسـمع عن حَسَـن

قلت: أما قرة، فهو قرة بن خالد السدوسي، وهو ثقة، روى عن الحسن وابن سيرين وليس بتابعي؛ وأما صلة، فهو صلة بن أشيم العدوي، كان من عباد التابعين وهو زوج معاذة العدوية، وهي تروي عن عائشة رضي الله عنها؛ وأما جابر، فهو جابر بن عبد الله، كان صاحب رسول الله ﷺ، وليس هو جابر الجعفي، لأن جابر الجعفي ضعيف، وهو تابعي، وإنما ضعفوه لأنه كان يؤمن بالرجعة؛ وأما حسن، فهو حسن البصري كان تابعيًّا كبيرًا، رأى من أصحاب النبي ﷺ نحو ثلاثمائة رجل. ولقد أجاد علاء الدين في استعمال هؤلاء الرجال في أوصاف الممدوح ودلَّ على جودة اطِّلاعه على أسماء رجال الحديث، رحمه الله تعالى.

وأنشدني سيدي وأخي تقيُّ الدين أبو بكر بن حجة الحموي — سلمه الله تعالى — لنفسه الكريمة إجازة من قصيدة:

قصـدتُ بـاب الـحـبـيـب والـرُّقَـبـا ... عـلـيَّ مـن خـيـفـة الـلـقـا حـنـقـةْ
قـالـوا: فـمـا تـبـتـغـي فـقـلـت لـهـم ... حتى تخلصـت: أبتغي صـدقـةْ

والشيء يذكر بلوازمه، ما ألطف وأبلغ ما ذكره ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب الأندلسي في ترجمة شهاب الدين بن رضوان الغرناطي أبو جعفر في تاريخه المسمَّى بالإحاطة وذكر أن وفاته سنة ثلاثٍ وستين وسبعمائة:

يـا مـن اخـتـار فـؤادي مسـكـنًا ... بـابـه الـعـين الـتـي تـرمـقـه
فـتـح الـبـاب سـهـادي بـعـدكـم ... فـابـعـثـوا لـي طـيـفـكـم يـغـلـقـه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة: إي والله، تخلى الشباب، وخمد ذلك الذهن اللَّهَّاب، وخلا الفكر الحائم من صوب والفهم الخادم من صواب، وأقصر عن نظمه ونثره من كانت له في الإنشاء نشأة وكان له في الشعر أسباب، وغضَّ بصر القريحة وتقاصر ذيلها فما يرفع لها ولا تجر أهداب، واختبأ لسان المنشئ المنشد عجزًا، وأغلق عليه من شفتيه مصراعَيِ الباب.

وقال القاضي الفاضل: لا زالت الملوك ببابه وقوفًا، والأقدار له سيوفًا، والخلق له في دار الدنيا ضيوفًا، ودَين دين الحق يعلم الناس أنه إذا جرد سيوفًا سيوفًا.

ومن نثره: كل لفظة موصولة بأنَّة، وفي كل قلب من حربه نار وفي كل دار من فضله جنة، فروَّح الله تلك الروح، وفتح لها أبواب الجنة فهي آخر ما ترجوه من الفتوح.

من رسالة كتبها المرحوم العلامة فتح الدين ابن الشهيد إلى بعض أصحابه، وقد طرق عليه الباب فوجده مقفلًا:

> فما هو إلَّا أن قبلت العتبة فأعتبت، وتأدت فريضة الخدمة لما وقفت وتأدبت، وأطلت قرع حلقة الباب فقال الصدى: ضربت من حديد بارد، وجئتَ وقد استقلَّ ركاب المسود والسائد، فاذكر حاجتك أبلِّغ عنك ما تقول، واسبق يُرجِع الجوابَ إليك الرسول، قلت: محب يراهم بالقلب إن عاقتِ الجوارح والجوائح، ورحت وقلت: إن جئت بجواب فَاسألْ عن سائح بن رائح، وعدت أمشي بخفي حُنَيْن.

وأصغي إلى صوت الصدى عند ذكركمُ ... فأطربُ للمعنى وأهتف بالدارِ
وأسعى بها دارًا على مروة الصفا ... أطوف بها سبعًا ولم أقضِ أوطاري
وما نافعي التَّطوافُ في دارة الحمى ... إذا لم تكن في دارة الحي أقماري

وترددت حتى كلل دمعي للطرق بالعقيق، ورمت أنفاسي النار في الدار وصاحت: الحريق!

وللقاضي الفاضل يصف الستائر:

يا طالب الجود يمِّم كعبة الكرم ... وقل: سلامٌ لها عن كعبة الحرمِ
كأنَّ أستارها روضٌ سَمَحَتْ له ... بماء بِشْرِك هذا المحرق الشبم
غيم يرز على شمس وفي يده ... غمامةٌ لقبته كاشف الغمم
سُحُبٌ تعود منه فيضَ أُنْمُلة ... والسحب إن سيِّرت دلَّت على الديم
لو لم تكن سحبًا ما كان ذيلها ... برقًا يشام إذا ما البرق لم يشم

بيض كعرضـــــك في طولٍ كطولـك في ... لمع كبشـــرك في ســـلـك حكى كلمي
فكنت كـالشــمس في ثوب النهـار بها ... لا كـالـبـدور بـأثـواب مـن الـظُّلَم
أظهرت عـدلـك فيهـا فـهي معجزة ... الأُســـْد مـا وثبـت والـريم لـم يـرم
قـرب ســـانحـة فـيـه وســـارحـة ... فـأعجب لضـــدين في بحر من الكرم
تـهيم بـالصـــيد آمـالي إذا نـظرْ ... تُ فيها فـأذكر منعَ الصـيد في الحَرَم
كـأنَّ أحـداقنـا تـرعى الحـدائق من ... جـنَّـات عَـدْنٍ وعـدل دائـم قـدم
أقـاح روض كـأن الـورد فـروزه ... فـيـا لـجـريـة مـاء كف بـالضـرم
والطير في شـــجرات الرقم عـاكفـة ... ونَبَتْ عنـهـنَّ فـي الـتـغـريـد والـنـغـم
إن لـم يـكـن ثـمـر فـيـهـا فـفـي يـده ... ثمـار جود زَهَت في روضـــة الشـيم
يـودُّ مـا مـثَّـلـوه فـيـه مـن صـــور ... لو أنها اســتخدمت في جملة الخدم
تلـك الســتور عجـاج والنجوم لهـا ... عُرًى وأيـدي الظُّبـا فـي وزنـهـا بـدم
أظـنُّ بـابـك خـدًّا غُـرتُ مـن قـبـل ... علـيـه حتـى منـعـت اللَّثْمَ بـاللـثم
إذا رأيـت بـهـا الأعـلام مشـــرقـة ... رأيـت أشــهـر مـن نـارٍ عـلـى عـلـم
مثـل الســراب ووقـت القيظ بيضـــها ... لـكـن وردتُ بـعـيـنـي حـين هـمَّ فـمـي

وللمولى السيد شمس الدين القاسم بن الصاحب موفق الدين علي بن الآمدي، نقلته من خط الوداعي:

ومشـــعـل قـام فـي خشـــوع ... كـراهـبٍ شـــقَّ عـنـه جـيـبـا
قـد فـنـي الـجســم مـنـه ســقمًا ... واشـــتـعـل الـرأس مـنـه شـــيـبـا

وورَدَ على سيدنا ومولانا المرحوم القاضي أمين الدين محمد الأنصاري صاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروسة كتابٌ من سيدنا ومولانا أوحد العصر القاضي بدر الدين محمد المخزومي المالكي الشهير بابن الدماميني، أنفذ الله أحكامه، وذلك من مكة المشرفة بتاريخ التاسع والعشرين من شهر الله المحرم سنة إحدى وثمانمائة، جاء منه: ويُنهي أنه سطرها بمنًى وقد سالت بأعناق البدن الأباطح، ووقفت الجزر تؤمل سعد الأخبية فما طلع لها غير سعد الذابح، وقد برد الصدر المحرور برمي الجمار،

وقرَّت العيون برؤية تلك الآثار، وقرع المملوك باب الرحمة عند وصوله إلى البيت الشريف، وقال للزمن: تنكر ما شئت فقد حصل التعريف.

وذكر صاحب المباهج أن ستر إيوان كسرى أحرِق لما ملك المسلمون المدائن، فأخرج منه ألف ألف مثقالٍ ذهبًا، وقيل: مائة ألف مثقال.

وطرق رجل على عمرو بن عبيد الباب، فقال: من هذا؟ فقال: أنا. قال: لست أعرف أحدًا من إخواننا اسمه أنا!

وأخرج البخاري من طريق جابر رضي الله عنه، قال: استأذنت على النبي ﷺ فقال: «من هذا؟»، فقلت: أنا. فقال: «أنا! أنا!»، كأنه كرهها.

وأنشدني الشيخ شمس الدين الجرائحي لنفسه فيما يكتب على الستر:

أنا الستر المجمَّل بالـ ... ـبَها والعزِّ والنصر
فلُذْ بي إن تجد ضيمًا ... وقل: يا مجمل الستر

الباب الخامس

في ذمِّ الحُجَّاب

خالد بن عبيد الله القشيري، كان يقول لحاجبه: إذا جلستُ فلا يُحْجَبَنَّ عليَّ أحدٌ، فإنما الوالي يحتجب لثلاث: شرٍّ يكره أن يطَّلع عليه غيره، أو ريبة يخاف انتشارها، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئًا.

ووقف رجل على باب أبي دلف فأقام به حينًا لا يصل إليه، فتلطف في رقعة أوصلها إليه وكتب فيها:

إذا كان الكريم له حجاب … فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه:

إذا كان الكريم قليلَ مالٍ … ولم يُعذَرْ تعلَّل بالحجاب

وأبواب الملوك محجباتٌ … فلا تستكثرَنْ حُجَّاب بابي

وقال علاء الدين الوداعي يعتذر إلى بعض أصحابه:

إنْ كنتَ يا أكرمَ الصحاب … حُجِبْتَ لَمَّا طرقتَ بابي

فأنتَ قلبي ولا عجيب … إذا غدا القلب في حجاب

وقال زين الدين بن الوردي يلوم نفسه على زيارة أقوام:

وزُرتُهم صُحبةً وودًّا … لقيتهم مغلقين بابا

سعيي إلى بابهم جنونٌ … منِّي فأستأهلُ الحجابا

وقال بعض الحكماء لبعض الملوك: لا تمكِّن الناس من كثرة رؤيتهم لك، فإن أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية.

وقال آخر: كثرة الإذن مجلبة الابتذال، وهيبة الملوك في الاحتجاب.

وكان يقال: المبذول مملوك، والممنوع متبوع.

ولله در ابن المعتز وما أحسن قوله:

كما يُخْلِقُ الثوبَ الجديد ابتذالُه ... كذا تُخلق المرءَ العيونُ اللوامح

وقيل لبعض الحجاب: متى تفرغ ولايتك؟ فقال: متى حضر طعام مخدومي.

وأين هذا من قول القائل:

جُزتُ على باب صديقٍ لنا ... وبابه من دونه مُقفَلُ
وحول تلك الدار غلمانه ... قد أحدقوا بالباب واستكملوا
فقلت: ما يصنع مولاكم؟ ... قالوا: سمعنا أنه يأكل
قلت: فما يفتح مولاكم؟ ... قالوا: بلى رأس الذي يدخل

وقيل لبعضهم: هل تغديت عند فلان؟ قال: لا، ولكنني مررت ببابه وهو يتغدى. قال: فكيف علمت؟ قال: رأيت غلمانه بأيديهم قسي البندق يرمون الطير في الهواء.

وقال بعضهم:

رأيت أبا زُرارة قال يومًا ... لحاجبه وفي يده الحُسامُ:
لئن وُضِعَ الخوان ولاح شخص ... لأختطفنَّ رأسك والسلام
فقال: سوى أبيك فذاك شيخ ... بغيضٌ ليس يردعه الكلام
فقال وقام من حَنَقٍ إليه ... بقَدٍّ لم يزد فيه القيام:
أبي وأبو أبي والكلب عندي ... بمنزلةٍ إذا حضر الطعام
فما في الأرض أقبح من خوان ... عليه الخبز يحضره الزحام

وما أحسن قول القاضي الفاضل:

بتنا على حالٍ يَسرُّ الهوى وربَّما لا يمكن الشرحُ
بوَّابنا الليل فقلنا له: إن غبتَ عنَّا هجم الصبح

وله في بواب يلقب بالبحري:

وهَبْ أنَّ هذا الباب للرزق قِبْلة فها أنا وقد ولَّيتُه دونكم ظهري
وهب أنه البحر الذي يُخرج الغنى فكُل خَرًا في الشطِّ في لحية البحري

وقال كمال الدين ابن النبيه لما سمع قول الفاضل:

قلت لِلَّيل إذا حباني حبيبًا بغناء يسبي النُّهى وعُقارا:
أنت يا ليلُ حاجبي فامنع الصْـ ـصُبحَ وكن أنت يا دجى بُردَدَارا

وقال ناصر الدين بن النقيب:

ماذا على بواب دراكمُ الذي لا إذن يعطينا ولا يستأذنُ
لو ردَّنا ردًّا جميلًا عنكمُ أو كان يدفع بالتي هي أحسنُ

وللشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في غير المعنى:

يا ربُّ إنَّ النِّيل زاد زيادة أدَّت إلى هدمٍ وفرطِ تشتُّتِ
ما ضرَّه لو جَا على عاداته في دفعِه أو كان يدفع بالتي

وأنشدني الشيخ العلامة عز الدين الموصلي لنفسه:

قد سلونا عن الحبيب بخودٍ ذات وجه به الجمال تفنَّن
ورجَعنا عن التهتُّك فيه ودفعناه بالتي هي أحسن

رجع إلى ما كنا فيه

قال الناشئ الأصغر:

ليس الحجاب بآلة الأشراف إن الحجاب مجانب الإنصافِ

ولعلَّ ما يأتي فيُحجب مرة فيعود ثانيةً بقلبٍ صافِ

وقال أبو الحسين الجزَّار:

أمولاي ما من طباعي الخروج ولكن تعلمته من خمولي
وصرت لديك أروم الغنى فيخرجني الضرب عن الدخول

وألمَّ بهذا الأديب شمس الدين الضفدع فقال:

وافى إلى خدمته العبد كي يحظى بتقبيل يدٍ أو قبول
واستأذن الخادمَ في قربه منكم لأن البعد سترٌ يحول
فكاد أن يخرجه الضرب عن مغناك بالإيقاع قبل الدخول
أوحى إليه منه قولًا فما بلَّغ عنه ما يقول الرسول

ونقلت من خط فخر الدين بن مكانس للجمال ابن عبد الغني:

أتيت إلى بابك يا سيدي أهنِّئك بالعيد مع من يهنِّي
فأُخْرِجتُ من بعد ذاك الدخول وقد جئت يعني مدلًّا بأني
مغنٍّ ويخرج بعد الدخول وتأبى الطباع خروج المغني

حكي عن أبي الحسين الجزار أنه جاء إلى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فأُذِنَ للناس كلهم ولم يؤذَن له، فكتب في ورقة:

الناس قد دخلوا كالأير أجمعهم والعبد مثل الخُصَى ملقى على الباب

فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه: اخرج إلى الباب ونادِ: يا خصى، ادخل! فلما سمع أبو الحسين قول الحاجب: يا خصى، ادخل. فقال: هذا دليل على السعة.

وهذا جميعه مأخوذ من قول الآخر:

أيدخل من يشاء بغيرِ إذنٍ وكلهم كَسِيرٌ أو عوير
وأبقى من وراء الباب حتى كأني خصية وسواي أير

وقال بعض الشعراء وقد منعه بواب اسمه بصاقة من الدخول:

يا مَن سَما في المَكْرُما ... ت وفاقَ أرباب الممالكْ
اعجب لأمر بُصاقةٍ ... مَنَعَ الدخولَ لباب خالك
وَهْوَ المعين على الدخو ... ل إذا تعسَّرتِ المسالك

وقال جحظة:

ولي صاحب زرته للسلام ... فقابلني بالحِجاب الصُّراحِ
وقالوا: تغيَّبَ عن داره ... لخوفِ غريمٍ ملحٍّ وقَاحِ
ولو كان عن داره غائبًا ... لأدخلني أهلُه للنكاح

وقال آخر:

وكل خفيف الشأن يسعى مشمرًا ... إذا فتح البوَّاب بابك إصبعا
ونحن الجلوس الماكثون توقُّرًا ... حياءً إلى أن يفتح الباب أجمعا

وأنشدني صاحب الأمالي:

كم من فتًى تُحمَد أخلاقه ... ويسكن العافون في ذمتهْ
قد أكثر الحاجبُ أعداءه ... وأحقدَ الناسَ على نعمته

حكى أبو السعادات بن الشجري في شرح الحماسة أن أنس بن زنيم الهذلي وفد على عمرو بن عبد الله بن التميمي في جماعة من الشعراء فصدَّه الحاجب عن الدخول وأذن لغيره من الشعراء، فلما طال حجابه كتب إليه أبياتًا منها:

لقد كنت أسعى في هواكَ وأبتغي ... رضاك وأعصي أسرتي والأدانيا
حفاظًا وإمساكًا لما كان بيننا ... لتجزيني يومًا كما كنتَ جازيا
أراني إذا ما شَمَت منك سحابة ... لتمطرَني عادتْ عَجاجًا وسافيا
أأُقصَى ويُدنى من يقصر رأيه ... ومن ليس يغني عنك مثل غنائيا

فلما قرأ الأبيات عنَّف حاجبه، ثم أذن له وقال له: ويحك! ما هذا؟ قال: فِعلُ حاجبك وطول مقامي ببابك، وأنت تعطي من أقبل ومن أدبر. فقال: يا هذا، أشهدت معي مودَّأة هَجَر؟ قال: لا. قال: ألك من يد تضربني بها أو تستحق عليَّ ما طلبت؟ قال: نعم، كنت أجلس بين يديك وأسمع حديثك، فأنشر محاسنه وأطوي مساوئه. فقال: وأبيك، إنَّ في هذا لما يُشكَر؛ كم أقمت بالباب؟ قال: أربعين يومًا، فأمر له بأربعين ألف درهم.

ولشهاب الدين ابن أبي حجلة:

ألا قل لشمس الدين صاحبنا الذي: ... أتينا مرارًا نحو بابك بالأمس
فإن حجبتك الخِدْر عنا فربُّ ما ... رأينا جلابيب السحاب على الشمس

وقال شرف الدين بن عُنَين:

أين غلمانك المطيفون بالبغـ ... ـلة والرافعون للأثواب
ردك الدهر كالنداء على النِّيـ ... ـلِ بلا حاجب ولا بوَّاب

وعلى ذكر الحاجب، فما أحسن قول القائل في مليح قلندري:

بدا لي في حلق الحواجب فتنة ... فقلت لعقلٍ ذاهلٍ فيه ذاهب:
حبيبي بحق الله قل لي ما الذي ... دعاك إلى هذا فصرت محاربي
وعدتَ بوصل العاشقين تعطُّفًا ... فلم يثقوا فاسترهنوا قوس حاجبي

وقال السراج الورَّاق فيه:

عشقتُ من ريقته قرقفًا ... وما له إذ ذاك من شارب
قَلَندريًّا حلقوا حاجبًا ... منه كنون الخط من كاتب
سلطان حسن زاد في عدله ... فاختار أنْ يبقى بلا حاجب

وقف بعض المطابيع على باب بعض الأمراء والطعامُ قد حضر، فخرج حاجب الأمير إلى الباب فقال: أيها المطبوع، ألك حاجة؟ قال: نعم. قال: ما هي؟ فقال له: إذا دخلت فأقرئ خبز الأمير السلامَ.

وما أظرف في ذم الحاجب قول السراج الوراق:

لا نذقـــتَ ذُلَّ حـــجـــابٍ   ولا وقـــوفًـــا بـــبـــاب
فـــقـــد حـــنـــقـــتُ وقـــد قـــا   م شـــــــارب الـــــبـــــوَّاب
ورحـــتُ أجـــري وصـــــحَّـــفْ   ـــــتُ مـــوضـــعَـــين لمـــا بـــي

وقال زين بن الوردي:

يـــقـــول بـــوَّابـــه إذا رأى   بـالـبـاب مـنـي وقـفـةَ الـحـائـر:
لـه مـخـازيـم بـهـا شـــغـلـة   قـلـت: مـخـازيـمٌ بـلا آخـر

وقال السراج الوراق مضمنًا:

وقــطَّــب عــنــد دخــولــي إلــيــه   فـتـمَّ لـه الـقـبـح مـعـنًـى وصــــورة
ولـــولا الضـــــرورة مـــا زرتـــه   على الرغم مني وعند الضــــرورة

وقال جمال الدين بن نباتة:

حَجَـبـتَـنـي فـازددتَ عـنـدي عـلًا   بـرغـم مـن أقـبـل كـالـعـاتـب
وقـلـتُ: لا أعـدم مـن ســـيـدي   مـن كـان عـيـنـي فـغـدا حـاجـبـي

وقال محمد بن العفيف:

ولقـد وقفـت ضـحًى ببـابـك أرتجي   بـالـلَّـثـم لـلـعـتـبـات حـقَّ الـواجـب
وأتـيـت أطـلـب زورةً أحـظـى بـهـا   فـرُدِدتُ يـا عـيـنـي هـنـاك بـحـاجـب

وقال الشهاب فتيان الشاغوري:

وافـيـت تـهـنـئـة الأمـيـر فـلـم أجـد   لي في الـدخول ببـابـه من مســـعـد
لـم أحـظَ إلا بـالـقـيـام لمـن أتـى   فحصـــلـت منـك على المقيم المقعد

قصد جماعة من الطفيلية وليمة فقال رئيسهم: اللهمَّ لا تجعل البوَّاب لكَّازًا في الصدور، دفَّاعًا في الظهور، طرَّاحًا للقلانس، هبْ لنا رأفته، ورحمته، وبِشره، وسهِّل لنا إذنه. فلما دخلوا تلقاهم المضيف، فقال الرئيس: غُرَّة مباركة موصول بها الخَصب، معدوم بها الجدب. فلما جلسوا على الخوان قال:

جعلك الله كعصا موسى، وخوان إبراهيم، ومائدة عيسى في البركة. ثم قال لأصحابه: افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم، وابسطوا الأكفَّ، وأجيدوا اللقم، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المُتْخَمِين، واذكروا سوء المنقلب، وخيبة المضطرب، خذوا على اسم الله تعالى.

وقال زين الدين بن الوردي:

ماذا تقولون في محبٍّ   عن غيرِ أبوابكم تخلَّى
وجاءكم زائرًا عفيفًا   عن مالكم هل يجوز أم لا

وقال جمال الدين بن نباتة:

ما يقول المقام أيَّده الـ   ـلهُ ولا زال للسعود يحوز
في وليٍّ ببابكم ترك الخلـ   ـق ووافى يجوز أم لا يجوز

كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام إذا قرأ عليه الطالب وانتهى يقول: اقرأ من الباب الذي يليه ولو سطرًا، فإني لا أحب الوقوف على الأبواب.

وللنصير الحمَّامي بيتان كتبهما إلى السراج الوراق على يد غلام يدعى إبراهيم، وهما:

عبدك إبراهيم وافى بها   وفي بها معنًى لِمَن يعقلُ
وَهْوَ على الباب ومقصوده   وفيك فهم أنه يدخل

الباب السادس

في الخدم والدهليز

كان يقال: إن الخصيان ملائكة بني آدم.

وقيل لأبي العيناء: لم اتخذت غلامين أسودين خصيين؟ قال: لئلا اتَّهَمَ بهما ولا يُتَّهما بي.

وعُرض على بعض الملوك غلام صبي خصي فقال: هذا يصلح للفراش وللهراش.

وكان بعضهم يتخذ الخُدَّام الخصيان ويختار منهم البيض الحسان، فقيل له في ذلك، فقال: لأنهم بالنهار فوارس، وبالليل عرائس.

وفيهم من يقول:

ونساء لمستريح مقيم ... ورجال إن كانت الأسفار

وفيهم يقول محمد المخلوع القاهر:

مبرَّؤون من الشَّعر الكريه ومن ... حمل الأيور وأحراحِ المَناتِينِ
وهُمْ نساءٌ إذا حاولتُ خلوتهم ... وهم رجال لدى الهيجاء يحموني

وما أحسن قول الصابي في غلام أسود:

لك وجه كأنَّ يمناي خطَّتْ ... ـهُ بلفظٍ تُمِلُّهُ آمالي
فيه معنى من البدور ولكن ... نفضت صبغها عليه الليالي

وقال الزين بن جبريل المصري:

وخـادمٍ قـد حـبـاه الـقـلـبُ حـبَّـتَه ... حبًّـا لـه وكسـتـه صـبغهـا المُقَل

كـأنَّـمـا هـو فـي خـدِّ الـجـمـال لمـن ... يـراه خـال وفـي أجـفـانـه كـحـل

وقال ابن الجوزي في كتاب الأذكياء: قال أبو أحمد عبد الله بن عمر الحارثي: اجتزت ببغداد وأنا حدث مع جماعة من مُجَّان أصحاب الحديث، وإذا بخادم خصيٍّ جالس على الطريق وبين يديه أدوية ومكاحل ومباضع، وعلى رأسه مظلَّة خرق، فسألت عنه فقيل: طبيب حاذق، وهو من عجائب بغداد. فتقدم إليه شخص من الجماعة وتغاشى وتماوتَ وتمارض وقال: يا أستاذ! يا أستاذ! دفعات! فقال: أي شيء بِكي؟ أيش أصابكي؟ قولي لا شفاكِ الله! فقال: أجد ظلمة في أحشائي، ومغسًا في أطراف شعري، وما آكله اليوم يصبح غدًا مثل الجيفة، فصف لي دواء. فقال وكأنه أعدَّ الجواب: أمَّا ما تجد من المغس في أطراف شعرك، فاحلقي لحيتك ورأسك جميعًا؛ وأمَّا ظلمة أحشائك، فعلِّقي على باب حجرك قنديلًا؛ وأما الثالث فكلي خراكي واربحي النفقة.

ولإبراهيم المعمار في خادم هندي:

تـمـلَّـك قـلـبـي خـادمٌ قـد هـويـتـه ... من الهنـد معســول اللمى أهيف القَـدِّ

أقول لصـــحبي حين يرنو بلحظـه: ... خذوا حِذركم قد سَـلَّ صـارمه الهندي

وقال:

وخـادمٍ يـعـلـو عـلـى عُشــَّاقـه ... بـرتـبـة مـن الـجـمـال نـالـهـا

واســمـه من العجيب مُحســِنٌ ... وكـم دموع فـي الـهـوى أسـالـهـا

وقال دفتر خوان وأجاد:

إن لمـعـتْ لـيـلًـا نـجـومُ الســَّمـا ... بِيضـًا على أدهـمَ مـرخـي الإزارْ

وأوجـب الـعـكـس مـثـالًـا لـهـا ... في الأرض فـالســُّود نجوم النهـارْ

نادرة

قيل: إن بعض أولاد الملوك كان يعشق خادمًا يسمى دينارًا، وكان من أوحش ما يكون، فاتفق أن أُجرِيَ عنده ذكر مغنٍّ جميل، فقال: بلغني أن فلسه أسود. فقال له بعض الحاضرين: والله يا مولانا فلسه خير من دينارك. فأَخْجَلَه.

ومن ظريف ألقاب الخُدَّام ما لقبه سيدي المقر المجدي فضل الله بن مكانس — أحسن الله له العاقبة — لخدمه وهم: إشراق الدين هلال، ونظام الدين لؤلؤ، وسيف الدين فولاذ.

وأنشدني من لفظه لنفسه إجازة سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد المالكي الدماميني:

علقته خادمًا لطيفًا　　لم أصغِ فيه إلى الملامهْ
إليه قلبي انثنى وطرفي　　مذ لاح بين الأنام شامهْ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة في خادم اسمه كافور:

يا لائمي في خادمٍ لي سيِّدٍ　　قسمًا لقد زدت السلوَّ نفورا
ولقد أدرت على المسامع قهوة　　في الحب كان مزاجها كافورا

إبراهيم المعمار:

وخادمٍ قبَّلت مشروطه　　في خده لكن رأيت العَجَب
من ناعمٍ حلوٍ فناديته:　　ما أنت يا مشروط إلا رُطَب

وقال ابن نباتة أيضًا:

بروحيَ مشروط على الخد أسمر　　دنا ووفى بعد التجنب والسُّخطِ
وقال: على اللثم اشترطنا فلا تزد　　فقبَّلته ألفًا على ذلك الشرط

وقال:

أرى لصواب يا أيري صفاتٍ　　تحثُّ على الخلاعة والتَّصابي
فبادره فأنت به خبير　　ومثلك لا يُدَلُّ على صواب

وقال صلاح الدين الصفدي فيه:

إذا ما قام أَيْرُكَ في الدَّياجي وعندك من تحبُّ فلا تُحَابي
وقمْ نحوَ الطَّواشي واعتنقه فمثلك لا يُدلُّ على صواب

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

أأخشى من الأعداء واللهُ ناصري بخُدَّامِ حظٍّ إنْ دعوتُ أجابوا
فقلبي مسرورٌ وسعدي مقبل وحزبي نصرٌ والمقال صواب

قلت: وإذا ذكرنا ما ورد في مدحهم فلا بأس بإيراد نبذة من ذمهم.

قال الجاحظ: ضيق الصدور، وشدة النفور، وطول الأعمار، وقلة الاصطبار، وكبر الأقدام، واضطراب الأجسام، وإنكار الحرمة، وقلة الرحمة، وسرعة الدمعة، وابتغاء السمعة، وضجر المعدة، ولطف القيادة، واسترخاء الشرج، وقلة الخرج، وسوء الخلق، وكثرة الخرق، وشدة الحسد، وانقطاع الولد، والمشي بالنمائم، والنظر إلى المحارم، وتربية البغول، والبغض للفحول، خلاف النساء والرجال، لا يجوز به الاستحلال، ملهوس عبوس، غايته طَرَسوس، مؤاجَر في صغره، قوَّاد في كبره، إن ركب ركض، وإن مشى مرض، مختلف الرأي والعقل، متخلق بأخلاق البغل، إن لاينته جمح، وإن خاشنته رمح، وإن أجعته طمح، وإن أشبعته سلح، يبول في فراشه، إذا عمل النبيذُ في مُشاشِه، إن حرد كفر، وإن قدر قهر، مختون على غير ملة، حاذق بالهريسة والأخلَّة، إن غضب بكى، وإن رضي شكا، وإن هزل انطوى، وإن سمن التوى، معدن للمطائز، أَلوف للعجائز، إن ائتمنته خانك، وإن أكرمته هانك، وإن أهنته أكرمك، وإن أغضبته شتمك، صاحب صوارات وجلاهق، وحمام وبنادق، حاضن دجاج وفراريج، وطير ماء ودراريج، إن أمسكته خسرت، وإن بعته ربحت، وإن طردته وفِّقْت، وإن قتلته أُجِرت، صالحهم مأبون، وطالحهم ملعون، شره عتيد، وخيره بعيد، معروف، بالخلف موصوف، مسترخي البدن، طويل الحزن، بيِّنُ الموق، بادي العروق، ناتئ العرقوب، كثير العيوب، طويل الذراع، كثير النخاع، مسلوب زينة اللحى، محروم لذة النسا، يتزوج بالأبكار، ويهتك بالأستار، يابس المصانع، عاري الأشاجع، غليظ الشفاف، قليل الإنصاف، بيِّن النفاق، كثير البقباق، شَرِهٌ عند الطعام، سفيه على الأقوام، فقير ذو مال، وحيد ذو عيال، شرس حسود، حَرُون جحود، بعيد الحياء، بارد اللقاء، يلقاك بالبُكاء، إن قلت: نعم، قال: لا، وإن قلت: لا، قال: بلى، إن مُنِعَ فمن حمق، وإن أعطيَ فمن حرق، جريء

جبان، طويل الأحزان، مظلوم القُلْفة، خالي الغرفة، أقلف مختون، خائن مأبون، ترضيه اللقمة، ويُخدَع بالطعمة، أكثر الناس غُلمةً، وأقودهم في الظلمة، وأحذقه بالإجارة، وأعرفه لجارة، وأعمله لمزمار، وأنحته لمصائد الفار، وأبيعه للتكك، وأصيده للسمك، إذا أمن معلقته، غرزها في منطقته، ماؤه الدهليز، وخبزه على الإفريز، لَهِجٌ بالقمار، عليه سوء الدمار، من قلة مروءته يُدخِل الفحل على امرأته، ويجمع لها بكده، وتنفقه على ضده، لا بد له فيها من شريك، فهو يغرم وغيره ينيك، يستر عورته عن الأنام، ويبذل سوأته للطعام، يقطع الصلاة، ويمنع الزكاة، بيعه الزمارات، ونعته في الصوارات، يأكل بشدقين، وينفق بيدين، فضله محبوس، ودعاؤه منكوس.

وقال الجاحظ أيضًا: كان من ظريف ما يقصُّ القاضي عبد الأعلى قوله في الخصي: إذا قطعت خصيته قويت شهوته، وسخنت مقعدته، ولانت جلدته، وانجردت شعرته، وكثرت غلمته، واتسعت فقحته، وغزرت دمعته.

وقال غيره: من جُبَّ زُبُّهُ فقد ذهب لُبُّه.

وفي ذلك قول أبي الطيب المتنبي:

وقد كنتُ أحسب قبل الخصيِّ ... بأنَّ الرؤوس مقرُّ النُّهى
فلما نظرتُ إلى عقله ... وجدت النهى كلها في الخُصى

ونقلت من خط الوزير العلامة المفنن فخر الدين بن مكانس — سامحه الله تعالى — أنه قال: سافرت مرةً سنة إحدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدين بن قروينة — رحمه الله تعالى — إلى دمشق المحروسة، عندما تولَّى نظر مملكتها ووالدي — رحمه الله — مستوفيها، وكان له دوادار يسمى صبيح، ويلقب جودر، من عتقاء جدِّه الوزير أمين الدين بن الغنام، وكان كثير النوادر لطيف الدقَّات، فاتفق أن جمال الدين ابن الرهاوي موقع الوزارة ركب يومًا فتقنطر به الفرس وداس رأس إحليله، فحُمل إلى داره، وأقام أيامًا إلى أن عوفيَ، وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس، فقال له الصاحب فخر الدين: ما سبب تأخيرك؟ فقال له: تقنطر بي الفرس وداس رأس إحليلي وسلمت الخصى، فكدت أموت، والآن فقد لطف الله تعالى وحصل البرء والشفاء. فقال له صبيح جودر: الحمد لله على سلامة الخصى! فانقلب المجلس ضحكًا، وخجل ابن الرهاوي وانصرف.

عود إلى ما كنا فيه

وصف الجمَّاز رجلًا بالرعونة فقال: هو كالخصي يفتخر بزُبِّ مولاهُ.

قال كشاجم في خادم أسود جائر:

يـا مُشـــبـهًـا فـي فِـعـلِـه لـونَه لـم تَعـدُ مـا أوجـبَتِ لـلـقســـمـةْ
فـعـلُـكَ مـن لـونـك مســـتـخـرَجٌ والـظـلـمُ مشـــتـقٌّ مـن الـظـلـمـةْ

وقال آخر وأجاد:

جَزُّوا مَـــذاكِــرَهُ بــحــقٍّ واجــب إذ عنـدهـم علـم بخِســـَّـة أصـــلـه
لــو أنــهـم تـركـوه يـبـقـى ســـالمًا مـلأ الـبـلاد أراذلًـا مـن نســـلـه

وقال بعضهم وأصاب:

إنْ عـاينـتْ عينـاكَ ظبيًـا ســـانحًا مـع خـادمٍ يـرعـاه وهـو شـــرود
فـاقنصــــه لطفًـا بـالزِّمـام ولا تخف مـنـه نـفـورًا فـالـزمـام يـقـود

نادرة

قيل: إن بعض الرؤساء كان له خادم وعبد، فدخل يومًا فوجد العبدَ فوق الخادم، فضربه وخرج فرأى بعض أصدقائه، فسأله عن غيظه، فقال: هذا العبد النجس فعل بالخويدم الصغير. فقال له: مولانا السيد الكبير. فخجل منه وأخرجها في مجانه.

وما أظرف من قال مواليًا:

ســتِّي الكبيرة لهـا الخـدَّام والحشــمـةْ تحلف على النَّيْك بالمصـــحف وبالختمةْ
جاها الطواشــي أفشــخت لو ناك من كلمة راحـت يمـين الـقـواقـيـة عـلـى قَـرَمـة

وقال إبراهيم المعمار:

وإن مـن الـخـدام مـن لـيـس يـرتـجـى مـكـارمـه فـالـبـعـد مـنـهـم غـنـائـمُ

فلا تكُ ممَّن يتَّهمهم بحشمة		فليس لهم بين الرجال محاشم

أهدى بعض عمال مروان بن محمد الجعدي الأموي لمروان عبدًا أسودَ فقال لكاتبه عبد الحميد: اكتب إلى هذا العامل كتابًا مختصرًا وذمه على ما فعل. فكتب إليه: لو وجدت لونًا أشرَّ من السواد وعددًا أقل من الواحد لأهديته، والسلام.

وما أحسن ما ورد في ذم السواد: لا يُحرَّم فيه مُحرَّمٌ، ولا يكفن فيه ميت، ولا تجلى فيه عروس.

وما أظرف قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

كان لي عبد يسمى فرجًا		نصبَ الغيرُ عليه الشبكا

فأنا الآن كما تبصرني		ليس عندي فرج إلا البكا

القول في الدهليز

الدِّهليز (بكسر الدال) فارسي معرب، والجمع الدهاليز، وهو بين الباب والدار، وأحسن ما فيه:

ودِهليزِ دارٍ فيه للعين بهجة		وللنفس فيه للذاذةٍ أوطارُ

إذا داخلٌ لم يختبر ما وراءه		توهمه من حسنه أنه الدار

وقال يحيى بن خالد: ينبغي للإنسان أن يتأنَّق في دهليزه، لأنه وجه الدار، ومنزل الضيف، ومجلس الصديق حتى يؤذن له، وموضع المعلم، ومقيل الخدم، ومنتهى حد المستأذن.

وقال بعضهم: إذا كَمُلَ للإنسان في داره حُسْنُ ثلاثة مواضع، لم يبالِ بما فاته منها، وذكر من جملتها الدهليز.

وللشيخ برهان الدين القيراطي فيه:

أكرِمْ بدهليزٍ سما		فإذا الكواكب من رفاقه

دهليز مولى سعده		ما زال يخدم في وطاقه

قلت: من كان له عبد واسمه سعد ففي غاية الحسن.

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة بيتين، وفيهما ما فيهما:

دارٌ لصدر الدين أشرق نورُها		فبياضها من نوره مجبول

دهـلـيـزهـا حـلـوُ الـبـنـا يـبـدو لـنـا   طــعـــمـــيـــة فـــي بـــابـــه ودخـــول

الباب السابع

في البِرْكة والفوَّارة والدواليب وما فيهن من كلام وجيز

البِرْكة: هي المصنع المبني لاجتماع الماء، ويسمى أيضًا الصِّهريج (بكسر الصاد)، وهو اسم مشتق من الصهروج الذي تبنى به، والصهروج الكِلْس نفسه، يقال: بركة مصهرجة إذا كانت مبنية بالصهروج، وقال الجوهري: البركة كالحوض، والجمع بِرَك، ويقال: سُمِّيت بذلك لإقامة الماء فيها.

حكى الأديب أبو الربيع سليمان بن إسماعيل بن أبي الليث المسيحي قال: جمعنا مجلسُ أُنسٍ مع الأديب أبي إسحاق إبراهيم بن أبي الثناء المسيحي بالفيوم، وكنا في بستان فيه بركة عليه فوَّارة من الماء، فتجاذبنا أهداب وصفها، فقال أبو إسحاق:

بركة تصعد الأنابيب منها ... يقعد الماء فوقها ويقوم
فلذا أطلعت فواقع تبدو ... كالقوارير من زجاج تعوم
وكأنَّ السماء صفحتها الزَّرْ ... قَاء والياسمين فيها نجوم

قال: وقلت أنا:

وبركة تذهل العقول لها ... تحار في حسن وصفها الفِكَرُ
كأنها مقلة محدقة ... عبرى من الوجد نالها السهر
تبكي وما فارقت لها وطنًا ... يومًا ولا فات أهلها وطر

تخال أنبوبها بصفحته		والماء يعلو به وينحدر
كصولجانٍ من فضة سُبِكت		فواقع الماء تحتها أكر

قال الشيخ صفي الدين الحلي:

والريحُ تجري رُخاءً فوق بُجرتها		وماؤها مطلَق في زي مأسور
قد جُمِّعت جمعَ تصحيحٍ جوانبُها		والماءُ يُجمع فيها جَمعَ تكسير

ولقد أجاد ابن طباطبا في قوله:

كم ليلةٍ ساهرتُ أنجُمَها التي		عَرَصات أرضي ماؤها كسمائها
قد سُيِّرت فيها النجوم كأنما		فلك السماء يدور في أرجائها
أحسِنْ بها بَحرًا إذا التبس الدُّجى		كانت نجوم الليل من حصبائها
ترنو إلى الجوزاء وهي غريقة		تبغي النجاة ولاتَ حِينَ نَجاتها
تطفو وترسب في اصطفاق مياهها		لا مستعان لها سوى أنمائها
والبدر يخفق وسطها فكأنه		قلبٌ لها قد رِيعَ في أحشائها

ولا مزيد من الحسن على قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي يصف دوحة وأسودًا تُرَى بالماء:

وضراغمٍ سكنت عرين رياسة		تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غَشَّى النُّضار جسومها		وأذاب في أفواهها البلُّورا
أُسدٌ كأنَّ سكونها متحرِّك		في النفس لو وجدتْ هناك مثيرا
وتذكَّرَتْ فتكاتها فكأنما		وقفتْ على أذنابها للشُّورى
وتخالها والشمسُ تجلو لونها		نارًا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سَلَّت سيوفَ جداولٍ		ذابت بلا نارٍ فعُدنَ غديرا
وكأنما نَسَجَ النسيم لمائه		دِرعًا فقدَّر سرده تقديرا
وبديعةُ الثمراتِ تعبر نحوها		عيناك بحر عجائب مسجورا

شـــجريَّـةٌ ذهـبيَّـةٌ شـــرعـت إلـى ... شـــجـر يـؤثِّـر فـي الـهـوى تـأثـيـرا
قـد صـــولجـت أغصـــانهـا فكـأنهـا ... قنصــــتْ بهنَّ من الفضـــاء طيورا
وكـأنـمـا يـأتـي لـواقـع طـيـرهـا ... أن تسـتـقـلَّ بـنـهضـــهـا وتـطـيـرا
مـن كـل واقـفـةٍ تـرى مـنـقـارهـا ... مـاءً لسـلسـال اللُّـجـين نَـمـيـرا
خُرْسٌ يقلن من الفصـــاح فإن شـــدت ... جـعـلـت تـغـرد بـالمـيـاه صـــفـيـرا
وكـأنـمـا فـي كـل غصـــن فضـــة ... لانـت فـأُرسِـلَ خـيـطـهـا مَجـرورا
وتريـك في الصـــهريج موقع قطرهـا ... فـوق الـزَّبَرجَدِ لـؤلـؤًا مَنـثـورا

وقال القاضي شهاب الدين بن فضل الله في ترجمة مجير الدين بن تميم: وحكي أنه جلس على بحرة أشرقت سماؤها، وطاف بكعبةِ الحسنِ ماؤها، والشمس قد توسطت الظهيرة، وأرخت ذوائب أشعتها الظفيرة، واللُّجَّة قد نصبت في كل ناحية حِبالة، وتناومت عينها فما رأت من الشيء إلا خياله، والماء قد لبس من شعاع الشمس فضي الغلالة، وغابت سباع البِركة فلعبت الغزالة. فقال:

ولـمَّـا احتمـت منـا الغزالـة بـالسَّـمـا ... وعـزَّ عـلـى قنَّـاصـــهـا أن ينـالـهـا
نصـــبنا شِـــباك الماء في الأرض حيلةً ... عليهـا فلم نقـدرْ فصـــدْنـا خيـالـهـا

وذكر هذه الترجمة في كتابه مسالك الأمصار من كلام علي بن ظافر العسقلاني قال: جلسنا على بركة ألقيَ عليها وردٌ أحمر ملأ بكثرة نجومه فسحة سمائها، وصبغ بحمرة شعاعه صفحة مائها، وأهدى رمده إلى مقلتها الزرقاء فصحَّ سرورنا بدائها.

وقال المذكور في كتابه بدائع البدائه: أخبرني القاضي الأعز بن المؤيد رحمهما الله تعالى قال: اجتمعتُ مع جماعة من أدباء الإسكندرية في بستان لبعض أهلها، فحللنا روضًا تثنت قامات أشجارها، وتغنَّت قِيان أطيارها، وبين أيدينا بِركة ماء كجو سماء، فنثر عليها بعض الحاضرين ياسمينًا زان سماءها بزواهر منيرة، وأهدى إلى لُجَّتها جواهر نثيرة، فتعاطينا القول في تشبيهه، وأطرق كلٌّ منا لتحريك خاطره وتنبيهه، ثم أظهرنا ما حررنا، ونشرنا ما حبَّرنا، فأنشد عباس بن طريف:

نُـثِـر الـيـاســـمـين لمـا جَـنَـوْه ... عـبـثًـا فـاســـتـقـر فـوقَ المـاء
فـحســـبنـا زهـرَ الـكواكـب تـحـكـي ... زهـرَ الـروض فـي أديـم الســـمـاء

قال: والذي صنعته أنا:

نُثِر الياسمين في صفحة الماء ... فَخِلْنا النجوم وسطَ الماء
فكأنَّ السماء في باطن الأر ... ض أو الدرَّ طفَّ فوق الماء

وقال مجير الدين بن تميم في مليح يشرب من بركة:

أفدي الذي أهوى بفيهِ شاربًا ... من بركة راقت وطابت مَشرعا
أبدتْ لعيني وجهه وخياله ... فأرتنيَ القمرين في وقتٍ معا

نادرة

اكترى نحويٌّ حمَّالًا ليحمل له زِيرًا، فلما وصل إلى البيت وفيه بِركة قال له النحوي: اقْفِزَنْ. فقفز فوقع فانكسر الزير، فقال: ما هذا؟ قال: جانب البركة ساكن، والنون في اقفزن ساكنة، فتحرك الزِّير بينهما بالكسر. فقال: أحسنت، ما أنت إلا عالم! بيَّض الله وجهك.

وقال الشريف العقيلي:

وبركةٌ قد أفادنا عجبًا ... ما ماج من مائها وما انسكبا
من حول فَوَّارة مركَّبةٍ ... قد انحنى ظهرُ مائها تَعبا

وقال شمس الدين الطيب أحمد بن أبي المحاسن:

النهر وافى شاهرًا سيفه ... ولمعه يختلس الأعينا
فماجت البركة من خوفه ... وارتعدت وادَّرعتْ جوشنا

وقال مجير الدين بن تميم مضمنًا:

لو كنتَ إذ أبصرتَها فوَّارة ... للشمس من أمواجها لألاء
لرأيتَ أعجب ما ترى من بركة ... سال النُّضارُ بها وقام الماء

وله مضمنًا:

لقد نزَّهت عيني أنابيبُ بركة ... تقابلني أمواجها بالعجائب
أنابيبُ زادت في علوٍّ كأنما ... تحاول ثأرًا عند بعض الكواكب

وله:

يا حسن نوفرة بدت في بركة ... أبدًا يفيض الماء فيها دَيدَنا
ما إنْ بدتْ إلا وظَلْتُ مفكِّرًا ... في نَوفَرٍ قد راح يُنبت سوسنا

وقال الوجيه المناوي:

فوارة تشبه في شكلها ... سبيكة من فضَّة خالصةْ
تلهيك بالحسن فقد أصبحت ... جارية ملهية راقصةْ

وقد عكس بعضهم هذا فقال:

وقَيْنةٍ مُلهيةٍ قد غدت ... تستوقف السامع والرائي
جارية راقصة أشبهت ... في وصفها فوارة الماء

وقال ابن حجاج:

صنعت في دارك فوارة ... أغرقت في الأرض بها الأنجما
فاض على نجم السما ماؤها ... فأصبحت أرضك تسقي السما

وقال ابن تميم في بركةٍ بشاذروان:

ألا رُبَّ يومٍ قد تقضَّى ببركةٍ ... أقمت بها فيما جرى متحيرا
بعيني رأيت الماء فيها وقد جرى ... على رأسه من شاهقٍ فتكسرا

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي:

مذهب شاذروانـنا العا ... لي المقام والرتب
نال الغنى بمائه ... حين مشى على الذهب

وقال فيه:

لــحســـــن شـــــاذروانـــنـــا كـــل الـــقـــلـــوب تـــعـشـــــق
مــــن أجـــل ذا المـــاء لـــه قـــلـــــب بـــــه مـــعـــــلَّق

ومن كلام سيدي تقي الدين أبي بكر بن حجة في الفوارة: كأنها سنان تطعن في صدر الظما، أو شجرة كدنا أنها طوبى لما ظهرت وأصلها ثابت وفرعها في السما، أو معترف بندى الماء، وقد أفاض عليه عطاياه فيضًا، فرفع له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضاء، أو عمود وفاء، أشارت الناس إليه بالأصابع، أو ملك طالب السماء بودائع حتى قلنا: إن إكليل الجوزاء له من جملة الودائع، أو أبيض طائر علا حتى قلنا: إنه يلتقط حباب النجوم الثواقب، أو شجاع ذو همة عالية تحاول ثأرًا عند بعض الكواكب.

وقال شهاب الدين بن أبي حجلة:

وشـــــاذروان مــاءٍ بــات يــجـري كــعـــين الصـــــب روَّع يــوم بــين
إذا مــا قــيــل: جُدْ بِالمَا ســـــريـعًا يـقـول: نـعـم عـلـى رأســـي وعـيـنـي

وقال شيخنا الشيخ زين الدين بن العجمي:

تســـلســـــل مائي وهو لا شـــكَّ مطلق وصــــحَّ حقيقًـا حين قـالوا: تكســـرا
وفـي قـلـب مـائـي لـلـقـلـوب مســــرَّة وقـالوا: ســـيجري بـالهنـا وكـذا جرى

قلت: وقد تصرفت الفضلاء من متأخري العصر في هذه اللفظة، أعني: وكذا جرى، تصرفات حسنة، فمنهم القاضي صلاح الدين الصفدي فقال:

أَمِـلْـتُ أن تـتـعـطَّـفـوا بـوصـــــالـكـم فـرأيـتُ مـن هِـجـرانـكـم مـا لا يُـرى
وعــلــمــتُ يــوم فــراقــكـم لا بــدَّ أن يــجــري لــه دمـعـي دمًـا وكـذا جـرى

ومنهم الشيخ عز الدين الموصلي فقال:

رُبَّ نســــــيـــمٍ قـــد ســـَــرى يــحــدو ســـــحـــابًـــا مــمــطــرا
أذيـــالـــــه بـــلـــيـــلـــــةٌ تـــخـــبِّـــرنـــا بـــمـــا جـــرى

وقال أيضًا:

حديث عذار الحب في خده جرى كمسكٍ على الورد الجَنِيِّ تسطَّرا
فقبَّلته حتى محوتُ رسومه كأنْ لم يكن ذاك الحديث ولا جرى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي:

لم يبكِ حين بكيتُ من هِجرانه متحسِّرا
لكن حكى لك خده الـ ـمَصْقول صورةَ ما جرى

وقال:

كابرت عدل صَبْوَتي في الدمع حين تحدرا
قالوا: بكيت صبابةً فأجبتُ: هذا ما جرى

وأنشدني سيدي وأخي تقي الدين أبي بكر بن حجة — أبقاه الله تعالى — لبعض المغاربة:

وتحدَّث الماء الزلال مع الحصى فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكأنَّ فوقَ الماءِ وشيًا ظاهرًا وكأنَّ تحت الماء درًّا مضمرا

رجع إلى ما كنا فيه

قال ابن الظافر العسقلاني في كتابه بدائع البدائه: مررنا في بعض العشايا على بعض البساتين المجاورة لبحر النيل فرأينا بئرًا عليها دولابان متحاذيان، قد دارت أفلاكهما بنجوم القواديس، ولعبت بقلوب ناظريهما لعب الأماني بالمفاليس، وهما يئنَّان أنين أهل الأشواق، ويفيضان دمعًا أغزر من دموع العشاق، والروض قد جلا للأعين زبرجده، والأصيل قد راق حسنه فنثر عليه عسجده، والزهر قد نظم جواهره في أجياد الغصون، والسواقي قد أذالت من سلاسل فضتها كل مصون، والنبت قد اخضرَّ شاربه وعارضه، وطرف النسيم قد ركضه في ميادين الزهر راكضه، ورضاب الماء قد علاه من الطل لمى، وحيات المجاري حائرة تخاف أن يدركها من زمرد البنان العمى، والبحر قد صقل صيقل النسيم درعه، وزعفران العشي قد ألقى في ذيل السماء ذرعه، فاستحوذ علينا ذلك الموضع استحواذًا، وملأ أبصارنا وقلوبنا التذاذًا، ومِلْنا إلى الدولابَيْن شاكين أزمرًا، حين شجت قيان الطير بألحانها، أم شدت

على عيدانها، أم ذكرا أيام نعما وطابا، وكانا أغصانًا رطابًا، فنفيا لذيذ الهجوع، ورجعا النوح وأفاضا الدموع طلبًا للرجوع.

وقال مجير الدين بن تميم مضمنًا:

ودولاب روضٍ كـان من قبـلُ أغصـــنًا   تمـيس فـلـمـا فـرَّقـتْـهـا يـد الـدهـر
تـذكـر عــهـدًا بـالـريـاض فـكـلـه   عيون على أيـام عهـد الصِّـــبا تجري

وقال:

تـأمـلْ تـرَ الـدولاب والـنـهـر إذ جـرى   ودمـعــهـمـا بـين الـريـاض غـزيـر
كأن النســيم الرطب قد ضـــاع منهما   فـأصـــــبـح ذا يـجـري وذاك يـدور

وقال بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

وروضــــــــة دولابــــــهــــا   إلـى الـغصــــون قـد شـــكـا
مـــن حـــين ضـــاع زهــرهــا   دار عـــلـــيــه وبـــكـــى

واستعمل هذا المعنى صلاح الدين الصفدي في غير الدولاب فقال:

أضـــحـــى يـــقـــول عـــذاره: هـــل فـــيـــكـــم لـــي عـــاذر
الـــــورد ضـــــاع بـــخـــده   وأنـــا عـــلـــيـــه دائــــر

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

اعـجـبْ لـهـا نـاعـورة قـلـبـهـا   للمـاء منشـــئ العيش والعشـــب
تـعـبـانـة الـجســـم لـكـنـهـا   كـمـا تـرى طـيـبـة الـقـلـب

وقال سعد الدين بن عربي:

شــــاهــدت دولابًــا لــه أدمــعٌ   تـكـلـفـتْ لـلـروض بـالـريْ
فـاعـجـب لـه مـن فـلـك دائـر   مـا فـيـه بـرج غـيـر مـائِـيْ

ولآخر:

أبدى لنا الدولاب قولًا معجبًا | لما رآنا قادمين إليه
إني من العجب العجيب كما ترى | قلبي معي وأنا أدور عليه

قال أبو حنيفة الدينوري: الدولاب بضم الدال وفتحها، كذا سمعته من فصحاء العرب.

ولآخر:

لله أزهار دوحٍ بات يُضحكها | صوتُ الغمام بدمعٍ منه منسفك
حكت نجوم السما أزهارُها فكذا | أضحى يدور بها الدولاب كالفلك

وقال ابن نباتة:

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها | وأَضْلُعها كادت تُعَدُّ من السُّقم:
أدور على قلبي فإني فقدته | وأمَّا دموعي فهي تجري على جسمي

ولآخر:

وذات شجو أسالت | مدامعًا لم تَصُنْها
تبكي بفرط دموعٍ | وتضحك الروض منها

ولآخر:

أشبه ما بين القواديس صوتها | ومن كل وجهٍ ماؤها يتحدَّر
بأرملةٍ ضمَّت إليها بناتها | تنوح بشَجْوٍ والمدامع تقطر

ولآخر:

وناعورةٍ قد ضاعفت بنُوَاحها | نُواحِي وأجرت مقلتاي دموعُها
وقد ضعفت مما تئنُّ فقد غدت | من الضعف والشكوى تعد ضلوعها

سأل الشيخ نجم الدين القحفازي جماعة من الطلبة المشتغلة عليه عن قول الشاعر:

يا أيها الحبر الذي | عِلْم العَروض به امتزَجْ
ابنِ لنا دائرة | فيها بسيطٌ وهَزَج

ففكر بعض الطلبة ساعة طويلة، ثم قال: هذا في دولاب الساقية لأنه أراد بالبسيط الماء، وبالهزج صوت الساقية حالَ دورانها. فقال له الشيخ: أحسنت، ألا إنك درت فيها زمانًا حتى ظهرتْ لك. وهذا الكلام في غاية الطرافة من الشيخ رحمه الله تعالى.

وقال ابن تميم:

وناعورة قد أُلبِسَت لحيائها	من الشمس ثوبًا فوق أوراقها الخضر
كطاووس بستان يدور وينجلي	وينفض عن أرياشه بلل القطر

وله:

أبدت لنا بالعذر ناعورةٌ	أدمعَها في غاية السكب
تقول لما غاب قلبي وقد	ضعفت بالنوح وبالندب:
صيرتَ جسمي كله أعيُنًا	تدور في الماء على قلبي

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

ناعورة مذعورة	للبَيْن ثكلى حائرة
الماء فوق كتفها	وهي عليه دائرة

وله:

حالة الدولاب دلَّت	أنه في فرط حزن
كان يُسقى ويُغنَّى	صار يسقي ويغنِّي

وقال مؤلف الكتاب في مرثيته التي رثى بها دمشق وغيرها عند حلول الواقعة المشهورة من التتار:

أعروسنا لكِ أسوةٌ بحماتنا	في ذا المصاب فأنتما أختان
غابت بُدُور الحُسْنِ عن هالاتها	فاستبدلت من عزِّها بهَوان
ناحت نواعير الرياضِ لفقدهم	فكأنها الأفلاك في الدوران

وقال ابن تميم:

أيا حسنها من روضةٍ ضاعَ نشرها فنادت عليه من الرياض طُيور

ودولابها كادت تعد ضلوعه لكثرة ما يبكي به ويدور

وقال جمال الدين بن نباتة:

وناعورة قَسَّمت حسنها على واصفٍ وعلى سامع

وقد ضاعَ نشر الرُّبى فاغتدت تدور وتبكي على الضائع

وقال مؤلفه ارتجالًا جسيمًا اقترح عليه والحالة كذا:

كأنَّ البحر إذ يزهو صفاه ونور البدر يشرق والسواقي

دموعي ثم وجهك يا حبيبي وقلبي إذ شكا ألمَ الفراق

قلتُ: ومن المداعبات اللطيفة ما كتب به المرحوم القاضي فخر الدين بن مكانس إلى الشيخ بدر الدين البشتكي سلمه الله تعالى وقد دار في ساقية الهمائل، وهو:

دَوْرَةُ الْبَدْرِ فِي سَوَاقِي الهَمَائِلْ تَركَتْ أَدْمُعَ الْعُيُونِ هَوَامِلْ

آهٍ مَن للرِّياضِ ثَورٍ أديبٍ مُظْهِرٍ مِنْ كَلَامِهِ سِحْرَ بَابِلْ

فَاقَ سَعْيًا عَلَى بَنِي عجْلَ فِي الجُو دِ وَأَغْنَى عَنِ الوَلِيِّ الْهَاطِلْ

زَادَ عِلْمًا عَلَى بَنِي ثَوْرَ لَكِنْ قَالَ بِالدَّوْرِ مَاؤُهُ وَالسَّلَاسِلْ

قَد أعارَ الجِناسَ حُسنَ تَوارٍ وأتته تورية فهْو كامل

يا سعيدُ أثرى من النَّظمِ والنَّثْـ ـرِ فأنسَى الورى زَمانَ الفاضل

قد سقيت يا شيخُ بالدور فيها فغدا غصنُها من السُّكْرِ مائل

لَمْ تَدَعْ من نباتةٍ لم تجدها فابنُها بالثَّنا عليكَ يُواصل

وابن قادوس كان طالع في خِدْ مَتِكَ اليوم بالأوامرِ نازل

وغدا بالظِّلال كلُّ أديبِ في هَجيرِ الرَّمضا بفضلكَ قائل

وبرُوحي عيونُ نرجِسِ رَوضٍ يَغزلُ الحُسنَ بالنَّدى ويغازل

أنتَ شنَّفتَها بشعرك زهرًا وبعثتَ المياه فيها خلاخل

كم غصونٍ أينَعْتَها فعليها … هاج للطير والمحب بلابل
أنتَ في الحالتينِ تَصريفكَ الأَحْـ … ـرُفَ أو كيمِياءُ ذهنك واصل
أنت لو لم تكن بِحارَ علومٍ … ما جرت في الرياض منك جداول
كنت عندي أجلَّ قدرًا وقد دُرْ … تَ مِنَ الثَّورِ للوجود الحامل
وغدا قسٌّ بين لفظك والرَّو … ض على الحالتين عندكَ باقل
أنت يا بدرُ فُقتَ بدرَ الدياجي … فلهذا تبدو وذلك آفل
يا خليًّا أبثُّه الشوقَ إن لمْ … يَكُ عنِّي كدمعِ عيني سائل
فالأديب المحب يشكو هواه … للأديب المحب عند النوازل
أنا مغرًى بحبِّ أحورَ ألمى … نافثي يُزرِّي بغصنِ الخمائل
من بني التُّركِ قَدُّه اللَّدنُ واللَّحـ … ـظُ كلا القامتين أصبح ذابل
أعين الزهر والغصون تراها … شاخصات إذا مشى وموائل
لا تَقُلْ لِي: الأعراب تحكيه حسنًا … ما ترى للأعراب هذي العوامل
ماسَ عُجبًا وقَصدُهُ يقتل الخَلْـ … ـقَ دَلالًا وللدَّلالِ دلائل
لا تَلُم في عِذاره هَتكَ شَيبي … أنا قد بِعتُ آجلي بالعاجل
ولَعَمْري أنتَ الذكي ولكن … أنت والله عن غرامي غافل
ولئن كنتَ غافلًا إنني من … صبوتي في الهوى عن العقل عاقل
هاكَ حالي شرحته فأغثني … إن تكن يا أخي لهمِّي حامل
واطِّرح عُتبها فعَيشُ المُحبِّيـ … ـنَ مُجونٌ والعيشُ كالظِّلِّ زائل
دمتَ يا جامعَ المحاسن والشَّمـ … ـلِ ولا زالَ غيثُ فضلك شامل
أنتَ بدرٌ أم أنتَ شمسٌ فإنَّا … قد رأيناك غُرَّةً في الأصائل
وكُفِيتَ الحرارَ يا أشرفَ القَوْ … مِ ومن جوده ينعى ابن باخل

فأجابه الشيخ بدر الدين:

وهذه وصفةٌ وإلا بلابل حركت في القلوب كل بلابل
حرتُ ما بين لفظها والمعاني بين زهر السما وزهر الحمائل
أقسم البدر: ما لِنظم الدراري مثل نظمٍ أزرى بسُحبانِ وائل
أين فعل المُدام؟ أين الأغاني؟ أين لحظ المها وصنعة بابل؟
ما لنظم الحياءِ بين الندامى حسن هذا القريض بين الأفاضل
طالعات أبياته كنجومٍ تركت في العدى بِقَولي نوازل
قل لمِن قاسه بشعرِ سواه: هل تساوى بالله حقٌّ وباطل
إنَّ هذا لكيمياء معانٍ ما لها غير حسن رأيك واصل
أيها الفاضل الذي لو رآه ابن هاني أنساه مدح الأفاضل
وَلَعَمري أنا السعيد وقد كا تبتني بالوَلَا وضدِّي حامل
كل من فاق في مقالٍ وفعل فهْو يفديك من مجدٍّ وهازل
ولعمري بنو مكانس غُزلَا نُ المعالي محاسنًا وشمائل
أشرقت رتبة الوزارة كالشمـ ـس بهم فانظرَنْ لها في الأصائل
ولهم بعدَ ذا وحقِّك مجدٌ ما له في مبنى الزمان مماثل
ماجد قد قصَّرتُ مدحي عليه حين نادى علاه: هل من مطاول
قد طوى حاتمًا رفيع نداه فعَيينا في وصفه مثلَ باقل
لستُ أنسى مداعباتٍ تقضَّت بيننا في الرياض فوق الهمائل
درتُ قدمًا دوائرَ الشعرِ حتى كدت في دورها أُرى في سلائل
ثم ناظرت في المياه أبا ثَوْ رٍ لَعَمري وذاك خيرُ مماثل
أنا برجٌ حللتُ في برج ثورٍ وتنزَّلتُ مذ رأيتُ المنازل
فابنُ قادوسَ لو أتاه جِدالي كان يَملَا مِنَ الدُّموعِ الجداول
أو صريعُ الدِّلاءِ كانَ يُنادي ما يساجله ماجدًا فليساجل

أو يعد نفسه صريع الغواني   بلحاقٍ نادوه: يا غير عاقل
وندامــاي ســادة قـد تحلَّى   دهرنا منهمُ وقد كان عاطل
أنا في ظلِّهم ومدحٍ لِعُليا   هُم على الحالتَين أكرم قائل
كلَّما جارت الكؤوسُ عليهم   لم يميلوا إلَّا إلى قدٍّ عادل
وغرير اللحظ أسمر ألمى   فوق اللحظ ما تعدى المقاتل
عاملٍ قَدَّه على المَيلِ عنِّي   صدق القائلون: في القد عامل
هازل فاعتداله بغصون   لا قصير جدًّا ولا متطاول
لم أطل نظرة إلى جسمه الغضْـ   ـضِ لكي لا يلفى بذلك ذابل
وإذا ما العيون أثرن فيه   ليت شعري فكيف حال الغلائل
كلما قلت: جسمه نسخة الحسـ   ـن ينادي: يا بدر هل لي مقابل؟
مبدع في الطباق قد خفَّ خصرًا   وغدا طود ردفه متثاقل
كم حملنا فيه الملام وكم با   نَ مِنَ الفخر في دجى الليل حامل
يا وزيرًا وعالمًا وأديبًا   وخليعًا يُنسي الخليع وفاضل
دمت في أرغد السرور بإخوا   نك أكرِمْ بهم وظلك شامل
وبقيتم بقاءَ نجم الثريَّا   ونجوم الأعدا لديكم أوافل

الباب الثامن

في الباذَهِنْج وترتيبه

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في باذهنج مطلٍّ على البحر:

أنـــا نُـــعــمَـــى مَـــن ابـــتـــهـــجْ أنْـــعَـــشَ الـــروح والمُـــهَـــجْ
وعـــن الـــبـــحـــر يـــا نســـيـ ـــــــمُ فـــحَـــدِّث ولا حَـــرَجْ

وقال ابن سناء الملك:

وبـــاذهـــنـــج عـــلا عُـــلَـــاءً ولـــكـــنَّـــه قـــد هـــوى هـــواء
دام عـــلـــيـــل الـــنســـيـــم فـــيـــه كـــأنـــه يـــطـــلـــب الشـــفـــاء

وقال أبو الحسن عبد الكريم الأنصاري:

ونـفـحـة بـاذهـنـجٍ أسـْـكَـرَتْـنـا وجـدتُ لـروحـهـا بـردَ الـنَّـعـيـمِ
أتتنـا من أنيقِ الشـكـل شـمـخ تـراه مـثـل راووق الـنـديـم
صـفـا وجرى الـهـوا فـيـه رقـيـقًا فسـمَّـيـنـاه راووقَ الـنسـيـم

ومما يَحسُن أن يُنشَد على لسان حال الباذهنج قول بعض العرب:

إذا الروح من نحو الحبيب تنسَّـمت وجـدتُ لـرَيَّـاهـا عـلـى كـبـدي بـردا
وإنـي بـهـبَّـات الـنسـيـم مـوَّكـلٌ طَروبٌ وبعض القوم يحسـبني جلـدا

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

يا طيب نفحةِ باذهنجٍ لم يزل   بهوائه لنفوسنا تنفيسُ
مغرًى بجذب الريح من آفاقها   فكأنَّه للريح مغناطيس

وللشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة:

وباذهنج لا خَلَتْ   ديارنا من أُنْسِه
كأنَّه متيَّمٌ   يلقى الهواء بنفسه

وله:

وباذهنج غدا في الجوِّ منظره   من فوق منظره تبدو على سنن
فانظر فديتُك يا محبوبُ رفعته   واستنشق الريح مِن تِلقاهِ يا سكني

وله أيضًا:

يا باذهنجي كم كذا   تعلو على بان الحمى
أبديتَ حُمقًا زائدًا   رفعت رأسك للسما

وله مضمنًا:

ودارٍ حكتْ قصرَ السموءَل فاغتدت   تُباهي ببنيانٍ لها وتقول:
أرى باذهنجي في الهواء ارتفاعُهُ   يعزُّ على مَن رامه ويطول

وله مضمنًا:

يا باذهنجي أما ترثَى لذي حرقٍ   يبدي لهيب الهوى مَن بات يخفيها
عوَّدتنا صدقاتٍ من لطيفِ هوًى   فامنن عليَّ بريح منك تحكيها

وله مضمنًا:

يا باذهنجي لا برحتَ من الهوى   مثلي على حبِّ الديار مُوَلَّهَا
داري بحبِّك لم تزل مشغوفةً   خُلقِتْ هواكَ كما خُلقت هوًى لها

وله:

يا باذهنج تراه … كغصنِ بانٍ ترنَّح
يهتزُّ عند العطايا … لأنه يترجَّح

وله ملغزًا فيه:

وذي جناحٍ طوله … كمثل ما في العرض
ما جاز في شرع الهوى … في حكمه إذ يقضي
ولم يَطِرْ مع كونه … بين السما والأرض

وقال أبو الفتح بن قادوس يهجوه:

لك باذهنج كالكئيب له … نفسٌ يصاعد لوعةَ الحَرقِ
مات النسيم به فأجمعنا … نبكي عليه بأدمع العرق

ولصدر الدين بن عبد الحق:

في الباذهنج لا تنم … فما لمرضاه دوا
لا تأمن الشخص الذي … يسرق في الليل الهوا

ولشهاب الدين بن أبي حجلة:

وباذهنج ريحه … تضرم نيران الجوى
مدحته جهلًا به … فراح مدحي في الهوا

وله مضمنًا فيه وأجاد:

هجا الشعراءُ جهلًا باذهنجي … لأنَّ نسيمه أبدًا عليلُ
فقال الباذَهِنجُ وقد هَجوه: … إذا صحَّ الهوى دعهم يقولوا

وقال شهاب الدين السنبلي المالكي:

وباذهنج إذا حرُّ المصيف أتى … أهدى النسيمَ وقد رقَّت حواشيهِ

مصـــغٍ إلى الجو مـا نـاجـاه نـافخـهُ إلَّـا ونـمَّ عـلـيـه فـهـو واشـــيـه

وأكثر الناس وَلوعًا بالباذهنج القاضي الفاضل، فإنه قال من رسالة: إنِّي من مدرَجة ستِّين وما قاربها، وهي المدة من تاريخها ورخ هجره وكري، وعلو شعر شعري، قد نظمت ما بين خمسين ألف بيت من الشعر بشهادة عِيانها وحضور ديوانها، مثل قولي في وصف باذهنج: شديد الحرور، كأنما يتنفس نفس مصدور؛ ما يناهز ألف بيت مقطوع، منها ما يُخرع العقول اختراعه، ويعفي المحاسن بديع ابتداعه. ومثل قولي في رجلٍ: طويل الآذان كأنهما في رأسه خُفَّان، أو قد عجل له منهما بغلان؛ ما يقارب ألف بيت، تجاوزت بهما وأوريت، وما أدخلت منها الشاعر إلى بيت. ومثل قولي في رثاء الوطن: الذي درجتُ من وكره، وخرجت فلم أخرج عن ذكره؛ ما يناهز عشرة آلاف بيت. ومثل قولي: في مدائح منصوصة، وأهاجي مخصوصة.

وللشيخ برهان الدين القيراطي ملغزًا فيه:

أهـــواؤنـــا الـمـــخـــتـــلـــفـــة قـــد أصـــبـــحـــت مـــؤتـــلـــفـــةْ
فـــي شـــامـــخٍ بـــأنـــفـــه عـــلـــى الـــعـــوالـــي أنَـــفَـــةْ
وذي جـــنـــاح لـــم يـــطِـــرْ وكـــلُّ طـــيـــرٍ ألـــفَـــهْ
جـــنـــاحـــه طـــول المـــدى يـــبـــدي عـــلـــيـــنـــا رفـــرفـــةْ
كـــم مـــن كـــئـــيـــبٍ عـــاشـــقٍ أهـــدى لـــه مشـــرفَـــةْ
ولا يـــزال مـــرســـلًا لـــنـــحـــوه مَـــلـــطَـــفَـــةْ
فـــي الـــريـــح ضـــاع قـــول مَن عـــلـــى هـــواه عـــنَّـــفَـــهْ
عـــلـــيـــلـــه الصـــحـــيـــح كـــم شـــفـــى قـــلـــوبًـــا دَنِـــفَـــةْ
وروحـــه لـــطـــيـــفـــة وذاتـــه مـــنـــحـــرفـــةْ
عـــن قِبـــلـــة الـــدِّيـــنِ أرى حـــبَّ الـــهـــوى قـــد صـــرفـــهْ
ولـــم يـــكـــن مـــع الـــهـــوى أعـــطـــافـــه مـــنـــعـــطـــفـــةْ
هـــواه تـــحـــت طـــوعـــه كـــيـــف يشـــاء صـــرَّفـــه
كـــم عـــمَّـــمـــت عـــمـــامـــةٌ هـــامَتـــه المـــنـــكشـــفـــة

ما زال غيرَ ساكن   ساكنه مذ أَلِفَهْ
وكلُّ ما لاح له   من الهواء التقفَهْ
فتى الوليد ذاته   بذاته مؤتلفةْ
شكاية سميها   في العُرب يبدي جنفة
فيه تشتي عصبةٌ   قد أصبحت مصيَّفةْ
مبذِّرٌ ذو الرشد لا   ينسبه إلى السَّفَه
حمدتُ معْ تبذيره   وبذله تصرُّفَه
وكلَّما أسرفَ في   بَذلٍ شَكَرْنا سَرَفَهْ
ونصفه مع جبل   ملك سطاه مُتلفه
تصحيف ثلثَيْه جلت   فضَّ حديثه الشفة
وثلثه حرفان بل   حرف فدع من حرَّفه
أنفاسه كم أودعت   محاسنًا مستلطفةْ
كم رنحت من غصن   ذي قامة مهفهفة
معتلَّة وهو الصحيـ   ـح عند من قد عرفه
وثوبه الأبيض لا   يزال يبدي صلفة
آخره مصنَّفٌ   لعالِم قد صنَّفه
وبيت سلطانٍ غدا   يصون فيه تُحَفَه
يُكنى بسدسَي لفظه   عصابة مستنكفة
وسدسه أرى السما   والأرض والما ألفة
فاكشف مغمَّى قلبه   فمثلكم مَن كَشَفَه
نهار ذهنكم محا   من الظلام سدفه
يجري لحل المشكلا   ت لم يخفْ توقفه

وبحركم در وما صادفت فيه صدفةْ
وللرقاب قلدت هباتك المؤلفةْ
كل البرايا نكرةْ وأنت فيهم معرفةْ
وخذ عروسًا شنفت مذ جليت مشنَّفةْ
زهير لو بان له زهر جلاها قطفه
أغشى سناه طرفها إذا لاح طرفه
حديقة حاسدها يرعد مثل السعفةْ

الباب التاسع

في النسيم ولطافة هبوبه

وإنما ذكرت النسيم لأنه من لوازم الباذهنج، والنسيم: الريح الطيبة. ونسيم الريح: أولها حين تُقبِل بلين، قبل أن تشتدَّ، ومنه الحديث: «بُعِثْتُ في نسيمِ السَّاعةِ»، أي: حين ابتدأت وأقبلت.

وما أحسن قول بعضهم: نسيم الريح نسيب الروح.

قال أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي: الرياح المعروفة أربع: الصَّبا، وهي تسلِّي عن الكروب؛ والجنوب، وهي تجمع السحاب؛ والشمال، وهي تعصره وتفرقه؛ والدبور، وهي تهدم البنيان وتقلع الشجر، وهي المذكورة في القرآن: ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، و﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، و﴿رِيحٍ صَرْصَرٍ﴾. وكل موضع جرى فيه ذكر الريح فالمراد بها الدبور، والمراد بها العقوبة؛ وكل موضع جرى فيه ذكر الرياح في القرآن فإنه يرجع إلى الثلاثة التي تقدم ذكرها، فيراد به الرحمة.

وقيل: الرياح ثمانٍ: أربع من الجهات الأربع، وأربع تسمى النكب لميلها وتنكيبها عن الجهات الأربع، فالشمال من ناحية الشام، وذلك عن يمينك إذا استقبلت قبلة العراق، فهبوبها من تحت بنات نعش؛ وتقابلها الجنوب، وهي باردة يابسة صافية من الكدر، تشد الأعضاء، وتسد المسام، وتحصر الحرارة في الباطن، فينهضم الغذاء، وتصفو بها كدورة الروح الحيواني الذي في القلب من الأبخرة الدخانية، وتديم الصحة، وتقوي حواسَّ الدماغ، وذلك إذا وصلتْ إلى الجسم باعتدال، وهي قليلة الهبوب ليلًا، لذلك تقول العرب في أحاديثها: إن الجنوب قالت للشمال: إنَّ لي عليك فضلًا لأنني أسري وأنت لا تسرين، فقالت الشمال: إن الحرة لا تسري.

وكان للمتوكل بيت مال يسميه بيت مال الشمال، فكلما هبت شمالًا تصدَّق بألفي درهم.

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول سُحيمٍ عبد بني الحسحاس:

وهبَّت شـــمـالًـا آخرَ الليـل ســـحرة ولا ثـــوب إلا درعـــهـــا وردائـــيـــا
فـمـا زال يـروي طيِّبًـا مـن ثـنـائـهـا إلـى الـحول حتـى أنـهـج الـبرد بـالـيـا

فقال عمر: إنك مقتول. فاتُّهم بعد ذلك بامرأة فقتل.

قال أبو نُوَاس وفيه ثلاث روايات:

هـــبَّـــت لـــنـــا ريـــح شــــــامـــيَّة مُـــتَّـــت إلـــى الـــقـــلـــب بـــأســـــبـــابِ
أدَّت رســـــالاتِ الـــهـــوى بـــيـــنـــنـــا عـــرفـــتـــهـــا مـــن بـــين أصـــــحـــابـــي

يحكى أن الصاحب بن عباد — رحمه الله تعالى — كان إذا سمع هذين البيتين ترنَّح لهما.

الشريف الرضي:

وهبَّـت لأصـــحـابي شـــمـالٌ لطيفـةٌ قـريـبـةُ عـهـدٍ بـالـحـبـيـبِ بَـلـيـلُ
ترانـا إذا أنفـاســنـا مُزجـت بهـا نـرنـح فـي أكـوارنـا ونـمـيـلُ

آخر:

ويد الشـــمـال عشـــيَّة مذ أرعشـــت دلَّـت على ضـــعف النســـيم بخطِّهـا
كتبـت ســقيمًـا في صـــفيحـة جـدولٍ فيـد الغمـامـة صـــحَّحتـه بنقطهـا

ولمؤلفه مضمنًا:

يـــا أصـــــــدق شـــــــمـــالٍ وأذكـــى مـــا ألـــطـــف هـــذه الشـــــمـــائـــل
عـــرف بشـــــــذا الـــحـــبـــيـــب أنـــي كـــالـــغصــــن مـع الـنســــيم مـائـل

قال الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف القيسي: حدثني من دخل سجستان وكرمان أن جميع أرحائهم ودواليبهم تدور بريح الشمال، قد جُعلت منصوبة تلقائها، وأن هذه الريح تجري عندهم على الدوام صيفًا وشتاءً، وهي في الصيف أكثر وأدوم، وربما سكنت في اليوم والليلة مرة أو مرات، فيسكن كل رَحًى ودولاب بذلك الإقليم، ثم تتحرك فتتحرك، وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بها اثنا عشر ألفًا، وتنقطع بانقطاعها. قال: والخصب والقحط في بلادهم معتبر بكثرة جريان ريح الشمال وقلَّته. قال:

ولهم في الأرحاء مَنافِس تُغلق ليقلَّ ويكثر، وذلك أنها إذا كانت قوية احترق الدقيق فيخرج أسودَ، وربما حمي حجر الرحى فانفلق، فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه.

والصَّبا تأتي مع مطلع الشمس، وهي القَبُول، والدَّبُور تقابلها، وهي معتدلة، ولا سيِّما إن هبت قبل طلوع الشمس في زمان الربيع، وهي لطيفة صافية تذكِّي الأذهان، وتنفع الأبدان، وتبسط الأخلاق، ولا سيِّما إن مرَّت بمروج أزهار نافعة، فإنها تحمل قواها إلى القلب والدماغ.

وإلى نفعها أشار الشاعر بقوله:

وصَبًا أتتْ من قاسِيُونَ فسكَّنتْ ... بهُبوبِها وَصَبَ الفؤادِ البالي
خاضت مياه النَّيْرَبَينِ عَشيَّةً ... وأتتكَ وهْي بَليلةُ الأذيالِ

وقال سيف الدين بن المشد:

مِسكيَّةُ الأنفاس تُمْلي الصَّبا ... عنها حديثًا قطُّ لم يُمْلَل
جُنِنْتُ لَمَّا أن سرى عَرفُها ... وما ترى مَن جُنَّ بالمندَل

وقال مجير الدين بن الخياط:

يا نسيم الصَّبا الوَلوع بوجدي ... حبَّذا أنت لو مررتَ بهِنْدِ
ولقد رابني شذاك فبالله ... متى عهدُه بأطلالِ نَجْدِ

وقال مِهيار الدَّيلمي وتلطَّف:

حمِّلوا ريحَ الصَّبا نشركم ... قبلَ أن تحمل شيحًا وخُزامى
وابعثوا لي في الدُّجى طيفَكم ... إنْ أذنِتم لجفوني أن تَناما

وروى المرزبان بإسناده أن المجنون خرج مع أصحابٍ له لِيَمتارَ مِن وادي القرى، فمرَّ بجبلي نَعمان فقالوا: إن هذين جبلا نعمان، وقد كانت ليلى تنزلهما. قال: فأي ريح تجري من أرضها إلى هذا المكان؟ قالوا: الصَّبا. فقال: والله، لا أبرح حتى تهب الصبا! فأقام في ناحيةٍ من الجبل ومضوا، فامتاروا لهم وله، ثم أتوا فحبسهم، حتى إذا هبَّت الصبا رحل معهم. وفي ذلك يقول:

أيا جَبَلَيْ نَعمانَ باللهِ خَلِّيا ... نسيمَ الصبا يَخْلُصْ إليَّ نسيمها

أجِـدْ بردهـا أو تشـــفِ منِّي حرارةً   على كبـدٍ لـم يبقَ إلَّـا صــَـميمهـا
فـإنَّ الصَّـــبـا ريحٌ متى مـا تنسَّـــمت   علـى نَفْسِ مهمومٍ تـجلَّـت همومُـهـا

وضمَّن البيتَ الأول الشيخُ صفي الدين الحلي في مليحٍ اسمه نعمان فقال:

أقـول وقـد عـانـقـت نـعـمـانَ لـيـلـةً   بـنـورِ مُـحـيَّـاه أنـار أديـمَـهـا
وقـد أرســلـتْ إليـاه نحوي فَســوةً   يُروِّحُ كربَ المســتهـام شــَمِيمُـهـا:
أيـا جَـبَلَـيْ نـعـمـانَ بـاللهِ خـلِّـيـا   نســـيم الصَّـــبا يَخْلُصْ إليَّ نســـيمها

أقول: وعلى ذكر نعمان والكناية عنه، فما ألطف ما ذكره الشيخ بدر الدين حسن بن زفر المتطبب الإربلي في كتابه روضة الجليس ونزهة الأنيس، وهو أن بعض الرؤساء قال: أخبرني بعض الأصحاب قال: كنت جالسًا يومًا عند صديقٍ لي بالموصل إذ جاءه كتاب من بغداد من صديقة له فيه تشوق، وفيه هذا البيت عتاب، وهو:

تنـاســـيتم العـهـد القـديم كـأنَّنـا   علـى جبلَـيْ نَعمـان لـن نـتـجـمـعـا

فأخذ يستحسن هذا البيت ويهتزُّ له، فقلت له: بالله عليك يا فلان، أسألك شيئًا ولا تخفه عني. قال: سل. قلت: هذي معشوقتك صاحبة هذا الكتاب؟ قال: إي والله، من أين علمت ذلك؟! قلت: من هذا البيت، لأنها ذكَّرتك فيه بجبلي نعمان، وجبلا نعمان كناية عند الظرفاء من الناس عن جانبي كفل المليحة والمليح. فقال: والله، ما أدركت من هذا البيت الذي أدركت!

وكان لبيد بن ربيعة العامري آلى في الجاهلية أن لا تهب صبًا إلا نَحَرَ وأطعمَ الناس حتى تسكن، وألزم نفسه ذلك في الإسلام، فلما كانت أيام عثمان جُعل ديوان لبيد في الكوفة، وخطب الوليد بن عقبة الناس في يوم صبًا فقال: معاشرَ الناس، إن أخاكم لبيد آلى في الجاهلية ألا تهب صبًا إلا أطعم الناس حتى تسكن، وقد ألزم نفسه ذلك في الإسلام، وهذا اليوم من أيامه فأعينوه، وأنا أول من يعينه. ونزل فبعث إليه مائة بكرة، وكتب إليه يقول:

أرى الـجَـزَّار يشـــحـذُ شـــفـرتَـيْه   إذا هــبَّـت ريــاحُ أبــي عَـقـيـلِ
أَشـــَـمُّ الأنـفِ أصـــيـدَ عـامـريٍّ   طويـلَ البـاع كـالســيفِ الصـقّيـل
وفـى ابـنُ الـجـعـفـري بـمـا عـلـيـه   عـلــى الـعِـلَّـات والمـالِ الـقـلـيـل

فلما أتاه الشعر قال لابنته: يا بنيَّة، أجيبيه. فقالت:

إذا هبَّت رياح أبي عقيل … دعونا عند هبَّتها الوليدا
أشمَّ الأنفِ أصيدَ عبشميًّا … أعانَ على مُروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأنَّ ركبًا … عليها من بني حامٍ قُعودا
أبا وهبٍ جزاك الله خيرًا … نحرناها وأطعمنا الثَّريدا
فعُدْ إنَّ الكريم له معادٌ … وظنِّي يا بن أروى أن تعودا

فقال أبوها: أحسنت لولا أنك استطعمتيه.

ولبيد هذا صحابيٌّ، قدم على النبي ﷺ مع قومه بني جعفر بن كلاب، وهو صاحب إحدى القصائد المعلقات التي أولها:

عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقامُها

وإنما أمر ابنته أن تجيب الوليد لأنه لم يقل شعرًا منذ أسلم، وقال بعضهم: لم يقل في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذْ لم يَأتِني أَجَلِي … حتَّى اكتسيتُ من الإسلام سِربالا

وقيل: هذا البيت لغيره. وهو أصح.

وقيل: هذا البيت الذي قاله في الإسلام، بيتٌ عجزه:

والمرءُ يُصلِحُه القرينُ الصالحُ

وقال له عمر رضي الله عنه يومًا: يا أبا عقيل، أنشدني شيئًا من شعرك. فقال: ما كنت لأقول شعرًا بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران. فزاده في عطائه خمسمائة، وكان ألفين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: رويت من شعر لبيدٍ اثني عشر ألف بيت. وقالت أيضًا: رحم الله لبيدًا حيث قال:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم … وبقيتُ في خَلْفٍ كجلدِ الأجربِ

قلت: كيف لو أدرك زماننا.

وكان لابن الجوزي — رحمه الله تعالى — زوجة اسمها نسيم الصَّبا، فاتفق أنه طلقها، فحصل له بعد ذلك ندم وهيام أشرف به على العدم، فحضرتْ في بعض الأيام مجلسَ وعظه، فحين رآها عرفها، فاتفق أنه جاءت امرأتان وجلستا أمامه فحجبتاها عنه، فأنشد في الحال:

أيا جبلَيْ نعمان بالله خلِّيا

وهذا من جملة لطائفه وظرائفه.

ومنها أنه أنشد في بعض مجالسِ وعظه:

أصبحتُ ألطفَ مِن مرِّ النسيم سرى	على الرياض يكاد الوهم يؤلمني
من كلِّ معنًى لطيفٍ أجتلي قدحًا	وكل ناطقة في الكون تطربني

فقام إليه إنسان وقال: فإن كان الناطق حمارًا؟ فقال: أقول له: يا حمار، اسكت.

وقال صلاح الدين الصفدي:

صدَّق خلي نسمات الصَّبا	فيما روتْ عنكم وما شكَّا
وقال: لا أخبَرَ منها بما	جاءت به قلنا: ولا أذكى

وقال جمال الدين بن نباتة:

يُداوي أسى العُشَّاقِ من نحوِ أرضكم	نسيم صبًا أضحى عليه قَبول
بروحيَ من ذاك النسيم إذا سرى	طبيب يداوي الناس وهو عليل

وقال شهاب الحاجبي:

لا تبعثوا غير الصبا بتحيَّةٍ	ما طاب في سمعي حديثُ سواها
حفظتْ أحاديثَ الهوى وتضوعت	نشرًا فيا لله ما أذكاها

وقال بدر الدين بن الصاحب:

أسكرتم ريح الصبا بالشذا	حتى أذاعت سرَّنا بالبطاح
لا تبعثوها إن أذاعت هوى	فما على السَّكرى بهذا جناح

وقال بدر الدين حسن الغزِّي:

سـرتْ من بعيد الدار لي نسـمةُ الصَّـبا   فقد أصـبحت حسـرى من البين ظالعةْ
ومن عرقٍ مبلولة الجيبِ بالنَّدى   ومن تعب أنفاسـها متتابعةْ

ولما أنشدتهما السيد القاضي صدر الدين بن الأدمي — فسَّح الله في أجله — قال: لو قال الشيخ بدر الدين:

فقد أصبحت معتلَّة وهي ظالعة

لكان أحسن من قوله: حسرى. ولَعَمْري، صدق فيما قاله.

وما ألطف القاضي أمين الدين عثمان بن عطايا في قوله:

أنا أهوى غصن النقا وهولاه   وفؤادي بحبه في التيه
يا نسيم الصَّبا ترفَّق عليه   وتلطَّف به ولا تؤذيه
وتحمل رسالةً ليس إلَّاكَ   أمينٌ في حملها أرتضيه
وإذا لم يكن رسولي نسيمًا   نحو غصن النقا فمن يثنيه

وللشيخ شمس الدين الواسطي، من متأخري شعراء الديار المصرية، من موشحه:

نسائم الأسحار   بنشرها الفواح
تحرِّك الأغصان   لأنها أرواح
فقم بنا نسعى   لمرتعٍ يانع
للماء والمرعى   منه غدا جامع
قد أطرب السمعا   قمريُّهُ الساجع
كأنما تكرار   غناه في الأدواح
ضرب من العيدان   لمن غدا أو راح

ولمؤلف الكتاب لَطَفَ الله به:

إنْ هبَّت الأرواحُ من نحوهم ... فانتشت الأشباح من راحها

لا تعتبونا في الهوى واسكنوا ... أشباحُنا حنَّت لأرواحها

ولم أرَ أحدًا وصف الريح غير الأديب أبي القاسم علي بن أسعد الكاتب المترسل في قوله:

كأنَّ شكل الهلال قرط ... أو عطفة النون أو قلامةْ

كأنَّ لون الهواء ماء ... أو سندس رقَّ أو غمامةْ

حكي أن نور الدين علي بن سعيد صاحب المرقص والمطرب مرَّ مع جماعة من الأدباء المصريين، ومنهم أبو الحسين الجزار، فمروا في طريقهم بمليحٍ نائم تحت شجرة وقد هبَّ الهواء فكشف ثيابه عنه، فقال أبو الحسين الجزار: قفوا لينظم كل واحد منا في هذا شيئًا. قال: فما لبث أن قال نور الدين:

الريحُ أقوَدُ ما يكون لأنَّها ... تُبدي خبايا الرِّدْف والأعكان

وتميل بالأغصان عند هُبوبها ... حتى تقبِّل أوجُهَ الغدران

فكذلك العشَّاق يتَّخذونها ... رُسُلًا إلى الأحباب والأوطان

فقال أبو الحسين: ما بقي أحد منا يأتي بمثل هذا؛ سيروا بنا.

وقال النور الإسعردي:

تميل الريح بالأغصان لطفًا ... كما مالت بشاربها العقارُ

وتجمع بينها من بَعدِ بُعْدٍ ... وأوراق الغصون لها إزار

وتخفق غَيرةً عند التلاقي ... فهل أبصرتَ قوَّادًا يغار؟

وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ العلامة عز الدين أبي الخير علي بن أبي الشيخ بهاء الدين الحسين الموصلي تغمده الله بالرحمة:

رُبَّ نسيمٍ قد سرى ... تحدو سحابًا ممطرا

أذياله بَلِيلةٌ ... تخبرنا بما جرى

وما أحسن قوله، وإن كان في غير ما نحن فيه:

أعــدى ســــقـــامُ جــفــونِــهِ   جســـمـــي وأعــدمــنــي الــكَــرى
حـــتـــى اعــتــلــلــتُ بســـُـرعـــةٍ   مــثــلَ الــنســـيــمِ إذا ســـــرى

وأنشدني من لفظه لنفسه سيدي الشيخ وأخي تقي الدين بن حجة الحموي — فسَّح الله في أجله — من قصيدة نبوية أولها:

شـــدت بكم العشـــاق لما ترنَّموا   فـغـنَّـوا وقـد طـاب المـقـام وزمـزمُ
وضـــاع شـــذاكم بين ســـلعٍ وحاجرٍ   فـكـان دلـيـل الـظـاعـنـين إلـيـكـم
ولمَّـا روى أخـبـارَ نشـــرِ ثـغـوركـم   أراكُ الـحِـمـى جـاء الـهـوى يـتـبسَّـم

وقال القاضي مجير الدين بن عبد الظاهر:

شـــكـرًا لـنسـمـة أرضـكـم   كـم بـلَّـغـت عـنِّـي تـحـيَّـةْ
كـم قـد أطـالـت بـل أطـا   بـت فـي رسـائـلـهـا الـزكـيَّـةْ
لا غـروَ أن حـفـظـتْ أحـا   ديـثَ الـهـوى فـهـي الـذكـيَّـةْ

ومن هنا أخذ صلاح الدين الصفدي قوله، وهو حسن عندي:

يـا طِيبَ نشـــرٍ هبَّ لي من أرضـكم   فـأثـار كـامِـنَ لـوعـتـي وتـهـتُّـكـي
أهـدى تـحـيَّـتكـم وأشـبـه لطفكـم   وروى شـــذاكـم إنَّ ذا نشـــرٌ ذكـي

وقال شهاب الدين بن أبي حجلة مخاطبًا صلاح الدين الصفدي:

إنَّ ابـن أبـيـك لـم تـزل ســرقـاتـه   تـأتـي بـكـلِّ قـبـيـحـةٍ وقـبـيـح
نَســـَبَ المعاني في النســيم لنفســه   جَـهـلًـا وراح كـلامـه فـي الـريـح

وكان القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر — رحمه الله تعالى — يحب مغنيًا اسمه النسيم، وله فيه عدة مقاطيع، وقد ذكر بعضها الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة من رقعة كتبها القاضي علاء الدين بن فضل الله في منزله بالأهرام، قال: وقد كان تقدم من إنعامه ثوب أصفر أحمر، ونصفيَّة في يوم ماطر، ونسأل الله تعالى أن لا يخلي ذوي العارض الممطر من جاه مولانا العريض، وحُلَل إنعامه التي هي كالدنانير الحمر والدراهم البيض، ونصف مبيته في هذه المنزلة التي أصبحت كليلة من جمادى

ذات أندية، وخيامه التي يود لو كان طالعها سعد الأخبية، وبردها اليابس الذي لم يترك منه رطبًا سوى لسانه بصالح الأدعية، هذا والهرم يضرب من جليده حتى اللحية بالشَّيب، وأبو الهول إلى جانبه يرجم حين يرجم الغيب، فإن شِبْتُ من هوله فالهرم أمامي، وإن قررتُ من نسيمه فهو يا فتى خلفي وقدَّامي:

هـوًى تـذرفُ الـعـيـنـان مـنـه وإنَّـمـا هوَى كـلِّ نفسٍ حيـثُ حـلَّ حبيبهـا

فلو حُكِمَ به على القاضي محيي الدين بن عبد الله الظاهر — رحمه الله تعالى — وقد حَمِيَ بهبوبه الوطيس، لاشتغل بنفسه وترك محبوبه النسيم في الريح المريس، وذلك بعد أن قال فيه:

إنْ كـانـت العشـَّـاقُ مِن أشـواقهم جعلوا النسـيمَ إلى الحبيـبِ رَسـولا

فـأنـا الـذي أتـلـو لـهـم: يـا لـيتـنـي كنـتُ اتَّخـذتُ مع الرسـولِ سـَبيلا

فقلت كأني حاضر أخاطبه:

إنْ كنـتَ في عشـقِ النسـيم متيَّمًا وزعـمـتَ أن هـواه لـيـس بـمُـتْـلِـفِ

فـأنـا أقـول لمـن تـحـرَّش بـالـهـوى: عرَّضـت نفسـك للبِلى فاسـتهدفِ

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر فيمن اسمه نسيم:

يـا مـن غـدا لـي مـن عَـوَا صـِفِ هـجـره الـريـحَ الـعـقـيـم

أتـرى يـطـيـب لـيَ الـهـوى ويُـقـال لـي: رَقَّ الـنـسـيـم

فقلت له مجاوبًا:

بـالله إنْ رقَّ الـنسـيم وأُخْـمِـدَت نـارٌ تـؤجِّـجـهـا يـدُ الـتـبـريـح

نقِّـل فؤادك حيـث شـئـتَ من الهوى ودعِ الـعـذول وقـولَـه فـي الـريـح

قلت: وعلى ذكر الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في رسالته المذكورة في ليلة من جمادى ذات أندية، ذكرت ما قاله الشيخ المحدِّث الرحلة فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس — رحمه الله تعالى — قال: كان القاضي فخر الدين بن لقمان والقاضي تاج الدين أحمد بن الأثير صحبةَ السلطان على تلِّ العجول، ولفخر الدين مملوك اسمه الطُّنبا، فاتفق أنه دعا مملوكه المذكور بالطنبا،

فقال له: نعم. ولم يأتِهِ وتكرر طلبه، وهو يقول: نعم. ولم يأته، وكانت ليلة مظلمة مطيرة، فأخرج فخر الدين رأسه من الخيمة وقال: تقول: نعم، ولم أرك! فقال تاج الدين:

في ليلةٍ من جمادى ذاتِ أنديةٍ   لا يُبصِر الكلبُ في أرجائها الطُّنبا

وقال بعض العشاق:

ألا يا نسيم الريح ما لك كُلَّما   تدانيتَ منَّا زاد نشرك طيبا
أظنُّ سليمى خُبِّرت بمقامنا   فأعطتك ريَّاها فجئت طبيبا

وكان أبو الفرج الوأواء محمد بن أحمد الدمشقي من حسنات الشام وصَناعة الكلام، وكان مبدأه مناديًا بدار البطيخ بدمشق، قال: قال ابن حمدون: كان الفتح بن خاقان يأنس بي ويطلعني على الخاص من أموره، فقال مرة: يا أبا عبد الله، لما دخلت البارحة إلى منزلي استقبلتني جارية من جواريَّ، فلم أتمالك دون أن قبلتها، فوجدت بين شفتيها هوًى لو رقد المخمور فيه لصحا. فكان ذلك مما يُستملح ويُستظرف من الفتح بن خاقان، فسمع الوأواء ذلك فقال:

سقى الله ليلًا طال إذ زار طَيفُه   فأفنيته حتى الصباح عِناقا
بطيب نسيمٍ منه يَستجلب الكرى   فلو رَقَدَ المخمور فيه أفاقا

وقال علاء الدين الجويني صاحب الديوان دوبيت:

لله مبيتنا بضوء القمر   والحبُّ نديمنا وصوتُ الوَتَرْ
قد فرَّق بيننا نسيمٌ سَحَرًا   ما أبردَ ما جاء نسيم السَّحَرْ

وما ألطف ما قال سيدي تقي الدين بن حجة — أبقاه الله تعالى — من موشحة امتدح بها سيدنا ومولانا الإمام العلامة المفنن، قاضي القضاة أبي الحسن علاء الدين، الشهير بالقضائي، الحاكم بمدينة حماة المحروسة، أسبغ عليه ظلاله، مضمنًا:

بالله يا برقُ إن أَوْمَضتَ في الثغر   وحارس اللحظ في شكٍّ من الخبر
قِفْ بالثنيَّات واذكرني إذا عَذبتْ   منيهلات عُذَيبِ الثغر في السَّحَر

ومنه:

وأرســـــل عـلـيـل الـنـســـيـم خـلـفـي مــعــرِّفًـا بـــالـشــــذا ومشـــــفـــي
ولا تـقــل: إنـــه الـمـعـتــلُّ فـــي شــــغــلٍ فربمـا صـــحَّـت الأجســــامُ بــالعِلَــلِ

وللقاضي الفاضل:

يـا لمعـةَ البرقِ بـل يـا نســـمـة الريح روحي بجســـمي إلى من عنـده روحي
خـذي لهم من ســـلامي نشـــرةً عبقًا وأوقــديــه بــنـــارٍ مــن تــبـــاريـــحـــي
نــاشـــَـدْتُـكِ اللهَ إلَّـا كنـتِ مُخبِرةً عـنِّـي بــأنَّـهـم ذِكْري وتســــبـيـحـي

وذكر الوهراني في أول منامه هذه الأبيات، ولم أدرِ هي له أم لغيره:

أيــا نــفــحــةً أُهْــدَتْ إلـــيَّ تــحــيَّــةً ينمُّ عليهـا العـرف من أم ســــالـم
مشـــــتْ فـي أراك الـواديـن فـنـبَّـهـت بــه كــلَّ نشــــوانِ الـمـطــاعــم نــاعــم
ألَـا إنَّـمـا أحـكـي بـدمـعـي ولَـوعـتـي بـكــاءَ الـغـوادي وانـتـحــابَ الـحـمــائـم

حكي عن الأصمعي أنه قال: كانت امرأة من العرب تأتي بصِبْيَة لها قبل الصبح فتقف على تلٍّ عالٍ هناك وتقول: أيْ بَنِيَّ، خذوا صفوَ هذا النسيم قبل أن تكدِّره الخلائقُ بأنفاسها.

ولمؤلف الكتاب — لطف الله به — قصيدة:

ألا يـــا نســـــمــــة الـــريـــح قـــفـــي أُبْــدِيــكِ تـــبـــريـــحـــي
قــفــي أســــْـأَلْـكِ عــن قــلــبــي وإنْ شــــئـــتِ أَقُـــلْ: روحـــي

الباب العاشر

في الفُرُش والمساند والأرائك

ذكر القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف والهدايا والتحف أنه لما عزم المتوكل على إعذار المعتز أمر الفتح بن خاقان بالتأهُّب لذلك، وأن يلتمس في خزائن الفرش بساطًا للإيوان في طوله وعرضه، وكان طوله مائة ذراعٍ وعرضه خمسين ذراعًا، فلم يوجد إلا في ما قبض من بني أميَّة، فإنه وجد في أمتعة هشام بن عبد الملك على طول الإيوان وعرضه، وكان بساطًا لم يُرَ لأحد مثله، إبريسميٌّ مذهَّب، مفروز مبَّطن؛ فلما رآه المتوكل استحسنه وبسطه في الإيوان بعد أن قوِّم في أوسط التقويم بعشرة آلاف دينار، ونُصِبَ للخليفة في صدر الإيوان سرير، ومُدَّ بين يديه أربعة آلاف مرفع من ذهب مرصعٍ بالجوهر، فيها تماثيل العنبر، والمسك، والكافور المعمول على مثل الصور، منها ما هو مرصع بالجوهر مفردًا، ومنه ما عليه ذهب وجوهر، وجُعِلَت بساطًا ممدودًا، وقعد المتوكل والناس جلوس، وهو على سريره، وحضرت القُوَّاد، والأمراء، والندماء، وأصحاب المراتب، وجلسوا على مراتبهم، ووضعت بين أيديهم من الجانبين والسماط في فرجة، وجاء الفرَّاشون بزمل غُشِّيَت بأُدَمٍ مملوءة دنانير ودراهم نصفين، فصُبَّت في تلك الفرجة حتى ارتفعت، وقام الغلمان دونها، وأمر الناس بالشرب وأن ينقل كلٌّ من يشرب من تلك الدنانير والدراهم ثلاث حفنات بمقدار ما حملت يداه، وكلما فرغ موضع صُبَّ فيه الزمل حتى يرد إلى حالته، ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا: إن أمير المؤمنين أمر أن يأخذ من شاء ما شاء. فمدوا أيديهم إلى المال وأخذوه، وكان إذا أثقل الواحد ما في كمه ناوله إلى غلمانه ثم يعود إلى مجلسه، وخلع على من حضر ثلاث خِلَعٍ حسانٍ على قدر مراتبهم، وأقاموا إلى أن صليت العصر والمغرب، وحملوا عند انصرافهم على الخيل والمهارى، وأعتق المتوكل عن المعتز ألف عبد، وأمر لكل واحد منهم بمائة درهم وثلاثة أثواب، وكان في حصن الدار بين يدي الإيوان

أربعمائة تكيَّة عليها أنواع الثياب، وبين أيديهم سلة فيها أنواع الفاكهة، وتقدم إلى صاحب الباب أن ينثر على خُدَّام الدار والحاشية ما كان أعد لهم، وهو ألف درهم، فلم يقدر أحد على التقاط شيء، فأخذ الفتحُ درهمًا، فأكبَّ الجماعة على المال فنهبوه، وكانت قبيحةُ أمُّ المعتز بالله قد تقدمت بضرب دراهم عليها مكتوب:

بركةٌ من الله وإعذار أبي عبد الله.

فضرب ألف ألف درهم نثرت على وجوه الغلمان، والشاكرية، وقهرمانات الدار، والخدَّام، والخاصة من الصبيان والسودان.

وسأل أبو العباس الصولي حرملة المزي: كم وصل إليك من إعذار المعتزل؟ فقال: صار إليَّ إلى أن وُضِع الطعام نيف وثمانون ألف دينار، سوى الصاغات والخواتيم والجواهر.

وحضر المجلس محمد المنتصر، وأبو أحمد وأبو سليمان ابنا الرشيد، وأحمد وأبو العباس ابنا المعتصم، وموسى بن المأمون، وابنا حمدون النديم، وأحمد بن أبي رويم، والحسين بن الضحاك، وعلي بن الجهم، وعلي بن يحيى المنجم وأخوه أحمد، ومن المغنين: عمرو بن بانة، وأحمد بن أبي العلاء، والحفصي بن المكي، وسلمك الرازي، ونمرة، وسلمان الطبال، والمسدود، وأبو حشيشة بن الفضل، وصالح الدفاف، وزُنام الزامر، وتفاح الزامر، ومن المغنيات: عُرَيب وبدعة جاريتها، وشراب وجواريها، وندمان، وتنعم، ونحلة، وتركية، وقديرة، وراتك، وعرفان.

قال: وأقام المتوكل بالقصر ثلاثة أيام، ثم صعِد إلى قصره الجعفري، وتقدم إلى إبراهيم بن العباس يعمل حساب ما أنفق، فاشتمل على ستة وثمانين ألف ألف دينار، وفَضَلَ بعد القسم عن الناس وإخراج الخُمس مما في المدائن بساطُ كسرى، أنفذه إلى عمر بن الخطاب، فقسمه بين الناس، فأصاب عليٌّ قطعة منها بعشرين ألف دينار، وما كانت بأجود القطع، وكانت الفرس تسميه القطف، وكان طوله ستين ذراعًا في عرض ستين، حرير فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار، وخلال ذلك في الإفريز، وفي حافاته كالأرض المزدرعة المقبلة بالنبات، في أوان الربيع في قضبان الذهب والفضة، ونواره بهما والجواهر وأشباه ذلك، وشبه فصوص، ورسمه بالجواهر، وزخرفته بحرير وذهب، وكانوا يدَّخرونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين وأرادوا الشرب شربوا عليه، فكأنهم في رياض، وكان أفضل مال أصيب بالقادسية، وكانت قيمته ستة وثلاثين ألف ألف دينار.

ووجد لقبيحة أم المعتز ثلاث دواويج، كانت تستعملهم، فقوِّم الدواج بأكثر من ألف دينار، ووجد لها جلود السَّمُّور، فتحلق ما عليها من الوبر وترمي الجلود، فإذا اجتمع من ذلك ما يكفي الدُّواج، تنثر فيه مع فتت من المسك والعنبر، وتجعله بين البطانة والظهارة، عوض القطن.

وقال القاضي الفاضل:

بســـــاطٌ ترى التيجـان تهوي لِلَثْمِهِ   فما هو إلا قبلة أو مقبلُ
إذا نشــرت من نقشـــه لك روضـــةٌ   بدا فوقها من كفه لك جدول
وأفضـــل أجزاء الجســوم رؤوســـها   وأرجلها في وســط بســطك أفضـــل

دخل محمد بن عمران على المأمون ذات ليلة فجعل يأمره وينهاه، ثم دعا له بتِكاء فقال: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين! ما كنت لأتكئ في مجلسك. فقال له: إن على قلبك من بدنك ثقلًا ومؤنة، فأردنا أن يستريح بدنك ليفرغ لنا قلبك.

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر ملغزًا في شبرية:

وهندية ٍ موطوءة غير أنها   إذا افترشـتْ أغْرَتْكَ بالبِيض والسُّـمرِ
تعانقُ من أعطافها خيزرانةً   وتَلْمَحُ من أزرارها طلعةَ البدرِ
وأعجبُ من ذا أنها إذ تقيســها   تفوتك طولًا وهي تعزى إلى شـبر

وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ الفاضل بقية المتأخرين شمس الدين محمد بن بركة الجرائحي سلمه الله تعالى:

تقول مخدِّتي لما اضـطجعنا   ووسَّـدني حبيبُ القلب زَندَه:
قصـدتم عند طِيبِ الوَصـلِ هجري   خُذوني تحتَ رأسكمُ مخدَّةْ

وأنشدني لنفسه أيضًا:

بشـخانة تطـرَّزت   قالت بلفظ موجز:
على الحريري سما   قدري والمطـرَّز

وقال الشاعر الظريف محمد بن العفيف:

بســـــاطٌ يـمــلأ الأبصــــارَ نــورًا	ويــهــدي لــلــقــلــوب بــه ســـــرورا
ويشــــرح حين يُبْســـَطُ كـلَّ صــَــدرٍ	وخيرُ البُسْـــطِ ما أرضـــى الصـــدورا

وقال ظافر الحداد فيما يكتب على كرسي:

نـزِّهْ لـحـاظـك فـي غـريـب بـدائـعـي	وعجيـبِ تشـــبيهي وحكمـةِ صــــانعي
فـكـأنـنـي كـفًّـا مُـحِـبٍّ شـــُبِّكَـتْ	يومَ الوداعِ أصــــابعًا بـأصــــابعِ

وذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف: قال الفضل بن الربيع: لما ولي محمد بن الأمين الخلافة في سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرني أن أحصي ما في الخزائن من الكسوة والفرش والآنية والآلة، فاجتمعتْ كتَّاب الخزائن، وأقاموا أربعة أشهر يحصون، فأشرفت على ما لم أتوهَّم أنَّ خزائن الخلافة تحويه، ثم أمرهم أن يعملوا لكل صنف منه جملة، فكان في خزائن الكسوة: أربعة آلاف جُبَّة وَشْي وأربعة آلاف جبة منسوجة بالذهب، وعشرة آلاف قميص وغلالة، وعشرة آلاف خفٍّ، وألفا سروال، وكثير من أصناف الثياب، وأربعة آلاف عمامة، وألف طيلسان، وألف رداءٍ من أصناف الثياب، وخمسة آلاف منديل من أصناف المناديل، وخمسمائة قطيفة خَزٍّ، ومائة ألف وسادة ومخدة خز، وألف بساط ملون، وألف مخدة ميساني، وألف وسادة ميساني، وألف بساط طبرستاني، وألف وسادة ديباج، وألف وسادة خز مرقوم، وألف ستر حرير ساذج، وثلاثمائة ستر مرقوم، وخمسمائة بساط طبري، وألف وسادة طبري، وألف مرقعة، وألف مخدة طبري، ومن الآنية: ألف طَسْت ذهب، وألف إبريق ذهب، وثلاثمائة كانون فضة وذهب، وألف نور شمع ذهب، وألف قطعة نحاس من سائر الأصناف، وألف منطقة ذهب. ثم ذكر السلاح وأصنافه، وقد ذكرته في بابه.

الباب الحادي عشر

في الأراييح الطيِّبة والمروحة وما شاكل ذلك

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: دخل علينا النبي ﷺ فنام عندنا فعَرِقَ وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تَسْلِتُ العرق فيها، فاستيقظ ﷺ، فقال: يا أمَّ سُليْمٍ، ما هذا الذي تفعلين؟ قالت: عرقك نجعله في طِيبنا، وهو من أطيب الطِّيب.

وما أحق هذا الطيب بقول القائل، وهو الشيخ عز الدين الموصلي:

تنشـــَّقْ مســـــك أصـــــداغي حلالًا ... فـهـذا الـطـيـب مـن عـرق الـجـبـين

وقال عمر بن الخطاب: لو كنتُ تاجرًا ما اخترت غير المسك، إن فاتني ربحه لم يفتني ريحه.

أهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورةً من الغالية، فسأله كم أنفق فيها، فذكر مالًا كثيرًا، فقال: هذه غالية! فسميت بذلك.

وما أحسن قول أبي بكر الخوارزمي:

وطِـيــبٍ لا يـحــلُّ بـكــلِّ طـيـب ... يُـحـيِّـيـنـا بـأنـفـاسِ الـحـبـيـبِ

مـتـى يشـــمـمـه أنـفٌ حَـنَّ قـلـب ... كـأنَّ الأنـف جـاســوس الـقـلـوب

وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين، فيأخذ بأنفه لئلا يصيب الرائحة ويقول: وهل يُنتفع إلا بريحه.

وقال جعفر بن سليمان الهاشمي: في الطيب أربع خصال: لذة، ومروَّة، ومنفعة، وسنَّة.

ولما دخل عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ابنة عمه أوقد في مسارجها تلك الليلة الغالية، فقوِّم ثمنُ ذلك فبلغ عشرين ألف دينار.

نادرة

تبخَّر بعض الأمراء وعنده مزيد، ففرطت منه رُوَيْحة خفيفة، وأراد أن يدري هل فطن لها مزيد أم لا، فقال: ما أطيب هذه المثلَّثة! فقال: نعم، إلا أنك ربَّعتها.

سُئل جالينوس عن منافع الطيب فقال: المسك يقوِّي القلب، والعنبر يقوي الدماغ، والكافور يصلح الرئة، والعود يقوي المعدة، والغالية تحلل الزكام، والمثلثة تنشف العرق.

وقال ضياء الدين المناوي في المسك:

المِسكُ أنفسُ طِيبٍ   مثل الشباب وزَينه
إنْ كان للطيب عين   فالمسك إنسان عينه

وله في العود:

المندليُّ كريم   سقيا له ولغرسه
لما أراد يُرينا   للهند نسبة جنسه
غدا على النار ملقى   يجود فيها بنفسه

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

تجادلنا: أَماءُ الزهر أذكى   أمِ الخلَّاف أم ورد القِطاف
وعُقبى ذلك الجدلِ اصطلحنا   وقد حصل الوِفاق على الخِلاف

ولبعضهم في مبخرة:

عطَّرتُ مجلسي بنية طِيبٍ   أعربوا شكلها بحسن البخارِ
وإذا اعتلَّ للنسيم بخارٌ   أسندوا نحوَها صحيحَ البخاري

ولمؤلفه — لطف الله به — وإن كان غير مقصودنا:

مــذ بــاعــنــي بــالآسِ لا بــالــبــانِ مــن أعــطــافــه
حــكــمــوا بصــحَّــة بَــيــعــه مــع عــلــمــهــم بــخــلافــه

وللشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة فيها:

ومبخرة تحكي المتيَّم في الهوى تبوح بما تلقاه من شدة الكربِ
تقول وقد نَمَتْ بعرف بخورها: أأكتمُ ما ألقاه والنارُ في قلبي

وله:

سرحت مشطي سائلًا تصحيف قولي غاليةْ
إن لم تَجُدْ برخيصها فالنار منها غاليةْ

وقال الشيخ جلال الدين بن خطيب داريا:

حكيتُ في اللطف نسجَ العنكبوت على أنِّي ظهرت لكم من جوهرٍ قاسِ
يكاد أن لا يراني غير ذي نظر من اللَّطافة إلا طيب أنفاسي

صفة غالية طيبة لذيذة

يؤخذ مسك جيد جزء، وعنبر ربع جزء، ومسك جزآن، وسنبل الطيب جزء، يسحق الجميع ناعمًا، ويعجن بدهن بان، ويرفع ويستعمل.

صفة ند له في تفريح القلب أمر عجيب وفعل بالغ غريب

يؤخذ عنبر جيد فيوضع في إناء مسطح من نحاس على نار، ويصب عليه شيء يسير من ماء ورد، ويترك إلى أن يلين، ويدعك، ويغلف وزنه مسك جيد، ومثل نصف وزنه عود مسحوق، ويدعك دعكًا جيدًا، ويبسط على رخامة ويقطع شوابير، ويُتبخَّر به، فإنه عجيب في تقوية القلب، والقوة، وإحداث التفريح.

صفة ذريرة منسوبة إلى جعفر البرمكي

وكان كثير التبخير بها في أكثر ساعات نهاره وليله. يؤخذ سَليخة، وقرنفل، وفاغرة، من كل واحد جزء، وسنبل الطيب، وقُسْط مر، وصندل مقاصيري، وعود، وكبَّابة، وقاقُلَّة، من كل واحد نصف جزء، وزعفران ربع جزء، يدق الجميع ناعمًا ويوضع في إناء من صيني، ويسقى بماء الورد، وماء القرنفل، والنَّمَّام، وماء الآس، كل يوم مدة ثلاثة أيام، ثم يترك إلى أن يجف، ويسحق ناعمًا، ويضاف إليه كافور ومسك، ويُتبخَّر به.

نقلت هذه النسخة من كتاب مُفرِح النَّفْس، تأليف الحكيم الفاضل بدر الدين بن مظفر بن قاضي بعلبكَّ، الذي ألفه للأمير الفاضل سيف الدين عمر بن قزل المشد تغمده الله بالرحمة.

القول في المروحة

وهي ثلاثة أنواع: مروحة الخيش، ومروحة الأديم، ومروحة الخوص، ومن أحسن ما سُمع فيها قول عرقلة:

ومحبوبةٍ في القَيظِ لم تَخلُ مِن يدٍ وفي القَرِّ يسلوها أكفُّ الحبائبِ
إذا ما الهوى المقصورُ هيَّجَ عاشقًا أتتْ بالهوى الممدود من كلِّ جانب

وقال ابن معقل:

ومروحة أهدت إلى النفس روحها لدى القيظ منسوبًا بإهداء ريحها
رَوينا عن الريح الشمال حديثها على ضعفه مستخرجًا من صحيحها

وقال ابن صاحب تكريت، ولله دَرُّه:

يا سائلي عن نسيم طيٍّ مروحة أهدت سرورًا بترجيع وترويح
أما ترى الخوص أهدى من مراوحه ما أودعته قديم نسمة الريح

قلت: وعلى ذكر الخوص، فما أحسن ما قاله الشيخ برهان الدين القيراطي في وصف النوق:

صاح: هذي قباب طيبة لاحت وفؤادي على اللقاء حريص

وتبدَّت نَخيلُها للمطايا فعيونُ المطي للنخل خوص

قال أبو الفوارس سوار بن إسرائيل الدمشقي: كنت عند صلاح الدين يوسف بن أيوب، فحضر إليه رسولُ صاحبِ المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ومعه قود وهدايا، فلما جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران منسوجان بالسعف الأحمر، وقال الشريف يخدم السلطان: خذ هذه المروحة، فما رأيتَ أنت ولا أبوك ولا جدك مثلها. فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبًا، فقال الرسول: لا تعجل بالغضب قبل تأملها. وكان صلاح الدين ملكًا حليمًا، فإذا فيها مكتوب:

أنا من نخلة تجاور قبرًا ساد من فيه سائر الناس طُرًّا
شملتني سعادة القبر حتى صرتُ في راحة ابن أيوب أقرا

وإذا هي من خوص النخل الذي في مسجد رسول الله ﷺ، فقبلها صلاح الدين ووضعها على وجهه. وقال بعضهم فيها:

إنني أجلب الريا ح وبي يذهب الخجل
وحجاب إذا الحبيـ ـب ثنى الرأس للقُبل

وأما مروحة الأديم فإنها على نوعين: أحدهما مستديرة إلا موضع النصاب لا غير، والأخرى مستديرة، ثم يقطع ربع دائرتها التي تلي الوجه.

وفيها يقول ابن خروف:

ومروحة إن تأمَّلتَها ترَ فلكًا دائرًا باليد
وتُطوى وتُنشر من حسنها فتشبه قنزعة الهدهد

وأما مروحة الخيش فقد ذكرها الحريري في المقامات حيث قال: اسمعوا، وُقيتُم الطَّيش ومليتم العيش. وأنشد ملغزًا في مروحة الخيش:

وجاريةٍ في سَيرها مشمعلَّة ولكن على أثر القفول قفولها
لها سائق من جنسها يستحثُّها على أنه في الاحتثاث رسيلها
تُرى في أوان القيظ ينطف ماؤها ويبدو إذا ولي المصيف قحولها

قال الشريشي في شرح المقامات: هذه المروحة تكون شبيهة بالشراع الذي للسفينة، تعلق في سقف، ويشد بها حبل يدبَّر به مشيها، وتبلُّ بالماء، وترش بماء الورد، فإذا أراد الرجل في القائلة أن ينام جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجيء، فيهبُّ على الرجل منها نسيم بارد طيب الريح، فيذهب عنه أذى الحر ويستطيب، وهي فوقه ذاهبة وجائية؛ ولذلك سمَّاها جارية. ومشمعلة: سريعة الذهاب؛ وقفولها: رجوعها؛ والسائق: الشريط الذي يسوقها إذا جذبت به؛ يستحثها: يستعجلها؛ ومن جنسها: أي هو من كان مثلها؛ رسيلها: أي يرسل معها لزاوية البيت، ويرجع معها؛ أوان القيظ: وقت الصيف؛ وتنطف: تقطر، وقحولها: يبسها. انتهى كلام الشريشي.

قال الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة: وهذه المروحة مُحدَثة في زمن بني العباس، وكان سبب حدوثها أن هارون الرشيد دخل يومًا على أخته علية بنت المهدي في قيظ شديد، فألفاها قد صبغت ثيابًا من زعفران وصندل ونشرتها على الحبال لتجف، فجلس هارون قريبًا من الثياب المنشورة فجعلت الريح تمر على الثياب فتحمل منها ريحًا بليلة عطرة، فوجد لذلك راحة من الحر واستطابة، فأمر أن يصنع له في مجلسه مثله، على الوجه المشروح في كلام الشريشي، فاشتهرت، واستعملها الناس.

ومن ملح ألغاز الصاحب بن عباد فيها قوله لأبي العباس الحارث في يوم قيظ: ما يقول الشيخ في قلبه؟ فلم يفهم عنه. أراد في قلب الشيخ، وهو: خيش.

وقال السري الرفاء:

وخيش كما انجرَّت ذيول غلائل ... مصندلة تختال فيها الكواعب
وقد أطلقت فيها الشمائل وانثنت ... مقيلة في جانبيها الجنائب

الباب الثاني عشر

في الطيور المسموعة

القول على البَبغاء

وهو طائر هندي وحبشي، دمث الخلق، ثاقب الفهم، له قوة على حكاية الأصوات وتلقي التلقين، تتخذه الملوك في منازلهم لينمَّ بما يقع فيها من الأخبار، وفي لونه الأغبر، والأخضر، والأسود، والأحمر، والأصفر، والأبيض. وقد أهديت لمعزِّ الدولة هديةٌ من اليمن فيها ببغاء بيضاء، سوداء المنقار والرجلين، وعلى رأسها ذؤابة فُسْتُقيَّة، وكل هذه الألوان معدومة ما خلا الأخضر.

وفي طبع هذا الطائر أن يتناول طعمه برجليه كما يتناول الإنسان الشيء بيده، وله منقار معقف يكسر به الصلب، ويثقب به ما يعسر ثقبه، يتزاوج ويتعاشق، ويسكن الذَّكَر إلى أنثاه، وله عفة في مأكله ومشربه ومنكحه، ليس بشَرِهٍ ولا أَشِرٍ، وهو بمثابة الإنسان الظريف، والناس يحتالون على تعليمه بأن ينصب له تجاهه مرآة بحيث يرى خياله فيها، ويتكلم الإنسان من ورائها، فيتوهم أن خياله في المرآة هو المتكلم، فيأخذ نفسه بحكاية ما يسمعه من صوت الإنسان.

الوصف: كتب أبو إسحاق الصابي إلى أبي الفرج الببغاء أبياتًا في الببغاء منها:

زارتك من بلادها البعيدة   واستوطنت عندك كالقعيدة
ضيفٌ قِراه الجوز والأرزُّ   والضيف في أبياتنا يعزُّ
تراه في منقاره الخلوقي   كلؤلؤٍ نقِّط بالعقيق
ينظر من عينين كالفصَّين   في النور والظلمة بصَّاصَيْن

يـمـيـس فـي حـلـتـه الـخضـــراءِ مـثـل الـفـتـاة الـغـادة الـعـذراء
خـــريـــدةٌ خـــدورهـــا الأقـــفـــاص لـيـس لـهـا مـن حـبـســـهـا خـلاص

فأجابه بأبيات منها:

وحســــن مـنـقـارٍ أشـــمَّ قـانٍ كـأنـمـا صــــيـغ مـن الـمـرجـان
صــــيَّرهـا أفـرادهـا فـي الـجـنـس بـنـطـقـهـا مـن فصـــحـاء الأنـس
تـحـكـي الـذي تســـمـعـه بـلا كـذب مـن غـيـر تـغـيـيـر لـجـدٍّ أو لـعـب
ذات غشــا تـحســـبـه يـاقـوتًا لا تـرتضــــي غـيـر الأرز قـوتـا
كـأنـمـا الـحـبـة فـي مـنـقـارهـا حـبـابـةٌ تـطـفـو عـلـى عـقـارهـا
أقـدامـهـا بـبـأســـهـا الشـــديـد أوقـــعـــهـا فـــي قـــفـصٍ حـديـد

وهذه المذكورة تسمى في هذه البلاد: الدرة.

ومن ظريف ما سمعته فيها قول الشيخ الإمام العالم النحوي المفنن، زين الدين عمر بن المظفر أبي الفوارس، الشهير بابن الوردي، رحمه الله تعالى: فبينما الطاووس مصغٍ إلى الياسمين، وهو على ما ساقه الذنب على ساقه حزين، وإذا بدرة خضراء، لا بل درة عذراء، تقول: أفٍّ لطاووس الطير، من طاووس القراء، أيها الطاووس الطريد، المعكوس الشريد، شَغَلَكَ ظاهر الثياب عن باطن العيوب، إن الله لا ينظر إلى الثياب ولكن ينظر إلى القلوب، هلَّا شُغِلت بمداواة أمراضك عن بساتينك وغياضك، ولم لا فنيت عن ملبوسك وعجبك، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك، شاركت آدم في الخروج من الجنة والأسف عليها، فشاركه في التوبة والاستغفار والعودة إليها، على أن آدم خرج من الجنة قهرًا ليزرع في الأولى ما يحصده في الآخرة، وأما أنا — أيها الطاووس — فإني رأيت نفوس البشر أشرف النفوس، كرَّمهم الربُّ وفضَّلهم، وخلق الموجودات لهم، فشاركتهم نطقًا ورزقًا، ونادمتهم ونديم السعداء لا يشقى، فسبحان من بيده الخير، المؤلِّف بين البشر والطير، ومن أعجب أحوالي أن الصمت محمود إلا لي، لأني طائر ضعيف، ولا أقاسُ على البشر في التكليف:

غـائـب فـي الـقـلـب حـاضـــر كـاســــر لـلصــــب جـابـر
أنـــا مـــن خـــوف جـــفـــاه واقـــع والـــقـــلـــب طـــائـــر

أنـــا بـــالمـــحـــبـــوب فـــخـــري فـــانـــتـصــــــب يـــا مـــن يـــفـــاخـــر
أنـــا مـــن جـــودة بـــخـــتـــي عـــرضـــــت بـاســــمـــي الـــجـــواهـــر
هـــا أنـــا الـــدرة فـــاعـــرف قـــيـــمـــتـــي إن كـــنـــت تـــاجـــر

القول على القُمْري

سمِّي بذلك لبياضه، وحكاية صوته وهو يضحك كما يضحك الإنسان، ومن طبعه أنه شديد المودة والرحمة.

أما مودته، فإنه يفرخ على فنن من أفنان شجرة، كلها أعشاش لأبناء جنسه، يصاحبها كل يوم ولا يعتزل اعتزال الغراب.

وأما رحمته، فإنه يربي ولده، ويعف عن أنثاه ما دام ولده صغيرًا، وهو يطاعم أنثاه وتطاعمه، ويظهر منه عليها ولهٌ، وفيه من المروءة أنه متى تزوج لا يبتغي بأنثاه بديلًا.

وله اعتناء بنفسه وإعجاب بها، ومن عادته أنه يعمل عشه في طرف فنن، دائم الاهتزاز احترازًا على فرخه ليلًا، يسعى إليه من الحيوان الماشي ما يقتلها.

الوصف: قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ملغزًا فيه:

مـــا مـــعـــمـــى رأيـــتـــه فـــي عـــداد المـــطـــيـــر
كـــم لـــه مـــن مـــتـــرجـــم كـــم لـــه مـــن مشـــجـــر
كـــم لـــه مـــن كـــآبـــة ظـــهـــرت بـــالـــتـــدبـــر
كـــم خـــوافٍ لـــه بـــدت لالـــتـــمـــاح المـــبـصـــر
كـــلـــه مـــعـــجـــم وإن زال بـــعـــضَ لـــه قَرِي

ذكرت بقوله: كم خواف له، ما أنشدنيه من لفظه لنفسه، ونقلته من خطه، المعز الأشرف المرحوم، أوحد الدهر، ونخبة العصر، القاضي أمين الدين محمد الأنصاري، صاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروسة، من قصيدة امتدح بها المعز الصاحب المرحوم فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس، ناظر الدولة الشريفة بالديار المصرية، سامحه الله تعالى؛ أولها:

جـفـونـي مـن تـأرقـهـا دوامـي   مـدامـعـهـا تـفـيـض عـلـى الـدوامِ

ويقول في آخرها يصف القصيدة:

قـوادمـهـا يُنِرْنَ ولـيـس عـنـه   خـوافٍ تـحـت أجـنـحـة الـظـلام

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي:

تـنـفَّـسَ الصـبـحُ فـجـاءت لـنـا   مـن نـحـوه الأنـفـاس مسـكـيـةْ

وأطـربـت فـي الـعـود قُـمـريَّـةٌ   وكـيـف لا تـطـرب عـوديـةْ

وأنشدني سيدي القاضي شهاب الدين بن حجر — فسَّح الله في أجله — من لفظه لنفسه، بتاريخ ثالث عشر، ربيع الأول، من شهور عام اثنين وثمانمائة، بالقاهرة المحروسة، بمنزله — عمَّره الله ببقائه — بحارة بهاء الدين:

تخيَّرت رُسْـلًا سِـرُّنـا عنـدهم خَفَى   إليكمْ وتلـك الرُّسْـل فـهْي الحمـائم

إذا قـدمـت مـنـي عـلـيكم فـيـا لـهـا   خـوافـيَ سِـرٍّ حـمـلـتـهـا الـقـوادم

وأما الفواخت

فهي عراقية وليست بحجازية، وفيها فصاحة وحسن صوت، وصوتها في الحجازيات يشبه صوت المثلث، وفي طبعها تأنس بالناس، وتعشش بالدور، وهذا الحيوان يعمَّر، وقد ظهر منه ما عاش خمسًا وعشرين سنة، وما عاش أربعين سنة، على ما حكاه أرسطو.

الوصف: أنشدني من لفظه لنفسه إجازة، أوحدُ المتكلمين، العالم المفنن، فريد الدهر، المرحوم القاضي أمين الدين الأنصاري، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروسة، ملغزًا في فاختة:

ومـا طـائـر يَهـوى الـرِّيـاضَ تَنَزُّهًا   وَيَسْـرحُ فـي أفـنـائـهـا ويُغـرِّدُ

هِجـاءُ اسـمِهِ خُمسُ حُروفُ تعـدُّهـا   وخُمسـاه حَرفٌ إن تـأمَّلـت مُفـرَدُ

وبعـدهمـا تصـحيف بـاقِيـهِ إنْ تُرِد   بَيـانًـا لـه أفـعـى يَبِـينُ ويَشـهَدُ

وفـيـه أخٌ إن تُهـتَ عـنـه فـأُخـتُهُ   تـدلُّ على مـا قـد عَنَيـتُ وترشـدُ

قلت: أنشدت هذا اللغز الظريفَ التركيبِ للشيخ العلامة بقيَّةِ السلف الصالح، زين الدين أبي بكر بن عثمان، الشهير بابن العجمي، بمنزله بمدرسة الكامليَّة، بشارعٍ بين القصرين عند ارتحالي في أوائل سنة خمس وتسعين وسبعمائة، فأجاب بهذه الأبيات:

أيا مَن له مَجدٌ أثيلٌ وسُؤددُ ... غدا دونَ مَرماه سِماكٌ وفَرْقَدُ
تُفيدُ يَسارَ المُقتِرينَ يَمينُه ... ويُسراه من يُمنى الغَمامة أجودُ
سؤالُكَ عن أنثى طَروبٍ ولَمْ تَزَل ... على عُودها في الرَّوض تشدو وتُنشِدُ
وتَجذِبُني بالطَّوقِ حينَ نشيدها ... لنحوِ التَّصابي لا أطيقُ أُفَنَّد
يطير بها نحو النجاح جناحُها ... فتبلغ ما تختار ثَمَّ وتقصد
وفي بطن أنثى لم تُصَوَّر وإنَّما ... يصوِّرها من جنسها مَن يرقد
يذكِّرني تَذكارها أمَّ هانئٍ ... فتشرف في نفسي إذًا وتمجَّد
ومُذ بانَ منها الطَّرف أمستْ كعكسها ... تخافُ الرَّدى ممن لها يترصَّد
وإنْ حُذفَت بانَ الأخير فإنَّه ... على الحذف خافٍ بل يلوح ويشهد
وأولها مَعْ ما يليه وطَرفُها ... لنا فاهَ بالمعنى الذي منه يُقصَد
وحرفان منها فرد حرف لناطقٍ ... وأفٍّ لمن بالعكس من ذاك يجحد
وتفتح فاها حين تفقد ثالثًا ... وتاليه تخشى من لها يتصيَّد
فخذه مبينًا مغضِيًا عن إساءتي ... فإنَّك للإحسان أهلٌ ومقصَد
بقيتَ بقاءَ الدهرِ عزُّك باذخٌ ... وفي مَفرق الجَوزا لواؤك يُعقَد
ولا زلت في الدنيا سعيدًا مملكًا ... وحظُّك في الأخرى النعيم المخلَّد

وأما الشِّفنين

وهو الذي تسميه العامة اليمام، وصوته في الترنم كصوت الرباب في الأوتار، صوتًا محزونًا جدًّا، وهي متى اختلطت أصواتها مع أصوات غيرها حسنت، وأما وحدها فلا؛ لأن الزمر مستحسن مع الغناء، وغير مستحسن وحده.

وفي طبعه أنه متى فقد أنثاه لم يزل عزبًا يأوي إلى بعض فراخه حتى يموت، وكذلك الأنثى إذا فقدت الذكر.

وفي تركيبه أنه إذا سمن سقط ريشه وامتنع من السفاد، فهو لذلك لا يشبع نفسه.

وهو طائر ساكن جدًّا، وقد أُلهِم أنه يحترز من أعدائه بالسوسن يتخذه في وكره.

الوصف: ولنذكر الآن ما وقع للشعراء في أصواتهن جملةً لا تفصيلًا، فمن ذلك قول الحسام الحاجري:

إنـي لأعـذر فـي الأراك حـمـامـة الـنْـ ـــــنَـادي كـذلـكَ تفعـلُ العشـــَّـاقُ
حكمَ الـغرامُ الـحـاجري بـأســْرِهـا فـغـدتْ وفـي أعـنـاقـهـا أطـواقُ

قال القاضي الفاضل:

لـو كنـت جـاوبـت الـحـمـائم نـائـحًا قـال الوشـــاة: أذاع ســـرَّك بـائحـا
ســـل طائرًا صـــَدَعَ الفؤادَ بِشَـــجوِهِ أتراه غرَّد صـــادعًـا أم صـــادحـا
يا ضـعف من أمسـى الفريسـة في الهوى وغـدا الـحـمـام لـه هنـالـك جـارحـا

وقال المَنازي:

لـقـد عَرَضَ الـحمـامُ لنـا بشـَـجْعٍ إذا أصـــغـى لـه رَكْـبٌ تـلاحـى
شـــجـا قلـب الـخلـيِّ فقيـل: غَنَّى وبـرَّح بـالشـــجـيِّ فـقـيـل: نـاحـا

قلت: وبعد هذين أبيات لا بأس بذكرها، وإن لم تكن مما نحن فيه:

وكم للشـــوق في أحشـــاء صـــَبٍّ إذا انـدمـلـتْ أجـدَّ لـهـا جـراحـا
ضـــعيف الصـــبر عنـك وإنْ تقـاوى وســـكـران الـفـؤاد وإن تصـــاحـى
كـذاك بنو الهوى ســـكْرَى صـــُحـاةٌ كـأحـداق المهـا مرضـــى صِـحـاحـا

قلت: ولهذه الأبيات حكاية غريبة نقلتها من خط الحافظ اليغموري: روي أن أبا نصر المنازي المذكور، واسمه أحمد بن يوسف، دخل على أبي العلاء المَعَرِّيِّ وهو في الشام في جماعة من الأدباء، فأنشده كل واحد من شعره ما تيسَّر، حتى أنشده المنازيُّ أبياتًا له في وصف وادٍ، وهي:

وَقَانَا لفحةَ الرَّمضاءِ وادٍ	وَقاه مُضاعف الغيث العَميمِ
نزلنا دوحهُ فَحَنَا علينا	حُنوَّ المرضعاتِ على الفطيم
وأرشَفَنا على ظمأٍ زُلالًا	ألذُّ من المُدامة للنديم
يصدُّ الشمس أنَّى واجهتنا	ويحجبها ويَأذَنُ للنسيم
تروعُ حصاهُ خالية العذارى	فتلمسُ جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء: أنت أشعر مَن بالشام! ثم رحل إلى بغداد، فدخل المنازي عليه في جماعة من أهلها من الأدباء، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحدًا، فأنشده كل واحد ما حضره من شعره، حتى جاءت نوبة المنازي فأنشده لنفسه الأبيات المتقدمة، فقال أبو العلاء: ومَن بالعراق. إشارة إلى قوله: مَن بالشام.

وقال الشيخ صفي الدين الحلي:

وبشَّرتْ بوفاة الليل ساجعة	كأنَّها في غدير الصُّبح قد سبحتْ
مخضوبةَ الكفِّ لا تنفكُّ نائحةً	كأنَّ أفراخها في كفِّها ذُبِحَتْ

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر:

نَسَبَ الناسُ للحمامة حزنًا	وأراها في الحزن ليست هنالك
خضبتْ كفَّها وطوَّقت الجيـ	ـد وغنَّت وما الحزين كذلك

وقال جمال الدين محمد بن نباتة:

ما لي نديم سوى ورقاءَ ساجعةٍ	من بعدِ مغتَبقي فيكم ومصطَحبي
إذا أدار ادِّكار الوصل لي قدحًا	من أحمر الدمع غنَّتني على قدحي

وله:

بالجنكِ من مَغنى دمشق حمائمُ	في دُفِّ أشجارٍ تشوقُ بلطفها
فإذا أشار لها النديمُ بلطفه	غنَّت عليه بجنكها وبدُفِّها

وقال علاء الدين الوداعي:

وفــي أســــانــيــدِ الأراكِ حــافــظٌ   لـلـعـهـدِ يَـروي صــــبـرَه عن عـلـقـمـةْ
وكــلَّــمــا نــاحــتْ بــه حــمــامــةٌ   روى حـديـثَ دمـعـه عـن عـكـرمـةْ

وقال بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

وتـنـبَّـهـت ذات الـجـنـاح بســــحـرةٍ   بـالـواديَـيْـن فـنـبَّـهـت أشـــــواقـي
ورقــاء قـد أخـذت فـنـون الـحـزن عن   يـعـقـوبَ والألـحـان عـن إســــحـاقِ
قـامـتْ تُـطـارحـنـي الـغـرامَ جَـهـالـةً   من دون صـــحـبي بـالحمى ورفـاقي
أنَّــى تـبـاريـنـي جـوًى وصـــبـابـةً   وكـآبـةً وأســــًى وفـيـضَ مـآقـي
وأنـا الـذي أُملِي الهوى عن خـاطري   وهــي الـتـي تـمـلـي مـن الأوراق

وقال ناصح الدين الأرجاني:

من كـل أخطـبَ مِســـكيٍّ الإهـاب لـه   فـي مـنـبر الأيـكِ تَسـجــاع وتَهـدارُ
خطيب خطبٍ وقد أفنى الســـواد بِلى   فـمـن بـقـيَّـتـه فـي الـجـيـد أزرار

قلت: وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله تعالى:

مـذ غـنَّـتِ الـوُرقُ عـلـى عـيـدانـهـا   كـم خـلـع الـجـوُّ عـلـيـهـا مـن مُـلَح
تـدرَّعـتْ سُـــحـبًا وخـاضـــت شَـــفَقًا   وطـوَّقـت أعـنـاقـهـا قـوسَ قُـزَح

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

ذات طــوقٍ وذات زِيــقٍ تــغــنِّـي   فـتُـنـبـئ بـالـوجـدِ مـن لـيـسَ يَـدري
زُيِّـقـت ثـم كـاشــفـتـنـا فـقـلـنـا: لـك زيـق الـغـنـى وزيـق الـفـقـرِ
مـا تـراهـا قـد حـدَّثـت خـاطر الـنَّهـ   ــــرِ بما قد جرى وما منه يجري

وأنشدني من لفظه لنفسه سيدي وأخي تقي الدين بن حجة:

نـاحـتْ مـطـوَّقـةُ الـريـاضِ وقـد رأتْ   دمـعـي تـلـوَّن بـعـد فُـرقـة حِـبِّه
لـكـنْ بـتـلـويـنِ الـدمـوع تـبـاخـلـتْ   فـغـدتْ مـطـوَّقـةً بـمـا بـخـلـت بـه

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

ناحتْ حمامُ البان أم تاهت أسًى   لم أدرِ ما غناؤها من شوقها
عجماءُ لا تظهر حرفًا من شجًى   لأنها مخنوقة بطوقها

وقال أيضًا:

وذاتُ طَوقٍ على الأغصانِ تذكرني   قوامَ حسنك في ضمِّي لمعتنقِكْ
قد سوَّدت مُهجتي نَوحًا فقلت لها: سواد قلبي يا ورقاء في عنقِكْ

وقال الأمير مجير الدين بن تميم:

لم أنسَ قول الوُرقِ وهْي حبيسةٌ   والعيشُ منها قد أقام منغَّصا
قد كنتُ ألبس أخضرًا من أغصن   فلبستُ منها بعد ذاك مقفَّصا

وقال الأمير سيف الدين المشد في قفص:

أنا للطَّائر سِجنٌ   أقتني كلَّ مليح
قضب البان ضلوعي   وحمام الأيك روحي

وله على لسان الطائر:

يا غصونَ البان ماذا   بلغ الأحبابَ عنِّي
ما شجاهم طولُ نوحي؟   ما كفاهم فرطُ حزني؟
حبسوني عن مطاري   لا لمعنى ولفنٍّ
غير أني كنت مهما   أَشرَبِ الراحَ أُغَنِّ

ولمؤلفه — لطف الله به — من قصيدة:

حمام الأيك أسعدني   فإنِّي حِلف تبريح
وحزني حزن يعقوب   فابكِي الصَّبَّ أو نوحي

وأما الديك

فما ورد فيه أن النبي ﷺ قال: الديك الأبيض صديقي وعدوٌّ عدوِّ الله، يحرس دار صاحبه، وسبعَ آدُرٍ حوله. وكان يبيِّته معه.

وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأَفْرَق لم يزل ينكَّب في أهله وماله.

قيل: والفرخ يخلق من البياض والصفرة غذاؤه. وقيل: ليس في الدنيا أبخل من أهل مروٍ، حتى إن الديك ينزع الحب من أفواه الدجاج، مع أن العادة خلافُ ذلك، وكأنَّ ماء مرو يقتضي ذلك، فيسري في جميع حيوانها.

وكان مروان بن أبي حفصة من أبخل الناس مع يساره وما أصابه من الخلفاء، لا سيِّما من بني العباس، فإنه كان رسمه أن يعطوه لكل بيت يمدحهم به ألف درهم.

وقال دعبل: كنت عنده في بعض الأيام أنا وجماعة، فأخذنا في الحديث وطال المجلس حتى أضر به الجوع، فدعا بغداه فأتي بصحفةٍ فيها مرق ولحم ديك قد هرم لا تجري فيه السكين ولا يؤثر فيه ضرس، فأخذ قطعة من خبزٍ فحسا بها جميع المرق، وفقد رأس الديك فبقي مطرقًا ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغلام، فقال له: أين الرأس؟ فقال: رميت به. قال: ولمَ؟ قال: لم أظنك تأكله. قال: ولمَ ظننتَ ذلك؟ والله إني لأمقت من يرمي برجله فضلًا عن رأسه، والرأس رئيس، وفيه الحواسُّ الخمس، ومنه يصيح الديك، وفيه عيناه التي يُضرب بها المثل فيقال: شراب مثل عين الديك، ودماغه عجب لوجع الركب، فإن كان بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله، فانظر أين هو. فقال: والله، لا أدري أين رميت به! فقال: لكن أنا أدري أين رميت به؛ في بطنك.

وكان أيضًا لا يأكل اللحم حتى يجوع، فإذا جاع أرسل غلامه فاشترى له رأسًا فأكله، فقيل له: لا نراك تأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء، فلمَ تختار ذلك؟ فقال: نعم، الرأس أعرفُ سعره فلا يستطيع الغلام أن يخونني فيه، وليس بلحمٍ يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه، إن مسَّ عينًا أو أخذ أذنًا وقفت على ذلك، وآكل منه ألوانًا شتى، آكل عينيه لونًا، وأذنيه لونًا، ودماغه لونًا، ولسانه لونًا، فقد اجتمعت لي فيه أنواع.

نادرة: قال أبو حاتم الأصمعي: قدمت بغدادَ فدخلت مسجدًا بحضرة جماعة، فسألني بعضهم عن قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، ما تقول للواحد؟ قلت: قِ. قال: فالاثنين؟ قلت: قِيَا. قال: فللجماعة؟ قلت: قُوا. قال: فاجمع الثلاثة. قلت: قِ قِيا قُوا، وفي ناحية المسجد جماعةٌ، فمضوا إلى صاحب الشرطة،

فقالوا له: إنَّ هنا قومًا زنادقة يفسرون القرآن على صِياح الديك. فما شعرنا إلا بالأعوان قد أحضرونا بين يديه، فأعلمته ما سُئلت، فعنَّفني وأمر بضرب أصحابي عشرةً عشرةً.

وما أحسن قول بعضهم فيه:

قد قلت شعرًا مليحًا ... فَسِّرْه لي يا مليكي
أكلت ديكًا وديكًا ... وليس لي غير ديكِ

وقال ابن المعتز فيه:

بَشَّرَ بالصُّبْحِ طائرٌ هَتَفًا ... مُسْتَرقِيًا للجِدار مُشْتَرِفا
مُذكِّرًا بالصَّبوح صاحَ بِنا ... كخاطبٍ فوقَ منبَرٍ وَقَفَا
صَفَّقَ إمَّا ارتياحةً لِسَنَا الصْـ ... ـصُبْح وإمَّا على الدُّجَى أَسَفًا

ولله أبو علي بن رشيق حيث مزَّق عنه جلباب المادح، وتركه من شمل الذم في الزي الفاضح، فإنه قال:

قامَ بلا عَقلٍ ولا دِينٍ ... يَخلُطُ تصفيقًا بِتَأذينِ
فنبَّهَ الأحبابَ مِن نومهم ... ليخرجوا في غير ما حين
بصرخةٍ تبعث موتى الكرى ... قد أذكرت نفخ سَرافين
كأنَّها في حَلْقِه غُصَّة ... أغصَّه الله بسكِّين

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي من رسالة منطق الطير: فصاح الديك: ها أنا أناديك! أنا قد أذَّنت، فأقم الصلاة أنت، هذا أوان صف الأقدام، ووضع الحياة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ﴾، كم أُوْقِظُكَ! وبانقضاء الأوقات أعظك! فأشفقُ عليك بصياحي، وأرفرف عليك بجناحي، أقسم لك الوظائف بلا حساب، وأعرف المواقيت بغير إسطرلاب، أنهاكم عن معصية الله بخروج الوقت فلا تعصوه، ﴿وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾، فمن ادَّعى حسن الصحبة، فليؤثر كإيثاري، ولا يختص من رفاقه بجبَّة، كم منحت أهل الدار إخائي، ووليتهم ولائي، وهم يذبحون أبنائي، ويَستَحيون نسائي.

الباب الثالث عشر

في الشطرنج والنرد وما فيهما من محاسنَ مجموعة

قال الشيخ شمس الدين بن خلكان في تاريخه: رأيت خلقًا كثيرًا يعتقدون أن الصولي هو واضع الشطرنج، وهو غلط؛ وإنما واضعه صِصَّهْ (بصادين مهملتين أحدهما مكسورة والثانية مشدودة مفتوحة وفي الآخر هاء ساكنة). وأردشير بن بابك، أول ملوك الفرس الأخيرة، هو الذي وضع النرد؛ ولذلك قيل: النردشير، لأنهم نسبوه إليه. وأردشير: لفظ أعجمي تفسيره بالعربي: دقيق وحليب، فأرد: دقيق، وشير: حليب، وقيل: دقيق وحلاوة. وقيل: هو بالزاي لا بالراء، وضعه مثالًا للدنيا وأهلها، فرتب الرقعة اثني عشر بيتًا بعدد شهور السنة، والمهارك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر، والفصوص مثل الأفلاك، ورميها مثل تقبلها ودورانها، والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة، كل وجهين منها سبعة: الشش ويقابله اليك، والبنج ويقابله الدو، والجار ويقابله السا؛ وجعل ما يأتي به اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر تارة له وتارة عليه، وهو يصرف المهارك على ما جاءت به النقوش، لكنه إذا كان عنده حُسنُ نظرٍ عرف كيف يتأتى وكيف يتحيل على الغلب وقهر خصمه، على الوقوف عند ما حكمت به الفصوص.

ولما تم وضعه واشتهر افتخرت به الفرس، وكان ملك الهند يومئذ بلهيث، فوضع له صِصَّهْ المذكور الشطرنجَ، فقضت حكماء ذلك العصر بتفضيله على النرد، ولما عرضه على الملك وأوضح له أمره، سأله أن يتمنى عليه، فتمنى تضعيف بيوته قمحًا، فاستصغر الملك ذلك من همته، وأنكر عليه بما قابله من النزر القليل في ذلك، فقال له: ما أريد غير ذلك. فأمر له بذلك، فلما حسب أرباب الديوان ذلك قالوا

للملك: ما عندنا ما يقارب القليل منه! فأنكر ذلك، فأوضحوا له بالبرهان، فأعجبه الأمر الثاني أكثر من الأول.

قال القاضي شمس الدين بن خلكان: ولقد كان في نفسي حزازة من هذه المبالغة، حتى اجتمع بي بعض حُسَّاب الإسكندرية، وذكر لي طريقًا يبيِّن لي ما ذكروه، وأحضر لي ورقة بصحبة ذلك، وهو أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر، فأثبت اثنين وثلاثين ألفَ وسبعمائة وثمانية وستين حبةً، وقال: نجعل هذه الجملة مقدار قدح، وقد عَّبرتها فكان الأمر كما ذكر، والعهدة عليه في هذا النقل، ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين، فكان فيه وَيْبة، ثم انتقل من الوَيْبات إلى الأرادبِّ، ولم يزل يضعفها حتى انتهى في البيت إلى الأربعين، إلى مائة ألف إردبٍّ وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعمائة واثنين وستين إردبًّا وثلثي إردب، وقال: هذا المقدار شونة. ثم ضاعف الشون إلى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفًا وأربعة وعشرين شونة، ثم قال: هذا المقدار مدينة. ثم إنه ضاعف المدن إلى البيت الرابع والستين، وهو آخر الأبيات، فكانت الجملة ستة عشر ألف مدينة وثلاثمائة وأربعًا وثمانين مدينة، وقال: نعلم أنه ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد. انتهى.

قال أبو عبد الله محمد بن الأكفاني: إذا جمع هذا هرمًا واحدًا مكعبًا كان طوله ستين ميلًا وعرضه كذلك وارتفاعه كذلك بالميل، الذي هو أربعة آلاف ذراع، بالذراع الذي هو ثلاثة أشبار معتدلة، على أن الإردبَّ المصري مساحته ذراع مكعب، وزنته مائتان وأربعون رطلًا، وكل رطل مائة وأربعة وأربعون درهمًا، والدرهم أربعة وستون حبة من القمح.

قال عمر بن الخطاب وقد ذُكِر عنده الشطرنج: إني لأعجب من ذراع في ذراع يديرها الحكماء مذ وضعت، لم يقفوا لها على غاية.

قيل: سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون القتال، فإذا تنازعوا في كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج، فيأخذها الغالب من غير قتال.

ذمُّها

ذكر الصولي في كتابه، كتاب شعراء مصر، أن خُرَاسان الشاعر كان حاذقًا بلعب الشطرنج، فعابها الحسينُ الجملُ مكايدةً له، فقال: صاحبها أبدًا مشغول مهموم، يحلف بالله كاذبًا، ويعتذر مبطلًا، ويشتم نفسه، ويسخط ربه، وكل صناعة يجوز المكاثرة فيها غيرها، فإن صاحبها يغلب في ساعة

فتنقضي دعواه، وهو لعب الصائم إذا جاع، والعامل إذا عُزِل، والمخمور حتى يفيق؛ وإنما يهزم خشبٌ خشبًا، ثم إنَّ الرجل يسأل عن غلامه فيقال له: هو يلعب، فيضربه ولا يستحيي أن يقول: قم حتى نلعب، وهو يلاعبه، وأنت تقول في الكياس: ما أحذقه! وفي الطنبور: ما أضربه! وإذا عبرت عن الشطرنج قلت: ما ألعبه! فما تقول في صياغة العبارة عن الكياس أحسن من العبارة عن صاحبها.

قال الجاحظ: سمعت النظَّام يقول في الشطرنج: عَيِيَّان عجزا عن الأدب فتلاعبا بالخشب.

دخل أبو العنبس على أبي تمام وهو يلعب بالشطرنج وقد ضارب خصمه فقال: ما أوسخ هذا الشطرنج! فقال أبو تمام: واللعب أوسخ.

نادرة

حكي أن بعضهم كان إذا لعب بالشطرنج ضاربَ خصمه، فوُصِف لبعض الظرفاء، فقال: أنا ألتزم اللعب معه، وما يحصل بيننا ضرابٌ. فلما أتي به ولعبا قال له في أثناء اللعب: شاه استر. فقال: مليحٌ والله، القرنان أنت، والقواد أنت. فقال: يا أخي، ما الذي قلت لك؟ قال: قلت: استر، وهي اشتر، وما يشتر إلا الجمل، والجمل تصحيفه حمل، والحمل اسم نجم في السماء، يقاربه الجدي، والجدي الكبش، والكبش القرنان، والقرنان هو الذي يقود. فقال: يا أخي، ما رأيت من يضارب بتصحيف وتفسير إلا أنت!

نادرة

سأل بعض الأكابر إنسانًا فقال: هل تعرف اللعب بالشطرنج؟ فقال: لا والله يا مولانا، ولكنْ لي أخ اسمه عز الدولة، وهو أخي لأمي، أكبر مني بسنتين وأكثر بشيء يسير، كان قد حصل بيني وبينه خصومة غاظته، فسافر من مدة عشرة أعوام وسكن مدينة قوص، وبلغني أنه فتح له دكَّان عطر، وإلى الآن ما ورد على المملوك منه كتاب، وهو ما يعرف يلعب بالشطرنج.

ومشى البيدق مع شاب موسوم بالجمال، فقال شمس الدين المنجم الشاعر: أراك يا بيدق تفرزن حول هذي النفس. فقال له: وإذا كان ذلك؟ فقال: أخشى عليك من ذلك الرخ لا يقطعك من الحاشية ويرميك عن الفرس، ويقطع عليك الرقعة، ولو كان في كفَّتك الفيل. يشير بقوله: ذلك الرخ، إلى أحد الأعيان، كان يحب الشاب المذكور.

نادرة

بعض الأجناد كان كثيرًا يلعب بالشطرنج مع مخدومه، وكان الجندي خليعًا، فأعطاه الأمير فرسًا وقال له: لا تفرِّط فيها. قال: نعم. وبعد ذلك ألفاه راجلًا وهو لابس جوخة، فقال له: ويلك! أين الفرس؟ فقال: يا خوند، ضربني الشتا شاه مات فسترت بالفرس.

وما أحسن قول القاضي الفاضل يصف حصار قلعة: وجثا المنجنيق يحاكمها، ولسان حبله يخاصمها، والخادم تحت المنجنيق الإسلامي، يعرض وجهه للمنجنيق الفرنجي، ويقلع الستائر قلع الشطرنجي، حيث التراس بيادق، والجنابي رخاخ، وحيث القلاع صيد، والمنجنيقات فخاخ.

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة وظرف:

أشكو السَّقامَ وتشكو مثله امرأتي ... فنحنُ في الفرش والأعضاء نرتجُّ
نفسان والعظم في نطع يجمِّعنا ... كأنَّما نحنُ في التمثيل شطرنجُ

وله ملغِّزًا فيه:

وما صامتٌ يمضي ويرجع حائرًا ... ويقضي على أوصاله الوصلُ والصَّدُّ
كأنَّ الأسى آلى عليه أليَّةً ... فما فيه إلا النفس والعظم والجلد
وأحْرُفُه خَمسٌ على أنَّ شطره ... ثلاثةُ أخماسِ الحروف التي تبدو

وله فيمن يلعب غائبًا:

ولاعبٍ يعربُ شطرنجهُ ... عَن ذهنه المتَّقدِ الصائب
يغيب لكنْ ذهنه حاكمٌ ... يا حبَّذا من حاكمٍ غائب

وله:

لله في الشطرنج فكرةُ لاعبٍ ... إنْ غاب أو حضر اجتليتُ حدائقَه
شكرته نفْس اللعْب أو نفْس النُّهى ... هاتيك صامتة وهذي ناطقةْ

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

تأمَّل ترَ الشطرنج كالدهر دولةً نهارًا وليلًا ثم بؤسًا وأنعما
محركها باقٍ ويفنى جميعها وبعد الفَنا تحيا وتُبعث أعْظُما

قلت: وهذا يشبه قول القاضي الفاضل وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر من يعاني خيال الظل ليفرجه، فقام الفاضل فقال له صلاح الدين: إن كان حرامًا فما نحضره. وكان حديثَ عَهْدٍ بخدمته قبل أن يلي السلطنة، فما آثر أنه يتكدر عليه، فقعد إلى آخره، فلما انقضى ذلك قال له السلطان: كيف رأيت ذلك؟ فقال: موعظةً عظيمة، رأيت دولًا تمضي ما كأنها كانت، ودولًا تأتي. ولما طوى الإزار طيَّ السجل للكتاب، إذا بالمحرك واحدٌ. فأخرج هذا الجد في هذا الهزل.

وللشيخ بدر الدين أيضًا مضمنًا:

أميل لشطرنج أهل النُّهى وأسلوه من ناقل الباطلِ
وكم رمتُ تهذيب لُعَّابها وتأبى الطباع على الناقلِ

وقال:

لعبتُ بالشطرنج في غاية تقصر الأوصاف عن حدِّها
إنْ صاعَ في الأقران لي بيدقٌ تموت منه الشاة في جلدها

وقال أيضًا، وكان يلعبها غائبًا، وله يد طولى فيها:

لي في الشطرنج نقل أتقن الإدمان حفظه
ألعب الغائب منها فأراه طيف يقظة

وكتب إلى شيخنا العلامة عز الدين الموصلي من حماة المحروسة كتابًا، وفيه من المتجددات قوله مضمنًا:

جاهل شطرنج ينادي وقد أمات نفس اللعب من عكسه
ما تفعل الأعداء في أحمق ما يفعل الجاهل في نفسه

وقال جمال الدين بن نباتة:

أفديه لاعب شطرنج قد اجتمعت في شكله من معاني الحسن أشتاتُ
عيناه منصوبةٌ للقلب غالبة والخدُّ فيه لقتل النفس شامات

وقال صلاح الدين الصفدي:

ألاعب بالشطرنج بدرَ ملاحةٍ محاسنُه تزهى على طلعة الشمس
سترت ضنًّا جسمي فلما رأيته يروم قطاعي خفت منه على نفسي

وقال زين الدين بن الوردي:

لاعبتُ بالشطرنجِ مَن أضحى كشمسٍ طالعةْ
نفسي به ماتت وما تُعجِبُني المُقاطعةْ

ومن الاستشهادات اللطيفة ما أنشده الشيخ نور الدين علي بن سعيد المغربي، صاحب المرقص والمطرب، وغيره، وقد رأى شخصًا يلعب الشطرنج ويضرب الرقعة بالقطع ضربًا عنيفًا، فقال:

رِفْقًا بهنَّ فما خُلِقْنَ حديدًا أوَما تراها أعظمًا وجلودا

قلت: وهذا البيت أول قصيدة للشريف البياضي في وصف النوق، ولقد أجاد نور الدين رحمه الله تعالى.

وعلى ذكر نور الدين فما أحسن ما كتب به إلى القاهرة المحروسة سيدنا ومولانا الفاضل المؤرخ المحدث المفنن شهاب الدين أحمد بن القاضي نور الدين علي الشهير بابن حجر فسَّح الله في أجله، وذلك من بعض متجدداته:

مولايَ نور الدين صبَّحك الهنا بسعادةٍ تبقى لديك سرورها
لا تحتجب عن مقلتي فأنا امرؤٌ إنْ لم تكن عيني فإنك نورها

ونقلت من خط الشيخ بدر الدين أبي المحاسن محمد بن إبراهيم البشتكي، أحد فضلاء الديار المصرية وبقية متأخريها، سلمه الله تعالى، في إلقاء العاشر من الشطرنج على قاعدة الحكاية المشهورة، ولم أعلم الضابط في هذه الأعداد، جميعها له أم لغيره، وأُنْسِيتُ أن أسأله:

موت عدوِّي يزيل حزني والحق سيفٌ به قتالي

إلقاء التاسع:

ولما فُتِنتُ بلَحظٍ له عذرتُ فما خفت من شامت

إلقاء الثامن:

أبثك يا عَزُّ شوقي لعلَّ تَمُنِّي بعطفٍ به راحتي

إلقاء السابع:

يا مليحًا بتُّ شاكي بَثِّه ومتى رقَّ ظَلومٌ لِتَشَكِّ

إلقاء السادس:

إنْ كان في صدِّك قتل فقد أنالني فَقدَ أحبابي

إلقاء الخامس:

تنكَّر في حبِّه جائرًا فبات وفوه يبثُّ الحرق

إلقاء الرابع:

وفاتن منظره فتنةٌ ليس يرى إلا جفا عاشِقِهِ

اللام ألف حرف واحد.

قال المنقول من خطه: أنشدني من لفظه لنفسه صاحبنا جلال الدين بن خطيب دَارَيَّا — سلمه الله تعالى — في إلقاء الثالث:

بك يا خيرَ مُنجِدٍ يُحجَبُ الغيْـ ـيُ إذا قيلَ أي حرٍّ يُصَدُّ

وقال القاضي السعيد بن سناء الملك:

ويومٍ مطيرٍ قد ترنَّم رعده وصفَّق لَمَّا أحسَّ القَطر في الرقصِ
ورقعة ماءٍ تحتَ برد فواقعٍ وافق عليه البرق يلعب بالفص

وقال الشيخ شمس الدين بن الصائغ:

لما غدا بدر الدُّجى لاعبًا	بالنرد يلقي الفص مثل الشَّرَك
وفاقَ في الحسن وفي لعبه	ناديت: بالله ما أقمرك

وقال زين الدين بن الوردي:

مهفهفان لعبا	بالنرد أنثى وذكر
قالت: أنا قمرية	قلت: اسكتي فهو قمر

ولبعضهم يوري بأعداد النرد:

ساعدني جاري على شادنٍ	أعطيته خمسًا بمقدارِ
ما تأتي النيك في تكة	إلا بهذا البنج والجار

في إلقاء الخامس من قطع النرد، من نظم الشيخ صلاح الدين الصفدي:

لا تبكِ إنْ هبَّت ريحُ نجد	إنَّك تأنيس ما بيننا

اللام ألف حرفان.

وله في إلقاء السابع:

قد ردَّ شأني بكل شَيْنٍ	عدمت في ذا صلاح جبري

الباب الرابع عشر

في الشمعة والفانوس والسراج

من رسالة الإمام ضياء الدين محمد بن نصر الله الجزري المعروف بابن الأثير: وكان بين يديَّ شمعة تعمُّ مجلسي بالإيناس، وتُغنِي بوجودها عن كثرة الجُلَّاس، وينطق لسان حالها أنها أحمدُ عاقبةً من مجالسة الناس، فلا الأسرار عندها بملفوظة، ولا السقطات لديها محفوظة. وكانت الريح تلعب بلهبها، وتختلف على شعبة تشعُّبها، فطورًا تقيمه فيصير أنملة، وطورًا تميله فيصير سلسلة، وتارة تجوفه فيصير مدهنة، وتارة تجعله ذا ورقات فيتمثل سوسنة، وآونة تنشره فيصير منديلًا، وآونة تلفه على رأسها فيستدير إكليلًا. ولقد تأملتها فوجدت نسبتها إلى العنصر العسلي، وقَدُّها قد العسال، وبها يُضرَب المثل للحكيم، غير أن لسانها لسان الجُهَّال، ومذهبها مذهب الهنود في إحراق نفسها بالنار، وهي شبيهة بالعاشق في انهمال الدمع واستمرار السهر وشدة الاصفرار، وكل هذا تجدد لها بعد فراق أخيها ودارها، والموت في فراق الأخ والدار.

وقد نزع هذا المنزع من رسالة أخرى فقال: وذلك أنَّ لها قَدًّا أَلِفِيَّ القوام، مشبهًا في نحوله واصفراره بحال المستهام، وهي والقلم سيان إذا قُطع رأسهما صحًّا بعد السَّقام، ومن عجيب شأنها أن روحها تحيا بفناء جسمها، وبالأرواح تكون حياة الأجسام، وقد وصفها قومٌ بأن لها خُلُقًا كريمًا في رعاية حقوق الإخوان، وأن بكاءها ليس إلا لمفارقة أخيها الذي خرجت معه من بطن ونشأت معه في مكان، وهذا الوصف من ألطف أوصافها، وهو مما يزيد الأحباب وجدًا بأحبابها، ويهيج الأُلَّاف شوقًا إلى أُلَّافها، وكانت الريح تلعب بلهبها لدى الخادم فسلطه أشكالًا، فتارة تبرز نجمًا وتارة هلالًا، ولربما سطع طورًا كالجُلَّنارة في تضاعيف أوراقها، وطورًا كالأصابع في انضمامها وافتراقها، وآونة تأخذه فتلقيه على رأسها كالقناع، ثم ترفعه عنها حتى تكاد تزاوله بذلك الارتفاع.

ثم قال بعد ذلك كلامًا ليس فيه تشبيه: فكما كانت الريح تلعب بالشمعة فتنقلها من مكان إلى مكان، كذلك الشوق يلعب بالقلب فينقله من حال إلى حال.

وهذا الوصف وإن مد باعه لمعانقته الإبداع، وأودع أسرار المعاني في صدور الألفاظ فصانها بالإيداع، مأخوذ من موضعين: أحدهما من قصيدة الأرجاني، والآخر من كلام أبي محمد عبد الله بن أبي الخصال الأندلسي، فأما كلام ابن أبي الخصال فإنه مذكور في آخر هذا الباب عند ذكر السراج. وأما قصيدة الأرجاني فهي:

نَمَّتْ بأسرارِ صبحٍ كان يُخفيها ... وأطلَعَتْ قَلْبَها للناس من فِيها
قلبٌ لها لم يَرعنا وهو مُكْتَتِمٌ ... إلَّا برقية نارٍ من تراقيها
سفيهةٌ لم يزلْ طولُ اللسان لها ... في الحُيِّ يَجْني عليها ضَرْبَ هَاديها
غريقةٌ في دموعٍ وهي تُحرِقُها ... أنفاسها بدوامٍ من تَلَظِّيها
تنفَّستْ نَفَسَ المهجورة ادَّكرتْ ... عهدَ الخليطِ فباتَ الوَجدُ يُبكيها
يُخشَى عليها الرَّدى مهما ألمَّ بها ... نسيم ريحٍ إذا وافَى يُحيِّيها
بدتْ كنجمٍ هدى في إثْر عِفرِيةٍ ... في الأرض فاشتعلت منها نواصيها
نجمٌ رأى الأرض أَوْلى أن يُبوَّأها ... من السماء فأمسى طَوْعَ أهليها
كأنَّها غُرَّةٌ قد سالَ شادخها ... في وجه دهماء يزهيها تجلِّيها
أو ضَرَّةٌ خُلِقَتْ للشَّمس حاسدةً ... فكلَّما حُجِبَتْ قامتْ تُحاكيها
وحيدةٌ بشَباة الرمح هازمةٌ ... عساكرَ الليلِ إن حَلَّتْ بواديها
ما طَنَّبَتْ قَطُّ في أرضٍ مُخَيِّمةً ... إلَّا وأقمرَ للأبصارِ داجيها
لها غرائبُ تبدو من محاسنها ... إذا تفكَّرتُ يومًا في معانيها
فالوجْنةُ الوردُ إلا في تناولِها ... والقامةُ الغصنُ إلا في تثنِّيها
قد أثمرتْ وردةً حمراءَ طالعةً ... تُجنى على الكفِّ إن أهويتَ تجنيها
وَرْدٌ تُشاكُ به الأيدي إذا قُطِفَتْ ... وما على الغُصن من شَوكٍ يُوقِّيها
صُفْرٌ غَلائلها حُمْرٌ عَمائمها ... سُودٌ ذوائبها بِيضٌ لياليها

كصَـــعْدةٍ في حَشــــا الظَّلماءِ طاعنةٍ … تَســـْقي أســــافلها رِيًّـا أعـاليهـا
وَصـــيفةٌ لســـتَ منها قاضـــيًا وَطَرًا … إنْ أنـتَ لم تَكسُـــهـا تـاجًـا يُحلِّيهـا
صـــفراءُ هنـديـةٌ في اللون إن نُعتَـتْ … والقَـدِّ واللِّين إن أتْمَمْـتَ تشـــبيهـا
مـا إنْ تـزال تـبـيـت الـلـيـلَ لاهـثـة … ومـا بِهـا عِلَّـةٌ في الصـــَّدْرِ تُظميهـا
تُحْيِي الليـاليَ نورًا وَهْيَ تَقْتُلهـا … بئسَ الجزاءُ لَعَمْرُ اللهِ تَجزيهـا
وَرْهـاءُ لم يبدُ للأبصـــار لابِسُـــهـا … يومًـا ولا يحتجب عنهنَّ عـاريهـا
قُدَّتْ على قَدِّ ثوبٍ قد تبطَّنهـا … ولم يُقـدَّر عليهـا الثوب كـاســيهـا
غَـرَّاءُ فَـرْعـاء مـا تـنـفـكُّ قـالـيـةً … تـقـصُّ لِـمَّـتـهـا طَـورًا وتَـقْـلِـيـهـا
شَـــيباءُ شَـــعْثاء لا تكســـي غدائرها … لـونَ الشـــَّبيبـة إلا حـين تُبـليـهـا
قـنَّاء ظـلـمـاء مـا يـنـفـك يـأكـلـهـا … ســنِـانهـا طُول طَعنٍ أو تشـــَظِّيهـا
مفتوحـةُ العين تُفْني ليلهـا ســـهرًا … نَـعَـمْ وإفـنـاؤهـا إيـاه يُـفـنـيـهـا
وربَّـمـا نـالَ مـن أطـرافـهـا مَـرَضٌ … لم يشْـــف منه بغيرِ القَطْعِ شـــَافيها

وقال القاضي الفاضل:

ولمـا أراد الـلـيـل يـنـظـر وجـهـه … تقـدم أن يـذكي لـه الشـــمع أعينـا
ومـا هـي إلا أعـين وجـفـونـهـا … دجاهـا وإنســـان الســـعود نهارنـا
ريـاض دجـى فـتـحـن عـنـد وقـودهـا … أزاهر نـارٍ تركب الشـــمع أغصـــنـا
عجبت لروضٍ منـه بـالنـار يزدهي … وإلا كـزهـرٍ مـنـه بـالـعـين يـجـتـنـى
قتلن الدجى والنور فيض دِمـائهـا … إذِ النـار نصـــل والشـــموع لها قنـا

وقال فيها:

بكت مثلمـا أبكي وفـاضـــتْ دموعهـا … ولـم تُفْشِ أســـرارًا كفيضِ دموعي
إشـــارة مظلومٍ وعَبْرة عـاشـــق … ووقـــعـــة مـــأمـــور ولـــون مـــروعِ
أقـامـت إلـى نـحـر الـظـلام أســـنَّة … فـلـم يـلـقـهـا إلا بـخـلـع دروعِ

وقال أيضًا:

والشمع فوق البحر تحسب أنه … من لُجَّةٍ قد أطلع المرجان
والماء درعٌ والشموع أسنَّةٌ … ولها إذا خفق النسيم طعان

وقال محمد بن علي الوزير حاجب النعمان:

وطلعةٌ كالرمح شاهدتها … سنانها من ذهب قد طُبِعْ
دموعها تنهل في نحرها … ورأسها يحيا إذا ما قُطع

وقال آخر وأجاد:

إذا مرضتْ طالَ منها اللسا … نُ ومَدَّ المُداوي إليها يدا
ويقطع من رأسها الجُلَّنا … رُ فيرجع إهليلجًا أسودا

وقال ابن خفاجة:

وصعدة لبست سربالَ مشتهرٍ … بالحبِّ منغمسٍ في الدمع والحرق
ما زال يطعن صدر الليل يهدمها … حتى بدا سائلًا منه دمُ الشفق

وقال آخر وأغرب:

وباكية من غير حزن بأدمُعٍ … تذوب بها أحشاؤها حين تنهمل
دموعًا إذا رُدَّت إليها بكت بها … ولم أرَ دمعًا غيره رُدَّ في المُقَل

وقال سيف الدين المشد:

ولم أرَ مثل شمعتنا عروسًا … تجلَّت في الدُّجى ما بين جمع
كأن عقود أدمعها عليها … سلاسل فضةٍ أو قضب طلع

وقال محاسن الشوَّاء:

حكتني وقد أودى بيَ السُّقمُ شمعة … وإنْ كنت صبًّا دونها متوجِّعا

ضَــنًى وسُـــهادًا واصـــفرارًا وزفرة وصـــبرًا وصـــمتًا واحتراقًا وأدمُعا

وقال نور الدين بن سعيد:

ومـجـلـسِ أُنْسٍ زيَّـنـتـه عـرائـسٌ تزيـد لنـا وصـــلًا إذا مـا قطعنـاهـا
إذا طعنـتْ صـــَـدْرَ الظلامِ برُمحهـا يردُّ بســـيفِ الصـــبح منه فـأفنـاهـا

الشيخ زين الدين بن الوردي:

ممشـــوقة مثل صـــدر الرمح عارية قـد توِّجَـت بنظير الكوكـب الســَّاري
تَبْكِي إذا ضـــحكت جُلَّاسُـــها فَرَحًا فـالقومُ في جَنَّـة والشـــمعُ في نـارِ

وقال ابن الجلال، وأجاد إلى الغاية:

وصـــحيحةٍ بيضـــاء تطلع في الدُّجى صـــبحًا وتشـــفي النـاظرين بِدائِهـا
شـــابـتْ ذوائبهـا أوانَ شـــبـابهـا واســـودَّ مـفـرقـهـا أوانَ فـنـائـهـا
كـالـعين فـي طـبـقـاتـهـا ودمـوعـهـا وســـوادهـا وبياضـــهـا وضـــيائهـا

مجير الدين بن تميم، وقد طفئت شمعةٌ بمجلسٍ فزارهم مليحٌ عقيب طفيها:

ومـخـطـفـةٍ أوقـدتـهـا جـنـحَ لـيـلـةٍ وقـد زار من أهوى وتمَّ بهـا أُنْسِـــي
فـأطفـأتها إذ أشـــرقت شـــمسُ وجههِ ومِن سـفهٍ أن يوقدَ الشـمع في الشـمسِ

وقال إبراهيم المعمار:

لا تـــنـــوِّر فـــي مـــقـــامـــي شـــمـــعـــةً مـــن غـــيـــرِ حـــاجـــةْ
قـــد كـــفـــانـــا طـــلـــعـــة الـــبـــد ر ومصـــــبـــاح الـــزجـــاجـــة

ولما أنشدتها للأمير شهاب الدين الحاجبي قال له: لمَ لا قلت:

أطـــفـــئـــوا ذا الشـــــمـــع عـــنَّا مـــا لـــنـــا بـــالشـــــمـــعِ حـــاجـــة

فقال إبراهيم: أردت مقامي. وهذا في غاية الظرافة.

علاء الدين الوداعي، وقد أهدى شمعة:

يا من ببعادهم أساء الدهر إليَّ والآن فقد أنعم بالقرب علَي
قد أظلمت الأشواق طرفي فلذا قدَّمتُ إليكم شمعةً بين يدَي

وقال البدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي في مليحٍ يقطُّ الشمع:

وذي قوام أهيفٍ بين الندامى قد نشط
قام يقطُّ شمعةً فهل رأيت الظبي قط

سيف الدين المشد ملغزًا في طوَّافة:

ليِّنة الأعطاف لا يُنكَر فضلُ قدرها
حياتُها في طَيِّها وموتها في نشرها

وقال ناصر الدين بن شافع في وصفها: وشمعة قد استتم نبتها في روض الأنس حتى نوَّر، ولا نما بدوحة الفاكهة حتى أزهر، أومأ بنان تبلجها إلى طرق الهداية وأشار، ودل على نهج التبصر وكيف لا وهي علم في رأسه نار، كأنما هي قلم امتدَّ بماء أليق من ذهب، أو صعدة إلا أن سنانها ذهب، وحَسْبُها كرمًا أنْ جادت بنفسها، وأعلنت بامتناعها على همود حسها، سائلها في الجود بأمثالها مسؤول، ودمعها بالعفو للصفو من ساحتها مطلول، تحيَّتها: عموا صباحًا، بتألق فجرها، وتمام بدرها في أوائل شهرها، قد جمعت من ماء دمعها ونار توقدها بين نقيضين، ومن حسن تأثرها وعين تبصرها بين الأثر والعين.

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر: في حين ما شق زنجي الدجى عن ترائبه جَيْبًا، ونشر الظلام ظفائره وقد اشتعل رأسه من النجوم شَيْبًا، في ضوء شمعة نشرت على الورق رداء الأصيل، وأخفت من الدجى سواد جفنه الكحيل، وسترت ذوائبه في معصفر أوهج من وجنتَيْ بُثَيْنة، لولا أنها في صفرة وجهِ جَميل.

وكتب الأديب الفاضل الكامل شرف الدين عيسى بن حجاج العالية، أحد شعراء العصر بالديار المصرية، أبقاه الله تعالى، إلى الوزير العلامة فخر الدين بن مكانس، تغمده الله بالرحمة: يقبِّل الأرض التي شافه ترابها المواطئ الفخرية فزاد إعجابًا، وقال المسك: يا ليتني كنت ترابًا! ويُنهِي أنه أقبل على المطالعة والباقي من العشر ليالٍ خمس، واستهدى بنجوم فوائدها حين قامت الشمعة بوظيفة الشمس، واستدعى أعوانًا من السهر فتخاذلت عنه أعوانه، وخشي من غلبة النوم فتغلب عليه سلطانه، ولما أغفى

على وجه الكتاب لعبتِ الشمعة بلسانها، وتناولت طرف شاشه بيد نيرانها، فهبَّ المملوك وأخمد منها ما تصاعد من الأنفاس، وقابلها على حرق الشاش بقطع الرأس.

أنَّى جلستُ بشمعةٍ مَوقُودةٍ ... لِأُطالِعَ الأسفارَ للتَّسبيح
فتناولتْ شاشِي أوائلُ نارها ... وتمكَّنت منه بمرِّ الريح
من قَبْلِ حَرْقِ الشاش كنتُ مطالعًا ... في الكتب صرتُ مطالعًا في الروح

وقد توسلت بهذه الرسالة المدوَّنة في باب المنظوم والمنثور، ومددت يد سؤالي لطلب شاش مقصور، وأرجو أن يُجمَع لي بين الممدود والمقصور، أبقاك الله للأولياء الذين يحبون وُجُودك، ويستمطرون كرمك وَجُودك.

وقال مجير الدين بن تميم وقد مر بدار بعض أصحابه ومعه شمعة وقد طفئت، فأوقدها من داره:

لما أزرْتُكَ شمعتي لتنيرها ... جاءت تحدِّث عن سِراجك بالعجب
وافته حاسرةً فقبَّل رأسها ... وأعادها نحوي بتاجٍ من ذهب

وحُكي أن مجير الدين الخياط الدمشقي كان يتعشق غلامًا من أولاد الترك، فشرب في بعض الليالي وسكر، فوقع في الطريق فمرَّ الغلام عليه وهو راكب، فرآه في الليل مطروحًا فوقف عليه بالشمعة، ونزل فأقعده ومسح وجهه، فسقط من الشمعة نقطة على خده، ففتح عينيه فرأى الغلام على رأسه، فاستيقظ من سكرته وأنشد مرتجلًا:

يا مُحْرِقًا بالنار وجهَ مُحِبِّه ... مَهلًا فإنَّ مَدامعي تُطفيه
أَحْرِقْ بها جسدي وكلَّ جوارحي ... واحذَرْ على قلبي فإنَّك فيه

وأما الفانوس

فمن أحسن ما سمعته فيه قول مجير الدين بن تميم:

انظر إلى الفانوس تلقَ متيَّمًا ... ذُرِفَتْ على فقدِ الحبيب دموعُه
يبدو تلهُّبُ قلبه لنحوله ... وتُعَدُّ من تحتِ القميصِ ضلوعُه

وقال:

أَبْـدَى اعتـذارًا لنـا الفـانوسُ حينَ بَـدا   فـي حـالـةٍ مِن هَواه ليس يُنكرهـا
رأى الهوى مُضـــرِمًا ما بين أضـــلعه   نـارَ الجوى فغـدا بـالثوبِ يســـترهـا

وقال الوجيه المناوي:

كـأنَّـمـا الـلـيـل وفـانـوســـنـا   يـجـلـو دجـى الـظـلـمـةِ لـلـحـس
لُجَّـة بـحـرٍ قـد طـمـا مـوجُه   تســـبـح فـيـه كُـرَّة الشـــمـس

وقال شهاب الدين بن أبي حجلة مضمنًا:

وكـأنـمـا الـفـانـوس نـجـمٌ نَـيِّـرٌ   مـنـعَ الـظـلامَ مـن الـهـجـوم طـلـوعُه
أو عـاشـــقٌ أجرى الـدموع بحُرقـةٍ   مـن حـرِّ نـارٍ قـد حَـوَتْـهُ ضـــلـوعُه

وله فيه مضمنًا:

أنـا في الـدجى ألقى الهوى وبمهجتي   حـرَقٌ يـذوب بـهـا الـفـؤاد جـمـيـعـهُ
فكـأنَّني فـي الليـل صـــبٌّ مـدنفٌ   كتم الـهوى فوَشـَــتْ عليـه دموعـه

وله فيه مضمنًا:

يحكي سَـــنـا الفـانوسِ مِن بُعـدٍ لنـا   بَـرقًـا تـألَّـق مـوهـنًـا لمـعـانُـهُ
فـالنـارُ مـا اشـــتملت عليه ضـــلوعه   والمـاء مـا ســـمـحـتْ بـه أجـفـانُـهُ

وله:

أنـا في مقـام النـاصـــر الســـلطـان لا   أشـــكـو إلـى مـحـبـوبٍ قـلـبي مـا بي
فـاصـــبر كصـــبريَ في الهواء لأنني   مـتـجـلِّـدٌ والـنـارُ تـحـتَ ثـيـابـي

مجير الدين بن تميم:

يـقـول لـهـا الـفـانـوس لمَّـا بـدت لـه   وفـي قلبـه نـارٌ من الغيظ تَســَعَّرُ:
خُذي بيـدي ثمَّ اكشـــفي الثوبَ تَنظُري   ضـــنـى جســـدي لكنني أتســـتَّر

ومما ورد في المعنى وإن كان في غير ما نحن فيه:

سَـــلَبـتِ عظـامـي لـحمَـهـا فَتَرَكتِهـا عـواريَ فـي أجـلادهـا تـتـكســـَّـرُ
وليس الــذي يجري من العين مــاؤهــا ولــكــنــهــا روحـــي تــذوب وتــقــطــر

وأما السراج وما قيل فيه

فمنه قول ابن أبي الخصال: عذرًا إليك — أعزك الله — فإني حططت والنوم معازل، والعز منازل، والريح يلعب بالسراج، ويصول عليه صولة الحجاج، وطورًا يسدده سنانًا، وطورًا يحركه لسانًا، وآونةً يطويه حُبابة، وأخرى ينشره ذؤابة، ويطويه إبرة لهب، ويعطفه برة ذهب، أو حمة عقرب، ويقوسه حاجب فتاة ذات غمزات، ويتسلط على سليطه، ويزيله عن خليطه، ويخلفه نجمًا، ويمده رجمًا، وتسلُّ روحه من ذباله، ويعيده إلى حاله، وربما نصبته أذن جواد، ومسخته حَدَقَ جراد، ومشقته خاطف برق، بكف ودق، ولثمت سنا قنديله، ولفت على أعطافه منديله، فلا حظ منه للعين، ولا هداية في الطريق لليدين.

قال شرف الدين التيفاشي: رأيت فيما يرى النائم قائلًا يقول لي: أتحفظُ في السراج والمَسْرَجة؟ فأنشدته قول ابن الرومي:

وحـــيَّـــةٍ فـــي رأســــــهــــا دُرَّةٌ تَســـْبَـحُ في بَـحْـرٍ قَصـــيـرِ المــدى
إذا تَــوَلَّــتْ فــالــعــمــى حــاضـــرٌ وإنْ تــجــلَّــت بــانَ طــرق الـــهــدى

فقال لي: هذا في الذبالة؛ وأنا سألتك في السراج والمسرجة. فأنشدته قول الصنوبري:

إنَّ ســــــراجًــا نــورُه ظــلــمــةٌ كــأنَّــمــا يُــوقَــدُ مــن قــلــبــي
الـــحــبُّ أضـــــنـــانـــي فــمــا بــالــه يــفــنــى ومــا يشـــكــو جــوى الــحــبِّ

فقال: هذا في السراج؛ وأنا سألتك في السراج والمسرجة. فصمتُّ، فقال: أراك سكتَّ؟ فقلت له: ما تحفظ فيهما أنت؟ فأنشد:

مَســـْرَجــةٍ تســــرج مــن فــوقــهــا ذبــالــة فـــي جــوف مصـــــبــاحِ
كـــأنـــهـــا مســـــرجـــة فـــوقـــهـــا تــفــاحــةٌ فـــي غصـــــن تــفــاح

فاستيقظت وأنا أحفظهما.

قال شهاب الدين بن أبي حجلة: وهذا التشبيه في المسرجة جيد في مسارج العرب، فإن مسرجتهم قضيبٌ أملسُ أشبه بغصنِ التفاح.

قلت: لا يخفى ما في هذين البيتين من الحسن، أجوده التركيب في قوله في البيت الأول: مسرجة، ثم في الثاني: كأنها مسرجة؛ وقوله: تفاحة في غصن تفاح، وما أعرف لهما شبيهًا إلا قول ابن وزير في الحمام.

حكي أن ابن قزمان الوزير أبا بكر صاحب الأزجال المشهورة قام من مجلس أُنْسٍ، فمال على السراج فأطفأه، فقال في الحال:

يا أهلَ ذا المجلسِ السامي سُرادِقُهُ ... ما مِلْتُ لكنَّني مالت بيَ الرَّاح
فإنْ أكُنْ مُطفِئًا مصباحَ بيتكمُ ... فكلُّ مَن فيكم في البيت مِصباح

قلت: الأولى أن يقول: فكل من حل منكم فيه مصباح.

وقال القاضي كمال الدين بن العديم في تاريخ حلب: إن القاضي شمس الدين بن خلكان الإربلي قَدِم حلبَ وتفقَّه على مذهب الشافعي، وأنشدني لنفسه ملغزًا في السراج:

أيُّها العالم الذي ... صارَ حِبْرًا مُمارِسا
والذي موضحاته ... يجتليها عرائسا
أيَّ شيءٍ ترى الورى ... جمعهم منه قابسا
إنَّ في السِّرب نصفه ... حيث ما كان كانسا
ثم صحِّفْ تمامه ... تلقَ خِلًّا مؤانسا
واحذفَنْ منه ثالثًا ... تنظرنْ فيه فارسا
ثمَّ صحِّفْه عاكسًا ... تلقَ في الليل حارسا

قلت: غير موافق فإن سين السرج بالفتح وسين السراج بالكسر؛ فانظر.

وما أحسن قول القاضي الفاضل يعتذر عن كتابٍ كتبه إلى بعض أصحابه ليلًا: كتبه المملوك ليلًا، وقد عمشت عين السراج، وشابت لمة الدَّواة، وكَلَّ خاطر السكين، وخرس لسان القلم، وضاق صدر

الورقة، فإذا وقف سيدنا على هذا الكتاب، فليقفْ على بيمارستان، وليقلْ: البيذنجان من هذا، ولا يقل: هذا من الباذنجان.

وقال ابن تميم في سراج يوقد من سراج:

أَعَلِمْتُمُ يا قَوْمُ أنَّ سراجنا ... أمسى وفيه فضيلةٌ لا تُكْتَمُ
يأتي أخوه إليه حاسرَ رأسهِ ... فيعيده في الحال وهْو معمَّم

نادرة

اتفق أن أبا الحسين الجزار قام مرة إلى بيت الخلاء، فناوله السراج الوراق شمعةً، فقال الجزار: ما عادتي أقضي الشغل إلا على السراج.

وما أظرف قول زين الدين بن الوردي:

لي صاحب واسمه سراج ... ما قرَّ لي عنده قرارُ
لسانه محرقٌ لقلبي ... إنَّ لسانَ السِّراج نار

وممن أكثر من ذكر السراج الأديب الفاضل الكامل سراج الدين عمر الوراق، حتى إنه قيل له: لولا لقبك راح نصف شِعرك! فمن ذلك قوله:

إذا بُحْتُ بالشكوى عنيتُ معاشرًا ... بلا راحة في مدحهم أتعبوا ذهني
يريدونني رطبَ اللسان ومن رأى ... سراجًا غدا رطب اللسان بلا دهنِ

وقوله يتقاضى زنجبيلًا:

مولاي بدر الدين أنـ ... ـتَ من المكارم تاجها
ولديك بغية كل نفـ ... ـسٍ آمليك وحاجها
ولِنورِ وجهك في الفضا ... ئل قد أقرَّ سراجها
أُنسِيتَ سُورةَ هَلْ أَتَى ... ونسيتَ كانَ مِزاجُها

وقوله:

أقـــول فـــي يـــومٍ شـــــتـــاءُ بــه		مـن ســـــحبـه مـا أخـلـف الـنِّـيـلا:
خـرجـتُ مـن بـيـتـي ســـِراجًـا وقـد		عُــدْتُ بــحــمــدِ الله قــنــديــلا

وقوله:

سَـــبَـقَ الســـِّــراجُ إلــى امــتــدا		حِــكَ كــلَّ مــن يــتــقــدَّمــهْ
وســـَـنــاك مَســـْـرَجَــةٌ لِــبــا		بِــكَ والمـــهــابــةُ تُــلْــجِــمُــهْ
لـــكـــنْ تَـــوَقَّـــد ذهـــنـــه		مــا كــلُّ شـــس يُــفــحــمــهْ

وقوله:

كَمْ قَــطَــعَ الــجُــودُ مِــن لِســـانٍ		قَــلَّــدَ فــي نــظــمــهِ الــنُّــحــورا
وهــا أنــا شــــاعــرٌ ســـِــراجٌ		فــاقــطــعْ لســـانــي أَزِدْكَ نُــورا

وقوله:

بــنــيَّ اقــتـدى بــالــكــتــاب الــعــزيــز		فــراحَ لــيــرى ســـعــيًــا وراجــا
فــمــا قــال لـــي: أفٍّ مــذ كــان لــي		لــكــونــي أبًــا ولــكــونــي ســـِراجــا

وقوله:

أثـــنـــى عـــلـــيَّ الأنــــامُ أنِّي		لــم أهْــجُ خــلــقًــا ولــو هــجــانــي
فــقــلــتُ: لا خــيــرَ فــي ســـــراجٍ		إنْ لــم يــكــن ذاك فــي الــلســـانِ

وقوله:

قلبي لـديـكَ وطرفي حـالَ بعـدهمـا		عـنِّـي فـلـي أبـدًا ســـُـهْـدٌ وتَـذكـارُ
ولســـــتُ متَّهمًـا قـول السِّـــراج إذا		مـا قـال مِن حرْقٍ: في قلبيَ الـنـار

وقوله:

بِكُـتْـبِـكَ راجَ لـي أمـلـي وقَصـــْدِي		وفــي يــدكَ الــنــجــاحُ لــكــلِّ راجِ

ولــولا أنــتَ لــم يُــرفَــع مــنــاري ولا عَــرَفَ الــورى قــدرَ الســِّـــراج

وقوله وقد اجتمع ببدر الدين بيليك وشمس الدين سنقر:

لمَّا رأيــتُ الــبــدرَ والشـــمـــسَ مــعًا قــد انــجــلــت دونــهــمــا الــديــاجــي
حــقَّـرتُ نـفســـي ومضـــيــت هــاربًا وقـلــت: مــا ذا مــوضـــع الســـراج

وقوله يمدح ضياء الدين:

أمــولانــا ضـــيــاء الــديــن دُمْ لــي وعِــشْ فــبــقــاءُ مــولانــا بــقــائــي
فــلــولا أنــت مــا أغــنــيــتُ شـــيــئًا وهــل يُغنـي الســـراج بلا ضـــيــاء

وقوله:

شـــعريتي مـذ رمـدت قـد حـجبـت شـــخصـــك عنِّي وكـان مـأنوســـا
فـــالــحــمــد لله زادنـــي شـــرفًا كنـت ســـراجًا فصـــرت فـانوســـا

وقوله:

إلـهي قـد جـاوزتُ ســـبـعين حـجَّـةً فشـــكرًا لنعمــاك التي ليس تُحصـــَرُ
وعُمِّرتُ في الإســـلام فـازددتُ بهجـةً ونـورًا كـذا يـبـدو الســـراج المـعمَّر
وعمَّم نورُ الشَّـــيبِ رأســـي وســـرَّني ومــا ســـــاءنـي أنَّ الســـراج مـنـوَّر

قوله أيضًا:

وقــالــت: يــا ســـراج علاك شـــيــبٌ فــدع لــجــديــده خــلــع الــعِــذارِ
فــقــلــت لــهــا: نــهــارٌ بــعــد لــيــلٍ فــمــا يــدعــوك أنــتِ إلــى الــنــفــار؟
فقــالــت: قـد صـــدقـت فمـا علمنـا بــأضـــيــع من ســـراج فـي نـهــار

وقوله:

طــــوت الــــزيــــارة إذ رأت عصــــر الشـــبــاب طـوى الـزيـارةْ

ثم انثنت لما انثنى | بعد الصلابة كالحجارةْ
وبقيت أهرب وهْي تسـ | ـأل جارةً مِن بعدِ جارةْ
وتقول: يا ستِّي استرحـ | ـنا لا سراجَ ولا منارة

وقال فيه بعض شعراء عصره: السراج عمره عالي المنار، يتوقَّد ولو لم تمسسه نار.

حكي أنه جهز غلامًا ليبتاع له زيتًا طيبًا يأكل به لِفْتًا، فأحضره وقلبه على اللفت، فوجده زيتًا حارًّا، فأنكر على الغلام وأخذه وجاء إلى البيَّاع وقال له: لِمَ تفعل مثل هذا بنا؟! فقال: والله يا سيدي، ما لي ذنب إلا أنه قال لي: أعطني زيتًا للسراج.

وحكي عنه أيضًا أنه دُعيَ إلى زفَّةٍ فقالوا له صبيحتها: أَيْش كان حالك يا سراج الدين البارحة؟ فقال: أيش حال سراج بين ألف مشعل!

ومثلها ما حكاه لي الوزير المرحوم فخر الدين بن مكانس عن صاحبه سراج الدين القوصي أنه كان حصل له طلوع في جسده، فتردد إليه المزين وصنع له فتائل على العادة، فقيل له بعض الأيام: أيش حالك يا سراج الدين؟ فقال: أيش حال سراج فيه سبع فتائل؟

وأنشد لنفسه يداعب المذكور وكان سكندري الأصل:

يا ذا السراج اشترِ أَيْرِي فأنتَ به | أَوْلَى وذلك للأمر الذي وجبا
سكندريٌّ وتدعى بالسراج وذا | مثل المنار إذا ما قام وانتصبا

وما أحسن قول بعضهم:

ومتى أظلم خطبٌ | عمَّر الله السِّراجا

فصل في القِنديل

قال شمس الدين محمد بن العفيف:

صَفا باطني جسمًا كما رقَّ ظاهري | وناجيت فِتيانًا من الشرب أكياسا
إذا نهضوا كنتُ الرفيق لهم إذًا | وإن جلسوا أمسيتُ في الوسط جَلَّاسا

ولآخر:

وقــنــديــل كــان الضـــــوء فــيــه سـَــنــا وجـه الـحـبـيـب إذا تـولَّى
أشــــار إلى الـدجى بلســـان أفعى فشـــمَّـــر ذيــلــه هــربًــا وولَّى

ولآخر:

وشــــادنٍ مــرَّ والـقـنـديـلُ فـي يـده مـا بـيـنـنـا وظـلام الـلـيـل مـعـتـكـر
كــأنَّــه فــلــكٌ والمــاء فــيــه ســَـمــا والنــار شـــمسٌ بــه والحــامــلُ القمر

وله:

عـجـبـت لـقـنـديـلٍ تضـــمَّـن قـلـبـه زلالًــا ونــارًا في دجى الليـل تشـــعـل
وأعــجــب مــن ذا أنــه طــولَ عــمــره يجنُّ عليـه الليــلُ وهو المُســَلســـل

الباب الخامس عشر

في الخضراوات والرياحين

الوَرْد

كان المتوكل يقول: أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، فكلٌّ منَّا أولى بصاحبه. وكان قد حرَّم الورد على جميع الناس، واستبدَّ به، وقال: لا يصلح للعامة. فكان لا يُرى الورد إلا في مجلسه، وكان أيام الورد لا يلبس إلا الثياب المورَّدة، ويفرش الفرش الموردة، يورد جميع الآلات.

ورُفِعَ إلى المأمون أنَّ حائكًا يعمل سَنَتَهُ كلَّها لا يبطل في عيدٍ ولا جمعة، فإذا ظهر الورد طوى عمله وغرد بصوت عالٍ:

طابَ الزمانُ وجاءَ الوردُ فاصْطَبِحوا ... ما دام للورد أزهارٌ وأنوارُ

فإذا شرب مع ندمائه غنَّى:

اشربْ على الورد مِن حمراءَ صافيةٍ ... شهرًا وعشرًا وخمسًا بعدها عددا

ولا يزال في صبوح وغبوق ما بقيت وردة، فإذا انقضى الورد عاد إلى عمله وغرَّد بصوت عالٍ:

فإنْ يُبْقِنِي ربِّي إلى الورد أصطبح ... وندمان صدقٍ حاكة ونبيط

فقال المأمون: لقد نظر إلى الورد بعينٍ جليلة فينبغي أن نعينه على هذه المروءة، فأمر أن يُدفع له كل سنة عشرة آلاف درهم.

وقال إبراهيم الخواص: إذا جاءت أيام الورد أمرضني علمي بكثرة من يعصي الله تعالى فيه.

جلس روح بن حاتم أمير إفريقية يومًا في منظرة له ومعه جارية من جواريه، فدخل الخادم بقادوس فيه ورد أحمر وأبيض في غير أوان الورد، فاستظرفه وسأل الخادم عن أمره، فأخبره أن رجلًا أتى به هديةً، فأمر أن يُملأ له القادوس دراهم، فقالت له الجارية: ما أنصفته! قال: وَلِمَ؟ قالت: أتى بلونين أحمر وأبيض، فلوِّنْه له. فأمر أن يُخلط دنانير ودراهم، فخلط ودفع إليه.

ويروى أن كسرى: مر بوردة ساقطة فقال: أضاع الله من أضاعك.

حكاية: يروى أنه كان بعض مشايخ الأنبار في زمن الرشيد يؤذن ويصلي بقومٍ في المسجد، وكان إذا حضر أوان الورد دفع مفتاح المسجد إلى أهل المحلة، ثم انغمس في لجة لهوه، فلم يظهر وفي الدنيا وردة، وكان إذا جلس على شرابه يغني بصوت عالٍ:

يا صاحبَيَّ اسقياني ... من قهوةٍ خَندَرِيسِ
خذا من الورد حظًّا ... بالقصف غير حبيس
على جَنيَّات وردٍ ... يُذهِبنَ همَّ النفوس
ما تنظران فهذا ... زمان حثِّ الكؤوس
فبادروا قبل فوتٍ ... لا عِطرَ بَعدَ عَروس

قال: ولا يزال كذلك ما لاحت له وردة، فإذا انقضت أيام الورد عاد إلى مسجده وأذانه.

تبدَّلتُ من وردٍ جنيٍّ ومسمعٍ ... شجيٍّ ومن لهوٍ وشربِ مُدامِ
أذانًا وقُرآنًا وقومًا أؤمُّهم ... لصرفِ زمانٍ مولعٍ بغرام
فذلك دأبي أو أرى الوردَ طالعًا ... فأتركُ أصحابي بغيرِ إمام
وأرجعُ في لَهوي وأترك مَسجدي ... يؤذِّن فيه من يَشَا بسلام

وقال الشيخ تقي الدين بن حجة: تعرض جماعة من أهل الأدب إلى وصف الورد بتشبيهه، وشغلوا عن بديع حسنه وسموِّ رتبته، ولو سكتوا عن ذلك لكان أليق بهم، كقول بعضهم:

للوردِ عندي محلٌّ ... ورتبة لا تُمَل
كلُّ الرَّياحِينِ جُنْدٌ ... وهو الأمير الأجَل

قلت: ولعمري، هذا النظم السافل يمشي على كثير من الخلق، وما احمرَّت وجنات الورد إلا خجلًا من نسبة هذا الشعر السافل إليها.

ويعجبني من ترسُّل الشيخ جمال الدين بن نباتة من رسالة: كتبها الملوك ومنظر الروض قد شاق، ودمع الغيث قد رقا ووجه الأرض قد راق، والغصون المتعطفة قد راسلت أهواء القلوب بالأوراق، وحمائمها المترنِّمة قد جذبت القلوب بالأطواق، والورد قد احمرَّ خده الوسيم، وفكت أزرارَه من أجياد القضب أناملُ النسيم، وخرجت أكفُّه من أكمامه تأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم.

خواصه: باردٌ يابس في الدرجة الأولى، يابس في آخر الدرجة الثانية، نافع لصاحب المُرَّة الصفراء ومن به حرارة حريقة، مسكِّن للصداع المتولد منها، ضارٌّ لصاحب المزاج البارد، مهيج لعطاسه، مزعج لدماغه، ومربَّاه بالسكَّر والعسل ينفع من البلغم، وماؤه المصعد منه بارد رطب نافع من سائر أوجاع الدماغ الحادة، ومن الأورام الحارة. نَقَلْتُهَا من النور المجتنى من رياض الندما، تأليف الحكيم الفاضل الأديب المعروف بالعنتري وبابن المجلي، ذكره الفاضل المؤرخ موفق الدين بن أبي أصيبعة، في تاريخ الأطباء، وأثنى عليه الثناء البالغ.

وعلى مصنفه المذكور قلت: وهذا الكتاب رتَّبه على فصول السنة، كل فصل يشتمل على أربعين بابًا، عديم النظير، قليل الوجود.

القول في استخراجه في غير أوانه: قال صاحب المباهج: من أحرق السداب في أصول شجر الورد حتى يرتفع وجه الإحراق إلى الشجر، في أي وقت كان من السنة التي تورد شجرة الورد فيه، ورَّدت بعد أيام وردًا غضًّا؛ ومتى جُمع الرماد الذي أحرق، وخُلِطَ بتراب ونبش أصل الشجرة التي أحرق ذلك في أصولها، وطمر الرماد، ثم سُقِيَتْ الماء في الوقت، وسقيت بعد ذلك على العادة، كان ما ذكرناه أيضًا.

الحيلة في أن يبقى الورد السنة كلها: في الفلاحة الرومية: يؤخذ زرٌّ ورد الذي لم يُفتح بعدُ، فتُمْلأ به جرَّة فخَّار جديدة، ويُطيَّن رأسها تطيينًا محكمًا لا يتخلله الهواء، ويدفن في الأرض؛ فإنك تُخرِج منها الورد متى شئت إلى آخر السنة، كهيئته حين أدخلته فيها، فيرشُّ عليه ماء، ويترك في الهواء، فإنه يفتح وردًا طريًّا كالذي يُقطف من شجرِه.

وفي كتاب الخواص: أن الورد الأحمر إذا بُخِّرَ بالكبريت ابيضَّ، وإذا بخر نصف الوردة صار نصفها أبيض ونصفها أحمر. والورد الأحمر إذا بخر بالنورة المطفية ابيضَّ. وإذا صُبَّ في الشتاء في أصول شجر الورد ماء حارٌّ عند كل غداة انفطر قبل انفطار الورد.

غرائب من هذا النبات: حكى صاحب نشوار المحاضرة أنه رأى وردًا أصفر، واستغرب ذلك؛ وقد رأيناه كثيرًا، إلا أنه امتاز بكونه عدَّ ورق وردةٍ فكانت ألف ورقة، ورأى وردًا أسود حالكَ اللون له رائحة ذكية، ورأى بالبصرة وردةً نصفها أحمر قاني الحمرة، ونصفها الآخر ناصع البياض، والورقة التي قد وقع الخط فيها كأنها مقسومة بقلم.

قال صاحب المباهج: وحكى لي بعض أصحابي أنه رأى وردًا بدمشق له وجهان، أحد الوجهين أحمر والآخر أبيض، لا يَشُوبُ أحدَهما شيءٌ من الآخر. وأُخْبِرْتُ أنَّ بحلبَ وردًا أحد وجهي الورقة أحمر، والآخر أصفر. وأما الورد الأزرق، فقد حكى لي بعض أصحابي أن رجلًا أخبره أنه رأى أكَّارًا يُجرِي إلى شجرة الورد ماءً مخلوطًا بالنيل، قال: فسألته عن ذلك فقال: إنَّ الورد يكون أزرق بهذا العمل. والظاهر من الأسود أنه احتيل عليه كذلك.

وذكر ابن قتيبة أن بالهند شجرًا يُخرج وردًا عليه كتابة تقرأ: لا إله إلا الله.

وحدَّث ابن منقذ لمَّا عاد من المغرب، وكان قد توجه إليه رسولًا من صلاح الدين، أن في مراكش وردًا لكل وردة من الثمانين ورقة إلى المائة ورقة.

وقال آخر وظرف:

كتب الورد إلينا … في قراطيس الخدود:
يا بَنِي اللهو صِلُوني … قد دنا وقتُ ورودي

ولبعضهم في باكورة ورد:

ودونك يا سيدي وردة … يذكرك المسكَ أنفاسُها
كعذراءَ أبصرها مبصرٌ … فغطَّت بأكمامها رأسها

وقال علي بن الجهم في صبابته:

لم يضحك الورد إلا حين أعجَبَهُ … حسنُ الرياضِ وصوتُ الطائر الغَرِدِ
لا عذَّب الله إلَّا مَن يعذِّبه … بمسمعٍ باردٍ أو صاحبٍ نكد

وفيه لجحظة:

يعزُّ عليَّ بأن يشَمَّك ساقطٌ … أو أن تراك نواظر البخلاء

وقال محمد بن عفيف التلمساني:

قـــامـــت حـــروب الـــدهـــر مـــا بـــين الـــريـــاض الســـنـدسـيَّـةْ
وأتـــت بـــأجـــمـــعـــهـــا لـــتـــغـــزو روضـــة الـــورد الـجَـنـيَّـةْ
لــكـــنـــهـــا انـــكســـرت لأنْـــنَ الـــورد شـــوكـــتـــه قـــويَّـةْ

وتلطَّف الشيخ زين الدين بن الوردي في قوله موريًّا باسمه:

مُهَـفْـهَـفُ الـقَـدِّ إذا مـا انـثـنـى قـال ولا يـخشـى مـن الـردِّ:
مـا أنـت حـمـلـي يـا كـثـيـبَ الـلـوى ولسـتَ يـا غصـن الـنـقـا قَـدِّي
لـو نـلـت مـن خـديـه تـقـبـيـلـةً تـزيـن الـريـحـان بـالـورد

ما أحقه بقول القائل: شاكرُ نفسه يقرئك السلام!

قلتُ: أحسن من بيته الثاني ما أنشدنيه من لفظِهِ لنفسه، ونقلته من خط المرحوم فخر الدين بن مكانس من أبيات:

أســمـر إن عـايـن غصـن الـبـان قـال: اسـتـقـم فـأنـت ذو ألـوان
يثنيـك فـي الـدوح النسـيـم الواني ولـيـس لـي فـي قـامـتـي مـن ثـانـي
فـلا تـقـاسـنـي فـلسـت قـدي

رجع: وقال أبو الوليد بن الجنان الشاطبي:

فـوقَ خـدِّ الـورد دمـعُ مـن عـيـون الـحـبِّ يُـذرَف
بـرِداءِ الشـمـس أضـحـى بـعـد مـا سـال يُـجـفُّف

وقال برهان الدين القيراطي:

إنَّ لـلـروح فـي دمشـقَ لَـمـأوى ذا قَـرارٍ وذا مَـعـينٍ ورَبْـوةْ
وبـروضـاتـهـا بَسـاتـينُ وردٍ لـي بـأزرارهـا صـبـابـة عُـرْوةْ

وقال بعضهم وأصاب:

كم وردة تحكي لسبق الورد طليعةً تَسَرَّعت من جُند
قد ضمها في الغصن قرصُ البرد ضمَّ فمٍ لقبلةٍ من بُعد

قلت: دخل مجير الدين بن تميم إلى حديقة هذه الوردة الجَنية، فزاد بعدها تقريبًا بقوله:

سبقتْ إليك من الحدائق وردةٌ وأتتك قبل أوانها تطفيلا
طمعتْ بلثمكَ إذ رأتك فجمَّعت فَمَها إليك كطالبٍ تقبيلا

ومن أحسن ما استعمل أوصاف الورد في اعتذاره عن الإصغاء إلى كلام العذول مجد الدين النسائي الإربلي:

أُصغِي إلى قول العذول بجملتي مستفهمًا عنكم بغير ملالِ
لتلقطي زهرات وردِ حديثكم من بين شوك ملامة العُذَّالِ

السري الرفاء يصف وردًا أبيضَ قال:

بدا أبيض الورد الجنيِّ كأنَّما تنسَّم للناشي بمِسْكٍ وكافورِ
كأنَّ اصفرارًا منه وسطَ ابيضاضه بُرادةُ تبْرٍ في مَداهنِ بلُّورِ

ولبعضهم في الورد الأسود:

لله أسود وردٍ ظلَّ يلحظنا بين الرِّياض بأحداق اليعافيرِ
كأنَّها وجنات الزِّنج نقَّطها كفُّ الأنام بأنصافِ الدنانير

ولآخَر فيه:

ووردٍ أسودٍ خِلْناه لمَّا تنشَّق نَشْرُه ملك الزمانِ
مَداهنَ عنبرٍ غضٍّ وفيها بقايا من سَحِيقِ الزَّعْفرانِ

وقال مجير الدين بن تميم مضمنًا:

لمْ أنسَ قولَ الوردِ حينَ جَنَيْتُه والنار لاستقطاره تتسعَّرُ:
ناشدتكم نفسي خذوه وإنَّما لا تعجلوا في قبضِ روحي واصبروا

من رسالة كتبها الجناب المجدي فضل الله ابن المرحوم فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس إلى سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد بن أبي بكر عمر المخزومي المالكي الشهير بابن الدماميني، أسبغ الله عليه ظلاله، ملغزًا في ورد، وكان سيدنا بدر الدين قد كتب إليه قبلها لغزًا في قدح فحلَّهُ وكتب إليه هذا اللغز، ونقلته من خطه وهو:

ما عاطل تتحلى به المَجالِس، ويتفكَّه فيه المُجالِس، تحمرُّ وجناته من الشرب، وتُحمد آثاره في البعد والقرب، إن قبلته رأيتَ تاجًا، وإن تركته على حاله زادك ابتهاجًا، يُعذَّب بالنار وغيره الجاني، ويُريكَ إنْ بدَّلتَ أوَّله برد الثاني، يُستخرج وهو داخل، ويُرى دمعه من نار قلبه وهو هاطل، لا تبرح به في غبطة، ولا تجد فيه بعد انهماله نقطة، إنْ حذفتَ أوله وحرَّفت باقيه وجدته أمرًا بالشراب، وإن فعلت كذلك في ثانِيِهِ ما بقي مولدًا للصحبة بين الأصحاب، وورٌ إن حذفت آخره لمن ورَّى، وغُصْ في بحر الفكر على عكس ثلثيه تستخرج دُرًّا، وقد سطَّره ليحصل له من نظر المخدوم طرفًا، ويصير له في الألغاز شرفًا، والمملوك يسأل الصفح والامتنان، وبسط العذر في هذا الهذيان، فإنه لولا المحبة ما أجاب، ولا طرَقَ بعد فقد أبيه هذه الأبواب، ولا عارضَ بجدٍّ وله البحر العُبَابُ، فإن بضاعته في هذا الفن مُزْجاة، وهم أبيه غطى على حجاه، والله المسؤول أن يلطف برحمته، ويحسن عاقبته في دنياه وآخرته، ويمتِّع مولانا بزناد ذهنه الواري، ويطلعه وبنيه في سماء الفضل حتى يهتدي بالنجوم والدراري، بمنِّه وكرمه.

فكتب الجواب سيدنا بدر الدين:

ويُنهي ورود الجواب الذي شفى الصدور وُرودُه، واللغز الذي نُسِيَ به بان الحمى وزروده، فوجده روض بلاغة عدم العاتب والعائب، وترعرع زهره حيث أمطرته من أنامل المخدوم خمس سحائب، وتمسكت أذيال أنفاسه بالرواية عن أبي الطيب، وجاد فكر مولانا على خد طرسه بالعارض الطيب، فلو شاهده ابن الوردي لاحمرَّ خجلًا، أو صاحب زهر الآداب لتلوَّن وجلًا، ثم تأمَّلَ حلَّ اللغز فرآه قد كشف المُشْكِلَ وجلى، واعترف بأنه لم يمرَّ بذوقه أطيبُ من ذلك الحل ولا أحلى، وتحقق أن مولانا

أوسعه في مقام الأدب بفضله إيناسًا، وتناول منه قدحًا فأعاده بألفاظه المُسْكِرة كأسًا، وانتهى المملوك إلى لغز الورد فقال:

لله لـغـزك يـا مـولًـى فضـــائـلـه ... قـد عطَّر الكون منهـا طيـب أنفـاسِ
أتـى بـوردٍ فـحـيَّـانـي عـلـى قـدحـي ... بـه وأبـهـجـنـي مـا بـين جُـلَّـاســي
وقد أســى جرح كســرى حين أقبل لي ... روحــي الـفـداء لـذاك الـورد والآسِ

وقال أيضًا:

مولايَ مجـد الـدين يـا من فضـلـه ... يُروى وَجُودُ كفوفـه يروي الصـدا
ألـغـزتَ فـي اســمٍ عـاطـل حلَّـيتَـهُ ... مـنـكَ بـدرِّ الـلَّـفـظ أو قَـطْـرِ الـنَّـدى
وإذا بـدا الـتـحـريـف فـي أبـيـاتـه ... كـانـت لشـانـيـك هـلاكًـا وردى

فاستحلى المملوك بالتحريف وِردَه، وودَّ لو اقتطف من أغصان حروفه وردة، فردَّه ذلُّ القصور عاريًا من ملابس عزه، وأنشده قول ابن قلاقس وقد تقلَّى بنار عجزه:

إذا مـنـعـتـك أشـجـار المـعـالـي ... جنـاهـا الغضُّ فـاقنع بـالشـميم

فراج عليه بهرج هذا الرأي الكاسد، واقتنع بالشميم على رغم أنف الحاسد، وعلم أن هذا الورد لا يَحسُن من غير تلك الخضرة، وأن هذه الفاكهة لا يخرجها إلا أغصان أقلام لها بندى الراحة المخدومية بهجة ونَضْرة، ومشى نظر المملوك من هذا اللغز في بساتين الوزير على الحقيقة، ورأى كل وردة واخَتِ الوجناتِ الحمرَ فتحيَّر أهي وردة أم شقيقة، وتفكه معجبًا بثمار غرسه، منشدًا لمن كرر النظر في صفحتي طرسه:

إنْ كنـتَ تَزعُم: مـا في خـدِّه عجـبٌ ... قُمْ فـانظرِ الوردَ في خـدَّيْـهِ منثورا

فلقد ظفرتُ من طرسه بالعنبر الورد، وعوذته عند تبديل أوائل الثلاثة بالواحد الفرد، وتأملت بفتور قريحتي نكتة برد الأماني، فانعقد لساني بسحر هذا البيان

ونفثات تلك المعاني، وتيقنت أنه لا يقوى لفهم هذا البرد إلا كل حديد النظر، ووجدت تصحيف هذه الكلمة يا شمس الفضائل للعقول قمر، وعلمت أن الفكر لا يجاري من بديهته من بحار الفضل رويَّه، وأن الخاطر الذي هو من رعايا الأدب لا يقوى بضعفه على سلطان هذا اللغز لأن شوكته قوية، وقلت للذهن: رِدْ بعضَه لتَنْهَلَ شرابًا سائغًا، وزِدْ تصحيفه لكن بالتعريف لمعناه مبالغًا، وتمتعت من ورده الوارد بالمشموم، ثم تذكرت البعد عن جَناب المخدوم، فاستقطر البين ماء الورد في حدقي، ولمولانا المنة في الصفح عن مقابلة الدر بالسَّقَطِ، وتَمْرِ هَجَرَ بهذا الحشف الملتقط. وله الفضل في إجابة المملوك إلى ما سأله أولًا من الإتحاف بما تيسَّر من آداب المقر الفخري الوالد، نوَّر الله ضريحه وتعاهد بعهاد الرحمة بمنه وكرمه.

ولقد تلطف الشاب الظريف شمس الدين بن العفيف في الورد:

قامت حروب الزهر ما بين الرياض السندسيَّةْ
وأتت بأجمعها لِتَغْـ ـزوَ أرضنا الورد الجَنيَّة
لكنها انكسرت لأنْـ ـنَ الورد شوكته قوية

وقال أبو الوليد الشاطبي:

فوق خدِّ الورد دمعٌ من عيونِ السُّحبِ يُذرَف
بِرِداءِ الشمسِ أضحى بعد ما سال يُجفَّف

وظَرفَ من قال:

كأنَّها وجنة الحبيب وقد نقطها عاشقٌ بدينار

انظر إلى هذا، وجنة وحبيب ودينار، وأين هذا من قول ابن الرومي:

كأنَّه سُرْمُ بَغْلٍ حينَ سكرجَهُ بعدَ البرازِ وباقي الروث في وسطه

وقلت:

أرى الورد عند الصبح قد مدَّ لي فمًا يشير إلى التقبيل في ساعة اللمس

وبعد زوال الصبح ألقاه وجنةً وقد أثرت في وسطها قبلةُ الشمس

وقلت:

في حضرة الورد عين النرجس اتقحت فحط شوكته في العين من سخطه
وانظر إلى كفِّه والكُمُّ منشمرٌ عنه وصفرة ذاك المُقْل في وَسَطه

وقلت على طريق التورية:

قالوا: لزهر الخلاف عُرف يفوح في ساعة القطافِ
فصفه للورد قلت: كلا الورد أذكى بلا خلاف

ولبعضهم في الورد القحابي:

ووردةٍ جمعتْ لونَيْنِ خِلْتُهما خدَّيْ حبيبٍ وخدَّيْ هائمٍ عَشقا
تعانقا فبدا واشٍ فراعَهُمَا فاحمرَّ ذا خجلًا واصفرَّ ذا فَرَقا

ونقلت من خط شيخنا شمس الدين محمد بن محمد بن محمد الشهير بابن سمنديار الذهبي لنفسه:

إذا الربيعُ جيَّشتْ أزهارُه فورده ذو الشَّوكةِ السُّلطان

وأنشدني من لفظه لنفسه ارتجالًا الشيخ الأديب الفاضل بقية المتأخرين شمس الدين محمد بن بركة الرئيس فسَّح الله في مدته:

شابَ وردُ الرياض من ورد خديك وانفرك
فله الناس أثبتوا وانتفى الورد للكرك

النرجس

قال أبقراط: كل شيء يغذو الجسم، والنرجس يغذو العقل.

وقال جالينوس: من كان له رغيف فليجعل نصفه في النرجس، فإنه راعي الدماغ، والدماغ راعي العقل.

ويروى عن عليٍّ — كرم الله وجهه — أنه قال: تشمموا النرجس ولو في اليوم مرة، فإن في القلب داء لا يبرئه إلا شمُّ النرجس.

وقال الحسن بن سهل: من أدمن شمَّ النرجس في الشتاء، أمن من البِرْسام في الصيف.

وكان كسرى أنوشروان مغرمًا بالنرجس ويقول: هو ياقوت أصفر، بين در أبيض، على زمرد أخضر.

وقال: إني لأستحيي أن أباضع في مجلس فيه النرجس، لأنه أشبه شيء بالعيون الناظرة. ومن هنا أخذ مَن قال:

غُضِّي جفونَكِ يا عيونَ النَّرجسِ　　لعسى أفوز بنظرةٍ من مؤنسي
فلقد تحيَّر إذ رآكِ شواخصًا　　ترمينه بلواحظِ المتفرِّسِ
حتَّى كأنَّكَ لن تَرى قمر الدجى　　بين الأحبَّة طالعًا في مجلس

نادرة: تحدث رجل مع خاطبة في أن تخطب له امرأة يتزوجها، فقالت له: عندي امرأة كأنها طاقة نرجس. فتاقت نفس الرجل إليها فتزوجها، فلما زُفَّت إليه وكشف القناع، لقي عجوزًا مكمشة الوجه، بيضاء الشعر، دقيقة الساقين، صفراء الوجه، مخضرَّة الساقين بالشعر. فلم يقربها وعاد باللوم على الخاطبة، وقال لها: كَذَبْتِيني وغريتيني! فقالت له: ما كذبتك ولا غررتك! وإنما أنت رجل جاهل؛ قلت لك: عندي امرأة كأنها طاقة نرجس، فرغبت فيها، وما هي طاقة النرجس إلا هكذا!

خواصه: حار يابس، ينفع من سائر أوجاع العصب من برد، وكذلك النسرين، ويصدع النرجس الرؤوس الحارة، وفعلهما أقل من فعل الياسمين، وينفعان من وجع الأرحام من برد، ويفتح سددَ الدماغ، وينفع من الصداع البارد الرطب والسوداوي، ودهنه ينفع من أوجاع المفاصل. انتهى كلام ابن المجلي في النور.

وقال صاحب المباهج: خاصيته للنفع من الأوجاع الباردة الكائنة في الرحم؛ أصله يدمل القروح وينفع من أوجاع المفاصل، وإذا سُحِقَ أصله وخُلِط بدقيق واغتُسِل به نقَّى أوساخ البدن والقروح، وإذا تضمِّد به فجَّر الأورام والدملات، وهذا الفعل موجود في أصله وزهره، ورائحته مقوية للدماغ، مفتحة للسدد، طاردة لما في بطونه من الأرياح، وإذا أُدِيمَ شمُّه نفع من الصداع الكائن من بخار البلغم

ومن الرطوبة المحتقنة فيما بين أغشية الدماغ؛ وإن اتخذ منه شمامة مستديرة في شكل الرمانة، ورشَّ عليها شيء من ماء الورد الممسَّك، وبخرت بالند الرفيع أو العود الرطب والزعفران الشعر الطري، أكسبها البخور بذلك نفعًا عظيمًا، وإن شوي بصله في النار أو في الرماد وقشر وسحق في الهاون وسكب عليه شيء من دهن الحبري وأغليَ بالدهن وضُمِّد به على الخنازير والجراحات الفجة الجاسئة والدماميل الصلبة ألانها وفجرها.

وفي كتب الخواص: قال هرمس: إذا وُضِعَتْ طاقات النرجس التي لم تفتح بعدُ في ماء البقم حتى ينفتح فيه، أبدل من بياض أوراقه حمرةً شديدة، وبقيت على حالها.

الفلاحة النبطية: إنَّ أوقفَ ما غُرِسَ بصلُ النرجس في الأرض التي أقام الماء فيها عشرة أيام أو عشرين يومًا، ثم نضب الماء عنها وجفَّ وبقي فيها شيء من النداوة يسير، فليحفر في همة الأرض حفائر عمقها قدم أو أقل، ويجعل البصلة فيها، ويغطى بالتراب ويكبس فوقه التراب كبسًا جيدًا، فإذا ابتدأ يطلع منه شيء يسير فيسقى سقية خفيفة، ويُتعاهَدُ كذلك حتى يكمل ورده.

ومن أراد أن يجعل العين منه مضاعفًا فيأخذ بصلة سمينة فيشقَّ وسطها ويغرس فيها سنَّ ثومٍ غير مقشَّر، ويغرقها في البصلة ويطمر البصلة في التراب؛ فإنها تحمل نرجسًا مضاعفًا.

غريبة ذكرها صاحب المباهج: من أخذ من بصل النرجس بصلة كبيرة وأخدشها بالمسلَّة من ذهب خالص، ثم غرز البصلة برأس المسلة باليد اليسرى، ثم يدور الماسك في الموضع الذي يريد أن يغرس فيه تلك البصلة خمس دورات وهو يضحك أو يتضاحك، ثم يغرسها في مقطع الدورة الخامسة، فإن تلك البصلة تحمل نرجسًا أحمر مثل الشقيق، طيب الريح جدًّا. وصفة غرسه كما يفعل بغيره. ومن أراد أن يكون النرجس في غير أوانه فليحرق السداب مع شيء في قشور الجوز على منابت أصله، فإنه يسرع إخراج ورقه.

الوصف: وقال ابن الرومي:

خجلتْ خدودُ الوردِ من تفضيله ... خجلًا تَوردُّها عليه شاهدُ
لم يخجل الورد المورَّد لونه ... إلا وناصِلُه الفصيلةَ عاند
للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آبٍ وحادَ عن الطريقة حائد
فَصْلُ القضيةِ أنَّ هذا قائدٌ ... زهر الربيع وأنَّ هذا طارد

شـــتَّـان بـين اثـنـين هـذا مُـوعَـدٌ   بـتصـــرُّم الـدنـيـا وهـذا واعـد
فـإذا احتفظـتَ بـه فـأمتع صـــاحبٍ   بـحـيـاتـه لـو أن حـيًّـا خـالـد
ينهى الـنـديم عن القبيح بلحظـهِ   وعلى المـدامـة والسـمـاع مســاعـد
اطلـبْ بعيشـــك في الملاح سـمَيَّـهُ   أبـدًا فـإنـك لا مـحـالـةَ واجـد
والورد إن فتشـت فردٌ في اسـمـه   مـا فـي المـلاح لـه سـَمِـيٌّ واحـد
هـذي الـنـجـوم هـي الـتـي ربَّـتـهـمـا   بِحَيَـا السـحـابِ كمـا يُربِّي الوالـد
فـانـظرْ إلـى الأخـويـن مـن أدنـاهـمـا   شـبـهًـا بـوالـده فـذاك المـاجـد
أين العـيـون مـن الـخـدود نـعـاسـةً   وريـاسـةً لولا القيـاسُ الفـاسـد

وناقضه أحمد بن يونس الكاتب فقال:

يـا مـن يشـبِّـه نرجسـًا بنواظرٍ   دعـج تـنـبَّـه إنَّ فـهـمـك راقـد
إنَّ الـقـيـاس لمن يصـحُّ قيـاسـه   بـين الـعـيـون وبـيـنـه مـتـبـاعـد
والـورد أشـبـه بـالـخـدود حكـايـةً   فعلامَ تجحـد فضـلـه يـا جـاحـد
مـلـكٌ قصـيـرٌ عـمـره مسـتـأهـلٌ   لـخـلـوده لـو أن حـيًّـا خـالـد
إنْ قلـت: إن الـورد فـردٌ فـي اسـمـه   مـا فـي المـلاح لـه سـمـيٌّ واحـد
فالشـمسُ تفرد في اسـمها والمشـتري   والبـدر يشـرك في اسـمـه وعطـارد
أو قـلـت: إن كـواكـبًـا ربَّـتـهـمـا   بِحَيَـا السـحـاب كمـا يُربِّي الوالـد
قلـنـا: أحـقـهـمـا بـطـبـع أبـيـه فـي الـ   ـجدوى هو الزاكي النجيب الراشـد
زهـر الـنـجـوم تـروقـنـا بضـيـائـهـا   ولـهـا مـنـافـع بـعـد ذا وعـوائـد
وكـذلـك الـورد الأنـيـق يـروقـنـا   ولـه فضـائـل خـمسـةٌ وفـوائـد
وخـلـيـفـه إنْ غـابَ آبَ بـنـفـحـه   ونسـيـمـه أبـدًا مـقـيـمٌ راكـد
إنْ كنـتَ تُنكر مـا ذكرنـا بعـدمـا   وضـحـت عليـه دلائـلٌ وشـواهـد
فـانظرْ إلى المصـفرِّ لونًـا منهمـا   وافطنْ فمـا يصـفرُّ إلا الحـاسـد

وقال سعيد بن هاشم الخالدي يفضل النوعين:

أيــحــبُّ الــنــرجــس الــبــلــدي ودي　　وما لــي بــاجــتــنــاب الــورد طــاقــةْ
كــلا الأخــويــن مــعشـــــوقٌ وإنــي　　أرى التفضـــيــل بينهما حماقــةْ
هــمــا فــي عســـكــر الإزهــار هــذا　　مــقــدمــة يســـيــر وذاك ســـاقــةْ

وقال أبو العلاء المعري السروي يهجو النرجس:

انــظــر إلــى نــرجــسٍ تــبــدَّت　　صـــبــحًــا لــعــيــنــيــك مــنــه طــاقــةْ
واكــتــب أســـامــي مشــبــهــيــه　　بــالــعــين فــي دفــتــر الــحــمــاقــة
وأي حســـنٍ لــطــرف شـــاكٍ　　مــن يــرقــانٍ يــحــل مــاقــة
كــرَّاثــة ركــبــت عــلــيــهــا　　صـــفــرة بــيــضٍ عــلــى رقــاقــة

وقال ابن الشبلي البغدادي فيهما:

ونــرجــسٍ قــابــل فــي مــجــلــس　　وردًا غــلا فــي نــعــتــه الــنــاعــتُ
فــخــدٌّ ذا يــخــجــل مــن لــحــظ ذا　　وطــرف ذا فــي وجــه ذا بــاهــت

وقال منصور الهروي يصفه مع البنفسج:

قرن الزمــان إلى البنفســج نرجسًــا　　مــتــبــرجًــا فــي حُــلَّــة الإعــجــاب
كــخــدود عشـــَّاق غــدت مــلــطــومــة　　نــظــرت إلــيــهــا أعــين الأحــبــاب

ولما دخل الأديب الفاضل المؤرخ الرحال نور الدين علي بن سعيد إلى القاهرة المحروسة صنع له أدباؤها صيغًا في بعض منتزهاتها، وانتهت بهم الفرجة إلى روض نرجس، وكان فيهم أبو الحسين الجزار فجعل يدوس النرجس برجليه، فقال ناصر الدين حسن بن النقيب:

يــا واطئ الــنــرجــس مــا تســـتــحــي　　أن تـــطـــأ الأعـــينَ بـــالأرجـــل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا إجازته، فقال زكي الدين بن أبي الإصبع:

فــقــال: دعــنــي لــم أزل مــحــنــقًــا　　عــلــى لــحــاظ الــرشـــأِ الأكــحــل

ثم أبوا أن يجيزه غيره — أعني: ابن سعيد — فقال:

قابلْ جفونًا بجفونٍ ولا تبتذل الأرفعَ بالأسفل

ثم استدعاه ابن سابق إلى مجلس على النيل مبسوطٍ بالورد قامت به شمامة نرجس، فقال في ذلك:

من فضَّل النرجس فهو الذي يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعدًا وقام في خدمته النرجس

وقال مجد الدين بن سحنون خطيب النيرب وقد أُهدِيَ نرجسًا:

لما تحجَّبتَ عن طرفي وأرَّقني بُعدٌ ولم تحظَ عيني منك بالنظرِ
أرسلتُ مشبهها من نرجسٍ عطِرٍ كيما أراك بأحداقٍ من الزهر

وقال صفي الدين الحلي رحمه الله تعالى:

أقول وطرف النرجس الغضِّ شاخصٌ إليَّ وللنمام حولي إلمام:
أيا رَبُّ حتى في الحدائق أعين علينا وحتى في الرياحين نمام

وما أحسن قول أيدمر المحيوي رحمه الله تعالى:

وكأنَّ نرجسه المضاعف خائض في الماء لفَّ ثيابه في رأسه

وظرف من قال:

يغضُّ من فرط الحيا طرفه ما أحسن الغض من النرجس

وتلطف مجير الدين بن تميم:

إني لأشهد للحمى بفضيلةٍ من أجلها قد صرت من عشَّاقهِ
ما زاره أيام نرجسه فتًى إلا وأجلسه على أحداقه

وقال وأجاد:

شبهت نرجسةً أهدى إليَّ بها خِلِّي وقد جئت في التشبيه بالعجبِ

كفًّا من الفضـــَّة البيضـــاء ســـاعدها زمـرد وســــطـهـا كـأس مـن الـذهـبِ

وقال أيضًا:

لا تـمـشِ فـي أرضٍ وفـيـهـا نـرجـس أو أقـــحـــوان غـــب كـــل مـــقـــام
إنَّ الـلـواحـظ والـثـغـور أجـلـهـا عـن وطـئـهـا فـي الأرض بـالأقـدام

وقال مضمنًا وأجاد:

غـديـرٌ دارَ نـرجســُـه عـلـيـنـا ورقَّ نســيـمـه فصــفـا وَراقـا
تـــراه إذا حـــلـــلـــت بـــه لـــوردٍ كـأنَّ عـلـيـه مـن حَـدَقٍ نِـطـاقـا

وقلت مضمنًا وربما أجدت:

حـدائق الروضــة الغنَّـاء نرجسُــهـا عـيـونـه بـدمـوع الـطَّـلِّ قـد رَمَـقَـتْ
همنـا إلى رشــفِ ثغرِ الكـأسِ من قَدَحٍ فـأمطرتْ لؤلؤًا من نرجسٍ وســقـتْ

وقلت مضمنًا وربما أجدت:

إلى الحمى نســمات الصــبح مذ بعثت نـدًى بـه ذيـل ثـوب الـزهـر مـبـلـول
قـالـت نراجســه مـذ حـدَّقـت ورنـت: مـهـمـا بـعـثـتم عـلـى الـعـيـنـين مـحـمـول

ونقلت من خط المرحوم فخر الدين بن مكانس لنفسه:

بعـدك شــمس الـدين يـا مـا جرى مـن أدمـع الـطـل بـخـد الشــقـيـق
والنرجس الغض غـدا شـــاخصًـا فـلا تـخـلَّـى عـيـنـه لـلـطـريـق

زاد على البيتين المتقدمين وأجاد:

لـيـس جـلـوس الـورد فـي مـجـلـس قـام بـه نـرجســه يـوكــس
وإنـمـا الـورد غـدا بـاســطًا خـدًّا لـيـمشــي فـوقـه الـنـرجـس

قول أمين الدين الجوتان:

نـفـش غضـــن الـبـان أذنـابـه ومـاس عـنـد الصــبح زهـوًا وفـاح
وقـال: هـل فـي الـروض مـثـلـي وقـد تُـعـزَى إلـى غصـــنـي قـدود المـلاح
فـحـدَّق الـنـرجـس يـهـزأ بـه وقـال: حـقًّـا قـلـتَ ذا أم مـزاح؟
بـل أنـت بـالـطـول تـحـامـقـت يـا مقصـوف عجبًـا بـالـدعـاوي القبـاح
فـقـال غصـــن الـبـان مـن تـيـهـه: مـا هـذه إلا عـيـونٌ وقـاح

وأنشدني من لفظه لنفسه ارتجالًا بحضوري ونحن نتنزه بجزيرة الفيل، وقد مررنا بقطعة نرجس نسقي سيدنا المقر المجدي فضل الله بن مكانس أبقاه الله:

وجـدول المـاء يـجـري بـين نـرجسـه لـذي البصـــائر جريَ الطَّيْف في المُقَلِ

وقال القاضي شهاب الدين بن فضل الله في كتابه مسالك الأبصار في ترجمة ابن تميم وحكى أنه حضر في مجلس بعض الأكابر: وقد غصَّ المجلس، وبهتت فيه عيون النرجس، وقمعت فيه أصابع المنثور، وأعطى فيه أمير الحُسن ذؤابة شعره المنشور، وطال أعمال الكؤوس حتى غمضت الجفون، ولم يبقَ دور الكأس خالٍ من الجنون، وإن أمنية ابن تميم قد تركه السكر ملقى، وخلا خده المضرج محلقًا، فنهض غير مرَّةٍ لتقبيله، ثم خاف أعينَ قتيله، فقعد بعد اللجاج، ورَجَعَ رجوع الصادي والماء يجلي عليه في الزجاج؛ فقال:

كيف السـبيـل لأن أقبِّـلَ خَـدَّ مَن أهـوى وقـد نـامـتْ عـيـونُ الـحُـرَّس
وأصـــابـع المـنـثـور تـومـئ نـحـونـا حســدًا وتـغـمـزنـا عـيـونُ الـنـرجـس

البنفسج

باردٌ رطبٌ، فيه حرارة يسيرة تتحلل بها الأورام، وهو ينفع المحرور، وينوم نومات معتدلًا، ويُذْهِبُ الصداعَ العارضَ من المرة الصفراء والدم الحريف، وهو وشرابه يسهل المرة الصفراء، وينفع للصدر والرئة. وكذلك مربَّاه ينفع من ذات الجَنْب. انتهى كلام ابن المجلي في النور.

وقال صاحب مباهج الفكر ومناهج العبر: البنفسج من الرياحين اللطيفة. ومن الخواصِّ الظريفة أن من أراد أن يكون البنفسج على غير سبيل الفلاحة في السرعة أنْ يأخذ من السَّدَاب البستاني شيئًا،

يكون مقداره في القلة والكثرة بمقدار البنفسج، ويكون السداب لم يُصِبه الماء البتَّة، بل يُقطَع من منابته ويجفف حتى يزول التراب المتعلق بعروقه عند قلعه، ثم يؤخذ لكل طاقة بنفسج طاقة سداب، ويُعمَد إلى أطراف مجاري الماء إلى أصول البنفسج فيُجعل فيها السداب، ويؤخذ من أغصان خشب التين المجففة شيءٌ، ثم يحرق الجميع على مَقْرُبَة من البنفسج بحيث لا يبلغ لهبُ النار إليه، فإنه متى فعل ذلك للبنفسج أهاجه وحمل بعد عشرين يومًا من هذا الفعل.

ومن عجيب أمره أن الإنسان إذا تغوَّط في مجاري الماء إليه مات وذَبل، وكذلك إن خرج منه ريحٌ في مزرعته، وحاجته إن كان ابتدأ في توريده فإنه يفسده، ولا يكاد يجذب من الماء الذي يسقى به شيئًا. وإنه إذا دام الضباب عليه يومًا أو نحوه ضَعُفَ، ومتى توالى نقصت زهرته وصغر ورقه وتغيرت رائحته.

ومن الأشياء المضادة له القصب، فإنه لا يفلح بقربه ولا ينمو، ومن آفاته المهلكة له والمضعفة لقوته لسرعة قبوله للتأثيرات الرديئة أن تقع صاعقةٌ على أربعمائة ذراع منه أو أقل، فإنه يهلِك سريعًا، والبرد يفسده فساد الإصلاح معه، وكذلك الرعد الشديد المتابع يضعفه ويوهنه، والسمائم أيضًا تتلفه، والريح الشمال الباردة والمطر الكثير يذهب به لضعف ساقه، وماء الآبار الثقيل يضعفه وربما أهلكه، وكذلك الدخان إذا دام عليه.

ولا ينبغي أن يماسَّه في منبته ترابٌ من قبورٍ أو ما يقرب من القبور فإن ذلك يضعفه، وإن أصابه أهلكه.

الوصف: من رسالةٍ لأبي العلاء، عطاء بن يعقوب، يصفه: سماويةُ اللباس، مِسكية الأنفاس، واضعة رأسها على ركبها كعاشقٍ مهجور، ينطوي على قلب مسحور، كبقايا النَّقْشِ في بنان الكاعب، أو أثر الحبر في أصابع الكاتب، أو الكحل في لحاظ الملاح الفاترات، الغانيات القاتلات، لازَوَرْديَّة فاقت بزرقتها على اليواقيت، كأوائل النار في أطراف كبريت.

قلت: هذا المنشئ اشترك هو وابن المعتز في تشبيه البنفسج بأوائل النار في أطراف الكبريت، وازدحما في اللفظ والمعنى، ولكن رأيت لصيارفة الأدب عليه نقدًا حسنًا، فإنهم قالوا: إن كان أوائل النار في أطراف الكبريت أعلى رتبةً من المشبه — والبنفسج يجل قدره عن ذلك — فإنه من أهل الجنة، والكبريت من أهل النار. قلت: هذا النقد يشبه قول القائل في هجو خادم اسمه كافور، وهو:

أكافور قُبِّحتَ من أسودٍ   فما فيكَ من خلَّةٍ صالحةْ

حكيتَ سَمِيَّك في بردهِ وخالفت في اللون والرائحة

والبنفسج أيضًا حظه منحوس في الوصف كما تقدم في الورد ولكن قلت:

بنفسج روضي صار يُبدي صياغة وقد طُلَيت حتى على ذهب الأفق
وبالغ حتى صار في كل خاتمٍ من الزهر فصٌّ من يواقيته الزرق

وأجاد أبو هلال العسكري في قوله رحمه الله تعالى:

ومعذر قال الإله لحسنه: كن فتنةً للعالمين فكانه
زعم البنفسج أنه كعذاره حسنًا فسلُّوا من قَفاه لسانَه

وقال:

قال يومًا بنفسج الروض تيهًا بلسان إطاعة للعيان:
غمِّضوا أعين النرجس عنِّي ما لها طاقة بطول لساني

وقال آخر، وهو المكيالي، رحمة الله عليه آمين:

يا مهديًا لي بنفسجًا أرِجًا يرتاح صدري له وينشرح
بشَّرني عاجلًا مصحفه بأنَّ ضيق الأمور ينفسح

وأنشدني الشيخ عز الدين الموصلي لنفسه، رحمه الله تعالى:

بنفسج الروض تاه عجبًا وقال: طيبي للجو ضمَّخ
فأقبل البان في احتفال والزهر من غيظه تنفَّخ

وقال مجير الدين بن تميم:

عاينتُ ورد الروضِ يلطم خدَّه ويقولُ وهْو على البنفسج محنقُ:
لا تقربوه وإن تضوَّع نشره ما بينكم فهو العدو الأزرق

آخر:

بنفسجٍ جُمعتْ أوراقه فحكت دمعًا تشرَّب كحلًا يوم تشتيت
كأنَّه بين طاقات ضعفهن بها أوائلَ النار في أطراف كبريت

ويعجبني قول الراضي بالله، وإن لم يكن مما نحن فيه، ولكن الشيء بالشيء يذكر:

قالوا: الرحيلَ فأنشبت أظفارها في خدِّها وقد اعتلقنَ خِضابا
فظننتُ أنَّ بنانها من فضةٍ قُطفَت بأرض بنفسجٍ عنَّابا

وهو قليل الوصف جدًّا.

الريحان

حارٌّ يابسٌ، وإذا غمس في الماء اعتدل وقلت حرارته. وشمُّه ينفع من اللَّقْوَة، ويضمد به مدقوقًا للسعة العقرب فيسكن، وينفع المبرودَ الدماغِ، ويضرُّ المحرور. انتهى كلام النبري.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة في كتابه شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، عند ذكر كسرى أنوشروان أنه: كان جالسًا بالإيوان وإذا بحيَّة قد دنت من عشِّ حمامةٍ في بعض شُرَف الإيوان لتأكل فراخها، فرمى الحية بسهم أو ببندقية فقتلها، وقال: هكذا نفعل بعدوٍّ مَن استجار بنا. فلما كان بعد أيام جاءت الحمامة بحَبٍّ في منقارها، فألقته إليه، فأخذه وقال: ازرعوه. فنبت ريحانًا لم يكن يعرفه، فقال: نِعْمَ ما كافأتنا به الحمامة. نسأل الله الذي ألهمها أن يلهمنا الإحسان إلى رعيته، والشكر على نعمته.

قلت: وذكر الشيخ جمال الدين ما خُصَّ به كسرى من الأشياء الغريبة، فلا بأس بإيراد نبذة منها إذ كان كتابنا هذا يشتمل على مآثرها، فمنها الفيل الأبيض لركوبه، طوله اثنا عشر ذراعًا؛ والقطعة الياقوت المسماة لسان الثور تضيء أكثر من السراج، والفلهيد المغني واضع العود الخراساني على اثني عشر وترًا، كل من ضربَ به جُرِحَ إلا هو، وكان يُعمَل له كل يوم مع طعامه مهرٌ من الخيل، وعناق زرقاء مغذَّاة بألبان النعاج، يذبحان بسكينٍ من ذهب، ويسجر التنور بالعود، ويسمط ما يسمط بالجمر المغلي، ويطلى بالمسك والملح، ويعلق في سفودٍ من ذهب، ورياحين من ذهب، فإذا برد حُمِلَ ووُضِعَ على خوان من ذهب، ويُقدَّم إليه فيأكل أكثره، ويتحف بالبقية من أحب من ندمائه، ويُكسر

التنور ويُجدَّد كل يوم مثله. واجتمع على بابه سبعون ملكًا، وكانت له حكايات حسنة في سيرته أضربتُ عنها لئلا نخرج عما نحن بصدده.

رجع: قال الحسن بن سهل: أربعة من الرياحين تقوَّى بأربعة من الطيب ليكمل ذكاؤها: الورد بالمسك، والنرجس بماء الورد، والبنفسج بالعنبر، والريحان بالعبير.

الوصف:

قال ابن المعتز:

قضيبٌ من الريحان شابَهَ لونُه إذا ما بدا في العين لونَ الزمرد
فشبَّهتُه لما تأملتُ حُسنَه عِذارًا تدلَّى في عوارض أمرد

قلت: وأنشدني الشيخ عز الدين الموصلي من لفظه في مليح معذر:

بخدِّ الحِبِّ ريحانٌ نضير لأسطره حروف ليس تُقرَا
فراعيتُ النظيرَ وقلت: حِبِّي عِذارك أخضرٌ والنَّفْس خضرا

وقال مجير الدين بن تميم:

ومجلسٍ راق من واشٍ يكدِّره ومن رقيبٍ له باللَّوم إيلام
ما فيه ساعٍ سوى السَّاقي وليسَ به بين الندامى سوى الريحان نمَّام

الآس

بارد يابسٌ. دهنه يقوي أصول الشعر ويمنع تساقطه، ويطيله ويسوده؛ وورقه اليابس ينفع صنان الإبط ويطيب رائحة الجسم، وإذا طُبِخَ وتُمِضْمِضَ بمائه قوَّى الأسنانَ واللثة، ويمنع من الصداع الحاد؛ وشمه يقوي القلب المحرور، ويزيل خفقانه؛ وينفع حبه من الإسهال ويقوي المعدة. انتهى كلام العنتري في النور المجتنى.

وقال صاحب المباهج: إنه يتصرف في أشياء كثيرة عظيمة النفع، حَبُّه وورقه وقوته، البرودة في الأولى، وحبه نافع من الخفقان وضعف القلب، وهو بجملته قاطع للإسهال المتولد من الصفراء، ومن ابتلع من ورقه من الخمسة إلى السبعة ورقات فإنه يقوي المعدة وينفي ما فيها ويحلل رياحها، وأما

حَبَّه فإنه لما فيه من الحلاوة واللطافة ينفع للسعال العارض من الحرارة من غير إضرارٍ بالصدر والرئة، ولما فيه من العفوصة يقطع نفث الدم وحرقة المثانة، وينفع الإسهال المزمن، وماؤه إذا غُسِل به الشعرُ حصَّبه وقوَّاه من الانتثار وشدَّ أصله، وينفع من الأبرية والقروح الرطبة، وإذا جُفِّفَ الورق ودُقَّ ونُخِّلَ وحُمِلَ على الآباط والأفخاذ النديَّة قطع نداوتها ومنع عروقها.

وعن ابن عباس قال: أُهْبِطَ آدم من الجنة بثلاثة أشياء منها الآسة، وهي سيدة ريحان الدنيا.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال والحسين بكلتا يديه وردة: «إن الورد سيد رياحين أهل الجنة ما خلا الآس».

وهو باليونانية: المرسين.

الوصف:

خليلَيَّ ما للآس يعبَق نشرُه ... إذا هبَّ أنفاس الرياح العواطر
حكى لونُه أصداغَ ريمٍ معذَّرٍ ... وصورته آذان خيلٍ نوافر

وما ألطف ما ألمَّ به الشيخ شمس الدين بن الصائغ في قوله:

خطُّ آسِ العِذار في الخدِّ لاما ... عرفتني سفاهة اللُّوَّام
أنا في كسرة لبُعدي عنها ... جبر مثلي بالآس أو باللَّام

وقال آخر فأغرب:

اعجب بآسٍ معجبٍ مؤنَّق ... فإنَّ فيه كل إعجاب
كأنَّما تقطيع أوراقه ... ما بيننا أنصل نشاب

قلت: في البيت الأول عجعجات كثيرة، ولكنه أصاب الغرض في الثاني؛ ويمكن أن يقول:

عوارض الآس أبدت في موشحها ... نظمًا بأغصانه للنبت خرجاتُ
وقد حلا لي بأوراقٍ ملوَّزةٍ ... وللملوَّز في الدنيا حلاواتُ
أحببْ بآسٍ أخضرَ مؤنَّق

الياسمين

حار يابس. في آخر الدرجة الثالثة، نافع من الرطوبة والبلغم، صالح للمشايخ ومن كان بارد المزاج، ومن الصداع العارض من البلغم والمرة السوداء وعفونة البلغم، وكثرة شمه تورث الصفار، يفعل ذلك في الحار المزاج؛ ودهنه ينفع من أمراض العصب الباردة، والخالص من دهنه يرعف. انتهى كلام ابن المجلي.

وقال صاحب المباهج في الفلاحة: إذا أردت ياسمينًا أحمر اللون فإنه يُشَقُّ قصب الياسمين ويُخرج ما فيه ويحشى مكانه بالك مسحوقًا، ويوضع عليه طينٌ، ويلف عليه مشاق، ويغرس ويُتعاهَدُ بالسقي، فإنه يزهر ياسمينًا أحمر؛ والأزرق بالسلح، والأصفر بالزرنيخ؛ مجرَّب.

الوصف:

ولـقَّاء خـلـنـاهـا ســـمـاءَ زبـرجـدٍ   لـهـا أَنْـجُـمٌ زهـرٌ مـن الـزهـر الـغـضِّ
تنـاولـهـا الجـاني من الأرض قـاعـدًا   ولم أرَ من يجني الســمـاء من الأرض

آخر في الأصفر منه:

كـأنـمـا الـيـاســـمـين حـين بـدا   يشـــرق مـنـه جـوانـب الـكـثـب
عســاكـر الـروم نـازلـت بـلـدًا   وكـل صـــلـبـانـهـا مـن الـذهـب

وقال مجير الدين بن تميم:

كم قلـت لمـا عـاب بِيضَ ملابســي   زهـر الـربـى قـولًـا بـغـيـر تـعـرُّضِ
زهر الغصـــون أجـلُّ من زهر الربى   وإذا أتـى يـأتـي بـثـوبٍ أبـيـض

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى:

ويـــاســـمـــين قـــد بـــدت   أشـــجـــاره لمـــن يَصِـــف
يشـــبـــه ثـــوبًـــا أزرقًا   عـــلـــيـــه قـــطـــن قـــد نُـــدِف

وقال:

اليـاســمين يقول إذا ولَّى الشــتـا   ومضـــى الربيع بـأعين ومبـاســمِ:

دَيـنُ المصـــيـف عـلـيَّ آن أوانـه وقـد اسـتحقَّ اليوم قبض دراهمِ

الخيريُّ

وهو المنثور. حار يابس في الثانية، فيه جلاء وتلطيف، وينفع من السدة في الرأس من البلغم، وهو دواء فائق للأورام، وخاصة لما طال لبثه وعَسُر. ويجتذب المشيمة والأجنَّة الموتى، بأن يشَمَّ دهنه وتدلك به الأخصار والمغابن وفم الرحم.

والخيري ألوان مختلفة: أصفر ذهبي، وهو أرفعها؛ وخمري، وبنفسجي، وأكحل، وملمَّع وبياض، وغير ذلك من الألوان. والأبيض هو أردؤها، والأصفر الذهبي ذكي الرائحة يُشمُّ ليلًا ونهارًا، وأما سائر أنواعه سوى الأبيض فإنها لا يشم لها بالنهار رائحة ما دامت الشمس طالعة، فإذا غابت ظهر لهذه الألوان رائحة عجيبة عطرة، مشاكلة لروائح القرنفل أو روائح ماء القرنفل المصعَّد بماء الورد، ولا تزال رائحتها تزداد طيبًا إلى طلوع الشمس، ثم تزول تلك الحمرة والرائحة باقي النهار إلى وقت المغيب، وأما الأبيض فلا يؤدي رائحةً في ليل ولا نهار، وهو أقلُّها نفعًا وأردؤها، وفي أصنافه منفعتها واحدة، وقد يتخذ من الأصفر منه والخمري والبنفسجي دهن يربى بالسمسم كما تربَّى أدهان الأزهار، فينفع الأورام الباردة ويحلها، ولعُقَدِ الرقاب والأعصاب المعارضة لهما.

وإدمان شمه ينفع من اللقوة والفالج وذوي الأمزجة الباردة، وإذا أخذ من بزر الأصفر مجففًا وَزْنُ دانقَيْن يُسحق مع زهرتين من زهر القرنفل الذكر، وأضيفَ إليهما وزن حبةٍ من مسك أذفرَ خالصٍ ووزن القرنفل من إنْفَحَة أرنب، وسُحِقَ الجميع ورتِّب على الصلابة بالبان المبسوس بالمسك، واتخذ منه فرزجات، وتحملت المرأة فرزجة منها في ليلة طهرها، وواقعها بعلها، فإنها تحمل بإذن الله من تلك المواقَعة.

وذكر جالينوس أن بزر الخيري إذا سحق مع دم هدهد ودهن زئبق، واحتملته المرأة وواقعها زوجها حملت.

وهو من النبات الذي إذا لقطت ورده امرأةٌ حائض فسد وذبل وهلك لخاصية فيه، ولا ينبغي أن يعمل أعماله كلها امرأة البتَّة، حائضًا كانت أو غير حائض، بل الرجال الذين أسنانهم فوق أسنان الصبيان، ويطرح بزره الذي يطرحه، وهو طاهرٌ نظيفٌ بعيدُ العهد بملامسة النساء، ويعالج جميع أعماله. والقمر زائد في الضوء، وإن كان متصلًا بالسعودِ حيد المكان في الفلك كان أجود، ومما يوافقه

أن يذر في أصله شيء من دقاق بَعْرِ المعز بعد السقي، فإنه ينفعه ويزيد في رائحته زيادةً بيِّنة، وليس يحتاج إلى الشمس الحارة لأنها تضعفه، ولا يكثر عليه الماء إكثارًا فإنه يضره. انتهى كلام صاحب المباهج.

الوصف: قال مجير الدين بن تميم:

مَن قال: إن الورد والمنثور في ... عظم المكانة جِدَّ في تعنيفه
ما احمرَّ وجه الورد إلا مُذ غدا الـ ... ـمنثور يلطم خدَّه بكفوفه

وقال:

حاذِرْ أصابعَ مَن ظلمتَ فإنَّه ... يدعو بقلبٍ في الدُّجى مكسور
فالوردُ ما ألقاه في جَمْرِ الغَضَا ... إلَّا دُعاء أصابعِ المنثور

وقال متعصبًا للورد:

ولم أنسَ قولَ الوردِ: لا تركنوا إلى ... معاهدةِ المنثورِ فهو يَمين

وقال متعصبًا له على النرجس:

مُذ لاحظَ المنثورُ طرفَ النرجس الـ ... ـمُزْوَرِّ قال وقوله لا يُدفَعُ:
فتِّح عيونك في سواي فإنَّما ... عندي قُبالةَ كلِّ عينٍ إصبعُ

وقال:

ومُذ قلت للمنثور: إنِّي مفضِّلٌ ... على حسنك الوردَ الجليل عن الشبهِ
تلوَّنَ من قولي وزاد اصفراره ... وفتَّح كفَّيهِ وأومى إلى وجهي

وقال ابن حجة:

رأيتُ من المنثور بعضَ وقاحةٍ ... ولمْ أدرِ ما بينَ الغدير وبينه
تلوَّنَ منه ثمَّ مدَّ أصابعًا ... إلى وجهه عمدًا وحمَّر عينه

وقال:

ومـذ قـيـل لـلـمـنـثـور: إنَّ الـورد قـد وافــى عــلــى الأزهــار وهــو أمــيــر
بســـــمـت ثـغـور الأقـحـوان مسـرَّةً لــقـــدومـــه وتـــلـــوَّن الـمـــنـــثـــور

وقال:

لمـا ادَّعـى المـنـثـور أنَّ الـورد لا يـأتـي وإن يُصـلـى بنـار سـعـيرِ
ودَّت ثـغـور الأقـحـوان لَوَ اْنَّهـا كـانـت تـعـضُّ أصـابـع المـنـثـور

وأحسن التصرف الأمير شهاب الدين الحاجبي في قوله:

ولـقـد نـثـرت مـدامـعـي ودمـي مـعًا يـومَ الـوداع وخـاطـري مـكسـور
لا تـعـجـبـوا لـتـلـوُّنٍ فـي أدمـعـي لا غـروَ أن يـتـلـوَّن المـنـثـور

الآذَرْيُون

حار يابس. منافعه أن يُسحقَ بالخلِّ ويطلى به داء الثعلب، ينبت الشعر فيه، وينفع سائر السموم لا سيِّما اللدوغ.

وقال صاحب المباهج: إنْ شُرب من أصله خمسة دراهم مع عسل أو سمن أسهل إسهالًا شديدًا، بلغمًا وكيموسًا بائيًا، ويشربه أصحاب اليرقان، وينبغي أن يضطجع من يشربه في بيت حارٍّ ويغطَّى بثياب كثيرة، فإنه يسيل منه عرقٌ لونه المرة الصفراء؛ والشربة منه ثلاث مثاقيل ونصف، بشراب حلوى وبماء العسل، وينفع شربه بالطلاء من السم القاتل، ولدغِ الهوامِّ. ومن عجائب خواصه أنه إن دخلت امرأة حامل بيتًا فيه آذريون أسقطت، وإن تحملت به امرأة في فرجها ثم جامعها بعلها حملت.

وقال دِيُسقُورِيدس: أصل بخور مريم إذا علق على المرأة مَنَعَ الحبل، وإذا خطته المرأة الحامل أسقطت، وإذا أخذ منها وهي جافة وسحق منها مثقالٌ وسقي بماء فاتر وعسل لمن يحب أن يَسْهُلَ باطنُه فإنه يجليه بلغمًا كثيرًا، وينفي كل ما في صدره من البلغم، ويخرج ما في باطنه من الخام، وإن شربت منه امرأة أسهلَ حيضها، وإن أحشت منه صوفةً أسهل حيضها وهي تنزل الولد الميت، ويشرب منها لعسر البول وعسر الولد، ولمن سُقِيَ سمًّا أو لدغه شيء من ذوي السموم، وهي سليمة مأمونة لا

يُخاف منها نافعة، وهي تنفع لوجع الكبد، يسقى منها رطلًا وعسلًا وبماء فاتر وعسل، وهي نافعة من السرطان، ومن العقد التي تخرج في الأصابع والسلع، يعمل لهم منها مرهم ثم يطلى عليها.

والآذريون من الأشياء الصابرة على العطش، وهي كبيرة وصغيرة، ونباتهما سواءٌ، فالكبيرة شجرة مريم، والصغيرة أذن العجوز.

وزعم السلف أن الحامل إذا أمسكته بيديها مطبقة إحداهما على الأخرى أن الجنين يناله ضرر شديد، فإن أدامت إمساكه واشتمامه أسقطت، وإن عسرت الولادة على الحامل فلتمسكه بيديها كما وصفنا، فإنها ترمي الولد سريعًا. وإذا بُخِّر به هرب الفأر والوزغ من الموضع الذي بخر فيه. وفيه منافع جمَّةٌ اختصرناها.

الوصف: قال الصنوبري:

كأن آذريونها من فوقِ تلك القُضَب
خيامُ مسكٍ فوقها سُرادق من ذهب

وقال ابن المعتز وأجاد:

كأنَّ آذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهبٍ فيها بقايا غالية

قال ابن حجة في الآذريون:

كأنَّ آذريونها ونوره قد أبهجا
وميض برقٍ لامع في جُنح ليلٍ قد دجا

السَّوْسَن

بضم السين لحن؛ والصواب بالفتح وزن جَوْهَر وكَوْثَر، ولم يُسمع بالضم إلا جؤذر. وهو حار يابس في أول الدرجة الثانية، ينفع من كان بارد المزاج، ومن الأوجاع العارضة في العصب من البلغم، ودهنه نافع من وجع العصب المتولد من البلغم، ووجع الرحم. والإسمانجوني أقل حرارة. وأصل الإسمانجوني يسهل الماء الأصفر الشربة منه مثقال. انتهى كلام صاحب النور.

الوصف: قال أبو نُوَاس رحمه الله تعالى:

سـقيا لأرضٍ إذا ما نِمْتُ نبَّهني ... على الهدوِّ بها قرع النواقيسِ
كأنَّ سَوْسَنَها في كلِّ شارفةٍ ... على الميادين أذنابُ الطواويس

قال ابن حجة في السوسن:

بدا سوسنُ الرَّوْض المدبج أزرقًا ... وأصفرَ يعلو طوله فوق مبيض
كأنَّ الرُّبى أرخت ذيولَ غلائل ... مصبَّغةً والبعض أقصر من بعض

النَّيْلوفَر

وهو أزرق، وأصفر، وأحمر، وأبيض. وجميع أصنافه باردة رطبة. منوِّم مخدِّر للدماغ، أقوى فعلًا من البنفسج في التنويم، وينفع الصدر والرئة في الأمراض الحارَّة، ويزيل الاحتلام، ويقطع شهوة الباه، لا سيِّما إن شُرب منه فإنه يجمِّد المني لخاصية فيه، لا سيما أصله وبزره وشرابه ودهنه، نافعاتٌ لأمراض الرأس من حرارة. انتهى كلام ابن المجلي.

الوصف: قال ابن صابر:

يا حبَّذا بركةُ نَيْلوفَر ... قد جمعتْ مِن كلِّ فنٍّ عجيب
أزرق في أحمر في أبيض ... كقَرْصَةٍ في صحن خدِّ الحبيب
كأنَّه يعشق شمس الضُّحى ... فانظره في الصُّبْح وعند المَغيب
إذا تجلَّت يتجلَّى لها ... حتَّى إذا غابَ سَناها يغيب
يدنو إليها شاخصًا طرفه ... ولا يتحاشى نظرات الرقيب
لا يبتغي وجهًا سوى وجهها ... فعلُ مُحبٍّ مخلصٍ في حبيب

وقال ابن حمديس:

اشربْ على بركةِ نَيْلوفَر ... محمَّرةِ الأوراقِ خضراء
كأنَّما أزهارها أخرجت ... ألسنة النار من الماء

وقال ابن تميم وأجاد:

نـيـلـوفـر لمـا تـلـبَّـس مـاؤه ثـوبًـا وتـاهَ عـلـى الـنـجـوم بـذوبـه
لـحظـتْـه أعـيـنـهـا فـنكَّس رأسـه خجلًـا وغـاص من الحيـا في ثوبـه

وقال أيضًا:

غـدا النيلوفر المصـفَّر يحكي النْـ ـنُجومَ فلا يغـادرهـا شـبيهـا
تـغـوص الـعـين فـيـه إذا تـجلَّـى النْـ ـنَهـارُ وفي الظلام يغوص فيهـا

وقال أيضًا:

ونيلوفرٍ كـالزهـر شـكلًـا ومنظرًا محـاسـنـه فـيـهـا اللـواحظ ترتـع
وكـلٌّ نـجـومٌ لـكـنَّ الـفـرق أنـهـا تغيب صـباحًا وهو في الصـبح يطلع

وقال ابن حجة:

نـيـلـوفـر الـلـيـل مـذ أبـدى تـلـوُّنـه واحمرَّ وازرقَّ من شـامينا وشـكـا
قـلـنـا لـه: ذاك لـونٌ واحـدٌ وبـه يسـمو وأنـتَ بلـيـدٌ وهـو فـيـه ذكـا

الباب السادس عشر

في الروضات والبساتين

أجمع جوَّابو أقطار الأرض على أن منتزهاتها أربعة: سُغْد سمرقند، وشِعب بَوَّان، ونهر الأُبُلَّة، وغُوْطَة دمشق. قال أبو بكر الخوارزمي: قد رأيتها كلها؛ فضلُ الغوطة على الثلاث كفضل الأربع على غيرهن، كأنها الجنة صوِّرت على وجه الأرض. فأما السُّغد فهو نهر تحفُّ به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر، ما مقداره اثنا عشر فرسخًا في مثلها؛ وأما شِعْب بَوَّان فبقعة من نواحي كورة نيسابور، يكون مقدارها فرسخين، قد ألحقتها الأشجار ظلالها وجاست الأنهار خلالها، وهذا الشعب لبوان بن أبرج بن أفريدون، وفيها يقول المتنبي:

مغاني الشِّعْب طيبًا في المغاني ... بمنزلة الربيع منَ الزمان
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليد واللسان
ملاعب جنَّةٍ لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان
غدونا ننفض الأغصان فيه ... على أعرافها مثل الجُمان
فسرتُ وقد حجبن الشمسَ عنِّي ... وجِئْنَ من الضِّياء بما كفاني
وألقى الشَّرقُ منها في ثيابي ... دنانيرًا تفرُّ من البَنان
لها ثمرٌ تشير إليكَ منه ... بأشربة وقفن بلا أوان
وأمواهٌ تَصِلُّ بها حصاها ... صليلَ الحَلْيِ في أيدي الغواني
إذا غنَّى الحمامُ الوُرْق فيها ... أجابتها الأغاني والقِيانِ
ومَن بالشِّعب أحوج من حمام ... إذا غنَّى وناح إلى البيان

وقد يتقارب الوصفان جدًّا ... وموصوفاهما متباعدان
تقول: بشِعب بَوَّانٍ حِصاني ... أَعَنْ هذا تسير إلى الطِّعان
أبوكم آدمُ سنَّ المعاصي ... وعلَّمكم مفارقةَ الجِنان

وأما نهر الأبلَّة فإنه من أعمال البصرة، وطوله أربع فراسخ، وعلى جانبيه بساتين كأنها بستانٌ واحد قد خُطَّ على خط مستقيم، وكأن نخله غُرِسَ في يوم واحد.

وأما الغوطة، وهي من خير دمشق، فإنها ناحية يكون طولها ثلاثين ميلًا وعرضها خمسة عشر ميلًا، مشتبكة القرى والضِّياع لا يكاد أن يقع للشمس على أرضها شعاع، لالتفاف أشجارها واكتناف أزهارها.

وللشعر في وصفها قصائد كثيرة أضربنا عن ذكرها لتردد العلل فيما يُختار منها، إذ كلها حِسانٌ، لو جمعت لحفيت من تسطيرها الأقلامُ وكلَّت البنان. وقد روي في بعض الأخبار عن كعب الأحبار أنه قال: غوطة دمشق بستانُ الله في أرضه.

وقال جمال الدين بن نباتة: كتبها الملوك ومنظر الروض قد شاق، ودمع الغيث قد رقا ووجه الأرض قد راق، والغصون المنعطفة قد أرسلت أهواء القلوب بالأوراق، وحمائمها المترنمة قد جذبت القلوب بالأطواق، والورد قد احمرَّ خده الوسيم، وفكت أزراره من أجياد القضيب أنامل النسيم، وخرجت أكفه من أكمامه بأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم.

وقال القيراطي في دمشق: سما قوسها على قوس الكواكب، وأقبلت من كتائب زهرها في مواكب، وتحرك عودها حين غنت عليه من الوُرق القيان، وطفح يزيدها فقلت: هذا مما يعجب أبا سفيان.

وقال مجير الدين بن تميم:

كيفَ السبيلُ لِلَثْمِ من أحببته ... في روضةٍ للزَّهْرِ فيها معرك
ما بينَ منثورٍ وناظرِ نرجسٍ ... مع أقحوان وصفه لا يُدرَك
هذا يشير بإصبع وعيون ذا ... ترنو إليَّ وثغر هذا يضحك

وقال آخر فيها: وحللنا بموضع فافترشنا من زهره أحسن بساط، واستظللنا من شجره بأوفى رِواق، وطفقنا نتعاطى شموسًا من أكفِّ بدور، وجسوم نار في غلائل نور، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء.

وقال الشريف علي بن دفتر خوان:

ودوحةٍ سَكِرَتْ أغصانها بصَبًا | فللهوى في مغانيها إشاراتُ
ماست فنقطها غيث بلؤلؤةٍ | ففوق أوراقها منه جمانات
فهنَّ في العين هاءات مطمسةٌ | من اللجين وإن سالت فميماتُ

وقال علي بن ظافر: في منزل قد انعطفت قدود أشجاره، وابتسمت ثغور أزهاره، وذاب كافور مائه على عنبر طينه، وامتدت بكاسات الجلَّنار أنامل غصونه، والنسيم قد خفق واعتل، وسقط رداؤه الخفَّاق في الماء فابتل، ووهنت قوته حتى ضعف عن السير، واشتد مرضه حتى ناحت عليه نوائح الطير.

وقال أيدمر المحيوي:

الروض مقتبل الشبيبة مونق | خَضِلٌ يكاد نضارةً يتدفَّقُ
نثر الندى فيه لآلئَ عقده | فالزهرُ منه متوَّج وممنطق
وارتاع من مرِّ النسيم به ضحًى | فغدت كَمائمُ نوره تتفتَّق
وسرى شعاع الشمس فيه فالتقى | منها ومنه سنا شموسٍ تشرق
فالغصن ميَّاس القوام كأنه | نُشوان يُصبَح بالنعيم ويعبق
والطير ينطق مُعربًا عن شجوه | فيكاد يُفهم عنه ذاك المنطق
غَرِدًا يغنِّي للغصون فينثني | طربًا جيوب الطل منه تشقق
والنهر لما راح وهْو مُسَلسَلٌ | لا يستطيع الرقص ظل يصفِّق
فتمل أيام الربيع فإنها | ريحانة الزمن الذي يُستَنشَق

وقال سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومي المالكي، الشهير بابن الدماميني، أسبغ الله عليه ظلاله، يصفها عند دخوله إليها في ثامن رمضان المعظَّم سنة ثمانمائة، ونقلتها من خطه: فتأملها المملوك فإذا هي جنة ذات ربوةٍ وقرار معين، وبلدة تبعث محاسنها الفكر على حسن الوصف وتعين، وحسبك بالجامع الفارق بينها وبين سواها، والأنهار التي إذا ذكر قتل المحل فما أجراها، وإذا سمع حديث الخصب فما أرواها، ما أقول إلا منتزهات مصر عارية من المحاسن وهي ذات الكسوة، ولا إن احتراق النيل إلا من الأسف حيث لم يسعده الدهر بالصعود إلى تلك الربوة، ولا أظنه

احمرَّ إلا خجلًا من صفاء أنهارها، ولا ناله الكسر إلا لتألمه بالانقطاع عن الوصول إلى سقي أزهارها، فلو رأى العاشق جبهتها لسلا بمصر معشوقه، ونسي ظهور جواريه المنحنية بقامات غصونها المشوقة، ولو تطاولت المجنونة إلى المفاخرة لتأخرت إلى خلفها متخبلة، وأحجمت عن الإقدام حين تحركت لها بدمشق السلسلة، وحق مصر أن لا يجري حديث المفاخرة في وهمها، وأن تتقي شر المنازعة قبل أن تصاب في هذه البلدة بسهمها، فسقى الله منتزهاتها التي طرب الملوك برؤية جنكها، وطالما اهتزت له المعاطف على السماع، ورأى بها كل نهر ذاب عنه الجليد فانعقد على حلاوة سكره الإجماع:

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وقال البدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

هلمَّ يا صاح إلى روضةٍ يجلو بها العافي صدا همِّه
نسيمها يعثر في ذيله وزهرها يضحك في كمه

وقال ابن عمار:

يا ليلةً بِتنا بِها في ظلِّ أكناف النَّعيم
مِن فَوقِ أكمام الرِّياض وتحتَ أذيالِ النسيم

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي في تشبيه القمر من خلال الأغصان:

كأنما الأغصان لما انثنت أمام بدر التمِّ في غيهبِهْ
بنتُ مليكٍ خَلفَ شُبَّاكها تفرَّجت منه على موكبِهِ

وقال سيدنا بدر الدين محمد بن الدماميني في كتابه الذي وضعه على غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم، تصنيف الشيخ صلاح الدين الصفدي، وسماه كتاب نزول الغيث، عند ذكر هذين البيتين: ظاهر هذه العبارة أن الأغصان شبهت في حال انثنائها أمام البدر في الدجى، ببنت مليك تطل من خلف شباكها للنظر في موكب أبيها. وذلك عن مظانِّ التوجيه بمعزل، ومقصوده أن البدر في حال ظهوره من خلال الأغصان المثنية على الصورة المذكورة يشبه ببنت مليك على تلك الحال تمثيلًا للهيئة الاجتماعية بشبهها، لكن لفظه لا يساعده على هذا النمط، لأنه جعل الأغصان مبتدأ وأخبر عنه بقوله: بنت مليك، فلم يتم له المراد، وكثير ما يقع له هذا.

وقال يصف خالًا على شفة:

قد شبَّه الخال على ثغره ... تشبيهَ من لا عنده شكٌّ
بسبحة من جوهر ضُمِّنت ... حُقَّ عقيقٍ قفله مسك

وأين هذا من قول الطغرائي:

انظر إلى الجنة في ثغره ... لا ريبَ في ذاك ولا شك
أما ترى فيه الرحيق الذي ... ختامه من خاله مسك

على أن مقطوع الصفدي الأول مع ما فيه من العيب مأخوذ من قول ابن قرناص:

وحديقةٍ غنَّاء ينتظم الندى ... بفروعها كالدُّرِّ في الأسلاكِ
والبدر يشرق من خلال غصونها ... مثل المليح يطلُّ من شبَّاك

عنيت هذا البيت الثاني، وشتان بين ذاك وبينه، فتأمله.

انتهى كلام الشيخ بدر الدين.

وقال بعضهم وأحسن: نحن في غب سماء أقلعت بعد الارتواء، وأقشعت بعد الاستغناء، والنبت خضل ممطور، والنقع ساكن محصور، رشح جبين النسيم وابتلَّ جناح الهواء، وضربت خيمة الغمام واغرورقت مقلة السماء، وقام خطيب الرعد، ونبض عرق البرق.

وقال ابن الساعاتي:

ولقد نزلتُ بروضةٍ حَزنيَّةٍ ... رتعتْ نواظرنا بها والأنفسُ
فظللتُ أعجبُ حيث يحلف صاحبي ... والمسكُ من نفحاتها يتنفَّس
ما الدوح إلا جوهرٌ والجوُّ إلَّا ... عنبرٌ والروض إلا سندس
سَفرتْ شقائقها فهَمَّ الأقحوا ... ن بلثمها فرنا إليها النرجس
فكأنَّ ذا خدٌّ وذا ثغرٌ يحا ... وله وذا أبدًا عيونٌ تحرس

بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي رحمه الله تعالى:

وحديقةٍ مطلولة باكرتُها ... والشمس ترشف ريقَ أزهار الرُّبى

يتكسَّر الماءُ الزُّلال على الحصى وإذا غدا بين الرياض تشعَّبا

وقال:

بادرْ إلى الروضة تستجلُّها فثغرها في الصبح بسَّامُ
والنرجس الغضُّ اعتراه الحَيا فغضَّ طَرْفًا فيه أسقام
والغصن فيها أَلِفٌ قد بدا والنهر في أرجائها لام
وبلبل الدَّوْح يصيح على الـ أيكةِ والشَّحرورُ تمتام

صفوان بن إدريس:

جادَ الرُّبى من بانةِ الجَرْعاءِ نَوآنِ من دمعي وغيمِ سماءِ
يا ليتَ شِعري والزمانُ تنقُّلٌ والدَّهر ناسخُ شدةٍ برَخاء
هل نلتقي في روضةٍ مَوشيَّةٍ خفَّاقةِ الأغصان والأفْياء
وننالُ فيها من تألُّفنا وَلَو ما فيه سُخنةُ أعينِ الرُّقباء
في حيثُ أتلعت الغصونُ سوالفًا قد قُلِّدت بلآلئِ الأنداء
وجَرَت ثغور الياسمين فقبَّلت عنِّي عِذار الآسَةِ المَيْساء
والوردُ في شطر الخليج كأنَّه رَمَدٌ ألمَّ بمُقلةٍ زرقاء
وكأنَّ غصنَ الزهر في خُضر الرُّبى زهرُ النجوم تَلُوح في الخضراء
وكأنَّما جاء النسيم مبشِّرًا للرَّوضِ يُخبِره بطولِ ثواء
فكساه خِلعةَ طِيبهِ ورمى له بدراهمِ الأزهار رميَ سخاء
وكأنما احتقر الصنيعَ فبادرَت بالعُذر عنه نغمةُ الورقاء
والغُصنُ يرقص في حُلى أوراقه كالخُوْدِ في مَوشيَّةٍ خضراء
وافترَّ ثغرُ الأقحوان بما رأى طَرَبًا وقَهْقَهَ منه جَرْيُ الماء
أفديه من أُنْسٍ تَصرَّم وانقضى فكأنَّه قد كان في الإغفاء

ونقلت من خط سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن الدماميني هذا اللغز، وكتب به إلى بعض فضلاء الثغر المحروس: ما قول مولانا — أبقاه الله تعالى وضاعف إقباله ووالى — في ذاتٍ يَنعم بها الجاني، وتطرب في مرابعها الألحان المغْنية عن المثالث والمثاني، خرساء لا تَعرف حديث الأدب المأثور، وطالما تأملها الكاتب فوجد بها السجع والمنثور، عيونها تذبل إذا شربت، وأعطافها ترقص إذا طربت، طالما تحركت به السواكن وهاجت البلابل، ونهر من سأل عنها فاستعذب نهرها السائل، وروي منها عن الزهري حديثٌ حسن، ولم يعزَ إليها مع ذلك براعة ولا لَسَن، ورمقت الأعينُ خدودَها، وودَّت الأنفس على الحالين ورودها، واستحسنت الخواطر حديث رواتها إذا اعتل، واستروحت لنفسه الطيب إذا اختل، إن عرف لفظها كان علمًا لمحلٍّ لا يطرقه محل، ولا ينكر تأنيثه فَحْل، يحدِّث المصري بحلاوته، ويخبر بلفظه وطلاوته، قد شهر من قديم تألفه البسطة، وجهل السكر على أنه ما زال يقول بالنقطة، يعرف المعشوقَ وآثاره، وينال من المشتهي أمانيه وأوطاره، ويوطأ فيحمد حمله الأثقال، وتقف عنده الجواري على الأرجل فلا تود الانتقال، وينشد من شغفٍ بمعانيه، وبعث طرفه لتأمل مغانيه:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر

وإلا فعلم على جملة يعرفها الطالب، ويحسن ارتكاب المهالك لنيل ما فيها من المطالب، قد فَتحتْ لأرباب المقاصد أبوابها، ومنحت الأفهامَ الضالة هديها وصوابها، وصحت بما اشتملت عليه من العلل، ونسخت مع أنها أحكمت بالسلامة من الخلل:

وقد بسقت منها الفروع وأثمرت إلى أن جنى منها الورى ثمر العليا
وفي وصفها يبدو الطباق فضدها يموت بها غمًّا وصاحبها يحيا

الوزير ابن عمار:

وليلٍ لنا بالسدِّ بين معاطف من النهر ينساب انسيابَ الأراقم
بحيثُ اتخذنا الروضَ جارًا تزورنا هداياه في أيدي الرياح النَّواسم
تبلِّغنا أنفاسَه فتردُّها بأعطر أنفاسٍ وأزكى المباسم
تسير إلينا ثمَّ عنَّا كأنَّها حواسد تمشي بيننا بالنمائم

وقال القاضي بدر الدين بن الدماميني لنفسه رحمه الله:

يــقــول مُصـــــاحِبــي والــروضُ زاهٍ   وقــد بســـطَ الـربـيـعُ بِســـاط زهـرِ:
تــعــالَ نُبــاكــرِ الــروضَ المــفــدَّى   وقــم نســـعــى إلــى وردٍ ونســـري

وقال أبو جعفر ابن الشقري:

يــا هــل تــرى أظـرفَ مِـن يـومـنـا   قَـلَّـدَ جِـيـدَ الأُفْـقِ طَـوْقَ الـعَـقـيـق
وأنــطــقَ الــوُرْقَ بــعِــيــدانِــهــا   مُــرقِصـــَــةً كـلَّ قضـــيـبٍ وَريـق
والشـــمسُ لا تَشـــْربُ خَمْرَ النَّدى   فـي الـرَّوض إلَّـا بكـؤوس الشـَّـقـيـق

وقال بعضهم:

فــي روضــــة عــلَّـم أغصـــانــهـا   أهــل الـهـوى الـعـذريِّ كـيـفَ الـعـنـاق
هبَّــت بـهـا ريحُ الصـــَّبـا ســَحْرةً   فـالتفَّتِ الأشــجـارُ ســـاقًا بســـاق

وقال الشيخ عز الدين الموصلي، ونقلتها من خطه رحمه الله تعالى:

منـابر الـدوح فيهـا الوُرْقُ قـد ســجعت   فمـالَتِ القضـــبُ للألحـان واســتمعتْ
وهـاجهـا سَـــحَرًا مرُّ النســيم فمـذ   هـبَّ القبول إلى طِيـبِ الصـــبوح دعـت
أبـدت فُرادى ومثنـى من عجـائبهـا   تلكَ الريـاضُ التي للحُسْـــن قد جمعت
بينـا ثغور بهـا للزهر قـد بســـمت   أضـــحـت عيونًا بمـاء الطَّلِّ قـد دمعت
ومـذ تـلـوَّن وجـه الـروض قـابـلَـهُ   نـهـرٌ بـه أعـينٌ فـي صـــدره دفـعـت

وقال الشيخ الفاضل الكامل يحيى بن هذيل التجيبي أبو زكريا، كذا ذكره العلامة ذو الوزارتين لسان الدين محمد بن الخطيب في تاريخه الإحاطة بتاريخ غرناطة، وذكر أن وفاته كانت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة:

نــام طفـلُ النَّبْـت في حِجْر النُّعـامى   لاهـتـزازِ الـظـلِّ فـي مـهـد الـخُـزامـى
وســـقَى الوَســْمِيُّ أغصـــانَ النَّقـا   فَـهَـوَتْ تـلـثـمُ أفـواهَ الـنَّـدامـى
كَحَّـلَ الـفـجـرُ لـهـمْ جَـفْـنَ الـدُّجـى   وغَـدَا فـي وجْـنـة الصـــبحِ لِثـامـا

تَحْسَـــَبُ الـبـدرَ مُـحَـيًّـا ثَـمِـلٍ قـد سـقتـه راحـة الصـبح مُـداما
حـولَـه الـزهـرُ كـؤوسٌ قـد غـدت مِســْكـةُ الـليـل عـليـهنَّ ختـامـا

وقال الوزير العلامة فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس تغمده الله بالرحمة، يصف شجرةً بشاطئ النيل المبارك بالروضة:

يا ســرحة الشــاطئ المنســاب كوثره على اليواقيت في أشــكال حصــباءِ
حلَّت عليكِ غزاليها الســحاب إذا نوء الثريا اســتهلَّت ذات أنواء
وإن تبســَّم فيكِ النور من جَذلٍ ســقاكِ من كلِّ غيمٍ كلَّ بكَّاء
رحماك بالوارف المعهود منك فكم لـنـا بـطـلِّك مـن أهـوى وأهـواء
وكم نزلنا مقيلًا منك ما حَمِيَ الـ ـــهجير إذ حيث لا مرأى لحرباء
نظلُّ من فَيئِك الفضــفاض في ظُلَلٍ من الغَمام يقينا كلَّ ضــراء
يا طبَّة بدواء القيظ عالمة أنت الشــفاء لدى الرمضــا من الداء
لا صــوَّحَ الدهر منك الزهر وانبجســت عليك كل هتون الودق ســوداء
عِصــابة الشــرب أمُّوا روضَ زاهرِهِ تُــعــزى لأكــرم إخــوانٍ وآبــاء
خمائل الروض منشــأها ومرضــعها ضــرع النميرين من نيل وأنواء
فاســتمهدت دوحها المخضــلَّ وافـ ـترشت نجم الربى ورقت عرشًا على الماء
قريرة العين بالأنواء باردة الـ ـــقلب الذي لم تنله غير ســرَّاء
مقيل ندمان بل مغنى حمائم بل كناس آرام بل أفناء درماء
لها مطارف ظلٍّ ســجســجٍ فمَصــ ـــيَفها يعادل فيه طيب مَشــتاء
قديمة العهد هزتها الصَّــبا فصَــبَتْ فهْي العجوز تهادي هديَ مرهاء
لا يُدرك الطرف أقصــاها على كللٍ حتى تعود له لحظات حولاء
وصــوت بلبلها الراقي ذُرى غُصُــن بحُـلَّـةٍ من دِمَقْسِ الريشِ دَكناء
كقرع ناقوس ديريٍّ على شــرفٍ مســبِّحٍ في ســواد الليل دعَّاء

خليَّة حين أجنيت الضلوع على نارٍ لشجوي بها لاحت لِمَيَّاء
تهكمت بي فلم تجني أضالعها على الهواء وأجنتها على الماء
بديعة الحسن قد فاز الجناس لها من المعاني بأفنانٍ وأفياء
وقام عنها لسان الزهر ينشدنا للهوكم أرج ما بين أرجاء
كم صفَّق الموج من أزهارها طربًا فنقَّطته ببيضاء وصفراء
وكم طربتُ لِما أبدتْهُ من مُلَحٍ يصبو له كل ذي عقلٍ وآراء
وجُدت بالتبر من مالي ومن أدبي فكنت في كل حال منهما الطائي
كأنها من جنان الخُلْدِ قد كَمُلَتْ حُسْنًا وحسبكَ من خضراء لفَّاء
كأن أغصانها اللُّدن الرِّشاق إذا هصرت أفنانها أعطاف ولهاء
كأن صمغتها الحمرا بقشرتها الدْ دَكناء قرص على أعكان سمراء
كأنها فوق دعص الموج إذ سفحت هضابة سفح وادٍ رب أفياء
مالت على النهر إذ جاش الخرير به كأنها أذنٌ مالت لإصغاء
كأنما الدهرَ مرآةٌ وقد عكفت عليه تُدهِش في حسنٍ ولألاء
ذو شاطئ راق غب القطر فهو على نهر الأبلَّة يزري أي إزراء
كأنه عند تفريك النسيم له فرند سيف نضته كف جلاء
كأنه شبك من لؤلؤ نظمت أو جوهر السن أو تحليل رقشاء
كأنه حين يهدى زرقة وصَفَا رقراق عينٍ بوجه الأرض شهلاء
إذا شدون حمامات الأراك على أغصانها فترينا رقص هيفاء
من كل ورقاء في الأفنان صادحة بين الحدائق في فيحاء زهراء
ورق تغنَّت بجنَّاتٍ رقين على عيدانها فاله في مَغنًى وغنَّاء
باكرتها في سراةٍ من أصاحبنا لا ينطوون على حقد وشحناء
تداعبوا بمعاني شعرهم فأروا ودَّ الأحبة في ألفاظ أعداء

من كل شـــيخ مجونٍ في شـــباب فتى   يـقـرا المـجـون بـقـلـبٍ غـيـر نسـَّـاء
يســـعى إليهـا علـى جرداء جـاريـة   مـن آلـهـا كـهـلال الأفـق حـدبـاء
نُوحيَّـة الصـــنع والإحكـام منشــأة   تســير مـا ســُيِّرَتْ من غير إعيـاء
ســوداء تحكي على الماء المصــندل شــا   مـة على شــفـةٍ كـالشـــهـد لعســاء
ســاجيَّة ألبســتها الصــانعون لها   من الـتـدابيـج مـا يـزهـو بصــنعـاء
غــريــبــة ذات ألــوان وأجــنــحــة   لـم أدرِ تُـعـزى لـروض أو لـعـنـقـاء
لم يســتطع شــأوها إذ ســيرها عنق   غـر الـجـيـاد عـلـى كـدٍّ وإنضـــاء
كم قـد نعمنـا بهـا عيشــًـا بصـــافية   شــمطـاء تجلى على الخلاء عـذراء
مـمـا تـخـيَّرهـا كســرى وأودعـهـا   ربُّ الـخَوَرنَق فـي قـوراء جـوفـاء
حمراء صــرفًا وصــفرا إن مزجت لها   كم من يـدٍ في ســواد الليل بيضــاء
راحـًا إذا ركـع الإبـريـق يـمـزجـهـا   ســمعتَ من صــوته تســبيح فـأفـاء
أم الســرور التي أبقى الزمـان بهـا   جـزءَ الـحـيـاة وقـد ألـوى بـأجـزاء
فعـاطنيهـا على طـل النـدى ســحَرًا   فـإنَّ تـرشــافـهـا مـوتـي وإحـيـائـي
واســتجلها بنت مصــرٍ تســتطيل على   بغـداد والموصـــل الحـدبـا وســوراء
كم بين من قـام معتـلَّ النســيم بهـا   عـلـى اعـتـدالٍ وحـدبـاء وزوراء
من كفِّ ظبيٍ وشــادٍ أو وشــاديـة   تشــدو لنـا بين صــوت العود والنـاء
علـى الـحـدائق لا الآكـام تـنـفـحـنـا   ريح البنفســج لا نشــر الـخُزامـاء
أمَّـا أنـا لســت نـوَّاحـًا عـلـى طـلـل   ولا خـلـيـطًـا ولا نـدَّاب أحـيـاء
تـركـتـه لأنـاسٍ كـالـتـيـوس غـنـوا   عـن المُـدام بـدرِّ الإبـل والشــاء
يُعزَون للشــعر لكنْ من جهـالتهم   لـم يـفـرقـوا بـين إيـطـاء وإقـواء
من كـل ألكنَ عنـد البحـث منقطعٍ   كـأنـه واصـــل والشـِّـعـر كـالـراء

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي:

أشـــتــاق في وادي دمشـــقٍ معهـدًا		كـلُّ الـجـمــال إلـى حمــاه يـنسـَّــبُ
مــا فـيــه إلا روضــــةٌ أو جَـوســـَقٌ		أو جــدول أو بـــلـــبــلٌ أو رَبــرَب
وكــأنَّ ذاك الــنــهــر فــيــه مَـعصـــَـمٌ		بِـيَـدِ الـنســـيـمِ مـنـقَّـشٌ ومـكـتَّـبُ
وإذا تــكســـَّــر مــاؤه أبصـــــرتَه		في الحــال بين ريــاضـــه يتشــعَّـبُ
وشـــــدتْ على العيـدان وُرقٌ أطربـتْ		بـغـنــائـهــا مـن غــابَ عـنــه المُـطـرِب
والوُرق تشــــدو والنســـيم مشــبِّــبٌ		والـنـهـر يســــقـي والـحـدائق تشـــرب
وضـــياعها ضـــاع النســـيمُ بها فكم		أضـــــحـى لـه مـن بـيـنـنـا مـتـطـلِّب
وحـلــت بـقـلـبـي مـن عســــالٍ جـبَّـةٌ		فــيــهــا لأربــاب الــخــلاعــة مــلــعــب
وَلَكَم طربـت على الســـمــاع بجُنكهـا		وغــدا بـربـوتـهـا اللســـــان يشــبِّب
فــمــتـــى أزور مَــعــالمًــا أبــوابُــهــا		بســـــمــاحـهــا كُـتـبُ الـكـرامِ تُـبـوَّب

وقال ابن ظافر في بدائع البدائه: اجتمع الوزير أبو بكر بن القُبطُرنة والأديب أبو العباس بن صارة في يوم جلا ذهب برقه، وأذاب ورق ودقه، والأرض قد ضحكت لتعبيس السماء، واهتزت ورَبَتْ عند نزول الماء، فقال ابن القبطرنة:

هــذي البســـيطـة كــاعــبٌ أبـرادُهــا		حُـلَـلُ الـربـيـعِ وَحَـلْـيُـهـا الـنُّـوَّارُ

فقال ابن صارة:

وكــأنَّ هــذا الـجـوَّ فـيـهـا عــاشـــقٌ		قــد شـــَفَّــهُ الـتعـذيـب والإضـــرار

وقال ابن صارة أيضًا:

وإذا شـــكـــا فــالـبـرقُ قـلـبٌ خــافـقٌ		وإذا بـــكـــى فــدمــوعــه الأمـــطــار

فقال ابن القبطرنة:

مِن أجـــلِ ذلَّــةِ ذا وعـــزِّة هـــذه		تـبـكـي الـغَـمـامُ وتضــــحـك الأزهــار

وقال ابن تميم:

لـو كـنـتُ إذ نـادمـتُ مـن أحـبـبـتُه		في روضـــــةٍ تســـبي العقولَ وتفتن
لـرأيـتـهـا وعـيـونـهـا مـن غـيـرةٍ		مـنِّـي تـفـيـض ووجـهـهـا يـتـلـوَّن

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر: والأغصان قد اخضرَّ نبات عارضها، ودنانير الأزهار ودراهمها، وقد تهيَّأت لتسليم قابضها، والمنثور وقد نظمت قلائده، وصفقت ولائده، والحور وقد جاء رسولها بالتباشير، والسرور قد كشف عن سوقها وقالت لها تلك الغدران بهديرها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾، والسوسان وقد لاحظ جفنه الوسنان، والورد وقد ورد، والبان وقد بان.

وقال الشيخ عز الدين الموصلي، ونقلتها من خطه رحمه الله تعالى:

وروضـــــةٌ نَقَشَـــتْهَـا لـلـحَـيـا إبـرٌ		فـأصـــبـحـتْ بـينَ تـطـريـز وتـزهـيـرِ
مثـلَ الســوار لهـا ســورٌ أحـاط بهـا		من ســلســـل هي منـه ذات تســوير
أو كـالـخـلاخـيـل لـلأدواح دار عـلـى		ســوقٍ لهـا مُطلَقًـا في زي مـأســـور
تحـت الغيـاض ريـاض دُبِّجـت فبـدتْ		ألـوانـهـا ذات تشـــهـيـر وتشـــذيـر
أغصـــانها النَّد والأوراق ســـندســـه		والـزهـر عـرَّق يـاقـوتًـا بـبـلَّـور
والزهر بين شـــعاع الشـــمس تحســـبه		دراهـمًـا نُـثِـرت بـين الـدنـانـيـر
والـظـل ثـوب إذا مـرَّ الـنـســـيـم بـه		فـالروض مـا بين مهتوكٍ ومســـتور
ونـهـرهـا زائـد بـالـخصـــب يؤذننـا		كصـــارمٍ في ســـبيـل الله مشـــهور

وقال:

روضٌ بنجم الـزهـر أصـــبـح معجبًا		فتحســـــده من أجلـه الأنجم الزُّهـرُ
ومـذ أرجف المـاءَ النســـيمُ تـدرَّعـت		مـزرَّدة الأبـواب مـن خـوفـهـا الـغـدر
فـلـلـروض تـدبـيـج بـألـوان زهـره		وللغصـــن من أوراقه الحلل الخضـــر
فراعى نظيرًا من جنـان جنـاســـه		فحلى الضـــحى زَهر وحلى الدجى زُهر
وأعـربـت الألـحـان فـي الـدوح وُرقـه		فكنَّ قيـانًـا دونهـا أُســـبِـل السِّـــترُ
وأســـفـر لـلإصـــبـاح خَـدٌّ مـورَّدٌ		ومـن قـبـلـه حيًّـا بـريـحـانـه الـفـجـر

وقال العفيف التلمساني قدَّس الله سره:

انظر إلى الأغصـــان في حركـاتهـا　　أَلِســُـكـرهـا أم شـُــكـرهـا تـتـأوَّدُ
فـيـقـول أربـاب الـبـطـالـة: تـنـثـنـي　　وتـقـول أربـاب الـحـقـيـقـة: تسـجـدُ

وقال شهاب الدين بن مرداس:

انظر إلى الأشــجـار تلقَ رؤوســَهـا　　شـــابـتْ وطفـلُ ثمـارِهـا مـا أَدْرَكَا
وعـبـيرُهـا قـد ضــاع من أكمـامِهِ　　وغـدا بـأذيـالِ الصـَّبـا مُتمســِّكـا

وقال برهان الدين القيراطي من قصيدة:

تشــوقـنـي ألِـفـات الـروض مـائـلـةٌ　　من النسـيـم سـكـارى وهـي دالاتُ
ولـي مـن الـورق فـي أوراقـهـا طـربٌ　　كـأنـهـنَّ عـلـى الـعـيـدان قـيـنـات

وقال الشيخ مجد الدين الأرموي:

كم للنســيم على الربى من نعمـةٍ　　وفضـيـلـة بـين الـورى لـن تُـجـحَـدا
مـا زارهـا وشــكـت إلـيـهِ فـاقـةً　　إلَّـا وهزَّ لـهـا الشــمـائـل بـالـنـدى

وقال محيي الدين بن قرناص رحمه الله تعالى:

أظنُّ نسـيم الروض والزهر قـد روى　　حديثًا ففاحت من شـذاه المســالكُ
وقـال: دنـا فصــل الـربـيـع فـكُلـه　　ثغورٌ لِمـا قـال النسـيم ضـواحك

وقال الفاضل علاء الدين علي بن ظافر العسقلاني في كتابه بدائع البدائه: اجتمعتُ أنا والقاضي الأعزُّ يومًا فقلت له: أجز:

طـار نسـيم الـروض مـن وكـر الـزهـر

فقال:

وجـاء مـبـلـول الـجـنـاح بـالـمـطـر

قلت: الشيء بالشيء يذكر؛ ذكرت بقول العسقلاني ما أنشدني من لفظه لنفسه الشيخ عز الدين الموصلي محاجيًا وأرسله إلى بعض أصحابه:

يا من له حسن لفظ تثني عليه المثاني
ما مثل قول المحاجي: أحوى الشفاه جفاني

وذكرت بلطف هذه الأحجية ما أنشدنيه من لفظه لنفسه سيدنا ومولانا الفاضل المفنن المحدث المؤرخ شهاب الدين أحمد بن الشيخ نور الدين علي الشهير بابن حجر — أبقاه الله — محاجيًا:

يا فاضلًا هو في الأحاجي ليس يخلو من وَلَعْ
ما مثل قولك للذي يبكي الحبيبَ: اسكت رَجَعْ

وظرف من قال:

وروضة رقصت أغصانها وشدت أطيارها وتولى سقيها السحب
وظل شحرورها الفريد تحسبه أُسَيْوِدًا زامرًا مزماره ذهب

وقال ابن خفاجة في نهر تحف به أشجار:

قد رقَّ حتى ظُنَّ درعًا مفرغًا من فضةٍ في بُردةٍ خضراءِ
وغدت تحفُّ به الغصون كأنَّها هُدبٌ تحفُّ بمُقلةٍ زرقاء

وقال الرصافي في نهر تحف به أشجار:

فاءت عليه مع الظهيرة سرحة صدئت لفَيئتها صفيحةُ مائه
فتراه أزرقَ في غلالة سُمرةٍ كالدارعِ استلقى بظل لوائه

وقال نور الدين علي بن سعيد:

كأنما النهر صفحةٌ كُتبَت أسطرها والنسيم ينشئها
لما أبانت عن حسن منظرها مالت عليه الغصون تقرؤها

وقال بعض المغاربة وأجاد الغايةَ:

ومنمنم الشطَّين أحكم صقله	كالمشرفي قد اكتسى بفَرنده
فخمائل الديباج منه حمائل	متعانق فيها البهار بورده
وقد اختفى وردٌ له في دوحةٍ	كالسيف ردَّ ذبابه في غمده

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله:

وبطحاءَ في وادٍ يروقك روضُها	ولا سيَّما إن جادَ غيثٌ مبكرُ
تلاحظها عينٌ تفيضُ بأَدْمُعٍ	يُرَقْرِقُها منه هنالك مِحجر
بها فاضَ نهر من لجينٍ كأنَّه	صفائح أضحت بالنجوم تَسَمَّر
كأن حصاه إذ بدا منه أحمر	وأبيض دمع في خدود تنثر
وإلَّا فبرد بالظلال مسهمٌ	وإلا فطرسٌ بالتجعد يسطر
وما لاح في جنبَيه نبت وإنما	تبدَّى عِذارٌ منه في الخد أخضر
وكم غازلتْه للغزالة مقلةٌ	تسارق أوراق الغصون فتنظر
وتبصر منه كلَّ حُسنٍ فينبري	حياءً لديه وجهها وهو أصفر
إذا فاخرته الريح ولَّت عليلةً	بأذيال كثبان الرُّبى تتعثَّر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا	به الروض يحيى وهو لا شك جعفر

وقال علي بن ظافر: مررت أنا والقاضي الأعز — رحمه الله تعالى — بساقيةٍ تتلوى تلوي الأفعوان، وتخفق خفقان قلب الجبان، والزهر قد نظم بلبتها عقودًا فوق أثوابها الممسكة، والنسيم يكسوها ويسلبها غلائل مفرَّكة، فقلت:

أساقية أم أرقم فرَّ هاربًا

فقال:

أم الريح قد هزَّت من الماء قاضبا

فقلت:

حصى مثل در الثغر أجرى زلاله   رضابًا وأبدى نبته النضر شاربا

فقال:

يوشحها زهر الرياض قلائدًا   ويلبسها مرُّ الرياح جلائبا

وقال الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة:

ورائحة ريًّا تهادى بها الصَّبا   تهاديَ عطفِ المترف المتبختر
وقد صقلت من صفحة الماء منصلًا   به من شعاع الشمس رونق جوهر
فمن شبكٍ قد حيل حول مغاصهِ   ومن سمك قد صِيغ صيغة خَنجر
وقد نظرت شمس الأصيل إلى الربى   بأضعف من طرف المريب وأفتر
ولاح على بلَّورهِ من غديره   شعاع شراب للعشيَّة أصفر
وصفرة مسواك الأصيل تروقني   على لعس من مسقط الشمس أسمر
إلى أن توارت بالحجاب مريضة   تلفَّع في ثوب من الليل أخضر
وغازلني جفن من الأفق أنجل   يدير من الظلماء مقلة أحور

ونقلت من كتاب نزهة الأبصار في نعت الفواكه والثمار، تأليف الشيخ الفاضل الكامل محمد بن القاضي المنشئ البليغ، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلي: ولم أزل من الأزهار في سؤال وجواب، وأنا منصت إنصات المتعجب لمفاخرة الإعجاب، إذ سمعت صوت هاتفة ورقاء، على بانة خضراء، بلسان فصيح، وقلب بفرقة الأحباب جريح، وقد أوفت على غصنها الرطيب ومالت، وأعلنت بما أسرَّته من وجد وقالت:

اذكرونا مثل ذِكْرَانا لكم   رُبَّ ذكرى قرَّبتْ مَن نَزَحَا
اذكروا صبًّا إذا غنَّى بكم   شَرِبَ الدمع وعاف القَدَحا

يا معشر الرياحين التي يزهى حسنها على كل حين، لقد جزتم حد الإكثار، ولم ينج أحد منكم من سقطات العار، هَبْ أنكم نزهة العيون، وزينة الأفنان والفنون، فهل أنتم إلا أعشاش أفراخنا، ومواضع أوساخنا، وأعواد خطبائنا، وأرائك أُمَرائنا، ومهود أبنائنا، وستور نسائنا، رؤوسكم محط أرجلنا،

وهاماتكم نِعال أرجلنا، ونحن المسبِّحون بحمد ربنا، المُثْنُونَ عليه بالألسن الناطقة، والأفواه العذبة الرائقة، فلما سمعت كلام الحمام هممت بالانصراف من حيث أتيت، لأخبر بما سمعت ورأيت، إذ أقبلت غمامة تمشي لثقلها مشي الرداح، ويكاد يلمسها من قام بالراح، وما أظلمت إلا أضاء البرق في جوانبها فتمثلت ليلًا في صباح، فلم يزل البرق يأخذ في أذهاب ردائها، ويبدو نذيرًا لأصوات بدائها، وهي تلقي على الأرض ما حملته في أحشائها، ثم قالت: يا ذوات البكاء والنوح، المفتخرات على الأيك والدوح، ألستم الباكين بغير جوى، الشاكين ألمَ الفِراق من غير بلوى؟ بكم عرف الشقاق، واشتهر ذكره في الآفاق، قلوبكم خاشعة، وعيونكم غير دامعة، ومنكم عُرِفَ اختلاف الباطن والظاهر، وقد أعرب عن ذلك قول الشاعر:

وهـاتفـة فـي الـبـان تـمـلـي غـرامـهـا   فتتلو علينـا من صـــبـابتهـا صـــحفـا
ولو صــــدقـت فيمـا تقول من الأســـى   لمـا لبســـت طوقًـا ولا خَضَـــبت كفًّا

ونقلت من خط الشيخ شمس الدين محمد بن سمنديار الذهبي لنفسه الكريمة، وأنشدني من نظمه نبذة منها:

ســـمـــاع غنـاء الطير للـدوح مُرقصٌ   ومـن طـرب بـالـزهـر مـنـه يُـنـقَّـطُ
ولـلـنـاس فـي عـرس الـربـيـع مســـرَّةٌ   ولـلـخـلـق حـتـى الـقـر فـيـه يـزغـلـط

الباب السابع عشر

في آنِية الراح

الشراب في الزجاج أحسن منه في كل جوهر، لأنه لا يفقد معه وجه النديم، ولا يثقل في اليد، ولا يرتفع في السَّوم. وقدور الزجاج أطيب من قدور الحجارة، وهي لا تصدأ ولا تندى، ولا يتخللها وسخ الغمر وأوساخ الوضَر، وإن اتسخت فالماء وحده لها جلاء، ومتى غُسلتْ بالماء عادت جديدة ومَن كَرَعَ فيه بشربٍ فكأنما يكرع في إناء، وماء وهواء وضياء.

وما أحسن رسالة سهل بن هارون يفضِّل الزجاج على الذهب: الزجاج مجلوٌّ نوريٌّ، والذهب متاع ساتر، والشراب في الزجاج خير منه في كل معدن، ولا يفقد معه وجه النديم، ولا يُثْقِل اليد، ولا يرتفع في السَّوم، واسمُ الذهب يُتَطيَّر منه ومن لونه، مصيره إلى اللئام، وهو فاتن قاتل لمن صانه، وهو أيضًا من مصائد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجالَ الأحمران. والزجاج لا يحمل الوضَر، وهو أشبه شيء بالماء، وصنعته عجيبة. وهي رسالة طويلة.

ومِن أحسن ما قيل في ذمِّه قول النظام، فإنه أخرجه في كلمتين بأوجز لفظ وأتمِّ معنى فقال: يسرع إليه الكسر، ولا يقبل الجبر.

ذكر الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف أنه وجد المسورُ بن مخرمة يوم القادسية إبريقَ ذهب عليه ياقوت وزبرجد، فلم يدرِ ما هو، فلقيه رجل من الفُرْس فقال: أنا أعطيك فيه عشرة آلاف دينار! فعرف قيمته، فذهب به إلى سعد بن أبي وقاص، فباعه له بمائة ألف دينار.

ووُجِدَ للوليد بن يزيد بعد مقتله جفنة بلَّور كأعظم ما يكون من الجفان، قيل: إنها تسَع ثلاثمائة رطل، ولما وقعت الفتنة بين عازم الدولة رقيب بن علي وبين حاج خراسان بمدينة رسول الله ﷺ، في سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، وعازم الدولة يومئذٍ أمير الموسم ومقدم القافلة المُضَريَّة، وكانت الهزيمة

على الخراسانيين فنهبت أموالهم، وأتى بعض النهَّابة إلى عازم الدولة بزبديةٍ فَيْرُوز تسع رطلًا شاميًّا كأحسن ما يكون من الزبادي، لا يعلم لها قيمة، ودفعها عازم الدولة بعد ذلك إلى الظاهر.

ومن الأشياء النادرة المستظرفة من التجملات في الملابس والمجالس ما ذكره الفقيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن بدرون في شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون في قصة جَبَلَةِ بن الأيهم الغسَّاني، وهو أن جبلة لطم إنسانًا من الناس، فلما أراد عمر — رضي الله عنه — إقادته منه فرَّ هاربًا إلى هرقل وتنصَّر، ثم ندم على تنصُّره فقال:

تَنصَّرتِ الأشرافُ مِن أجلِ لَطْمةٍ ... وما كان فيها لو صبرتْ لها ضَرَر
تكنَّفني منها اللَّجاج ونخوةٌ ... فبعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَر
فيا ليتَ أمِّي لم تلدْني وليتني ... رَجَعْتُ إلى القول الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقَفرةٍ ... وكنتُ أسيرًا في ربيعةَ أو مُضر
ويا ليتَ لي بالشامِ أدنى معيشةٍ ... أجالسُ قومي ذاهبَ السمعِ والبصر

ولما تنصَّر جبلة ولحق بهرقل صاحب القسطنطينيَّة، أقطعه هرقل الأموال والضياع والرباع، وبقي ما شاء الله، ثم إن عمر — رضي الله عنه — بعث إلى هرقل رسولًا يدعوه إلى الإسلام أو إلى الجزية، فأجاب إلى الجزية، فلما أراد الرسول الانصراف قال له هرقل: ألَقِيتَ ابن عمك هذا الذي عندنا (يعني: جبلة) الذي أتانا راغبًا في ديننا؟ قال: ما لقيته. قال: القَهْ ثم ائتني أعطك جواب كتابك. قال الرسول: فذهبت إلى باب جبلة فإذا عليه من القهارمة والحُجَّاب والبهجة وكثرة الجموع مثل ما على باب هرقل، فلم أزل أتلطف في الإذن حتى أذن بالدخول فدخلت عليه، فرأيته أصهب اللحية ذا سبال، وكان عهدي به أسود اللحية والرأس، فأنكرته فإذا هو قد دعا بسخالة الذهب فذرَّها على لحيته حتى عادت سوداء، وهو قاعد على سرير من قوارير قوائمه أربعةُ أسودٍ من ذهب، فلما عرفني رفعني معه على السرير فجعل يسألني عن المسلمين، فذكرت له خيرًا قلت: قد أضعفوا أضعافًا على ما تعرف. قال: وكيف تركت عمر بن الخطاب؟ قلت: بخيرِ حالٍ. فرأيت الغم في وجهه لما ذكرت له من سلامة عمر، ثم انحدرت عن السرير فقال: لمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؟ قلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا. قال: نعم، ﷺ. ثم قال: ولكن نقِّ قلبك من الدنس ولا تبالِ على ما قعدت. فلما سمعته يقول: ﷺ، طمعت فيه فقلت له: ويحك يا جبلة! ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟ قال: أبعدَ ما كان مني؟! قلت: نعم، قد فعل

رجل من بني فزارة أكثر مما فعلت، ارتد عن الإسلام فضرب وجوه المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام فقُبِل ذلك منه وخلَّفتُه بالمدينة مسلمًا. قال: ذرني من هذا، إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ويوليني الأمر بعده رجعتُ إلى الإسلام. قال: فضمنت له التزويج ولم أضمن له الأمر. قال: ثم أومأ إلى خادم كان على رأسه، فذهب مسرعًا فإذا خادم قد جاء ومعه خدم يحملون الصناديق فيها الطعام، فوضعت ونصبت موائد الذهب وصِحاف الفضة، وقال لي: كُلْ. فقبضت يدي وقلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن الأكل في أواني الذهب والفضة. فقال: نعم، ﷺ، ولكن نقِّ قلبك وكُلْ في ما أحببت. قال: فأكل في الذهب وأكلت في الخلنج، ثم جيء بطسوت الذهب وأباريق الفضة فغسل يده في الذهب، وغسلت يدي في الصِّفر، ثم أومأ إلى خادم بين يديه فمرَّ مسرعًا فسمعت حسًّا، فإذا بخدم معهم كراسي مرصعة بالجواهر، فوضعت عشرةٌ عن يمينه وعشرة عن شماله، ثم جاءت الجواري عليهن تيجان الذهب فقعدن عن يمينه وعن يساره على تلك الكراسيِّ، ثم جاءت جارية كأنها الشمس حسناء على رأسها تاج، على ذلك التاج طائر لم أرَ أحسن منه، وفي يدها اليمنى جامة فيها مسك فتيت، وجامة في يدها اليسرى فيها ماء ورد، فأومأت تلك الجارية أو صفَّرت للطائر الذي على تاجها فطار حتى وقع في جامة ماء الورد، فاضطرب فيه، ثم أومأت إليه أو صفرت فوقع على جامة المسك فتمرَّغ فيه، ثم أومأت إليه فطار حتى نزل على تاج رأس جبلة فلم يزل يرفرف حتى نفض ما عليه على رأسه، فضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه، ثم التفت إلى الجواري اللاتي عن يمينه فقال: أضحِكْننا. فاندفعن يغنين يخفقن عيدانهن يقلن:

لِلــهِ دَرُّ عِصـــــابــةٍ نــادمــتــهــم   يــومًــا بــجِـلَّــقَ فــي الــزمــان الأوَّلِ
يَســـــقُونَ مِن ورد البريص نـديمـهم   راحًـا يُصـــفَّق بـالرَّحيق السَّـــلســـلِ
أولاد جَـفْـنـةَ حـولَ قـبـرِ أبـيـهـم   قبرِ ابن مـاريَـةَ الكريـمِ المُفْضـــِلِ

قال: فضحك حتى بدت نواجده ثم قال: أتدري من يقول هذا؟ قلت: لا. قال: حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ. ثم أشار إلى الجواري اللاتي عن يساره فقال لهن: أبكِينَنْا. فاندفعنَ يغنين يخفقن عيدانهن ويقلن:

لمــن الــدارُ أقــفَـرتْ بــعَــمــانِ   بــينَ أعـلـى الـيـرمـوكِ فـالـجـمَّـان
ذاك مَـغـنًـى لآلِ جَـفْـنـةَ فـي الـدْ   دَهــر مــحــل لــحــادث الأزمــان

قال: فبكى حتى سالت دموعه على لحيته، فقال: أتدري من يقول هذا؟ قلت: لا. قال: حسان. ثم أنشد الأبيات التي أولها: تنصَّرت الأشراف، ثم سألني عن حسان: أحيٌّ هو؟ قلت: نعم. فأمر له بكسوةٍ ولي أيضًا كذلك، وأمر بمالٍ لحسان ونُوق موقرة، ثم قال لي: إن وجدته حيًّا فادفع الهدية إليه وأقرئه السلام، وإن وجدته ميتًا فادفعها إلى أهله وانحر النُّوقَ على قبره.

فلما أخبرت عمر بخبره وما اشترط عليَّ وما ضمنت له قال: فهلَّا ضمنتَ له الأمر؟ فإذا أفاء الله به قضى الله علينا بحكمه. ثم جهزني عمر إلى هرقل ثانيًا وأمرني أن أضمن له ما اشترط، فلما دخلت القسطنطينيَّة وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أنَّ الشقاء سبق عليه في أمِّ الكتاب.

وذكر الحكيم موفق الدين بن أبي أصيبعة في ترجمة الحكيم سديد الدين بن رقيقة قال: ومن شعره ما كتبه على كأس في وسطه طائر على قبة مخرمة. إذا قلب الماء في الكأس دار الطائر دورانًا سريعًا، وصفَّر صفيرًا، ومن وقف بإزائه الطائر حُكِم عليه بالشرب، فإذا شرب وترك فيه شيئًا من الشراب صفَّر الطائر، وكذلك لو شربه في مائة مرة، فمتى شرب جميع ما فيه ولم يبقَ فيه درهم، فإن صفيره ينقطع. والأبيات هي هذه:

أنا طائرٌ في هيئةِ الزُّرزُورِ	مستحسَنُ التكوينِ والتصويرِ
فاشربْ على نَغمي سُلاف مُدامةٍ	صرفًا تنير حنادس الديجور
صفراء تلمع في الكؤوس كأنَّها	نارُ الكليم بدت بأعلى الطور
وإذا تخلَّف من شرابك درهمٌ	في الكأسِ نَمَّ به عليك صفيري

قلت: كتبت هذه الأبيات لغرابة هذا الكأس، وأما الشِّعر فإنه ليس بطائل.

وقال الثعالبي في تحفة الأرواح وموائد السرور والأفراح: إنه كان في الزمن القديم امرأة في العراق تعمد إلى الصيني الأبيض فتصيِّر منه المشمشي والأسود والسماقي والأخضر، حتى لا يشك ناظره في أنه كان كذلك في الأصل، وما عُلِم أحدٌ من الرجال ساواها في ذلك، وأهل الخبرة بهذا النوع إذا وقع في أيديهم شيء من عمل هذه المرأة عرفوه.

القول في الكأس المصورة

قال أبو نُوَاس:

ودارِ نَدامى عَطَّلوها وأَدْلَجوا | بِها أثرٌ منهم جَديدٌ ودارِسُ
مَساحبُ مِن جَرِّ الزِّقاق على الثَّرى | وأضغاثُ ريحانٍ جديدٌ ويابس
تُدارُ علينا الراحُ في عَسجَديَّةٍ | حَبَتها بأنواعِ التصاوير فارِسُ
قَرارَتُها كِسرى وفي جَنباتها | مَهًا تَدَّريها بالقسيِّ الفوارس
فلِلّراحِ ما زُرَّت عليها جيوبها | وللماء ما دارت عليه القَلانس

قال الجاحظ: وجدنا المعاني تقلب، ويؤخذ بعضها من بعض، إلا هذا المعنى فإن الحسن ابتدعه.
قلت: وضمَّن هذه الأبيات الأديب أبو الحسين الجزَّار تضمينًا حسنًا أجاد فيه إلى الغاية وهو:

كتبت بها في يوم لهوٍ وهَامتي | تمارسُ من أهواله ما يُمارَس
وعندي صحابٌ للمُجونِ ترحَّلت | عمائمهم عن هامِهم والطَّيالس
فللماء ما زُرَّت عليه جيوبهم | وللراح ما دارت عليه القلانس
مَساحب من خزِّ الزِّقاق على القَفَا | وأضغاث أنطاعٍ جَنيٍّ ويابس

وقال أيضًا:

بنينا على كسرى سماء مدامةٍ | مكلَّلة حافاتها بنجوم
فلو رُدَّ في كسرى بن ساسان روحُه | إذًا لاصطفاني دون كلِّ نديم

أخذه الناشئ فقال:

في كأسها صور تُظَنُّ لحُسنها | عربًا برزن من الحجال وغِيدا
وإذا المزاج أثارها فتقسَّمت | ذهبًا ودرًّا توأمًا وفريدا
فكأنهنَّ لبسن ذاك مجاسدًا | وجعلن ذا لنحورهن عقودا

وقال ابن المعتز:

وساقٍ يجعل المنديل منه | مكانَ حمائل السِّيف الطوال
غلالةُ خدِّه صُبغَت بوردٍ | ونون الصُّدغ معجمةٌ بخال

غدا والصبح تحت الليل بادٍ   كطرفٍ أبلقٍ مُلقى الجِلال
بكأسٍ من زجاجٍ فيه أُسْد   فرائسهنَّ ألباب الرجال

وقال ابن قلاقس:

دارت زجاجتها وفي جنباتها   كسرى أنوشروان في إيوانه
فخلعتُ عن عطفيه حلَّة قهوة   وشربتُها فغدوتُ في سلطانه

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى:

ومشمولةٍ قد هامَ كِسرى بكأسها   فأضحى ينادي وهو فيها مصوَّر
وقفت لشوقي من وراءِ زجاجةٍ   إلى الدار من فرط الصبَّابة أنظر

وقال المرحوم فخر الدين بن مكانس رحمه الله تعالى:

إذا ما أُديرتْ في حشا عسجديَّة   بها كلُّ ذي ملك وتاج تصوَّرا
فحَسبُكَ نُبلًا في السَّيادة أن ترى   نديمك في الكاسات كسرى وقيصرا

قلت: والسبب الموجب لتصويرها ما ذكره الفقيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن بدرون في شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون، وهو أن سابور بن هرمز الملقب بذي الأكتاف لما رجع من قتال بني تميم قصد الروم والدخول إلى القسطنطينية متنكرًا، فاستشار قومه فحذروه التغرير بنفسه، فلم يقبل قولهم وسار متنكرًا إلى القسطنطينية، فصادف وليمةً لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام، فدخل في جملتهم وجلس على بعض موائدهم، وقد كان قيصر أمر مصورًا أتى عسكر سابور فصوَّره، فلما جاء قيصرَ بالصورة أمر بها فصوِّرت على آنية الشراب من الذهب والفضة، وأتى بعضُ من كان على المائدة التي عليها سابور بكأس، فنظر بعض الخدام إلى الصورة على الكأس وسابور مقابل لها في المائدة، فعجب من اتفاق الصورتين وتقارُبِ الشبهين، فقام إلى الملك فأخبره، فمَثُلَ بين يديه فسأله عن خبره، فقال: أنا من أساورة سابور، هربت منه لأمر خفته فيه. فلم يقبلوا ذلك منه، وقُدِّم إلى السيف فأقر بنفسه، وجعل في جلد بقرة. وتمام حكايته إلى أن خلص وعاد إلى ملكه، في كتاب سلوان المطاع في السلوانة الثانية منه، وهي حكاية غريبة مشتملة على أنواع من الحكم.

وقال صلاح الدين الصفدي رحمه الله:

كـؤوسُ المُـدام تـحـبُّ الصــــفـا   فـكـن لـتصـــاويـرهـا مـبـطـلا
ودعـهـا ســـــوادجَ مـن نـقشـــهـا   فـأحســـن مـا ذهـبـت بـالـطـلا

وقال زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى:

دعِ الــكـأس مِــن نــقشـــــهــا   فصــــــافٍ لصــــافٍ أحـــبْ
إذا ذُهِّــــبــــت بـــالــــطـــلا   فــقــد طُـلـيـتَ بــالــذهــبْ

وقال: شمس الدين بن العفيف فيما يُكتب على كأس:

أدورُ لـتـقـبـيـلِ الـثَّـنـايـا ولـمْ أزَلْ   أجودُ بنفســـي للنَّـدامى وأنفـاســـي
وأكســـو أكفَّ الشـــَّرْبِ ثوبًـا مـذَّهبًا   فـمـن أجـل هـذا لـقَّبـونـي بـالـكـاسِ

الشيء بالشيء يذكر؛ قال شهاب الدين بن أبي حجلة مضمنًا:

يـا صــــاح قـد حضـــر النديم ومُنيتي   وحـظـيـتُ بـعـد الـهـجـر بـالإيـنـاسِ
وكســـا العِذار الخد حســـنًا فاسْــقِني   واجـعـل حـديـثـك كلَّـه فـي الـكـاسِ

وقال إبراهيم بن الحاج الغرناطي:

يــا رب كـأس لم يشـــح شــــمولهـا   فـاعجَـب لهـا جســـمًـا بغير مزاجِ
لمَّا رأينـا الســـِّحر من أشـــكـالهـا   جـمـلًـا نســــبـنـاه إلـى الـزجَّـاج

وقال الأديب أبو بكر بن مُجبَر، وقد اقترح عليه حَسود وصف كأسٍ أسودَ فقال ارتجالًا:

ســـأشـــكو إلى الندمـان أمرَ زجاجةٍ   تـردَّت بـثـوبٍ حـالِـكِ اللون أســــحمِ
تصـــــبُّ بهـا شــمسَ المُـدامـة بيننـا   فتَـغـربُ فـي جُـنـحٍ من الـلـيـل مظلـمِ
وتَـجْـحَـدُ أنـوارَ الـحُـمَـيَّـا بـلـونـهـا   كـقـلـبِ حســـودٍ جـاحـدٍ يـدَ مُـنعِـمِ

القول في القَدَح

قال القاضي شهاب الدين بن فضل الله في وصفه: تكوَّن من جوهر مكنون، وتجسَّد من هواء مظنون، واتُّخِذَ خدرًا لآنية العنب، وطاف به الساقي فأصبح منه في راحة وهو في تعب، قهقه عليه الإبريقُ فصدح، وطار منه شرار المُدام فقيل: قَدَحَ.

وكتب سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن أبي المخزومي المالكي، الشهير بابن الدماميني — فسَّح الله في أجله — إلى سيدي الجناب المجدي فضل الله بن مكانس — أدام الله عزه — وذلك في ربيعٍ الأول سنةَ خمس وتسعين وسبعمائة: وقد تجاسر العبد وثوقًا بمكارم الأخلاق المخدومية، فأهدى هذا اللغز لينعم مولانا بقبوله، ويتفضل بحله عند حلوله، فقال: ما اسم حبيبٍ إلى النفوس، شبيه بالبدر حليفٍ للشموس، إن قُلِبَ كان لقلبه من العين مكانٌ من المناسبة، وإن سقط قلبه مع هذا الفعل كان ضد الأقوال الكاذبة، وإن صُحِّف بعد العكس أنبأ عن الذكاء وهذا غاية الشرح، وإن غُيِّر ثانيًا علم رب الكلام المحرر أنه دال على الطرح، حاشيتاه مع التصحيف آلة للصيد، معينة على المكر والكيد، إن قلع طرفه كان مزاجًا باقيه قوامًا، وإن عكس كان الطرب بتصحيفه مدامًا، وإن زال أوله كان العكس عيابًا لمتعاطي إثمه، وإن صُحِّفَ اشتاقت الشفاه إلى تقبيله ولثمه، وربما كان الهزل عن تصحيفه الآخر منافيًا لاسمه، مباينًا في الحقيقة لحده ورسمه، والمملوك يسأل الصفح عن هذا الهذيان والامتنان بالجواب، مع شيء من نظم المقر الصاحبي للوالدي وشيء من نثره، ليحلى المملوك بعقوده جيد تذكرته، ويتأنس بحسنه الغريب في زمن غربته، فكل غريب للغريب نسيب، ومدح مولانا أجلُّ من أن يحيطه قلم العبد أو لسانه، أو يحصره بيان الأديب أو بنانه، ونسأل الله تعالى أن يمتع بِبقائه، ويعلِّي درجات ارتقائه، بمنه وكرمه.

فكتب الجواب: يقبِّل الأرض التي أطالت بالجفاء حرمانه، وتداركته بعد إجراء دموعه فعظمت في الحالين منها شأنه، وانتهى إلى اللغز الذي يمتع بمحله، ويشرب من قدحه، فابتَهَلَ شكرًا، ومالت أعطافه بالقدح الفارغ سكرًا، فوجده كما قال: حبيب إلى النفوس، يجتهد في التوصل بما حاره إلى الرؤوس، يأتيك بالمعنى اللطيف، ويقف حذقك من تصحيفه بعد العكس بين تصحيف وتحريف، فحله من ساعته، وقابل شمسه المنيرة بذبالته، وكتب قرينه لغزًا، وخالف نفسه إذ قالت: لا تتعبني في مجاراة هذا الجواد لزًّا.

وقد ذكرته أولًا في باب الرياحين.

وقال القاضي التنوخي رحمه الله تعالى:

وراحٍ من الشمسِ مخلوقةٌ بَدَتْ لك في قَدَحٍ من نهارِ
هواءٌ ولكنَّه جامدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ
إذا ما تأمَّلتها وهيَ فيه تأمَّلت نورًا مُحيطًا بنارِ
فهذا النهاية في الابيضاضِ وهذا النهاية في الاحمرارِ
كأنَّ المدير لها باليمين إذا قام للسَّقي أو باليسار
تدرَّع ثوبًا من الياسمين له فرد كُمٍّ من الجُلَّنار

وقال النضير الحمَّامي رحمه الله تعالى:

أصبحت من أغنى الورى مستبشرًا بالفرح
عندي خمر ذهب أكتاله بالقَدَح

وأنشدني سيدي وأخي تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي لنفسه مضمنًا رحمه الله:

أرى طيرَ أفراخنا سانحًا يحوم على ورد ثغر القدحْ
فقلت لدر الحباب: اجتهد ومُدَّ الشِّباك وصِدْ من سَنَحْ

وقال ابن تميم:

يا حسنه قدحٌ يضيء زجاجُه ليلَ الهموم إذا ادْلَهَمَّ وعسعسا
أهديته مثلَ النهار فإن حوى صرفَ المدام غدا نهارًا مشمسا

الإبريق

قال ابن المعتز:

وكأنَّ إبريقَ المُدامة بيننا ظبيٌ على شرفٍ أناب مُدلَّها
لما استحثَّته السُّقاة حنا لها فبكى على قدح النديم وقهقها

وقال إبراهيم بن إسحاق الموصلي رحمة الله عليه:

كــأنَّ أبــاريــق المُــدام لــديــهــمُ ظـبـاءٌ بـأعـلـى الـرَّقـمـتـين قـيـام
وقـد شـــربـوا حتَّى كـأنَّ رقـابـهـم مـن الـلِّـين لـم تُـخـلَـق لـهـنَّ عـظـام

صاعد اللغوي:

كـأنَّ إبـريـقـنـا والـراحُ فـي فـمـه طـيـرٌ تـنـاول يـاقـوتًـا بـمـنـقـار

ومن قصيدة لابن نباتة:

من كفِّ أغيـدَ يحســوهـا مقهقهـة كـمـا تـأوَّد فصـــنٌ تـحـت ورقـاء

السري الرفاء الموصلي رحمة الله عليه:

إبـريـقـنـا عـاكـفٌ عـلـى قـدح تـخـالـه الأمَّ تُـرْضـــِع الـولـدا
أو عـابـدٌ مـن بـنـي المـجـوس إذا تـوهَّـم الـكـأس شـــعـلـةً ســـجَـدا

السراج المحار:

يـا حبَّـذا شـــَكْـلُ إبريقٍ تميـلُ لـه منَّـا القلوب وتصـــبو نحوه الحـدَقُ
يـروقُ لـي حـينَ أجـلـوه ويـعـجـبـنـي مـنـه طـلاوةُ ذاكَ الـجســـمِ والـعُـنُـقُ
كم قـد شـــربـت بـه مـاءَ الحيـاة ولن يـنـالـنـي مـنـه لا غَـصٌّ ولا شـــَرَقُ
حـتـى غـدا خَـجِـلًـا مـمَّـا أقـبِّـلـه فـظـلَّ يـرشـــح من أعطـافـه العَـرَقُ

الراووق

الجوبان القواس رحمه الله تعالى:

ولمـا حكى الراووق في العين شـــكلـه وقـد علِق العنقود في ســـالف الـدهر
تـــذكَّــر عــهــدًا بــالــكــروم فــكــلُّه عيونٌ على أيـام عهـدِ الصـِّــبـا تجري

وقال بدر الدين حسن المعزي رحمه الله:

أعـجـب مـا فـي مـجـلسِ الـلـهـو جرى مـن أدمـعِ الـراووق لمـا انســـكـبـت

لـم تـزل الـبـطَّـة فـي قـهـقـهـةٍ ... مـا بيننـا تضـــحـكُ حتى انقلبـت

وقال برهان الدين القيراطي رحمه الله:

بـاكـرت راووقـي وبـطَّـتـيَ الـتـي ... قـد قـهقـهـت ودَمُ المُـدامـة يُسـفـك
وأضـعـتُ مـالي فيهمـا حتى غـدا ... هـذا يُصـفِّي لـي وهـذا يضـحـك

وقال صدر الدين بن عبد الحق:

أسـبـل الـراووق لمـا صـُلِـبـا ... أدمـعًـا لـكـن رأيـنـا عـجـبـا
بـيـنـمـا الـراووق يـبـكـي بـدمٍ ... ضـحـك الإبـريـقُ حـتـى انـقـلـبـا

وقال سيدي المقر المجدي سلمه الله تعالى وأجاد:

قم واصـلـب الراووق واشـفِ قلبي ... مـنـه وبـلِّـغـنـي بـذاك سـُؤْلـي
واسـفِـك دمَ الـزق ونـادِ: هـذا ... جـزاءُ مـن يـلـعـب بـالـعـقـول

وقال محمد بن العفيف في باطِية وأجاد:

أنـا للمجـالِس والجليسِ أنيسـةٌ ... أزهـى بحسـنٍ نـاضـرٍ للـنـاظـر
أصـفـو فـأظهر مـا أُجِنُّ ولـم يكن ... في بـاطني شـيءٌ يخـالف ظـاهري

وما ألطف من قال:

عـجِّـلـوا عـجِّـلـوا بشـرب الـبـواطـي ... فـالصـواب الصـواب نيـل الخـواطي

كان لأبي الحارث جميز دنٌّ، كان يقول: إنه لم يفسد فيه نبيذ قط منذ عشرين سنة! فأوصى به عند موته للفضل الرقاشي وقال: هذا جزاءٌ له، فإنه كان كلما اجتمعنا على أمرد قال: قم فابدأ به.

الأمير صلاح الدين الإربلي فيما يكتب على طبق تحت أقداح رحمة الله عليه:

من فرحتي بـالـنـدامى واجتمـاعِهمُ ... حـولـي وقـربـهـم منِّـي وإيـنـاسـي
جعلت صـفحةَ خدِّي تحتَ أخمص ما ... قـد غـادرتـه الـنـدامى أسـفـل الكـاسِ

الباب الثامن عشر

في ما يُستجلب به الأفراح

وهو خمسة فصول:

- **الفصل الأول:** في من مدحها من الملوك والرؤساء.
- **الفصل الثاني:** في تدبير استعمالها على رأي الحكماء.
- **الفصل الثالث:** في آداب منشئيها وما يجب على مستعمليها.
- **الفصل الرابع:** في استهدائها واستدعاء الإخوان.
- **الفصل الخامس:** في من وصفها من الشعراء والأعيان.

الفصل الأول: في من مدحها من الملوك والرؤساء

قال كسرى: النبيذ صابون الهمِّ. قلت: من هنا قول الشيخ بدر الدين البشتكي:

وكنت إذا الحوادث دنَّستني ... فرغتُ إلى المُدامة والنديمِ
لأغسلَ بالكؤوس الهمَّ عني ... لأنَّ الخمر صابون الهمومِ

وقال أرسطاطاليس: الراح كيمياء الفرح. وقال جالينوس: الراح صديق الروح. وقال آخر: الراح درياق سم الهم.

قال عبد الملك بن صالح الهاشمي: ما جمشت الدنيا بأظرف من النبيذ.

وقال الثعالبي: لكل شيء سرٌّ، وسر النبيذ السرور. وقال: الدنيا معشوقةٌ ريقها الراح.

وقال الجاحظ: إن النبيذ إذا تمشى في عظامك ودبَّ في أجرامك منحك صدق الحس، وفراغ النفس، وجعلك خليَّ البال، رخيَّ الذَّرع، قريرَ العين، منشرح الصدر، حسن الظن، وسدَّ عليك باب الغم، وحسم عنك خاطر الهم.

وقيل لأبي حميد الفضل بن وكيل: ما تقول في النبيذ المصفى المروق المعسل المعتق؟ فجعل يتمطق ويقول: أخاف ألَّا أشتغل بشكر الله تعالى الكريم على نعمه فيه.

وكان مطيع بن إياس يقول: إن في النبيذ لمعنى في الجنة موجودًا لأن الله — عز وجل — يقول إخبارًا عن أهلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾، والنبيذ يُذهب الحَزَن.

وقيل لأبي عائشة القرشي: إن فلانًا لا يشرب النبيذ! فقال: قد طلَّق الدنيا ثلاثًا.

وقيل للأعمش مثل ذلك فقال: دعوه حتى يقتله القولنج.

وقال يزيد بن المهلب: وددت لو أن كأسًا بألف دينار، وكل منكح في جبهة أسد، فلا يشرب إلا جواد، ولا ينكح إلا شجاع.

وقال عبد الملك للأخطل: صِفْ ليَ الخمر! فقال: أولها صداع، وآخرها خمار. قال: فما يعجبك منهما؟ قال: إن بينهما طربة لا يعد لها ملكك. وأنشأ يقول:

إذا ما نديمي علَّني ثم علَّني ... ثلاثَ زجاجاتٍ لهنَّ هدير
خرجتُ أجرُّ الذَّيلَ حتَّى كأنني ... عليك أميرَ المؤمنين أمير

وقال أبقراط: الخمرة صديقة الجسم، والتفاحة صديقة النفس.

نادرة: اجتمع محدِّث ونصراني في سفينة، فصبَّ النصراني من رُكْوة كانت معه في مَشربة، وشرب ثم صب فيها، وعرض على المحدث، فتناولها من غير فِكر ولا مبالاة، فقال النصراني: جُعلتُ فداكَ! إنما هي خمر. فقال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامي من يهوديٍّ، وحلف أنها خمر. فشربها بالعجلة وقال للنصراني: أنت أحمق! نحن أصحاب الحديث، أفنصدِّق نصرانيًّا عن غلامه، عن يهودي؟! والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد.

وقال الجاحظ: كل شيء من المأكول يكون أوله أطيب من آخره إلا النبيذ، فإن القدح الأول ثقيل، والثاني أسهل، والثالث أسلس، والرابع أسوغ، والخامس أعذب، والسادس ألذُّ، حتى ينتهي إلى غاية السرور.

حُكي أن عبد الملك بن مروان امتحن أعرابيًّا من الشعراء فقال: صفْ لي الخمر. فأطرق الأعرابي وقال:

شمُوسٌ إذا شجت لدى الماء مرَّةً لها في عِظام الشاربين دَبيب

تُريك القذى من دونها وهي دونه لوجه أخيها في القطوب قَطوب

فقال عبد الملك: شربتَها يا أخا العرب ووجب عليك الحد! فقال: ومن أين لك ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لأنك وصفتها بصفتها! فقال: وإنني قد رابني من أمير المؤمنين ما رابه مني بأن يكون أيضًا شربها إذ عرف أني وصفتها بصفتها. فضحك منه وأحسن جائزته.

نادرة: جُلِد مدني في الشراب وكان طويلًا والجلَّاد قصيرًا، فقال له: تقاصَرْ لينالك السَّوط. فقال: ويلك! إلى أكل الفالوذج تدعوني؟ والله لوددت أني أطول من عوج، وأنك أقصر من يأجوج ومأجوج.

كتب رجل إلى ابن قريعة القاضي فتيا: ما يقول القاضي — أيده الله — في رجل سمى ولده مُدامًا وكنَّاه أبا الندامى، وسمى ابنته الراح وكناها أم الأفراح، وسمى عبده الشراب وكناه أبا الإطراب، وسمى وليدته القهوة وكناها أم النشوة، أيُنهى عن بطالته أم يؤدَّب على خلاعته؟ فكتب تحت سؤاله: لو نُعِت هذا لأبي حنيفة لأقعده خليفة ولعقد له راية، وقاتل من تحتها من خالف رأيه، ولو علمنا مكانه لمسحنا أركانه، فإن أتبع هذه الأسماء أفعالًا، وهذه الكنى استعمالًا، علمنا أنه قد أحيا دولة المجون، وأقام لواء ابنة الزَّرجون، فبايعناه وشايعناه. وإن لم تكن أسماء سماها ما له بها من سلطان خلعنا طاعته، وفرَّقنا جماعته، فنحن إلى إمامٍ فعَّال أحوجُ منا إلى إمامٍ قوَّال.

انظر أيدك الله إلى معاني هذا النثر الذي يعجز عنه البديع، والمجون الذي لا يلحقه الخليع.

وقالت دنانير جارية البرامكة: من أصبح وعنده قنينة ناقصة، وزبدية طباهجة باردة، وتفاحة معضوضة، ولم يصطبح؛ فهو أحمقُ فاسد المزاج، يحتاج إلى العلاج.

الفصل الثاني: في تدبير استعمالها على رأي الحكماء

قال الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسين علي بن أبي الحزم القرشي المتطبب، المعروف بابن النفيس، تغمده الله برحمته، في الجملة الثانية في قواعد الجزء العملي من الطب، في كتابه المشهور المعروف بالموجز، عندما ذكر تدبير المشروب ما هذا نصه: وخير الشراب ما طاب طعمه، وعطرت رائحته، وصفا لونه، واعتدل قوامه. والعلامة الجيدة للشراب الجيد الخالي من الغش أنه إذا تُرِك المقدارُ القليل مدةً

طويلة لم يفسد، وبقدر طول المدة تعرف الجودة، والرقيق اللطيف أسرع إسكارًا وتخللًا، والغليظ أبطأ إسكارًا وتخللًا وأدوم خمارًا، لكنه يسمن وخصوصًا الحلو. وليكنْ من شديده على حذر، ويختار للشبان والمحرورين الأبيض الممزوج قبل شربه بمدة بكثير الماء، وللمشايخ الأصفر القوي القليلَ المزجِ، فإن أرادوا الاعتدال والسمن فالأحمر، ودع الشيخ وما احتمله، وجنبه الصبيان وعدله في الشبان، وإنما يستعمل الشراب عند انحدار الغذاء من المعدة، وأما في خلال الأكل أو عقبه فضارٌّ لتنفيذ الغذاء من المعدة على فجاجته، على أن المعتاد به لا ينتفع باستعمال ما يعين على الهضم لا بمقدار ما يقوى على التنفيذ، وما دام السرور يتزايد، واللون يحسن، والبشرة تلين، والجلد يربو، والحركات نشيطة، والذهن سليمًا، فلا تَخَفْ من إفراطٍ. فإن أخذ النعاسُ يغلب، والغشيان يقوى، والبدن والدماغ يثقل، والذهن يتشوش، والحركة تسترخي، فقد وجب الترك، فحينئذ يجب القيء، والقيء على قليل منه رديء، لأنه يغصب من البدن ما ينفعه، والشراب بالأقداح الصغار خير من الكبار، والتبعيد بين الأقداح لينهضم الأول قبل ورود الثاني أفضل. وينبغي أن يُحَفَّ مجلس الشراب بالمنظر اللذيذ من الأزهار، والمحبوبين من الناس، والأراييح اللذيذة، والسماع المطرب، وقد رفع كل ما يغم ويقبض النفس، كالوسخ، والصنان، واللباس القذر، والكمد. وبعدَ غسل البدن والأطراف، ولبس المشرف، وتسريح الرأس واللحية، وتقليم الأظفار. وليكن المجلس مشرفًا فسيحًا، بقرب المياه الجارية، ومع الظرفاء والأصدقاء، وذلك لأن الشراب يحرك قوى النفس، ويثير كل الشهوات، فإذا لم تجد كلُّ قوة مطلوبها تأذَّت وانقبضت، فلا تقبل النفس على الشراب كل القبول، ولا تتصرف فيه التصرف الواجب فيقل نفعه، وربما فسد فكان شره أكثر من نفعه.

ومنافع الشراب منها نفسيَّة ومنها بدنيَّة: أما النفسية، فلا يمكن أن يساويه فيها غيره، وذلك كالسرور، وبسط النفس، وتفسيح أملها وتشجيعها، وإزالة البخل والغم والفكر الفاسد، وهو أنفع الأشياء للماليخوليا لتفريحه المضاد لإيحاش السوداء، وتحسِّن الظن وتقوِّي ذهن قويَّ الدماغ، لأن دماغه لا ينفعل عن أبخرة الشراب المسكر، بل عن حره اللطيف، فيصفو ذهنه صفاءً لا يصفو مثله بغيره، فلذلك قويُّ الدماغ لا يسكر بسرعة، وبسرعة السكر وبطئه تعلم قوة الدماغ وضعفه.

وأما البدنيَّة، فإنها، وإن أمكن أن تستفاد بغيره من المعاجين والمركبات، فذلك يعسر، وذلك كتحسين اللون، وإنارته، وتبريقه، وإشراقه، وتقوية الحرارة الغريزية وإنعاشها، وإنضاج الرطوبات وإذلاقها، وتفتيح المجاري وإزالة سددها، وتفتيح المسامِّ، وتقوية الهضم، وتكثير الروح وتلطيفها

وإنارتها، وإثارة الدم وتنقيته، وإنضاج البلغم وتلطيفه، وإدرار الصفراء وترطيبها، وتعديل مزاج السوداء، وقمع عادتها وإخراجها.

ونفعه يتعلق بالقوى الطبيعية والحيوانية أكثر من القوى النفسانية، وإدامته تبلد الذهن، وترخي العصب، وتورث الرعشة والتشنج، وكثيرًا ما يموت السكران بالسكتة، والصرف محرق للدم، مفسد لمزاج الدماغ والكبد. والمِسطارُ يُخاف منه دُوسَنطارِيا لنفحه وإسهاله. والسكر المتواتر يوهن قوى الدماغ والعصب، ولا بأس به في الشهر مرتين لإراحة قوى الدماغ، والفصل والبلد الباردان يحتملان كثرة الشراب وقوته، وما أمكن ترك التنقل فهو أولى، لكن المحرور قد ينتفع بالتنقل بمثل السفرجل، والرمان المز، والتفاح، والكُمَّثْرَى، والزعرور، وأقراص الليمون، وحماض الأترج شرابه، قد يحتاج إلى التنقل بأقراص الكافور كما يفعل بالمدقوقين والمبرودين بجوارش التفاح، والخلنجين، والتمر، والفستق، والمرطوب بالقُضامة، والزيتون، والفستق واللوز المملوحين.

والأشياء التي تبطئ بالسكر التنقل باللوز وخصوصًا المر، خمسون لوزة، يستعمل قبل الشرب فيمنع السكر؛ وكذلك التنقل ببزر القنبيط المملَّح، وأكل القنبيطية والكرنبية قبل الشراب، وكذلك استعمال المُدرَّات والثرائد الدهنية — وإن أبطأت بالسكر — لكنها تمنع كثرة الشرب، والمسكرات بسرعة كالتنقل بجوز الطيب، ونقعه في الشراب، وكذلك العود، والشيلم، وورق القنب، والزعفران، وكل هذه تسكره مفردة.

وأما البنج واللُّفَّاح والشَّوكران والأفيون فمفرط، وإنما يستعمل لمن يريد أن يعالجه بما لا يحتمل في الصحو.

ومما يذهب رائحة الشراب: الكزبرة اليابسة، والراسن، ودارصيني الصين.

وأفضل ما يمزج به الشراب: الماء، وقد يمزج بماء لسان الثور ليزداد تفريحه، وهو بذلك يسر سرورًا عظيمًا، وقد يمزج بماء الورد فيقوي المعدة والقلب أكثر، وقد يُمزج بأمراق الفراريج واللحم لمن غشي عليه أو ضَعُفَ وخيف عليه أن لا تطول المدة إلى حيث تصل المرقة مفردة، والله أعلم.

انتهى كلام ابن النفيس.

وقال الحكيم الفاضل المؤيد محمد بن المجلي الشهير بالعنتري في كتابه النور المجتنى من رياض الندما: واعلم أن الإكثار من الخمرة يحدث الأمراض الباردة الرطبة، كالسكتة، والفالج، واللقوة، والخدر، والرعشة، والاسترخاء، والسُّبات، هذا لمن مزاجه مستعد للبرد؛ فأما أصحاب المزاج الحارِّ فإنها

تولد الحميات الحارة والباردة، ولا سيما إن وافقها غذاء حار، وفصل حار، ومزاج صرف. والغرض من الخمرة أن يؤخذ منها اليسير بعد الطعام بثلاث ساعات، ولا بأس باستعمال النشوة والسكر في الشهر مرتين، نافع؛ وكذلك القيء مرتين في الشهر. ويجب ألا يؤخذ الغذاء إلا وقت الشهوة وبعد الرياضة، ومن أراد الاستكثار من الشراب فلا يستكثر من الطعام، ومن أراد أن يطول جلوسه على الشراب فلا يستكثر من الرياضة والحمام، ولا يمتلئ من الطعام، وإذا كان الغذاء ظهرًا كان الشراب عصرًا، ويبدأ بالأقداح الصغار أولًا.

وأما وقت الاجتماع عليها، فيكون ذلك والقمر في برج الزهرة أو عطارد، متصلًا بهما اتصالًا مقبولًا، ويحذر بيوت المشتري ونظره إلى القمر. والعاقل إذا انقطع إلى الخمرة في يومٍ مذموم كُفيَ شر ذلك اليوم باشتغاله بها، إلا أنه يجب أن يكون خلوه مع نديمٍ مأمون الجانب عاقلًا، يُكفى شر ذلك اليوم إن شاء الله تعالى.

ومنه صفة تفاحة تُسكِر سريعًا إذا شمت: يؤخذ زعفران، ومَيعة، وحمام، ولفَّاح، وقشور أصول اليبروح، ينعَّم سَحقه ويعجن بشراب صرفٍ عتيق، ويتخذ منه تفاحة منقشة وتُشَمُّ، والحرمل مفردًا ومع الشراب يسكر الشارب سكرًا مفرطًا. ومن شرب خمس سعدات أو عشرة مسحوقة لم يسكر يومَه، ويجب ألا يفعل ذلك إلا صاحب المزاج البارد، وأما المحرور فيجعل غذاءه إذا أراد ألا يسكر بالخل والسماق والحصرم وماء الليمون، بلحوم الدجاج والجداء والخرفان، ويمتص ماء الرمان المز، وأكل السمك الطري بالخل، والتنقل باللوز الحلو، لا سيما إن وافق ذلك سماع مطرب أو نديم معجب، ويُنْشَد:

الـخـمـرُ طـيِّـبـةٌ ولـيـسَ تَـمـامُـهـا   إلَّـا بـطِـيـبِ خـلائـقِ الـجُـلَّـاسِ

وأما ما يقطع رائحة الشراب من الفم: فمن ذلك سعد، وكبابة، ودارصيني بالسوية، يدق ويستف منه مثقال، لا سيما بعد القيء المستقصى، وسف الكزبرة، والنعناع، ومضغ العود الرطب، وكذلك السعد، وأكل البصل يخفي رائحة الشراب، والفُوتَنْج النهري إذا مضغ قطع رائحته.

انتهى كلام العنتري.

وقال التيفاشي في كتابه سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، وهو عدة مجلدات: إنني لما رأيت لهج الخلفاء والملوك، وشغف جمهور الأمم من العرب والعجم، بشرب شراب العنب، واختلاف مذاهبهم في استعماله مع الاتفاق على الميل إليه، على تباين محلهم وملكهم.

وقد ذُكِرَ عن الأحنف بن قيس أن رجلًا قال له: يا أبا بحر، ما ألذُّ الأشربة؟ فقال له: الخمر. فقال: كيف علمت ولم تذقها؟ قال: لأني رأيت من أُحِلَّت له لا يصبر عنها، ورأيت من حرمت عليه ينحط إليها.

ثم وجدت جل من يستعمل هذا المشروب لا يفي له خيره بشره، ولا يقوم نفعه بضره، وذلك لجهله بوجه استعماله، فإنَّ من المعلوم أن الخمر إنما المقصود من شربها منفعتان: إحداهما للنفس بالتفريج ونفي الهموم، وأخراهما للبدن بحفظ صحته عليه ونفي الأمراض النازلة به. وتحقق عند كل من له أدنى مسكة من عقل أنها إذا استعملت على غير ما ينبغي انعكست هاتان المنفعتان مضرَّتين، فصار عوض السرور همًّا وغمًّا وضجرًا وسوء خلق، وعوض الصحة مرضًا مزمنًا أو موتًا فجأةً، حسبما نشرحه، إلا أنه لا يقتصر الأمر على عكس هاتين المنفعتين فقط، بل يتعدى إلى مضار أخرى عظيمة، إن سلمت المهجة، كذهاب العقل والمال والجاه والذكر الجميل، بل لا يقف الأمر على ذلك، بل يتعدى الضرر إلى الأعقاب، فإن الحكماء أجمعوا قاطبةً على أن مدمن الخمر لا يُنجِب، وإن أنجب كان الولد أحمقَ.

انتهى كلام التيفاشي.

ونقلت من مجموعٍ بخطٍّ بعض الأفاضل: قد ذكر الحكماء والأطباء، والعلماء والشعراء، والفضلاء والبلغاء، من مضار الخمر ومنافعها، وبهجة غواربها وطوالعها، فمن ذلك قولهم: الخمر يسخن الجسم، ويجوِّد الهضم، ويرطب الأعضاء، ويسكن الغشي والعطش إذا مزجت، ويدرُّ البول، ويسهل الطبيعة، ويسر النفس، ويحدث النشاط والطرب والأريحية، لا سيما في الأبدان المعتدلة، هذا في أخذ القصد، فإذا أكثر منها أحدث ذلك السهر، وورم الكبد، وقلة شهوة الجماع والغذاء، والنسيان، والبخر، والرعشة، والدمع، وضعف البصر، والحميات، واختلاط العقل، والتبلد، والسكتة، والصرع، وموت الفجأة، لأن الخمر تملأ الدماغ فتغمر الحرارة كما يغمر الدهن نار السراج فيطفأ.

انتهى.

الفصل الثالث: في آداب منشئيها وما يجب على مستعمليها

ينبغي للمعاشر والنديم المجالس للملوك والرؤساء أن يكون نظيف الكف، نقي الظفر متعاهدًا لتقليمه، والتخليل بين أصابعه، وغسل يده ومعصمه في أوقات وضوئه ومطعمه، طيِّبَ المعاين، عَطِر البشرة، نظيف الوجه والشارب والأنف، نقي الجبين، مستعملًا للسَّنون، وأخذ السُّعد بالغدوات، وتسريح اللحية، وتنظيف الثياب وعمامته خاصة، لأن العين كثيرًا ما تقع عليها، متعطرًا بالبخور والغالية

والذرائر على الشعر والثياب، وليجلس في مرتبته بحسن أدب وسكون، جاشٍ بغير اتكاء ولا مدٍّ رِجل ولا عبثٍ بثوب ولا بلحية، ولينهض بنهوض الملك، ويجلس حيث يشير إليه، ويدنو إذا استدناه، ويجيبه إذا سأله، ولا ينهض عن المائدة أولًا، ولا يمد يده بدءًا، ولا يطلع أصابعه ويعيدها في الطعام، ولا يغمس أنامله، ولا يسرع المضغ، ولا يكثر الضحك والكلام، ولا يعض اللحم بأسنانه، ولا يرد ما عض في الصحفة، ولا يتناول ما بين يدي غيره، ولا يكبر اللقم، ولا يفتت الخبز، ولا يخلخل الملح، ولا يتلقط الدسم بالخبز، ولا يكثر من اغتراف الحبوب والأمراق خوفًا من أن يسيل على الثياب وينسب إلى الشره وسوء الأدب، ولا يفسخ الدجاج بيده بعنفٍ خوفًا من الاندلاق، وهو أن يكون تحت جلد الدجاجة أو في أوراكها دسم، فيطير على ثيابِ مَن بإزائه، بل يقطع بالسكين على تواضعٍ، ولا يعصر الزيتونة بشدة، فربما طارت نواتها فأصابت وجه جليسه، ولا يحمل بيده الحلوى بكثرة، ولا يدخل إلى فيهِ الطعامَ الحار ثم يخرجه من فيه، ولا ينفخ فيه وفي المرقة ليبرد، ولا يكثر شرب الماء، ولا يتجشأ ظاهرًا، ولا يمشمش العظام، ولا ينفض المخاخ، ولا يعض الفواكه إن حضرت قبل الطعام، ولا يمد يده إلى قطعة لحم مشهورة، ولا بيضة منظورة، ولا سنبوسجة مشتهاة، ولا ما تقع الشهوة عليه، ولا ما تُسارع النفس إليه، ويجب أن يتجنب الخمرة في مجالس الملوك، ومن يخاف على عرضه.

حكي أن المتنبي كان يأبى شرب الخمر ويكرهه، فألزمه سيف الدولة بن حمدان فشرب ذات ليلة عنده، ففرطت منه فارطة بأن قبَّل غلامًا ومازحه، ثم ندم لوقته فقام وانصرف، وبقي أيامًا لا يحضر مجلسه، فأكثر طلبه حتى حضر، فأمره بالشرب فامتنع وأقسم أن لا يشرب أبدًا خمرًا، وأنشأ يقول:

رأيتُ المُدامةَ غَلَّابةً تهيِّجُ للمرءِ أشواقه
تُسيء من المرء تأديبه ولكنْ تحسِّن أخلاقه
وبالأمس مِتُّ بها موتةً وهل يشتهي الموت مَن ذاقه

فأعفاه من الشرب.

وإذا أُلزِم العاقلُ الشربَ في مجالس الملوك فلا يشرب، فإن غُلِبَ لزم الصمت والسكوت وتكلَّفَه، إلا أن يُسأل فيرد جوابًا مختصرًا.

وحكي أن نصيبًا كان يجالس عبد الملك بن مروان ويؤاكله ويجلس قريبًا منه، فألزمه بالشرب فقال: يا أمير المؤمنين، لست لك بقرابة، ولا لي عليك يد بيضاء، ولا أنا ذو حسب ونسب، إنما أنا عبد أسود قربني منك أدبي وعقلي، فيأبى منك أن تسلبني أدبي وعقلي الذي قربني منك. فعجب منه وأعفاه.

وينبغي ألا يشربها أبدًا الحمقى والسفهاء والجهَّال، حتى يخرجوا من فجورهم وسفههم وتكثر حماقتهم.

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى:

والخمر قد يشربها مَعْشَرٌ ... ليسوا إذا عُدُّوا بأكفائها

وقال آخر:

وقد تعرف الجُهَّال من حلمائنا ... إذا ما تعاطينا الكؤوس تعاطيا
تزيد حُمَيَّاها السَّفيهَ سفاهةً ... وتترك ألبابَ الرجال كما هِيا
وجدت أقلَّ الناس عقلًا إذا انتشى ... أقلهم عقلًا إذا كان صاحيا
عليك دليلُ مَن صَحِبتَ فلا يكن ... جليسك من يحكي إليك المساويا

وقال آخر:

على قدر عقل المرء في حالِ صَحوِهِ ... يؤثِّر فيه الخمر في حال سُكره
فيأخذ من عقلٍ كثيرٍ أقلَّه ... ويأتي على العقل اليسير بأسره

وقال المأمون: الشراب ستر، فانظر مع من تهتكه.

وقال الجماز: حُرِّمَ النبيذ على ثلاثة عشر نفسًا، على من غنَّى الخطأ، واتكأ على اليمين، وأكثر أكل البقل، وكسر الزجاج، وسرق الريحان، وبلَّ ما بين يديه، وطلب العشاء، وقطع البم، وحبس أول قدح، وأكثر الحديث، وامتخط في منديل الشراب، وبات في موضع لا يحتمل المبيت، ولحن المغنى.

ونقلت من خط الحافظ جمال الدين اليغموري من مجاميعه المسماة بكنوز الفوائد ومعادن الفرائد ما صُورته: لما تقلد كسرى أنوشروان مملكته عطف على الصبوح والغبوق، فكتب إليه وزيره رقعة يقول فيها:

> إن في إدمان الملك الشراب ضررًا على الرعية، والوجه تخفيف ذلك، والنظر في أمور المملكة.

فوقَّع على ظهر الرقعة:

إذا كانت سُبلنا آمنة، وسيرتنا عادلة، والدنيا باستقامتنا عامرة، وعمالنا بالحق عاملة، فلمَ نمنع فرحة عاجلة؟

قال سليمان: أخطأ كسرى من وجوه: أحدها أن الإدمان إفراط، والإفراط مذموم؛ والآخر أنه جهل أن أمن السبل، وعدل السيرة، وعمارة الدنيا، والعمل بالحق، متى لم يوكل به الطرف الساهر، ولم يحظَ بالعناية التامة، ولم يحفظ بالاهتمام الجالب لدوام النظام، دب إليها النقص، والنقص باب الانتقاض، والانتقاض مزيل للأصل مزعزع للدعامة؛ والآخر أن الزمان أعز من أن يبذل كله للأكل والشرب والتلذذ والتمتع، فإن في تكميل النفس الناطقة باكتساب الرشد لها وإبعاد الغي عنها ما يستوعب أضعاف العمر، فكيف إذا كان العمر قصيرًا وكان ما يدعو إليه الهوى كثيرًا؟ والآخر أنه ذهب عليه أن العامة والخاصة إذا وقفت على اشتهار الملك باللَّذات وانهماكه في طلب الشهوات ازدرته واستهانت به وحدثت عنه بأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير.

وما أحسن ما قال الأديب الفاضل أبو عبد الله محمد بن الرفاء الرُّصافي، من رصافة قرطبة، رحمه الله تعالى، وقد مرَّ بروضة نزِهة، فتذكر جلوسه فيها مع رفقة له كانوا أعزاء على قلبه:

سَلِي خميلتَكِ الرَّيَّا بآيةِ ما … كانت تزفُّ بها ريحانةُ الأدب
عن فتيةٍ نزلوا أعلى أسرَّتها … عَفَتْ محاسنهم إلَّا من الكتب
محافظين على العَلْيا وربَّتما … هزُّوا السَّجايا قليلًا بابنةِ العنب
حتى إذا ما قضوا من كأسها وَطَرًا … وضاحكوها إلى حدٍّ من الطرب
راحوا رَواحًا وقد زِيدَتْ عمائمهم … حُلمًا ودارت على أبهى من الشهب
لا يظهر السُّكْرُ حالًا في ذواتهم … إلا التفاف الصَّبا في ألسن العذب

ونقلتُ من خط سيدنا ومولانا الجناب المجدي، فضل الله ابن المرحوم الصاحب فخر الدين بن مكانس، هذه الأرجوزة، وسمَّاها عمدةَ الحرفاء وقدوة الظرفاء، من نظم والده سامحه الله تعالى:

هل من فتًى ظريفٍ … معاشرٍ حريف
يسمع من مقالي … ما يبهر اللآلي
أمنحه وصيَّة … سارية سريَّة

تنير في الدياجي ... كلمعة السراج
جالبة السَّرَّاء ... جليلة الأنباء
ماجنة خليعة ... بليغة مطبوعة
رشيقة الألفاظ ... تسهل للحفَّاظ
جادت بها القريحة ... في معرض النصيحة
أنا الشفيق الناصح ... أنا المجدُّ المازح
أسلك بالجماعة ... في طرق الخلاعة
أجدد للأكياس ... عهد أبي نواس
أن تبتغي الكرامة ... وتطلب السلامة
اسلكْ مع الناس الأدب ... ترَ من الدهر العجب
لِنْ لهم الخطابا ... واعتمد الآدابا
تنلْ بها الطلابا ... وتسحر الألبابا
البس حلى الخلاعة ... واخلع ردِا الرقاعة
ولا تطاول بنسب ... ولا تفاخر بحسب
المرء ابن اليوم ... والعقل زين القوم
ما أروض السياسة ... لحائز الرياسة
إن شئت تلقَ محسنًا ... فلا تقلْ قطُّ أنا
وإن أردت لا تَهُنْ ... إذا اؤتمنت لا تخن
العزُّ في الأمانة ... والكَيْس في الفطانة
القصد باب البركة ... والخرق داعي الهلكة
لا تُغضِب الجليسا ... لا تُسخِط الرئيسا
لا تَصحب الخسيسا ... لا تُوحش الأنيسا

لا تكثر العِتابا   تنفِّر الأصحابا
فكثرة المعاتبة   تدعو إلى المجانبة
وإن حللت مجلسًا   بين سراة رؤسا
اقصد رضا الجماعة   وكن غلام الطاعة
ودارهم باللطف   واحذر وبالَ السَّخف
لا تلفينَّ كاذبًا   لا تهمل الملاعبا
قُرْب الندامى يُلجِي   للنرد والشطرنج
واختصرْ السؤالا   وقلِّل المقالا
ولا تكن معربدًا   ولا بغيضًا نكدا
ولا تكن مقدامًا   تسطو على الندامى
لا تمسك الأقداحا   تنغِّص الأفراحا
لا تقطع الظرافة   لا تشحذ السلافة
لا تحمل الطعاما   والنقل والمداما
فذاك في الوليمة   شناعةٌ عظيمة
لا يرتضيها آدمِي   غير وضيعٍ عادم
وقل من الكلامِ   ما لاقَ بالمدام
كرائقِ الأشعار   وطيِّب الأخبار
واترك كلام السَّفَلة   والنكتة المبتذلة
وقالت الأكياس: إذا أريق الكاس
بادره بالمنديل   في غاية التعجيل
فشملة الكرام   سفنجة المدام
وإن رقدت عندهم   فلا تشاكل عبدهم

فإن سلمت مرَّة	فلا تعدْ يا غُرَّة
لا تأمنن الثانية	فإنَّ تلك القاضية
والدَّبُّ فاحذره حذرْ	فإنه إحدى الكُبَرْ
فيا لها من فضيحة	ومحنة قبيحة
فاعلُها لا يُكرمِ	وإن يُرَ لا يُرحم
كم أُسكِنَ الترابا	ذو عشرةٍ دبَّابا
وكم فتى من دبَّة	أصبح مفضي الثقبة
جازوه من جنس العمل	وصار في الخلق مَثَل
ليس له من آسي	كمثل بعض الناس
كفته تلك شهرةً	ومُثلة وعبرة
إيَّاك والتطفيلا	وشؤمَه الوبيلا
تبًّا لها من مِحنة	وثلمة وهجنة
لا تقرب اللطاعة	فإنها دلاعة
ولا تكن مبذولًا	ولا تكن ملولا
وإن دعاك الإخوة	إلى ارتشاف القهوة
فلا تصقع ذقنكا	ولا تزرهم بابنكا
ولا بجارِ الدار	ولا بشخصٍ طاري
ولا نجلٍ تألفهْ	ولا صديقٍ تصدفه
ولا تقل لمن تحب:	ضيف الكرام يصطحب
فهذه أمثال	غالبها محال
سيَّرها الأعراب	الجاعة السغاب
قد وضعوها في الورى	ظَفرًا بأولاد الخرا

وإن حللت مشربة … مع سوقة لا كتبة
فأقلل من المدام … في مجلس العوام
ولا تكن ملحاحًا … واجتنب المزاحا
فكثرة المجون … نوع من الجنون
والأمر فيه يحتمل … وكل من شاء فعل
وآخِرُ الأمر الرضى … وكل مفعول مضى
فعصبة العوام … ضرب من الأنعام
وإن صحبت تركي … فاصبر لأكل الصكِّ
هذا إذا تلطَّفا … ولم يكن فيه جفا
وإن يكن ذا عربدةْ … أو نزعة منكدة
يقوم للجلوس … بالسيف والدبوس
أبشرْ بقتل القوم … وشؤم ذاك اليوم
فاقبل كلامي واعتمد … وصيتي وأوصِ وَفِد
ولا تخالف تندم … ولا تغرر تعدم
فالشؤم في اللجاج … والحر لا يداجي
فهاكها وصية … تصحبها التحية
يحملها الأكرام … إليك والسلام

الفصل الرابع: في استهدائها واستدعاء الإخوان

كتب ابن العميد إلى بعض أصحابه يستهديه خمرًا: قد اغتنمت الليلة — أطال الله بقاء سيدي ومولاي — رقدة عين الدهر، وانتهزت فرصةً من فرص العمر، وانتظمت مع أصحابي كالثريا، فإن لم تحفظ علينا ما نحن فيه من النظام، بإهداء المدام، عدنا كبنات نعش، والسلام.

وقال جحظة البرمكي يستهدي نبيذًا:

قد زارني اليومَ نورُ عيني	وكان بالأمس صدَّ عنِّي
وليسَ عندي له نبيذٌ	وليس يرضى بذاك مني
فجُدْ علينا بنصفِ دَنٍّ	بثلثِ دَنٍّ بربعِ دنِّ
لا تنكرنَّ كُديتي وشحَّتي	فإنَّني شاعرٌ مغنِّ
حالانِ لو حالفا مَليكًا	إذًا لكدَّى بكل فنِّ

وكتب عبد الرحيم بن أحمد القائد رئيس خُوي إلى أخيه الأكبر:

بلِّغ جمالَ الدين عبدَ الواحد	صدرَ الأنامِ الماجدَ ابنَ الماجد
بَرَدَ الهواءُ وزاد في قلبي الهوى	فانْعمْ عليَّ بقلبِ ضدِّ البارد

وأنشدني الصاحب المرحوم فخر الدين بن مكانس من لفظه لنفسه:

بِرَاحٍ ورمانٍ بعثتُ إليكم	وبُسْرٍ وتُفاحٍ تضوع كالند
كما جليت بِكرٌ على الشرب ناهدٌ	مقمَّعة الأطراف قانية الخد

وقال ابن الرمي يستهدي شرابًا:

جُعِلتُ فِداك قد زارني	أخلَّاء تعظم أقدارهم
وعزمي أكون لهم ساقيًا	فكن سيدي أنت خمَّارهم

وقال ابن التعاويذي يستهدي شرابًا:

أشكو إليك براغيثًا بُليتُ بها	إذا هي انتبهت في الليل لم أنمِ
أصطاد هذا فيبقى ذا فيلدغني	فينقضي الليل في لدغي وصيدهم
وقد علمتَ أني ليس ينقذني	إلا ابنة الكرم منهم يا أخا الكرم
فأهدِ ابنة الكرم لي كي أستلذ بها	حتى أنام ولا أدري بسفك دمي

وظريف قول القائل:

يا من غدت أجيادنا	بندى يديه مطوَّقةْ

ابعث لعبدك نقطةً وعسى تكون مروَّقةْ

وفي الاستدعاء قال بعضهم:

تفضَّل بحق الكأس والراح والهوى وترجيل أصداغٍ غَدَوْنَ على خدٍّ
وكُنْ غيرَ مأمورٍ جوابَ كتابِنا ولا توحشنَّا بالتعلل والبعد

ولآخر:

جُعِلتُ فداكَ قد حضرَ الطعامُ وضجَّت من تأخُّركَ المُدامُ
فإمَّا جِئتنا عجلًا وإلَّا أخذنا في اغتيابك والسَّلام

وكتب أحمد بن يوسف إلى صديقٍ له: هذا يومٌ رقَّت حواشيه، وبدت تباشير الجنوب فيه، والمرء بأخيه كثير، وبمباعدته حقير، وأنت قطب السرور، ونظام الأمور، فلا تتأخر عنَّا فنقلَّ، ولا تنفرد عنَّا فنذلَّ.

وقال عبيد الله بن طاهر:

القِدْرُ قد هُدِرتْ والدَّنُّ مبذولُ والروضُ قد رُشَّ والرَّيْحان مَبلولُ
وقَرَّةُ العينِ قد جاءتْ بمزهرها يَصيح في يدها والناء مشغول
ولا يتمُّ لنا عيشٌ ولا طربٌ حتَّى نَراكَ فأنتَ القصدُ والسؤل
وكلُّ عيشٍ بِلا راحٍ ومُسْمِعَةٍ ولا نَديمٍ ولا أُنْسٍ فَتعليل
يومُ التلاقِي قصيرٌ كيف طال لنا وغيره فيه مع أبعاده طول

وقال آخر: نحن في مجلس قد أبت راحته أن تصفو أو تتناولها يمناك، وأقسم غناؤه لا طاب إن لم تَعِهِ أذناك، فأمَّا خدود نارنجه فقد احمرَّت خجلًا لإبطائك، وأما عيون نرجسه فقد حدقت تأميلًا للقائك، ونحن لغيبتك كعقد قد ذهبت واسطته، وشباب قد أخذت حدَّته، فإذا غابت شمس السماء عنا، فلا بد أن تدنو شمس الأرض منا، فإن رأيت أن تحضر لتتصل الواسطة بالعقد، ويحصل بقربك في جنة الخلد، فكن إلينا أسرع من السهم إلى ممره، والماء إلى مقره.

وقال الوزير أبو القاسم بن السقاط: يومُنا — أعزَّك الله — يومٌ تنقبت شمسه بقناع الغمام، وذهبت طاسه بشعاع المدام، ونحن في قطار الوسمي، في رداء هدي، ومن نضير النوار، على نضائد الفطار، ومن نواسم الزهر، في لطائم العطر، ومن غر الندمان، بين زهر البستان، ومن سقاة الكؤوس وتعاطي المدام، بين مشرقات الشموس وعواطي الأرام، فرأيك في مصافحة الأقمار، ومنافحة الأنوار، واجتلاء غرر الظباء الجوازي، وانتقاء درر الغناء الحجازي، موفَّقًا إن شاء الله تعالى.

وقال محمد بن أبي محمد بن الفياض، كاتب سيف الدولة بن حمدان: وقد أَجَّلتَنا يومين وهذا ثالث، وأعطيتنا عهدين وكنت الناكث، فهل ابتدعت ما أتيت أو كان لك عليه باعث؟ فيا قسيم روحي، ويا نسيم صبوحي، ها قد آن الغَبوق إلَّا أنه بقرقف مرشفيك، وكأس عينيك، ووالله لا شربت إلا على آسِ عذارك وورد خديك، فابررْ قسمي، وردَّ الجواب من فمك إلى فمي.

وقال القاضي السعيد ابن سناء الملك: وقد انتظمنا انتظام الجمان، واجتمعنا على رغم أنف الزمان، وعندنا فلان وما أدراك ما فلان، تارة ينظر فيملأ علينا البيت سحرًا، وتارة يبسم فيفرِّق علينا درًّا.

وقال أبو الوليد بن الجنَّان الشاطبي: نحن في روضٍ أغصانُه الندماء، وغمامته الصهباء، فبالله إلَّا ما كنت لروض مجلسنا نسيمًا، ولزهر حديثنا شميمًا، وللجسم روحًا وللطيب ريحًا، وبيننا عذراء زجاجتها خدرها، وجُبابها ثغرها، بل شقيقة حوتها كمامة، أو شمس حجبتها غمامة، إذا طاف بها معصم الساقي فوردة على غصنها، أو شربها مقهقهة فحمامة على فننها، طافت علينا طوفان القمر على منازل الحلول، فأنت — وحياتك — إكليلنا وقد آن حلولها في الإكليل.

وقال بدر الدين بن الصاحب، وكتب بها إلى الصاحب فخر الدين بن مكانس، تغمدهما الله برحمته: هل لك — بسط الله آمالك وضاعف نعيمك ودلالك — في عذراء مصونة، كالدرة المكنونة، فتَّانة مفتونة، كأنَّ على خدها فوق وردة ياسمينة مخدرة تدهش العقول لمجتلاها، وتغشى العيون لضوء سناها، مظلومة الريق في تشبيهه بالضَّرَب، وفي اللثات وفي أنيابها شنب، لها من ذاتها طرب يُغنِي عن المزامير، بِلقيسيَّة الجمال لها صرح ممرد من قوارير، ضرة للشمس تلبس زِي البدور، ليلين ويرطب بها عيش السرور، ليلها من حسنها نهار، وضوء وجهها ليد لامسها سوار، عجوز الاسم صبية الاستمتاع، بِكرٌ تستخف الحليم بكشف القناع، تعصبت بالدجى طيبًا وتلثمت بالصباح، وتلطفت حتى مازجت الأرواح، كريمة الأصل والفِعال، حسنة المعاني والخصال، أديمها كلما يعتق يغلو، ووردها كلما مرَّ يحلو، يخلع الوقور في حبها العذار، ويطيعها بالسعد فلك الهوى المدار، ثملة المعاطف تقهقه قهقهة

الرعونة، كأنها خلقت نشوانة من الطينة، يزداد ثغرها طيبًا في ساعة السَّحَر، وتعرف عينها المخفية بحسن الأثر، حديثها السِّحر الحلال، وعتيقها خِلَع الدلال، أيامها أعياد، وأوقاتها أوقات القلوب والأكباد، تطيِّب عيشَ الجُلَّاس، وتفرك أذن الوسواس، من القاصرات الطرف في كل قصر، وهي على الإطلاق مليحة ذهبية العصر.

ومنها: رومية لها بالكيمياء معرفة، مع أنها بإدراك المطالب متصفة، فتارةً تقلب الأحزان أفراحًا، ومرة تكتال لك الذهب أقداحًا، نديمها يجد في نفسه مخايل المملكة، ويكاد أن يمد على الدنيا من لؤلؤ حبابها شبكة، قينة كأنما غنَّتِ الفَلَك فنقَّطتها بالنجوم، قارية تخلقت بعد أن تقمصت ببياض الغيوم، تجمع شمل الأحباب، وتهذب الأخلاق الصعاب، لو خالطها حبل لماس، أو قابلها جماد لقيل: إنه كاس، أو قبلت ندمانها لما نسبت إلى باس، ولقال لسان قائلهم: وفيها منافع للناس، وتلطف حتى كأن رائيها سامع يطيب ويطرب، وحتى يكاد يأكل بالضمير ويشرب، تغايرت الاستقصاءات على شكلها النوراني، وتآلفت في خلقها الجثماني الروحاني، فلم يجد الطين له فيها مدخلًا، لكن قنع منها بالتلطيخ تطفلًا، على أنه وارثها بالتعصيب، وقل جدها للأم بلا تثريب، أنفاسها مسكيَّة، وطباعها برمكية، ومكارمها حاتمية، وأنسابها قيصرية، بكرية بختم ربها، وهي ترضع أباها من حلبها، فتعيد الشيخ صبيًّا، والمشغول خليًّا، فكأنها استعارت الإرضاع من أمها التي لها ثُدًى كالنجوم عدة، وتعلمت منها المكارم لَمَّا رأت أكفَّها بالندى ممتدة، غانية طعم الحياة في ريقها، وضيق الموت في مباينتها وتطليقها، لا تنزل الأحزان ساحتها، ولا يعرف التعبَ مَن صافَحَ راحتها، حمراء تخلع ثوبها على الندمان، بل تكاد تُطْبِقُ عينها على الإنسان، لا ينهض البليغ بوصفها، فالعجز عن إدراك لطفها إدراكُ لطفها.

أخبرني الجناب المجدي — سلَّمه الله تعالى — أن والده أجاب عن هذه الرسالة جوابًا مجزعًا إلى الغاية وأن مسودتها عدمت.

وقال أبو الحسن بن بسام يستنهض همَّة نديم:

ألَا بادرْ فلا ثانٍ سوى ما	عهدتَ الكأسُ والبَدرُ التمامُ
ولا تكسل برؤيته ضبابًا	يغض به الحديقة والمدامُ
فإن الروض ملتثم إلى أن	توافيَه فينحطَّ اللثامُ

وقال الشهاب الأعزازي من موشحة أولها:

كـــأس رويَّـــةْ جَلا علـينـا النَّـديـمُ أم سـَـنـا مصـــبـاح
أم شــمـسُ حُسْـن قـد توجتـهـا الـنجـومُ فـي سـَمـاء الأقـداح
لــنــا خــلــيــل نــراه مــنــذ لــيــالٍ غــائــبًــا عـنَّـا
ومـا الشـمـول لـذيـذة وهو شـمـالي آيـسٌ مـنـا
قــل يــا رســول بــأنــنـا فـي ظِـلال دوحـةٍ غــنَّـا
زبــرجــديــة وثَــمَّ شــادنٌ وريـم وبــقــايــا راح
ويـوم دَجـن وقـد دعــاك الـنـديـم فـأجـب يـا صـاح

وقال الحكيم شمس الدين بن دانيال يداعب:

فــلان الــديــن قــد أبـطـأتَ عـنَّا لأمـرٍ قُـلْ لـنـا مـاذا الـجـفـاء
وقلـتَ اليوم بعـدَ العصـرِ تـأتي وبـعـد الـعصـر يـأتـيـنـا الـجـزاء

ونقلتُ من خط الصاحب المرحوم، فخر الدين بن مكانس، ما صُورته: كتبت إلى صاحبنا الأديب الفقيه العالم الحافظ الراوية أبي حفص، سراج الدين عمر السكندري الشهير بالقوصي، استدعيه، وفيها بعض مداعبة: الحمد لله المجيب لمن دعاه:

يـا ذا الـذي فكره مثـل اسـمـه يقـد فنَّـدت عنـا ومـا من شـأنـك الفنـدُ
بِمَ اعتـذارك عن هـذا الصـدود لنـا هـذا وقـد ضـمَّنـا بـالجيرة البلـد
عـافـاك ربـك من داء القطيعـة بـل شـفـاك مـن كـل داءٍ أمـرُه نـكـد
فيمَ التواني وشـهر الصـوم مقتبـل عن خمرةٍ ضـوؤهـا في الكـأس يتَّقـد
وفتيـةٍ مخلصـينَ الودَّ قـد جُبلوا علـى المـحـبَّـة لا حـقـد ولا حسـد
إن ذاع وصـفُـك في نـاديهمُ طربوا أو جـالَ ذكرك فيمـا بينهم سـجـدوا
إنْ لم تشـرف بنـاديهم فمـا شـرفوا أو لـم تـنـفـق لـهـم آدابـهـم كسـدوا
لمَ ذا هـجرت بنـي الآداب فـأبْـدِ لنـا بـمـا اعـتـذارك لا أهـل ولا ولـد
قد صـرت توحشـهم بعدًا وإن قربوا وكـنـت تـؤنسـهم قـربًـا وإن بـعـدوا

تركت عِشرتهم لمَّا رغبت إلى ... جاهٍ طويلٍ عريضٍ زانه مَدَد
ما هكذا تفعل الدنيا بصاحبها ... فالناس بالناس والأحوال تنتقد
وبعدُ فاحضر فذنب البعد مغتفرٌ ... ولو تطاول من هِجرانك الأمد
أو لا فعصبة فسق كلهم شَبَقٌ ... سودٌ غِلاظٌ شِدادٌ ما لهم عدد
لهم أيورٌ قِيامٌ طولَ دهرهمُ ... من حين إدراكهم بالحس ما رقدوا
كأنهم من حديدٍ جمَّعوا زُبُرًا ... مستوثبين فلا يقواهم الأسد
من كل أير تحكُّ السحب هامته ... يهيج كالبحر إذ يبدو له زبد
مزنفلٍ مكفهرٍّ مغضبٍ شرس ... لظهره جملونات بها عقد
مسكرج الرأس في عرنينه شَمَمٌ ... معشَّر الدور في حلقومه غدد
تلك الأيور تراهم في بكورهمُ ... كأنهم تحت فسطاط السما عُمَد
وكلهم طاعن بالأير في است فتًى ... ألهاه عن صحبهِ خِلَّانُهُ الجدد
ومن قَرَا رُقعتي هذي وليس يُرى ... عُقَيبها حاضرًا لم يثنه أحد
مولاي إني محبٌّ فاتخذ كَلِمِي ... نصيحةً فعليها الخِلُّ يَعتمد
بادرْ لنا فبَنُو الآدابِ كلهمُ ... تجمَّعوا من فِجاج الأرض واحتشدوا
وأنت أدرى بقومٍ إنْ قَلَوْا سَلَقُوا ... بألسنٍ ما لقتلى حربهم قَوَدُ
قد واعدوك وإن لم تأتِ نحوهمُ ... فكلهم منجز في الحال ما يعد
لا زلت ترقى على زُهر النجوم عُلًى ... ما حلَّت الريح أقوامٌ وما رصدوا

وكتب إليه أيضًا يداعبه:

يومٌ عليك سعيد ... يُبدي الهنا ويُعيد
يا بحر عِلم خِضم ... تأتي إليه الوفود
يا ناقضَ الودِّ يا مَن ... شوقي إليه يزيد
ويا رقيق الحواشي ... ما ذا الجفا والصدود

يا جامع الشمل يا من ... بما لديه يجود
قد غيَّرتك الليالي ... والجاه وهْو شرود
فكيف تبدي نفارًا ... منا ونحن عبيد
لمَ لا تتيه وتعلو ... على الورى وتسود
وأنت خلفك قوم ... كلٌّ قويٌّ شديد
والناس شكوا وقالوا: ... ما شاب منه الوليد
والشعر فيك توالى ... طويله والمديد
أصبحت كالبدر مرأى ... وهو القريب البعيد
يا أكثر الناس نُجبًا ... قل لي لماذا القعود
وقد أتى الصوم فالمْ ... بنا فقربك عيد
واغتنم شفاك واشرب ... فقد أتتك السُّعود
واحضر إلينا إذا ما ... وافاك دريٌّ النضيد
فعندنا إن تزرنا ... ما تشتهي وتريد
راحٌ وظبيٌّ وشادٍ ... يُشجي الأنامَ وعود
تزوَّج الماءُ بالرا ... حِ والملاح شهود
وأنت جوهر فضلٍ ... به تُحلَّى العقود
لا زالَ عزمك والرْ ... رَأْي مفلح وسعيد
تستخدم الدهر في ما ... تقرُّه وتبيد
أيامه خدم بيـ ... ـض والليالي سود

وقال آخر: نحن قوم من شيعة الخمر نحب العتيق، قد رفضنا عنا يد الهم بسماع الوتر، وأقمنا من ناصب الغم وعدك المنتظر.

الفصل الخامس: فيمن وصفها من الشعراء والأعيان

القول في الكرمة: الكَرْم أكرم الشجر جوهرًا، وأشرفها مَحتِدًا وعنصرًا، منافعها عظيمة، وعوائدها جسيمة، وثمرها يزهى على جميع الثمار طيبًا ومنفعة، ومواد الشرب فيما يستخرج منه مستجمعة، وينبغي أن يُختار لها أرضٌ معتدلة رطبة لا مفرطة الرخاوة ولا صُلبة، ولا يُكثَر سقيها فيصير ما يعتصر منها رقيقًا مائيًّا، ولا يفرط في تعطيشها فيكون يابسًا ناريًّا، ويعتمد تزبيل أرضها بأخثاء البقر، فإنها حافظة لما استودعته دون غيرها من الشجر، وألَّا يغرس ما يضاددها في أقرب مواضعها، ولا يلاصقها إلا ما يقاربها في طبائعها، فيجتنب الدِّفْلَى والدُّلْب والخِروَع وما يشاكلها، وتجاور الورد والتفاح واللوز والخوخ وما يماثلها، والتفاح أشبه لها به.

نكتة حسنة: قال أبو مسلم الخُرَاساني، صاحب الدعوة، لسليمان بن كثير: بلغني أنك كنت في مجلسٍ قد جرى بين يديك فيه ذكري فقلتَ: اللهم سوِّد وجهه، واقطع عنقه، واسقني من دمه! فقال: نعم، قلته ونحن في الكرم الحصرم لمَّا نظرت إليه. فاستحسن قوله وعفا عنه لسداد جوابه.

القول على ثمرها: أجمع العجم والعرب على أن رأس الفاكهة التين والعنب، لأنهما يهديان الخصب إلى الأبدان والجسوم، ويغذوانها غذاءً غير مذموم، وعقيدُ العنب إذا طُبخ نفع من بعض الخوانيق، وقطع الرطوبات المضرَّة بالحُلُوق، وقد ورد في الخبر المأثور ما هو عند أصحاب الحديث مشهور وهو: كلوا الزبيب فإنه يطفئ الغضب، ويُذهب الوَصَب، ويشدُّ العصب، ويرضى عنه الرب. وأطيب العنب ما اخضرَّ عُوده، وتسلسل عنقوده، وتدفق ماؤه، ورقَّ لِحاؤه، وقل عجمه، واستحلاه مُستَطعمه.

وأفضل الأشربة ما اتُّخِذ منه، وهو الخمر، لما فيها من الفضائل، ولما انفردت به من شريف الخصائل، فالألسنة منبسطة بنشر محاسنها، والمدائح مشوقة إليها من أفضل معادنها، والنفوس بمحبتها كَلِفة، والقلوب إلى ما تجتنيه منها متشوفة، من اعتادَ شربها لم يصبر عنها، ومن لم يذقها ورآها دعاه نسيمها ولونها إلى الأخذ بحظٍّ وافر منها. وما أحسن قول ابن المعتز فيها:

مُعَتَّقةٌ صَاغَ المِزاجُ لِرأسها ... أكاليلَ دُرٍّ ما لمنظومها سِلْكُ
جرتْ حركاتُ الدهرِ فوقَ سُكونها ... فذابتْ كَذَوْبِ التِّبْرِ أَخْلَصَهُ السَّبْك
وأدركَ منها الآخرون بقيَّةً ... مِن الروحِ في جِسمٍ أضرَّ به النَّهْك

وقد خَفِيتْ مِن صَفْوِها فكأنَّها بَقايا يَقينٍ كادَ يُذْهِبُهُ الشَّك

وقال القاضي الفاضل رحمة الله عليه:

لها مِنَنٌ تصفو على الشُّرب أربعٌ وواحدةٌ لولا سماحتها تكفي
سرورٌ إلى القلب وتِبْرٌ إلى يدٍ ونورٌ إلى عينٍ وعِطرٌ إلى أنفِ
ولما رأينا يَاسَمِينَ حَبابها مَدَدْنا يَمين القَطْفِ قَبلَ فَمِ الرَّشفِ

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر:

خمرةٌ للشقيقِ أمستْ شقيقةْ بِنْتَ كَرْمٍ بالمَكْرُمات خَليقةْ
قال قومٌ من لطفها: هي في الكأ سِ مجازٌ الكأس قالت: حقيقةْ
كيف تغدو عتيقةً لدنانٍ وهي في قبضة الندامى رقيقةْ
أنتجت فرحةً وجاءت بكأس صُبِغَت حُمرَةً فَنِعْمَ العقيقةْ
هي مخلوقةٌ من الماء فاعجب كيف نارٌ من مُزْنة مخلوقةْ
كم تبدَّت بها معاني سرور بسوى الماء لم تكن مطروقةْ
سلبتنا على العقول وقالت: يتولَّى الحباب كَتْبَ الوثيقةْ
حملت همَّنا فحمدًا وشكرًا لعجوزٍ على بَنيها شفيقةْ
كم بكت بالدموع منها الرواويـ ـقُ وجاءت جيوبها مشقوقةْ
أتراني أعصي إلهي فيها ثم أخشى من أن يقول الخليقةْ

وما أحسن قوله ملغزًا في شملة، وإن لم يكن مما نحن فيه لكن الشيء يذكر بلوازمه:

ومشمولة رقَّت وراقت فأصبحت على الشُّرب تزهى حين تُهدى إلى الكاس
معتَّقة ما شُمِّست بعدَ عصرها لإثمٍ وكم فيها منافع للناس
ولا عُصِرَتْ يومًا برِجلٍ ولا لها إذا ما أُديرَتْ من صعود إلى الراس

وقال ديك الجن عبد السلام بن رعبان الحمصي:

بـهـا غـيـرَ مـعـذورٍ فَـداوِ خـمـارهـا　　وصـــِـلْ بعشـــيَّات الغَبوق ابتكـارَهـا
وقُمْ أنتَ فاحثُثْ كأســـها غير صـــاغرٍ　　ولا تَســـْقِ إلَّـا خَـمْـرَهـا وعُـقـارهـا
فـقـام تـكـاد الـكـأس تـحـرق كـفَّه　　من الشـــمس أو من وجنتَيْه اســـتعارها
ظـلـلـنـا بـأيـدينـا نُـتَـعْـتِـعُ دوحـهـا　　فتـأخـذ من أقـدامنـا الراحُ ثـأرهـا
مُوَرَّدةٌ مـن كِـفِّ ظـبـيٍ كـأنـمـا　　تـنـاولـهـا مـن خـده فـأدارهـا

قلت: أحسن ما ضمَّن هذا العجز الشيخ بدر الدين حسن الغزي الشهير بالزغاري:

وبي ســـامري مرَّ بي في عِمـامـةٍ　　قـدِ اكتســـبت من وجنتيـه احمرارَهـا
مـــورَّدة دارت بـــوجـــهٍ كـــأنـمـا　　تـنـاولـهـا مـن خـدِّه فـأدارهـا

وقال مجير الدين بن تميم مضمنًا:

لو كنـت شـــاهـدنـا وقـد جليـت لنـا　　في كـأســـهـا لَمَّـا انتشـــى الندمـاء
لـرأيـت أحســـن مـا يُرى بزجـاجـة　　ســـال النضـــار بهـا وقـام المـاء

وقال صدر الدين بن غنوم:

قـم نـفـتـرع بـنـتَ المُـدامـة بُـكـرةً　　في روضـــةٍ حســـنت وفـاقـت منظرا
فـالـراحُ ســـيـفٌ قـاطـعٌ لـهـمـومـنـا　　أوَمـا تـراه بـالـحـبـاب مـجـوهـرا

وقال شرف الدين راجح الحِلِّي:

أعـجـبُ شـــيء رأتـه عـيـنـي　　مـا بـين عـودٍ وخـفـق نـاءٍ
زحـف ســـرور لـجـيـش هـمٍّ　　وقـتـل خـمـر بســـيـف مـاء

وقال محيي الدين المغربي حافي رأسه:

لـم تبتـذر درَّ الـحبـاب بكـأســـهـا　　إلا لصـــيـد بـلابـل الأفـراحِ
مـزجـت فـأنـجـزتِ الـذي وعـدت بـه　　من نفـخ روح اللـهو في الأشـــبـاح

وقال الناشئ:

وصــفـتْ وأحـدق نورهـا بزجـاجهـا   فـكـأنَّـمـا جُـعـلَـت إنـاءَ إنـائـهـا
وتـكـاد إن مُـزْجَـت لـرقَّـة لـونـهـا   تـمتـاز عـنـد مِزاجـهـا مـن مـائـهـا
تـزدادُ مـن كَـرَم الـطِّـبـاع بـقَـدْرِ مـا   تــودي بــه الأزمــانُ مــن أجــزائــهـا

وقال البديع الهمذاني:

وفِـتـيـانٍ كـأقـرانِ الـثُّـريَّا   عـلـى طـرقٍ مـن الـعـيـش الـرَّخـيـم
يسـاقـيـهـم مـن الـغـزلان أحـوى   كـأنَّ بـطـرفـه داءَ الـظـلـيـم
تـنـادَوْا لـلـمُـدامِ وعـنَّـفـونـي   وقـالـوا: هـاكَ حـظَّـك مـن نَـعـيـم
فـقـلـت: أخـاف عُـقـبـاهـا ولـكـن   أشـيِّـعـكـم إلـى بـاب الـجـحـيـم

وقال أبو تمَّام الطائي:

بمُـدامَـةٍ تَـغْـدُو الْمُنَى لِكُؤوسـهـا   خَـوَلًا عـلـى الـسَّـرَّاء والضـرَّاء
راحٌ إذا مـا الـراح كـنَّ مـطـيَّـهـا   كانت مطايا الشـوقِ في الأحشـاء
صَـعُبَـتْ وراضَ المَزْجُ سـيِّئَ خُلقها   فـتـعـلَّـمـتْ مـن حسـن خُـلـق المـاء
خَرقـاء تـلـعَـب بـالـعـقـول حـبـابـهـا   كـتـلـعُّـبِ الأفـعـالِ بـالأسـمـاء
وضـعيفـةٌ فـإذا أصـابـتْ فُرصـةً   فَـتَـكَـتْ كـذلـك قـدرةُ الضـعـفـاء

وقال أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي: ضمَّني وأبا يحيى الكاتب مجلس أنْس، فتذاكرنا ما قيل في معاقرة الشراب في المشيب، فأنشدني لنفسه:

لامـوا عـلـيَّ حـبَّ الصـِّبـا والـكـاس   لَمَّـا بـدا زهـر المشـيـب بـراسـي
والغصـن أحوج مـا يكون لشـربـةٍ   إبَّـان يـبـدو بـالأزاهـر كـاسِ

ثم قال: هل سمعت في هذا المعنى شيئًا لغيري؟ فقلت: لا. ثم أعملتُ خاطري حتى قلت فيه، وهو معنى غريب:

يلومونني إنْ شِـبتُ في الخمر ضـلَّة   وإنني إذا وافى المشـيـب بهـا أحق

إذا شـــاب رأس الليل بـالفجر قربت   له أكؤس الصـــهباء من حُمرة الشـــفق

آخر:

صـــبَّ في الكـأس عقيقًـا فجرى   وطـفـا الـدر عـلـيـه فـطـفـح
نصـــب الســـاقي على حـافَّـاتهـا   شَـبَكَ الفضـــةِ فـاصـطـاد الفرح

وقال أبو نواس رحمة الله عليه:

يـطـوف بـهـا ســـاقٍ أغـنٌّ يُـرى لـه   على مُســـتدار الأذن صــُدْغًا معقربا
إذا عـبَّ فيهـا شـــارب القرم خِلْتَه   يـقـبِّـل فـي داجٍ مـن الـلـيـل كـوكـبـا

وقال ابن المعتز رحمة الله عليه:

قـد أظـلـم الـلـيـل يـا نـديـمـي   فـاقـدح لـنـا الـنـار بـالـمدامِ
كـــأنـــنـــا والـــورى رُقـــود   نـقـبِّـل الشـــمـس فـي الـظـلام

وقال ابن حمديس الصقلِّي رحمة الله عليه:

قُمْ هـاتـهـا مـن كفِّ ذات الـوشـــاح   فقـد نعى الليـل بشـــير الصـــبـاح
من قبل أن تَرْشُـفَ شـمسُ الضـحى   ريـقَ الـغـوادي مـن ثـغـور الأقـاحـي

وقال ابن رشيق القيرواني رحمة الله عليه أيضًا:

خـلـيـلَ الـنَّـفْـس لا تُـخـلِ الـزُّجـاجـا   إذا بـحـر الـدُّجـى فـي الـجـوِّ مـاجـا
مشـــعشـــعـة كـأنَّ الشـــمس ألقـتْ   عـلـى أيـدي الســُّقـاة بـه مـجـاجـا
إذا مـرِّيـخـهـا اتَّـقـد احـمـرارًا   سـَكَبْنَـا المشـــتري فيـه مِزاجـا

وقال ابن حجاج رحمة الله عليه:

ويْحَكُمْ يـا كُهولَ أو شـيوخَ الفِسْـ   ـقِ أو يـا مـعـاشـر الـفِـتـيـانِ
اشـربوهـا حـمـراء ممَّـا اقتنـاهـا   آل ديـر الـقَـنـون لـلـقـربـان

بـكـؤوسٍ كـأنـهـا ورق الـنَّسـ ـــرين فيهـا شـقـائق النعمـان

اشــربــوهــا وكـل إثـم عــلـيـكـم إن شــربـتم بـالـرطـل فـي الميـزان

فـي لـيـالٍ لـو أنـهـا دفـعـت وسـ ـطَ ظهري وقعتُ في رمضـان

وقال ابن سناء الملك:

الكـأس لم تـذنـب فكيف حبسـتهـا أوحشـتهـا من طول مـا آنسـتهـا

لا بـل هـممـتَ بشـربـهـا فـرأيـتَهـا ألقـت عليـك شـعـاعهـا فلبسـتهـا

وقال وجيه الدين بن الذروي:

يَفـيـض عـلـى كسـرى غـلالـة قـهـوة وتسـلـبـه عـمـدًا لـراحـة سـالـب

ونـص عـلـى ديـن المـجـوس لـهـيـبـهـا فشـق الدجى عن صـدره مسـح راهب

وقال القاضي الفاضل رحمه الله:

يـلـوح عـلـيـهـا خـجـلـة إذ أدارهـا فمن عرق يبـدو الحُبـاب لـدى المزج

أتـاني بهـا والصـبح من تحـت ذيلـه كما اسـتُلَّ سـيفٌ أو كما يبسـم الزنجي

حبيب كـأني كـأسـه من صـبـابتي فـظـاهـرهـا بـرد يـزر عـلـى وهـج

وقال أبو نواس رحمة الله عليه:

وخـمَّـارٍ أنـخـنَ عـلـيـه لـيـلًا قـلائـص قـد تـعـبنَ مـن السـَّفـار

فـتـرجَـمَ والـكـرى فـي مـقـلـتـيـه كـمـخـمـور شـكـا ألـم الـخُـمـار

أبِنْ لـي كـيف سـرتَ إلـى حريمـي وجـفـنُ الـلـيـل مـكـتـحـل بـقـار

فـقـلـت لـه: تـرفَّـق بـي فـإنـي رأيـت الصـبح مـن خـلـل الـديـار

فـكـان جـوابـه أن قـال: كـلًّا وهـل صـبحٌ سـوى ضـوء العُقـار

وقـام إلـى الـدِّنـان فسـدَّ فـاهًا فـعـادَ الـلـيـلُ مـنسـدل الإزار

وقال آخر:

جلوها على الندمان فاحمرَّ وجهها بخجلتها عند البروز من الخدر
وألقَوْا عليها الماء فاصفرَّ لونها ويحسن عند الملتقى وجل البكر

وقال يزيد بن معاوية:

لي ولها إذا الكاسات دارت رقى سحر يحلُّ عرى الهموم
محادثةٌ ألذُّ من الأماني وبثٌّ جوًى أرق من النسيم

وقال البحتري رحمة الله عليه:

تُخفي الزجاجة لونها فكأنها في الكفِّ قائمةٌ بغير إناءِ
ولها نسيمٌ كالرياض تنفَّست في أوجهِ الأرواح والأنداء
وفواقع مثل الدموع تحدَّرت في صحنِ خدِّ الكاعب الحسناء

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي ملغزًا في مدام:

وما شيءٌ حَشاه فيه داءٌ وأوَّلُه وآخره سواء
إذا ما زال آخره فجَمْعٌ يكون الحدُّ فيه والمضاء
وإن أهملتَ أوله فَفِعْلٌ له بالرفع والنصب اعتناء

وله:

حشناها مشعشعة زلالًا وثوب الليل فضفاض الذيول
فتحسبها إذا الساقي جلاها تفتش بالسِّراج على العقول

ولآخر:

أُدير بلحيتي البيضاء كأسي بكَيْسٍ زائد منِّي وفطنةْ
ألمْ يرَني وعفوَ الله راجٍ ومن شرهي أصفِّيها بقُطنةْ

وقال الشيخ يحيى الخباز:

بعيشك هاتها حمراء صرفًا صباحًا واطَّرِح قول النَّصوح
فهذي الشمسُ قد بزغت بعينٍ تغامزنا على شربِ الصَّبوح

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

مورَّد الخدِّ أدار الطلا فقال لي في حبها عاتبي:
عن أحمر المشروب ما تنتهي قلت: ولا عن أخضر الشارب

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي:

قم هاتها في الظلام صافيةً تورث جسمي وقبضتي بسطةْ
أضحت عليها الأفراح دائرة يا صدق من قال: إنها نقطةْ

وقال المرحوم فخر الدين بن مكانس:

للراح بالكيمياء شبهٌ فإنَّ لها للقلب والرأس تقطيرًا وتصعيدا
قالوا: هي الشمس إشراقًا وقد جهلوا وما ذاك إلَّا شعاعُ الشمس معقودا

وقال بدر الدين بن الصاحب:

يا حابسَ الكأس لا تزدها من بعد حبس الدنان حسرةْ
واغنمْ مِزاجًا لها لطيفًا يورثها الانتظار صفرةْ

وقال من لفظه لنفسه سيدنا القاضي بدر الدين محمد بن الدماميني:

قمْ بنا نركبْ طرْ فَ اللَّهوِ سَبْقًا للمُدام
واثنُ يا صاحِ عناني لكُمَيْتٍ ولِجام

وللشيخ شهاب الدين بن حجر — أبقاه الله تعالى — لنفسه الكريمة:

أطيلُ الملام لَمن لامني وأملأ في الروض كأس الطِّلا
وأهوى الملاهي وطِيبَ المَلا ذِ فها أنا مُنْهَمِكٌ في المَلا

ومن لفظه لنفسه الكريمة الجناب المجد بن مكانس:

نــــزل الـــطَّـــلُّ بـــكـــرةً وتـــــوالـــــى تَـــــجـــــدُّدا
والـــنـــدامـــى تـــجـــمـــعـــوا فـاجـلِ كـأســـي عـلـى الـنـدى

وقال شهاب الدين بن أبي حجلة:

أمعطِّلَ الكـاســـات عن عشـــّاقها يكفيـك بـالـتعطيـل عيبًـا عـائبـا
ذهبـت كؤوســـك بـالمـدام فقـد أرى للنـاس فيمـا يعشـــقون مَـذاهبـا
فمتى ســـلكـتَ من الـهموم مهـالكًا صـــــادفـتَ في فتح الـدنـان مطـالبـا
ومتى امتطيـتَ من الكؤوس كُمَيْتَهـا أمســـيتَ تمشـــي في المســـرَّة راكبـا
ومتى طرقـت عَشـــِيَّ أُنْسٍ دَيْـرَهـا لــم تـلـقَ إلَّـا راغـبًـا أو راهـبـا

وقال الشيخ عز الدين الموصلي لنفسه تغمده الله برحمته:

لإنْ شـــبَّه الســـاقي المدام بعســـجدٍ فقد مالَ بالتشـــبيه عن صـــنعة الأدب
ولـكـنْ رآهـا جـوهـرًا ســـُمِّيـت طِلا فـمـوَّه لمَّـا حـلـت الـكـأس بـالـذهـب

ونقلت من خط الشيخ بدر الدين البشتكي لنفسه:

وخَـمَّـار هُـديـنـا فـي الـديـاجـي لـجـذوة كـأســـه وســـنـا الـنـديـم
ســـألـنـا مـنـه عـن خـمـر حـديـثًـا فـأخـبـرنـا عـن الـعصـــر الـقـديـم

قلت: وعلى ذكر الحديث، قال أبو بكر بن عياش: كنت وسفيان الثوري وشريك نمشي بين الحيرة والكوفة، فرأينا شيخًا أبيضَ الرأس واللحية، حسن السَّمْت، فقلنا: هذا شيخ جليل قد سمع الحديث ورأى الناس. وكان سفيان أطلبنا للحديث، وأشدنا بحثًا، وأعلمنا به، وأحفظنا له، فتقدم إلى الشيخ وسلم عليه ثم قال له: أعندك شيءٌ من الحديث؟ فقال له: أمَّا الحديث فلا، ولكنَّ عندي عتيق سنتين. قال: فنظرنا فإذا الشيخ خمار!

نادرة: قيل لخالد بن صفوان: أتملُّ الحديث؟ قال: إنما العتيق يمل.

وقال المرحوم فخر الدين بن مكانس:

مِن شـــَرْطنـا إنْ أســـكرتنـا الطِّلا صـــرفًـا تـداوينـا بشـــرب اللمـى

نعافُ مزج الماء في كأسها لا آخَذَ الله السكارى بما

وقال بدر الدين بن الصاحب:

يا أيها العاصر بادرْ إلى عنقودك الفاخر في كرمه
إيَّاك أن تتركه ساعةً يزبب النحس على أمه

وقال مجير الدين بن تميم:

وليلةٍ بتُّ أسقي في غياهبها راحًا تَسَلُّ شَبابي مِن يدِ الهرم
ما زلتُ أشربها حتَّى نظرتُ إلى غزالةِ الصُّبح تَرعى نرجسَ الظُّلَم

ولما تمثلتُ في أواخر سنة خمس وتسعين وسبعمائة بين يدي سيدنا ومولانا، أوحد العصر من غير مدافع ولا منازع، أقضى القضاة، بدر الدين محمد بن أبي بكر المخزومي الشهير بالدماميني، تذاكرنا بين يديه الكريمةِ الكتبَ وحسن أسمائها، فأخبرنا أنه في زمن الصِّبا جمع مقاطيع من الخمريَّات وسماها مقاطع الشرب، فافهم ذلك وتأملْ ما ألطف هذه التسمية!

القصائد: قال الشيخ العالم المفنن البارع، صدر الدين محمد بن المرحل، ويعرف في الشام بابن وكيل بيت المال، تغمده الله بالرحمة:

لِيَذْهَبوا في مَلامي أيَّةً ذهبوا في الخمر لا فضَّةٌ تبقى ولا ذهب
والمال أجمل وجهٍ فيه تصرفه وجه جميل وراح في الدجى لهب
لا تأسفنَّ على مالٍ تمزقه أيدي سُقاةِ الطِّلا والخُرَّدِ العُرب
فما كسَوْا راحتي من حليها حُللًا إلَّا وعرَّوا فؤادي الهمَّ واستلبوا
راحٌ بها راحتي في راحتي حصلت فتمَّ عُجْبي بها وازدادَ بي العَجَب
إذ ينبع الدَّر من حلو مذاقته والتبر منسبكٌ في الكأس منسكب
وليست الكيمياء في غيرها وُجِدتْ وكلُّ ما قيل في أبوابها كذب
قيراطُ خمر على القنطار من حزن يُعيد ذلك أفراحًا وينقلب
عناصرٌ أربعٌ في الكأس قد جُمعت وفوقَها الفَلَك السَّيَّار والشُّهُب

مـــاءٌ ونـــارٌ هـــواء أرضــــــهـــا قَـــدَحٌ   وطَـــوْقُـــهـــا فـــلَـــكٌ والأنـــجـــمُ الـــحـــبـــب
مـا الـكـأس عنـدي بـأطراف الأنـامـل بـل   بـــالـخمس تقبض لا يجلو لـهــا الـهرب
شـــــججتُ بالماء منها الرأس موضـــــحةً   فـحـين أعـقـلـهـا بـالـخـمـس لا عـجـب

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي: لو لم يقل الشيخ صدر الدين من الشعر إلا هذا البيت لكان قد أتى بشيء غريبٍ نهايةٍ في البديع، لقد غاص على المعنى، ودقَّ تخيله فيه. ثم قال بعده:

ومــا تركــتُ لهــا الخمس التي وجَبَــتْ   وإنْ رأوْا تَرْكهــا من بعض مــا يجــب
وإنْ أقـطِّـب وجـهـي حـين تـبســـم لـي   فـعـنـدَ بَســـْطِ الموالـي يـحـفـظ الأدب

هذا البيت أيضًا بديع المعنى دقيقه، وقد اعتذر عن تقطيبه بأحسن عذرٍ وأوضحه.
وما أحسن قول ابن رشيق:

أحــبُّ أخــي وإن أعــرضـــــت عــنــه   وقــلَّ عـــلـــى مســـــامــعــه كــلامــي
ولــي فــي وجــهــه تــقــطــيــبُ راضٍ   كــمــا قــطَّــبــت فــي وجــه المُــدام

وتتمة الأبيات:

عــاطيتُهــا من بنــاتِ الترك عــاطيــةً   لِحــاظهــا للأُســـود الغُلْــب قــد غلبوا
هــيــفــاءُ جــاريــةٌ لــلــراحِ ســـــاقــيــةٌ   من فوق ســــاقيــة تجري وتنســـكــبُ
مـن وجـهـهـا وتَـثَـنِّـيـهـا ومـقـلـتـهـا   تخشـــى الأهلَّةُ والقضـــبانُ والقضـــب
يــا قلــبُ أردافُهــا مهمــا مررتَ بهــا   قفْ بي عليهــا وقــلْ لي: هــذه الكُتــب
وإن مـررت بشـــَعْـرٍ فـوق قـامـتـهـا   بـــالله قــل لــي كـيـف الـبــان والـعَـذَب
تُريـك وجـنـتُها مـا فـي زجـاجـتـهـا   لـكـنْ مـذاقـتـه لـلـريـق تـنـتـســـب
تحكي الثنــايــا التي أبـدتـه من حَبَــبٍ   لقــد حكيــتَ ولكن فــاتــك الشـــنــب

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري:

قَضـــى ومــا قُضِـــيَـتْ منكم لُبــانــاتُ   مُـتَـيَّـمٌ عـبـثـتْ فـيـه الصـــَّبــابــات

مـا فـاضَ مِن جَفنـه يومَ الرحيـلِ دمٌ إلَّـا وفـي قـلـبـه مـنـكـم جـِراحـات
أحبـابنـا كـل عضـــو في محبَّتكم كَلِيمُ وَجْـدٍ فهـل للوصـــل مِيقـات
غِبتم فغـابـت مســرَّات النفوس فلا أنـتـم بـرغـمـي ولا تـلـك المســـرات
يـا حبَّذا في الصَّـــبـا عن حبِّكم خبرٌ وفي بروق الفضــــا منكم إشــــارات
وحبَّـذا زمنُ اللهو الـذي انقرضــــتْ أوقـاتـه الـغُـرُّ والأعـوامُ ســـاعـات
أيـامَ مـا شـــَعَر البَيْنُ المُشـِــتُّ بنـا ولا خَلَـت من مغـاني الأنس أبيـات
حـيـثُ المنـازل روضـــات مـدبجـةٌ وحـيـث جـاراتـهـا غِـيـدٌ وقَـيْـنـات
وحيـث لي بـديـار اللـهو ســـلطنـة ولـي عـلـى ثـغـرِ مـن أهـوى ولايـات
وحيث أســعى لأوطان الصِّـــبا مرحًا ولـي عـلـى حـكـم مـن أهـوى ولايـات
وربَّ حـانـة خـمَّـار طـرقـتُ ومـا حـانـت ولا طُرِقَـتْ للقَصْـفِ حـانـات
ســبقتُ قـاصـــدَ مَغْناهـا وكنتُ فتًى إلـى المُـدام لـه بـالســَّـبـق عـادات
أعشُـــو إلى ديارها الأقصــى وقد لَمَعَتْ تحـت الـدُّجى فكـأنَّ الـدَّير مِشـــكـاة
وأكشــف الحُجْب عنها وهْي صـــافيةٌ لـم يـبـقَ فـي دنِّـهـا إلا صــــبـابـات
راحٌ زحفـتُ على جَيشِ الـهموم بـهـا حـتـى كـأنَّ ســَنَـا الأكـوابِ رايـات
وبـتُّ أجلـو عـلـى الـنـدمـان رونقـهـا حتى لقد أصـــبحوا من قبل مـا بـاتوا
مصـــونة الســـرح باتت عند غـايتها حـاجـات قـومٍ ولـلـحـاجـات أوقـات
تـجـول حـول أوانـيـهـا أشـــعَّـتـهـا كـأنمـا هي للكـاســـات كـاســـات
ويصـبح الشـرب صـرعى دون مجلسـها وهـي الـحـيـاة كـأنَّ الشـــرب أموات
تـذكـرت عـنـد قـومٍ دوس أرجـلـهـم فـاســترجعت من رؤوس القوم ثـارات
واســـتضـــحكت فلها في كل نـاحيةٍ هـبَّـات حُسـْـنٍ وفـي الآنـاف هـبـات
كـأنَّـهـا فـي أكـفِّ الـطـائـفـين بـهـا نـارٌ تـطوف بـهـا فـي الأرض جنَّـات
مِن كـلِّ أغـيـدَ فـي ديـنـار وجـنـتـه تـوزَّعـت مـن قـلـوب الـنـاس حـبَّـات

مُبَلْبَلُ الصــُّدْغ طَوعُ الوَصـــْلِ منعطفٌ كـأنَّ أصــــداغـه لـلـعَـطـف واوات
تـرنَّـحـت وهـيَ فـي كـفَّيـه مـن طَـرَبٍ حتى لقـد رقصــــتْ تلـك الزجـاجـات
وقُـمـتُ أشـــــرب مِـن فِـيـهِ وخَـمْـرَتِـهِ شُــربًـا تُشـــنُّ بـه في العَقْـلِ غـارات
ويـنـزل الـلَّـثـمُ خـدَّيـهِ فـيـنشـــــدهـا هـيَ المـنـازل لـي فـيـهـا عـلامـات

وقال الأديب الفاضل الكامل أبو الفتوح بن قلاقس السكندري:

ألْحِقْ بنفســـجَ فَجريَ وَردَتَي شـــفقٍ كافورةُ الصـــبحِ فتَّتْ مِسْـــكةَ الغَسَـــقِ
قمْ هاتِ جامَك شـــمسًـــا عند مُصـــطبحٍ وخَـلِّ كـأسَـــكَ نجمًـا عِنـد مُغْتبق
وأقســـِمْ لِكـلِّ زمـانٍ مـا يـلـيق بـه فـإنَّ لـلـزَّنْـدِ حَـلـيًـا لـيـس لـلـعُـنُق
هـبَّ النســـيم وهـبَّ الريمُ فـاشـــتركـا في نفحـةٍ من نســـيمِ المنـدل العَبِق
واســـترقصـــتني كاســـترقاصِ حاملِها مخضـــرَّة الوُرْق في مخضـــلَّـة الوَرَق
وبِـتُّ بـالـكـأس أغـنـى الـنـاسِ كلِّـهـمُ فـالخمر من عســـجدٍ والكأس من وَرِق

وقال الشيخ الفاضل الكامل برهان الدين إبراهيم بن عبد الله بن محمد المعروف بالقيراطي رحمة الله عليه:

قســـمًـا بروضـــــة خـدِّه ونبـاتـهـا وبـآســـهـا المخضـــرِّ في جنبـاتـهـا
وبســـُورةِ الحسـنِ التي في خـدِّه كـتـبَ الـعِـذارُ بـخـطِّـهِ آيـاتـهـا
وبـقـامـةٍ كـالـغُصـــن إلَّـا أنَّـنـي لـم أجنِ غير الصـــَّدِّ من ثمراتـهـا
لأعـــزِّرنَّ غصـــــونَ بـــانٍ زوَّرتْ أعـطـافـه بـالـقَـطْـعِ من عـذَبـاتـهـا
ولأُصـــْـبِـحـنَّ لـلـذَّتـي مـتـيـقِّـظًا مـا دامـتِ الأيـامُ فـي غـفَـلاتـهـا
وأُبَـاكِـرَنَّ رِيـاضَ وجـنـتـه الـتـي مـا زَهْـرَة الـدنـيـا ســوى زَهـراتـهـا
كمْ ليلـةٍ نـادمـتُ بـدرَ ســـمـائـهـا والشـــمسُ تُشـــرق في أكفِّ سـُـقاتها
وجرتْ بنـا دُهْمُ الليـالي للصـــَّبـا وكـؤوســـنـا غُـرَرٌ عـلـى جَـبَـهـاتـهـا
فصـــرفـتُ دينـاري على دينـارهـا وقضـــيـتُ أعوامي على ســـاعـاتهـا

خـالفـتُ في الصـَّهبـاء كـلَّ مقلِّـدٍ وسـعـيتُ مجتهـدًا إلى حـانـاتهـا
فشَـمِمْتـهـا ورأيـتـهـا ولمسـتـهـا وشرِبتها وسـمعتُ حسـن صـفاتها
وَتَبِعـتُ كـلَّ مُطـاوِعٍ لا يـخـتشـي عـنـد ارتـكـابِ ذنـوبـه تَـبِـعـاتـهـا
يـأتـي إلـى الـلـذات مـن أبـوابـهـا ويَحُـجُّ للصـهـبـاء مـن مِيقـاتـهـا
عَرَفَ المُـدامَ بـجـنسـهـا وبـنـوعـهـا وبفصـلـهـا وصـفـاتـهـا وذواتـهـا
يـا صـاحِ قـد نطق الهَزَارُ مؤذنًـا: أيـلـيـقُ بـالأوتـار طُول سـُكـاتـهـا
فخُـذِ ارتفـاع الشـمس مِن أقـداحنـا وأقـمْ صـلاةَ الـلـهـوِ فـي أوقـاتـهـا
إنْ كـان عـنـدكَ يـا شـرابُ بـقـيَّـةٌ ممـا تُـزيـلُ بـه الـعـقـولَ فـهـاتـهـا
الـخُمْـر مـن أسـمـائـهـا والـدُّرُّ مـن تيجـانـهـا والمِسـك من نفحـاتـهـا
وإذا الـعـقـود مـن الـحـبـاب تـنـظَّـمـت إيَّـاك والـتـفـريـطَ فـي حـبَّـاتـهـا

وقال الصاحب العالم المفنن فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس:

خـلـيـلـيَّ هـبَّـا لـلصـبـوح وبـكِّـرا وحثَّـا أواني لهوهـا تحمـد السـُّرى
ولا تـركـبـا اللـيـل الـبـهـيـم بـل اركـبـا مُدامًا كُميتًا أو من الصـبح أشـقرا
وصِـيـدا بنـاتِ الكرم من جَوف دنهـا فـإن أوانـي راحـهـا عـنـدي الـفـرا
إذا مـا أديرت في حشـا عسـجدية بـهـا كـل ذي مُلـكٍ وتـاجٍ تصـوَّرا
فحسـبك نبلًا في السِّـيادة أن ترى نديمك في الكاسـات كِسـرى وقيصـرا
مُدامٌ حَوَتْ معنى السـرور وأفرطـت فمنهـا سـرى فيهـا السـرور وأثَّرا
لـذاك غـدتْ تـزهـو بـوجـهٍ مـخـلـقٍ وجـلَّـلـهـا ثـوب الـنـعـيـم مـزعـفـرا
إذا ضـرَّجتْها الريحُ تحـت حبـابهـا تخـال لهـا في الكـأس سـيفًا مجوهرا
وبـرهـانـه ذبـح الـهـمـوم ألا تـرى عـلـى جـانـبـيـهـا ذلـك الـدم أحـمـرا

وقال الأديب الفاضل الكامل فخر الترك أيدمر المحيوي من قصيدة مطولة تقدمت أوائلها في باب الروضات والبساتين:

وسُــــلافــة بــاكَــرْتُــهــا فــي فِــتــيــةٍ مِــن مــثــلــهــا خُــلُــقٌ لــهــم وتَــخَــلُّــقُ
شــــربَــتْ كثــافَتَهــا الــدهورُ فمــا تُرَى فــي الــكــأسِ إلَّــا جــذوةٌ تــتــألَّــقُ
يَســــعى بهــا ســـــاقٍ يَهيجُ بــه الهَوَى ويُري ســــبيلَ العشـــق مَن لا يَعشـــق
تتنــادم الألحــاظ منــه على ســـنــا خــدٍّ تــكــاد الــعــينُ فــيــه تــغــرق
راقَ العُيونَ غَضــــاضـــةً وغَضــــارةً فــهــوَ الــجــديــدُ وَرقَّ فــهــو مــعــتَّق
ورَنَــا كمــا لمع الحُســـــامُ المنتضـــى ومشـــى كمــا اهتزَّ القضـــيــبُ المُورِق
وأظــلــنــا مــن فــرعــه وجــبــيــنــه لــيــلٌ تــألَّــقَ فــيــه صــــبــحٌ مُشـــرق
وكــأنَّ مــقــلــتــه تُــردِّد طــرفــه لــيــقــولــهــا لــكــنــه لا يــنــطــق
وإذا الــعــيــون تــجــمَّــعــتْ فــي وجــهــه فــاعــلــمْ بــأنَّ قــلــوبــنــا تــتــفــرَّق

وقال الشيخ الفاضل الكامل كمال الدين علي بن النبيه:

طــاب الصـــَّبوح لنــا فــهــاك وهــاتِ واشــــربْ هــنــيــئًــا يــا أخــا اللَّــذاتِ
كمْ ذا الــتــوانــي والشـــبــابُ مطــاوعٌ والــدهــر ســــَمْــحٌ والــحــبــيــبُ مُــواتِ
قم واصــطبح من شــمس كأســك واغتبقْ بــكــواكــبٍ طــلــعــت مــن الــكــاســــات
صـــــفــراءَ صـــــافــيــةٍ تــوقَّــد بــردهــا فــعــجــبــتُ لــلــنــيــرانِ فــي الــجــنَّــات
ينســــلُّ من قــار الظروف حبــابُهــا والــدرُّ مــجــتــلــب مــن الــظُّــلــمــات
وتــريــك خــيــط الصـــبــح مــفــتــولًــا إذا صُـــبَّــت من الرَّوواق في الطــاســــات
عــذراء واقــعــهــا المِــزاج أمــا تــرى مــنــديــلَ عــذرتــهــا بــكــفِّ ســـُقــاة
يســـعى بــهــا عَبْــلُ الــروادفِ أهــيــفٌ خَنِــثُ الشـــمــائــل شـــــاطرُ الحركــات
يــهــوي فــتســـبــقــه ذوائــب شـــعــره مــلــتــفَّــةً كــأســــاوِدِ الــحــيــات
يــدري مــنــازلَ نــيِّــراتِ كــؤوســـه مــا بــيــن مــنصـــرفٍ وآخــر آتِ

وقال الأديب الفاضل الأوحد أمين الدين جوبان القواس:

إذا افترَّ جُنحُ الليـل عن مَبســـمِ الفجر ولاح بــه ثــغــرٌ مــن الأنــجــمِ الــزُّهــرِ

وفـاحـت لنـا من عـابق الروض نكهـةٌ ... رشـــفنا بـه بردَ الرضـــاب من الخمر
وعهـدي بوجـه الأرض مبتســمًـا فلم ... تغرغَر منهـا الـدَّمعُ في مُقَـل العُـذْر
إذا أرجـف المـاءَ الـنســـيمُ لـوقـتـه ... كسـاه شـعاعُ الشـمسِ دِرْعًا من التِّبْر
وبحرُ الرِّيـاض الخُضْـــر بـالزُّهر مُزْبِـدٌ ... كـأنَّمـا فـي فُلْـك منـزلـنـا نســـري
ومن شُـــهبِ الكاســاتِ بالنَّجم نهتدي ... إذا تاه ســاري العقل في لُجَّة السُّـكر
نصـــون الحُمَيَّـا بـالقنـانـي وإنَّمـا ... نصـــون القنـاني بـالحميَّا ومـا نـدري
ولمـا حكى الرَّاووقُ في العين شـــكلَه ... وقـد عُلِّق العنقود في ســـالِف الـدهر
تـذكَّـر عــهـدًا بـالـكـروم فـكـلــه ... عيون على أيَّـام عهـد الصِّـــبـا تجري
عـجـبـتُ لـه والـرَّاحُ تـبـكـي بـه فـلـم ... غـدت بحبـاب الكـأس بـاســـمـة الثغر
إذا مـا أتـاني كـأســـهـا غير مُترَعٍ ... تحققتُ عين الشـــمس في هـالـة البدر
تنـاولتُهـا من مخطَف الخصـــرِ أهيف ... فللـهِ ذاك الأهيف المُخْطَفُ الخصــــر
يـنـادمـنـا نـظـمًـا ونـثـرًا ولـفـظـه ... ومبســـِمُـه يغني عن النظم والنثر
فلم يســقني كـأسَ المـدامـة دونَ أن ... ســـقـاني بعينيه كؤوســًـا من الخمر
رنـا جؤذرًا ثم انثنى غصـــن بـانـة ... وعـــين مـــهًـا لمـا تـبســـَّم عـن در
وقـال وفَرطُ الســُّكر يثني لســـانـه ... إلى غير ما يُرضـــي التُّقى وهو لا يدري
رِدُوا من رضـــابي مـا يعيض عن الطلا ... إذا كـان وجهي فيـه مغنٍ عن الزهر
ومـن كـان لا تـحـوي ذراعـاه مِـئـزري ... فـدون الـذي تحوي أنـاملـه خصـــري

وقال الشيخ الإمام الفاضل البارع صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي رحمه الله:

أذاب الـتِّـبـر فـي كـأس الـلُّـجَـين ... رشـــًا بـالـراح مخضـــوبَ اليـديـنِ
وطـافَ على الصـِّحـاب بكـأس راح ... فـطـافـت مـقـلـتـاه بـآخـرَيـن
رخـيـمٌ مـن بـنـي الأتـراكِ طـفـلٌ ... يـجـاذبُ خصــــرُه جَـبَـلَـيْ حُـنَـين
يُبــدِّل نُـطـقَـهُ ضـــادًا بـدالٍ ... ويشـــرك عُـجـمـةً قـافًـا بـغَـيْن

إذا يَجلو الحُمَيَّا والمُحَيَّا شَهِدنا الجَمْعَ بينَ النَّيِّرَيْن

يَطوف على الرفاق من الحُميًّا ومن خَمْر الرِّضاب بمُسْكِرَيْن

وآخرُ من بني الأعراب حُفَّتْ جيوشُ الحسنِ منه بعارضَيْن

إلى عينيه تنتسب المنايا كما انتسب الرِّماحُ إلى رُدَيْن

تُلاحظ سوسنَ الخدين منه فيُبدِلُها الحياءُ بوردتين

ومجلسنا الأنيق تُضيءُ فيه أواني الراحِ من وَرِقٍ وعين

فأطلقنا فمَ الإبريقِ فيه وبات الزِّقُّ مغلولَ اليدين

وشمعتنا شبيهُ سِنانِ تِبْرٍ تَرَكَّبَ في قَناةٍ من لجين

وقهوتنا شبيه شُواظِ نارٍ توقَّد في أكفِّ الساقيَين

إذا مُلِئ الزجاج بها وطارت حواشي نورها في المشرقين

عجبت لبدرِ كأسٍ صارَ شمسًا يحفُّ من السقاة بكوكبَين

وله:

بدت لنا الراح في تاجٍ من الحَبَب فحرَّقت حُلَّة الظَّلماء باللَّهبِ

بِكرٌ إذا زُوِّجت بالماء أوَلَدها أطفالَ دُرٍّ على مهدٍ من الذهب

بَعيدةُ العهد بالمِعْصار لو نَطقتْ لحدَّثْتنا بما في سالف الحِقَب

باكرتُها برفاقٍ قد زَهَتْ بهمُ قبلَ السُّلاف سلاف العلم والأدب

بكلِّ مُتَّشحٍ بالفضل مُؤتزرٍ كأنَّ في لفظه ضربٌ من الضَّرَب

بل رُبَّ ليلٍ غُدافِيِّ الإهابِ غدتْ تُضيء فيه كؤوس الراح كالشهب

بذلتُ عقلي صَداقًا حين بتُّ به أزوِّجُ ابنَ سحابٍ بابنة العنب

بِتْنا بكاساتها صَرعَى ومطربنا يعيد أرواحنا من مبدأ الطرب

بعثٌ أتانا فلمْ نعلمْ لفرحتنا من نفخة الصور أم من نفخة القصب

بروضةٍ ظلَّ فيها الطلُّ أدمُعَه والزهرُ مبتسمٌ عن ثغره الشنب

بكـتْ عليـه أسـاكيـبُ الحَيـا فغَـدا … جـذلانَ يـرفـلُ فـي أثوابـهِ القشـب
بُسـطٌ من الروض قد حـاكت مطارفها … يـدُ الربيع وجـارَتْـهـا يـدُ السُّحُب

وقال الوأواء الدمشقي رحمه الله تعالى:

أسـقيـانـي ذبيحـةَ المـاء فـي الكـأ … س وكُفَّـا عن شُـربِ مـا تسـقيـانـي
إنَّـنـي قـد أمِـنـتُ بـالأمـس إذ مـتْـ … ـتُ بـهـا أن أموت بُكـرةً ثـانـي
قـهـوةً تـطـردُ الـهـمـوم إذا مـا … سـكـنَـتْ فـي مـواطـن الأحـزان
نـثـرَتْ راحـةُ المِـزاج عـلـيـهـا … حَـدَقًـا مـا تـدور فـي أجـفـان
فَهْـيَ تـجـري مـن اللطـافـة فـي الأر … واح مـجـرى الأرواح فـي الأبـدان
تـتـهـادى بـكـأسـهـا مَـن هـدايـا … ه ظـنـي مـن ظـرائـف الأشـجـان
أيُّـهـا الـرائـح الـذي راحـتـا … ه بخضـاب الكؤوس مخضـوبتـان
عُجْ بضـحكِ الأقداح في رَهَج القصـ … ـف إذا مـا بكَـتْ عليهـا القنـاني
واسـقِني القـهوة التـي تُنْبِـت الور … دَ إذا شـئـتَ فـي خـدود الـغـوانـي
لا تُـدَغْـدِغْ صـدرَ المُـدام بـأيـدي المز … ج مـا دُغـدغَـتْ صـدورُ المـثـانـي

وقال أبو الفتوح بن قلاقس رحمه الله:

كم مقلـةٍ للشـقيق الغَضِّ رمـداء … إنسـانهـا سـابحٌ في بحر أنـداءِ
وكـم ثـغـور أقـاحٍ فـي مَـراشِـفـهـا … رضـابُ طـائـفـةٍ بـالـرِّيِّ وطُـفـاء
فـمـا اعـتـذارك مـن عـذْراءَ جـامـحـةٍ … لانَـتْ كـمـا لامسَـتْـهـا راحـةُ المـاء
نُضَّـتْ عليها حُسـام المزج فامتنعَتْ … بـلامـةٍ لـلـحـبـاب الـجـمِّ حصـداء
أمـا ترى الصـبحَ يخفى في دُجُنَّتِه … كـأنـمـا هـو سـَقْطٌ بـين أحشـاء
والطيرُ في عَـذَبـات الـدَّوْح سـاجعـةٌ … تـطـابـق اللَّـحـن بـين الـعـود والـنـاءِ
فَحَيِّ بـالكـأس كِسـرى تُحْيِ رِمَّتـه … بروح راحٍ سـرت في جسـم سـرَّاء
وعُـذْ بـمُـعْـجِـز آيـاتِ المُـدامـة مِن … نـوافـثِ السِّحْر في أجفـانِ حَوراء

فما الفصاحةُ إلَّا ما تكرِّره مَبازل الدَّنِّ من تَرجيع فأفاء
فاعكفْ على خَلَس اللذاتِ مُغتَنمًا فالدهر في حربه تلوين حرباء

قيل: إنه أتيَ عبد الملك بن مروان بسكران فقال له: ماذا شربت؟ فقال:

معتَّقةً كانت قريش تَعافها فلمَّا استحلُّوا قتلَ عثمانَ حَلَّتِ

فقال: مع من؟ فقال:

سقوني مع الشِّعرى بكأس رويَّة وأخرى من الجوزاء لما استقلَّتِ

قال: فما غنيت؟ فقال:

سَقَوني وقالوا: لا تغنِّ ولو سَقَوا جبالَ حُنَينٍ ما سَقَوني لغنَّتِ

فعفا عنه وأطلق سبيله.

ومن كلام الشيخ برهان الدين القيراطي: يومٌ أنيق، وغيم رقيق، وروض إذا سلسل ماؤه المطلق تهلل وجهه الطليق، فإذا دعا الندامى فيه بالصبوح جاءت قينة في يمينها إبريق، وإذا نحرت السقاة فيه دماء الزقاق صارت أيامهم كلها أيام تشريق، وإذا خاط من الشرب ثياب سروره غار من أرَجِهِ المسك الفتيق.

قلت: قوله: أيام التشريق، مأخوذ من قول أبي الحسن الجزَّار يفتخر:

إني لمِن معشرٍ سفكُ الدماءِ لهم دأبٌ وسلْ عنهم إن رُمْتَ تصديقي
تُضيء بالدم إشراقًا عِراصهمُ فكلُّ أيامهم أيامُ تشريقِ

وقال برهان الدين القيراطي أيضًا:

زوِّج الماء براحك وأجلها بين مِلاحك
لا تعطِّل يوم لهوٍ من صبوح في صباحك
وإذا خفتَ افتضاحًا كل عيش في افتضاحك
أوْ ترى فيها جناحًا قمْ ودعني من جناحك

وصِـــلِ الـــيـوم اغـــتـبـــاقًا مــن كــؤوسٍ بــاصــــطـبـاحـك
صــــاح هـــذا وقـــت راحـــي واقـــتـــراحـــي واقـــتـــراحـــك
فـــاطَّـــرِحْ مـــن لام جـــهـــلًا فـــي اطِّـــراحـــي واطِّـــراحـــك

وقال شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة: هذه الأبيات تحبِّب في الحَبَب، وتقلب إكسير راحها لجين الزجاج إلى الذهب، قد امتزجت بالقلوب امتزاج الماء بالراح، ولم يفتح بمثلها على صاحب مفتاح الأفراح، كم رقصت على سماعها الأحبة، ونقط الحبيب قيراطها بدينار وحبة.

وقال الشيخ بدر الدين البَشْتَكي أبقاه الله تعالى: أقول والله كلما نظرت إلى هذه الأبيات، والكلمات الحجليات: أكاد أسكر بلا راح، وأطير من الأدب بلا جناح.

هذه عبارة الشيخ بدر الدين ومن خطه نقلت الجميع.

قلت: ولو قال بدل وأطير من الأدب بلا جناح: وأطير من الفرح، لكان أحسن فتأمَّلْه.

وأنشدني من لفظه لنفسه سيدنا القاضي المفنن البارع صدر الدين علي بن سيدنا ومولانا القاضي أمين الدين بن الأدمي، سلمه الله تعالى، ونقلتها من خطه:

ســـبـح الـقـمـري فـي الـدَّوح وغـرَّد فحســـبنـا أن في الروضـــة معبـد
والـنـدى فـاض عـلـى زهـر الـرُّبـى فســـرَتْ بين الـندامى نفحـة النـد
إنَّـــمـــا الـــزهـــر ثـــغـــور فـــتـــحـــت بـاســـمـاتٌ لجميـل الوجـه تحمـد
فـاســـقـنـي الـقـهـوة حـتـى أنـثـنـي مـثـل غصـــن الـبـان لما يـتـأوَّد
مــن يــدَيْ ظــبــيٍ غــريــرٍ أهــيــف مُخطَف الخصـــرِ رقيقٍ مـائس القَد
كـامـلِ الأوصـــاف لـكـن ثـغـره ولَمـــا رِيـــقَتِهِ حـــلـــوٌ مـــبـــرَّد
جـامـعِ الحســـن لوصـــلـيَ مـانـعٌ طرفـه الـهـنـدي قـد بـالـغ في الحـد
ضـــيِّـق الـعـين إذا مـا ســـُمْـتَه قـبـلـةً ســـَلَّ مـن الـلَّـحـظ مـهـنَّد
وحـــمـــى فـــاهُ بـــلـــحـــظٍ فـــاتـــرٍ فـهـو تـركـيٌّ عـلـى الـثـغـر مـجـرَّد
يـا لـه مـن عُـجْـب فـي لـحـظـه ســـَكِر العشـــاقُ منـه وهو عربـد
لَيَّـنـت أعـطـافـه الـخـمـرة لـي فـأعـادت أَســـَد الـحـلـبـة أغـيـد

بنت كرمٍ عتَّقوها زمنًا ... طال حتى إنه لم يحصَ بالعَد
تسلُبُ العقلَ من الرأس كما ... سلبت قدمًا من الكرمة باليد
قل لساقينا إذا طاف بها ... سَحَرًا بين الندامى يتردد:
أترعِ الكأس وأسرعْ واغتنم ... جَمْعَ شملي واخشَ أن يتبدَّد
ما ترى الأنجم كانت زُمَرًا ... لم يدعْ ذا الصبح منها غير فرقد
فهي مثلي حين غابتْ سادتي ... عن عِياني بعد جمع صرتُ مُفرَد

قلت: وإذ ذكرنا مدحها أيضًا وأوسعنا المجال في ذلك فلا بأس بإيراد نبذة من ذمها في الحديث المرفوع: «جُمِعَ الشرُّ كلُّه في بيتٍ وجُعِلَ مفتاحُه الخمر».

وفي كتاب المبهج: الخمر مصباح السرور، ولكنه مفتاح الشرور.

وقيل لبعضهم: تركت النبيذ وهو رسول السرور إلى القلب؟! فقال: نعم، ولكنه بئس الرسول! يُبعَثُ إلى القلب فيَذهبُ إلى الرأس.

وكان العباس بن عليٍّ، عم المنصور، يأخذ الكأس بيده يقول لها: أما المال فتُتلفين، وأما المروءة فتخلقين، وأما الدِّين فتفسدين. فيسكر ساعة ثم يقول: أما النَّفَس فتسخنين، وأما القلب فتشجعين، وأما الهم فتطردين، أفتراك متى تفلتين؟ ويشربها.

قيل لأعرابي: لم لا تشرب النبيذ؟ قال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقيل لبعضهم: لم لا تشرب؟ فقال: عقلي لا أقدر على جمعه، فكيف أفرقه؟!

وما أظرف من قال شعرًا:

تقول أثوابي لَمَّا رأت ... شيبي وتكعيبي على صدري:
بالله يا شيخ أما تستحي ... إلى متى تصبغني خَمْرِي

وقال آخر:

قد هجرتُ الراح حتى ... ليس لي فيها نصيبُ
وعلى الراووق مني ... طولَ ما عشتُ صليب

وقيل: مهر الخمر العقل والدِّين والدرهم.

سئل بعض الشيوخ عن الخمر فقال: نقصانُ مالٍ وعقلٍ، وزيادة بولٍ وجنون.

وإذا ذكرنا الخمر ومنافعها ومضارها ومدحها وذمها، فلا بأس بإيراد نبذة من المفرحات المركَّبة، نقلتها من كتاب مُفرِح النفس، تأليف الحكيم الفاضل الرئيس بدر الدين مظفر ابن القاضي مجد الدين عبد الرحمن قاضي بعلبكَّ، ولي رياسة الطب بدمشق، وتوفي سنة سبعين وستمائة بدمشق:

صفة مفرح حار للملوك والكبراء: كان الخلفاء المتقدمون الأوائل من بني العباس وغيرهم يستعملونه، وله منافع كثيرة يطول شرحها، والحاصل أنه يُبرِئ جميع الأمراض السوداويَّة عاجلًا، ويفرح تفريحًا مفرطًا حَسَنًا: خولنجان، وزراوند مدحرج، وسنبل، وسلنجة، وجعدة، وزنجبيل، وقاقلَّة كبار وصغار، ودارصيني الصين، وقرنفل، وزرنب، وزرنباد، من كل واحد ثلاثة دراهم، تفاح الإذخر، وغاريقون، وأفتيمون، وحاشا، وتربذ، وقسط حلو وساذج، وبسبايج محكوك، وحمامًا من كل واحد خمسة دراهم، ورق ذهب، وياقوت أحمر رماني، وزمرد من كل واحد مثقال، وزعفران مثقالان، يدق الجميع وينخل، ويعجن بعسل ماذي، ويوضع في إناء من صيني أو فضة، ويرفع ويستعمل، الشربة منه مثقالان بشراب تفاح شامي، وماء لسان ثور، نافعة إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح حارٍّ للمتوسطين من الناس: سعد خمسة دراهم، زِرَّورد منزوع الأقماع عشرة دراهم، قرنفل، وسنبل الطيب، ومُصْطَكى، وأسارون، وزرنب، وزعفران، من كل واحد درهمان، بسباسة، وقاقلة كبار وصغار، وجوزبوا، من كل واحد درهم، عود ثلاثة، يدق الجميع وينخل، ويعجن بعسل منزوع الرغوة، ويرفع ويستعمل، الشربة وزن مثقال بشراب تفاح حلو، وماء لسان ثور، نافع إن شاء الله تعالى.

مفرح حار للفقراء: وهو شراب الإبريسَم، وله منافع كثيرة منها التفريح المفرط، وقوة الأحشاء وخصوصًا الكبد، وينفع من جميع الأمراض الباردة، ويقوي الإنعاظ: يؤخذ إبريسم خام ينقع في الماء أيامًا عشرة في قدر من حديد، فإن لم يتهيأ من حديد فينقع في الماء الذي يطفأ فيه الحديد دفعات كثيرة، ويغلي غليانًا جيدًا ويصفَّى ويضاف إليه بوزن الماء سكر أو عسل، ويعقد ويرفع، ويطيب بشيء من زعفران، وخولنجان، ومصطكى، ووجٍّ، ويستعمل، نافع إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح بارد للملوك والكبراء: طباشير عشرة دراهم، لسان ثور خمسة دراهم، زرَّورد منزوع الأقماع أربعة دراهم، طين أرمني سبعة دراهم، شير أملج خمسة عشر درهمًا، خشب صندل أبيض وأحمر وأصفر من كل واحد درهمان، زعفران نصف درهم، ورق ذهب جيد وفضة من كل واحد

مثقال، إبريسم محرق على ما وصفنا درهم، يُدَقُّ الجميع ناعمًا وينخل، ويعجن بجُلَّاب قد عُقِد من عسل وسكر، بماء الورد، وماء التفاح، وماء السفرجل، وماء الرمان، ويحرَّك ويرفع، الشربة ثلاثة دراهم، بشراب الحماض وتفاح شامي، وماء لسان ثور، وماء ورد، وماء خلاف، نافع إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح بارد للمتوسطين من الناس: يؤخذ إهليلج كابلي وأملج من كل واحد خمسة دراهم، وزرورد منزوع الأقماع، وخشب صندل أبيض وأصفر وأحمر من كل واحد ثلاثة دراهم، ورق فضة مثقالان، ولؤلؤ كبار نقي البياض غير مثقوب مثقال، يُدقُّ الجميع وينخل، ويعجن بعسل الإهليلج الكابلي، الشربة مثقالان بشراب الحماض، وتفاح شامي، بماء ورد، وماء خلاف، نافع إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح معتدل للمتوسطين من الناس: بهمنين أحمر وأبيض من كل واحد خمسة دراهم، عسل إهليلج كابلي منزوع الرغوة عشرون درهمًا، شاهترج ولسان ثور وأترنجان من كل واحد عشرة دراهم، طباشير وكسفرة يابسة وطين مختوم من كل واحد ثلاثة دراهم، إبريسم خام محرق على ما وصفنا، قشر الفستق الخارج من كل واحد درهمان، بسد ولؤلؤ كبار غير مثقوب وكهربا من كل واحد درهم، عود هندي خام مثقال، يدق الجميع ناعمًا وينخل، ويعجن بجُلَّاب قد عقد من سكَّر وعسل، ويرفع في إناءٍ من صينيٍّ أو فضة، الشربة مثقالان بشراب حماض، وتفاح شامي، وماء لسان الثور، وماء ورد، وماء خلاف، وماء نيلوفر، نافع إن شاء الله تعالى.

نادرة: دخل رجل على بعض أصحابه يعوده من مرضٍ بالقلب، وكان له غلام يدعى ياقوت شديد الافتتان به، وكان يهتم به فقال له: حاشاك — يا سيدي — تشكو وجع القلب وعندك المفرح الياقوتي.

الباب التاسع عشر

في الصاحب والنديم

قال النبي ﷺ: «أكثروا من الإخوان فإن ربكم حييٌّ كريمٌ يستحي أن يعذِّب عبده بين إخوانه».

وقال علي رضي الله عنه: أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيَّع ما ظفر به منهم.

وقال عمر رضي الله عنه: ثلاثٌ يثبتن لك الود في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وأن توسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه.

وقال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال.

وقال رجل لابن المقفَّع: أنا بالصديق آنسُ من الأخ! فقال: صدقت، الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب الجسم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما الدخان على النار بأدلَّ من الصاحب على الصاحب.

وقال أعرابي: المودة بين السلف ميراث بين الخلف.

وقال أعرابي: دعْ مصارعةَ أخيك وإن حثا التراب في فيك.

اعتذر رجلٌ إلى صاحبٍ من تعذُّر اللقاء فقال: أنت في أوسع عذر عند ثقتي، وفي أضيق عذر عند شوقي.

المأمون: الإخوان على ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء لا يُحتاج إليه إلا في الأحايين، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبدًا.

وقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأحبِّكم إلى الله وأقربكم مني مجالسًا يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقًا، الموطَّؤون أكنافًا، الذين يَألفون ويُؤلَفون».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الغريب من ليس له حبيب. وقال أيضًا: لا تضيِّعنَّ حقَّ أخيك اتِّكالًا على ما بينك وبينه، فإنه ليس بأخٍ من ضيعت حقَّه.

وقال علقمة بن لبيد العطاردي لابنه: إذا نازعتك نفسُك صحبةَ الرجال فاصحب مَن إذا صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن نزلت بك مُؤنةٌ مانك. اصحب مَن إذا مددت يدك بفضلٍ مدَّها، وإن بدت بك ثُلمة سدَّها، وإن رأى منك حسنةً عدَّها. اصحب من يتناسى معروفه عندك، ويتذكر حقوقك عليه.

قال لأبي داود السجستاني صاحبٌ له: أستمدُّ من مَحبرتك؟ قال: لا. فانخزل الرجل حياءً فقال: أعلمتَ أنه مَن شَرَعَ في مال أخيه بالاستئذان فقد استوجب بالحشمة الحِرمان؟

قَرَعَ بابَ بعضِ السلفِ صديقٌ له بالليل: فنهض إليه وبيده كِيسٌ وسيف وهو يسوق جارية له، ففتح الباب وقال: قسمتُ أمرك بين نائبةٍ فهذا المال، وعدوٍّ فهذا السيف، وأيمةٍ فهذه الجارية.

كان علي بن الجهم يمدح أبا تمام ويطنب فيه، فقيل له: لو كان أخاك ما زدته على هذا المدح! فقال: إن لم يكن أخًا بالنسَب فإنه أخٌ بالأدب.

مر بخالد بن صفوان رجلان فعرج إليه أحدهما وطواه الآخر، فقال: عرج علينا هذا لفضله، وطوانا ذاك لثقته.

الأعمش: أدركت أقوامًا لا يلقى الرجل أخاه الشهرَ والشهرين، فإذا لقيه لم يزده على: كيف أنت؟ و: كيف حالك؟ ولو سأله شطرَ ماله أعطاه. ثم أدركت آخرين إذا لم يلقَ الرجل منهم أخاه يومًا سأله حتى عن الدجاجة في البيت، ولو سأله حبةً من ماله منعه.

وأحسنَ مَن قال: من رضي بصحبةِ مَن لا خيرَ فيه لم يرضَ بصحبة من فيه خير.

وكان يُقال: إن الكَيِّس الذي لا يملُّ مناجاة الصديق.

الهند: من كتمَ السلطان نُصحَه، والأطباءَ عِلَّتَه، والإخوانَ بثَّه، فقد خان نفسه.

وكان الخليل إبراهيم — صلوات الله عليه — إذا ذكر زلَّته غشي عليه، وسُمِعَ اضطرابه من ميل، فقال له جبريل: يا خليل الله! الجليل يُقرؤك السلام ويقول: هل رأيت خليلًا يخاف خليله؟ قال: يا جبريل! كلما ذكرت الزَّلَّة نسيت الخُلَّة.

قال العُتبي: لقاءُ الإخوان نزهة القلوب.

قال سليمان بن وهب: غزل المودة أرق من غزل الصبابة، والنفس بالصديق آنس منها بالعشيق.

وقال يونس النحوي: يُستحسن الصبرُ عن كل واحد إلا عن الصديق.

وقال ابن المعتز: إذا قُدِّمت المودة شبهت بالقرابة.

وقال عمرو بن العاص: من كَثُر إخوانه كثر غرماؤه. يعني في قضاء الحقوق.

عمرو بن مسعدة: العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق.

وكان بعضهم يقول: اللهمَّ احرسني من أصدقائي. فإذا قيل له في ذلك قال: إني أقدر أحترس من أعدائي ولا أقدر أحترس من أصدقائي.

وقال ابن الرومي:

عـدوُّك مـن صـديقـك مسـتـفـادٌ فـلا تَسـتـكـثـرنَّ مِـن الصِّـحـابِ
فـإنَّ الـداءَ أكـثـرُ مـا تـراه يـكـون مـن الـطَّـعـام أو الشـراب

واعلم أنه لا يتناهى في حسدك إلا الأصدقاء والندماء، فإنهم متى رأوك بحالٍ وهم بأنقصَ منه انغرس في قلوبهم حسدك، فلو خوَّلتهم أضعاف نعمتك لم يزالوا يحسدونك حتى تفتقر ويستغنون. والحسد داء الأبد.

رويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحشر المرء على دين خليله، فلينظرْ أحدكم من يخالل».

قال معاوية بن قرة: نظرت في المودة والإخاء فلم أجد أثبت مودةً من ذي أصل.

قال أبو الحسين بن جبير الأندلسي البلنسي:

تـغـيَّـر إخـوانُ هـذا الـزَّمـا ن فـكـلُّ خـلـيـلٍ عَـرَاهُ الـخَـلَل
وكـانـوا قـديـمًـا عـلـى صِـحَّـةٍ فـقـد دَاخَـلَـتْـهُـم حُـروف الـعِـلَل
قضـيـتُ الـتـعـجُّـبَ مِـن أمـرهـم فَصِـرتُ أطـالـعُ بـابَ الـبَـدَل

ولله دَرُّ ناصر الدين بن النقيب:

فـأين الصـديق الصـدوق الـذي مـودَّتـه مـن قـذًى صـافـيـةْ
فمـا لـي صـديق سـوى درهـمي ولا لـي حـبـيـبٌ سـوى الـعـافـيـةْ

وقال أبو العلاء المعرِّيُّ:

جـرَّبـتُ دهـرِي وأهْـلَـيْـهِ فـمـا تـركـتْ لـيَ التجـارِبُ في ودِّ امرئٍ غَرَضـا

وقال القاضي ناصح الدين الأرجاني، والثاني يُقرأ معكوسًا وهو غاية:

أحبُّ المرءَ ظاهرُه جميلٌ لصاحبه وباطنه سليمُ
مودَّتُه تدومُ لكلِّ هَوْلٍ وهلْ كلٌّ مودتُهُ تدومُ

وقال صلاح الدين الصفدي:

عَذيري في الليالي من صديقٍ على مالي وعِرضي قد تسلَّط
تأوَّل إذ تأخَّر عنه خيري فهل ألقاه يومًا قد توسَّط

وقال الشريف العقيلي وأجاد:

ألَذُّ مودَّاتِ الرجالِ مذاقةً مَودَّةُ مَن إنْ ضيَّق الدهرُ وسَّعا
فلا يلبسِ الودَّ الذي هو ساذجٌ إذ لم يكن بالمَكْرُماتِ مرصَّعا

وقال مُخارق: أنشدت المأمون قول أبي العتاهية:

وإنِّي لمحتاجٌ إلى ظلِّ صاحبٍ يروقُ ويصفو إنْ كَدُرْتُ عليه

فقال لي: أعدْ! فأعدت سبع مرات فقال لي: يا مخارق! خذ مني الخلافة وأعطني هذا الصاحب.

ولله در أبي العتاهية ما أحسن ما قال.

وأحسنَ من قال:

بِروحي مَن صاحَبْتُه فوجدْتُه أرقَّ مِن الشَّكوى وأصفى من الدَّمْعِ
يُوافقني في الهَزْلِ والجدِّ طائعًا فينظرُ من عيني ويسمع من سمعي

وقال الجاحظ: كان أبو دؤاد إذ رأى صديقه مع عدوه قلى صديقه.

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق: قال ابن عائشة: قال هشام بن عبد الملك: ما بقي عليَّ شيء من لذات الدنيا إلا وقد نلته، وما أشتهي إلا شيئًا واحدًا: أخًا أرفع مؤنة التحفظ بيني وبينه.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: صُحبة العاقل في المفاوز والأسفار خير من صحبة الجاهل بين الرياض والأزهار.

ولله در القاضي الفاضل: وما برح الإخوان إخوان الزمان، فإذا أحسن كانوا من التابعين له بإحسان، وإذا أساء كانوا من المهاجرين، لا من الهجرة ولكن من الهِجران.

وقال جعفر بن محمد لولده: يا بنيَّ، من غضب عليك من إخوانك ثلاثَ مرات ولم يقل فيك سوءًا فاتخذه خليلًا.

ويجب على الصديق إذا رأى صديقه مُعسرًا وهو موسرٌ أن يواسيه ببعض ماله، فقد حُكيَ عن بعض الحكماء أنه رأى رجلين لا يفترقان، فسأل عنهما، فقيل: هما صديقان. فقال: ما هما بصديقين، لأني أرى أحدهما موسرًا والآخر معسرًا، ولو كانا صديقين لتواسيا.

وقال المأمون لندمائه: أفيكم من يَقدِرُ يُدخِلُ يده في كُمِّ صديقه فيأخذ منه نفقةَ يومه؟ فقالوا: لا. فقال: ما أنتم بأصدقاء.

والصديق الصِّدِّيق معدوم، وأما من تصادقه مجازًا فيمثل بقول القائل:

ارضَ من المرء في مودَّتِهِ ... بما يؤدِّي إليك ظاهره

مَن يكشفِ الناسَ لم يجد أحدًا ... تصحُّ منهم له سَرائره

الهند: إياك والاغترارَ بمصادقة العدو، فإنها ما أوجبها إلا أمر وعلة، فمع ذهاب العلة رجوع العداوة، كالماء يسخن فإذا رُفِعَ عن النار عادَ باردًا، وصفة الصديق أن يعادي من تعاديه، ويهوى من تهوى.

وقال بعض الحكماء: صديق عدوِّي عدوِّي.

وقال الشاعر:

تودُّ عدوِّي ثم تزعُمُ أنَّني ... صديقك إنْ الرأيَ منك لعازبُ

إذا نحنُ أظهرْنَا لقومٍ عداوةً ... ولانَ لهم منكم جَناحٌ وجانب

فلا أنتم منَّا ولا نحن منكمُ ... إذا أنتم سالمتم من نُحارب

وليس أخي مَن ودَّني رأيَ عينه ... ولكن أخي مَن ودَّني وَهْوَ غائب

واعلم أن الخصال المحمودة والكمال لا يوجدان في شخص أبدًا، ولا بدَّ من عيب يشوبه، فإن اخترت صديقًا ورضيته، وكاشفته فبدت منه هفوة أو زلة فاغفرها، فالسيف ينبو والجواد يكبو. وإذا صفا

الصديق فلا تنافيه في دينه ولا مذهبه، فإن ذاك يوجب القطيعة والعداوة، واجرِ معه في هواه من دينه إذا جرى هو في هواك من صداقتك.

قال أبو العلاء المعري رحمه الله تعالى:

إذا ما الخِلُّ أصفى لي وِدادًا فسُقيًا في الحياة له ورَعيا
لِيَقرأْ إنْ أرادَ كتابَ موسى ويقرأْ إنْ أراد كتاب شِعْيَا

وأصلحُ ما صادقتَ حكيمًا أو أديبًا عاقلًا عالمًا، فإن عداوةَ هذا خيرٌ من صداقة الجاهل.

وقال بعض الحكماء: الجاهل عدو نفسه، فكيف يكون صديق غيره؟

ما يبلغ الأعداءُ مِن جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ مِن نفسه

ومتى تغير الصديق عليك فاستنبط ذلك بقريحة حسن منك كما قال الشاعر:

وإذا استعجمتَ مودَّةَ خِلٍّ فاعتبرها مِن أعينِ الغلمان
إنَّ عينَ الغلام تُنْبِيكَ عمَّا في ضمير المولى من الكِتمان

القول على النديم

النديم فَعِيلٌ، بمعنى مُفاعل مُنادم، والندمان أكثر منادمة وملازمة من النديم، لأن زيادة اللفظ توجب زيادة المعنى، ويقال: رجل رحيم. ولا يقال: رحمان. لأنه ثناء المبالغة، وفي الدعاء: يا رحمنَ الدنيا، ورحيم الآخرة! لأن رحمته في الدنيا عمَّت الكافر والمؤمن، والفاسق والناسك، ففي الآخرة يخص برحمته المؤمنين والمسلمين دونهم. واشتقاق اسم النديم من الندامة، كأنه يندم على مفارقته لوجود الراحة به والأنس إليه.

وينبغي له أن يكون حَسَنَ المبرَّة، نبيلَ الهمَّة، مستوي الذيول وأطراف الأكمام، نظيف المخفي من الملبس، كالقلنسوة والسراويل والتكة والجورب ومنديل الكم، فإذا كملت فيه هذه الخصال كان محبوبًا إلى القلوب، سَهْلًا على الأرواح؛ وإذا لم يكمل كان بالضد ومستَثْقَلًا، مَعيبًا في العيون، بغيضًا إلى القلوب، كما قيل في أبي يعلى الكاتب القرشي:

نعمة الله لا تُعاب ولكن ربَّما اسْتُثْقِلَتْ على أقوامِ

لا يَليق الغناء بوجهِ أبي يَعلى ولا نورُ بهجةِ الإسلام
دنَّس الثوبَ والعِمامة والبِرْ ذَوْنَ والنعل والقفا والغلام

وينبغي له إذا جلس للشراب مع الملك أن يجلس في المرتبة التي لا يتجاوزها إلى ما هو أعلى منها عنده، ولا يحطَّ نفسه عنها، ولا يكثر الاتكاء بين يديه. وليكن منتصبَ الجلوس، خفيف الوطأة، إن قام قام لقيامه. وليحذر التبسط والتمدد، والتمطي والتثاؤب، والتنخع والبصاق، وتفريك اليدين وفرقعة الأصابع، واللعب بالخاتم والعبث باللحية والعمامة، ولا يكون من شأنه التعزية والتهنئة، ولا التشميت عند العطسة، ولا الإسراع بالتحية، ولا العبث بالفاكهة والرياحين والأزهار، ولا التناول للشمامات، ولا الإكثار من التنقل بعد الشراب، ولا يرمي ما يعطيه، ولا يتفل ما يمتصه بحيث يُرى، ولا يَعُضَّ الفاكهة نهشًا، بل يقطع منها حاجته بالسكين قطعًا، ولا يكثر شمَّ الريحان، ولا إدارة اليد فيه، ولا يقطع رؤوسه، ولا ينفضه عند أخذه، ولا يفركه، ولا يلفظه بعد مضغه، وليكن شربه مصًّا، وكرعه جرعًا، ولا يشرب من الشراب ما لا يطيق فيزول عقله، وليصبَّ لنفسه ما يعلم أنه يقوم به، ولا يرفع القدح قبل الملك، ولا يصب فيه نبيذًا من قبل صبه أو معه، ولا يقترح صوتًا، ولا يظهر الطرب، ولا يوقع على تلحينٍ، ولا يبدأ منه هزل، وإن ناوله الساقي قدحًا أخذه بلا ازدياد ولا نقصان، ولا مماسكة ولا مماراة، فإذا أحسَّ بنفسه سَكِرَ أسرعَ القيام والانصراف وهو يملك نفسه. ولا يلمس كفَّ الغلام عند مناولة كأس، ولا يكثر ملاحظته عند معاطاته الراح، ولا يشير إليه ولا يغمزه.

ويُستحب منه أن يكون مفننًا فيجري مجرى أبان اللاحقي بما وصف نفسه للفضل بن يحيى البرمكي، وذلك أنه ورد إلى بابه ليعرض نفسه وأدبه عليه، فأتى محمد بن زيدان الثقفي فقال له: إنْ رأيت — أصلحك الله — أن تعرض قصتي على الأمير. فقال: وما فيها؟ فقال: أعرض نفسي وأدبي عليه. فقال: عند الأمير مثلك مائة ألف. فأتى منصور بن هشام فقال له: تعرض قصتي على الأمير؟ فقال له منصور: وما فيها؟ فقال: أعرض نفسي وأدبي عليه. قال: فهل لك فيمن دون الأمير ليشاطرك الضِّياع والأموال والرقيق ما خلا الأهل والولد؟ فقال: قد نازعَتْني نفسي إلى شيء لا بد لي من أن أعطيها شهوتها منه. فأخذ قصته فأدخلها إلى الفضل بن يحيى فإذا فيها:

أنا من بُغيةِ الأمير وكنزٌ من كنوز الأمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ أديبٌ خطيب ناصحٌ زائدٌ على النُّصَّاح

شــــاعـرٌ مُـفْـلِـقٌ أخـفُّ مـن الـرِّيـ ـــــــشـــــة لمـا تكون تحـت الجنـاح
لـي فـي الـنـحـو فِـطـنـةٌ ونـفـاذ أنـــا فـــيـــه قـــلادةٌ بـــوشــــــاح
لـو رمـى بـي الأمـيـر أصـــلـحــه الْـلـ ـــــــهُ رمـاحًـا حطمت ســمرَ الرِّمـاح
غـيـرَ مـا عـاجـزٍ ولا مســـتـكـين طـوعَ أمـرِ الأمـيـر آســـي الـجـراح
لســتُ بـالضــخم يـا أميري ولا الفَدْ مِ ولا المُـــدَحْـــدَحِ الـــدِّحـــداح
لِحــيــةٌ بســـطــةٌ ووجــهٌ مــلــيــح واتــقــادٌ كشـــعــلــة المصـــبــاح
وكـثـيـرُ الـحـديـث مِـن مُـلَـحِ الـنَّا سِ بصـــيـرٌ بـخـافـيـاتٍ مِـلاح
كمْ وكم قـد خَـبَـأتُ عـنـدي حـديـثًا هــو عــنــد الأمــيــر كــالــتُّــفَّــاح
فـبـمـثـلـي تـخـلـو المـلـوك وتـلـهـو وتـنـاجـي بـالمُشـــْكِـل الـقـدَّاح
أيـمـنُ الـنـاس طـائـرًا يـومَ صـــيـدٍ فــي غــدوٍ غــدوتُ أو فـــي رَواح
أعـلـمُ الـنـاس بـالـجـوارح والـخـيـ ـــــــل وبـالخرد والحِســـانِ المِلاح
كـلُّ هـذا جـمـعـتُ والـحـمـد لـلـ ـــــــه عـلـى أنـنـي ظـريـف المِـزاح
لســتُ بـالنـاســك المشــمِّر كُمَّيْ ـــــــه ولا الفـاتـك الخليع الوقَّـاح
لــو دعــانــي الأمــيــرُ عــايــنَ مِـنِّي شـــَمَّـرِيًّـا كـالـبُـلْـبُـلِ الصـــيَّـاح

قال: فدعا به. فلما دخل أتى كتابٌ من أرمينية، فرماه إليه وقال له: أجب عنه. فأجاب من ساعته في غرضه، فأمر له بمائة ألف درهم. وكان أولَّ داخلٍ وآخر خارج، وإذا ركب في الموكب فِركابه مع ركاب الفضل.

ومن صفات النديم ألا يكون لَجوجًا ولا حسودًا ولا مماريًا، ولا طمَّاح العين ولا طائش اللُّبِّ، ويكون حمولًا موافقًا لك في عملك ومذهبك ودينك، كتومًا للسر، ويكون أديبًا عاقلًا أو حكيمًا فاضلًا، ليس على طبيعتكما منافرة ولا عرضية، بِشْرٌ إذا حدثته، وبشر إذا حدثك، كلما ازداد سكره ازداد تواضعه لك ومودته وفضله، فالخمر تحرِّك ما تجد من عقل وجهل، وتبرزه في الإنسان من القول إلى الفعل، وهي محكُّ القول.

صافحَ أبو العميثل عبدَ الله بن ظاهر عند قدومه من سفره، فقبل يده فقال عبد الله: خدش شاربُك كفِّي! فقال: شوك القنفذ لا يضر ببرثن الأسد. فتبسم عبد الله وقال: كيف كنت بعدي؟ قال: إليك مشتاقًا، وعلى الزمان عاتبًا، ومن الناس مستوحشًا؛ فأمَّا الشوق إليك فلفضلك، وأما العتب على الزمان فلمنعه منك، وأما الاستيحاش من الناس فإني لا أراهم بعدك. فاحتبسه، فلما حضر الشراب سقاه بيده، فقال:

نادمتُ حُرًّا كأنَّ البدرَ غُرَّتُه   مُعظَّمًا سيِّدًا قد أحرزَ المَهَلا
فَعَلَّني برحيقِ الراحِ راحتُه   فمِتُّ سُكْرًا فشكرًا للذي فعلا

بينا أبو العباس السفاح يحدث أبا بكر الهذلي فعصفت الريح فأذرت طَستًّا من سطحٍ إلى المجلس، فارتاع مَن حضر ولم يتحرك الهذلي، ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح، فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي! فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، وإنما لي قلب واحد، فلما غمره السرور بفائده أميرِ المؤمنين لم يكن فيه لحادثٍ مجال، فلو انقلبت الخضراء على البيضاء ما أحسستُ بها ولا وجمت لها. فقال السفاح: لئن بقيت لأرفعنَّ ضبعًا لا يطوف به السباع ولا ينحط عليه العِقْبان.

ومن الآداب اللطيفة ما يُحكى عن إبراهيم بن المهدي قال: كنت عند الرشيد فأتاه رسولٌ معه أطباق عليها مناديل ورقعة، فأخذ يقرأ الرقعة ويقول: وصَلَهُ الله وبرَّه! فقلت: يا أمير المؤمنين، من هذا الذي أطنبت في شكره لنشركك في جميلِ ذِكره؟ فقال: عبد الملك بن صالح. ثم كشف عن الأطباق فإذا هي فواكه فقلت: يا أمير المؤمنين، ما يستحق هذا الوصف إلا أن يكون في الرقعة ما لا نعلمه. فرمى بها إليَّ فإذا فيها: دخلت يا أمير للمؤمنين إلى بستان لي قد غَمَرْتَهُ بنعمتك، وقد أينعت فواكهه، فحملتها في أطباق قضبان، ووجهت بها إلى أمير المؤمنين ليصل إليَّ من بركة دعائه، مثل ما وصل إليَّ من نوافل برِّه. فقلت: وما في هذا الكلام ما يستحق الدعاء! فقال: أوَما ترى؟ كنَّى بالقضبان عن الخيزران، وهي اسم أمِّنا.

وقال الشعبي: أخطأت عند عبد الملك بن مروان أربعًا هي: حدثني بحديثٍ فاستعدته منه فقال: أما علمت أنه لا يستعاد من أمير المؤمنين؟ وقلت حين أذن لي: أنا الشعبي يا أمير المؤمنين. فقال: ما أدخلناك حتى عرفناك! وكنيت عنده رجلًا فقال: أما إنَّه لا يكنَّى أحدٌ عند أمير المؤمنين. وسألته أن يكتبني حديثًا فقال: إنا نُكتَبُ ولا نَكتُب.

ولما كان مجلس الشراب مؤهلًا للاستكثار من اللذات، والتقلب في المسرات، كان الأَوْلى به أن يجمع من الندماء من فيه من الحذاق بالغناء، ومن يكون حديثه يُطرِبُ سامعيه، ومُلَحه أحسن موقعًا من الأغاني المعجبة في قلوب منادميه، مما وصفه بعض الشعراء فقال:

حديثٌ يَشْرَبُ لَهُ الغواني ... ويَأخذُ كلَّ سَمْعٍ باستماع

فيكون للحديث نوبة ولغناء أخرى.

وحُكيَ عن بشار أنه قال: لا تجعلوا مجالسكم حديثًا كلَّه، ولا غناءً كله، ولا هزلًا كله، ولا جدًّا كله، ولكن تنقَّلوا فإن العيش خلس.

واعلم أن في النديم والخمر لذات شتَّى، فلذة الخمر زوال الهموم والغموم والأفكار، ولذة النديم المحادثة والتسلِّي ودفع الاستيحاش.

وقال الشاعر:

وما بقيتْ من اللذاتِ إلَّا ... محادثةُ الرجالِ ذوي العقولِ
وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا ... فقد صاروا أقلَّ من القليل

وأما أوساط الناس فيجب ألا يَستكثر من الندماء، ويقتصرَ على القليل، فإن الكثير سبب إذهاب المال، ووجود العداوة، وفقدان المسرَّة، وتعب القلب والجسم. ولا يجب أن تصطفيَ نديمًا حتى تغضبه في الصحو، فإن وجدته حمولًا مطاوعًا قَبولًا لما تأمره به يصفيك وداده حاضرًا وغائبًا ومساعدًا لك في الشدائد إذا وقعت فيها، فاعتمد عليه، فقلَّما تجد هذا النديم، وقد قال الشاعر:

إذا كنتَ مختارًا لنفسك صاحبًا ... فمِن قبلِ أن تبدأه بالوُدِّ أغضِبُهْ
فإنْ كان في حالِ التعدِّي راضيًا ... وإلَّا فقد جرَّبْته فتجنَّبُهْ

وقال بعض الظرفاء: شرط المنادمة قلة الخلاف، والمعاملة بالإنصاف، والمسامحة بالشراب، والتغافل عن الجواب، وإدمان الرضى، واطِّراح ما مضى، وإسقاط التحيات، واجتناب ارتفاع الأصوات، وأكل ما حضر، وإحضار ما تيسَّر، وحفظ الغيب، وستر العيب.

ولقد أحسن من قال:

لا خيرَ في الشُّرْبِ إلَّا مع أخي ثقةٍ ... إنْ سُرَّ غنَّى وإن غنَّيْته طَرِبا

يُعطيكَ صمْتًا إذا غنَّيته وإذا ... شربتَ حيًا وإن حيَّيته شرِبا
عفُّ اللسان عفيفِ الفرج تحمده ... في كلِّ حالٍ إذا أثرى وإن تربا
فاشدُدْ يديْكَ عليه إن ظفرتَ به ... وأكثِرْ مودَّته لا تكثر الذَّهبا

كان إبراهيم بن المهدي يقول: لذة العيش في ثلاث: منادمة الأحباب، ومعاقرة الشراب، ومذاكرة الآداب.

ويروى أن أول من جعل لندمائه أمارةً ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد ذلك كسرى، وهو أنه يمدُّ رجله فيعرفون أنه يريد قِيامهم، فينصرفون. وتبعه الملوك، فكان فيروز الأصغر يدلِّك عينيه، وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء، وكان في الإسلام معاوية يقول: العزة لله. وعبد الملك يلقي المروحة من يده.

وحُدِّث بهذا الحديث عند بعض البخلاء وقد سئل ما أمارته فقال: إذا قلتُ: يا غلام، هاتِ الطعام.

والناس يختلفون في الشرب، فمنهم من يرى كثرة الندماء، ومنهم من يرى الانفراد، وممن رأى هذا الرأي جماعة من أهل الأدب قديمًا حديثًا، ولهم فيه أشعار وأخبار، ومنهم من رأى مطالعة الكتب عليها وإعمال الفكرة في تصنيف العلوم والآداب، كما حكيَ عن الشيخ الرئيس ابن سينا أنه قال: كنت أستعين على مصنفات علومي باستعمال اليسير من الخمر المصلوح بالماء. ومنهم الفارابي، ودليل ذلك قوله شعرًا:

لما رأيتُ الزمانَ نَكْسًا ... وليس في العِشرة انتفاع
كلُّ رئيس به مَلالٌ ... وكلُّ رأسٍ به صداع
لزمتُ بيتًا وصُنْتُ نَفْسًا ... لها عن الذلةِ امتناع
أشربُ مما اقتنيتُ راحًا ... لها على راحتي شُعاع
لي من قواريرها نَدامى ... ومن قراقيرها سماع
وأجتني من حديثِ قومٍ ... قد أقفرتْ منهم البقاع

قال بعضهم: رأيت أعرابيًّا جالسًا بالفلاة تحت ظل شجرة ومعه ركوةٌ وهو يشرب قدحًا، ويصب في أصل الشجرة قدحًا، فقلت له: ما هذا؟ فقال: هو نديمٌ لا يعربد عليَّ، يلحفني بظله، ويحمل عني كله.

وقال بعضهم: دخلت على بعض الرؤساء فلقيته يشرب وبين يديه كلب صيد، وهو يشرب قدحًا ويصب قدحًا بين يدي الكلب، ومهما أكل طعامًا أو نقلًا رمى إلى الكلب منه، فقلت له: أتنادم كلبًا؟! فقال: نعم؛ يكفُّ عني أذاه، ويحرسني من أذى سواه، يشكر قليلي، ويحفظ مبيتي ومقيلي. وأنشد شعرًا:

وأشــربُ وحـدي مـن كراهتـيَ الأذى ... مـخـافـةَ شــرٍّ أو ســبـابِ لـئيـمِ

وقال الشيخ صفي الدين الحلي وأجاد:

إذا لـم أجـد لـلـرَّاحِ خِـلًّـا مـوافـيًا ... فلـي بِـي أنسٌ كـامـل حـين أشــرب
لســاني يغنِّيني وفِكري منـادمي ... وكـفَّـايَ تســقـيـنـي وقـلـبـي يـطـرب

ومما يجب على ذوي السيادة والمروءة أن يسامحوا نديمهم إذا وقعت منه هفوة أو غفلة.

وما أحسن قول خالد اليشكري:

ولســت بِـلَـاحٍ لـي نـديـمـا بـزلَّـةٍ ... ولا هـفـوةٍ كـانـت ونـحـن عـلـى الـخـمـر
غزلـت بجنبي قول خـدني وصــاحبي ... ونحن على صــهبـاء طيِّبـة النشــر
فلمـا تمـادى قلـت: خُـذْهـا عريقـةً ... فـإنـك من القوم الجحـاجحـة الزهر
فمـا زلـت أسـقيـه وأشـرب مثلمـا ... ســقيتُ أخي حتى بدا وضـح الفجر
وخـرَّ ســريعًـا لـلجبـين موســدًا ... فوســدتـه واخترت حملي على الهجر
وأيـقـنـت أن الســُّكْـر طـار بـلُـبِّه ... فـأغرقَ في شــمتي وقـال ولـم يـدر
وزال لســانٌ كـان إذ كـان صــاحيًا ... يـقـلِّـبُـه فـي كـلِّ فـنٍّ مـن الشــعـر

وقال أبو نواس رحمة الله عليه:

ولســتُ بـقـائـلٍ لـنـديـمِ صــِدْقٍ ... وقـد أخـذَ الشــرابُ بـوجـنـتـيـهِ:
تـنـاولْـهـا وإلَّــا لـم أذقـهـا ... فـيـأخـذهـا وقـد ثَـقُـلَـتْ عـلـيـه
ولـكـنِّـي أُحـيـد الـكـأسَ عـنـه ... وأصــرفـهـا بـعـبســة حـاجـبـيـه
وإنْ رام الـوســادَ لـنـوم ســُكـرٍ ... دفـعـتُ وســادتـي أيضــًا إلـيـه

وهـــذا مـــا حـــيـــيـــت لـــه وإنـــي		أبـــرٌّ بـــه إذًا مـــن والـــديـــه

ولله در الصاحب بن عباد: قد حُمِلتْ أوزارُ السُّكر على ظهور الخمر، وطويت بِساط الشراب على ما فيه من خطأٍ وصواب.

وتلطف من قال:

تـعـلَّـم مـن مـرافـقـة الـنـديـم		مـطـاوعـةَ الأراكـة لـلـنـسـيـم
وعـاشـــرْهُ بـأخـلاقـي فـإنـي		وحـقِّـكَ عـبـدُ رِقٍّ لـلـنـديـم
أعـاطـيـه أحـاديـثـي وكـأسـي		فـيسـكـر بـالـحـديـث وبـالـقـديـم

وقال ابن المعتز:

ونَـدامـاي فـي شـبـابٍ وحُسْـنٍ		أَتـلـفَـتْ مـا لـهـم نـفـوسٌ كِـرام
بـين أقـداحـهـم حـديـثٌ قصـيـر		هـو سِـحـرٌ ومـا سِـواه كـلام
وغـنـاءٌ يَسـتـعـجـل الـراحَ بـالـرا		حِ كمـا نـاح في الغصـون الحَمـام
فـكـأن السُّـقـاة بـين الـنـدامـى		أَلِـفـاتٌ بـين السـطـور قِـيـام

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله:

بـروحـي نـديـمٌ يشـهـد الـراح أنـه		قضـى العمر بـاللـذات وهْو خبيرُ
تـذكَّـرَ مـزج الـكـأس عـنـد وفـاتـه		فـأوصـى لـهـا بـالثُّلـث وهـو كثير

وأنشدني من لفظه لنفسه أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومي:

ورُبَّ نـهـارٍ فـيـه نـادمـتُ أغـيـدًا		فمـا كـان أحلاه حـديثًـا وأحسـنـا
مـنـادمـة فـيـهـا مُـنـايَ فـحـبـذًا		نَـهـارٌ تقضـَّى بـالـحـديـث وبـالمُنى

كتب الحسن بن وهب إلى صديق له من أهل الأدب فصلًا من كتابٍ قال فيه: وقد قسمك الله بين طَرْفي وقلبي، ففي مشهدك أنسُ قلبي برؤية طرفي، وفي بُعدك لهو طرفي بذكر قلبي. فأجابه الرجل: فهمتُ كتابك الذي أخبرت فيه ما أخبرت، فسيَّان عندك على هذا رأيتني أم لم ترني، إذا كان بعضك

يؤنس بعضًا، وحضور أعضائك تنوب لك عن حضوري، لكنني أراك فيخشع قلبي، وأغيب عنك فيدمع طرفي، فشتان بين من سلا أبدًا ومن حزن دهرَه.

سئل إسحاق الموصلي عن عدد الندماء فقال: واحد هَمٌّ، واثنان غمٌّ، وثلاثة نظام، وأربعة تمام، وخمسة مجلس، وستة زحام، وسبعة موكب، وثمانية سوق، وتسعة جيش، وعشرة نعوذ بالله من شرهم وضرهم.

قال أبو العيناء: رُبَّ وحشةٍ أنفع من أنيس، ووحدةٍ أمتع من جليس.

وقال الجاحظ:

أرى للكأس حقًّا لا أراه ... لغيرِ الكأس إلَّا للنديمِ
هو القُطْبُ الذي دارتْ عليه ... رَحَى اللَّذاتِ في الزمنِ القديم

وكتب المرحوم فتح الدين محمد بن الشهيد إلى القاضي أمين الدين بن الأتقى المالكي، تغمده الله برحمته، وكان قد تأخر عن زيارته:

حتَّامَ في سِجنِ الصُّدودِ ... سُرورُ عبدك يُحتَبس
معنى الجفاء فهمته ... قد زدتَ في المعنى قَبَس
وأغِثْ بأنفاس الرضا ... نفسي فما فيها نَفَس
يا مالكي بأبيكَ زُرْ ... وارو الزيارةَ عن أَنَس
اقرأْ: ألم نشرح فكم ... نلقاك تقرأ في عبس
العمر أنفسُ أن تعيـ ... ـش نهار همِّك كالغلس
إنَّ الحياة لَغَفوةٌ ... والعيش طيفٌ يُختلَس

الباب العشرون

في مسامرة أهل النعيم

الليلة الأولى

حُكيَ أنه كان بمدينة بغداد رجل من أولاد النعيم ورث من أبيه مالًا جزيلًا، وكانت له قَينةٌ فأنفق عليها شيئًا كثيرًا ثم اشتراها، وكانت تحبه كما يحبها، ولم يزل ينفق عليها ماله وهو في أكلٍ وشرب إلى أن لم يبقَ له شيء وأفلس، فطلب معاشًا يعيش به فلم يقدر على شيء، وكان الفتى في أيام سعادته يُحضِر الأستاذين في صناعة الغناء لتزداد في صناعتها، فبلغت في الصناعة الغاية التي لم يدركها أحد سواها، وكان الفتى قد علم من صناعة الغناء مثلها وأوفى، فاستشار بعض إخوانه ومعارفه فقالوا له: ما نعرف لك معاشًا أصلح من أن تغنيَ أنت والجارية، فتأخذ على ذلك المال الكثير وتأكل وتشرب، وأنت كل يوم طيِّبُ العيش. فأنف من ذلك وعاد إليها فأخبرها بما أُشيرَ به عليه وأعلمها أن الموت أحب إليه من ذلك، فصبرت معه على الشدة ثم قالت: لقد رأيت لك رأيًا. قال: ما هو؟ قالت: تبيعني، فإنه يحصل لك من ثمني ما تعيش فيه عيشًا طيبًا، وتتخلص من هذه الشدة، وأخلص أنا وتحصل لي نعمة، فإن مثلي لا يشتريه إلا ذو نعمة، وبه أكون السبب في رجوعي إليك.

قال: فحملها إلى السوق، فكان أول مَن اعترضها فتى هاشميٌّ من أهل البصرة، ظريفٌ أديبٌ، كريمُ النفس واسع الحال، فاشتراها بألفٍ وخمسمائة دينار عَيْنًا، فقال الرجل: وحين لفظتُ بالبيع وقبضت المال ندمت غاية الندامة وبكيت أشد بكاء، وحصلت الجارية في صورة أشد مني، وجهدت في الإقالة فلم يكن لي إلى ذلك سبيل، وأخذت الدنانير في الكيس ومضيت لا أدري أين أذهب، لأن بيتي موحش منها، وورد عليَّ من البكاء واللطم والنحيب شيءٌ لا أصفه.

قال: فدخلت بعض المساجد وجلست أبكي فيه، وأفكر فيما أنا فيه وفيما عملت بنفسي، فحملتني عيني، وتركت الكيس تحت رأسي كالمخدة ونمت، فلم أشعر إلا بإنسان قد جذبه من تحت رأسي ومضى يعدو، فانتبهت فزعًا وطلبت الكيس، فوجدته قد أُخِذَ فقمت أريد العدو خلفه، وإذا برجلي مربوطة في حبلٍ والحبل في وَتَدٍ، فوقعت على وجهي، وإلى حيث خلصت رجلي هرب ذلك الرجل عني، فبقيت ألطم على وجهي ورأسي وقلت: فارقت من أحب وذهب المال فكيف حالي! فزاد بي الأمر إلى أن جئت الدِّجلة ووضعت ثوبي على وجهي، ورميت روحي في الدجلة، ففطن الحاضرون بي أن ذلك لغيظٍ نالني، فرموا أرواحهم خلفي، فشالوني وسألوني عن أمري، فأخبرتهم فمن بين راحمٍ ومستجهل، إلى أن جاءني شيخ فأخذ يعظني وقال: يا هذا، ذهب مالك وتُذْهِبُ نفسك وتكون من أهل النار؟ فثق بالله العظيم. قم معي فأرني بيتك.

فما فارقني حتى حملني إلى منزلي، وقعد عندي حتى رأى السكون فيَّ، فشكرته وانصرف، فكدت أقتل نفسي فذكرت الآخرة والنار، فخرجت من بيتي هاربًا إلى بعض أصدقائي القدماء، فأخبرته بخبري وما جرى عليَّ فبكى رحمة لي، وأعطاني خمسين دينارًا وقال: اقبلْ رأيي واخرج الساعةَ من بغداد، واجعل هذه نفقةً لك إلى حيث تجد قلبكَ تَشاغَلَ، وأنت من أولاد الكُتَّاب، وخطك جيد وأدبك بارع، فاقصد من شئت من العمَّال فاطرح نفسك عليه، فلعله أن يستخلفك في شيء تنتفع به وتعيش معه، ولعل الله — عز وجل — أن يجمع عليك جاريتك. فجئت إلى الكتبيين، وقد قوي حالي وزال عني بعض الهم، واعتمدت على أنني أقصد واسط لأنه كان لي بها أقارب، فإذا زلَّال مقدَّم، وجراية كبيرة، وقماش فاخر ينقل إلى الزلَّال، فسألتهم أن يحملوني إلى واسط فقالوا: هذا الزلال لرجل هاشمي، ولا يمكننا حملك على هذه الصورة. فسألتهم أن يحملوني وأرغبتهم في الأجرة فقالوا: إذا كان ولا بد فاخلع هذه الثياب التي عليك، والبس ثياب الملَّاحين، واجلس معنا كأنك واحد منا، فرجعت واشتريت من ثياب الملاحين وجئت إلى الزلال بعد أن اشتريت خبزًا وما يصلح للسفر، وجلست معهم، فما كان إلا ساعة حتى رأيت جاريتي بعينها ومعها جاريتان يخدمانها، فسَهُل عليَّ ما كان بي وقلت: أراها وأسمع غناءها من هنا إلى البصرة. واعتقدت أن أجعل قصدي البصرة، وطمعت أن أدخل إلى مولاها وأصير من ندمائه، وقلت: لعلها لا تخلِّيني من المراد. وكنت واثقًا بها.

فلم يكن بأسرع من أن جاء الفتى الهاشمي راكبًا ومعه عدة ركبان، فنزلوا في الزلال وانحدروا، فلما صار عند كَلواذى أخرج الطعام وأكل والجاريةَ، وأكل الباقون على وسط الزلال، وأطعم الملاحين،

ثم أقبل على الجارية فقال لها: كم هذه المدافعة عن الغناء ولزوم الحزن والبكاء؟ لست أنت أول من فارق مولًى كان له محبًّا. فعلمتُ ما كان عندها من أمري، ثم ضربت ستارة في جانب الزلال واستدعى اللذين يأكلون ناحيةً وجلس معهم خارج الستارة، فسألت عنهم فإذا هم إخوته. ثم أخرج لهم الصواني فيها الخماسيات والجرداديات من المحكم مملوءة شرابًا، ففرقت عليهم وقدمت لهم الأنقال وما شاكل ذلك، وما زالوا يرقون بالجارية إلى أن استدعت بالعود وأصلحته، واندفعت تغني من البعيد الأول، وهو:

بان الخليط بمن عَرَفتُ فأدلَجوا ... عمدًا بمن أهواه لم يتحرَّجوا
وغدتْ كأنَّ على ترائبِ نحرها ... جمر الغضا في ساعةٍ تتأجَّجُ

ثم غلبها البكاء، ورمتِ العود وقطعت الغناء، فتنغص على القوم مشربهم، ووقعتُ أنا مغشيًا عليَّ، فظن القوم أني قد صرعت، وصار بعضهم يقرأ في أذني، وأفقت بعد ساعة، فلم يزالوا يدارونها ويرفقون بها ويسألونها إلى أن أصلحتِ العود واندفعت تغني في البعيد الثاني:

فوقفتُ أندُبُ للذين تحمَّلوا ... وكأنَّ قلبي بالشِّفار يقطَّعُ
فدخلتُ دارهمُ أسائل عنهمُ ... والدارُ خاليةُ المنازل بَلقَعُ

ثم شهقتْ شهقةً كادت تتلف، وارتفع بكاؤها وصرختُ أنا ووقعت مغشيًا عليَّ، وتبرم الملاحون مني وقالوا: كيف حملتم هذا المجنون؟! فقال بعضهم: إذا بلغتم بعض القُرى فأخرجوه وأريحونا منه. فجاءني من ذلك أمر عظيم، ثم وضعت على نفسي الصبر والتجلد وقلت: أُعمِل الحيلة في أن أعلمها بمكاني من الزلال، لتمنع من إخراجي. وبلغنا إلى قريب ضيعة فقال صاحب الزلال: اصعدوا بنا إلى الشطِّ. فطرحوا القماش وطلعوا، وكان مساء فطلع الملاحون وخلا الزلال، فقمت حتى صرت خلف الستارة، فغيرت طريقة العود عما كانت عليه إلى طريقة أخرى، وكانت تعلمها مني، فرجعت إلى موضعي من الزلال وفرغ القوم من حوائجهم في الشط، ورجعوا والقمر قد انبسط، فقال لها مولاها: بالله عليك لا تنغصي علينا عيشنا! ولم يزالوا إلى أن أخذتِ العود وجسّته، وشهقت حتى ظنوا أن روحها قد طلعت، وقالت: والله مولاي معي في الزلال! فقال لها الهاشمي: والله يا هذه لو كان معنا ما منعته من معاشرتنا، ولعله كان يخفف ما بك، وننتفع بغنائك، ولكن هذا بعيد. قالت: هذا مما لا أسمعه،

مولاي معنا. قال الهاشمي: فنسأل الملاحين؟ قالت: افعل. فسأل الملاحين وقال: هل حملتم معكم أحدًا؟ قالوا: لا. وأشفقتُ أن ينقطع السؤال فصحتُ: نعم، هو ذا أنا! فقالت: كلام مولاي والله!

فجاءني الغلمان فحملوني إلى الرجل حملًا، فلما رآني عرفني وقال: ويحك، ما هذا الزي وما الذي أصابك إلى أن صرت إلى هذه الحال؟ قال: فصدقته عن أمري وبكيت، وعلا نحيب الجارية من خلاف الستارة، وبكى هو وإخوته بكاءً شديدًا رقةً لنا، قال لي: يا هذا، والله ما وطئتُ الجارية ولا سمعت لها غناءً إلا اليومَ، وأنا رجل موسر ولله الحمد، وإنما وردت بغداد لطلب أرزاقي من أمير المؤمنين وسماع الغناء بها، وقد بلغت الأمرين مما أردت، ولما علمت أني أريد الرجوع إلى وطني قلت: أسمعُ من غناء بغداد شيئًا، فاشتريت هذه الجارية لأصير بها عند مغنيات عندي بالبصرة. وإذ كنتما على هذه الحالة، فوالله لأنالنَّ المكرمة والثواب فيكما، وأشهد اللهَ على أن هذه الجارية إذا وصلت إلى البصرة أعتقها وأزوجك إياها وأجري عليكما ما يكفيكما وزيادة، ولكن على شريطة أنني إذا أردت الاجتماع تضرب لها ستارة وتغني من خلفها، ونحن مع بعضنا بعض لا تبخل علينا بذلك، وأنت من جملة إخواني وندماني.

ففرحت بذلك، ثم أدخل رأسه إلى الجارية وقال: يرضيك ذلك؟ فأخذت تدعو له وتشكره، ثم استدعى غلامه فقال: خذ بيد هذا، وغير ثيابه وبخِّرْه وقدمه إلينا بعد أن يأكل شيئًا. ففعل بي الغلام ما أمر به، وعدت إليه فحطَّ بين يدي مثل ما بين أيديهما من الشراب والنقل، ثم اندفعتِ الجارية تغني بانبساط، وهو:

عيَّروني بأنْ سفحت دموعي ... حين همَّ الحبيبُ بالتوديعِ
زعموا أنني تهتَّكْتُ في الحُبْـ ... ـبِ ما أريد غير مطيع
لم يذوقوا طعمَ الفِراق ولا ما ... أحرقتْ لوعةُ الأسى من ضلوعي
كيف لا أسفح الدموعَ على رسـ ... ـمٍ عفا بعد ساكن وجموع
هَبْكَ أنِّي كتمتُ حالي أَتَخفَى ... زفرات المتيَّم المصدوع؟
إنَّما يعرف الغرام الذي لا ... حَ عليه الغرامُ بين الربوعِ

فطرب القوم من ذلك طربًا شديدًا، وزاد فرح الفتى بذلك، فلما رأيتُه على ما هو عليه من الفرح أخذتُ العود من الجارية وأصلحته، وضربت به في أحسن صنعة وغناء، واندفعت أنشد في معنى مكارمه ومواعده وأقول:

اســـــألِ العرفَ إن ســـــألـتَ كريمًا ... لـم يـزل يـعـرف الـغـنـى والـيســـــارا
فســـــؤال الــكــريــم يُــورِث عــزًّا ... وســـــؤال الــلــئــيــم يــورث عــارا
وإذا لــم يــكــن مــن الــذل بُــدٌّ ... فَــالْــقَ بــالــذل إنْ لــقــيــت الــكــبــارا
لــيــس إجــلالــك الــكــريــمَ بِــذُلٍّ ... إنــمــا الــذل أنْ تُــجِــلَّ الصـــــغــارا

ففرح القوم وزاد فرحهم، وأنسوا بي غاية الإيناس، ولم نزل على مسرة وسرور، وغبطة وحبور، وأنا أغني ساعة وهي تغني ساعة، كذلك إلى أن جئنا إلى بعض الشطوط، فأُرْسِيَ الزلال، وصعد من الزلال كلُّ من فيه، وقضوا حوائجهم، وصعدت أنا وأنا سكران، فقعدت أبولُ، فأخذتني عيني فنمت، وطلع القوم وانحدر الزلال، ولم يعلموا بي وهم سكارى، وكنت دفعت النفقة التي معي إلى الجارية، ولم يبقَ معي حبة واحدة، وإن القوم انحدروا ووصلوا إلى البصرة، ولم أنتبه أنا إلا من حر الشمس، فجئت إلى الشط فلم أر حسًّا، وقد كنت أجللت الرجل أن أسأله بمن يعرف، وأين داره من البصرة، فبقيت على شاطئ نهرٍ معتلًّا كأول يوم بدأت في المحبة، وكأن ما كنت فيه منامًا، واجتازت بي سماريَّة فحُمِلتُ فيها، ودخلت البصرة وما كنت دخلتها قط، فنزلت خانًا وبقيت متحيرًا لا أدري ما أعمل، ولم يتجه لي معاش إلى أن اجتاز بي يومًا إنسان كنت أعرفه ببغداد، فتبعته لأكشف له حالي وأسترفده، ثم أنفت من ذلك ودخل منزله فعرفته، وجئت إلى بقال على باب الخان الذي نزلته فأعطيته دانقًا وأخذت منه دَواة وورقة، وجلست أكتب إليه رقعة، فاستحسن خطِّي البقال ورأى ثوبي دنسًا فسألني عن أمري، فأخبرته أني رجل غريب فقير الحال قد تعذَّر عليَّ التصرف، وما بقي معي شيء، فقال: تعمل معي كل يوم بنصف درهم وطعامك وكسوتك وتضبط لي حساب دكاني؟ فقلت له: نعم. قال لي: اصعد. فصعدت وخرقت الرقعة وجلست معه، ودبرت أمره وضبطت دخله وخرجه.

فلما كان بعد شهر، رأى الرجل دخله زائدًا، وخرجه ناقصًا، فحمدني، وبقيت معه كذلك شهورًا، ثم جعل لي كل يوم درهمًا، ولم يزل حالي يقوى معه على أنْ حال الحول، فناله مني الصلاح فدعاني إلى أن تزوجت بابنته، وشاركني في الدكان، ففعلت ودخلت بزوجتي، ولزمت الدكان والحال يقوى، إلَّا

أني في خلالِ ذلك مكسورُ النفس، ميِّتُ النشاط، ظاهر الحزن. وكان البقَّال يشرب، فربما يجذبني إلى مساعدته فأمتنع، وأُظْهِرُ أن ذلك حزنًا مني، واستمرَّت بي الحال على هذا سنتين وأكثر.

فلما كان في بعض الأيام، إذا قوم يجتازون بطعامٍ وشراب، وكل أحد على ذلك، فسألت الشيخ عن القصة فقال لي: هذا اليوم عيد الشعانين، يخرج أهل الطرب واللعب والشراب والقينات إلى نهر الأُبُلَّة، فيرَوْنَ النصارى ويشربون ويفرحون. فدعتني نفسي إلى هذا وقلت: لعلي أقف لأصحابي على خبر. فقلت للبقال: كنت أريد النظر إلى هؤلاء. فقال لي: شأنَكَ. وأصلح لي طعامًا وشرابًا وسلَّم إليَّ غلامًا وسفينة، فخرجت فأكلت وبدأت بالشراب حتى وصلت إلى الأُبُلَّة، وابتدأ الناس ينصرفون وعزمت على الانصراف، فإذا أنا بالزلال بعينه في وسط الناس سائرًا في نهر الأبلة، فتأملت وإذا بأصحابي على سطيحة ومعهم عدة مغنيات، فحين رأيتهم لم أتمالك فرحًا وصحت بهم، فلما رأوني عرفوني وأخذوني إليهم، وقالوا لي: أنت حيٌّ! وعانقوني وفرحوا بي، وسألوني عن قصتي فأخبرتهم بها على أتمِّ شرح، وقالوا: إنَّا لما فقدناك في الحال وقع لنا أنك قد سكرت ووقعت في الماء وغرقت، فخرجتِ الجارية من ثيابها وكسرت عودها، وقطعت شعرها ولطمت وجهها، وأقبلت على البكاء والنحيب، ولم نقدر نمنعها من ذلك، ووردنا البصرة فقلنا لها: ما تحبين أن نعمل بك؟ فقد كنا وعدنا مولاك بوعد تمنعنا المروءة من استخدامك بعده وسماع غناك. فقالت: يا مولاي، تمكِّني من القوت اليسير، ولباس الشعر السواد، وأن أعمل قبرًا في جنب من الدار، وأجلس عنده وأتوب من الغناء. فمكناها من ذلك وهي جالسة عنده إلى الآن.

فأخذوني معهم ومضوا بي إلى الدار فلما رأيتها على تلك الصورة ورأتني شهقت شهقة عظيمة ما ظننت أنها تعيش، فاعتنقنا عناقًا طويلًا ثم افترقنا، ثم قال مولاها: خذها. قلت: نعم، أعتقها كما وعدتَ وزوجني بها. ففعل ذلك ودفع إلينا ثيابًا كثيرة وفرشًا وقماشًا وآلةً، وحمل إليَّ خمسمائة دينار وقال: هذا مقدار ما أردت أجريه عليك في كل شهر منذ أول دخولي البصرة، وقد اجتمع طول هذه المدة فخذه، والجراية منساقة في كل شهر، وشيء آخر لكسوتك وكسوة الجارية، والشرط في المنادمة وسماع الجارية من وراء الستارة، وقد وهبت لك الدار الفلانيَّة.

قال: فحُملتُ إلى الدار فإذا هي قد غمرت بالفرش والقماش وجميع ما أحتاجه، وحملت إليها الجارية، وجئت إلى البقال فحدثته الحديث وسألته أن يجعلني في حِلٍّ من طلاقي لابنته بغير ذنب، ودفعت إليه مهرها وما يلزمني من أمرها، وأقمت مع الهاشمي على ذلك الحال سنينًا، وصرت رب

ضيعة ونعمة، وعادت حالتي إلى قريبٍ مما كنت فيه أنا والجارية، وفرَّج الله الكريم عنَّا وسهل لنا الأمور بالإحسان.

وهذا ما كان من حديثهم، والحمد لله حمدًا كثيرًا.

الليلة الثانية

حدث أبو العباس بن يزيد النحوي، المعروف بالمبرَّد، قال: حدثنا محمد بن عامر الحنفي، وكان من سادات بكر بن وائل، وأدركته شيخًا كبير القامة مملقًا، وكان إذا أفاد على إملاقه شيئًا جاد به، وقد كان ولي قديمًا شرطة البصرة، فحدثني هذا الحديث الذي نذكره، ووقع لي من غير ناحيته، ولا أذكر ما بينهما من الزيادة والنقصان إلا أن معاني الحديث مجموعة فيما أذكر لك:

ذكر أن فتيانًا كانوا مجتمعين في نظام واحد، كلهم أبناء نعمة، وكلهم شرد عن أهله وقنع بأصحابه، فذكر ذاكرٌ منهم قال: كنا قد اكترينا دارًا شارعة على حد الطريق ببغداد المعمورة بالناس، فكنا نفلس أحيانًا ونوسر أحيانًا، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله، وكنا لا نستنكر أن تقع مؤنتنا على واحد منا إذا أمكنه، ويبقى الواحد منا لا يقدر على شيء فيقوم به أصحابه الدهرَ الأطول، وكنا إذا أيسرنا أكلنا ودعونا المُلْهِيين والملهيات، وكنا في أسفل الدار، فإذا عدمنا الطرب فمجلسنا غرفة لنا نتمتع منها بالنظر إلى الناس، وكنا لا نخلو من نبيذ في عسر ولا يسر.

فإنَّا كذلك يومًا إذا بفتًى يستأذن علينا فقلنا له: اصعد. فإذا رجل نظيف، حلو الوجه، سَرِيُّ الهمَّة، يظهر عليه أنه من أبناء النعم، فأقبل علينا وقال: إني سمعت باجتماعكم وألفتكم وحسن منادمتكم، حتى كأنكم أُدْرجتم جميعًا في قالب واحد، فأحببت أن أكون واحدًا منكم فلا تحتشموني. قال: فصادف ذلك منا إقتارًا من القوت، وكثرةً من النبيذ، وقد كان قال لغلامه: أول ما يأذنون لي أن أكون كأحدهم هاتِ ما عندك. فغاب عنا غير كثيرٍ ثم أتى بسلة خيزران فيها طعام مطبوخ، من جدي، وفراخ، ورقاق، وأشنان، ومحلب، وأخلَّة. فأصبنا من ذلك، ثم أفضنا في شربنا وانبسط الرجل، وإذا هو أحيى خلق الله إذا حدَّث، وأحسنهم استماعًا إذا حُدِّث، وأمسكهم عن الملاحاة إذا خُولِف، ثم أفضينا منه إلى أكرم مخالقة، وأجمل مساعدة، وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه، فيظهر لنا أنه لا يريد غيره، ونرى ذاك في إشراق وجهه، فكنا نَغنى به عن الحسن الغناء، ونتدارس أخباره وآدابه،

فشغل ذلك عن تعرُّف اسمه ونسبه، فلم يمكن منا غير تعرُّف الكنية، فإنَّا سألناه عنها فقال: أبو الفضل.

فقال لنا يومًا بعد اتصال الأنس: ألا أخبركم كيف عرفتكم؟ قلنا: إنَّا لنحب ذلك! قال: أحببت في جواركم جاريةً، وكانت سيدتها ذات حبائب، وكنت أجلس لها في الطريق ألتمس اجتيازها فأراها، حتى أخلقني الجلوس على الطريق، ورأيت غرفتكم هذه فسألت عن خبرها، فخُبِّرت عن ائتلافكم ومساعدة بعضكم بعضًا، فكان الدخول فيما أنتم فيه آثَرُ عندي من الجارية. فسألناه عنها فخبَّرنا، قلنا: ما نحيد عنها لك حتى نُظْفِرَكَ بها. فقال: يا إخوتي، إني والله على ما ترون مني من شدة المحبة لها والكَلَف بها ما قدَّرْتُ فيها حرامًا قطُّ، وما تقديري إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمنَّ الله بثروة فأشتريها.

وأقام معنا شهرين، ونحن على غاية الاغتباط بقربه والسرور بصحبته، ثم اختُلس منا، فنالنا لفراقه كل مُمِضٍّ ولوعة مؤلمة، ولم نعرف له منزلًا نلتمسه منه، فكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به، وقَبُحَ عندنا ما كان حَسُنَ بقربه، وجعلنا لا نرى سرورًا ولا غمًّا إلا إذا ذكرنا اتصال الأنس والسرور بحضوره، والغم بمفارقته، فكنا كما قال القائل:

يُذكِّرنيهم كلُّ خَيْرٍ رأيتُهُ وشرٍّ فما أنفكُّ منهم على ذكرى

فغاب عنا زهاءَ عشرين يومًا، ثم بينا نحن مجتازون من الرُّصافة إذا به قد طلع في موكب نبيل وزي جليل، فحيث بصر بنا انحط عن دابته، وانحط غلمانه، ثم قال: يا إخواني، إني والله ما هنأني عيش بعدكم، ولست أماطلكم بخبري حتى آتيَ المنزل، ولكن ميلوا بنا إلى المسجد. فملنا معه فقال: أعرِّفكم أولًا بنفسي، أنا العباس بن الأحنف، وكان من خبري بعدكم أني خرجت إلى منزلي من عندكم، فإذا المسوِّدة محيطة بي، فمضيَ بي إلى دار أمير المؤمنين فصرت إلى يحيى بن خالد، فقال لي: ويحك يا عباس! إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك وحسن تأنِّيك، وإن الذي ندبته لك من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء، وإني أخبرك أن ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين اليوم، وأنه جرى بينهما عتابٌ، فهي بدلالة المعشوق تأبى أن تعتذر، وهو بعزِّ الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك، وقد رُمْتُ الأمر من قبلهما فأعياني، وهو أحرى أن تستفزه الصبابة، فقل شعرًا يسهِّل عليه هذه السبيل. فقضى كلامه ثم دعاه أمير المؤمنين، فصار إليه، وأعطيت دواةً وقرطاسًا، فاعتراني الزمع، وأذهب عني كل قافية، ثم انفتح لي شيء والرسل تترى، فجاءتني أربعة أبيات رضيتها وقعت صحيحة المعنى، سهلة الألفاظ، ملائمة لما طلب مني، فقلت لأحد الرسل: أبلغْ الوزير أني قد قلت أربعة أبيات، فإن كان فيها

مقنع وجَّهت بها. فرجع إليَّ الرسول بأن هاتها، ففي أقل منها مقنع، وفي ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الرَّوِيِّ، وكتبت الأربعة الأبيات في صدر الرقعة، وعقَّبت بالبيتين فكتبت:

العاشقان كلاهما مُتَعَتِّبُ وكلاهما متوجِّدٌ متغضب
صدَّت مُغاضِبةً وصدَّ مُغاضبًا فكلاهما ممَّا يعالج مُتعَب
راجعْ أحبَّتك الذين هجَرْتَهم إن المُتَيَّم قلَّ ما يتجنَّب
إن التَّجنُّب إنْ تطاول منكما دَبَّ السُّلُوُّ له فعزَّ المطلَب

وكتبت تحت ذلك:

لا بُدَّ للعاشقِ من وَقْفة تكون بين الصَّدِّ والصَّرم
حتَّى إذا الهجر تمادى به راجعَ من يهوى على رغم

ثم وجهت بالكتاب إلى يحيى بن خالد، فرفعه يحيى إلى الرشيد فقال: والله ما رأيت شعرًا أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأني قُصِدْتُ به! فقال له يحيى: فأنت والله المقصود به، هذا يقوله العباس بن الأحنف في هذه القصة. فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله:

راجع من يهوى على رغم

استغرب ضاحكًا حتى سمعت ضحكه، ثم قال: إي والله، أراجع على رغم. يا غلام، هاتِ النعل! فنهض وأذهله السرور عن أن يأمر لي بشيء، فدعاني يحيى فقال لي: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة، وأذهل أميرَ المؤمنين السرورُ عن أن يأمر لك بشيء، قلت: لكنَّ هذا الخبر ما وقع مني بموافقة.

ثم جاء غلام فسارَّه فنهض، وثبتُّ مكاني ثم نهضت بنهوضه، فقال لي: يا عباس، أمسيت أنبل الناس! أتدري ما سارَّني به هذا الرسول؟ قلت: لا. قال: قد ذكر لي أن ماردة بلغت أمير المؤمنين لما علمت بمحبته فقالت: يا أمير المؤمنين، كيف كان هذا؟ فأعطاها الشعر وقال: هذا أتى بي إليك. قالت: فمن يقوله؟ قال: العباس بن الأحنف. قالت: فبمَ كوفئ؟ قال: ما فعلت شيئًا بعد. قالت: إذًا والله لا أجلس حتى يكافأ! قال: فأمير المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين، وهما يتناظران في صلتك، فهذا كله لك. قلت: ما لي من هذا كله إلا الصلة؟! فقال: هذا أحسن من شعرك.

فأمر أمير المؤمنين بمالٍ كثير، وأمرت ماردةُ بمالٍ دونه، وأمر الوزير بمال دون ما أمرت به، وحُملتُ على ما ترون من الظَّهر، ثم قال الوزير: من تمام اليد عندك ألا ترجع من الدار حتى يؤهل لك هذا المال ضياعًا. فاشتُريتْ لي ضياعٌ بعشرين ألف دينار، ودُفِعَ إليَّ بقية المال.

فهذا الخبر الذي عاقني عنكم، فهلمُّوا حتى أقاسمكم الضياع، وأفرق فيكم المال. فقلنا له: هنَّأك الله بمالك! وكلنا راجع إلى نعمةٍ من الله. فأقسمَ وأقسمنا، قال: فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشتريها. فمشينا إلى صاحبها، وكانت جاريةً جميلة حلوة لا تحسن شيئًا، أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل، وكانت تساوي على وجهها مائة وخمسين دينار، فلما رآني مولاها استامني فيها خمسمائة دينار، فأجبناه بالعجب فحط مائة، ثم حط مائة، وقال العباس: يا فتيان، إني والله أُقْسِمُ أحتشمُ بعد ما قلتم، ولكنها حاجةٌ في نفسي بها يتم سروري، فإن ساعدتم فعلت. قلنا له: قل. قال: هذه الجارية أنا عاينتها منذ دهر وأريد إيثار نفسي بها، فإن ساعدتم فأكره أن تنظرَ إليَّ بعين من قد ماكس في ثمنها، فأعطيه فيها خمسمائة دينار كما سأل. قلنا: فإنه قد حط مائتين. قال: وإن فعل. فصادفنا من مولاها رجلًا حرًّا، فأخذ ثلاثمائة دينار وجهزنا بالمائتين، فما زال لنا محبًّا إلى أن فرَّق الموت بيننا.

الليلة الثالثة

حدَّث عبد الرحمن بن عمر الفهري عن رجالٍ سمَّاهم، قال: أمر المأمون أن يُحمَل إليه عشرة أناسٍ من البصرة، كانوا يُرمَون بالزندقة عنده، فحُملوا إليه، فبينما أحد الطُّفَيليين جائزٌ إذ رآهم مجتمعين، فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمةٍ، فأنالُ معهم. ودخل في جملتهم، ومضى بهم المتوكلون إلى البحر، فأطلعوهم في زورق قد أُعِدَّ لهم، فقال الطفيلي: كأنها نزهة، فأصعد معهم في الزورق. فلم يكن بأسرع من أن قُيِّد القوم، فقيدوا الطفيلي معهم، فعلم أنه قد وقع، ورامَ الخلاص فلم يقدر، ثم دفع الملاح وساروا إلى أن وصلوا بغداد، وحملوا على دخول المأمون، فأمر بضرب أعناقهم، فاستُدْعوا بأسمائهم رجلًا رجلًا، وهو يقتل، حتى لم يبقَ إلا الطفيلي.

وفرغت العدة، فقال المأمون للمتوكلين بهم: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، ما ندري، غير أنَّا وجدناه مع القوم فجئنا به. فقال له المأمون: ما قصتك، وَيْلَكَ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، امرأته طالق إن كان يعرف من أقوالهم شيئًا، ولا يعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ وإنما رأيتهم مجتمعين

فظننت أنهم يدعون إلى مأدبة أو دعوة، فالتحقت بهم. قال: فضحك المأمون ثم قال: بلغ من شؤم التطفيل أن أدخل صاحبه هذا المدخل، لقد سَلِم هذا الجاهل من الموت، ولكن يؤدَّب حتى يتوب.

قال: وكان إبراهيم بن المهدي حاضرًا يومئذ فقال: يا أمير المؤمنين، هبه لي، وأحدِّثك بحديثٍ عن نفسي في التطفيل عجيب. قال: قد وهبته لك، هات حديثك. قال: يا أمير المؤمنين، خرجت يومًا متنكرًا أنظر إلى سكك بغداد فاستهوى بي التفرج وانتهى بي المشي إلى موضع شمِمت فيه روائح طعام وأبازير قد تاقت نفسي إليها، ووقفت، يا أمير المؤمنين، لا أقدر على المضي، فرفعت بصري فإذا شباك ومن خلفه كف ومعصم ما رأيت أحسن منه، فوقفت حائرًا ونسيت روائح الطعام بذلك الكف والمعصم، فأخذت في إعمال الحيلة في الوصول، فنظرت فإذا بخياطٍ قريب من ذلك الموضع، فتقدمت إليه وسلمت عليه، فردَّ عليَّ فقلت: يا سيدي، لمن هذه الدار؟ قال: لرجل من البزازين. قلت: فما اسمه؟ قال: فلان ابن فلان. قلت: هو ممن يشرب الخمر؟ قال: نعم، وأظن اليوم عنده دعوة وليس ينادم إلا تجارًا مثله. فبينا نحن في الكلام إذ أقبل رجلان راكبان فقال: هؤلاء ندماؤه. فقلت: ما أسماؤهما وما كناهما؟ فقال: فلان وفلان. فحركت دابتي فلحقتهما وقلت: جُعِلتُ فداكما! قد استبْطَأَكُما أبو فلان أعزَّه الله. وسايرتهما حتى أتيا الباب فدخلت ودخلا، فلما رآني صاحب المنزل معهما لم يشك في أني منهما بسبيل، فرحَّب بي وأجلسني في أفضل المواضع، ثم جيء بالمائدة ونقل إليها الألوان، فكان طعمها، يا أمير المؤمنين، أطيب من رائحتها فقلت في نفسي: هذه الألوان قد مَنَّ الله عليَّ ببلوغ الغرض منها، وبقي الكف والمعصم.

ثم جيء بالوضوء فغسلنا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة، فإذا هو أشكل منزل وأظرفه في سائر أموره، وجعل صاحب المنزل يلطف ويقبل عليَّ في الحديث لظنِّه أني ضيف لأضيافه، وهم على مثل ذلك يظنون أن إكرامه لي عن معرفةٍ متقدمة وصداقة، حتى شربنا أقداحًا فخرجت علينا جارية كأنها غصن بانٍ في غاية الظرف وحسن الهيئة، فسلَّمتْ غير خجلةٍ، وأتيت لها وسادةٌ فجلست، وأُتيَ بعودٍ فأخذته وجسته أحسن جس، واندفعت تغني فغنت:

توهَّمَها طَرْفِي فأصبحَ خدُّها … وفيه مكان الوهْم من نظري أثر
وصافحها كفِّي فآلمَ كفَّها … فمِن لَمْسِ كفِّي في أناملها عَقْر

فهيَّجت، يا أمير المؤمنين، بلبالي، وطربتُ لحسن شعرها وحذقها، ثم اندفعتْ فغنت أيضًا:

أشــــرتُ إليهـا: هــل عرفـتِ مودَّتي؟ فردَّتْ بِطَرْفِ العينِ إنِّي على العـهـد
فحِـدْتُ عن الإظهـارِ حفظًـا لســرِّهـا وحـادتْ عن الإظهـارِ حفظًـا على عهـد

فجاءني من الطرب ما لم أملك معه نفسي، وطرب القوم طربًا شديدًا، ثم غنت:

أليسَ عجيبًـا أنَّ بيتًـا يضـُمُّني وإيـاكِ لا نـخـلـو ولا نـتـكـلـم؟
سِــوَى أعينٍ تُبـدي ســرائر أنْفُسٍ وتقطيعِ أنفـاسٍ على النـارِ تضــرَم
إشـــارةُ أفـواهٍ وغـمـزُ حـواجـبٍ وتـكـســيـرُ أجـفـانٍ وكـفٌّ يســلِّم

فحسدتها على حذقها يا أمير المؤمنين، وإصابتها معنى الشعر، لأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأت فيه. فقلت: قد بقي عليك يا جارية شيءٌ؟ فرمت بالعود وقالت: متى كنتم تُحضرون في مجالسكم البغضاء؟ فندمت على ما كان مني ورأيت القوم كأنهم تنكروا بي، فقلت في نفسي: فاتتني جميع ما أملتُ إن لم أتلافَ قضيتي، فقلت: أثَمَّ عودٌ؟ قالوا: نعم، فأُتِيتُ بعودٍ مليحِ الصنعة، فأصلحت ما أردت ثم اندفعتُ فغنيتُ:

مـا لـلـمـنـازلِ لا تُـجـيـب حـزيـنًا أصــمـتنَ أمْ قَـدمَ الـبـلا فـبُـلِـيـنـا
روح الـعشـــيَّـة روحـة مـذكـورة إنْ مِـتْـنَ مِـتْـن وإنْ حَـيِـينَ حـيـيـنـا

فما استتممته يا أمير المؤمنين، حتى وثبت الجارية على رجلي تقبِّلها وتقول: معذرةً إليك، والله ما علمت مكانكم ولا سمعت مثل هذه الصنعة من أحد! ثم زاد القوم في إكرامي وتبجيلي، وطربوا غايةَ الطرب وشربوا بالطاسات، فلما رأيت طربهم اندفعتُ فغنيت:

أبَـى اللهُ أنْ تُمســين لا تَـذكريننـي وقـد ســفَحتْ عينـايَ مِن ذِكرك الـدَّمـا
إلى الله أشــكو بُخْلَهـا وسَــمـاحَتي لـهـا عســلٌ منِّـي وتُبـدي علـقـمـا
فردِّي مصــــابَ القلـبِ أنـتِ قَتَلْتِـهِ فـلا تـتـركـيـه ذاهـبَ الـعـقـلِ مغـرمـا
إلــى الله أشـــكـو أنَّـهـا أجـنـبـيَّة أكونُ لها بـالودِّ مـا عشـــتُ مُحرَمـا

فرأيت من طرب القوم شيئًا خشيت أنهم فارقوا عقولهم، فأمسكت عنهم ساعةً ثم راجعت أمرهم لما هدأت نفوسهم، واندفعت وغنيت:

هــذا مــحــبُّــك مــطــويًّا عــلــى كــمــده ... صـــــبٌّ مـدامعـه تجري على جســـــده

لــه يــدٌ تســــــأل الــرحــمــنَ راحــتــه ... مــمــا بــه ويــدٌ أخــرى عــلــى كــبــده

يــا مــن رأى كلفًــا مســــتهترًا دنفًا ... كــانــت مــنــيــتــه فــي طــرفــه ويــده

فجعلت الجارية تصيح: هذا والله الغناء لا ما نحن فيه! وشرب القوم وسكروا، وبقي في صاحب المنزل مسكةٌ لجودة شربه، فأمر غلمانهم بحفظهم إلى منازلهم وانصرفوا، وخلوت معه وشرب أقداحًا، ثم قال: يا سيدي، ذهب ما مضى من عمري هدرًا إذ لم أكن أعرف مثلك، ولم أحاضر رئيسًا يشبهك؛ فبالله يا مولاي، من أنتَ لأعرف نديمي؟ فأخذت أورِّي عليه، وهو يقسم عليَّ إلى أن أعلمته من أنا على الحقيقة، فوثب قائمًا على قدميه وقال: لقد عجبت أن يكون هذا العقل إلا لمثلك! ولقد أسدى الزمان إليَّ يدًا لا أقوم بشكرها، ومتى طمعت بأن تزورني الخلافة في منزلي وتنادمني! ما هذا إلا في المنام، فلا أتممت ليلتي إلا قائمًا بين يديك، إذ كنتُ أحقر أن أجالس ذا الخلافة.

فأقسمت عليه إلى أن جلس، ثم أخذ يسألني ما السبب في حضوري عنده بألطف معنى، فأخبرته، يا أمير المؤمنين، بالقصة من أولها إلى آخرها، وما سترت منها شيئًا. ثم قلت: أمَّا الطعام فنلتُ منه بغيتي، فقال: والكف والمعصم إن شاء الله. ثم قال: يا فلانة، قولي لفلانة (جاريةٍ له) تنزل. وجعل يستدعي واحدةً واحدة، ويعرضها عليَّ وأنا لا أدري صاحبتي، إلى أن قال: والله ما بقي غير أمي وأختي، والله لينزلْن! فعجبت من كرمه وسعة صدره، فقلت: جعلت فداك! ابدأ بالأخت. فقال: حبًّا وكرامةً. ثم نزلتْ أخته فأراني يدها، فإذا هي التي رأيتها فقلت: حَسْبُكَ، هذه الجارية! فأمر غلمانه لوقته، واستدعى عشرة مشايخ سمَّاهم لهم، ثم قام فأخرج بَدرتين، عشرين ألف درهم، وحضرت المشايخ فقال لهم: هذا سيدي إبراهيم بن المهدي يخطب مني أختي فلانة، وأشهدكم أني قد زوجتها له، وأمهرتها له عشرة آلاف درهم. فقلت له: قبلت ورضيت النكاح. فشهدوا علينا، ثم دفع البدرة الواحدة إلى أخته، والأخرى فرَّقها على المشايخ، ثم قال: اعذروا فهذا ما حضر. فشكروا ودعوا له وانصرفوا، ثم قال: يا سيدي، أمهِّد لك بعض البيوت وتنام مع أهلك. فاحتشمني وما رأيت من كرمه، واستحييت أن أخلو بها في داره، فقلت: بل أحضر عَماريَّة وأجهزها، وأحملها إلى منزلي. فَوَحَقِّكَ يا أمير المؤمنين! لقد حمل إليَّ من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا على سعتها.

فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك يا أمير المؤمنين.

فعجب المأمون من كرم هذا الرجل فقال: لله دره! ما سمعت قط بمثل فعله. ثم أطلق الطفيلي بإجارة إبراهيم، وأمر بإحضار الرجل ليشاهده، فأُحْضِرَ بين يديه فاستنطقه، فأعجبه وصار من جملة خواصِّه ومحاضريه.

الليلة الرابعة

حدث نمير الهلالي قال: كان من فتيان بني هلال فتى يقال له: بشر بن عبد الله، وكان يُعرف بالأشتر، وكان من سادات بني هلال، أحسنهم وجهًا، وأسخاهم كفًّا، وكان مغرمًا بجارية من قومه تدعى جيدًا، وكانت بارعة الجمال والكمال. ثم اشتهر أمره وأمرها، وظهر خبرهما بين أهليهما، إلى أن كانت بين الفريقين، ثم افترقوا وأبعدت منازلهم، فقال نمير: فلما طال على الأشتر الفراق، وتمادى البعد، جاءني فقال: يا نمير، هل فيك من خير؟ فقلت: ما عندي إلا ما أجبت. فقال: تساعدني على زيارة جيد، فقد أذهب الشوق روحي! فقلت: نعم، بالحبِّ والكرامة، فانهض بنا إذا شئت. وركبت وسرنا يومنا وليلتنا والغد، حتى إذا كان العشاء أنخنا راحلتينا في شِعب قريب من الفريق، فقال: يا نمير، اذهب فتأنَّس بالناس، واذكر إن لقيت أحدًا أنك صاحب ضالَّةٍ، ولا تعرِّض بذكري بين شفةٍ ولا لسان، إلى أن تلقى جاريتها فلانة ترعى غنمهم، فأقرئها مني السلام، وسَلْها عن الخبر، وأعلمها بموضعي.

قال: فخرجت لا أعدو ما أمرني به، حتى لقيت الجارية وأبلغتها الرسالة، وأعلمتها مكانه، وسألتها عن الخبر، فقالت: هيَ — والله — مشددٌ عليها محتفظ بها، ولكن موعدكم أوائل الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت مع صلاة العشاء. قال: فانصرفت إلى صاحبي فأعلمته الخبر، ثم نهضت أنا وهو نقود راحلتينا، وأتينا الموضع في الوقت الموعود، فلم نلبث إلَّا قليلًا وإذا جيد تمشي قريبًا منا، فوثب الأشتر فصافحها وسلم عليها، وقمت أنا مولِّيًا عنهما، فقالا: نقسم عليك بالله إلَّا ما رجعت! فوالله، ما نحن في مكروه ولا بيننا ما يُستر عنك. فرجعت إليهما وجلست معهما، فقال: الأشتر: ما فيكِ حيلة يا جيد نتعلل الليلة؟ قالت: لا والله، وما لي إلى ذلك سبيل إلا أن يرجع الذي عرفتَ من البلاء والشر. فقال لها: لا بد من ذلك، ولو كان ما عسى أن يكون. قالت: فهل في صاحبك هذا من خير؟ قلت: قولي ما بدا لك فإني أنتهي إلى رأيك، ولو كان فيه ذهاب روحي. فخلعتْ ثيابها وقالت: البسها وأعطني ثيابك. ففعلت، ثم قالت: اذهب إلى بيتي وادخل في سربي، فإن زوجي سيأتيك بعد فراغه من الحيلة والقدح

مملوء، فيقول: هاكِ غَبُوقَكِ. فلا تأخذ منه حتى تُطِلْ ذلك عليه، ثم خذه أو دعه حتى يضعه ويذهب، فلست تراه حتى تصبح إن شاء الله تعالى.

قال: فذهبت ففعلت ما أمرتني به، حتى إذا جاء بالقدح لم آخذه حتى طال نكدي عليه، ثم أهويتُ لآخذه منه، وأهوى هو ليضعه، فاختلفت أيدينا على الإناء، فانكفأ القدح وانهرق اللبن، فقال: إنَّ هذا لطَمَاحٌ جدًّا! وضرب بيده إلى مقدَّم الستر، واستخرج سوطًا ملويًّا مثل الثعبان، ثم دخل فهتك السِّتر عليَّ، وأمتع السوطَ مني تمامَ عشرين سوطًا، ثم جاءت أمه وأخته فانتزعاني من يده، ولا والله ما فعلا ذلك حتى زال عقلي وهممت أن أضربه بالسكين، وإن كان فيها الموت! فلما خرجوا شددت ستري، وقعدت كما كنت، فلم ألبث إلا قليلًا حتى دخلت أم جيد، فكلمتني وهي لا تشك أني ابنتها، فاندفعت في البكاء والنحيب، وتغطيت بثوبي ووليتها ظهري، فقالت: يا بنيَّة، اتَّقي الله في نفسك ولا تتعرضي لمكروه زوجك، فذاك أولى بك، وأما الأشتر فذاك آخر الدهر. وخرجت من عندي وقالت: سأرسل إليك أختك تؤنسك الليلةَ. فما لبثت غير دقيقة وإذا الجارية قد جاءت، فجعلتْ تبكي وتدعو على من ضربني، وأنا لا أكلمها، ثم انضجعت إلى جنبي، فلما استمكنتُ منها شددت يدي على فِيها وقلت: يا هذه، تلك أختك مع الأشتر، وقد قُطِعَ ظهري الليلةَ بسببها، وأنت أولى بالستر عليها، فاختاري لنفسك ولها. ولئنْ — واللهِ — تكلمتِ بكلمةٍ لأصيحنَّ أنا بجهدي حتى تكون الفضيحة شاملة.

فلما سمعت ذلك دفعت يدي عن فيها واهتزَّت كما يهتز القضيب، فلم أزل بها حتى أنسَتْ بي، فباتت والله معي أحسن رفيق رافقته، ولم نزل نتحدث وتضحك مني وما نالني، وتمكنت منها تمكُّنَ مَن لوْ أرادَ ريبة فعلها، ولكن الله عصم، فله الحمد. ولم نزل كذلك حتى طلع الفجر، وإذا جيد قد دخلت علينا، فلما رأتنا ارتاعتْ وقالت: ويحك من هذه؟! فقلت: أختك. قالت: وما الخبر؟ قلت: تخبرك. فإنها — والله — نِعمَ الأخت. وأخذت ثيابي ومضيت إلى صاحبي، فركبت أنا وهو، وحدثته ما أصابني وكشفت له عن ظهري، فإذا فيه ضربٌ، رمى الله ضاربه بالنار، كلُّ ضربةً يخرج منها الدم، فلما رآني كذلك قال: لقد عظم صنعك، ووجب شكرك، وطالت يدك، فلا حرمني الله مكافأتك! ولم يزل لي شاكرًا معترفًا.

الليلة الخامسة

قال الواقدي: كان إبراهيم بن المهدي قد ادعى الخلافة لنفسه بالرِّي، وأقام مالكها سنةً وأحد عشر شهرًا واثني عشر يومًا، وله أخبار كثيرة، أحسنها عندي ما حكاه لي، قال: لما دخل المأمون الري وطلبني أشدَّ الطلب، وجعل لمن أتاه بي مائة ألف درهم، فخفت على نفسي وتحيرت في أمري، فخرجت من داري وقت الظهر، وكان يومًا صائفًا وما أدري أين أتوجه، فمررت على وجهي حتى وقعت في زقاق لا ينفد، فقلت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، إنْ عدت على أثري يرتاب بي. فرأيت في صدر الزقاق عبدًا أسودَ وهو قائم على باب دار، فتقدمت إليه فقلت له: أعندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار؟ فقال: نعم. وفتح الباب فدخلت إلى دار نظيفة، فيها حصيرة نظيفة ومخدة جلد، إلا أنها نظيفة، ثم أغلق الباب عليَّ ومضى لسبيله، فتوهمته قد سمع الجعالة فيَّ وأنه خرج ليدلَّ عليَّ، فبقيت على مثل النار قلقًا، فبينما أنا كذلك إذ أقبل ومعه حمَّال عليه كل ما يُحتاج إليه من خبز، ولحم، وقدر جديد وآلتها، وجرة نظيفة، وكيزان جدد، فحط عن الحمال والتفت إليَّ وقال: جعلني الله فداك! أنا رجل حجام، وأنا أعلم أنك تتقذر مني لما أتولَّاه من معيشتي، فشأنكَ بما لم تقع عليه يد. وكان لي حاجة إلى الطعام فطبخت لنفسي قدرًا ما أذكر أني أكلت مثله.

فلما قضيت أَرَبي من الطعام، قال لي: هل لك من شراب فإنه يسلِّي الهمَّ، ويطيب العيش، ويدفع عن النفس الغم؟ قلت: ما أكره ذلك. رغبة في أن أؤانسه. فأتى بقطرميز جديدٍ لم تمسه يد، وجاءني بدنين من شراب مطينة، وقال لي: روق لنفسك. فروقت شرابًا نهاية في الجودة، وأحضر لي قدحًا جديدًا وفاكهةً ونقلًا مختلفة في طسوت فخَّار جدد، ثم قال لي بعد ذلك: أتأذن لي — جعلت فداك — أن أقصد ناحية عنك وآتي بنبيذ لي فأشرب منه سرورًا بك؟ فقلت له: افعل. فشرب وشربتُ ثلاثًا، ثم دخل إلى خزانته فأخرج عودًا مصلحًا ثم قال: يا سيدي، ليس من قدري أن أسألك تغني، ولكن قد وجب على مروءتك وحرمتي، فإن أردت أن تشرِّف عبدك بأن تغني لنفسك فافعل. فقلت: ومن أين لك أني أحسن الغناء؟ فقال متعجبًا: سبحان الله، أنت أشهر من ذلك! أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لِمَن دلَّ عليك مائة ألف درهم.

فلما قال ذلك عظمت هيبته ومروءته عندي، وعلمت أن نخوته أجلُّ من المال الذي بذله فيَّ، فتناولت العود فأصلحته وغنيت، وقد مر بخاطري فِراق أهلي وولدي:

وعَسَى الذي أهدَى لِيُوسُفَ أهلَه ... وأعزَّه في السِّجن وهْو أسير

أنْ يَســْتَجِيبَ لنـا فيَجْمَعَ شـَمْلَنَا والله ربُّ العالمينَ قدير

فقال: يا سيدي، اجعل الذي تغنيه ما أقتضيه عليك. فقلت: نعم. فقال: غنِّ لي:

إنَّ الذي عَقَدَ الذي انعقدتْ به عُقَدُ المكارهِ فيك يُحْسِنُ حلَّها
فاصبرْ فإنَّ اللهَ يُعْقِبُ راحةً ولعلَّها أنْ تنجلي ولعلَّها

فغنيته ولم أكن أحسن لحنه، ولكني لحنته وتفاءلت به، وحسن عندي إيراده، فشرب وشربت وقال: غنِّ لي يا سيدي. فقلت:

فلا تجزعْ وإنْ أعسرتَ يومًا فقدْ أيسرتَ في الزمنِ الطويل
ولا تيأسْ فإنَّ اليأسَ كُفْرٌ لعلَّ الله يغني عن قليلِ
ولا تَظنُنْ بِرَبِّكَ غيرَ خَيْرٍ فإنَّ الله أَوْلَى بالجميل

وكنت أعرفه فغنيت وشربت، فقال: لله درك! عليَّ لله يد إذ آنسني بمثلك، وما كنت أحسب أن الزمان يسمح لي بكونك في منزلي، فإن رأيت أن تغني لي هذا فافعل. فقلت: نعم. فغنيته:

وإذا تنازعني أقول لها: اصبري موتٌ يريحك أو علوُّ المنبر
ما قد قضى الرحمن فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يُقْدَر

فغنيته، وحسن في روحي اقتضاؤه وأنست به واستظرفته، ثم قال لي: يا سيدي، أتأذن لي أن أغني ما سنح بخاطري وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة؟ فقلت له: هذا زيادة في أدبك ومروءتك! فأخذ العود وغنى:

شَكَوْنا إلى أحبابنا طولَ لَيْلِنَا فقالوا لنا: ما أقصرَ الليلَ عندنا
وذاك لأنَّ النوم يَغشَى عيونهم سريعًا ولا يغشى لنا النومُ أعينا
إذا ما بدا الليل المضرُّ بذي الهوى جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

فوالله لقد أحسست بالبيت قد سارَّ وذهب عني كل ما كنت فيه من الهلع، وسألته أن يغني فغنى:

تـعـيِّـرنـا أنَّـا قـلـيـلٌ عَديـدنـا   فـقـلـت لـهـا: إنَّ الـكـرامَ قـلـيـل
ومـا ضـرَّنـا أنَّـا قـلـيـلٌ وجـارنـا   عـزيـزٌ وجـار الأكـثـريـن ذلـيـل
وإنَّـا لـقـومٌ لا نـرى الـقـتـلَ سُـبَّةً   إذا مـا رأتـه عـامـرٌ وسـلـول
يـقـرِّب حـبُّ الـموت آجـالَـنـا لـنـا   وتـكـرهـه آجـالـهـم فـتـطـول

فداخلني من الطرب ما لا مزيد عليه، إلى أن عاجلني السُّكْر فلم أستيقظ إلا بعد المغرب، فعاودني فكري في نفاسة هذا الحَجَّام، وحسن أدبه وظرفه، وكيف اقتضاني من الغناء ما أراد أن يسليني به. فقمت وغسلت وجهي وأيقظته، وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير كثيرة لها قيمة، فرميت بها إليه وقلت له: أستودعك الله، فإني ماضٍ من عندك، وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة على بعض مهماتك، ولك عندي المزيد إن أمنتُ من خوفي. فأعادها إليَّ متنكرًا وقال لي: يا سيدي، إن الصعلوك منا لا قدر له، وليس عندكم من ذوي الرياسات، ويُظَنُّ به الظنون الرديئة عن الأخذ، أآخذ على ما وهبنيه الزمان من قدرك وحلولك عندي؟ ثم إني ألححت عليه فأومأ إلى موسى وقال: والله، لئن راجعتني فيها لأقتلنَّ نفسي. فخشيت عليه، وأخذت الخريطة فأعدتها إلى كمِّي وقد أثقلني حملها، فلما انتهيت إلى باب داره معولًا إلى المضي قال لي: يا سيدي، إن هذا الموضع أخفى لك، وليس في مؤنتك ثُقْلة، فأقمْ عندي إلى أن يفرج الله عنك. فرجعت وسألته أن يكون منفقًا من الخريطة، فلم يفعل، وكان يفعل في كل يوم مثل ما فعله في يوم حلولي عنده، فأقمت أيامًا في ألذِّ عيش، فتبرمت من الإقامة في منزلي، واحتشمت من التثقيل عليه، فتركته وقد مضى يجدد لنا حالنا، فقمت وتزينت بزي النساء بالخف والنقاب، فخرجت.

فلما صرت في الطريق دَاخَلَنِي من الخوف أمرٌ شديد، وجئت لأعبر الجسر فإذا أنا بالموضع قد رُشَّ وصار زلقًا، فأبصرني جنديٌّ ممن كان يخدمني فعرفني وقال: هذه حاجة المأمون. فتعلق بي، فمن حَلاوةِ الرُّوح دفعته هو وفرسه، فرميتهما في ذلك الزلق، وتبادر الناس لينقذوه فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر، ودخلت زقاقًا فوجدت باب دار وامرأة في دهليزه، فقلت: يا سيدة النساء، احْقِنِي دمي فإني رجل خائف! فقالت: على الرَّحب. وأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي، وقدمت طعامًا وقالت: هدِّئ رَوعك، فما يعلم بك مخلوق عندي ولو أقمت سنة. فهي معي في ذلك وإذا بالباب يُدَقُّ دقًّا عنيفًا، فخرجتْ وفتحت الباب فإذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر، وهو مشدود الرأس ودمه يجري على ثيابه، وليس معه فرسه، فقالت: يا هذا! ما بالك؟ فقال لها: إن حديثي عجيب؛ ظفرت بالفتى وانفلت

مني، ولو كنت حملته إلى المأمون لتعجلت لي مائة ألف درهم! قالت: ومن هو؟ قال: إبراهيم بن المهدي، لقيته وتعلقت به فدفعني والفرس، فأصابني ما ترين.

قال: فأخرجتْ إليه خرقًا فعملتها في جرحه، وعصَّبته وسقته شرابًا، ونام عليلًا. وطلعت إليَّ فقالت: أظنك صاحب القصة؟ فقلت: نعم. فقالت: لا بأس عليك. ثم جدَّدتْ الكَرامة فأقمت عندها ثلاثًا، ثم قالت: إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطَّلع على أثرك فينم بك؛ فَانْجُ بنفسك! فسألتها إمهالي إلى الليل ففعلتْ، فلما دخل الليل لبست زي النساء وخرجت من عندها، فأتيت إلى بيت مولاةٍ كانت لي، فلما رأتني توجَّعت لي وبكت، وحَمِدت الله على سلامتي، وخرجت كأنها تريد السوق والاهتمام في الضيافة، وظننت خيرًا، فما شعرت إلا بإسحاق بن إبراهيم المصلي بنفسه في خيله ورَجْله والمولاة معه فسلمتني له، فرأيت الموت عِيانًا، وحُمِلتُ إلى المأمون، فجلس مجلسًا عامًّا، وأدخلني إليه فلما مَثُلتُ بين يديه سلَّمت عليه بالخلافة، فقال: لا سلَّم الله عليك، ولا رعاك ولا حيَّاك! فقلت: على رِسلك يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناولته أيدي الاغترار بما أُمِدَّ له من أسباب الرجاء لم يأمن من غائلة الدهر، وقد جعلك الله فوقَ كل ذي عفوٍ كما جعل كل ذنب تحت عفوك، فإن تأخذ فبحقِّك، وإن تعفُ فبفضلك. ثم أنشدت:

ذنـبـي إلـيـكَ عـظـيـمٌ ... وأنـتَ أعـظـم مـنـه
فـخُـذْ بـحـقِّـك أوَّلًا ... فـاصـفـحْ بـحِـلْـمـك عـنـه
إنْ لـمْ أكـنْ فـي فِـعـالـي ... مـن الـكِـرام فـكُـنْـه

فرفع رأسه إليَّ فبدرته وقلت:

أذنـبـتُ ذنـبًـا عـظـيـمًا ... وأنـتَ لـلـعـفـوِ أهـل
فـإنْ عـفـوتَ فَـمَـنٌّ ... وإنْ جـزيـتَ فـعـدل

فرقَّ ليَ المأمونُ واستروحت رَواح الرحمة في وجهه، ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق وابنه العباس وجميع من حضر في خاصَّته وقال: ما تقول يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن قتلته وَجَدَنا مثلك قَتَلَ مثله، وإن عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله. فنكس المأمون رأسه ينكت بإصبعه في الأرض، ثم قال متمثِّلًا:

قَوْمِي هُمُ قتلوا أَمِيمَ أخي ... فإذا رميتُ يُصيبني سهمي
فلئن عفوتُ لَأَعْفُوَنْ جَلَلًا ... ولئن سطوتُ لأُوْهِنَنْ عظمي

فكشفت المقنعة عن رأسي وكبَّرت تكبيرة عظيمة، فقلت: عنًّا — والله — عفا أمير المؤمنين! فقال: لا بأس عليك يا عم. فقلت: يا أمير المؤمنين، ذنبي عظيم أعظم من أن أتفوَّه معه بعذرٍ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكرٍ، ولكن أقول:

إنَّ الذي خَلَق المَكارمَ حازَها ... في صُلْبِ آدم والإمامِ السابع
مُلِئَتْ قلوب الناس منك مَهابةً ... وتَظلُّ تَكلَؤهُم بقلبٍ خاشع
فعفوتَ عمَّن لم يكن عن مِثله ... عفوٌ ولم يُشفَع إليك بشافع
ورحمتْ أطفالًا كأفراخِ القَطَا ... وحنينَ والدةٍ بقلبٍ جازع
ردَّ الحياة عليَّ بعد ذهابها ... كَرَمُ المليك العادل المتواضع

فقال لي المأمون: لا تثريب عليك اليوم قد عفوت عنك، ورددت عليك ضِياعك. فقلت:

رددتَ مالكَ ولم تبخل عليَّ به ... وقبلَ ردِّكَ مالي قد حَقَنتَ دمي
نَأَيْتُ منكَ وقد خوَّلتني نِعَمًا ... هُمَا الحياتان من موتٍ ومن عدم
فلوْ بذلتُ دمي أبغي رضاكَ به ... والمالَ حتَّى أَسُلَّ النَّعْلَ مِن قدمي
ما كان ذاك سوى عاريَّةٍ رجعتْ ... إليك لو لم تُعِدْها كنت لم تُلَم
وإن جحدتك ما أوليتَ من نِعَمٍ ... إنِّي إلى اللُّؤم أولى منك بالكرم

فقال المأمون: إن من الكلام كلامًا كالدر، وهذا منه. وأمر لإبراهيم بمالٍ وخلع عليه، وقال: يا إبراهيم، إن أبا إسحاق وأبا العباس أشارا بقتلك. فقلت: إنهما نصحا لك يا أمير المؤمنين، ولكن أبيتَ إلا ما أنت أهله، ودفعت عني ما خفت بما رجوت. فقال المأمون: قد مات حقدي عليك بحياة عذرك وعفوي عنك، وأعظم من عفوي عنك أني لم أجرِّعْك مرار امتنانِ الشافعين. ثم سجد المأمون طويلًا ثم رفع رأسه وقال: يا إبراهيم، أتدري لمَ سجدتُ؟ فقلت: شكرًا الله الذي أظفرك بعدوك وعدو دولتك. فقال: ما أردت هذا، ولكن شكرًا لله على ما ألهمني من العفو عن مثلك، فحدِّثْني الآن حديثك.

فشرحت له صورة أمري وما جرى لي مع الحجَّام والجندي والمرأة والمولاة التي أسلمتني، فأمر المأمون بإحضارها وهي في دارها تنتظر الجائزة، فقال لها: ما حملك على ما فعلت مع إنعامه عليك؟ فقالت: رغبة في المال. فقال لها: هل لك من ولد أو زوج؟ فقالت: لا. فأمر بضربها مائة سوط، وخلَّدها في السجن، ثم قال: أحضروا الجندي وامرأته والحجام. فأُحْضِروا، فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل فقال: الرغبة في المال. فقال المأمون: أنت أولى أن تكون حجامًا من أن تكون من أوليائنا. ووكل به يُلْزِمه الجلوس في دكان الحجام ليتعلم الحجامة، واستخدم زوجته قهرمانةً في القصر، وقال: هذه امرأة عاقلة أديبة، تصلح للمهمات. ثم قال للحجام: لقد ظهر من مروءتك ما يجب معه المحافظة عليه. وسلَّم إليه دار الجندي ودابَّته، وخلع عليه وأثبته برزقه وزيادة ألف دينار في كل سنة، ولم يزل بخير إلى أن مات.

الليلة السادسة

قال الأمير بدر الدين يوسف المهمندار ابن الأمير سيف الدين أبي المعالي بن رماحٍ المعروف بمهمندار العرب: حكى لي الأمير شجاع الدين محمد الشيرازي متولي القاهرة في الأيام الكاملية، سنة ثلاثين وستمائة، قال: بينا أنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد ضيَّفنا وأكرمنا، وكان الرجل أسمر شديد السُّمرة كبير السن، إذ حضر له أولاد حسان بيض الألوان فيهم صفاءُ لون، فقلنا: يا فلان، هؤلاء أولادك بيض وأنت شديد السمرة! فقال: هؤلاء أمهم فرنجية، أخذتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شابٌّ نوبةَ حطين. فقلنا: وكيف أخذتها؟ فقال: لها حديث عجيب! فقلت: أتحفنا به.

فقال: زرعت كتانًا في هذه البلدة وقلعته ونفضته، فانصرف عليه خمسمائة دينار، فلم يجب لي أكثر من ذلك، فأشير عليَّ بحمله إلى الشام، فحملته فلم يجب أكثر من ذلك، فقيل لي: بِعْه صبرًا لعله يُرجع لك حقَّ الطريق. فبعت بعضه صبرًا إلى ستة أشهر، والبعض تركته عندي واكتريت حانوتًا أبيع فيه على مهل إلى حين انقضاء الستة أشهر، فبينا أنا أبيع إذ مرَّت بي امرأة فرنجيَّة معها عجوز. فأتت تشتري مني كتانًا، فرأيت من جمالها ما أبهرني، فبعتها وسامحتها، ثم انصرفت وعادت إليَّ بعد أيامٍ فبعتها وسامحتها أكثر من الكرة الأولى، فتكررتْ إلى عندي وعلمتْ أني أحبها، فقلت للعجوز التي معها: إنني قد تلِفت بحبها، فكيف تتحيَّلين لي؟ فلم تزل بها إلى أن اتفق الحال على أن أدفع لها خمسين

دينارًا صوريَّة، فوزنت خمسين دينارًا صورية وسلمتها للعجوز، فقالت: هيِّئ لنا موضعك ونحن الليلة عندك.

قال: فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكولٍ ومشروب، وشمع وحلوى، وكانت داري مطلَّة على البحر، وكان الصيفُ، ففرشت لي على سطح الدار، وجاءت الفرنجية، فأكلنا وشربنا، وجنَّ الليل فنمنا تحت السماء، والقمر يضيء علينا والنجوم تنظر في البحر، فلما أردت ما أردت قلت في نفسي: أما تستحيي من الله وأنت غريب تعصي الله مع نصرانية فتستوجب عذاب النار وعذاب الدنيا؟! اللهمَّ إنِّي أشهدك أني قد عففت عن هذه النصرانيَّة في هذه الليلة حياءً منك، وخوفًا من عقابك.

ثم نمت إلى الصبح، فقامت في السَّحَر وهي غضبى ومضت، ومضيتُ إلى حانوتي فجلست فيه، وإذا هي قد عبرت عليَّ هي والعجوز وهي مغضبة، وكأنها القمر، فقلت في نفسي: من هو أنت حتى تترك هذه الجارية؟ الجنيد أو السري السَّقَطِي؟ ثم لحقت العجوز وقلت: ارجعي! فقالت: وحق المسيح، ما نرجع إليك إلا بمائة دينار! فقلت: نعم. ومضيت إلى حانوتي ووزنتها، وجاءتني تلك الليلة، فلحقتني تلك الفكرة الأولى، وعففت عنها وتركتها لله تعالى، ثم مضت، ومضيت إلى موضعي، ثم عبرت عليَّ وكلمتني، وكانت مستغربة وقالت: وحق المسيح، ما بقيتَ تفرح بي عندك إلا بخمسمائة دينار أو تموت كمدًا! فارتعت لذلك وعزمت أني أغرم ثمن الكتان جميعه وأفدي نفسي، فبينا أنا كذلك والمنادي ينادي: معاشرَ المسلمين، إن الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت، وقد أمهلنا مَن هنا من المسلمين إلى جمعة ليقضوا أمورهم وينصرفوا إلى بلادهم!

فانقطعتْ عني، وأخذتُ أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي والمصالحة على ما بقي منه، وأخذت معي بضاعة حسنة وخرجت من عكَّا وأنا في قلبي من الفرنجية ما فيه، فوصلت إلى دمشق وبعت البضاعة التي لي بأوفى ثمن لانقطاع وصولها بسبب فراغ الهدنة، ومنَّ الله سبحانه وتعالى عليَّ بكسب جيد، وأخذت أتَّجر في الجواري عسى أن يذهب ما بقلبي من الفرنجية، ولازمت التجارة فيهن، فمضى عليَّ ثلاث سنين، وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وقعة حِطِّين، وأَخْذِه جميعَ الملوك وفتحِه بلاد الساحل بإذن الله تعالى، فطُلِب مني جاريةٌ للملك الناصر، وكان عندي جارية حسنة فاشتُريت له بمائة دينار، فأوصلوا إليَّ تسعين دينارًا، وبقي عشرة دنانير فلم يجدوها في الخزانة ذلك اليوم لأنه أنفق الأموال جميعها، فشاوروه على ذلك فقال: امضوا به إلى الخزانة التي فيها السبي من نساء الفرنج، فخيِّروه في واحدة منهن، يأخذها بالعشرة دنانير التي له.

فأتيت الخيمة فنظرت إليها فعرفت الجارية الفرنجية غريمتي، فقلت: أعطوني هاتيك! فأخذتها ومضيت إلى خيمتي وخلوت بها، وقلت لها: أتعرفينني؟ قالت: لا. فقلت: أنا صاحبك التاجر في الكتان الذي جرى لي معك ما جرى وأخذتِ مني الذهب وقلت: ما بقيت تبصرني إلا بخمسمائة دينار، وقد أخذتك مِلكًا بعشرة دنانير! فقالت: مدَّ يدك، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله! فأسلمت وحَسُنَ إسلامها، فقلت: والله، لا وصلت إليها إلا بأمر القاضي! فرحت إلى ابن شداد وحكيت له ما جرى، فعجب وعقد لي عليها، ودخلت بها تلك الليلة فحملت.

ثم دخل العسكر، فأتينا إلى دمشق، فما كان إلا شهور قلائل وأتى رسول الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاقٍ وقع بين الملوك، فردَّ من كان أسيرًا من الرجال والنساء، ولم يبقَ إلا امرأة الفارس التي عندي، فسألوا عنها وألحوا في السؤال والكشف، فوُشِيَ بها أنها عندي، فطُلبتْ مني وحضرتُ وأنا في شدةٍ وقد تغير لوني. فقالت: ما بدا لك؟ وما الذي أصابك؟ قلت: جاء رسول الملك الناصر وأخذوا الأسارى جميعهم، وطلبوك. فقالت: لا بأس عليك، أحضرني إليهم وأنا أعرف الذي أقول لهم.

قال: فأخذتها وأحضرتها قُدَّام السلطان الملك الناصر، والرسولُ جالس عن يمينه، فقلت: هذه المرأة التي عندي. فقال لها الملك والرسول: تروحين إلى بلادك أم إلى زوجك؟ فقد فُكَّ أسرك أنت وغيرك. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمت وحبلت، وها بطني كما ترونه! وما بقيت الفرنج تنتفع بي. فقال لها الرسول يخيرها وهذا ديننا: أيُّما أحب إليك: هذا المسلم أم زوجك الفارس فلان؟ فقالت له كما قالت للسلطان، فقال الرسول لمن معه من الفرنج: اسمعوا كلامها. ثم قال لي الرسول: خذ امرأتك وامضِ. فوليت بها وقد أرسل إليَّ عاجلًا وقال: إن أمها أرسلت لها معي وديعة وقالت: إن ابنتي أسيرة وهي عريانة شعثة، وأشتهي أن ترسل لها هذا الجمدان وتسلمه لها.

قال: فتسلمت الجمدان، ومضينا إلى الدار، ففتحته فوجدت قماشها بعينه، وقد صرَّته لها أمها، ووجدت الصرتين الذهب الخمسين دينار والمائة دينارًا كما هما بربطتي لم يتغيرا. وهؤلاء الأولاد منها، وهي تعيش بعد، وهي التي عملت هذا الطعام.

الليلة السابعة

قصة أرينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشي، وكان عبد الله بن سلام هذا واليًا لمعاوية على العراق، وكانت أرينب هذه من أجمل النساء وقتها، وأحسنهن أدبًا، وأكثرهن مالًا، وكان يزيد بن

معاوية قد سمع بجمالها وبما هي عليه من الأدب وحسن الخُلق والخَلق، ففتن بها. فلما عِيلَ صبره استهاج في ذلك مع أحد خصيان معاوية، وكان ذلك الخصي خاصًّا بمعاوية اسمه رفيف، فذكر ذلك رفيف لمعاوية، وذكر شغفه بها وأنه ضاق ضرعه بأمرها، فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره، فبثَّ له شأنه، فقال معاوية: مهلًا يا يزيد. قال له: علامَ تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل؟ قال له معاوية: فأين حِجاؤك ومروءتك؟ فقال له يزيد: قد عِيلَ الحِجاء ونفد الصبر، ولو كان أحد ينتفع به من الهوى لكان أولى الناس بالصبر عليه داود حين ابتلِيَ به. قال له: اكتم يا بنيَّ أمرَك، فإن البوح به غير نافعك، والله بالغ أمره فيك ولا بد مما هو كائن.

وكانت أرينب بنت إسحاق مثلًا في أهل زمانها لجمالها، وتمام كمالها، وشرفها، وكثرة مالها، فأخذ معاوية في الحيلة حتى يبلِّغ يزيد رضاه فيها، فكتب معاوية إلى عبد الله بن سلام — وكان استعمله على العراق — أن: أقبل حين تنظر كتابي لأمر فيه حظك إن شاء الله تعالى، ولا تتأخر عنه، وأجِدِ السير. وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قدم عبد الله بن سلام الشام أمر معاويةُ أن ينزل منزلًا قد هيَّأه وأعد فيه نزله، ثم قال لأبي هريرة وأبي الدرداء: إن الله قد قسم بين عباده نعمًا أوجب عليهم شكرها، وحتَّم عليهم حفظها، فحباني منها عز وجل بأتمِّ الشرف، وأفضل الذكر، وأوسع عليَّ رزقه، وجعلني راعي خلقه، وأمينه على بلاده، والحاكم في أمر عباده، ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وأول ما ينبغي للمرء أن يتفقده وينظر فيه من استرعاه الله أمره ومن لا غناء به عنه، وقد بلغت لي ابنة أريد إنكاحها، وأنظر في تنحل من يباعلها، لعل من يكون بعدي يقتدي بهديتي، ويتبع فيه أثري، فإنه قد يلي هذا المُلك بعدي من يغلب عليه زهو الشيطان، ويزينه إلى تعطيل بناتهم، ولا يرون لهن كفؤًا ولا نظيرًا، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام القرشي لدينه وشرفه، وفضله ومروءته وأدبه. فقال أبو هريرة وأبو الدرداء: إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيما خصه منها لأنت، أنت صاحب رسول الله وكاتبه وصهره. قال معاوية: فاذكرا ذلك عني، وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى، غير أني لأرجو ألا تخرج عن رأيي إن شاء الله تعالى.

فخرجا من عنده متوجهَيْن إلى منزل عبد الله بن سلام بالذي قال لهما معاوية، ثم دخل معاوية على ابنته فقال لها: إذا دخل عليكِ أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وإنكاحي إياك منه وحضاك على المسارعة إلى هواي، فقولي لهما: عبد الله بن سلام كفؤ كريم، وقريب حميم، غير أن تحته أرينب بنت إسحاق، وأنا خائفة أن يَعرِض لي من الغيرة ما يعرض للنساء، فأنال منه ما

يسخط الله فيه فيعذبني عليه، ولست بفاعلةٍ حتى يفارقها. فلما ذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام وأعلماه بالذي أمرهما معاوية، فردهما إلى معاوية خاطبين منه فقال: قد تعلمان رضاي به وحرصي عليه، وقد كنت أعلمتكما الذي جعلت لها في نفسها من الشورى، فادخلا عليها واعرضا الذي رأيت لها عليها وأعلماها ذلك. فدخلا عليها، وأعلماها بالذي ارتضاه أبوها، فقالت كالذي قال أبوها، فأعلما عبد الله بن سلام بذلك، فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراق أرينب أشهدهما على طلاقهما، وبعث إليهما خاطبين، وأعلما معاوية الذي كان من فراق عبد الله بن سلام امرأتَه طالبًا رضاها، فأظهر معاوية كراهيته لفعله وقال لهما: ما أستحسن له طلاق امرأته، ولا أحببته، فانصرفا في عافية ثم عودا إلينا فيها، ونأخذ إن شاء الله رضاها.

وكتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأرينب بنت إسحاق، فلما عاد أبو هريرة وأبو الدرداء إلى معاوية أمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها تبريًا من الأمر ونظرًا في القدر، ويقول: لم يكن لي أن أكرهها وقد جعلت لها الشورى في نفسها. فدخلا وأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته لِيَسُرَّاها، وذكرا من فضله وتمام مروءته وكريم محتده، فقالت: جفَّ القلم بما هو كائن، وإنه في قريش لرفيع القدر، وقد تعرفان أن التزويج جده جد وهزله جد، والأناة في الأمور لما يُخاف فيها من المحذور، فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد التأني فيها كان المرء فيها بحسن العزاء خليقًا، وبالصبر عليها حقيقًا، وإني سائلةٌ عنه حتى أعرف دخيلةَ خبره، ويصح لي بالذي أريد علمه من أمره، وإن كنت أعلم أن الاختيار لأحد فيما هو كائن ومعلمتكما بالذي يرينيه اللهُ في أمره، ولا قوة إلا بالله. قالا: وفقك الله وخارَ لك.

ثم انصرفا عنها. فلما أعلماه بقولها أنشأ يقول:

فإنْ يَكُ صدرُ هذا اليومِ ولَّى ... فإنَّ غدًا لِناظِرِهُ قريب

وتحدث الناس بالذي جرى من طلاق عبد الله بن سلام امرأته، وخِطبته ابنة معاوية، وقالوا: لم يطلِّق حتى فرغ من طلبته له الذي كان من بغيته. واستحثَّ عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء، فأتياها فقالا لها: اصنعي ما أنت صانعة، واستخيري الله فإنَّه يهدي من استهداه. قالت: أرجو — والحمد لله — أن يكون الله قد خار، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه، وقد اختبرت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي، مع خلاف من استشرته فيه، فمنهم الناهي عنه والآمر به، واختلافهم أول ما كرهت.

فلما أبلغاه كلامها علم أنه مخدوع، فإن المرء — وإنْ كَمُل له حِلمه واجتمع له عقله واستبدَّ رأيه — ليس يدافع عن نفسه قَدَرًا برأيٍ ولا كيدًا، ولعلَّ ما سُرُّوا به فرحوا لا يدوم لهم سروره ولا يصرف عنهم محذوره.

قال: وذاع أمره وفشا في الناس وقالوا: خدعه معاوية حتى طلق امرأته، وإنما أرادها لابنه، بئس ما صنع! فلما بلغ ذلك معاوية قال: لَعَمْرِي، ما خدعته! فلما انقضت أقراؤها وجَّه معاويةُ أبا الدرداء إلى العراق خاطبًا لها على ابنه يزيد، فخرج حتى قَدِمها وبها يومئذٍ الحسين بن علي بن أبي طالب، فقال أبو الدرداء إذ قدم العراق: ما ينبغي لذي نُهًى أن يبدأ بشيء ويؤثره على مهم أموره قبل زيارة الحسين سيِّد شبابِ أهل الجنة، إذا دخلت موضعًا هو فيه فأديت حقه والسلام عليه انقلبت إلى ما جئت إليه. فقصد الحسين، فلما رآه الحسين عليه السلام قام إليه وصافحه إجلالًا لصحبته من جده ﷺ ولموضعه من الإسلام، وقال له: ما أتى بك يا أبا الدرداء؟ قال: وجهني معاوية خاطبًا على ابنه يزيد أرينب بنت إسحاق، فرأيت عليَّ حقًّا أن لا أبدأ بشيء قبل السلام عليك. فشكر له الحسين ذلك وأثني عليه وقال: لقد كنت ذكرتُ نكاحها وأردت الإرسال إليها إذا انقضت أقراؤها، فلم يمنعني من ذلك إلا تخيُّر مثلك، فقد أتى الله بك فاخطب — رحمك الله — عليَّ وعليه لتختار من اختاره الله لها، وهي أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها، وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه. فقال: أفعل إن شاء الله.

فلما دخل عليها قال: أيتها المرأة، إن الله خلق الأمور بقدرته، وكوَّنها بعزَّته، فجعل لكل أمر قَدَرًا، ولكل قَدَر سببًا، فليس لأحد عن قدر الله مستخلصٌ، ولا للخروج عن علمه مستناصٌ، فكان ما سبق لك وقُدِّر عليك من فراق عبد الله بن سلام إياك، ولعلَّ ذلك لا يعيرك، ويجعل الله فيك خيرًا كثيرًا، وقد خطبك أمير هذه الأمة، وابن ملكها، وولي عهده والخليفة من بعده، يزيد بن معاوية؛ والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، وابن أول من أقرَّ به من أمته، وسيِّد شباب أهل الجنة يوم القيامة، وقد بلغك سناهما وفضلهما، جئتك خاطبًا عليهما فاختاري أيهما شئت. فسكتت طويلًا ثم قالت: يا أبا الدرداء، لو كان هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصت فيه الرُّسُل إليك، واتبعت فيه رأيك، ولم أقتطعه دونك، فأما إذا كنتَ أنت المُرْسَل فيه فقد فوَّضت أمري بعد الله إليك، وجعلته في يديك، فاخترْ لي أرضاهما لربك، واللهُ شاهد عليك، فاقضِ في قصدي بالتحرِّي، ولا يصدنَّك عن ذلك اتباع الهوى، فليس أمرهما عليك خفيًّا، ولا أنت عما طوَّقتُك غبيًّا. قال أبو الدرداء: أيتها المرأة، إنما عليَّ إعلامك، وعليكِ الاختيار لنفسك. فقالت:

عفا الله عنك! إنما أنا بنت أخيك، ومن لا غنى لها عنك، ولا يمنَعْك رهبةُ أحد من قول الحق فيما طوَّقتك، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حمَّلتك، والله خير من رُوعِيَ وخيف له، وهو بنا خبير لطيف.

فلما لم يجد بدًّا من القول والاستشارة قال: يا بنية، ابن بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ لك وأرضى عندي، واللهُ أعلم بخيرهما لك، وقد رأيت رسول الله ﷺ واضعًا شفتيه على شفتَيِ الحسين، فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله ﷺ شفتيه. قالت: قد اخترت ورضيت. فتزوجها الحسين بن علي رضي الله عنهما، فساق لها مهرًا عظيمًا.

وبلغ معاوية الذي كان من فعل أبي الدرداء في ذلك ونكاح الحسين إياها، فتعاظمه جدًّا ولامه شديدًا، وقال: من يرسل ذا بَلَهٍ وعَمًى يركب خلاف ما يهوى. وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها بُدَيْراتٍ مملوءة ذهبًا، وكان ذلك أعظم ماله لديه وأحبه إليه، وقد كان معاوية اطَّرحه وقطع عنه جميع روافده عنده، لسوء قوله وتهمته أنه خدعه، فلم يزل يجفوه حتى عيل صبره وقل ما في يده ولام نفسه على المُقام لديه، فرجع إلى العراق وهو يذكر ماله الذي استودعه إياها، ولا يدري كيف يصنع فيه وأنى يتوصل إليه، وهو يتوقع جحودها لسوء فعله بها، ولأنه طلقها على غير شيءٍ أنكره عليها.

فلما قدم العراق لقي الحسين فسلَّم عليه ثم قال له: قد عرفت ما كان من خبري وخبر أرينب، وكنت قبل فراقي إياها قد استودعتها مالًا عظيمًا، وكان الذي كان، ولم أقبضه. ووالله، ما أنكرت منها في طول صحبتها فتيلًا، ولا أظن بها إلا جميلًا، فذاكِرْها أمري واحضضها على رد مالي عليَّ، فإن الله يحسِّن عليه ذكرك ويحرك به أجرك. فسكت عنه، فلما انصرف الحسين إلى أهله قال لها: قدم عبد الله بن سلام، وهو يحسن الثناء عليك، ويحمد ما أنسه قديمًا من أمانتك، فسرَّني ذلك وأعجبني، وذكر أنه كان استودعك مالًا، فأدِّي إليه أمانته وردِّي عليه ماله، فإنه لم يقل إلا صدقًا ولم يطلب إلا حقًّا. قالت: صدق، استودعني مالًا لا أدري ما هو، وإنه لمطبوع عليه بخاتمه، ما حول منه شيء إلى يومه، وها هو ذا فادفعه إليه بختمه. فأثنى عليها الحسين خيرًا وقال: ألا أدخله عليك حتى تبرئي إليه منه كما دفعه إليك؟

ثم لقي عبد الله فقال: ما أنكرت مالك، وزعمت أنه كما دفعته إليها بطابعك فادخل يا هذا إليها واستوف مالك منها. قال عبد الله؛ أَوَتأمر من يدفعه إليَّ؟ قال: لا، حتى تقبضه منها كما دفعته إليها وتبرئها منه إذا أدَّته إليك. فلما دخل عليها قال لها الحسين: هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته، فأدِّي إليه أمانته. فأخرجت إليه البِدَر فوضعتها بين يديه وقالت: هذا مالك! فشكر وأثنى، وخرج

الحسين عنهما وفضَّ عبد الله خواتم بدره، وحثى لها من ذلك وقال: خذي، فهذا قليلٌ مني. فاستعبرا جميعًا حتى علتْ أصواتهما بالبكاء أسفًا على ما ابتليا به، فدخل الحسين عليهما وقد رقَّ لهما للذي سمع منهما، فقال: أشهد أنها طالقٌ ثلاثًا، اللهمَّ قد تعلم أني لم أستنكحها رغبةً في مالها ولا جمالها، ولكني أردت إحلالها لبعلها.

فطلقها ولم يأخذ شيئًا مما ساق لها في مهرها، فسألها عبد الله أن يصرف للحسين ما ساق لها شكرًا لما صنعه بهما فأجابته، فلم يقبله الحسين وقال: الذي أرجوه من الثواب خيرٌ لي. فلما انقضت أقراؤها تزوجها عبد الله بن سلام وبقيا زوجين متصافيَيْن إلى أن فرَّق بينهما الموت، وحَرَمها الله يزيد بن معاوية.

نقلتها من تاريخ ابن بدرون.

ولله در القائل:

وكـلُّ شـــــيءٍ إذا فـكـرَّت فـيـه تَرَى ... لـوائـحَ الـنَّقـصِ فـيـه جَلَّ مَـن كَمُلا

الباب الحادي والعشرون

في الشعراء المُجيدين

وهو مقدمةٌ ونتيجة:

أقول: لا بدَّ من مقدمة ينتفع بها الطالب لهذا العلم لئلَّا يخرج كتابنا عن ذلك.

الشعر

قول موزون مقفًّى بالقصد، يدلُّ على معنى، والمعنى للشعر بمنزلة المادة، واللفظ بمنزلة الصورة. وهو يشتمل على أربعة أشياء: لفظ، ومعنى، ووزن، وقافية. وتهذيبه أن يكون اللفظ سمحًا، سهلَ المخرج، حلوًا عذبًا. وتهذيب الوزن أن يكون حسنًا تقبله النفس والغريزة، غير منكسر ولا متزحف. وتهذيب القافية أن تكون سلسلة المخارج مألوفة، فإنَّ القوافي حوافز الشعر. وأن يقصد الكلام الجزل دول الرذل، ولا يعمل نظمًا ولا نثرًا عند الملل، فإن الكثير عنده قليل، والخواطر ينابيع، وإذا رفق بها جمَّت، وإذا عنف عليها مرجت، وليترنَّم بالشعر وقت عمله، فإنه يعين عليه، وقد يتخيل الشاعر الشعر الجيد فيمكنه مرة ولا يمكنه أخرى.

وإياك وتعقيد المعاني، واجعل المعنى الشريف في اللفظ اللطيف، لئلا يُتلفَ أحدهما الآخر، ومتى عصى الشعر فاتركه، ومتى طاوعك فعاوده، وروِّح الخاطر إذا كلَّ، واعمل في أحب المعاني إليك، وفي كل ما يوافقه طبعك؛ فالنفوس تعطي على الرغبة ولا تعطي على الإكراه، واعمل الأبيات متفرقة على ما يجود به الخاطر، ثم انظمها في الآخر، وحصل المبدأ والمقطع والخروج فهو أصعب ما في القصيدة،

وميز في فكرك محط الرسالة، ومصب القصيد، فإنه أسهل عليك، وأشعرها أولًا وهذبها آخرًا، فقد قيل عن زهير: إنه كان يعمل القصيدة في شهرين ويهذبها في حولٍ. ولذلك سمي شعره الحولي المنقح.

قال الخوارزمي: من روى حوليَّات زهير، واعتذارات النابغة، وأهاجي الحُطَيئة، وهاشميَّات الكُمَيت، ونقائض جَرير، وخمريَّات أبي نُوَاس، وتشبيهات ابن المعتز، وزهديَّات أبي العتاهية، ومراثي أبي تمام، ومدائح البحتري، وروضيَّات الصنوبري، ولطائف كشاجم، ولم يخرج إلى الشعر فلا أشب الله قرنه!

وإذا نثرت منظومًا فغيِّر قوافي شعره عن قرائن سجعه، وإذا سرقت معنى فغيِّر الوزن والقافية ليخفى ذلك، وإذا أخذت شعرًا فزد على معناه وأنقص من لفظه، واحترز مما يطعن به عليك، فحينئذ تكون أحقَّ من قائله. وأن لا تكاتب العامة بكلام الخاصة، ولا بالعكس. وأكثرْ من حفظ النظم والنثر، فعلى قدر ما تحفظ منه تقوى فيه.

واعلم أن الشعر يسخِّي البخيل، ويشجِّع الجبان، ويفرج الهموم، ويرضي الغضبان، ولذلك قالوا: الشعر أنفذ من السحر.

وقال النبي ﷺ: «إنَّ من الشعر لحكمًا، وإن من البيان لسحرًا».

وقال الشافعي في كتاب الأم: والشعر كلام كالكلام، فحسنه كحسنه، وقبيحه كقبيحه، وفضله على سائر الكلام أنه سائر في الناس، يبقى على الزمان فيُنظر فيه، إن كان حسنًا كان كغيره من الكلام الحسن. انتهى.

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي في خطبة ديوانه: ويكفي من تفضيله أن النبي ﷺ استنشد بعض الصحابة من شعر أمية، فأنشده مائة قافية، وكانت الصدِّيقة تحفظ لِلَبيدٍ ألف بيت وافية.

وكان الشعبي يقول: لو شئت أن أملي عليكم من إنشادي شهرًا لا أعيد بيتًا لفعلت. وكان الأصمعي يحفظ أثني عشر ألف أرجوزة.

وما زال السلف يحفظون الشعر قديمًا، ويتخذونه في الخلوات نديمًا، وينشدونه في المواطن للمؤانسة، ويوردون دقائقه في ساعات المجالسة، ولو أوردنا ما ورد في فضله من الآثار المسندة والأخبار الممهدة لوقف الناظر منها على حجج قوية ومحَجَّة ضويَّة، ولقد كان جماعة من العلماء الراسخين والأئمة الورعين لهم في صناعة الشعر الغاية، وانتهوا في الإجادة فيه إلى النهاية، يَعرف ذلك من وقف على تراجمهم وأحصاها، وطالع أخبارهم واستقصاها.

وحديث: «احثُوا في وجوه المدَّاحينَ التُّرابَ»، فالمراد به الغلو والإطراء، واستقباح المدح المفرط كلامًا وشعرًا ونظمًا ونثرًا، ولا يختص ذلك بالشعر وحده لما يخشى من افتتان سامعه عنده.

وقال أبو بكر الهذلي: قال لي الشعبي: أتحب الشعر؟ قلت: نعم. قال: إنما يحبُّه فحولُ الرجال ويكرهه مؤنَّثوهم.

ثم إن الناظمين لأرواح لآلئه أفراد، والظافرين بفرائده ذوو انفراد، والسالكين للمناهج الفاضلية أضمرتهم البلاد، والمقتفين لمنار السراج والمتحليين بحيلة الجمال قلَّت منهم الأعداد، والمؤلفين لعقودها المتواتر لمدحها أجاد، وربما ادعاه أغمار، وجهَّال ما لهم بالأشعار إشعار، راموا الوصول إلى معانيه اللطيفة بطباع كثيفة، وحاولوا أسبابه الخفيفة بنفوس ثقيلة، وأسبابه الثقيلة بعقول خفيفة، لا يظفر أحدهم بإثبات أوتاده وإن كان في عتوهِ ذا الأوتاد، ولا يتجملون من ملابسه بما يسترهم وإن تعصبوا أو نقَّبوا في البلاد، ولا يجيبون من ألفاظهم اليابسة إلا بما يقال لهم إذا قطعوه جابوا الصخر بالوادِ، فيقال لمجيدهم إذا أتى بلفظٍ وَزَنه وأخلاه من المعاني الحسنة:

إذا كنتَ لا تدري سوى الوزن وحده فقل: أنا وزَّانٌ وما أنا شاعرْ

ثم إن منهم من يظفر بمعنى، ولكن يقلِّبه تركيبًا ويركِّبه مقلوبًا، ويأتي بجملٍ غير مفيدة، وقد قلتُ في ذلك شيئًا من قصيدةٍ:

وشاعر بالمعاني لا شعورَ له مركَّب الجهل يُبدي سوءَ تركيبِ
موكَّل بمعانيه يحرسها فما يركب معنى غير مقلوب

فما أولاه أن يركِّب على نفسه مقلوبًا، ويضرب بأدبه على سوء الأدب تأديبًا.

انتهى كلام القاضي برهان الدين.

وقال الشيخ الإمام العالم المفنن النحوي العروضي القاضي، زين الدين عمر بن الوردي في خطبة الكلام على مائة غلام: وَلَعَمري، ما أنصفني من ساء بي الظن أو قال عني: رضي مع درجة العلم والفتوى بهذا الفن؟! فالصحابة كانوا ينظمون وينثرون، ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون.

وقال أبو بكر الخوارزمي في مدح الشعراء: ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم، والكذب مذموم إلا فيهم، إذا ذموا ثلبوا، وإذا مدحوا سلبوا، وإذا رضوا رفعوا الوضيع، وإذا غضبوا وضعوا الرفيع، وإذا أقروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد، ولم تمتد إليهم يد، غنيهم لا يصادر، وفقيرهم لا يحقَّر،

وشيخهم يوقَّر، وشابُّهم لا يُستصغر، وسهامهم تنفذ في الأعراض، إذا بثت سهامهم عند الأغراض، وشهادتهم مقبولة وإن لم ينطق بها سجل، ولم يشهد عليها عدل، سرقتهم مغفورة وإن جاوزت ربع دينار، وبلغت ألف قنطار، إن باعوا المغشوش لم يرد عليهم، وإن صادروا الصديق لم يستوحش منهم؟ بل ما ظنك بقوم هم صيارفة أخلاق الرجال، وسماسرة النقص والكمال؟ بل ما ظنك بقومٍ اسمهم ناطقٌ بالفضل، واسمُ صناعتهم مشتقٌّ من العقل، هم أمراء الكلام، يقصِّرون طويله، ويقصِّرون مديده، ويخفِّفون ثقيله؟

وقال الحسن بن سهل: لا تكسد صناعة الشعر إلا في أشرِّ مكانٍ وأخسِّ سلطان.

ومن حيلهم اللطيفة ما ذكره أبو الفتح كشاجم في كتابه المصايد والمطارد وهو أن بعض الملوك كان كثير الاشتغال بالصيد منهمكًا فيه، وكان بعض الشعراء قصده فتعذر عليه ما أمَّله، وحال بينه وبينه الحجاب لكثرة إلفه بالصيد، فعمد الشاعر إلى رقاعٍ لطاف وكتب فيها ما قاله من الشعر في مديحه، وصاد عنده من الظباء والأرانب والثعالب، وشد تلك الرقاع في أذناب بعضها وآذان بعض، وراعى خروجه إلى الصيد، فلما خرج كَمَنَ له في مظانِّه ثم أطلقها، فلما ظفر بها ورأى تلك الرقاع استبشر وزاد في استظراف الرجل، واستلطفه وزاد في رعي ذمامه، وأمر بطلبه فأُحْضِر ونال منه خيرًا كثيرًا.

وقريب منها: سأل رجلٌ لفخر المُلْكِ وزير بني بويه حاجةً وأمَّله فلم يعطه شيئًا، فمضى الرجل إلى القاضي واستدعى علي بن نباتة الشاعر، فلما جاءه الرسول قال: والله، ما لأحد عليَّ دين، ولا بيني وبين أحد معاملة ولا محاكمة، فمن خصمي؟ أحضرْه حتى أرضيه. فلما جاء الرجل قال: ما حقك حتى أوفيك؟ قال له: أنت قلت في شعرك حيث مدحت فخر الملك بقولك:

لِكلِّ فتًى قرينٌ حينَ يَسمو ... وفَخْرُ المُلْكِ ليس له قرينُ
أنِخْ في بابه وانزلْ عليه ... على حكم الرجا وأنا الضمين

فأنت قد ضمنت لي ونزلت عليه فلم يفعل، والضمين غارم وما أعطاني شيئًا. فقال: أمهلني حتى أصل إليه. فلما دخل على فخر الملك أخبره بالقصة فقال له: وكم أملت منه؟ فقال: مائة دينار. فقال: ادفعوها إليه. ثم قال لابن نباتة: إذا مدحتني فلا تضمن عني.

توفي ابن نباتة المذكور سنة خمس وأربعمائة، ومولده سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

وقال فخر الترك أيدمر المحيوي يمدح السلطان الملك الصالح، أيوب ابن السلطان، الملك الكامل محمد بن الملك العادل، تغمدهم الله برحمته، ويذكر بُنيانه للجزيرة المسمَّاة بالروضة، وجلوسه بالمقياس؛ وأولها:

الـرَّوضُ مـقـتـبـل الشـــبيبـةِ مُـؤنـق   خَضـــِلٌ يـكـاد غضـــاره يـتـدفَّـقُ

وقد ذكرت أوائلها في باب الروضات والبساتين، ثم ذكرت منها في بتاب الخمريات إلى مبتدأ هذه الأبيات:

إيـهٍ حـديـثـي لا خُـطـاك قصـــيـرة   يـوم الـرِّهـان ولا مـجـالـك ضـــيِّقُ
هـذا مـقـام الـمـلـك حـيـث تـقـول مـا   تهوى وتطنب كيف شــئت فتصــــدق
في حيث لا شـــرف الصـــفات بمعوزٍ   فـيـــه ولا بـــاب المـــدائـــح مـغـلَّق
مـلـكٌ يـلـوذ الـديـن مـنـه بـمـعـقـل   أشـــب ســـطـاه ســـوره والخنـدق
لـو أن ســــر المـلـك فـيـه مـخـتـفٍ   قـامـت شـــمـائـلـه عـلـيـه تـنـطـق
هـدأت بســـيـرتـه الـرعـيَّة واغـتـدى   قلـب الحســـود من المهـابـة يخفق
فـالـديـن بـعـد تـفـرُّقٍ مـتـجـمِّع   والـكـفـر بـعـد تـجـمـعٍ مـتـفـرِّق
الصـــالـحُ المـلـكُ الـذي رايـاتـه   عِـقْـدٌ بـه جِـيـدُ الـزمـان مـطـوَّق
عـرف الـرعـيـةُ يُـمـنَ دولـتـه الـتـي   فـيـهـم تـأكـد عـهـدهـا والمـوثـق
جمعـت كمـا اقترح الرجـاء إلى الغنى   أمـنًـا فـقـد رزقـوا الـذي لـم يـرزقـوا
فـاللهَ نـحـمـد ثـم أيُّـوبَ الـذي   أمـنَ الـغـنـيُّ بـه وأثـرى المُـمْـلِق
بـطـلٌ تـهـيـم عـداتـه بســـنـانـه   عشـــقًـا وقَـدُّ الرمحِ ممـا يُعشـــق
فتضـــمُّه ضـــمَّ الحبيـب قلوبهـا   يـوم الـوغـى وهـو الـعـدوُّ الأزرق
آيـات مـلـكـك مـعـجـزات كـلـهـا   ومـدى اهـتـمـامـك غـايـة لا تُـلـحـق
شـــيَّدتَ أبـنـيـةً تركـتَ حـديـثـهـا   مـثـلًـا يـغـرَّب ذكـره ويشـــرق
مـن كـل شـــاهـقـةٍ تـظـلُّ تـعـجُّبًا   مِن هَولِ مطلعهـا الكواكـب تشـــهق

لبس الرخام ملونًا فكأنه … روض يفوِّقه الربيع المُغدِق
واختال في الذهب الصَّقيل سيوفه … فكأنه شفق الأصيل المشرقُ
يا حسنها والنيل مكتنفٌ لها … كالسطر مشتملٌ عليه المهرق
فكأنَّها طرف إليه ناظر … وكأنه جفنٌ عليه مطبق
وافاه مصطفقًا عليه موجه … فكأنما هو للسرور مصفق
وتجاذبت أيدي الرياح رداءه … عنه فظلَّ رداؤه يتمزَّق
وسرى النسيم وراءهنَّ برفقه … فرقى الذي غدت الرياح تمزق
تلك المنازل لا حديثٌ يُفترى … عمَّا سمعت ولا العراق وجُلَّق
للهِ يوم كان فضلك باهرًا … فيه ومنك جماله والرونق
يوم تحلَّى الدهر فيه بزينةٍ … لما غدا المقياس وهو مخلَّق
هو ثالث العيدين إلَّا أنه … للهو ليس على العبادة يطلق
جمعت لمشهده خلائق غادرت … فيه رحيب البر وهو مضيق
وعلا عباب البحر من سُبَّاحه … أممٌ يغص بها الفضاء ويشرق
كادت تبين لهم على صفحاته … طرقٌ ولكن يفتقون وترتقوا
لم يمشِ مركوب بهم فنفوسهم … حثوا النحاء كما تُحثُّ الأنيُقُ
خفَّت جسومهمُ لفرطِ صبابةٍ … هزَّت إليك فما خَشَوا أن يغرقوا
وفدوا إليك مموِّهين بأخذِ ما … تُعطي وأكثرُ سُؤلِهم أن يرمقوا
متجرِّدين عن المَخِيط لأنهم … حجَّاجُ بيتكِ غير أن لم يَحلقوا
طافوا به سبعًا على وجناتهم … سعيًا وأرخى ستره فتعلقوا
والناس شاخصةٌ إليك عيونهم … كلٌّ يجدِّد طرفه ويحدِّق
ظمئت نفوسهمُ إليك فلم يكن … صدرٌ يَقرُّ به فؤادٌ شيِّق
متطلِّعين كما تطلَّع صائمٌ … ليرى هلالَ العيد ليلة يرمق

حتى إذا قُضَـــيتْ مناســـك كعبة الـ ـــــــمقيـاس وهي لكم عوائـد سُـــبَّق
وشـــكرتَ ربـك في الزيـادة طـامعًا ولشـــاكرِ النَّـعـمـاء المزيـدُ مـحـقَّق
ومـددت لـلـتـخـلـيـق أكـرمَ راحـةٍ أضــــحى الـخـلوقُ بطِيبها يتخلَّق
أقـبلـتَ تـنـظرك الـعـيـون فـتـنـثـنـي حســــرى وتـلحظـك الـقـلوب فتطرق
تمشـــي الهُوَينـا قـد علتـك ســـكينـةٌ كـادت قـلوب الـقـوم منـهـا تصــــعـق
مـتـتـوِّجًـا تـاجَ الـجـلالـة لابسًـــا حُـلَـلَ الـوَقـار وأنـت فـيـهـا ألـيَق
وقـد امـتـطى يـمـنـى يـديـك مـهـنـدًا عضـــبًـا بُروقُ النصـــر منـه تبرق
حـتـى انـتـهـيـت إلـى مـقـر كـرامـةٍ بـالـنَّـيِّـرات مـزخـرفٌ ومـنـمَّق
فجلســـت حيث جلســـت منه بزينةٍ شـــرفًـا وطـاف بـك الملوك وأحـدقوا
كـلٌّ يـغـضُّ مـن المـهـابـة طـرفَه فـتـراه وَهْـوَ لـغـيـرِ فِـكـرٍ مُـطـرق
والـنِّـيـل مضــــطربُ الـغـوارب مُـزْبِد صــــبٌّ إلـيـكَ فـؤادُه مـتشـــوَّق
لو يســـتطيع ســـعى وقبَّـل راحـة هـو في الســـمـاح بخُلقـهـا يتخلَّق
فـرأيـت مـنـك ومـنـه تـجـري نـعـمـة يـتـبـاريـان كـلاهـمـا يـتـدفـق
أطـعـمـتـهـم لمـا ســـقـى فـعـلـيـكـمـا رزق الـعـبـاد كـلاكـمـا يســــتـرزق
لـكـنَّ بـيـنـكـمـا عـلـى مـا فـيـكـمـا من نســـبـةٍ في الـجـود فـرقٌ يفـرق
تحصــــي الأصـــابع جوده بحســـابها لـكـن حســــاب نـداك لـيـس يـحـقـق
ويـفـيـض ذا فــي كـلِّ عـام مـرةً وبِـحـار جـودك كـل حـين تـفـهـق
ويـخـص ذا قـومًـا وجـودك يســـتـوي فـيـه الأنـامُ مـغـرِّب ومشــــرق
ونـــداك لا مـــنٌّ يـــكـــدِّره وذا يَـمْـتنُّ فـهـو لأجـل ذاك مـرفـق
لمـا غـدا المـقـيـاس مـقســــم راحـة يُـحيي الـرعـيـةَ فيضــُـهـا المتـدفق
أكـبـرت أن تـعـلـو المـلابسُ عَـطـفـه فكســـوتـه أنوارَ شــــمسٍ تشــــرق
أنشــــأتـه خـلـقًـا جـديـدًا مـا رأى راءٍ لـه شـــبـهًـا ولا هـو يـخـلـق

حــرم الــخــلافــة حــلــه مــن ربــه ... مــلــكٌ بــمــقــلــتــه الــخــلائــق تــرمــق
ذو مــعــنــيَينِ فــلــلــتــمــنُّع مــعــقــلٌ ... صــــعــب المرام وللتمتع جوســـق
أخــذ الــوقــار عــن المشـــيــب وزيِّه ... لــكــن عــلــيــه لــلشـــبــيــبــة رونــق
إيوان كِســرى حيــث شــئــت رأيتــه ... مــنــه وأدنــى مــا هــنــاك خــورنــق
حصـــــن تــمــرد مــنــعــةٌ لا مــاردٌ ... وعــلا فــعــزَّ مــنــالــه لا الأبــلــق
ذعــرت بــه هــوج الــريــاح فــمــا جــرت ... فــي جــوِّه إلا بــقــلــبٍ يــخــفــق
فــكــأنــمــا هــو فــي الــنــجــوم مــلــجــجٌ ... وكــأنــمــا هــو فــي الــنــجــوم مــحــلِّق
هــذا الــذي أعــيــا المــلــوك وُجــودُه ... من بعــد مــا هــامــوا عليــه وحلــقــوا
أدركــتَ بــالــتــمــكــين مــا لــم يُدركــوا ... ورُزقــتَ بــالــتــوفــيــق مــا لــم يُــرزقــوا
فــالنقض برم والقضـــــاء مســــدَّد ... والســـــعــدُ مــكــتــنــفٌ وأنــت مــوفــق

وقال شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد بن أبي الوفا الموصلي الشهير بابن الخلاوي (مولده سنة ثلاث وستمائة، ووفاته سنة ست وخمسين وستمائة) يهنِّئ الملك الرحيم صاحب الموصل بدارٍ بناها:

يــا دارُ نــال الــعــلا والــجــود بــانــيــك ... حــاشـــــاك مــمَّــا تــمــنَّــاه أعــاديــكِ
عــدنــا إلــيــك عــلــى رغمِ الــعــداة فــكــم ... بِــتــنــا نــحــثُّ الأغــانــي فــي مــعــانــيــك
وكم جلــونــا عروس الراحِ مشـــرقــة ... وكــم خــلــونــا بــمــن نــخــتــاره فــيــك
أصـــبــحــتِ بــالــعين لــلَّــذَّات منزلــةً ... فــكــلُّ عــينٍ لمــن عــاداك تــفــديــك

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة يهنئ ببناء دارٍ:

ودارٌ عَلَــتْ قَــدْرًا على الــدُّور مثلمــا ... عــلا ربُّــهــا بــالمَــكْــرُمــات عــلــى الــورى
مطــابقــةُ الأوصـــــاف أمَّــا نســـيمهــا ... فصــــحَّ وأمــا مــاؤهــا فــتــكســــَّرا
تكرَّر فيــهــا الــنَّــبْــتُ وهنًــا وروضــًـــة ... فــالله مــا أحــلــى نــبــاتًــا مــكــرَّرا
وشــــيَّدهــا ربُّ الفضـــــائــل والنــدى ... فــيــا حــبَّــذا دار الــقــراءة والــقِــرى

تـذكـره دارُ الـنـعـيـم بـطـيـبـهـا فيســـعى لجنَّـات النعيم كمـا ترى
لقد زادها في الحســن يوســفُ فاغتدتْ تُـبـاع بـمَـرآهـا الـقـلـوبُ وتُشـــترى

والمليح في هذا المعنى قول أشجع السلمي:

قَصــــرٌ عـلـيـه تـحـيـةٌ وســـلام خـلـعـتْ عـلـيـه جَـمـالـهـا الأيـامُ
أجـرى الإمـامُ عـلـيـه نـهـرًا مُـنـعـمًا أعـطـى الـقـيـاد ومـا عـلـيـه ذِمـام

وقال منها في المديح وأجاد:

وعـلـى عـدوِّك يـا بـن عـمِّ مُـحَـمَّد رَصـــَدانِ ضـــَوءُ الصـــُّبحِ والإظلام
فـإذا تــنــبَّـه رُعْـتَـه وإذا غـفـا ســلَّـت عليـه ســيـوفـك الأحـلامُ

قلت: الشيء بالشيء يذكر، وما أحسن ما ضمَّن هذه الأبيات الشيخ برهان الدين القيراطي رحمة الله عليه، قال:

ومشـــرف إن زاد تشـــريفًا فـقـد خـلـعـت عـلـيـه جَـمـالـهـا الأيـام
هـو جـامـع لـلـحســـن إلا أنـه قصـــر عـلـيـه تـحـيـة وســـلام
وعلى العـدى من نقشـــه وطروســـه رصـــدان ضـــوء الصـــبح والإظلام

وقال علي بن الجهم رحمة الله عليه:

وقـــبَّـةُ مـلـكٍ كـأنَّ الـنُّـجـو مَ تُـفضـــي إلـيـهـا بـأســـرارهـا
تـخـرُّ المـلـوك لـهـا ســُجَّـدًا إذا مـا تـجـلَّـت لأبصـــارهـا
وأروقـة شـــطـرهـا لـلـرخـام ولـلـتـبـر أكـرم أشـــطـارهـا
وفـوَّارةٌ ثـأرهـا فـي السْـــ ـــسَـماء فليســت تقصِّــر عن ثأرها
تـردُّ عـلـى المُـزْنِ مـا أنـزلـت على الأرضِ من صـــوب أمطـارهـا

نقلت من كتاب رفع الحجب المنشورة على محاسن المقصورة، من الجزء الأول، تأليف العلامة قاضي الجماعة بحضرة غرناطة، الشريف المرحوم، والخطيب بها، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد

الحسيني رحمه الله تعالى، وهذا التأليف من العجائب المخترعة ألفه شرحًا لمقصورة الإمام الأوحد أبي الحسن حازم بن محمد بن حسين بن حازم الأنصاري القرطاجني تغمَّده الله بالرحمة.

قلت: ذكر العلامة لسان الدين محمد بن الخطيب في تاريخه المسمَّى بالإحاطة أن مولد الشريف الحسيني سنة ست وتسعين وستمائة، ووفاته سنة ستين وسبعمائة.

قال الشارح: ويتعلق بذكر الهالة ما ذكره أبو عبد الله بكر بن عياش كاتب المنصور أبي يوسف يعقوب، قال: كان لأبي بكر بن مجير وفادة على المنصور في كل سنة، فصادف المنصور في إحدى وفادات فراغه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره، في حضرة مراكش، وكانت قد وُضعَت على حركاتٍ هندسية يُرفع بها لخروجه ويُخفض لدخوله، وكان جميعُ مَن بباب المنصور يومئذٍ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعارًا أنشدوه إياها في ذلك، فلم يزيدوا على شكره وتجزئته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره، ولم يكن فيهم مَن تصدَّى لوصف الحال حتى قام أبو بكر بن مجير فأنشده قصيدته التي أولها:

أعْلَمْتَنِي أُلْقي عصا التسيار ... في بلدةٍ ليستْ بدارِ قرار

واستمر فيها حتى ألمَّ بذكر المقصورة فقال يصفها:

طَوْرًا تكون بمَن حَوَته محيطةً ... وكأنَّها سُورٌ من الأسوار
وتكون طورًا عنهم مخبيَّةً ... فكأنَّها سرٌّ من الأسرار
وكأنَّما علمتْ مقاديرَ الورى ... فتصرَّفت لهم على مقدار
فإذا أحسَّت بالإمامِ يزورها ... في قومه قامت إلى الزوَّار
يبدو فتبدو ثم تخفى إن خفى ... كتكوُّن الهالات بالأقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها.

ومن لطيف بداهة الشعراء بحضرة ملوكهم ما ذكره القاضي شهاب الدين بن فضل الله في كتابه مسالك الأبصار في ترجمة مجير الدين بن تميم: حكيَ أن الملك المنصور استدعاه في ليلةٍ غفل رقيبها، وحضر ربيبها، وسحبت من سود الذوائب ظفائرها، وسجنت من بيض الأيام ضرائرها، إلى مجلسٍ مزخرف، وفواكه لم تحرف، وأمامه جدول قد خرَّ ماؤه فتكسَّر، وأنَّ عليه كلُّ بارقٍ وتحسَّر، والكؤوس

دائرة، والشموس في أيدي البدور سائرة، فلما رأى الجدول وقد أصابته من العين نظرة فتعثر، وسقط عقد لؤلؤه وتنثر، نظر إليه وقال رحمة الله عليه:

يا حسنه مِن جدول متدفِّق ... يُلْهِي برونقِ حُسْنه مَن أبصرا
ما زلتُ أنذره عيونًا حوله ... خوفًا عليه أنْ يصاب فيعثرا
فأبى وزاد تماديًا في جريه ... حتى هوى من شاهقٍ فتكسَّرا

فسُرَّ المنصور بأبياته، وأحب استطلاع خبايا بناته، وأمره بالجلوس إليه، وجعله أرفع القوم لديه، ولم يستقر به المكان، ولا قعد ولا استكان، حتى تحرك المجلس لغلام ورد، كأنما يبسم عن برد، فقال له المنصور بصوتٍ يخفيه: ما تقول فيه؟ فقال:

يا هلالًا لمَّا تَبدَّى وحيًّا ... بابتسامٍ عدمتُ منه اصطباري
فأراني بوجهه وثنايا ... ه نجومًا طلعن وسط النهار

فقال له سرًّا، وقد أسفر وجهه وتسرَّى: إلا أنه شديد النفار من المدام، وله قرع بالمَلام، فهل تقدر على استلانته، وتسهيل بأسه واستهانته؟ فما قطع المقال، حتى التفت إليه ابن تميم وقال:

أتهجرها صرفًا لأجل خمارها ... وذلك شيء لو جرى غير ضائر
فلا تخشَ من داء الخمار وعاطِها ... هنيئًا مريئًا غير داءٍ مخامر

فكاد الغلام يسطو عليه كالغالب، وقال له كالعاتب: ما هذه؟! فقال:

صفراء لو لاحتْ لِشمسِ الضُّحى ... مِن قبل أن تَطلُع لم تطلع
أحسنُ ما في وصفها أنَّها ... لم تجتمع والهمَّ في موضع

فقال: بل أشرب خيرًا منها، وأدع المنهي عنها. ثم إنه أتى بِركةً فعبَّ في مائها، وأزرى وجهه خيال قمره في سمائها، فقال:

أفدي الذي أهوى بفيهِ شاربًا ... من بِركةٍ طابتْ وراقت مشرعا
أبدتْ لعيني وجهه وخياله ... فأرتنيَ القمريْن في وقتٍ معا

ثم لم يزل به حتى شرب، ولذَّ معه ليلة وطرب، فلما طلع ابن ذكاء، وأنار الصبح وأضاء، شكر له المنصور حلَّ عقدة الغلام، وقال: مثلك من سَحَرَ بالكلام! ثم أسنى له الجائزة، وغدا ابن تميم ويده لها حائزة.

وحكي عنه أنه استدعاه في صبيحةِ يومٍ أبيضَ، ونوبات ياسمينه على الأرض تنقض، والثلج قد نفض كافوره، والجليد قد كسر بلوره، والسحائب قد أصبحت ذيولها مجرورة، والبرق قد تلون طول ليلته حتى أخرجها من صورة إلى صورة، وأواني الزجاج قد شفَّت وراء مدامها، والدنان قد فُكَّ عنها خِتام فِدامها، ورجال الراح قد زادت في إقدامها، والساقي بعذار كأنما سقى بالريحان، أو سبح بالزمرُّد نبت الجمان، وتحت عذراه خيلان قد خبأت مِسكها فزاد تضوعًا، وكثر طيبه تنوعًا، قد تأرَّج نشرها وفاحَ، وعلم بنقطها في خده بأنه قد تم وصف التفاح، فلما دخل عليه في بكرةِ ذلك اليوم الأغرِّ، ورأى الدنيا ضاحكة تغتر، أنشده:

يا أيها الملك الذي بُسِطَتْ له ... بالجودِ كفٌّ دَهْرَها لم تُقبض
دُنياك مذ وعدت بأنك لم تزل ... في نعمةٍ وسعادةٍ لا تنقضي
كأنَّ الدليل على وفاها أنها ... أضحت تقابلنا بوجهٍ أبيض

فأجزل له الصلة، ولم تكن عوائده بمنفصلة.

ذكر ابن ظافر في بدائع البدائه أن المعتمد بن عباد كان جالسًا ذات يوم فمر عليه بعض حظاياه في غلالة لا يكاد يُفرَّق بينها وبين جسمها، فسكب عليها إناء ماء ورد، فعجب من حسنها وجمالها فقال:

وهويتُ سالبةَ النفوس عزيزةً ... تختال بين أسنَّة وبواتر

واستجاز البجلي وهو على الباب فقال:

راقت محاسنها فرقَّ أديمها ... فتكاد تبصر باطنًا من ظاهر
وتمايلت كالغصن في ورق الندى ... يلتفُّ في ورق الشباب الناضر
تبدي بماء الورد عنبر شعرها ... كالطَّلِّ يسقط من جناحِ الطائر
تُزهي برونقها وحسن حديثها ... زهوَ المؤيَّد بالثناء العاطر

فلما قرأها استحسنها وقال له: أوَكنتَ معنا جالسًا؟

وقال محاسن الشوَّاء:

وحولك من حماة الأرض شوس ... غلائلها الجواشن والدروع

قد اعتقلوا ذوائب كالأفاعي ... إذا اضطربت عواملها تروع

تلوك اللجم تحتهمُ جيادٌ ... سلاهب ما بها عطش وجوع

صدمت بهم فريق الترك حتى ... تهدَّم ركن جمعهمُ المنيع

فكرُّوا والصوارم منتضاةٌ ... بأيديهم فغلفها النجيع

وقال الصليحي الداعي رحمه الله:

أنكحتُ بيضَ الهند سُمرَ رماحهم ... فرؤوسهم عوضَ النثار نثار

وكذا العلا لا يُستباح نكاحها ... إلا بحيث تُطَلَّق الأعمار

وقال ابن رشيق الأزدي:

لو أورقتْ من دمِ الأبطال سُمْرُ قَنًا ... لأورقت عنده سُمْرُ القنا الذُّبُلِ

إذا توجَّه في أُولى كتائبه ... لم تفرقِ العينُ بين السَّهل والجبل

فالجيشُ ينفض حوليه أسنَّتَه ... نقضَ العُقاب جناحَيْها من البلل

وقال العلَّامة ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب:

للهِّ موقفكَ الذي وَثَبَاتُهُ ... وثَبَاتُهُ مثلٌ به يُتمثَّل

والخيلُ خَطٌّ والمجال صحيفة ... والسُّمرُ تَنقُطُ والصوارمُ تَشكُل

والبِيضُ قد كُسرتْ حروفُ جفونها ... وعوامل الأسَل المثقَّف تعمل

لله قومك عند مشتجر القنا ... إذ ثَوَّبَ الداعي المهيبُ وأقبلوا

قومٌ إذا لفح الهجير وجوههم ... حجبوا برايات الجهاد وظللوا

وقال السيد الفاضل شمس الدين محمد بن الصاحب موفق الدين الآمدي:

وإذا سـرى تلقى السـنابك ضـعف ما   بـيـراعـه فـوق الـطـروس مـن الـجـفـا
مـزاج كـأس الـراح مـن مـاء الـظُّبـا   لَمَّـا أسـال مـن الـنـجـيـع الـقـرقَـفَا
كأس العجاج ترى الكماة شـخوصـها   والـبـيـض فـوقـهـم حـبـاب قـد طـفـا
خَضَـبَ النجيع لكل سـيف معصـمًا   ولـكـل رمـح إصـبـعًـا قـد طـرَّفـا

وقال عبد العزيز بن نباتة:

وولـوا عـلـيـهـا يـقـدمـون رمـاحـنـا   وتـقـدمـنـا أعـنـاقـهـم والمـنـاكـب
خـلـفـنـا بـأطـراف الـقـنـا لـظـهـورهـم   عيونًـا لـهـا وقـع الـسـيوف حواجـب

وقال الشهاب محمود الحلبي يمدح الأشرف خليل بن قلاوون:

فصـبَّحتَها بـالجيشِ كـالروضِ بهجةً   صـوارِمُـه أنـهـارُهُ والـقـنـا الـزُّهـرُ
وأبـدعتـهـا كـالـبحـر والبَيضُ موجُـهُ   وجُرْدُ المَـذاكي السـفنُ والخُوَذُ الـدُّر
وأغـرب بـل كـالـلـيـل عـوجُ سـيـوفِهِ   أهِـلَّـتُـه والـنَّـبـل أنـجـمـه الـزهـر
وأخطـأتَ لا بـل كـالنهـار فشـمسـه   جيوشـك والآصـال راياتك الصـفر

وقال الأسعد بن مماتي يمدح الظاهر غازي:

أيـنـكـر أنَّ يـديـم الـغـزو غـازٍ   وأسـمـاء المـلـوك لـهـا حُـلاهـا
كـأنَّ السُّـمـر أرشـيـة طِوالٌ   فـكـم نـفـسٍ بـهـنَّ قـد اسـتـقـاهـا
إذا اكـتـحـلـتْ عـيـونٌ مـن عـداه   بِـعِـثـيَـرِ خَـيـلِـهِ وجـدتْ عـمـاهـا
وأطلـع نـفـس أسـمـره فـأضـحـى   يـفـتِّـش عـن نـفـوسٍ مـا خـبـاهـا
إذا مـا خِـلْـتـهـا سـترت كـمـينًا   فـتـطـعـلـهـا لـتـبـصـر مـا وراهـا
سَـلِ الـبـيـت المقـدَّس عنـه يُخبر   بسـورةِ فَـتـحِـه لَمَّـا تـلاهـا
مـحـا الـنـاقـوس والصُّـلـبـان عنـه   وأثـبـت ﴿هَـلْ أَتَـىٰ﴾ فـيـه و﴿طـه﴾

وقال التهامي رحمة الله عليه:

وَدَحَوْا فُوَيقَ الأرضِ أرضـًا من دمٍ ثـمَّ انـثـنَـوْا فـبـنَـوْا ســمـاء غُـبـارِ
قومٌ إذا لبسـوا الـدروع حسـبتَهـا سـُحُـبًـا مُـزرَّرةً عـلـى أقـمـارِ
وتـرى سـيـوفَ الـدارعـين كـأنَّـهـا خُـلُـجٌ تُـمَـدُّ بـهـا أكـفُّ بـحـار
جـنـبـوْا الـجـيـادِ من المطيِّ وراوَحـوا بـينَ السـروج هـنـاك والأكـوار
وكـأنَّـمـا مـلأوا عـبـابَ دروعـهـم وغُـمـودَ أنصـلـهـم سـرابَ قـفـار

وقال سبط ابن الجوزي: لما صالح الكامل الفرنج على دمياط، وعاينوا الهلاك، أرسلوا إليه يطلبون الصلح والرهائن ويسلمون دمياط، فمن حرص الكامل على خلاص دمياط منهم أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوهم برقابهم، فبعث إليهم الكامل ابنه الصالح أيوب، وابن أخيه شمس الملوك، وجاءت الملوك إلى الكامل فالتقاهم وأنعم عليهم، وضرب لهم الخيام، ووصل المعظَّم والأشرف في تلك الحال إلى المنصورة، وذلك في ثالث رجبٍ سنةَ ثمانِ عشرة وستمائة، فجلس الكامل في خيمة عظيمة كبيرة عالية، ومدَّ سماطًا، وأحضر ملوك الإفرنج والخيالة، ووقف في خدمته إخوته المعظم والأشرف وغيرهما، وقام شرف الدين راجح الحلي وأنشد:

هـنـيـئًـا فـإنَّ الســعـد راح مـخـلَّـدًا وقـد أنجز الرحمنُ بـالنَّصـر موعـدا
حَـبـانـا إلـهُ الـخـلـقِ فـتـحًـا بـدا لـنـا مُـبـيـنًـا وإنـعـامًـا وعـزًّا مـؤبَّـدا
تـهـلَّـل وجـهُ الأرضِ بـعـدَ قُـطُـوبـه وأصـبحَ وجهُ الشِّـرك بالظلم أسـودا
ولمَّـا طغى البحر الخِضَـمُّ بـأهلـه الطْـ ـطُغـاة وأضـحى بـالمراكب مزبدا
أقـام لـهـذا الـدين من سـلَّ عزمـه صـقيلًا كما سـلَّ الحسـام مجرَّدا
فـلـم يـنـجُ إلَّـا كـلُّ شـلـوٍ مـجـدَّل ثـوى مـنـهـم أو مـن تـراه مـقـيَّـدا
ونـادى لسـانُ الكون في الأرض رافعًا عـقـيرتـه فـي الـخـافـقـين ومُنشـدا
أعُبَّـادَ عيسـى إنَّ عيسـى وحِزبـه وموسـى جميعًـا يخـدمون مُحمَّـدا

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: بلغني أنه وقتَ الإنشاد أشار عند قوله: عيسى إلى المعظَّم، وعند قوله: موسى إلى الأشرف، وعند قوله: محمد إلى الكامل، وهذا من أحسن الاتِّفاق.

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي في شرح لاميَّة العجم: أنشدني من لفظه الشيخ الإمام الحافظ العلامة أثير الدين أبو حيان، محمد بن يوسف، قال: أنشدني من لفظه لنفسه بدر الدين أبو المحاسن محمد بن يوسف المهمندار في السلطان الملك الظاهر لما خاض الفرات:

لو عاينتْ عيناكَ يومَ نِزالنا ... والخيلُ تَطفَحُ في العَجَاج الأكدَرِ
وسَنا الأسنَّةِ والضياء من الظُّبا ... كشفا لأعيننا قتامَ العِثيَر
وقد اطْلَخَمَّ الأمرُ واحتدم القَنا ... ووهى الجبانُ وساء ظنٌّ المجتري
لرأيتَ سدًّا من حديد مائرٍ ... فوق الفرات وفوقه نارٌ تري
ظَفرتْ وقد منعَ الفوراسُ مدَّها ... تجري ولولا خيلُنا لم تطفرِ
ورأيتَ سيلَ الخيل قد بلغ الزُّبى ... ومِن الفوراس أبْحُرًا في أبحرِ
لمَّا سَبقنا أسهمًا طاشتْ لَنا ... منهم إلينا بالخيول الضُّمَّر
لم يَفتحوا للرَّمي منهم أعيُنًا ... حتَّى كُحِلنَ بكلِّ لدنٍ أسمر
فتسابَقوا هربًا ولكنْ ردَّهم ... دونَ الهزيمةِ رمح كلَّ غَضَنْفَر
ما كان أجرى خيلنا في إثرِهم ... لو أنَّها برؤوسهم لم تَعثُرِ
كم قد فَلَقْنا صخرةً من صرخةٍ ... وَلَكَمْ ملأنا مَحْجَرًا من مَحجر
مَلَؤوا الفضاء فعَنْ قليلٍ لَم نَدَعْ ... فوقَ البَسيطةِ منهم من مخبرِ
سَدَّت علينا طرقنا قتلاهم ... حتَّى جنحنا للمكان الأوعر
مِن كلِّ أشهب خاضَ في بحر الدِّما ... حتَّى بدا لعيوننا كالأشقر
وجرتْ دماؤهم على وجه الثرى ... حتى جرتْ منها مجاري الأنهر
والظاهر السلطان في آثارهم ... يذري الرؤوس بكلِّ عَضبٍ أبتَر
ذهبَ العَجاج معَ النَّجيع بصَقْله ... فكأنَّه في غِمده لم يُشهَر

وقال الأديب الفاضل الكامل الرَّحَّال، جوَّاب الآفاق، برهان الدين إبراهيم الساحلي، الشهير بالطويجن المغربي، ذكره العلامة لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة، وأثنى عليه الثناء البالغ، وذكر أن وفاته سنة تسع وثلاثين وسبعمائة، من قصيدة مطوَّلة يمدح بها أحد ملوك اليمن، أولها:

خـطـرت كـمـيَّـاد الـقـنـا الـمـتـأطِّر ... ورمـتْ بـألـحـاظِ الـغـزال الأعـفـر

ومنها في الغزل:

تُسـجي على الخـدِّ النقـابَ وإنَّمـا ... تُرخي الغمام على الصباح المسفر
فـتُخـالُ فـوقَ الـروضِ ظـلَّ أراكـة ... وعـلـى ثـرى الـكـافـور ظلَّـة عـنـبـر
وبمـلـعـب الصُّـدغين مطـرد وجنـة ... زحـفـتْ عـلـيـه كـتـائـبُ ابـن الـمـنـذر

ومنها في المديح:

مـا أسـرة زحفوا بعسـكر تُبَّع ... وتـقـلَّـدوا بـعـزيـمـة الإسـكـنـدر
الشـائمين الصـبح من خلـل الظُّبـا ... والـنـجـم مـن طرف السـنـان الأزور
والمطعمين الأُسـد من أمثـالهـا ... أشـلاء كـل مـجـدَّل ومـعـفَّر
والخـالعين على الزمـان ملابسًـا ... نظمـت مفـاخرهـم كنَظْمِ الجوهر
تتلو سـريتـه الضـُّحى يوم الوَغى ... فـيُـعـيـدهـا بـالـلـيـل آيُ الـعـثـيَر
وجـيـاده بـالـعـاديـات وبِـيضـه ... بـالـقـارعـاتِ وكـفُّـه بـالـكـوثـر
قـاتِل برعبـك جيش ضـدِّك ينثني ... واضـرب بعزمك قبل سـيفك تُنصـر
فـرؤوس من عـاديـت أغمـاد الظُّبـا ... ودمـاء مـن نـاويـت زي الـسَّـمـهـر
جرِّع عدوك فضـل كـأسٍ قد سـقى ... مـنـهـا أبـوه فـإنْ أبـى فـلـيُـجـبَر
اغمـدْ ذبـالتـه التي لم تسـتتر ... وغـمـام مـزنـتـه الـتـي لـم تـمـطـر
أرسـل عليـه عُقـاب عزمٍ صـادقٍ ... يشـتـفُّ روح نـعـامـه الـمـتـنـفِّر
مـزِّق ثـيـابَ الـعـزِّ عـنـه وخـلِّ فـي ... عـطـفـيـه حـاشـيـةَ الـرداءِ الأحـمـر
هـذي قـواعـد مـلـكـه مـدَّت إلـى ... علياك جيد اللائذ المسـتنصـر
ضـاقـت يـداه بهـا وقـلَّ نصـيره ... فـيـهـا فـطـلَّـقَـهـا طـلاقَ الـمُـعْسِـر
خـذْهـا إليـكَ محـاجـة من شـاعر ... غـاصـتْ إليك بـأبحرٍ لم تسـجر
مَرْهَـا الـعـيـونِ كَلَيـلـةٍ أجـفـانـهـا ... إن لـم تكـن إنسـانهـا لـم تبصـر

وقـف ابـن أوس دونـهـا وتـخـبـطَّتْ ... فـي نســـجِ حُلَّـتـهـا أكفُّ الـبـحـتـري
واســـحـبْ ذيولَ العز في أرض النَّدى ... واركـب ظـهـور الشـــُّهـب يومَ المـفخَر
واضـــرب رِواق الـعزِّ في أرض العُلا ... وارفعْ ســـمـاك الفخر فوق المشـــتري

وقال القاضي الفاضل تغمده الله برحمته:

أهـذهِ ســـيرةٌ في المجـدِ أم ســُوَر ... وهـذه أنـجـمٌ فـي الســَّعـد أم غُـرَرُ
وأنـمـلٌ أم بِـحـارٌ والســـيـوف لـهـا ... مـوجٌ وإفـرنْـدُهـا فـي لُـجِّـهـا دُرَر
وأنتَ في الأرض أم فوق الســـماء ففي ... يَمينـك البحرُ أم في وجهـك القمـر
يـقـبِّـل الـبـدرُ تُـرْبًـا أنـتَ واطـئُه ... فـلـلـتُّـرابِ عـلـيـه ذلـكَ الأثـر
نـأى بـهِ المُلـكُ حتَّى قِيـلَ: ذا مَلَـكٌ ... دنـا بـه الجودُ حتى قيـل: ذا بَشَـر
في كـلِّ يومٍ لنـا مِن مَجْـدِه عَجَـبٌ ... وكـل يـومٍ لـنـا مِـن ذكـره ســَمَر
نظرتُ في نجمِـه فـالســَّعـدُ طـالعـهُ ... لا يـنقضـــي وعلـى أمـوالـه ســـفر
أبـا الـفـوارس والأبـطـال مُشـــفـقـة ... وهـم بـنـوك فـمـا تـبـقـى ولا تـذر
يلقى عروسَ المنـايـا وهي حـاســرة ... وخـدهـا فيـه من فيض الـدِّمـا خَفَر
والضـــربُ بـالبيضِ من آثـاره عُكَنٌ ... والطَّعن بـالســـمر من آثـاره شـــرر
وربَّ ليلـةِ خَطْـبٍ قـد ســَرَيْـتَ بهـا ... ومـا ســـرى كوكـبٌ فيـهـا ولا قمـر
سُـــمْتَ القريـبَ بعزمٍ مـا لـه ضَـــجَر ... أو الـبـعـيـدَ بـبـاعٍ مـا بـه قِصَـــر
وأنـتَ فـي جـيـشِ رايٍ لا غـبـار لـه ... تـرمـي الـعـداةَ بـقـوسٍ مـا لـهـا وتـر
هي الحروب التي لا الســـيفُ منثلمٌ ... فـيـهـا ولا الـذابـلُ الـخـطِّـيُّ مـؤتـطـر
في كعبـةٍ للنَّـدى لو قيـل: ذا ملـكٌ ... لهيـبَ في النطقَ حتى قيـل: ذا حجر
وســـائـلٍ لي: مـا العَليـا؟ فقلـت لـه: ... في فعلـه الخُبْر أو في قولـه الخَبر
مـا أنصـــفَـتْ مجـدَه نُظَّـامُ سـِـيرتـه ... إنَّ الذي ســـتروا فوق الذي ســـطروا
نـالَ السَّـــمـاء بـأطراف القنـا فبـدت ... مـن الـنصـــول عـلـيـهـا أنـجـم زُهـر

لا يُحدثُ النصرُ في أعطافهم مَرَحًا حتى كأنهم بالنصر ما شعروا

أجرَوا دماء العِدى بين الرماح فما يُقال: ما عندهم ماءٌ ولا شجر

ترى غرائبَ من أفعالِ مَجدِهمُ يردُّها الفكر لو لم يَشهدِ النظر

خلائقٌ في سماواتِ العُلا زُهُرٌ منها تُنير وفي روضِ الثَّنا زَهَر

الناس أضيافكم والأرض دراكم فهو المقامُ فَلِمْ قالوا: هو السفر؟

ما أنصفَ الشُّكْرُ لولا أنْ تُسامحنا فأنتَ تُطْنِبُ جُودًا وهو يختصر

الباب الثاني والعشرون

في الحُذَّاق والمُطربين

قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الطيبة، فإنِ النفس حزنت خمد نورها، وإذا سمعت ما يطربها ويسرُّها اشتعل منها ما خمد.

وكان حكماء الهند يُسمِعون الغناء للمريض ويزعمون أنه يخفف العلَّة ويقوِّي الطبيعة. والغناء غذاء الأرواح كما أن الأطعمة غذاء الأشباح.

وقال معاوية وقد سمع عنده مغنٍ فحرَّك رأسه وصفَّق بيده وداخلته أريحية، ثم لما ثاب رأيه إليه اعتذر منه وقال: إن الكريم طَرُوبٌ، ولا خير فيمن لا يطرب.

وقال أبو الحسن بن مقلة: يعجبني من يقول الشعرَ تأدُّبًا لا تكسبًا، ويغنِّي تطربًا لا تطلبًا.

الشيء بالشيء يذكر؛ ما ألطف قول الشيخ برهان الدين القيراطي من قصيدةٍ:

بأبي غَنِيٌّ مَلاحةٍ أشكو لهُ ... فقري فيصيح بالغِنى يتطرَّب

وكان مروان بن أبي حفصة إذا قعد عند الموصلي يقول له: الغناء غذاء الأرواح كما أن الشراب غذاء الأشباح. فقال: السماع كالروح، والخمر كالجسد، والسرور ولدهما.

واعلم أن بين الخمر والغناء مناسبةً في أكثر الأحوال، ومضارعةً في ما يجمعانه من محمود الخصال، لأن فيه ما يصيِّر الجبان إذا سمعه شجاعًا، ومنه ما يكون لهمٍّ دفاعًا، ونغمةً تبعث الشحيح على السخاء، ومقابلة سؤال السائل بالعطاء، وفيه ما ليس في الخمر من الخصائص العجيبة الأمر، ذلك أن الرجل الواحد يغني له في طريقةٍ فيَلِين خلقه، ويغني له في غيرها فتظهر شراسته ونزقه، وإذا سمع ضربًا منه استنفره، وإذا غنى بصوتٍ آخر لم يمكن العواصف أن تهزَّه، وفيه ما يُبكي سامعه، لممازجة

الأصوات الحسنة الأرواح، وإهدائها إلى القلوب ظرائف الأفراح، كانت البهائم إذا سمعتها تحنُّ إليها، والطير يشغف بها ويطرب عليها، والإبل يكسبها الحداء، مثل ما يكسب الإنسان الغناء، والخيل والبغال والحمير تلذَّ بشرب الماء إذا تواصل من ساقيها الصفير، والحمامة المطوقة والشحارير، والبلابل والزرازير، والهزاردستانات وغيرها من الطيور المستحسنة الأصوات، تسمع أصواتها فيبين منها الطرب، وذاك داعيها إلى تكريرها، ولأجل ذلك يتخذها الملوك في قصورهم، ويجعل أماثل الناس كثيرًا منها في دورهم، وإن كانت أصواتها لا تدلُّ على معنًى رائقٍ يُعلَم، ولا تتضمن ما يُعرِب عنه الكلام الذي يُفهم، فما ظنك بالألفاظ التي يسمعها السامع فيعيها، ويفهم ما يفيده إياه من معانيها، إذا أدركها ملحَّنة ممن خُصُّوا بصفاء الحلوق والنغمات المستحسنة، ولهذه العلة صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ عليه أزيد مما يحتمله إذا لم يصغِ إليه، ويستمرئ الكثير منه مع سماعه، وإن كان يثقل عليه قليله إذا خلا من استماعه.

وقد عُلِم أن الصبي الطفل إذا تزعَّر خلقه، واتصل بكاؤه، لوجعٍ يناله أو ضجرٍ يجده، وصوتت له دايته بكلامٍ تلحِّنه وترجعه سكن قلقه، أو سمع من منوِّمته مثل ذلك زالَ أرقه.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: عيشُ الدنيا الصحة والشباب، في الطلاء والغناء والنساء، وأما الآلات التي اتُّخذت للغناء بها واستُعلمت على تركيبٍ ثبت أمكن معه أن يظهر منها ما يظهر من الحيوان الذي يرجع صوته؛ فإنَّ الحكمة فيها مطلوبة، والمنافع المكتسبة منها جميلة جسمية، والعودُ أجلُّها خَطَرًا، وأحسنها في القلوب أثرًا.

وقد كان داود عليه السلام أحذق الناس بصَوْغِ الألحان في تسبيحه، ويَعرف الفاسدَ في ذلك من صحيحه، وبه كان يُضرب المثل في حسن إيقاعه في عوده، وارتياح القلوب لصوته وتغريده، وكان قبل إفضاء المُلك إليه، واجتماع بني إسرائيل عليه، يحضره ملكهم طالوت إذا غلب عليه خلط رديء كان يعتريه، فيأمره أن يُوقِع له بالعود ويُسمعه من أصواته ما يستلذه، فيغفل فيسكن ما هاج به. ولما صار المُلك إليه نصَّب من نشط الحذَّاق بتلحين المزامير، والتسبيح بها على الميدان والطنابير، وغيرها من الدفوف والطبول والصلاصل، وما يجري مجراها؛ جماعةً. وكانت العدة التي تحضر من هذه الطائفة عنده أربعةَ آلافٍ في كل ليلة.

ذكر ذلك جميعه الثعالبي في موائد الأفراح.

وحدود الغناء أربعة لا يُستغنى عن واحد منها، وبها يتم وعليها يبنى: فأوَّلها النغم، ثم تأليفه، ثم قسمته، ثم إيقاعه، فما اشتمل من الشعر على هذه الحدود فهو غناء، وإن نقص منه فليس بغناء.

وذكر اليونانيُّون أن الأوتار الأربعة شُبِّهت بالطبائع الأربع، وأن البَمَّ مُشاكلٌ للأرض والسوداء، والمثلث بالماء والبلغم، والمثنى بالهواء والدم، والزِّير بالنار والصفراء. وأن النار لَمَّا كانت في الطرف الأعلى في العالم، والأرض في الجهة السفلى منه، جُعِل ما بين البَمِّ والزير كذلك.

وزعمت الأعاجم أنه مشتق من صرير باب الجنة، وما قدم أحد من الأمم على العود من الملاهي لِمَا جمع من الفضائل التي استبدَّ بها وقَصُرَ سواه عن اللَّحاق فيها، والحاذق في الغناء مُقدَّم على كل حاذق.

وذُكر أن عبد الملك بن مروان أُتيَ بعودٍ قد وجد مع شارب بالليل فقال وعنده قوم: ما هذا؟ ولأي شيء يصلح هذا؟ وأي شيء يعمل به؟ فسكت جلساؤه فقال عبد الله بن مسعدة الفزاري: هذا عودٌ، يؤخذ خشبه فيُشقُّ ويرقق ويلصق، ثم يعلَّق عليه هذه الأوتار، وتحركها الجارية الحسناء فينطق بأحسن مِن وقع القَطْر في البلد القَفْر، وامرأتي طالق إن لم يكن كل من في هذا المجلس يعلم منه مثل ما عملت، وأولهم أنت يا أمير المؤمنين! فضحك عبد الملك.

فصل

وينبغي أن يكون المغني جميل الخَلْق صافي الخُلُق، له حلاوة وعليه طلاوة، مستعذب العبارة نظيف الشارة، يحفظ كثيرًا من الملح والأخبار، والنوادر والأشعار، وشيئًا من علم الإعراب، ليجانس من يختلط معه من ذوي الآداب، غير نمَّام ولا مغتاب، ولا فضوليٍّ ولا عيَّاب، كاملَ الظرف بعيدًا من الظن، متوقيًّا للهجن، كتومًا للأسرار، متنكبًا طريق الأشرار، ذو روائح ذكية، وبشرة نقية، وجوارح سالمة من العيوب، وشمائل يخف بها على القلوب، صناعته معجبة، وأغانيه مطربة، فمَن اجتمعت له هذه الصفات والمناقب، وسلم مما تقدم ذكره من المعايب والمثالب، كان حقيقًا بالمكرمات من الملوك والاختصاص.

ومنهم من يكون حاذقًا في صناعته، فيبلغ في إحكامها غاية استطاقته، واجتمعت فيه الخلال المحمودة، وعرف بالأخلاق السديدة، غير أنه لم يرزق صوتًا يستعذبه ويحسن لمن يغني له موقعه، فتصطفيه الملوك لتعليم الغناء ممن يؤهلونه لذلك من الوصائف والإماء، وتختلف أحوال الباقين في أخلاقهم وخلقهم، والمهذب من كل ذي علم وصناعة قليل، وتعديد ما يوجد من أخلاق الرجال يطول.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: شر الغناء والشعر الوسط، لأن الأعلى منهما يُطرب، والرذل يُضحك من صاحبه ويلهي به، والوسط لا يطرب ولا يضحك.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة في شرح العيون ما صورته: ويقال: إن أول من اتخذ العود لمك بن متُّوشلخ على مثال فخذ ابنه الميت، وهو قول ضعيف، وقيل: بطليموس، وقيل: بعض حكماء الفرس، وسماه البَرْبَط، وتفسيره: باب النجاة، ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة، وقد جُعلت أوتاره أربعة كما تقدم ذكره.

وذكر أن أول من غنى على العود بألحان الفُرس النضر بن الحارث بن كلدة، وفد على كسرى بالحيرة، فتعلَّم ضرب العود والغناء، وقدم مكة فعلم أهلها.

وأول من غنى في الإسلام بألحان الفرس سعيد بن مِسْجَح، وقيل: طُوَيس، وذلك أن عبد الله بن الزبير لما وهى بناءُ الكعبة رفعها وجدَّد بناءها، وكان فيها صنَّاعٌ من الفرس يغنون بألحانهم، فوقع عليها ابن مسحج الغناء العربي، ثم دخل إلى الشام فأخذ عن ألحان الروم، ثم رحل إلى فارس فأخذ الغناء وضرب العود، وابتعه من بعده، وبدأ هذا العلمُ ببطليموس وخُتم بإسحاق بن إبراهيم الموصلي.

وذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف أنه وجد للأسعد المرتضى أحمد بن عبد الواحد لما قبض عليه المستنصر في سنة تسعٍ وخمسين وأربعمائة ما يجوز حدَّ الحصر لكثرته وجلالته وعلو همته، وفيما وجد له عدلان كبيران أوتارًا برسم عيدان الغناء، وعدل محزوم مضارب العيدان، وثلاثمائة طبل شبري، وغير ذلك من سائر أصناف الملاهي، ووجد له هاون فضة وزنه سبعون رطلًا.

فصل فيما ورد للفضلاء في مدحهم

قال الشيخ برهان الدين القيراطي:

أقول إذ جسَّ عودًا مطربًا حسنٌ ... يُريك يوسف في أنغام داوود:
من حسن وجهك تُضحِي الأرض مشرقةً ... ومن بَنانك يَجري الماء في العود

وقال:

أطربَنا العودُ إلى أن غدا ... مقامنا يرقص مع صحبِهِ
فشمعه قام على ساقه ... وكأسه دار على كعبِهِ

الشيء بالشيء يذكر؛ أنشدني من لفظه لنفسه الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي، فسَّح الله في أجله، من قصيدة حربيَّة:

إن جسَّ عودَ الضرب مالَ سامعه　　　والخيلُ يُرقصها إن حرَّك الوترا

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي:

وشدا في أصْبها　　　نَ بالأغاني المطرباتِ
مسمع غنى فأغنى　　　بصفات الحسن ذاتي
قلت إذْ حرَّك عودًا　　　عارفًا بالنغمات:
أنت مفتاح سرو　　　ري يا سعيدَ الحركات

وقال المرحوم فتح الدين بن الشهيد وقد أحضر له بدر الدين طائر بغا العواد بسفارة الحاجب توكل:

نهاري أنْسٌ كلُّه بمُنادمٍ　　　على عودهِ يغزو الحشا بالتغزلِ
وكنت أراه طائرًا عزَّ مطلبًا　　　ولكنني حصَّلته بتوكِّل

وأنشدني من لفظه لنفسه إجازةً سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد المالكي المخزومي الشهير بابن الدماميني، أسبغ الله ظلاله:

يا عَذولي في مغنٍّ مطرب　　　حرَّك الأوتار لمَّا سَفَرا
كم تهز العطف منه طربًا　　　عندما تسمع منهُ وَتَرا

وقال علاء الدين الوداعي في مغنٍّ يدعى الفصيح:

وليلة ما لها نظير　　　في الطيب لو ساعفتْ بطول
كم نوبة للفصيح فيها　　　أطربُ من نوبة الخليل

وممن برع في الألحان وعلمها أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطي، اشتُهر عنه أنه كان يعمد إلى الشعراء فيقطع العود بيده، ثم يصنع منه عود الغناء، وينظم الشعر ويلحنه ويغني به، ومن شعره قوله:

إذا ظنَّ وَكْرًا مُقْلَتي طائرُ الكرى   رأى هُدْبَها فارتاعَ خوفَ الحبائل

ذكر هذا الأديب نور الدين علي بن سعيد في كتابه المُغرِب في حُلَى المَغرب.

وقال سيف الدين المشد:

ومطربٍ قد رأينا في أنامله   شبابةً لسرور النَّفْس أهَّلها
كأنَّه عاشقٌ وافتْ حبيبته   فضمَّها بيديه ثم قبَّلها

وقال محيي الدين بن قرناص:

مشبِّب بجفاه راح يقتلنا   فإنْ تداركنا بالنفخ أحيانا
هويت تشبيبه من قبل رؤيته   والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر:

وناطقة بالروح عن أمر ربها   تعبِّر عما عندنا وتترجِمُ
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت   فنحن سكوتٌ والهوى يتكلَّم

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

أطربنا مشبِّبٌ   من غير جُعْل سألهْ
بأحسن موصول له   لم يفتقر إلى صِلةْ

وظرف في قوله أيضًا، وإن لم يكن في المعنى:

يا مهدي الأقصاب من سكرٍ   صفرًا حكى سمر القنا طولها
إياك أن تقطعها ساعةً   فأطيبُ الأقصاب موصولها

ومن ذلك قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

أصغِ لما قال أخو وقتنا   وخلِّ قبل اليوم ما قيلا
واسمع مقاطيعًا لنا أطربت   ولا تقل إلا مواصيلا

وقال إبراهيم المعمار:

مشـــــبـــب أبـــدى لـــنـــا قـــولًـا بـنـغـمـتـه الشـــهـيَّـةْ
مــــتـــغـــاتـــم فـــكـــأنَّه مـتـكـلِّـم بـالـفـارسـيَّـةْ

وقال زين الدين بن عبد الله مضمنًا:

ونـائحـةٍ صـــفـراءَ تنطق عن هوَى فتُعرِب عمَّـا في الضـــمير وتُخبِرُ
بَراهـا الهوى والوجـدُ حتَّى أعـادهـا أنـابيـبَ في أجوافهـا الريح تصـــفِرِ

وقال صلاح الدين الصفدي:

لي مطرب كَمُلَـت جميع صـــفـاتـه مـتـأدِّبُ الـحـركـات والـتســـكـينِ
فـإذا دعـاه لمـجـلـسٍ حـرفـاؤه يـأتـي ويـجـلـس فـيـه بـالـقـانـون

وقال صلاح الدين بن الشهيد:

غـنَّـى عـلـى الـقـانـون حـتـى غـدا مـن طرب يـهـتـز عـطـف الـجـلـيـس
فــحــنَّــت الأرواح مـــن شــــدوه إلـى أنـيـسٍ يـا لـه مـن أنـيـس
داوى قـلـوبًـا مـن غـلـيـل الضـــنـى وكـان فـيـه جـواه رســـيــس
فصـــاحـت الـجُـلَّـاسُ عـجـبًـا بـه يـا صـــاحـب القـانون أنـت الرئيس

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي: أنشدني القاضي جمال الدين بن عبد القاهر التبريزي لنفسه ملغزًا في الشبابة:

ونـــاطِـقـــةٍ بـــأفـــواهٍ ثـــمـــانٍ تـمـيـل بـعـقـلِ ذي الـلُّـبِّ الـعَـفـيـفِ
لـكـلِّ فَـمٍ لســانٌ مُســـتـعـارٌ يـخـالـف بـين تـقـطـيـع الـحـروف
تُخـاطـبـنـا بـلـفـظٍ لا يَـعـيـه ســـوى مـن كـان ذا طـبـعٍ لـطـيـف
فصـــيـحـةُ عـاشـــقٍ ونـديـمُ راعٍ وعـزَّةُ مـوكـبٍ ومُـدام صـــوفـي

وقال الشيخ علاء الدين علي بن أيبك من لفظه لنفسه في مغن معذر:

مـنـمـنـم الـعـارض غـنَّـى لـنـا أشـــيـاء بـالســمـع حَلَـا ذوقـهـا

كـأنَّـمـا فـي فـيـه قـمـريَّة تشـدو ومـن عـارضـه طـوقـهـا

نادرة

شهد على امرأة أربعةٌ بالزنا، وكان فيهم مغنٍّ فقال له الوالي: بمَ تشهد؟ قال: أشهد أني رأيته قد رفع رجليها مثل البنجك، ونخر حتى كأنه يغني، وجعل مضرابه في البم، وجعلت استه ترقص، ولا أدري أتم الصوت أم لا.

فصل فيما ورد في ذم الغناء

كتب البديع الهمذاني إلى تلميذ له توفي أبوه وخلَّف له مالًا: يا مولاي، ذاك المسموع من العود يسميه الجاهل نقرًا، ويسميه العاقل فقرًا، وذلك الخارج من الناي هو في الآذان زمر، وغدًا في الأبواب سمر، والعمر مع هذه الآلات ساعة، والقنطار في هذا العمل بضاعة.

وطلب بعض المغنيين حائزةً من بعض المخلصين، فقال له المملوك: اعلم أن المال روح، والغناء ريح، ولست أشتري الريح بالروح.

وممَّا ورد من النظم في ذم المتخلفين من أهلها:

حكى بعضهم أن بعض الفلاسفة خرج مع تلميذه فسمع صوت عود فقال لتلميذه: امضِ بنا إلى هذا المغني لعله يفيدنا صورةً شريفة. فلما قَرُبا منه سمعا صوتًا رديًّا وتأليفًا غير متقن، فقال لتلميذه: تزعم أهلُ الكهانة والرَّجَز أن صوت البومة على موت الإنسان، فإن كان ذلك حقًّا فصوت هذا يدل على موت البومة.

ولبعضهم يهجو مغنيًّا:

كنـت فـي مـجـلسٍ فـقـال مـغـنِّـي الـ ـقوم: كم بيننـا وبين الشـتـاءِ؟
فشـبَّـرت الـبسـاطَ مـنـي إلـيـه قـلـت: هـذا المـقـدار قـبـل الـغـنـاء
وإذا مـا هـمـمـت أن تـتـغـنَّـى أذن الصـيـف كـلـه بـانـقـضـاء

ولبعضهم يذمُّ صوت مغنٍّ:

إنَّـك لـو أصـغـيـتَ يـومًـا إلـى ألـحـانـه تـلـك المـقـاذيـر

لَخِلْتَ في الحلق امرأً جالسًا ... يعرك آذان السنابير

ولآخرٍ في المعنى قال:

إنك لو تسمع ألحانه ... تلك اللواتي ليس يعدوها
لَخِلْتَ من داخل حلقومه ... مُوَسْوِسًا يخنق معتوها

ولآخر:

ومغنٍّ إنْ تغنَّى ... أوسعَ الندمانَ همًّا
أحسنُ الفتيانِ حالًا ... كلُّ مَن كان أصمَّا

وقال المصيصي الخيَّاط:

وإذا تربَّع لا تربَّع بعدها ... وغدا يحرِّك عُودَه مُتقاعِسا
فكأنَّ جرذان المدينة كلها ... في عوده يقرضن خبزًا يابسا

وقال آخرُ وأجاد:

قلت إذ غنَّى عراقًا: ... ليتنا في أصبهانِ

وقال آخر:

غنَّى أبو الفضل فقلنا له: ... سبحان مُخليه من الفضلِ
غناؤه حدٌّ على شربه ... فاشربْ فأنتَ اليوم في حِلِّ

وقال آخر وأجاد:

ومغنٍّ يتغنَّى ... أذهبَ اللَّذاتِ عنَّا
فسألناه سكوتًا ... فأبى يسكت عنَّا
فشتمناه فغنَّى ... فاشتفى القوَّاد منَّا

وقال آخر في مغنٍّ بالرباب:

لا تبعثوا بسوى المهذَّب جعفرٍ   فالشيخ في كلِّ الأمور مهذبُ
طَورًا يغني بالرباب وتارةً   يأتي على يده الرباب وزينبُ

وقال سيف الدين المشد يهجو عوادًا:

عوَّادُنا قد طُمستْ عينه   فصارَ بالتخفيفِ قوَّادا
ما عاد إلا لقياداته   لأجل ذا أصبح عوَّادا

قلت: وإن كان حصل له عمًى فأحسن!

وأنشدني المرحوم فخر الدين بن مكانس قال: أنشدني من لفظه لنفسه صاحبنا شمس الدين محمد الواسطي يهجو عوادًا وزامرًا:

شبَّهت ذا العوادَ والزامر إذ   ضاقت علينا بهم المناهجُ
بعقربٍ يضرب وهو ساكتٌ   وأرقم ينفخ وهو خارج

ولا بأس من إيراد نبذة من حكايات الحذاق في الغناء:

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: بعث إليَّ المأمون يومًا وبين يديه ثماني عشرة مغنية، تسعٌ عن يمينه وتسع عن شماله، وعنده إبراهيم بن المهدي، فقال: كيف تسمع يا إسحاق؟ فقلت: أسمع، يا أمير المؤمنين، خطأً! فقال لإبراهيم: ما تقول، يا عمُّ، في ما قال؟ قال: باطل! ما ها هنا خطأ، ولكنه يريد أن يتزيَّد عندك. فقلت له: أتأذن لي أن أقفه على الخطأ وأناظره فيه؟ قال: نعم. قلت: على أنه سيدي وأنا عبده، أو على الإنصاف؟ قال: بل على الإنصاف. قلت: يؤمرن الجواري أن يغنين الصوت الذي غنينه أولًا. فغنين، ثم قلت له: أفهمت الخطأ؟ قال: لا. قلت: فإني ألقي عنك النصف والخطأ في التسع البواقي اللواتي عن الجانب الأيسر. قال: فتبعتهم وقال: ما أسمع خطأً! قلت: فإني أخفف عنك أيضًا؛ هو في الأربع الأواخر. فاجتهدَ في التفهُّم وقال: ما ههنا خطأ! قلت: فإنه في أواخر الجواري كلهن. فتفهم فلم يقف عليه، فقلت للجارية: اضربي وحدك. وأمسكن البواقي وغنت، فقلت: ما ترى؟ فقال: الخطأ ههنا! فقال المأمون: أحسنت، يفهم الخطأ بين اثنين وسبعين وترًا، ولم تفهمه أنت إلا من أربعة.

وقال أحمد بن المَرْزُبان: حدثني بعض كتَّاب السلطان أن الرشيد هبَّ ليلةً من نومه فدعا بحمارٍ كان يركبه في القصر أسود، فركبه وخرج في دُرَّاعة وشي متلثمًا بعمامة، متلفِّحًا بإزار وشي، وبين يديه

أربعمائة خادم أسود سوى الفراشين، وكان مسرور الفرغاني جريئًا عليه لمكانةٍ كانت له عنده، فلما خرج من باب القصر قال له: أين تريد، يا أمير المؤمنين، في هذه الساعة؟ قال: أردت منزل إبراهيم الموصلي. قال مسرور: فمضيت معه حتى انتهى إلى منزل الموصلي، فخرج فتلقاه وقبل حافر حماره، وقال: يا أمير المؤمنين، أفي مثل هذه الساعة تظهر؟! قال: نعم، شوقٌ طرقك بي. ثم نزل فجلس في طرف الإيوان وأجلس إبراهيم، فقال له إبراهيم: يا سيدي، أتنبسط بشيءٍ تأكله؟ قال: نعم، خاميز ظبي. فأتى به كأنما كان عنده معدًّا له، فأصاب منه شيئًا يسيرًا، ثم دعا بشراب حمل معه، فأصاب منه شيئًا يسيرًا، فقال الموصلي: يا سيدي، أغنيك أم تغنيك إماؤك؟ فقال: بل الجواري. فخرجن جواري إبراهيم، فأخذن صدر الإيوان وجانبيه، فقال: أيضربن كلهن أم واحدة واحدة؟ فقال: بل يضربن اثنتان اثنتان، وتغني واحدة واحدة. ففعل ذلك حتى مر صدر الإيوان وأخذ جانبيه، والرشيد يسمع ولا ينصت لشيء من غنائهن، إلى أن غنته صبية من حاشية الصفَّة:

يــا مُوريَ الزَّنْـدَ قـد أَعْيَـتْ قوادحُـه   اقبِسْ فقلبي إذا شـــئـتَ مقبـاسِ
مـا أقبحَ النـاسَ في عيني وأســـمَجَهُم   إذا نـظرتُ فلـمْ أنظركَ فـي الـنـاسِ

قال: فطرب لغنائها واستعاد البيت والصوت مرارًا، وشرب أرطالًا، وسأل الجارية عن صانعه فأمسكت، فاستدناها فتقاعست، فأمر بها فأقيمت بين يديه، فأخبرته بشيءٍ أسرَّته إليه، فدعا بحماره فركبه وانصرف، ثم التفت إلى إبراهيم وقال له: ما ضرَّك أن لا تكون خليفة! وكادت نفسه تخرج حتى دعا به بعد ذلك وأدناه. قال: وكان الذي أُخبِرْته سرًّا أن الصوت وصناعته لأخته عليَّة، وكانت الجارية لها فوجَّهتها إلى إبراهيم يطارحها عنها لمكانته عندها.

قال: قال لي الرشيد: يا إبراهيم، بكِّر حتى نصطبح. فقلت: أنا والصبح كفرسَيْ رهان نستبق إلى حضرتك. فبكرت فإذا به خالٍ وبين يديه جارية كأنها خُوط بانٍ، أو جذل عنان، حلوة المنظر، فغنت في شعرٍ لأبي نواس:

تـوهَّـمـه طـرفـي فـأصـــبـح خـدُّه   وفيـه مكـانَ الـوهـم مـن نـظري أثـرُ
ومـرَّ بـفـكـري خـاطـرًا فـجـرحـتـه   ولـم أرَ جســمًـا قط يجرحـه الفكر
وصـــافـحـه كـفِّـي فـآلـمَ كـفَّه   فـمِـن غـمـزِ كـفِّـي أنـامـلـه عـقـر

قال إبراهيم: فذهبتْ والله بعقلي حتى كدت أفتضح، فقلت: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه الذي يقول فيها الشاعر:

لها قلبي الغداةَ وقلب قلبي لها — فنحن لذاك في جسدَيْن روح

ثم قال لها: غنِّي. فغنت:

تقول غداةَ البين إحدى نسائهم — وفي الكبد الحرَّى فسِرْ ولكَ الصَّبْرُ
وقد خَنَقَتْها عَبْرةٌ فدموعُها — على خدِّها بِيضٌ وفي نَحرها صُفْرُ

قال: فشرب وسقاها، وقال: غنِّ يا إبراهيم. فغنيت حسب ما في قلبي غيرَ متحفِّظٍ من شيء:

تشرَّب قلبي حبَّها ومشى به — تمشِّي حميًّا الكأسِ في جسم شاربِ
ودبَّ هواها في عظامي فشفَّها — كما شبَّ في الملسوعِ سُمُّ العقارب

قال: ففطن لتعريضي فكانت جهالةً مني، فأمرني بالانصراف ولم يَدعُنِي شهرًا ولا حضرت مجلسه، فلما أن مضى شهرٌ دسَّ إليَّ خادمًا معه رقعةٌ مكتوب فيها:

قد تخوَّفتُ أن أموتَ من الوَجْـ — ـدِ ولم يدرِ مَن هويتُ بما بي
يا كتابي أقرئِ السَّلام على مَن — لا أسمِّي وقلْ له يا كتابي:
كفُّ صَبٍّ إليك قد كتبتني — فارحموا كاتبي وردُّوا جوابي
إنَّ كفًّا إليكم كتبتني — كف صبٍّ فؤاده في العذابِ

فأتاني الخادم بالرقعة فقلت: ما هذه؟ فقال: رقعة الجارية التي غنَّتك بين يديْ أمير المؤمنين. فأحسست بالقصة، فشتمت الخادم ووثبت عليه، وضربته ضربًا شفيتُ به نفسي وغيظي، وركبت إلى الرشيد من فوري فأخبرته بالقصة وأعطيته الرقعة، فضحك حتى كاد يستلقي، ثم قال: على عمدٍ فعلتُ ذلك لك؛ لامتحن مذهبك وطريقتك. ثم دعا بالخادم فلمَّا رآني قال لي: قَطَعَ اللهُ يديك ورجليك! ويلك، قتلتني! فقلت: القتل، واللهِ، كان بعض حقك! ولكني رحمتك وأخبرت أمير المؤمنين حتى يأتيَ في عقوبتك بما تستحقه. فأمر لي بصلة سنية، واللهُ يعلم أني ما فعلت ذلك عفافًا لكن خوفًا.

قلت: وقريبٌ من هذه الحكاية ما نقلته من خط الشيخ بدر الدين البشتكي، سلمه الله تعالى، وهو أن الوزير أبا عامر أحمد بن أبي مروان بن عمر بن عيسى بن محمد بن شهيد كان أهدي له غلامٌ من النصارى لا تقع العيون على شبهه، فلمحه الناصر فقال: أنَّى لك هذا؟! قال: هو من عند الله. فقال: تتحفونا بالنجوم وتستأثرون بالقمر! فاستعذر واحتفل في هدية بعثها له مع الغلام وقال: يا بنيَّ كنْ من جملة ما بعثت به، لولا الضرورة ما سمحتْ بك نفسي. وكتب معه:

أمولايَ هذا البدرُ صار لأفْقِكُم ... ولَلأفْقُ أوْلَى بالبدورِ من الأرضِ
أُرضيكمُ بالنفس وهْيَ نفيسةٌ ... ولمْ أرَ قبلي مَن بمهجته يُرضِي

فحسن ذلك عند الملك، وأتحفه بمال جزيل، وتمكنت عنده مكانته. ثم إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا فخاف أن ينمَّى ذلك إلى الناصر فيطلبها، فتكون كقصة الغلام، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وبعثها معها إليه وكتب له:

أمولايَ هذي الشمسُ والبدرُ أوَّلًا ... تَقدَّم كيما يَلتَقي القَمَران
قِرانٌ لَعَمْرِي بالسعادةِ ناطقٌ ... فدُرْ منهما في كَوثرٍ وجِنان
فما لهما واللهِ في الحُسْنِ ثالثٌ ... ولا لكَ في مُلْك البريَّة ثانِ

فتضاعفت مكانته عنده.

ثم إن أحد الوشاة رفع للملك أنه بقيَ في نفسه من الغلام حرارةٌ وأنه لا يزال يذكره حين تحرِّكه الشَّمول، ويقرع السن على تعذر الوصول، فقال للواشي بذلك: لا تحرك به لسانك وإلا طار رأسك! وأعملَ الملك الحيلة في أن كتبَ على لسان الغلام رقعة منها:

> يا مولاي، تعلم أنَّك كنت لي على انفرادٍ، ولم أزل معك في نعيم، وأنا — وإن كنت عند الخليفة — مشاركًا في المنزلة، مجاوزًا له، فما أنفكُّ خائفًا من سطوةِ الملك، فتحيَّلْ في استدعائي منه.

وبعثها له مع الغلام صغير السن، وأوصاه أن يقول له: هي من عند فلانٍ، وأن الملك لم يكلمه قط إن سأله عن ذلك. فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر الخادم فعلم من سؤاله ما كان في نفسه من الغلام، وما تكلم به في مجالس المدام، وكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفًا:

أمِن بعدِ إحكام التجارِبِ تبتغي لديَّ سقوط العَير في غابة الأسَد
ولا أنا ممَّن يغلب الحبُّ قلبه ولا جاهل ما يدَّعيه ذوو الحَسَد
فإنْ كنتَ رُوحي قد وهبتك طائعًا وكيف يُردُّ الروحُ إن فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجَّب من فطنته، ولم يعد إلى استماع واشٍ به، ودخل عليه بعد ذلك فقال له: كيف خلصت من الشَّرَك؟ قال: لأنَّ عقلي بالهوى غير مشترك.

عن إسحاق عن أبيه قال: استأذنت الرشيد أن يهب لي يومًا من أيام الجمعة لانبعث فيه بجواريَّ وإخواني، فأذن لي في يوم السبت وقال: هو يوم أستثقله فَالْهُ فيه بما شئت. قال: فأقمت يوم السبت بمنزلي وتقدمت في إصلاح طعامي وشرابي مما احتجت إليه، وأمرت بوَّابي بإغلاق الأبواب وتقدَّمت إليه في ألَّا يأذن لأحد عليَّ. فبينما أنا في مجلس والحرم قد حففن بي يترددن بين يدي إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال عليه خُفَّان قصيران وقميصان ناعمان، وعلى رأسه قلنسوة ولاطية وبيده عصا مقمعة بفضَّة، وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرِّواق، فدخلني لدخوله عليَّ مع ما تقدمت به غيظٌ عظيم، وهممت بطرد بوَّابي ومن يحجبني لأجله، فسلَّم عليَّ أحسن سلام، فرددت عليه وأمرته بالجلوس، فجلس وأخذ بي في أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها، حتى سكن ما بي من الغضب، وظننت أن غلماني تحرَّوا مسرَّتي بإدخال مثله لأدبه وظرفه.

فقلت له: هل لك في الطعام؟ فقال: لا حاجة لي فيه. فقلت: هل لك في الشراب؟ قال: ذلك إليك. فشربت رطلًا وسقيته مثله، فقال: يا أبا إسحاق، هل لك أن تغني لنا شيئًا فنسمع من صنعتك ما قد فقتَ به عند الخاص والعام؟ فغاظني قوله ثم سهَّلت الأمر على نفسي وأخذت العود، فجسسته ثم ضربت وغنيت. فقال: أحسنت يا إبراهيم! فازددت غيظًا وقلت: ما رضي بما فعله في دخوله بغير إذنٍ واقتراحه عليَّ أن أغنيه حتى سماني ولم يجمل مخاطبتي! ثم قال: هل لك أن تزيدنا فنكافئك؟ فتذممت وأخذت العود فتغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته قيامًا تامًّا لقوله لي: أكافِئكَ. فطرب وقال: أحسنت يا سيدي وأوثَقَ عذري! ثم قال: أتأذن لعبدك في الغناء؟ فقلت: شأنك. واستضعفت عقله في أن يغني بحضرتي بعد ما سمعه مني، فأخذ العود وجسه، فواللهِ لقد خِلتُ أنه ينطق بلسان عربي، واندفع يغني:

ولِي كَبِدٌ مَقروحةٌ مَن يَبيعني بِها كبدًا ليستْ بذاتِ قُروح

أبـاهـا عـلى النَّـاس لا يَشـــترونهـا   ومَـن يشـــتري ذا علَّـةٍ بصـــحيح
أئنُّ من الشـــوق الـذي في جوانحي   أنـينَ غصــــيصٍ بـالشـــراب جَـريح

قال إبراهيم: فوالله، لقد ظننت الحيطان والأبواب وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه من حسن غنائه، حتى خِلت، والله، أني أسمع أعضائي وثيابي تجاوبه، وبقيت مبهوتًا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لِما خالط قلبي، ثم غنَّى:

أَلَـا يـا حمـامـاتِ اللِّوَى عُـدْنَ عَودةً   فـإنِّـي إلـى أصـــواتـكـن حَـزيـنُ
فـعـدنَ فـلـمـا عُـدنَ كِـدنَ يُـمِـتْـنَـنِي   وكـدتُ بـأسـراري لَـهُـنِ أُبِـينُ
دعـونَ بـتَـرْداد الـهـديـر كـأنَّـمـا   شَـرِبْـنَ حـمـيًّـا أو بـهـنَّ جـنـونُ
فـلـمْ تـرَ عـيـنـي مـثـلـهـنَّ حـمـائـمًا   بـكـينَ ولـم تـدمـعْ لـهـنَّ عـيـونُ

فكاد عقلي أن يذهب طربًا، ثم غنى شعرًا ليزيد بن الطثرية:

أَلَا يا صَـبَا نَجْدٍ مَتى هِجْتَ مِنْ نَجْدِ   فقـدْ زادني مَسْـراكَ وَجْـدًا على وجـدِ
فـإنْ هتفـتْ وَرْقـاءُ في رَوْنَقِ الضُّحَى   على غصـنٍ غَضِّ النبـات من الرنـد
بكيـتُ كمـا يبكي الحزين صـبـابـةً   وذبـتُ مـن الـحـزن المـبـرِّح والـجَـهْد
وقـد زعـمـوا أنَّ المـحـبَّ إذا نـأى   يَمَـلُّ وأن النـأيَ يَشـفي من الوَجْد
بكـلٍّ تـداوينـا فلـم يُشـفَ مـا بِنـا   عـلى أنَّ قُـربَ الـدار خـيرٌ مـن البُـعْد

ثم قال: يا إبراهيم، هذا الغناء الماخوري، خذه وانحُ نحوَه في غنائك وعلمه جواريك. فقلت: أعده عليَّ. فقال: لستَ تحتاج، قد أخذته وفرغت منه. ثم غاب من بين عينيَّ، فارتعت وقمت إلى السيف فجرَّدته، ثم غدوت نحو أبواب الحرَم فوجدتها مغلقة، فقلت للجواري: أي شيء سمعتن عندي؟ فقالت: سمعنا أحسن غناءٍ ما سُمِع بمثله قط! فخرجت متحيِّرًا إلى باب الدار، فوجدته مغلقًا، فسألت البوَّاب عن الشيخ، فقال: أي شيخ؟ واللهِ، ما دخل إليك اليوم أحد! فرجعت لأتأمل أمري فإذا هو قد هتف من بعض جوانب البيت: لا بأس عليك يا أبا إسحاق، أنا إبليس وأنا كنت نديمك اليوم، فلا تُرَع.

فركبت إلى الرشيد وأظرفته بالحديث، فقال لي: ويحك! اعتبر الأصوات التي أخذتها. فأخذت العود فإذا هي راسخة في صدري، فطرب الرشيد عليها وجلس يشرب، ولم يكن عزم على الشرب، وأمر لي

بصلة جزيلة. قال: وكأنَّ الشيخ أعلم بما قال أنك قد أخذتها وفرغت منها، فليته أمتعنا بنفسه يومًا واحدًا كما أمتعك!

قال أبو الفرج الأصفهاني: هكذا حدثنا ابن أبي الأزهر لهذا الخبر، وما أدري ما أقول فيه.

عن المدائني قال: قال إبراهيم الموصلي: قال لي الرشيد يومًا: يا إبراهيم، قد جعلت غدًا للحرم وليلته للشرب مع الرجال، واقتصرتُ من المغنين عليك، فلا تشتعل غدًا بشيء ولا تشرب نبيذًا، وكن بحضرتي في وقت العشاء الآخرة. فقلت: السمع والطاعة لأمير المؤمنين! قال: وحقِّ أبي، لئن تأخرت أو اعتللت بشيء لأضربنَّ عنقك! قلت: نعم، يا أمير المؤمنين.

وخرجت فما جاءني من أحد إلا احتججت عليه واحتجبت عنه، ولا قرأت رقعةً لأحد، حتى صليت المغرب فركبت قاصدًا إليه، فلما قربت من داره مررت بفناء قصره، وإذا زَنْبِيلٌ كبير مُستوثَق بأربع حبالٍ وأربع عُرًى آدمُ قد دلِّيَ من القصر، وجارية قائمة تنتظر إنسانًا قد وعد ليجلس فيه، فنازعتني نفسي إلى الجلوس فيه ثم قلت: هذا خطأ؛ فلعله أن يجري سببٌ يعوِّقني عن الخليفة فيكون الهلاك.

فلم أزل أنازع نفسي حتى غلبتني، فجلست في الزنبيل فرُفِع حتى صار في أعلى القصر، ثم خرجتُ فنزلت فإذا جوارٍ كأنهنَّ أقمارٌ جلوسٌ، فضحكن وطربن وقلن: قد جاء والله! فلما رأينني من قريب تبادرن إلى الحجاب وقلن: يا عدوَّ الله! ما أدخلك إلينا؟ فقلت: يا عدوات الله، الذي أردتن إدخاله خيرٌ مني؟ ولمَ كان أولى مني؟ ولم يزل ذلك دائرًا وهن يضحكن وأضحك معهن.

فقالت إحداهن: أمَّا من أردتن فقد فات، وما هذا إلا ظريف، فهلمنَ نعاشرْه معاشرةً جميلة. فأخرج إليَّ طعام ولم يكن فيَّ فضل إلا أني كرهت أن أُنْسَب إلى سوءِ العِشرة، فأصبت منه. ثم جيء بالنبيذ وجعلتُ أشرب، وأخرجن ثلاثَ جوار لهن فغنين غناءً حسنًا، فغنت أحداهن صوتًا لمعبدٍ، فقالت إحدى الثلاث من وراء الستر: أحسن إبراهيم، هذا له. فقلت: كذبتِ، هذا لمعبدٍ. فقالت: يا فاسق، وما يدريك الغناء ما هو؟ ثم غنت الأخرى صوتًا للغريض، فقالت تلك: أحسنَ إبراهيم، هذا له أيضًا. فقلت: كذبتِ يا خبيثة، هذا للغريض. فقالت: اللهم أخزه! ويلك، ما يدريك؟! ثم غنت الجارية صوتًا لي، فقالت تلك: هذا لشريح، وأحسن. فقلت: كذبتِ، هذا لإبراهيم، وأنت تعزين غناء الناس إليه وغناءه إليهم! فقالت: وما يدريك؟ فقلت: أنا إبراهيم!

فتباشرن بذلك وظهرن كلهن لي، وقلن: كتمتنا أمرك وقد سررتنا سرورًا عظيمًا. فقلت: أنا الآن أستودعكن الله. فقلن: وما السبب؟ فأخبرتهن بقصتي مع الرشيد فضحكن وقلن: الآن والله طاب

حبسك علينا، وعلينا إن خرجت أسبوعًا. فقلت: هو واللهِ القتل. فقلن: إلى لعنة الله. فأقمت واللهِ عندهن أسبوعًا لا أزول، فلما كان بعد أسبوع ودَّعنني وقُلْن لي: إن سلَّمك الله فأنت بعد ثلاث أيام عندنا. فقلت: نعم. فأجلسنني في الزنبيل وسُرِّحت، فمضيت لوجهي حتى أتيت دار الرشيد، فإذا النداء قد أشيع ببغداد في طلبي، وأن من أحضرني قد سوغ مالي وملكي، فاستأذنتُ، فتبادر الخدم حتى أدخلوني على الرشيد، فلما رآني شتمني وقال: السيف والنطع! إنك يا إبراهيم تشاغلتَ عني وجلست مع السفهاء أشباهك حتى أفسدت عليَّ لذاتي، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا بين يديك، وما أمرت به غير فائت، ولي حديث عجيب ما سُمع بمثله، وهو الذي قطعني عنك ضرورةً لا اختيارًا، فاسمعه فإن كان عذرًا فاقبله وإلا فأنت أعلم. قال: هاتِه.

فحدثته فوجم ساعةً ثم قال: إن هذا لعجب! أفتحضرني معك؟ قلت: نعم، وأجلسك معهن إن شئت قبلي حتى تحصل عندهن، وإن شئت فعلى موعد. فقال: بل على موعد. قلت: أفعل. قال: انظر. قلت: ذلك حاصل. فلما أصبحنا أمرني بالانصراف وأن أجيئه من عندهن، فمضيت إليهن وقت الوعد فوجدت الزنبيل على حاله، فجلست فيه ومدَّه الجواري فصعدت، فلما رأينني تباشرن بي وحمدن الله على سلامتي، وأقمت ليلتي، فلما أردت الانصراف قلت: إن لي أخًا هو عندي عدل نفسي، وقد أحبَّ معاشرتكن ووعدته بذلك. فقلن: إن كنت ترضاه فمرحبًا بذلك. فوعدتهن لليلة غدٍ وانصرفت.

وأتيت الرشيد فأخبرته، فلما كان الوقت خرج معي متخفيًّا، وقد كان الله وفَّقني أن قلت لهن: إذا جاء صديقي فاستترن عني وعنه، ولا يسمع لكن لفظة، وليكن ما تخترنه من الغناء وتقلنه من قولٍ مراسلةً.

فلم يتعدَّين ذلك، وأقمن على أتم ستر وخفر، وشربنا شرابًا كثيرًا، وقد كان أمرني ألا أخاطبه بأمير المؤمنين، فلما أخذ النبيذ منِّي قلت سهوًا: يا أمير المؤمنين. فتواثبن من وراء الستارة حتى غابت عنا حركاتهن، فقال لي: يا إبراهيم، قد أقلت من أمر عظيم! واللهِ لو برزت إليك واحدة منهن لضربت عنقك. قم بنا.

فانصرفنا. فإذا هنَّ له وقد كان غضب عليهن، فحبسهن في ذلك القصر، ثم وجَّه من غدٍ بخدمٍ وردهنَّ إلى قصره، ووهب له مائة ألف درهم، وكانت الهدايا والألطاف تأتيني منهن بعد ذلك.

تناظر المغنون يومًا عند الواثق، فذكروا الضُّرَّاب وحُذَّاقهم، فقدَّم إسحاق بن إبراهيم الموصلي ربربًا على ملاحظ، ولملاحظ في ذلك الرياسة عليهم كلهم، فقال الواثق: هذا حَيفٌ وتعدٍّ منك! فقال إسحاق: يا أمير المؤمنين، اجمع بينهما وامتحنهما، فإن الأمر سيكشف لك فيهما.

قال: فأمر بهما فأُحضرا، فقال له إسحاق: إنَّ للضراب أصواتًا معروفة، فامتحنهما بشيء منها. قال: أفعل. فسمَّى ثلاثة أصوات كان أولها:

علق ظبيةَ السِّيب فقد أغرت بتعذيبي
نَمت عليها حين مرَّت بنا مجاسدُ يَنْفَحنَ بالطِّيبِ
تصدُّها عنَّا عجوزٌ لها مُنكَرةٌ ذاتُ أعاجيبِ

الشعر والغناء لإسحاق.

فضربا عليه، فتقدَّم ربرب وقصَّر ملاحظ، فتعجب الواثق من كشفه عما ادعاه في مجلسٍ واحد، فقال ملاحظ: فما باله، يا أمير المؤمنين، يُحيلك على الناس ولا يضرب هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لم يكن في زماني أضربُ مني، ولكنكم أعفيتموني من الضرب فتفلَّت مني. وعلى ذلك، إنَّ معي بقيَّةً لا يتعلق بها أحد من هذه الطبقة. ثم قال: يا ملاحظ، شوِّشْ عودَك وهاتِه. ففعل ملاحظ ذلك، فقال إسحاق: يا أمير المؤمنين، هذا خَلَطَ الأوتار خَلْطَ متعنِّتٍ، وهو لا يألو إفسادها. ثم أخذ العود فجسَّه ساعة حتى عرَف مواقعه ثم قال: يا مخارق، غنِّ أي صوت شئت. فغنى مخارق صوتًا وضرب عليه إسحاق بذلك العود الفاسد التسوية، فلم يخرجه من لحنه في موضع واحدٍ حتى استوفاه عن نقرة واحدة، ويده تصعد وتنحدر على الدساتين، فقال له الواثق: والله ما رأيت مثلك قط ولا سمعت به! اطرحه على الجواري.

فقال: هيهات يا أمير المؤمنين! هذا شيء لا يفي به الجواري ولا يصلح لهنَّ البتة. وإنما بلغني أن الفليهذ ضَرَبَ بومًا بين يديْ كِسرى أبْرَوَيْز فأحسن، فحسده رجل من حذاق أهل صناعته، فرقبه حتى قام لبعض شأنه، فخالفه إلى عوده فشوَّش بعض أوتاره، فرجع وضرب وهو لا يدري — والملوك لا يُصلَح في مجالسها العيدان — فلم يزل يضرب بذلك العود إلى أن فرغ، ثم قام على رجله وأخبر الملك بالقصة، فامتحن العود فعرف ما فيه، فقال له: زِهْ وزِهْ وزهان زِهْ. ووصله بالصلة التي كان يصل بها مَن يخاطبه بهذه المخاطبة، فلما تواطأت الروايات بهذا أخذتُ نفسي به ورضْتُها عليه وقلت: لا ينبغي أن يكون الفِلْهيذ أقوى على هذا مني. فما زلت أستنبطه بضعَ عشرة سنةٍ حتى لم يبقَ في الأوتار

موضع على طبقة من الطبقات إلا وأنا أعرف نغمته كيف هي، والمواضع التي تخرج النغم كلها منها، من أعاليها إلى أسافلها، وكل شيء منها يجانس شيئًا غيره، كما أعرف ذلك في مواضع الدساتين، وهذا شيء لا يفي به الجواري. فقال له الواثق: لَعمري، لقد صدقتَ، ولئن مِتَّ لتموتنَّ هذه الصناعة معك! ثم أمر له بثلاثين ألف درهم.

الباب الثالث والعشرون

في الغلمان

كان يقال: العبد من لا عبد له. وقال دعفل النسَّابة في المماليك: هم عزٌّ مستفاد، وغيظ في الأكباد. وقال سعيد بن مسلم: لا بد للعميد من عبيد. وقال جعفر بن سليمان: العبيد إن أكلوا من مالك، زادوا في جمالك. وقال غيره: العيش في سعة الدار، والعز في كثرة العبيد. وقال آخر: عز الملوك، في كثرة المماليك. وقال آخر: رُبَّ عبدٍ خير من الولد، لأن الولد في أكثر الأحوال يرى صلاحه في موت والده، والعبد يرى صلاحه في بقاء مولاه.

وكان يحيى بن أكثم يقول: قد أكرم الله تعالى أهل جنته بأن أطاف عليهم الغلمان في وقت رضاه عنهم وإفضاله عليهم وبرِّه بهم، لفضلهم في الخدمة على الجواري. وما الذي يمنعني عاجلًا في طلب هذه المزية المخصوص بها أهل القربة عند الله تعالى والزلفة لديه؟

وقال مطيع بن إياس: لو لم يكن للمُرْد فضيلة لما كان الله جعل ملائكته مردًا، وأهلَ الجنة مردًا، وهذا فيه كفايةٌ. وإنما عنى الحديثَ: «أهل الجنة جُرْدٌ مُرْدٌ مكحَّلون».

وكان والبة بن الحباب يقول: الغلام هو الرفيق في السفر، والصديق في الحضر، والمعين على الشغل، والنديم عند الشرب، وهو سبب الأُنْس.

وقيل لمسلم بن الأصفر: لمَ فضَّلت الغلام على الجارية؟ فقال: لأنه في السفر صاحب، ومع الإخوان نديم، وفي الخلوة أهل.

ومن رسالة الشيخ جمال الدين بن نباتة: وكان في مرجة يُحدِث مرآها الحَسَنُ أحاديثَ جِنان، أمامه عشرة مماليك من الترك، ليس الخبر في محاسنهم المبدعة كالعِيان، جلبهم إلى مصرَ تاجرٌ لَحَظَتْهُ السعادةُ، فاستنزلت له البدور من آفاقها، وأصحبته الشموس بشرفها وإشراقها، فصار إلى مصر

بيوسف، وبمن سجد له في المنام، وأتى بلاد القبلة بجماعة ما منهم إلا من هو في الحسن إمام، وما فيهم إلا من يقول له المتأمل بلسان الاعتراف: يا بشرى، هذا سيد! وبلسان العرف: يا بشرى، هذا غلام! قد وشحوا بالدقة خصورهم، وحموا بأسياف الجفون كما تحمى الثغور ثغورهم، من كل لدن القوام مهفهفه، ساجي الطرف أوطفه، حلو الجناية والمجاني، ضيق العين لا يجود على العاني، منسوب إلى أرض القان أصله فيا حَرَبًا من خده القاني، قد فضح البدور في الدياجر، ورمى القلوب من حبه وذله بين هاجرة وهاجر، وغطى بعنق جلب من أرض الفرات فعطل عنق الغزال بأرض حاجر، ونضى من جفن عينيه حسامًا، وقسم من لحظاتها على القلوب سهامًا، وطال قَدُّه عن قصر الأغصان ودنا عن الرمح فكان بين ذلك قوامًا، فسبحت حين رأيت الأقمار واقفة إلى الأرض، وتفاءلت بوجوهٍ حُبُّ التفاؤل بمثلها كاد يكون من الفرض، وقلت:

فديتُ من الأتراك سربَ جآذر … تعلَّم زُهَّادَ الورى كيف تعشقُ
لهم منظرٌ في الحسن يفتح خاطرًا … ولكنَّ سَهمَ اللَّحْظِ في القلبِ مغلق
دخلتُ بقلبي في مجال عيونهم … فأودى به ذاك المجال المضيق
وكم قمر في القوس عاينت منهم … فما لك يا طرفي المسافر تعلق

واستقبلنا دمشق على هذا الفأل الجليل، وفاصلنا السفرة — بحمد الله — على وجه جميل.

فصل في المنظوم من ذلك

قول لسان الدين بن الخطيب في غلامٍ ساقٍ، قال:

كيف أمنْتُما على الشُّرْب ظَبْيًا … لَحْظُه في القلوب غيرُ أمين
راحَ يَسقي فَصَبَّ في الكأسِ نَزْرًا … ثِقةً منه بالَّذي في العيون

وقال الشيخ شمس الدين الرئيس فيه:

مدير الكأس حدِّثنا ودَعْنا … بعيشك من كؤوسك والحثيث
حديثك عن قديمِ الراح يُغني … فلا تسقِ الأنام سوى الحديث

وقال صلاح الدين الصفدي في غلامه يشوي إوزًّا:

قلت لما شوى الحبيب إوزًّا واكتسى باللّهب ثوب سناء

لو يعيش الجزّار مات معنى في معاني محاسن الشواء

وله أيضًا فيه:

شوى الإوزَّ فأضحت في خمرة الخدِّ بسطةْ

فقلت تشوي إوزًّا أم كنت تشرب بطةْ

قال الشيخ برهان القيراطي في غلام يلعب بالعود:

غنى على العود شادٍ سَهم ناظره أضحى به قلبي المضنَّى على خطر

دنا إليَّ وجست كفُّه وترًا فراحت الروح بين السهم والوتر

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة في ساقٍ معذر:

مبقَّل الخدِّ أدار الطلا فقال لي في حبها عاتبي:

عن أحمر المشروب ما تنتهي قلت: ولا عن أخضر الشارب

وقال في غلام تركي أهيف:

علقته من بني الأتراك مقتربًا من خاطري وهو مني غير مقترب

حمَّالة الحلي والديباج قامته تبَّت غصون الربى حمالة الحطب

وقال الشيخ صفي الدين الحلي في راقص:

جاء وفي قَدِّه اعتدال مُهَفْهَفٌ ما له عديل

قد خفَّقت عِطفَه شَمالٌ وثقَّلت جَفْنه شَمول

ثم انثنى راقصًا بِقَدٍّ حَفَّ به اللُّطف والدُّخول

يجول ما بيننا بوجهٍ فيه مياه الحَيا تجول

ورنَّح الرقص منه عطفًا تُثنى إلى نحوه العقول

فعِطْفُه داخلٌ خفيف ورَدْفه خارجٌ ثقيل

وقال آخر في راقص:

وراقص أبصرته مرَّة فلم أزل بالرقص مفتونًا
لو قيل شعر بيِّنٌ كسره أخرجه بالرقص موزونًا

وقال ابن خروف النحوي الأندلسي فيه:

ومنوع الحركات يلعب بالنهى لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأودًا كالغصن بين رياضه متلاعبًا كالظبي عند كناسه
بالعقل يلعب مقبلًا أو مدبرًا كالدهر يلعب كيف شاء بناسه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة في غلام يرمي بالقوس:

فَدَيْتُكَ أيُّها الرَّامي بِقَوْسٍ ولحظٍ يا ضنى جسدي عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب وشبهُ الشيء منجذب إليه

وقال محيي الدين بن قرناص في غلام يرمي في الإماج:

أتى الإماج مائسًا والردف قد أقلقه
يرشق ثم ينثني لله ما أرشقه

وقال بدر الدين حسن الغزي في غلام يرمي في الألكي:

أهواه في الألكي يرمي دائمًا وسواد قلب الصبِّ من أغراضه
أطلقت لحظي نحوه فأصابني سهم وما عاينت كشف بياضه

قلت: ما أحسن قول الشيخ الموصلي من قصيدة:

أصاب قلبي المستهام بعينه فكلَّمه سهمٌ له غير ناطق

ولبعضهم في غلام يقوِّم سهمًا:

وافى وفي يده سهمٌ يقوِّمه يرمي إليه بعينه ويرمقه

وذاك إبداع سرٍّ من لواحظه فيه ليزداد فعلًا حين يرشقه

نكتة حسنة

عزم الملك المعظم على الصيد، فقيل له: يا مولانا، القمر في العقرب، والسفر فيه مذموم، والمصلحة الصبر إلى أن ينزل القوس. فعزم على الصبر، فبينما هو مفكر إذ دخل مملوك له من أحسن خلق الله وجهًا يقال له: آي دوغدى (ومعناه بالعربية: هلَّ القمر)، فوقف قدَّامه وقد توشح بقوس، فقال له بعض الحاضرين: يا مولانا، بالله اركب الساعةَ، فهذا القمر في القوس حقيقة، فقام لوقته وركب استبشارًا وتفاؤلًا بالقول، فلم يرَ أطيب من تلك السفرة، ولا أكثر من صيدها.

وقال بدر الدين حسن بن حبيب الحلبي في غلام تركي يطلب وردًا:

رام ظبي الترك وردًا قلت: أقصر خاب ضدُّك
عندك الورد المربَّى قال: فأنَّى؟ قلت: خدُّك

وقال الشيخ زين الدين العجمي، ونقلتها من خطه، في غلام نثر وردًا من أكمامه:

وافى وفيَ كُمَّيْه وردٌ أحمر حيا به مذ بُسْتُ تحت لثامه
فرشفت صرفَ الراح من خرطومه وجنيت غض الورد من أكمامه

القيراطي في غلام مطاوع:

أباح لي نرجس أحداقه في مجلس ما فيه ما نكره
فقلت: ورد الخد جد لي به أيضًا فقال: الكل في الحضرهْ

وقال شمس الدين بن الصائغ في غلام ذي خالٍ:

بروحي أفدي خاله فوق خده ومَن أنا في الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلى من الشعر خده وأسكن كل الحسن في ذلك الخال

وقال شهاب الدين بن أبي حجلة في غلامٍ يُدعى مقبل:

يا من تحجَّب عن محبٍّ صادق ما زال عنه كلَّ يومٍ يسأل

مَن لي بيومٍ فيه يسمح باللِّقا ويقال لي: هذا حبيبك مُقْبِلِ

وقال برهان الدين القيراطي في غلام يبكي شعرًا:

لم يبكِ حين بكيتُ مِن هِجرانه متحسِّرا

وقد ذكرتها في باب البِركة والشاذروان والفوارة، وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ شمس الدين الرئيس في غلام مليح وله لألاء مليح مضمنًا:

ومليح لألاؤه قد حكاه فهو كالبدر في الدجى يتلالا
قلت: قصدي من الأنام مليح هكذا هكذا وإلا فلا لا

وأنشدني من لفظه لنفسه، سيدي وأخي، المولى الكامل، شمس الدين محمد، الشهير بابن الكفتي — أبقاه الله تعالى لأحبابه — حسبما اقترحه في غلام يعتز إلى من يهواه:

وَا رحمتاهُ لقلبي كان يمنحني حبي وصالًا وكان الحب مستترا
وحين باحت بسرِّي أدمعٌ هملت دَرَى بعشقي له فاعتزَّ واقتدرا

وقال الشيخ المحدِّث الفصيح الرحَّال، صلاح الدين خليل الأقفهسي قال: أنشدني الشيخ العارف الناسك المحقق الصوفي، إبراهيم بن الشيخ أحمد الغزي، الشهير بابن زقاعة — أعاد الله من بركته — من لفظه لنفسه في غلام معذر:

رسم العذارُ بعارضيه بنفسجًا فوق الخدود فصار كالمرقوم
قبَّلتُ مرسوم العذار تأدبًا ومن التأدُّب قبلة المرسوم

وكتب إليَّ من القاهرة المحروسة من بعض متجدداته سيدي الجناب المجدي ابن مكانس — أبقاه الله تعالى — في غلام أبيض:

دعني وحالي في هوى أبيض كالبدر أو أحسن من ذلك
وعش معنا في هوى أسمر أو مت إذا ما شئت في حالك

وقال شمس الدين محمد بن العفيف في غلام جَرحت كفَّه السِّكِّينُ:

لم تجرح السكين كفَّ معذِّبي   إلا لمعنًى في الهوى يتحقَّقُ
هذي كما قيل: جارحةٌ غدت   ولكلِّ جارحةٍ إليه تشوُّقُ

وكتب إليَّ من القاهرة من بعض متجدداته سيدي القاضي شهاب الدين أحمد بن حجر — سلمه الله تعالى — في غلام مرَّ بروضة مزهرة:

ولمْ أنسَ إذ مرَّ الحبيبُ بروضةٍ   فغارتْ من المحبوب أعينها المرضى
ولاحتْ بخدِّ الورد في الروض حمرةٌ   حياءً وسمتْ أطرفُ نَرجسه غضبى

وقال محيي الدين بن قرناص في غلام شدَّ في وسطه بندًا أحمر:

مَن لِقَلْبِي من جَوْر ظبي هواه   لي شغل عن حاجرٍ والعقيق
خصره تحت أحمر البِنْد يَحكي   خنصرًا فيه خاتم من عقيق

وقال صلاح الدين الصفدي: أنشدني من لفظه لنفسه المولى شهاب الدين أحمد بن مهاجر بحلب المحروسة في غلام لابس لامة حرب:

ما لاحَ في درعٍ يَصول بِسَيفه   والوجه منه يضيء تحت المغفر
إلا حسبت البحر مدَّ بجدولٍ   والشمس تحت سحائب من عنبر

وقال جمال الدين بن نباتة في غلام يدعى خليلًا مضمنًا:

يغيب خليل الحُسْن عنِّي ليلةً   فأسأمُ مِن ليلٍ طويلٍ أراقبه
وكيفَ يَطيبُ اللَّيلُ عندي والكرى   وليس إلى جنبي خليلٌ ألاعبه

وأنشدني الشيخ عز الدين الموصلي لنفسه فيه:

قال حبي: خليلي غيَّرت ودِّي   وتركت الفؤاد منِّي عليلا
بعد عشق المِلاح صرتَ تقيًّا   ما تراعي من الأنام خليلا

وأنشدني سيدنا ومولانا القاضي صدر الدين بن الأدمي حسب ما اقترح عليه السادة المخاديم فضلاء الديار المصرية لنفسه:

يـا مُتْهِمي بـالسـُّقم كنْ منجـدي ولا تُـطِـل رفضـي فـإنِّـي عـلـيـل
أنـت خـلـيـلـي فـبـحـقِّ الـهـوى كُنْ لشـجوني راحمًـا يـا خـليـل

وقال سيدنا القاضي بدر الدين الدماميني في غلامٍ يسقي الماء:

بروحي سـاقٍ همـتُ إذ طـافَ بيننـا بـأكـوابـه الـلَّـاتـي شـفـين أوامـا
ورُمْـتُ ارتشـافَ الريق منـه فلم أجـد ولكن كسـا جسـمي ضـنًى وسـقاما

ولنختم هذا الباب بحكاية لطيفة ونكتة غريبة ذكرها أبو الفرج المعروف بالببغاء قال: تأخرتُ بدمشق عن سيف الدولة بن حمدان مُكْرهًا، وقد سار عنها في بعض وقائعه، وكان الخطر شديدًا على من أراد اللحاق به من أصحابه، حتى إن ذلك كان مؤديًّا إلى النهب وطول الاعتقال، فاضطررت إلى إعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من بها من الرؤساء والإخشيدية وكان سنِّي في ذلك الوقت عشرين سنة، وكان انقطاعي منهم إلى أبي بكر علي بن صالح الروذباري لتقدمه في الرياسة ومكانه من الفضل والصناعة، فأحسنَ مقيلي وبالغ في الإحسان إليَّ، وحصلت تحت الضرورة في المُقام، فتوفرت على قصد البقاع الحسنة والمتنزهات المطروقة، تسليًّا وتعللًا.

فلما كان في بعض الأيام عملت على قصد دير مُرَّان، وهذا الدير مشهور الموضع في الجلالة وحسن المنظر، فاستصبحت من كنت آنسَ به، وتقدمت بحمل ما يَصلح وتوجهنا نحوه، فلما نزلنا أخذنا في شأننا، وقد كنت اخترت من رهبانه لعِشْرتنا من توسَّمتُ فيه رقَّةَ الطبع، وسماحةَ النفس والخلق، حسبما جرى به الرسم في غشيان الأعمار وطروق الديرة من التطرف بعشرة أهلها والأنسة بسكانها، ولم تزل الأقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة، إلى أن فضَّ اللهو ختامه، ولوَّح السُّكر لصحبي أعلامه، وحانت مني نظرة إلى بعض الرهبان، فوجدته إلى خطابي متوثِّبًا، ولنظري إليه مترقبًا.

فلما أخذته عيني، أكبَّ عليَّ يزعجني بخفيِّ الغمز ووحي الإيماء، فاستوحشت من ذلك وأنكرته، ونهضت عجلًا واستحضرته، فأخرج إليَّ رقعة مختومة وقال لي: قد ألزمك فرض الأمانة في ما تتضمنه هذه الرقعة دوني، وسقط ذمام كتابها في سترها بك عني. ففضضتها فإذا فيها بأحسن خطٍّ وأملحه، وأقواه وأوضحه:

بسم الله الرحمن الرحيم

لم أزل في ما تؤدِّيه هذه المخاطبة، يا مولاي، بين حزم يحث على الانقباض عنك، وحسن ظنٍّ يحضُّ على السانح بنفيس الحظ منك، إلى أن استنزلتني الرغبة فيك، على حكم الثقة بك، من غير خبرة، ورفعت بيني وبينك سجف الحشمة، فأطعت بالانبساط أوامر المؤانسة، وانتهزت في التوصل إلى مودتك فائت الفرصة، والمستماح منك — جعلني الله فداك — زورة أرتجع بها ما اغْتَصَبَتْنِيهُ الأيامُ من المسَرَّة مهنأةً بالانفراد إلا من غلامك الذي هو مادة مسرَّتك، وأُنْشِدُ:

وما ذاك عن خُلُقٍ يضيق بطارقٍ ولكنْ لأخذٍ باحتياطٍ على حالي

فإن صادف ما خطبته منك — أيدك الله — قَبولًا، ولديك نفاقًا، فهبةٌ غفل الدهر عنها، وإن فارق مذهبه في ما أهداه إليَّ منها، وإن جرى على رسمي في المضايقة في ما أؤثره وأهواه، وأترقبه من قربك وأتمناه، فذمامُ المروءة يُلزمك ردَّ هذه الرقعة، وسترها وتناسيها، واطِّراح ذكرها.

وإذا بأبيات تتلو الخطاب:

يا عامرَ العُمْرَ بالفُتُوَّة والقَصْـ ـفِ وحثِّ الكؤوس والطَّرَبِ
هل لكَ في صاحبٍ تناسب في الغُرْ بَةِ أخلاقه وفي الأدب
أوحشه الدهرُ فاستراحَ إلى قُرْبِكَ مستنصرًا على النُّوَب
فإن تقبَّلت ما أتاك به لم يشب الظن فيه بالكذب
وإن أبى الزهدُ منك رغبتنا فَكُنْ كمَنْ لم يَقُلْ ولم يُجِبِ

قال أبو الفرج: فورد عليَّ ما حيرني، واسترد مني ما كان الشراب حازه من تمييزي، وحصل لي في الجملة أن أغلب الأوصاف على كاتبها الكتابة خطًّا وترسلًا ونظمًا، فشاهدته بالفراسة في ألفاظه، وحمِدت أخلاقه قبل الاختبار من رقعته، وقلت للراهب: من هذا، ويحك؟ وكيف السبيل إليه؟ فقال: أمَّا ذكره وحاله فإليه إذا اجتمعتما، وأمَّا السبيل إلى لقائه فسهل إن شئت. قلت: دُلَّني! قال: فكيف نفعل بالغلمان؟ قلت: لا أدري. قال: تُظهر فتورًا، وتنصب عذرًا تُفارق به أصحابك منصرفًا، فإذا حَصَلْتَ بباب الدَّير عدلتُ بك إلى بابٍ تدخل منه. فرددت الرقعة إليه وقلت: ادفعها إليه ليتأكد أنسه وسكونه

إليَّ، وعرِّفه أن التوفر على إعمال الحيلة في المبادرة إلى حضرته على ما أؤثره من التفرد أولى من التشاغل بإصدار جواب وقطع وقت بمكاتبة.

ومضى الراهب وعدت إلى أصحابي بغير النشاط الذي ذهبت به فأنكروا ذلك، فاعتذرت إليهم بشيء عرض لي، واستدعيت ما أركبه، وتقدمت إلى من كان معي من الخدم بالتوفر على خدمتهم، وقد كنا عملنا على المبيت فأجمعوا على تعجيل السكر والانصراف، وخرجت من باب الدير ومعي غلام وضيء كنت آنس به وبخدمته، وتقدمت إلى الشاكري بردِّ الدابة وستر خبري ومباكرتي، فتلقاني الراهب وعدل بي إلى طريق مضيق، وأدخلني إلى الدير من باب غامض، وصار بي إلى باب قِلايةٍ متميزًا عما يجاوره من الأبواب نظافةً وحسنًا، فقرعه بحركات مختلفةٍ كالعلامة، فابْتَدَرنا منه غلام كأنَّ البدر تركب على أزراره، مهفهف الكشح مخطَّفُهُ، معتدل القوام أهيفه، تخال الشمس برقعت غرته، والليلَ ناسب أصداغه وطرَّته، في غلالة تنم على ما يستره، وتجفو مع رقتها عما يظهره، وعلى رأسه مجلسية مصمتة، فبهر عقلي حُسنًا واستوقف نظري، ثم أجفل كالظبي المذعور، فتلوته والراهب إلى بعض القلاية، فإذا أنا ببيتٍ فضيِّ الحيطان، رخاميِّ الأركان، يضم طارمة خيش، مفروش بحصير قد أتعب صانعه، منقوش كأنه روضة مزخرفة بالنور، أضحكها سقيط الندى، فوثب إلينا منه فتى مقتبل الشباب حَسَنُ الصورة والإهاب، ظاهر النُّبْل والهيئة، فلقيني حافيًا يعثر في سراويله واعتنقني ثم قال: إنما استخدمت هذا الغلام إلى تلقِّيك يا سيدي، اجعل ما لعلَّك استحسنته من وجهه مصانعًا عما يرد عليك من مشاهدتي. فاستحسنت اختصاره الطريق إلى بسطي، وارتجاله النادرة على نفسه حرصًا في تأنيسي.

وأفاض في شكري على المسارعة إلي أمره، وأنا أواصل في خلال سكتاته المبالغة في الاعتداد به، ثم قال: يا سيدي، أنت مكدود بمن كان معك، والاستمتاع بمحادثتك لا يتم إلا بالتوصل إلى راحتك.

وقد كان الأمر على ما ذكر، فاستلقيت يسيرًا ثم نهضت، فخدمت في حالتي النوم واليقظة الخدمة التي ألفتها في دور أكابر الملوك، وجِلَّة الرؤساء، وحضرنا خادم له لم أرَ أحسن وجهًا منه ولا ألطف، قد حمل طبقًا يضمُّ ما يُتَّخذ للعشاء مما خف ولطف، وقال: الأكل مني يا سيدي للحاجة، ومنك للممالحة والمساعدة. فأكلنا شيئًا، وأقبل الليل وطلع القمر من مناظر ذلك البيت إلى فضاء أدَّى إلينا محاسن الغوطة، وحيَّانا بذخائر رياضها من المنظر الجِناني والنسيم العطري، وجاءنا الراهب من الأشربة بما وقع عليه اتفاقنا على المختار منه، ثم اقتعدنا غالب اللَّذة وجرينا في ميدان المعارضة، فلم نزل نتناهب نوادر الأخبار، وملح الأشعار، ونمزج ذلك المزج بأظرفه، ومن التودد بألطفه، إلى أن

توسطنا الشراب، فالتفت إلى غلامه وقال: يا مترف، إن مولاك ما ادَّخر عنا السرور بحضوره، وما يمكن أن ندخر ممكنًا في مسرته. فانتقع وجه الغلام حياءً وخفرًا، فأقسم عليه بحياتي وأنا لا أعلم ما يريد، فمضى وعاد يحمل طنبورًا وجلس وقال لي: يا سيدي، أتأذن لي في خدمتك؟ فهممت بتقبيل يده لما تداخلني من السرور بذلك، فأصلح الطنبور وضرب وغنى هذه الأبيات:

يا مالكي وهو ملكي وسالبي ثوب نُسُكي
نزِّه يقين الهوى فيـ ـكَ عن تعرُّض شكِّ
لولاك ما كنتُ أبكي إلى الصباح وأبكي

فنظر إلى الغلام وتبسَّم، فعلمت أن الشعر له فكدت والله أطير فرحًا بملاحة خُلُقه، وحسن خَلقه، وقوة حذقه، وجَوْدة ضربه، وعذوبة ألفاظه، وتكامل حسنه، فاستدعيت شرابًا كثيرًا، فأحضر الخادم قطع بلور متعددة محكمة، فشربت سرورًا بوجهه، وشرب بمثل ما شربت.

ثم قال لي: أنا والله يا سيدي أحبُّ ترفيهك، ولا أقطعك عما أنت متوفر عليه، ولكن إذا عرفت الاسم والنسب، والصناعة واللقب، فلا بد أن تنشئ ليلتنا بشيء يكون لها طرازًا ولذكرها مَعلمًا، فجذبت الدواة وكتبت ارتجالًا، وقد أخذ الشراب مني، هذه الأبيات:

وليلة أوسعتني حسنًا ولهوًا وأُنْسا
ما زلتُ ألثمُ بدرًا بها وأشرب شمسا
إذ أطلع الدير سعدًا لم يبقِ مذ كان نحسا
فصار للرُّوح روحًا وصار للنَّفس نفسا

فطرب على قولي: ألثم بدرًا وأشرب شمسًا. وجذب غلامه فقبله، وقال: ما جهلت ما يجب لك من التوقير، وإنما اعتمدت تصديقك فيما ذكرته. فبحياتي، إلَّا ما فعلت ذلك بغلامك! فاتبعت إيثاره خوفًا من احتشامه، وأخذ الأبيات وجعل يرددها، ثم أخذ الدواة وكتب إجازتها:

ولم أكن لغريمي والله أبذل فِلسا
لو ارتضى لي غريمي بدير مُرَّان حبسا

فقلت له: إذًا، والله، ما كان يؤدي أحد حقًّا ولا باطلًا. وداعبته في هذا المعنى بما حضر، وعرفت في الجملة أنه مستتر من دَيْنٍ قد ركبه، وقال لي: قد خرج إليك أكثر الحديث، فإن عذرتَ وإلَّا ذكرتُ لك الحال لتعرفها على صورتها. فتبينت ما يؤثر من كتمان أمره فقلت له: يا سيدي، كل من لا يتعرف بك نكرة، وقد أغنت المشاهدة عن الاعتذار، وبانت الخبرة عن الاستخبار.

وجعل يشرب وينتخب من غير استكراه ولا حثٍّ ولا استبطاء، إلى أن رأيت الشرب قد دبَّ فيه، وأكبَّ إلى مجاذبة غلامه والفطنة تثنيه، في الوقت بعد الوقت، فأظهرت السكر وحاولت النوم، وجاء الغلام بفرش حسنة، ففرشت لي بإزاء فرشه، فنهضت إليه وقام يتفقد أمري بنفسه، فقلت له: إنَّ لي مذهبًا في تقريب غلامي مني. واعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذه الحال في أمر غلامه، فتبسم وقال لي بسكره: يجمع الله لك شمل المسرَّة كما جمع جمعه لي بك.

وأظهرت النوم وعاد إلى محادثة غلامه، ومعاتبته بأعذب لفظ وأحلى معاتبة، ويمزج ذلك بمواعيد تدلُّ على سَعة وانبساط، وغلامه تارةً يقبِّل يده وتارةً فمه، وغلبتني عيناي إلى أن أيقظني هواء السَّحَر، فانتبهت وهما متعانقان بما كان عليهما من اللباس، فأردت توديعه وحاذرت إنباهه وإزعاجه، فخرجت فلقيني الخادم يريد إنباهه وتعريفه بانصرافي، فأقسمت عليه ألَّا يفعل، وخرجت فإذا بغلامي قد بكَّر بما أركبه كما كنت أمرته، فركبت منصرفًا عازمًا على العودة إليه، والتوفر على مواصلته، وأخذ الحظ منه في معاشرته، ومتوهمًا أن الذي كنت فيه منامًا، لطيبه وقرب أوله من آخره، واعترضتني أسباب أدَّت إلى اللحاق بسيف الدولة، فِسرت إلى أتمِّ حسرة لما فاتني من معاودة لقائه، وقلت في ذلك هذه الأبيات:

ويومٌ كأنَّ الدهرَ سامحني به	فصار يسمَّى بيننا هِبَة الدَّهر
جرت فيه أفراس الصِّبا بارتياحنا	إلى دير مُرَّان المعظَّم ذي القَدْر
فمِن روضةٍ بالحسن توقد روضه	ومن نهر بالفيض يجري إلى نهر
وفي الهيكل المعمور منه افترعتها	وصحبي حلالًا بعد توفية المهر
ونزهت عن غير الدَّنانير قَدْرَها	فما زلتُ منها أشرب التبر بالتبر
وحلَّ لنا ما كان منها محرَّمًا	وهل يُحظر المحظور في بلدِ الكُفْر
فأهدتْ ليَ الأيام فيه مودَّةً	دعتني في سترٍ فلبَّيْتُ في ستر

أتى من الشـــريفِ الطبعِ أصـــدق رغبة فخــاطبني من معــدن النَّظْمِ والنثر
وكــان جــوابــي طــاعــةً لا مــقــالــة ومَن ذا الذي لا يســتجيب إلى اليســر
فـلاقـت مـن الـعـيـنـين نـبلًـا وهـمَّـةً محـل السَّــجـايـا بـالطلاقـة والبِشْــر
وأحشـــمني بـالـبرِّ حتى حَســبْتُه يريـد اختـداعي عن حيـاتي ولا أدري
ونزَّه عن غير الصــفــاء اجتمـاعنـا وكنـت وإيـاه كَقَلْبَيْنِ فـي صـــدر
وشـــاءَ الســتر أنَّا قـد بُلينا بثـالـثٍ فـلاطفنـا بـالـبـدر أو بـأخـي الـبـدر
بمعطي عيون مـا اشـــتهت من جمـالـه ومضـــني قلوب بـالتجني وبـالـهجر
جَنَيْنَـا جَنَى الـوردِ فـي غيـر حِينـه وزهرَ الربُّى من روض خـدَّيْـه والثَّغر
وقـابـلـنـا مـن وجـهـه وشـــرابـه بشمسـين في جنحي دجى الليل والشعر
وغنى فصـــار الســـمع كالطرف آخذًا بـأوفـر حظٍّ من مـحـاســـنـه الـزهـر
وأَمْتَعَنَا فـي وجـنـتـيـه بـمـثـلِ مـا تـمـرج كـفَّـاه مـن المـاء والـخـمـر
ســرور شــكرنا منَّة الصـحو إذ دعا إليـه ولم نشــكر بـه منـة الســكر
كـأنَّ الـلـيـالـي نـمـنَ عـنـه فـبـعـدمـا تـنـبَّـهـن يـبـكـين الـوفـا إلـى الـغـدر
مضـــى وكـأنـي كنـت فـيـه مـهـومًا فحـدثـت عن طيف الخيـال إذا يســرِي
وهل يحصـــل الإنســـان من كل مـا بـه تســـامحـه الأيـام إلا عـلـى الـذكـر

ولم أزل على أتمِّ قلقٍ، وأعظم حسرة، وأشد تأسف على ما سلبت من عظيم النعمة بفراق الفتى، لا سيما ولم أحصل منه على حقيقة ولا يقين خبر يؤدِّياني إلى الطَّمع في لقائه، إلى أن عاد سيف الدولة إلى دمشق وأنا في جملته، فما بدأت بشيءٍ قبل المصير إلى الراهب، وقد كنت حفظت اسمه. فخرج إلي مرعوبًا وهو لا يعرف السبب، فلما رآني استطير فرحًا وأقسم لا يخاطبني إلا بعد نزول، والمُقام عنده يومي ذلك، ففعلت.

فلما جلسنا للمحادثة قال: ما لي أراك لا تسألني عن صديقك؟ قلت: والله، ما لي فكرٌ منصرف عنه، ولا أسف يتجاوز ما حُرمته منه، ولا سُررتُ بعودي إلى البلد إلا من أجله، ولذلك بدأت بقصدك؛ فاذكر لي خبره. فقال: أمَّا الآن فنعم، هذا فتًى من أولاد عظماء مصر، جليل القدر، عظيم النعمة، كان قد ضمن

من سلطانه بمصر ضِياعًا بمال كثير، فخسر به ضمانه لقعود السعر، وأشرف على الخروج من نعمته، فاستتر. ولما اشتد البحث عنه خرج متخفيًّا إلى أن ورد دمشق بزيٍّ تاجر، وكان استتاره عند بعض إخوانه ممن له عادة بخدمته، فأتيت عنده يومًا إذ ظهر لي وقال لصديقه: إني أريد الانتقال إلى هذا الراهب إن كان مأمونًا. فذكر له صديقي مذهبي، وأظهرت له السرور بما رغب فيه من الأنس بي، وأنا لا أعرفه غير أن صديقي قد أمرني بخدمته، وحصل على ذلك في قلايتي وواصل الصوم.

فلما كان بعد أيامٍ، جاءنا الرسول من عند صديقنا هو والغلام والخادم قد لحقا به، ومعهما سفاتج وعليهما ثياب رثَّة، فلما نظرت إلى الغلام قال: يا راهبُ، قد حلَّ الفِطر وجاء العيد! ووثب إليه واعتنقه، وجعل يقبل عينيه ويبكي، ووقف على السفاتج وأنفذها مع درج رقعة منه إلى صديقه.

فلما كان بعد يومين، حمل إليه ألفي دينار وقال له: ابتعْ له ما يستعمله في هذه الصنعة. فابتاع آلةً وفرشًا، ولم يزل مكبًّا على ما رأيت إلى أن ورد عليه كتب أهله بتدبير حاله مع سلطانه، وأخذ خط السلطان بحطيطة المال وطيبة قلبه وتحقق رضى السلطان، فلما عزم على المسير قال لغلامه: سلِّم جميع ما بقي معك من نفقتنا إلى الراهب ليصرفه في مصالح الدير، إلى أن نواصل تفقده مع مستقرنا. وسار وما له حسرةٌ غيرك، ولا أسفٌ إلا عليك، يقطع جميع الأوقات بذكرك، ولا يشرب إلا على ما يغنيه الغلام من شعرك.

وهو الآن بمصرَ على أحسن الأحوال وأجلها، ما بخل بتفقدي، وخفَّ بعض ما عندي من الحزازة بما عرفت من حقيقة خبره، وأتممت يومي عند الراهب، وكان آخر العهد منه ومن الغلام؛ والسلام.

الباب الرابع والعشرون

في الجواري ذوات الألحان

قال الثعالبي في تحفة الأرواح وموائد السرور والأفراح: إن غناء الجواري ذوات الحسن والدلال له موقع في القلب أحسن من موقع غناء الرجال، وإن كان ذلك أجود منه، وذلك مع الروية.

وقال أفلاطون: غناء المِلاح تحرِّك فيه الشهوة الطرب، وغناء القِباحِ يحرك فيه الطرب الشهوة.

وقد قيل: أحسن الناس غناءً من تشبَّه بالنساء من الرجال، ومن تشبه بالرجال من النساء.

وما أحسن قول القائل:

جاءت بوجهٍ كأنَّه قمرٌ ... على قوامٍ كأنَّه غصنُ
غنَّت فلم تُبقِ فيَّ جارحة ... إلَّا تمنَّيتُ أنَّها أذن

وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء؛ فإنه يسقط المروءة، وينقص الحياء، ويبدي العورة، ويزيد في الشهوة، وإنه لينوب عن الخمر، ويصنع بالعقل ما يصنع به السكر، وإن كان ولا بد فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا.

وقال بعض أهل الأدب: لا يكون الملك ملك حتى يلبس من طرازه، وينكح من تلاده، ويركب من نتاجه، ويسمع الغناء من جاريته وغلامه.

وقال بعضهم في جارية عوَّادة:

وكأنَّه في حجرها ولدٌ لها ... تحنو عليه عند كلِّ أوانِ
أبدًا تُدَغْدِغ بطنه فإذا هفا ... عركت له أذنًا من الآذان

وقال ابن تميم فيها أيضًا:

ومـهـاة قـد راضـــت الـعـود حـتـى ... عـاد بـعـد الـجـمـاح وهـو ذلـيـل
خـاف من عرك أذنـه إن عصــــاهـا ... فـلـــهــذا كـمــا تـقــول يــقــول

وقال آخر فيها وأجاد:

أشـــــارت بـأطـراف لِطـاف كـأنَّـهـا ... أنــابـيـبُ درٍّ قـمِّـعـت بـعـقـيـقِ
ودارت عـلـى الأوتـار حـتـى كـأنـهـا ... بَـنـان طـبـيـب فـي مـجـسِّ عـروق

وقال ابن حجاج فيها وأجاد:

هـذا ومـحـيـيـة بـالـعـود عـاشـــقـهـا ... وذلك الطيب في الأجســـاد مســـرورُ
إذا تـثـنَّـت وغـنَّـت خِلـتَ قـامـتـهـا ... غصـــنًا عليه قُبَيل الصـــبح شـــحرور

وقال صلاح الدين الصفدي فيها:

جســـَّت مـثـانـي عـودهـا بـأنـامـلٍ ... عـبـثـت بلُـبِّ الـخـاشـــع المتـورِّعِ
وشـــَدَتْ فلو شــــاءت عـذوبـةُ لفظها ... عَـطَـفَـت عـنـان الـبـارق المتســـرِّعِ
وعجبـتُ من ريح الصَّـــبـا إذ لم تقف ... طـربًـا ولـكـن مـا لـهـا أذنٌ تـعـي
أبصــــرت يـا عينـاي مـا لم تبصــــري ... وســـمعتُ يـا أذنـايَ مـا لم تســـمعي

وقال جمال الدين بن نباتة فيها:

بـروحـيَ هـيـفـاء المـعـاطـفِ حـلـوة ... تـكـاد بـألـحـاظ المـحـبـيـن تشــــربُ
لقـد عَـذُبـتْ ألفـاظهـا وصـــفـاتهـا ... عـلـى أنَّ قـلـبـي فـي هـواهـا مـعـذَّب
تجاســـر عودُ اللهو يشـــبـه صـــوتها ... فمن أجل هذا أصـــبح العود يضــــرب
وأجرى دموع الـعـاشـــقين بلعبهـا ... فقـال الأســـى: دعهـا تخوض وتلعب

وقال النور الإسعردي في جارية جَنْكيَّة:

لِبنـتِ شـــعبـانَ جَنْـكٌ حين تنطقـه ... يغـدو بـأصـــنـاف ألحـان الورى هـازِ

لا غروَ أنْ صـــادَ ألباب الرجالِ بها   أمـا تـراه يُحـاكي مَـخْلَـب الـبـازي

وقال الصلاح الإربلي في الجَنْك:

الـجَنْـك مـركـب عقـل فـي تشـــبُّـهـه   والــرق قــلــع لــه الأوتــار أطــنــابُ
يجري بريح اشـــتيـاقٍ في بحـار هوًى   يؤمُّ ســـاحـل وصـــل فيـه أحبـاب

وقال سيدي شهاب الدين أحمد بن حجر في جارية تلعب بالكمنجا:

مـا بـالـهـا هـجـرت وكـم قـد مـرَّ لـي   معها الرضـــى في ســالف الأعصـــار
وقضـــيـتُ منهـا إذ شـــدتْ بكمنجـة   مـا بـين ســـالـف نـغـمـة أو طـاري

وقال سيدنا القاضي بدر الدين الدماميني في جارية تدق بالكف:

لــقــد دقَّــت بــكــفَّــيــهــا فــتــاةٌ   صــَـفَـتْ فـيـنـا خـلائـقـهـا ورَقَّـتْ
فــأفــديــهــا مــغــنــيــةً رأيــنــا   بــهــا الأفــراح حــلَّــت حــين دقَّت

وقال شمس الدين بن دانيال في جارية تضرب بالدف وأجاد:

ذات القوام الـذي يهتزُّ غصـــن نقـا   لو مرَّ يومًـا عليـه طـائر صــــدحـا
تُبدي على الدفِّ كالجمار معصـــمها   أنـامـلًـا ببنـانٍ تشـــبـه الـبـلـحـا
غـنـاؤهـا بـرقـيـق الـغـنـج تـمـزجـه   فـمـا يـنـقـط إلَّـا كـل مـن رشـــحـا

وقال شمس الدين الكوفي الواعظ في جاريةٍ مشبِّبة، كذا ذكره الصفدي في تضميخ التضمين:

لـقـد حصـــلـت لـي لـيـلـة لا تـقـوَّم   وعـنـدي مَـن أهـوى بـهـا أتـنـعَّم
وفـي كـفِّـهـا شـــبَّـابـة تـجـمـع الـمُـنى   فـنـحـن ســـكـوتٌ والـهـوى يـتـكـلَّم
ويُـنـفـخ فـيـهـا الـروح روحٌ بـأمـرهـا   ومـا هـو جـبـريـل ولا هـي مـريـم
ومـا الـدهـر إلا صـــورةٌ دمُـهـا الطلا   فـحـرم إذ شـــرب الـدمـاء مُـحـرَّم
ومـا زلـت شـــيعيًّـا إلى أن أتوا بهـا   عـتـيـقًـا فـنـاديـت الـعـتـيـق الـمـحـرَّم

وهذا التضمين أغار عليه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وقد ذكرته في باب الحذاق والمطربين.

وقال كمال الدين جعفر الأدفوي في تاريخه البدر السافر، في ترجمة القاضي تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف، ينعت بابن بنت الأعز الشافعي، ومن شعره ملغزًا في شبابة:

ومحبوبةٍ مهما خَلَتْ مع حبيبها ... يقبِّلها لَثمًا وينظرها شَزرَا
منقَّبة عريانة وهي قينة ... لمن أصبحوا من شرب كأس الهوى
وتصحيفها في كفِّ من شاء منهم ... ومن شاء في اليمنى ومن شاء في

وكتبت إلى شرف الدين بن الحلاوي ملغزًا فيها مضمنًا:

وناطقةٍ خرساء بادٍ شجونها ... تكنفها عشرٌ وعنهنَّ تخبر
يلذُّ إلى الأسماع رَجعُ حديثها ... إذ سُدَّ منها منخرٌ جاش منخر

فأجاب بهذا البيت وأجاد:

نهاني النهى والشيب عن وصل مثلها ... وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

قلت: تكرير لفظة مثلها غير طائل.

وألمَّ بهذا التضمين مجير الدين بن تميم فقال:

وشبابة قد كنت أهوى سماعها ... وقد صرت منها عندما تُبْتُ أنفرُ
وها أنا قد فارقتها غير نادمٍ ... وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

قلت: كان المذكور لهِجًا بالتضمين مكثرًا منه حتى قال في نفسه وظرف:

أطالع كلَّ ديوانٍ أراه ... ولم أزجرْ عن التضمين طيري
أضمِّن كل بيتٍ فيه معنًى ... فشعري نِصْفه مِن شعرِ غيري

وقال إبراهيم بن المعمار في جارية مغنية:

وجاريةٍ مغنِّيةٍ بلطفٍ ... على الإيقاع بالكعبين دقَّتْ

فـغـنَّـت ثـمَّ رقَّـت لـي بـوصـــلٍ		فـقـمـت قـطـعـتـهـا مـن حـيـث رقَّت

وقال بدر الدين بن الصاحب فيها:

غـنَّـت فـأغـنـت عـن كـؤوس الـطـلا		بـالـســُّكْر مـن لـذَّات تـلـك المـجـون
فـقـلـتُ إذ هـيَّـمـنـي صـــوتـهـا:		فـي مـثـل ذا الـحـلـق تـروح الـذقـون

وقال صفي الدين الحلي في جارية ترقص بالشبرات:

والراقصـــات وقـد شـــدَّت بمئزرهـا		على خصـــورٍ كـأوســـاط الزنـابيرِ
كأنَّ في الشِّــبر يمناها وقد رقصـــت		صـــبح يـقـلـقـل فـيـه قـلـب ديـجـور
تـرعـى الـضـــروب بـكـفَّـيـهـا وأرجـلـهـا		وتـحـفـظ الأصـــل مـن نـقـصٍ وتـغـيـير
وتـعـرب الـرقـص مـن لـحـنٍ فـيـلـحـقـه		مـا يـلـحـق النحـو مـن حـذفٍ وتـقـديـر

وقال جمال الدين حسن بن علي بن داوود الفارقي:

لله راقصــــة تـمـيـس كـأنَّـهـا		ظـلُّ الـقـضـــيـب إذا تمـايـل مـزهـرا
تـزهـو وتـرجـع كـالـخـيـال فـلا تـرى		حـركـاتـهـا إلَّـا كـطـارقـةِ الـكـرى
لانـت مـعـاطـفـهـا فـكـيـف تـلـفَّـتـت		وتـفـتَّـلـت لا تســـتـطـاع بـأن تـرى

وقال أبو الحسن علي بن أبي اليسر فيها:

هيفاء إن رقصـــت في مجلس رقصـــت		قلوبُ من حولـهـا من حـذقهـا طربـا
خـفـيـفـةُ الـوطءِ لـو جـالـت بـخـطـرتـهـا		في جَفن ذي رَمَـدٍ لم يعرف الوصـــبـا

وقال الشيخ عز الدين الموصلي لنفسه فيها:

هيفـاء راقصـــة للزهر قـد كشـــفـت		في الكون مـا مثلهـا نجم على الكرةِ
كـالغصـــن إن خطرت يـا ليتهـا عطفت		مذ أمرضـــتني وعادت باللمى شـــفتي

وقال الوجيه المناوي في جارية تلعب بخيال الظل:

وجــاريــة معشـــوقــة الـلـهـو أقـبلــت بحســــنٍ كزهـر الرَّوضِ تحـت كمـامِ
إذا مـا تغنَّت قلتُ: شـــكوى صـــبـابـة وإن رقصـــــت قـلـنــا: حـبــاب مُـدام
أرتـنـا خيـال الظـل والســـتر دونـهـا فـأبـدت خيـال الشـــمس خلف غَمـام
تلعب للأشــــخاصٍ مِن خلف ســـترها كـمـا لـعـبـت أفـعـالـهـا بـأنـام

فصل في ما يتعلق بكتابة المتظرفات منهن على آلاتهن

كتبت مزنة على مضرابها: من نظر إلى سِوانا، لم يصدق في هوانا.

وكتبت ظبية مغنية ابن يزداد على ملهاتها: احفظ سرك عن غيرك.

وكتبت ظوافر على ملاويها: وافق من ترافق، وقارب من تصاحب.

وكتبت ضوء الصباح على عودها بالذهب: من خالفنا فليس منا.

وكتبت تحفة: ومن أرادنا لا يصبر عنا.

وكتبت قينة جارية كمال الظاهرية على بابها: صِلْ من قطعك، أعط من حرمك.

وكتبت نزهة جارية الجصاص على أحد جانبي مضرابها: من ورد غير خبائه صدر بدائه. وعلى الجانب الآخر: السعيد من وُعِظَ بغيره.

فصل في المولَّدات من الجواري وغيرهن

قال علي بن الجهم: اشتريت جاريةً فقلت لها: ما أظنك بِكرًا! فقالت: كثرت الفتوحات في زمن المعتصم. وقلت لها: كم بيننا وبين الصبح؟ فقالت: عناق مشتاقٍ، ونظرتْ إلى الشمس مكسوفة فقالت: احتشمتْ محاسني فتنقَّبت. وقلت لها: نجعل مجلسنا في القمر. فقالت: ما أولعك بالجمع بين الضرائر! وكانت تكره الحلي وتقول: يستر المحاسن كما يغطي القبائح.

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في جاريةٍ تدعى وردة:

بـأبـي دمـيـة مـولَّـدةِ الـجـنـس دعـوهـا بـوردة الـبســــتـانِ
في التصــــاوير مثلـهـا ليس يُلقى فـيـقـولـون: وردة كـالـدِّهـان

وقال شهاب الدين بن أبي حجلة في جارية تدعى حُكْم الهوى:

حُكْمُ الهوى صــــدَّت فبِتُّ لأجل ذا ولْهانَ مِن فرطِ الصــَّبابة والجَوى
يا عاذلي لا تلمني في حبِّها نَفَذَ القضـــاءُ وهكذا حكم الهوى

وقال بدر الدين بن الصاحب في جارية تدعى صباحًا:

وقَيْنةٍ تُدعى صــباحًا غدت في حســنها تيَّاهةً في مَراح
تصــدُّ والطرفُ بها ســاهرٌ يقول: ليلي ما له من صــباح

وقال الشيخ نجم الدين القحفازي في جاريةٍ تدعى قلوبًا:

عاتَبَنِي في حبِّكم عاذلٌ يزعم نصــحي وهو فيه كذوبُ
وقال: ما في قلبك اذكره لي فقلت: في قلب المعنى قلوب

وقال القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري في جارية تدعى حدق:

ســكرت في حب من أهوى مقاطعة تطوي الضــلوع على التبريح والحرقِ
قالوا: فلُذْ بدموعِ العين قلتُ لهم: لا تســألوا ما جرى منها على حدق

وقال أبو حفص جعفر الشطرنجي في جارية سوداء:

أشــبهكِ المســك وأشــبهته قائمة في حســنها قاعدة
لا شــكَّ إذ لو أنَّكما واحدٌ أنكما من طينة واحدة

وقال ابن قلاقس فيها وأبدع:

رُبَّ ســوداءَ وهي بيضـــاء معنى نافس المســكَ عندها الكافورُ
مثل حب العيون تحســبه النْـ ـــنَاس ســوادًا وإنما هو نور

وقال أبو تمام الحجاج الطليطلي وأجاد:

يا كعبة بذوي الآداب لاعبة في أصــل حســنك معنًى غير متفق
خُلقتِ بيضـــاءَ كالكافور ناصــعة فصــرتِ ســوداءَ من مثواك في الحدق

وقال شهاب الدين بن فضل الله في جارية سوداء مغنية:

يــا رُبَّ ســـــوداءَ لأجــفــانــهــا كـمــا لــبـيـضِ الــهـنـد تــأثـيــرُ
يــطــربــنــي تــرجــيــع ألــحــانــهــا وكــيــف لا يــطــرب شـــــحــرور

ولا بأس بإيراد نبذة يسيرة من ذمهم:

قال الجماز لعلي الرازي وقد أراد شراء حبشية: متاعها الدهر مزبد، وإبطها منتن، وجسدها لا يقبل الطيب، وإذا شربت احمرَّت عيناها، واخضرَّت وجنتاها، وإذا كشرت فنخاعة على لبد أسود.

وقال الماهاني لصديق له: لمَ أولعت بالسودان؟ فقال: لأنهن أسخن. فقال الماهاني: أسخن للعين!

نادرة: تزوج مدني سوداء فعوتب فقال: عتق ما يملك إن لم يكن ضراطها في الليلة الشاتية أنفع من عدل فحم.

وقال الصنوبري يهجو زامرة سوداء:

فـكـأنـمـا المـزمـار فـي أشـــــداقـهـا غــرمــول عَــيْــرٍ فــي حــيــاء أتــان
وتــرى أنــامــلــهــا عــلــى مــزمــارهــا كــخــنــافــس دبَّــت عــلــى ثــعــبــان

وقال السراج المحَّار الحلبي فيها:

ولَـــرُبَّ زامـــرةٍ تـــهـــيـــج بـــزمـــرهـــا ريــح الــبــطــون فــلــيــتــهــا لــم تــزمــرِ
شـــبـهـت أنمُلـهـا على ضـــربـاتـهـا وقبيح مبســـمـهـا الشـــنيع الأبخر
بخنـافسٍ قصــــدت كنيفًـا واغتـدت تســـعى إليـه على خيـار الشـــنبر

ولنختم هذا الفصل بلطائف من حكايات الجواري الحسان وما خصوا به من فصاحة اللسان.

قال بعض رواة الأخبار، ومن يوثق به في الإخبار: رأيت بالبلقاء ثلاث جوار كأنهن أقمار، أو كأنما أفرِغن في قالب الحسن، أو ملكن أنفسهن فتصورن كما اشتهين، قلت: يا ضرائرَ الشمس، أخوات أنتن؟ قلن: لا، ولكنا أُلَّافٌ مودات، وعقائل حبيبات، نجتمع في هذا المكان لبثٍّ ما تشتمل عليه القلوب من دفائن العيون، ونحن نصف لك حالنا فاقض علينا بما تسمع من أشعارنا. قلت: قلن. فقالت الأولى:

يــقــولــون: طــعــم الــحــب مــرٌّ وإنــنــي أظــنُّ بــأن الــهــجــر أمــرُّ مــن الــحــبِّ

فقلت: المريض أعلم بدائه. فقالت: سبحان من ستر خلقه بثوبِ عفوه، ولم يعلم غيره ضمائرهم بثاقب علمه.

وقالت الثانية:

أظن بأن الحبَّ يقتل أهله إذا لم يكن في الحبِّ قُرْبٌ ولا وَصْلُ

فقلت: من جرَّب أمرًا عرفه. فأظهر حياؤها تورد وجنتيها.
وقالت الثالثة:

أخالُ الهوى داءٌ يعزُّ دواؤه إذا غاب من يهوى وعانده الدهرُ

فقلت: من خاف شيئًا حذر منه وإلا وقع فيه. فتنفَّستْ الصُعَداء وقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! وقمن فما رأيت أغصانًا يحملن أقمارًا أسافلها كثبان مثلهنَّ.

وحكى سيار بن المعتمد قال: زرت مُخارقًا وكنت أهوى جاريته معين، وكانت أديبة مسمعة، فأخرجها وجعلت تغني وطرفها يضحك، فوهَّمني سرورها بمحبتي إليها، فبقيت في لذَّةٍ من غنائها تتجاوز الوصف، فلما قرب وقت الانصراف، دخلتْ ثم خرجت وعليها عصابة مكتوب عليها:

تبسَّمَ طرفي فاستهامَ فؤاده إلى ضحك عين صيرته له سحرا
ألَا إن حسن الطرف ما كان ضاحكًا فلا يوهمنَّك الضحك في مقلتي أمرا

فاختلط عقلي وتمرر على ما كان ثد حلَا لي من تمتعي معها، فلما رأت ما قد نزل بي قلبت العصابة فإذا عليها مكتوب:

مزحتُ فلا تجعل مزاحي علَّةً لصرفِ الهوى عنِّي فتجعله هجرا
منحتك من قلبي مكانًا وقُرْبةً عليك فلا تأسَ إذا خلته شعرا

وقرأت في كتاب منازل الأحباب ومنارة الألباب، تأليف العلامة شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تعالى: حكى أبو الفرج الأصفهاني عن بعض بني حمدان قال: كنت مع المتوكل لما شخص إلى الشام، فلما وصلنا إلى حمص قال: أريد أن أطوف هذه الكنائس والمواضع التي تعرف بالفراديس، فإني كنت أسمع بطيب هذا المكان. فقلت: الرأي ما رأى أمير المؤمنين. فلما استراح من الركوب دعاني وأخذ بيدي، ولم يزل يستقرئ تلك الكنائس والديارات وما فيها من الصور، وفاخر الآلة، ويُرى من أحداثِ الرهبان وبنات القسيسين وجوهًا كأنها الأقمار على غصون تنثني على تلك الأروقة والحصون، وكلما مرَّ بنا شيء من ذلك قال: أتدري ما نحن فيه؟!

وخلونا براهبٍ من قُوَّام الكنيسة فجعل المتوكل يسأله عن اسم كلِّ من مرَّ به ونسبه. فبينما نحن كذلك إذ مرَّت بنا جارية ما رأيتُ لها شبهًا، في يدها مبخرة تبخِّر بها، فقال لها المتوكل: تعاليْ يا جارية! فأقبلت بحسن أدب وكمال حسن، فقال للِقس: من هذه؟ قال: ابنتي. قال: وما اسمها؟ قال: شعانين. فقال لها المتوكل: يا شعانينُ، أسقني ماءً. فقالت: ماؤنا ههنا من الغدران، ولست أستنظف لك آنيةَ الرهبان، ولو كانت روحي ترويك لجُدْتُ لك بها. ثم جاءت بكوز من فضة فيه ماء فأومت إليه أنْ اشربْه، فشربه فازداد عجبه بها وقال لها: يا شعانين، إنْ أنا هويتك تساعديني؟ فتنفست الصعداء وقالت: يا مولاي، أمَّا الآن فأنا أَمَتُكَ، وأما إذا عرفت صدق محبتك وتمكنها من قلبك فما أخوفني من حدوث الطغيان عند تملك السلطان؛ أما سمعت قول الشاعر:

كنتَ لي في أوائل الأمر عبدًا ... ثمَّ لما ملكتَ صرتَ عدوًّا
أين ذاك السرور عند التلاقي؟ ... صار مني تجنُّبًا ونبوًّا

فطرب المتوكل حتى كاد يشقُّ ثوبه وقال لها: هبي لي نفسك اليوم حتى نشرب أنا وأنت. فقالت: على الرَّحْب والسَّعة. ثم أصعدتنا إلى عُلِّيَّة مشرفة على تلك الكنائس، فرأينا منظرًا عجيبًا ثم جاءت بإدام حسن ورقاق، فكأنَّ المتوكل عاف ما جاءت به لعزة الخلافة، واستأذنها في إحضار طعام فأذنت، فأُتيَ بخراف مشوية وأشياء غريبة الأنواع، فاستظرفت ما جيء به واستهولت الآلة، وفطنت لأمر المتوكل وقامت بين يديه وهمَّت بالسجود له فمنعها، ثم جاء القس من بيت الرهبان بشراب ذكر المتوكل أنه لم يشرب مثله قط، فشرب وشربت معه، ثم استعفيتُه من أجل حمَّى لحقتني فأعفاني، وشرَّبها وجعل يحدثها، فلما أخذ منه الشرابُ قالت: يا سيدي، أغنيك على ضعف الصنعة؟ فقال: إن فعلت كَمُلَ — والله — ظرفك! فأتت بشيء يشبه العود، واندفعت تغني هذه الأبيات:

يا خاطبًا من المودَّة مرحبًا ... نفسي فداؤكَ لا عدمتُك خاطبا
أنا عبدةٌ لهواكَ فاشرب واسقني ... واعدُلْ بكأسك عن جليسك إن أبى
قد والذي رفع السماء ملكتني ... وتركتَ قلبي في هواك معذَّبا

فصاح المتوكل وقال: أميِّتٌ أنت؟! وذلك لأني كنت أخطأت في ترك مساعدته، فأخذت رطلًا وشربته حتى لحقته، ومضى لنا من الأيام الأفراد، ثم أرغبها المتوكل واستسلمها وتزوجها، ولم تزل عنده حظيَّة إلى أن قُتِل في داره.

كتب بعض المُجَّان إلى صاحبٍ له يستهديه جاريةً: حفظك الله وحفظ النعمة عليك، إنَّ بين كل أمر يطلبه الرجل وبين المطلوب منه ذريعةٌ يتوسل بها إلى معروفه، ولي بارتجائك من معرفتي بفضلك، وما كنت متوسلًا إليك بشيء هو أرجى في حاجتي، ولا أصلح لطلبتي من التأميل لك، وحسن الظن بك، وحاجتي — أبقاك الله — ظريفةٌ من الجواري لم تتداولها أيدي التجار، ولم تمتهنها خدمة الموالي، ولي فيها شريطة أعرضها عليك وأذكرها لديك، لترى رأيك فيها: أريدها فرعاء، لأنه كان يقال: إذا اتخذت جارية فاستجد شعرها، فإن الشعر أحد الوجهين، وتكون رائقة البياض، تامة القوام، فإنه يقال: إن البياض والطول نصف الحسن، وأنا أقول: إنه الحسن كله، وتكون مليحة الضحك فإنه أول ما يستجلب من المرأة به المودة، وتعتقد به الحظوة، وتكون جيداء العنق، غيداء اللبب، كحلاء العين، لها طرف أدعج، وحاجب أزج، موردة الخدين سهلتهما، واضحة الجبين، قنواء الأنف، حمراء الشفتين، مفلجة الثنايا، نقية الثغر، مشرقة النحر، ولست أكره الانكسار في الثديين، لأنه لا لذة للنهود عندي إلا لذة النظر، وهي أيضًا تحول بين المعانِق وبين إرادته، وإن قال الشاعر:

حـال الوشـــــاح على قضـــيـب زانـه　　　رمــان صـــــدر ليـس يـقـطـف نــاهــد

وأكره العجيزة الضخماء، ولا أحب الرسحاء، أريدها وسطًا لأن خير الأمور أوسطها، وتكون سبطة البنان، فتلاء الساعد، ممتلئة الذراع، فخمة العضد، قباء البطن، نحيفة الخصر، يطويها الضجيع طيَّ الحمَّالة، عبلة الفخذين، بردية الساقين، لطيفة القدمين، ولولا إفراط الغَيْرة لذكرت ما أحبه مما هو مستور إلا عند الحاجة إليه، وأريدها رخيمة الصوت، شهية النغمة، عذبة الألفاظ، بها غُنَّة الحداثة، وبحَّة الاحتلام، أشجى حلقًا من الغريض، وأنعم كلامًا في الآذان من مخارق، وأثبت حجة من أبي الهذيل العلاف، وأبين معنًى من النظَّام، ظريفة المجون، حسنة الوقار، إن كرهتها نأت أطوع من الرداء، وأذل من الحذاء، وقدرك — أيدك الله — يحمل اقتراحي عليك، وشكري لك يستوجب ما سألته منك، وأنا بالإسعاف جدير، وأنت بالإفضال قمين.

فأجابه: سألت — أعزك الله — عن هذه الصفة، وطلبت هذا النعت، فأعفني في الدنيا، وما أراني أجدها إلا في الآخرة، وقد بعثت لك بألف دينار لتلتمسها أنت، وتسال إخوانك معاونتك على ذلك، فمتى وجدتها أو وجدها لك أحد دفعت إليه الدنانير وهول الدلالة، وعرِّفني بمقدار الثمن لأنفذه إليك إن شاء الله تعالى.

الباب الخامس والعشرون

في الباءة

قال الشيخ علاء الدين أبو الحسين علي بن أبي الحزم القرشي المتطبب، المعروف بابن النفيس، تغمده الله بالرحمة، في كتابه المعروف بالموجز، في الجملة الثانية من الكتاب المذكور، في قواعد الجزء العملي من الطب في تدبير الجِماع، قال رحمه الله وسامحه: الجِماع أفضله ما وقع بعد الهضم واعتدال البدن في حره وبرده، ويبوستِه ورطوبته، وخلائه وامتلائه، فإن وقع خطأ فضرره عند امتلاء المعدة وحرارتها، ورطوبته أسهل من خلائه وبرده ويبوسته، وإنما ينبغي أن يجامع إذا قويت الشهوة، وحصل الانتشار التام الذي ليس عن تكلف ولا فكرة في مستحسن ولا نظر إليه، وإنما هاجه كثرة المنيِّ وشدة الشَّبَق، وإن تحصل عقيبه الخفة والنوم.

والجماع المعتدل ينعش الحرارة الغريزية، ويهيِّئ البدن للاغتذاء، ويفرح ويحطم الغضب، ويزيل الفكر الرديء والوسواس السوداوي، وينفع أكثر الأمراض السوداوية والبلغمية، وربما وقع تارك الجماع في أمراض مثل الدوار، وظلمة البصر، وثقل البدن، وورم الخصية أو الحالب، فإذا عاد إليه برئ بسرعة. والإفراط في الجماع يسقط القوة، ويضر العصب، ويوقع في الرعشة والفالج والتشنج، ويضعف البصر جدًّا.

وجماع الغلمان أقل استفراغًا للمنيِّ، فيكون إضعافه وضرره أقل، لكن يُحوِجُ إلى حركات متعبة لكونه استفراغًا غير طبيعي.

وليجتنب جماع العجوز والصغيرة جدًّا، والحائض والتي لم تجامع من مدة طويلة، والمريضة، وقبيحة المنظر، والبكر، فكلٌّ ذلك يضعف بالخاصية. وجماع المحبوب يسرُّ ويقل إضعافه مع كثرة استفراغه المني.

وأردأ أشكال الجماع أن تعلو المرأة الرجل مستلقيًا، لتعسر خروج المني، وربما بقي في الذكر بقية فيتعفن، بل ربما سال من الفرج رطوبات إلى الذكر.

وأفضل أشكاله أن يعلو الرجل المرأة رافعًا فخذيها بعد الملاعبة التامة، ودغدغة الثدي والحالب، ثم حكِّ الفرج بالذَّكَر، فإذا تغيرت هيئة عينيها، وعَظُم نَفَسها، وطلبت التزامَ الرجل، أولج الذكر وصب المنيَّ، ليتعاضد المنيَّان، وذلك هو الحَبَل.

ومما يعين على الجماع رؤية المجامعة، والنظر إلى تسافد الحيوانات، وقراءة الكتب المصنفة في الباءة، وحكايات الأقوياء من المجامعين، واستماع الرقيق من أصوات النساء، وحلقُ العانة يهيج الشهوة، وإطالة العهد بترك الباءة ينسيه النفس، والاستمناء باليد يوجب الغم، ويسقط الشهوة والانتشار.

انتهى كلام ابن النفيس.

وسئل أبقراط: كم ينبغي للإنسان أن يجامع؟ فقال: في كل سنة مرة. قيل: فإن لم يقدر؟ قال: في كل شهر. قيل: فإن لم يقدر؟ قال: في كل أسبوع. قيل: فإن لم يقدر؟ قال: هي روحه متى شاء أخرجها.

فصل

ولما كان جمال المرأة وحسن تناسب أعضائها هو الداعي للرجل إلى وطئها، وأجلب لشهوته عند النظر إليه، وألذ لحواسه في حال مصاحبتها، فلا بأس بإيراد نبذة من ذلك.

أجمع أهل المعرفة أن الذي يُحمد في المرأة:

من السواد أربعة أشياء: الشعر، والحاجبان، والحدقة، والأهداب.

ومن البياض أربعة أشياء: بياض لونها، وبياض عينيها، وبياض أسنانها، وبياض فرقها.

ومن الحمرة أربعة أشياء: حمرة اللسان، وحمرة الوجنتين، وحمرة الشفتين، وحمرة الإليتين.

ومن الغلظ أربعة أشياء: العضدان، والساقان، والشُّفران، والذوائب.

ومن الرقة أربعة أشياء: العظام، والأنف، والخصر، وأطراف الأنامل.

ومن الطول أربعة أشياء: الشعر، والعنق، والقامة، والحاجب.

ومن التدملج أربعة أشياء: الرأس، والعنق، والساقان، والساعدان.

ومن العرض أربعة أشياء: الجبهة، والعينان، والصدر، والإلية.

ومن الصغر أربعة أشياء: الفم، والكفان، والقدمان، والأذنان.
ومن الضيق أربعة أشياء: المنخران، وثقب الأذن، والسرة، والمَوطأ.
ومن الصلابة أربعة أشياء: الثديان، الإليتان، والقُبُل، وعضلة الساق.
ومن الملمس: ظهر الكفيين، والترقوة، والأصابع، والعنق.
ومن النشافة أربعة أشياء: العينان، والمنخران، والفم، والفرج.
ومن الصفاء أربعة أشياء: الحدقتان، والبشرة، والأسنان، والأظفار.
ومن الكبر أربعة أشياء: الكتفان، والركبتان، والفخذان، والموطأ.
ومن الأشياء البارزة أربعة أشياء: الأرداف، والموطأ، والنهد، والكاهل.
ومن الحلاوة أربعة أشياء: الوجه، والريق، والعينان، والنغمة.
ومن اللين أربعة أشياء: الحِظا، والنَّفَس، والكلام، والبشرة.
من الحسن أربعة أشياء: الخَلْق، والخُلُق، والأدب، واللطافة.
ومن الملاحة أربعة أشياء: الضحك، والنغمة، والنوم، والمشية.
ومن النظافة أربعة أشياء: الوجه، والفرج، والإبطان، والأطراف.
ومن الأشياء الشهية أربعة: الملامسة، والمحادثة، والمعانقة، والمعاتبة.
ومن الأشياء الجافية أربعة: الكعبان، والزندان، والمرفقان، والترقوة.
ومن الصدق أربعة أشياء: المودة، والحياء، والعفة، والأمانة.
ومن السخونة أربعة أشياء: الموطأ، والكفان، والمجلس، وباطن القدم.
ومن الطيب أربعة أشياء: النَّفَس، والنكهة، والإبطان، والفرج.
تمت الأربعات.

ومن الأشياء المهيجة للباءة: التقبيل. قال الأصمعي: كل جماع لا قبل فيه فهو خداج. يعني: ناقص. وقال الجاحظ: أربعة أشياء ممسوخة البركة: أكل الأرز باردًا، والبوس على النقاب، والغناء من وراء الستارة، والجماع في الماء.

وقالوا: وأحسن الشفاه، وأشدها تهيجًا وأوفق، ما رق الأعلى منها واحمرَّت ونظفت وحرفت، وكان في الأسفل منها بعض الغلظ، وإذا عض عليها اخضرَّت، فإن القبلة لهذه الشفة أحلى وأعذب.

وقالوا: إن ألذَّ قبلة قبلها الإنسان قبلة ينال فيها لسانُ الرجل فم المرأة، ولسان المرأة فم الرجل، وذلك أنه إذا كانت الجارية نقية الفم، طيبة النكهة، فإنها تدخل لسانها في فم الرجل إدخالًا يصيب ريقها، وحلاوة لسانها لسان الرجل، فينحدر ذلك الريق وتلك الحرارة والتسخين إلى ذَكَر الرجل وفرج المرأة، فيثير ذلك شبقهما وغُلمتهما، ويقوي شهوتهما، فيزداد لونهما صفاءً وحسنًا.

وما أحسن قول ابن المعتز:

وكم عناق لنا وكم قُبَل ... مختلسات حذارِ مرتقِّبِ
نقر العصافير وهي خائفة ... من النواطير يانع الرطب

ولطف ابن وكيع في قوله:

ظفرتُ بقبلة منه اختلاسًا ... وكنت من الرقيب على حذارِ
ألذُّ من الصبوح على غَمام ... ومن برد النسيم على خمار

وأما كلام المجامع عند الباءة، فإنه من كمال المسرَّة وتمام اللذة، لأن كل حاسة من حواس الفاعل تكون مشغولة بلذة ما، فالعين بلذة النظر، والفم بلذة الرشف، والأنف بلذة الطيب، والذَّكر بلذة الجماع، فيحتاج أن تكون الآذان ممتعة بلفظ المحبوب، لا سيما إن كان ذلك الكلام مما يجلب الشهوة، فتتكامل اللذة، فإن الملتذَّ يريد أن يجد اللذات المتفرقة في شخص واحد ليتم باجتماعها صورة واحدة شريفة.

وقال الشاعر:

وفي أربع مني خلت منك أربعٌ ... فما أنا أدري أيُّها هاج لي كربي
أَوَجْهُك في عينيَّ أم الريق في فمي ... أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: كان بالهند امرأة تُعرف بالألفية، وذلك أنه كان قد وطئها ألف رجل، وكانت أعلم زمانها بأحوال الباءة، وأن جماعةً من النساء اجتمعوا إليها فقالوا: أيتها الأخت، أخبرينا ما نحتاج إليه ونستعمله، وما الذي يثبت محبتنا في قلوب الرجال، وما الذي يتلذذون به، ويكرهون من أخلاقنا، وما ينبغي أن نعمل معهم لنستجلب به محبتهم؟ قالت: نعم، أول كل شيء أقوله ينبغي ألا يقع نظره على لمس أحد منكن إلا بنظافة، ولا يشم منكن إلا رائحة طيبة، ولا يقع نظره إلا على زينة.

فقلن: وما الذي يجب على الرجل أن يتقرب به إلى قلب المرأة؟ قالت: الملاعبة قبل الجماع، والرهز بعد الفراغ. قلن: فما الذي يكون سبب محبتهم لبعضهم بعضًا واتفاقهم؟ قالت الإنزالين في وقت واحد. قلن: فما الذي يفيد مودتهما وصحبتهما؟ قالت: أن يكون غيرُ ما ذكرت.

ثم سألوها عن أصناف الجماع فذكرت لهن ذلك، وأضربتُ عن ذكرها لكثرة أقسامها. ومن أراد ذلك فليطالع الكتب المؤلفة فيها فإنها مشحونة بها.

وأما ميلهن إلى النكاح وشدة شبقهن، فمنه: حكي أن امرأة لها يسار وحال، فخطبها رجل له يسار وحال وثروة، فلم تفعل. فقالت لها أمها: يا بنيَّة، لمَ لا تتزوجين بهذا الرجل؟ فإنك لا تجدين مثله. فقالت: لا أريده، لإني سمعت أن في وسطه أيرًا عظيمًا مثل الوتد، ولا طاقة لي به! قال: فتشفَّع الرجل إلى أمها وسألها أن تشفع له فقالت: قد ذكرتُ لها أمرك فقالت إنها لا تطيق أيرك. فقال: زوجيني بها واشرطي لها عليَّ شرطًا أنني لا أدخل منه شيئًا إلا بأمرها، ويكون في يدكِ تدخلين منه الذي تشتهين، وتتركين الذي لا تريدينه. فقالت لابنتها ذلك فقالت: رضيت بهذا الشرط. فلما كانت ليلة العرس وخلا بها قالت له أمها: أنت على الشرط؟ قال: نعم. فلما دخل بها قال لأمها: تقدمي وامسكيه بيدك، وأدخلي منه ما تريد ابنتك. فأخذته بيدها وأدخلت منه مقدار عقدة وقالت: يكفيك هذا؟ قالت: زيدي يا أماه، عافاك الله. فزادتها أيضًا، ولم تزل كذلك إلى أن لم يبقَ منه شيء، فقالت: أزيدك يا بنية؟ فقالت: إي والله يا أمي! قالت: يا بنية، فأنت قلت لا طاقة لك به، فوالله ما بقي معي منه شيء! فقالت البنت: أسخن الله عينيك! والله لقد كان أبي يقول إنك أي شيء وضعت يدك فيه طارت البركة منه، وكنت لا أعلم وقد علمت الآن.

صفة شربة نافعة لداء الهوى وعليل النوى

باسم الله اللطيف الخبير، يُؤخذ على بركة الله ولطفه: ثلاثة مثاقيل من صافي وصال الحبيب، منقَّاة من عيدان الجفاء وخوف الرقيب، وثلاثة مثاقيل من بزر الاجتماع، منخولة من غلت الهِجران والانقطاع، وأوقيَّتان من خالص الودِّ والكتمان، منزوعة من عيدان الصد والهجران، ويؤخذ عطر البخور، ولثم الثغور، وضم الخصور، من كل واحد مثقالان، ويؤخذ مائة بوسة رمانية محكوكة مرضوضة، منها خمسون صغار سكرية، وثلاثون زق الحمام، وعشرون عصافيرية، ويؤخذ غنج حلبي، وشخير عراقي، من كل واحد مثقالان، ويؤخذ أوقيتان من مصِّ اللسان، ولثم الفم مع الوجنتين، وينقى الجميع ويخلط،

ويذر عليه وزن ثلاثة دراهم غلمة مصرية. ويضاف إليها قرص الأعكان المطوية، ويغلى بماء المحبة على شراب الشوق، وخطب الطرب، في مرجل العجلة، ويصفى الجميع على مقعد سلطاني، ويحل فيه أوقيتان من شراب الرضاب، ويشرب على الريق من ثغور الأحباب، ويكون الغذاء مزوَّرة يقطين الاشتياق، ويضاف إليها قلب لوز العناق، وماء ليمون الاتفاق، ويتناول بعد ذلك ثلاثة أرطال من المُدام، ثلاثة أيام، ويتبعه برطلين من شيل الساقين ويدخل الحمام، نافعٌ مجربٌ.

بعث بعض الظرفاء إلى محبوبة له مروحة، وباقة زهر، وسكر نبات، ومشربة، وعودًا، ففهمت مراده، وبعثت إليه خيطًا أحمر، وصبارة، وثلاث كمونات سود، وغاسول زر؛ ففهم مقصودها وصبر. والمراد من فعله أنه أراد بالمروحة: نروح، وبالزهر: البستان، وبالسكر النبات: نبيت، وبالمشربة: نشرب، وبالعود: نسمع الغناء. ومقصودها أنها عرَّضت بالخيط الأحمر أنها حائض، وبالصبارة: اصبر، وبالثلاث كمونات: ثلاث ليالٍ، وبالزر الغاسول: أغتسلُ وأزورك.

وأهدت بعض القيان إلى الملك العزيز بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف، في بعض الأيام كرة من العنبر، فكسرها فإذا في وسطها زر ذهب، وكانا يكتمان أمرهما خوفًا من السلطان، فلم يفهم معنى ذلك، فأرسل إلى القاضي الفاضل يسأله عن ذلك فقال ارتجالًا:

أهدتْ لكَ العنبر في وسطه زرٌّ من التبر رقيق اللحام
فالزر في العنبر معناهما زُرْ هكذا مستترًا في الظلام

كتبت بعضهن على عصابتها: اصعد وتمكن، على بطن معكن.

وكتبت أم القاسم بنت بلبل العطار، وكانت من كبار المُساحقات، على خاتمها: مل من الباطل ترجع إلى الحق.

وأين هذا من قول بعضهن، وقد قيل لها: ارجعي إلى الحق، فقالت: الحق بعض مرادي. وهذا من الأجوبة اللطيفة، وما أحقها بقول القائل:

مغرمة بالسُّحاق أضحت تبكي عليه بكلِّ عينِ
كما أتقنت من الهنوك إلَّا تصنيف إسحاق في حسين

وحكي أن رجلًا دخل إلى بيت فوجد امرأتين وهما يتساحقان، فجذب التي هي فوق وقعد مكانها وقال: هذا عمل يحتاج إلى حبال ورجال.

وقال آخر:

جـــرح يـــريـــد الـــفـــتـــيـــلـــة   أيـــشْ تـــنـــفـــعـــه الـــلـــزَّقـــات؟

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

قـولـوا لـمـن تـهـوى السـحـاق الـذي   حـرمـه الله فـمـا فـيـه خـيـرِ:
أخـطـأتِ يـا كـامـلـة الـحـسـن إذ   أقـمـتِ إسـحـاقَ مـقـامَ الـزُبَـيـرِ

يحكى أن حمدة بنت زياد المؤدِّب ذكرها المؤرخ الرحَّال نور الدين بن سعيد في كتابه المُغرب، وقال: وهي من خنساء المغرب، من نظمها، وقد خرجت إلى وادي مدينة وادي آش مع جَوارٍ لها، فسبحت معهن وكان لها فيهن هوى، فقالت:

أبـاح الـدمـعُ أسـراري بـوادٍ   لـه فـي الـحـسـن آثـارٌ بَـوادِ
فـمِـن نـهـر يـطـوف بـكـلِّ روضٍ   ومـن روض يـطـوف بـكـل وادِ
ومِـن بـين الـظـبـاء مَـهـاة أُنْـسٍ   لـهـا لُـبِّـي وقـد سـلـبـتْ فـؤادي
لـهـا لـحـظٌ تـرقـده لأمـر   وذاك الأمـر يـمـنـعـنـي رقـادي
إذا انسـدلـت ذوائـبـهـا عـلـيـهـا   رأيـت الـبـدر فـي أفـق الـسـواد
كـأن الـصـبـح مـات لـه شـقـيـق   فـمـن حـزن تَـسـربـلُ بـالـحـداد

وقالت ماجنة لمساحقة: ما في الدنيا أطيب من الموز! قالت: نعم، إلا أنه ينفخ البطن.

وقالت ماجنة لمساحقة: أين أنت عن الأصلع الأقرع الأحدب المرقوق، الذي كأنه بوق، العظيم اللحوق، الكثير العروق، الذي يخرق الخروق، ويسد البشوق، ويفتق الفتوق، ويرفو الشقوق، ويقضي الحقوق، ويأخذ بالحلوق، الأجرد الأربد، الذي كأنه الوتد، أو رقبة الأسد، الأحمر الأشقر المعجر، الذي رأسه كالمحور، وأصله كالأبجر، وفيه عرق أخضر، كأنه عرق لحم البقر، في رأسه كماة، ووسطه قناة، وفي أسفله مخلاة، ولحيته في قفاه، يراك من حيث لا تراه، لو نطح الفيل كوَّره، أو دخل البحر ثوَّره، كأنه غصن بان، أو سيف يمان، أو صقلاني عُريان، أو زنجي غضبان، بل كأنه شيطان، أو راهب نجران، أو هامة هامان، أو عنتر في الحرب، أو حارس في درب، أو رأس حمل، أو ركبة جمل، أو كوكب الذنب، أو قطن قصب، أو ذنب التنين، أو شويك العيارين، ينطح بغير قرنين، ويمشي بغير رجلين،

ويبصر بغير عينين، يدخل في الظلمات، وهو أحد البليات، في عنقه طوق، من أسفل إلى فوق، إذا ارتفع النهار يكون كالجُلَّنار، أتيه من ملك القندهار، مدمج كالطومار، يغوص في البحار، ويثقب الأبكار، ويدخل في الأحجار، إذا جنه الليل أطال القيام، والناس نيام.

فقالت المساحقة: أما علمت أن اللطف والنظافة، والظرف واللباقة، في السحق الذي هو سبعون ومائة واحدة منها العقبى، والاستكلاب، والطنبلب، والمسلح، والمعوج، والمفرطج، والدائر داق، والطاق برطاق، والمخالف، والمؤالف، والشراعي، وقبضة، وبسطة، وعقبة، وضغطة، والغليظ، والضفدعي، والأنين، والرهز، وغير هذه. وأما أنتم فكل شيء لكم النوم على القفا والإدخال في الاست، فإذا جهدتم جهدكم كان لون آخر، وهو القيام على أربع، وتسمونه الحماريَّ، وتفتخرون به. وأين هذا من أخذه سوق وعمل، وشوال وعلل، ورقدة وخلوة، وحديث هند والزرقاء، ودعياء ببوران. وقد بلغنا أن رجلًا قبض على امرأة في خزانة الشراب ورفع رجليها ليضعه بين شُفريها، فغلط وأدخلها في استها، فتسنَّمت ورفسته، فانصدع من خلفه ست وثلاثون خابية خمر. ونحن، فتجتمع منا الغانية الشكلة، البيضاء الغنجة، السبطة الرطبة، الغضة البضة، التي كأنها ريحان أو قضيب خيزران، بثغرٍ كاللؤلؤ، وذوائب كالأرسان، وخدود كشقائق النعمان، أو تفاح لبنان، وثدي كالرُّمَّان، وبطن بأربعة أعكان، وحِرٍّ كأنه قُبَّة الدار، أربع في ثمان، أو فرنية عليها شونيز، أو أرنب جاثم، أو بطة كسكرية، بشُفرين أغلظ من شفة البقرة، كأنهما سنام ناقة في لون العاج، ولين الديباج، وبياض الفنك، ودهنية الودك، كأنه الركوة المنفوخة، منتوف محلوق، مضمخ بالمسك والخلوق، كأنه كسرى أنوشروان، في صدر الإيوان، متهلل جذلان، فرح مرح، ومعه من الملاحات ما يخرج عن حد الصفات، من الأصابع المطرفة، والأصداغ المزرفنة، والحواجب المزججة، والخدود المدبجة، والشعور المرجلة، والنحور المزينة، بالمراسيل من الدر والياقوت والمرجان، في الغلائل الممسَّكة، المبخَّرة بالعود الهندي المعجون بالعنبر، مع أخرى تتهادى كالفجر، بل كالشمس والقمر، في منازل السعود، على الفرش الديبقية، والأردية القصبية، ومطارف الخز، المضربات من رقيق القز، المحشوة فوق الأسرة من الأبنوس والعاج، ومخادِّ الديباج، المحشو فيها زغب الريش، المحفوفة باللخالخ السليمانية، والدستباريات السوسية، براني النرجس مع الأترج والسوسان، وتفاح أصبهان والسفرجل والرمان، وأطباق الرياحين المشمومة بين تلك الأفاويه المقمعة بالعنبر والوصائف الفارغات، عليهن العقيان يتضوع من قراطقهن العنبر، فتخلق معها بتلك المعاتبات الشجية، والنغمة العذبة، والإشارات اللطيفة، والغمز بتلك الحواجب والجفون الساحرة السالبة لألباب

ذوي العقول والآداب، بالألفاظ الرقيقة المحركة للسواكن، المسكنة للحركات، بالغنج والشكل والبراعة واللمس، الذي تضرب له العروق الهادية، وتهدأ له العروق الضاربة، فإذا صافحت الخدود، وانحدرت الدموع فيما بينهما برقَّة الشكوى، ولطافة النجوى، كالطَّلِّ على ورق الورد، وتطابقت الصدور على الصدور، وانضمت النحور إلى النحور، واصطكت الثغور بالثغور، والتفت الساقان المدملجة بأخواتها، وتراكب الشفران على الشفرين، واختلج كل جانب منهما على الآخر، لم يقع أبقراط ولا جالينوس على نبضه، ولا أركاغانيس على مجسه، ولا أفلاطون وأرسطاطاليس على حسه، ولا بطليموس على حسابه، ولا قس بن ساعدة على شرحه وبيانه، ولا إبراهيم النظام على برهانه، ولا النعمان على قياسه، ولا منصور بن عمار على صفاته، حتى إذا غليت الأنفاس، واستغرقت الحواسُّ، وارتفعت الحرارة الغريزيَّة إلى الرأس، وبطل فيما بينهما كل قياس، نظرت إلى الحركات الحسية، والضمائر الوهمية، والطبائع الغريزية، والألحاظ العشقية، وقد ضبط كل عضو إقليمه، واستكمل فيما هو فيه نعيمه، ما بين مصٍّ وقرص، ومقابلة ومخاتلة، ومخالبة ومناهبة، ومواثبة ومسالبة، ورهز وغمز، وشهيق ونهيق، ونخير ونعير، لو سمعه أهل الثغور لصاحوا: النفيرَ النفير! مع رفعٍ ووضعٍ، وجذب ودفع، وضمٍّ وشمٍّ، والتزام وقبل، وعمل أحسن من كل عمل، كل ذلك بأنين وحنين، وأدب وأرب، حتى إذا حان الفراغ، ووصلت اللذة إلى بطون الدماغ، شِمِمت روائح الروائح من حانة الخمار، ونظرت إلى اهتزاز غصن البان في حلى الأزهار، فلو أبصر الفطناء ما هما فيه لحاروا، ولو سمع بها الركبان لساروا، فيا لها من لذة كاملة ونعمة شاملة!

قلت: وأنشدني الشيخ شمس الدين الرئيس من لفظه لنفسه شعرًا:

عشـــَّـاقـة الـنســـوانِ مـذ لُـمـتـهـا   قـالـت: دعِ الـلَّـومَ ولِـنْ فـي المـقـال
مـا في سُـــوَيْـداءِ القلـبِ إلا النِّســـا   مـا حيلتي مـا في السُّـــويـداء رجـال

ونقلت من الإحاطة بتاريخ غرناطة، تأليف الإمام العلامة ذي الوزارتين، لسان الدين محمد بن الخطيب، تغمده الله بالرحمة، قال المصنف المذكور: كتب إلى سيدنا ومولانا قاضي القضاة، ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، صبيحةَ الابتناء بجاريةٍ تدعى هند:

أوصـــيـكَ بـالشـــيـخِ أبـي بَـكـرةْ   لا تَـأمَـنَـنْ فـي حـالـةٍ مَـكْـرَهْ
واجـتـنـبْ الشـــَّـكَّ إذا جِـئـتَـهُ   جـنَّـبـك الـرحـمـنُ مـا تَـكْـرَهْ

سيدي، لا زلت تتَّصف بالوالج، بين الخلاخل والدمالج، وتركض فوقها ركض الهمالج. أخبِرْني كيف كانت الحال، وهل حُطَّت بالقاع من خير البِقاع الرِّحال، وأُحكِمَ بِمِرْوَد المُراودة الاكتحال، وارتفعَ بالسُّقْيا الإمحال، وصحَّ الانتحال، وحَصْحَصَ الحقُّ وذهب المحال. وقد طُولِعت بكل بُشْرى وبِشر، وزُفَّت هندٌ منك إلى بِشْر، فلله من عشيَّةٍ تمتَّعت من الربيع بفُرُش مَوشِيَّة، وابتُذلت منها أيُّ وساد وَحْشية، وقد أقبل ظبي الكِناس، من الدِّيماس، ومطوق الحَمَام، من الحمَّام، وقد حسَّنت الوجهَ الجميلَ التَّطْرية، وأزيلت عن الفرع الأثيث الإبْرية، وصُقلت الخدود فكأنها الأمْرِية، وُسلِّط الدَّلْك على الجلود، وأُغْرِيَت النَّورة بالشَّعر المولود، وعادت الأعضاءُ يزل عنها اللَّمس، ولا ينالها البَنانُ الخمس، والسِّحنة يجول في صفحتها الفضيَّة ماءُ النعيم، والمسواك يلبِّي من ثنيَّة التنعيم، والقلب يرمي من الكفِّ الرقيم، بالمقعد المُقيم، وينظر إلى نجوم الوشوم فيقول: إني سقيم. وقد تفتَّحَ ورد الخَفَر، وحكم لزنجيِّ الضَّفيرة بالظَّفَر، واتَّصف أمير الحُسْن بالصدود المُغْتَفَر، ورُشَّ بماء الطيب، ثم أغْلَق بَلَه بالعود الرطيب. وأقبلت الغادة، يهديها اليمن وتزفُّها السعادة، وقد ذاع طيب الريَّا، وراق حسن المُحيَّا، حتى إذا نُزِع الخفُّ، وأقبلت الأكفُّ، وصَخِب المزمار وأجاب الدف، وذاع الأرَج، وتجوَّر اللِّوى والمنعرج، ونزل على بِشرٍ بزيارة هند الفرَج، اهتزَّت الأرض وربت، وعُوصيت الطباع البشرية فأبت. ولله در القائل:

ومَرَّتْ فقالت: متى نلتقي؟ … فهشَّ اشتياقًا إليها الخبيث
وكاد يُمَزِّقُ سِرباله … فقلت: إليكِ بُساق الحديث

فلما انسدل الظلام، وانتصفتْ من غريم العِشاء الأخيرة فريضة الإسلام، وخاطت خيوط المنام، عيون الأنام، يأتي دنوُّ الجلسة، ومشارفة الخلسة، ثم عضَّ النَّهد، وقبَّل الفم والخدِّ، وأرسل اليد من النَّجْد إلى الوَهْد، وكانت الإمالة القليلة قبل المدِّ، ثم الإفاضة فيما يُغْبط ويُرغب، ثم الإماطة لما يُشوَّش ويُشغب، ثم إعمال المسير إلى السرير:

وصرنا إلى الحسنى ورقَّ كلامنا … ورضتُ فذلَّتْ صَعبةً أيَّ إذلالِ

هذا بعد منازعة للأطراف يسيرة، تراها الغِيدُ من حسن السيرة، ثم شُرع في حلِّ التِّكة، ونزع الشِّكَّة، وتهيئة الأرض للغَرائز عمل السِّكة، ثم كان الرجاء والاستعجال، وحميَ الوطيس وضاق المجال، وعلا الحر الخفيف، وتظافرت الخصور الهِيف، وتواتر التقبيل، وكان الأخذ الوبيل، وامتاز الأَنْوَكُ من النبيل، ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل، فيا لها من نِعَم متداركة، ونفوس على سبيل القِحة متهالكة، ونَفَس

يقطِّع حروف الحلق، وسبحان الذي يزيد في الخلق، وعطيت الممانعة، وكثرت باليد المصانعة، وطال التَّراوغ والتزاور، وشُكِيَ التجاور، وهناك تختلف الأحوال، وتعظم الأهوال، وتُخْسَر وتربح الأموال، فمتى عصا تنقلب ثعبانًا مبينًا، ونُونةٍ تصير تنينًا، وبطل لم يَهُلْه المعترك الهائل، والوهم الزائل، ولا حال بينه وبين قُرَّته الحائل، فتعدَّى فتكة السُّلَيك إلى فتكة البرَّاض، وتقلَّد مذهب الأزارقة من الخوارج في الاعتراض، ثم شقَّ الصف، ونقد خضب الكف، بعد أن كاد يصيب الورى بطعنته، ويبوء بمقت الله ولعنته.

طعنتَ ابنَ عبد القيس طعنةَ تائقٍ   لها نَفَذٌ لولا الشعاعُ أضاءها

وهناك هدأ القتال، وسكن الخيال، ووقع الموقع فاستراح المبال، وتشوَّق إلى مذهب الثنويَّة من لم يكن للتوحيد بمثال، وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه، يسيل على قدمه:

إنِّي له عن دمي المسفوك مُعْتذر   أقول: حمَّلتُه في سَفْكه تعبًا

ومن سِنان عاد عِنانًا، وشجاع صار هِدانًا جبانًا، كلما شابَتْه شائبةُ رَبية، أدخل يده في جيبه، فانحجرت الحيَّة، وماتت الغريزة الحيَّة، وهناك يزيغ البصر، ويُخْذَل المنتصر، ويغلب الحَصْر، ويجفُّ اللُّعاب، ويظهر العتاب، ويخفق الفؤاد، ويكبو الجواد، ويسيل العرق، ويشتدُّ الكرب والأرق، ويَنشأ في محل الأمن الفَرَق، ويدرك فرعونَ الغرق، ولا تزيد الحال إلا شدة، ولا تعرف تلك الجارحة المؤمنة إلا رِدَّة.

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى   فأوَّل ما يجني عليه اجتهادُهُ

فكم مُغرًى بطول اللَّبث، وهو من الخَبْث، يؤمل الكرَّة، ليزيل المضرَّة، ويستنصر الخيال، ويعمل باليد الاحتيال.

إنك لا تشكو إلى مُصَمِّتٍ   فاصبرْ على الحِمْل الثقيل أو مُتِ

فقال: سيحدث الله بعد عسرًا يسرًا، وبعد عِيٍّ بيانًا، اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من فضائح الفُرُوج إذا استغلقتْ أقفالها، ولم يتَّسم بالنَّجيع إغفالها، ومن معثرات الأقدار، والنكول عن الأبكار، ومن النزول عن البطون والسُّرَر، والجوارح الحسنة الغُرر، قَبْلَ تثقُّب الدَّرَر، ولا تجعلنا ممن يستحيي من البُكَر

بالغَداة، ويُعْلَم منه كلال الأداة، وهو محال، فُضِحَت فيه رجال، وفراشٌ سكنت فيه أوجال، وأُعْلِمت رِوِيَّةٌ وارتجال، فمن قائلٍ:

أرفعُه طوراً على إصبعي ... ورأسه مضطربٌ أسْفَلَهْ
كالحنَش المقتول يُلْقى على ... عودٍ لكي يُطرَح في مَزبلةْ

أو قائلٍ:

يا حسرةَ المرءِ على نفسهِ ... عَدِمْتُ مِن أيري قوى حِسِّه
كحائطٍ خرَّ على رأسه ... تراه قد مال على أصله

(وذكر أبياتًا مستكثرة من هذا النمط أضربتُ عن ذكرها).

وهموم لا تزال تُبكى، وعللٌ على الدهر تُشكى، وأحاديث تقصُّ وتحكى. فإن كنت — أعزَّك الله — من النمط الأول ولم تقل:

وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّل

فقد جنيت الثمر، واستبطأت السمر، فاستدعِ الأبواق من أقصى المدينة، واخرج على قومك في ثياب الزينة، واستبشر بالوفود، وعرِّف المَسْمَعَ عازفة الجود، وتبجَّح بصلابة العود، وإنجاز الوعود، واجنِ رُمَّانَ النهود، من أغصان القدود، واقطف ببنان اللَّثم أقاحَ الثُّغور وورد الخدود، وإن كانت الأخرى فأَخْفِ الكمد، وارضَ الثمد، وانتظر الأمد، واكذبِ التوسَّم، واستعمل التبسم، واستكتم النِّسوة، وأَفِضْ فيهن الرَّشوة، وتقلَّد المغالطة وارتكب، وجئ على قميصك بدمٍ كَذِبٍ، واستنجد الرحمن، واستعن على أمرك بالكتمان.

لا تُظهرنَّ لعاذلٍ أو غادر ... حالَيْك في السرَّاء والضرَّاءِ
فَلِرحمةِ المتفجِّعين حرارةٌ ... في القلب مثل شَماتة الأعداء

وانتَشِقْ الأرَج، وارتقب الفرج، فكم غمام طبَّق وما هما، وما رميت ولكن الله رمى، واملك بعدها عِنان نفسك حتى تمكِّنك الفرصة، وتُرْفع إليك القصة، ولا تَشْره إلى عملٍ لا تفيء منه بتمام، وخذ عن إمام. ولله در عروة بن حزام:

اللهُ يعلم ما تركتُ قتالهم حتَّى رَمَوا مُهْري بأشقرَ مُزْبِدِ
وعلمتُ أني إنْ أقاتِلْ دونهم أُقْتَل ولا يَضْرُر عدوِّي مشهدي
ففررتُ منهم والأحبَّة فيهمُ طمعًا لهم بعقابِ يومٍ مُفْسِدِ

واللبانات تَلين وتَجمح، والمآرب تدنو وتنزح، وتحرن ثم تَسمح، وكم من شجاعٍ خامَ، ويقظٍ نام، ودليل أخطأ الطريق، وأضلَّ الفريق، والله عز وجل يجعلها خلَّة موصولة، وشملًا أكنافه بالخير مشمولة، وبِنْيَة أركانها لركاب اليُمْن مأمولة، حتى يكثر خدم سيدي وجواريه، وأسرَّته وسَراريه، وتصفو عليه نعمة باريه، ما طُورِدَ قَنِيص، واقتُحِم عِيص، وأُدْرِك مَرامٌ عويص، وأُعطِيَ زاهد وحُرِمَ حريص، بمَنِّه وكرمه.

فصل في ما كتبته المتظرفات

كتبت طرفة جارية النطاف على عصابتها بالذهب: ليس في الحب مشورة.

وكتبت توفيق جارية ابن حمدان على برقعها: كمال المكارم اجتناب المحارم.

وكتبت سلامة حظية عبد الله بن طاهر: ليس على القلب حكم.

وكتبت عنان جارية الناطفي على عصابتها باللؤلؤ: إذ لم تستحي فاصنع ما شئت.

وكتبت فرحة جارية علي بن الجهم على عصابتها بالريش: من صبر ظفر.

وكتبت مشتهى جارية القاسم العجلي على مِعجرتها: من واصله الحبيب، هان عليه الرقيب.

وكتبت نزهة جارية الجصاص على عصابتها: من جاد ساد، ومن بخل ذل. ونقشت على فص خاتمها: من حنَّ أنَّ.

وكتبت كنوز جارية ابن المهدي على جبينها بالمسك: العشق والكتمان ضدان لا يجتمعان.

وكتبت نسيم جارية جميلة المدنية على جبينها بالغالية: مراغمة الرقباء في مصالحة الأحباء.

وكتبت صلف جارية ابن حمدان على طرازها: من عشق ولم يصبر هلك ولم يعلم.

وكتبت المستَحْسَنة جارية اللاحقي على طرازها الأيمن بالذهب: من دارى خليله داوى عليله. وعلى الأيسر: من كشف الغطاء استحق العطاء.

وكتبت وشاح المؤيدية على طراز معجرها بالذهب: الوفاء مليح والغدر قبيح.

قال علي بن الجهم: كنت عند إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فدخلت جاريته مهج الموصوفة بالجمال وقد كتبتْ على أحد خديها بالغالية: من يكن صبًّا وفيًّا فعِناني في يديه. وعلى الآخر: خذ مليكي بعِناني لا أمانعك عليه.

وعن الجاحظ قال: رأيت نشوان جارية زلزل قد كتبت على عصابتها:

إن للنرجس حسنًا وعيونًا أشتهيها
فأراها فتريني عين من أهواه فيها

وكتبت مرشف جارية هارون بن إسحاق على عصابتها:

أليس عجيبًا أنَّ بيتًا يضمُّني وإيَّاكَ لا نخلو ولا نتحدَّث

وكتبت جارية المتوكل زاجر على عصابتها:

إذا خفنا من الرُّقباء يومًا تكلَّمتِ العيون عن القلوب
وفي غمز الحواجب مُغنِيات لِحاجاتِ المحبِّ إلى الحبيب

وكتبت نطفة جارية يحيى بن خالد البرمكي على طوقٍ لها:

ما ذاق بؤسَ معيشةٍ ونعيمها في الناس من في عمره لم يعشقِ
والحبُّ فيه حلاوة ومَرارةٌ فاسأل بذلك من تطعَّم أو ذُقِ

وكتبت هاجر جارية محمد بن علي على خمارها:

إذا نظرتْ نحوي تكلَّم طرفها فجاوبها طَرْفي ونحنُ سكوتُ
فكم نظرةٍ منها تقرِّبُ ليَ الرَّجا وأخرى لها حتَّى تكاد تموت

وكتبت حسَّانة البدويَّة جارية المعتزِّ على برقعها بالذهب:

ألاحظها خوفَ المراقبِ لحظةً فأشكو لطرفي ما أُلَاقي من الوَجْدِ
فتفهمُ عن لحظي عظيمَ صبابتي فتُومِي بطرفِ العين: إنِّي على العهد

وكتبت ملاعب على جبينها بالمسك:

تـحـمَّـل عـظـيـمَ الـذنـب مِـمَّـن تـحـبُّه وإنْ كنـت مظلومًـا فقُـلْ: أنـا ظـالمُ

فـإنـك إن لـم تغفر الـذنـب يـا فتى تـفـارقُ مـن تـهـوى وأنـفـك راغـم

الباب السادس والعشرون

في الحمَّام وما غزا مغزاه

الحمَّام — بالتشديد — واحدُ الحماماتِ المبنية، وهو مذكَّر، وحُكِيَ فيه التأنيث أيضًا، وأُنشِد:

وإذا دخـلـتَ ســمـعـتَ فـيـهـا رنَّة

قال ابن الخباز في شرح الألفية: إن بعض الكتَّاب كتب يومًا: هذه الحمام. فقيل له: الحمام مذكر. فقال: أردت حمَّام النساء. وهذا ظريف.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الحمام من النعيم الذي أحدثوه.

وروي عن أبي الدرداء وأبي ذر أنهما قالا: نعم البيتُ الحمام! يطهِّر البدن، ويذكِّر بالنار.

وقال أبو هريرة يرفعه: نعم البيت الحمام، يدخله المسلم يسأل الله الجنة ويستعيذه من النار.

وأول من دخل الحمام ووصفت له النُّورة سليمان بن داود عليهما السلام، فلما وجد حرَّها قال: أوَّاهٍ من عذاب النار!

قال الغزَّالي في الإحياء من جهة الطب: إن الحناء بعد النُّورة أمان من الجذام.

وقيل: إن النورة في كل شهر تطفئ الحرارة، وتنقي اللون، وتزيد في الجماع.

وقيل: بولةٌ في الحمام قائمًا أنفع من شربة دواء، وغسل القدمين بالماء البارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس.

وذكر السمعاني في باب الحمام، بإسناده إلى الفضل بن الفضل الكندي قال: ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أنها الحمام وقت الضحى.

وبسنده إلى يونس بن عبد الأعلى: أنبأنا وهب قال: سمعت مالكًا يقول: من أدخل رجلًا الحمام وجب غداؤه شاء أو أبى.

وروي عن مجاهد عن عليٍّ أنه كان يغتسل من مس الإبط والحجامة.

وعن جابر مرفوعًا: نهي أن يغسل البدن بشيء يؤكل.

وبسنده قال الحارث بن كلدة: أربعة أشياء تهدم البدن: الغشيان على البطنة، ودخول الحمام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز.

وبسنده إلى محمد بن عبد الحكم قال: سمعت الشافعي يقول: رأيت في الطب: عجبًا لمن يدخل الحمام قبل أن يأكل، ثم يؤخر الأكل بعدما يخرج، كيف لا يموت. وعجبت لمن احتجم ثم بادر الأكل كيف لا يموت!

وذكر بعض الحكماء أن غسل الوجه بالماء البارد عُقَيبَ الخروج من الحمام يبقي طراوته مع كبر السن.

قال الشيخ هبة الله أبو المكارم بن جميع الإسرائيلي الطبيب في كتاب الإرشاد، الفصل الخمسون في الاستحمام ومنافع الحمام ومضاره وكيفية استعماله: منافع الحمام كثيرة، وذلك لموافقتها لسائر الأمزجة من الحارة والباردة والرطبة واليابسة، إذا استعملت على ما ينبغي، وقد أشار جالينوس إلى ذلك بقوله: إن الحمام نافع في الشتاء والصيف، ولمن مزاجه حار أو بارد أو رطب أو يابس. وقال أيضًا: إن الحمام علاج البدن من الضدَّيْن، إن أخذه حارُّ المزاج عدله بترطيبه، وإن أخذه بارد المزاج أدفأه بحرارته، وهي توسِّع المسامَّ، وتستفرغ الفضول، وتحلل الرياح، وتدر البول، وتحسن الطبيعة، وتنظف الوسخ والعرق، وتذهب الحكة والجرب والإعياء، وتلين بشرة البدن، وتجوِّد الهضم، وتنشط الأعضاء المتشنِّجة، وتنضج النزلات والزكام، وينفع من حمَّيات يوم، ومن الدِّقِّ والرِّبْع والبلغميَّة بعد نضجها، وينفع من وجع الجنب والصدر، وتنضج الربو، وتسمن المهزول، وتهزل السمين، وترقق الدم والفضول الغليظة اللزجة بحرارته، ويرطب الأبدان اليابسة الخشنة برطوبته.

وقد قال جالينوس: إن الحمام يحلل الكَيْمُوس اللذَّاع، ويفيد البدن والأعضاء الأصلية نداوةً ورطوبة صافية، كل ذلك إذا استُعمل على القانون الطبي.

ولها أيضًا مضار وهي: أنها تسهل انصباب الفضول إلى الأعضاء الضعيفة، وترخي الجسد، وتضعف الحرارة الغريزية والأعضاء العصبية، وتسقط الشهوة، وتُضعف الباءة. قال: وأفضل الحمَّام

ما كان قديم البناء، كثير الأضواء، مرتفع السقوف، واسع البيوت، عذب الماء، طيب الرائحة، وكانت حرارته بمقدار مزاج الداخل إليه، وكان وقوده بما ليس له كيفية رديئة. وقد أحسن الذي قال: خير الحمام ما قَدُمَ بناؤه، واتسع فناؤه، وعَذُبَ ماؤه، وقدر الأتان وقوده، بحسب مزاج من أراد وروده. وقد قُسِّم الحمام إلى ثلاث بيوت، كل بيت أسخن من الذي قبله، لئلا يكون الانتقال من البرد إلى الحر، أو من الحر إلى البرد، فجأة: فالبيت الأول: مبرد مرطب، والثاني: مسخن مرطب، والثالث: مسخن مجفف.

وكذلك أن يكون الانتقال في بيوتها على تدريج.

قال بَخْتَيْشُوع: إياك أن تدخل الحمام أو تخرج بغتة، بل البثْ في كل بيتٍ هنيئة، واغسل رأسك بالسدر واخلطه بقليل ملح، وادخل الحمام في كل جمعة مرة، فإنك تأمن انتشار الشعر، واستعمل المشط فإنه يقوي البصر، ويحدث أريحية وزهوًّا، واخرج إلى المسلخ متدرجًا، ثم صب عليك ثوبًا نظيفًا طيب الرائحة، وتجنب النساء يومًا وليلة. وقال ابن جميع: فأما أصحاب الأمزجة الحارة، فينبغي أن يقعدوا في البيت الأول قليلًا، وفي الثاني دون الأول، وفي الثالث دون الثاني؛ وأصحاب البلغم والسوداء بالضد. فإن قصد بالحمام الترطيبُ أُطيلَ المقامُ في الحوض، ويُكثَر من رشِّ الماء على أرض الحمام، ليكثر البخار فيترطب الهواء، وليتمرخ بالدهن ليزيد في الترطيب، ويكون الخروج من الحمام قبل أن تلحقه منه مشقة، مثل ضعفٍ، أو غثيان، أو غشي، أو سدد، أو دوار، أو سكتة، أو صرع، أو ما شابه هذه الأعراض الرديئة، فإن كان القصد بالحمام التجفيف، أطيل المقام في البيت الحار، ويقتصر على هوائه دون مائه، ولاستعمال الماء البارد عُقَيب الحار منافع عظيمة.

وقال جالينوس: الاغتسال بالماء البارد عُقَيب الحار يقوِّي الأعضاء، حتى القوى الجوهرية التي في الأعضاء، لكن ينبغي أن لا يكون استعمال الماء البارد عقيب الحار بغتةً، بل بتدريجٍ، يستعمل الماء أولًا ممزوجًا بالبارد، ثم ينتقل بعده إلى البارد.

ومن قصد تسمين بدنه فيدخل الحمام بعد تناوله الطعام، ومن قصد تهزيله يدخل الحمام على خلوِّ المعدة، ويطيل اللبث فيه، ومن قصد حفظ صحته فيدخل الحمام عند آخر الهضم، بحيث إنه إذا خرج منها يكون محتاجًا إلى الغذاء، وينبغي أن يجتنب الجماع في الحمام، والنومَ، والفصد، والحجامة، فإن في ذلك خطرًا بيِّنًا.

وكذلك ينبغي أن يجتنب في الحمام وبعده استعمال الأشياء الباردة بالفعل، لأن المسامَّ حينئذ تكون مفتوحة، فلا يلبث أن يندفع البرد إلى جوهر الأعضاء الرئيسة، فيفسد قواها. وكذلك ينبغي اجتناب استعمال الأشياء الحارة الشديدة الحرارة بالفعل أيضًا، وخصوصًا الماء، فإن ذلك يورث السل والدق.

وأما الدلك في الحمام فإن الضعيف منه يحلل ويوسع المسام ويذوب الأخلاط والقوى، ويصلِّب الأعضاء ويحلل الرطوبات، والمعتدل يجلب الدم إلى ظاهر الجلد. وأما التمريخ بالدهن بغير ذلك فيسدُّ المسام، ويمنع ما يتحلل، وبعد الماء الحار يحفظ الحرارة من التحلل، ويسخن ويرطب، وبعد الماء البارد يبرد ويرطب.

وقال مهذَّب الدين ابن هُبَل في كتاب المختار: وخير الحمَّام ما كان قديم البناء، فإن الحمام القريبَ العهدِ بالبناء تكون حيطانه نديَّة، فتكون أراييح صهاريجه مضرَّة.

قال بعض الشُّرَّاح لهذا الفصل: الحمام الجديد البناء يتحلل من حيطانه رطوبات ممتزجة بجوهر الكلس والجصِّ والقار، ويتبخر بحرارة الحمام، فيضر استنشاقها بالروح والنفس، لأنها كيفيات رديئة خانقة، تستصحب النفس وتهجم على القلب، فتغيِّر قوام صحته بسبب رداءة الهواء الواصل به بهذه الكيفيات الرديئةِ الجوهر، فأما إذا اعتقب الحمام قبل تحليل الأبخرة الرديئة منها ومن حيطانها، فيؤمن من الضرر الحاصل منها. ومن الواجب أيضًا أن يكون الفناء متَّسعًا، لأن أبخرة الحمام رديئة وكثيرة ومحتبسة، لأنها تتحلل من أبخرة أبدان الناس ومن أنفاسهم، ومن مجاري الحمام النافذة إلى فضاء الحمام، فيكثر ويتراكم ويختلط بهواء الحمام، فيزيده رداءة إلى رداءته المكتسبة بحرارة الحمام، فإذا استنشقه الإنسان أضرَّ بحرارته الغريزية وأنهكها، بسبب خروجه لها عن الاعتدال في كمِّه وكيفيَّته؛ أما كمه فهو كثرة الأبخرة المخالطة له، وأما كيفيته فرداءة الأبخرة مع سخونة هواء الحمام، فإذا كانت الحمام واسعة الفضاء، تعلقت الأبخرة بأعالي الحمام وتبددت وتفرقت، فتلطِّف الهواء المستنشق فيها، فيكون أقل ضررًا من الحمام الصغير. ويجب أيضًا أن تكون الحمام عالية البناء، فإن ذلك معين على تقليل ضرر أبخرتها المستنشقة.

قال: وأما عذوبة مائها فلا يحتاج إلى تعليلٍ لظهوره، لأنَّ المياه إذا كانت عذبة طيبة ليس فيها شيء من الكيفيات الغريبة عدَّلتْ غالبَ الأمزجة وصححتها، فإن كان فيها كيفية غريبة مثل أن تكون مالحة، أو كبريتية، أو نحاسية، أو حديدية، أو لها مرور على معادن رديئة الجوهر، أو على منابت أشجار

خبيثة، أو على مطابخ وآجام منتنة كثيرة الحيوانات الرديئة، كأنواع الدود والضفادع والحيات وما أشبه ذلك —أخرجت المزاج عن اعتداله إلى حُكْم هذه الكيفيات الرديئة.

قال الشارح: ومنافع الحمام كثيرة، وأعظمها منفعة هو أنها إذا كانت معتدلة الهواء والماء فإنها تفتح مسام البدن، فيَسْهُل بذلك خروج الفَضْل منه، ويكسبه رطوبةً عذبة، فيصير بها البدن إلى نشاطٍ وقوة وتفريح.

وقال الرئيس أبو علي، الحسين بن سينا — رحمه الله — في كتابٍ سمَّاه حفظ الصحة، لم يذكر فيه سوى أحكام الأسباب الستة الضرورية لا غير: وينبغي أن يكون للحمام ثلاثة بيوت: بيت معتدل، وهو الذي لا يحسُّ فيه بحرٍّ ولا برد؛ وبيت يحس فيه بحرارة معتدلة، وبيت يحس فيه بحرارة زائدة عن الثانية، بشرط أن يكون النفس فيه مستقيمًا غير متواتر. فالبيت الأول لا يضر كبيرَ مضرة، والثاني والثالث فلا يمكث فيهما إلا بقدر ما يتحلل من الرطوبة ما من شأنه أن يتحلل، فإن طال المكث بها أكثر من المقدار المعتدل — وخصوصًا إن اقترن معه حركات قوية — فإنه يوقع في الدِّق لاشتداد سخونة القلب، أو الاستسقاء لتحلُّل الحار الغريزي، فيبرد مزاج الأحشاء.

قال: وينبغي أن يجتنب الحمام على الامتلاء من الطعام، فإنه يولِّد سددًا في الكبد والعروق، لانجذاب المواد الغذائية غير منهضمة إلى ظاهر البدن، فيكون ذلك سببًا لحدوث أنواع الحميات العَفِنة والإسهال الكائن بأدوار، ويجتنب فيه شرب الأشياء الباردة مثال الفقاع والماء البارد، لأن فيه خطرًا عظيمًا جدًّا، لأن الشيء البارد السيَّال إذا حصل في المعدة هجم دفعة على الكبد والقلب فبرَّدهما، وأنهك حرارتها الغريزية، وأضعفَ الأحشاء وهيأها للاستسقاء. ويجتنب فيه الجماع أيضًا، فإنه يسقط القوة، ويوقع في أمراض خطرة.

واعلم أن الحمام الحار جدًّا يسيِّل الأخلاط الجامدة إلى أعماق الأعضاء، فيُحدث إمَّا سددًا وإما أورامًا، ويصعدها إلى الدماغ، ويحدث إما صداعًا شديدًا أو بِرْسامًا. والحمام البارد يحرِّك المادة التي تحركت بالعرق حركة ناقصة، فتنجذب المواد إلى جهة سطح البدن، فربما أحدثت شبهًا بالورم والحكة، وربما أحدث الزكام والمغص. ورش الماء البارد أو بلُّه بعد الحمام فإنه ينعش القوة المسترخية من الكرب ومن لهيب الحميات، وعند العشيِّ، وخصوصًا بماء الورد والخل، وربما صحح الشهوة وأثارها.

ويضر أصحاب النوازل والصداع.

وأما سكب الماء البارد على الرجلين فأحكامه أحكام ما تقدم في الرش على الوجه. والحمام النافع على سبيل الإجمال وهو الحمام المعتدل في حره وبرده، الطيب الرائحة، العذب الماء، الذي أضواؤه كثيرة مشرقة، وفناؤه واسع، وفيه تصاوير بديعة الصنعة، بيِّنة الحسن، مثل عاشق ومعشوق، ومثل رياض وبساتين، وطرد خيل ووحوش، فإن في تصاوير مثل هذه تقوية بليغة لجميع قوى البدن الحيوانية والطبيعية والنفسانية.

وقال الحكيم بدر الدين مظفر بن قاضي بعلبك، في كتاب مفرح النفس: وقد أجمع الأطباء والحكماء والألبَّاء قاطبة، على أن النظر إلى الصور الجميلة البديعة الجمال يفرح النفس، وينشطها، ويزيل عنها الأفكار والوساوس السوداوية، ويقوي القلب قوة لا مزيد عليها، بسبب إزالة الأفكار الرديئة عنه. قالوا: فإنْ تعذر حصول النظر إلى الصور الجميلة فليكن النظر إلى صور جميلة متقنة الصنعة مصورة في الكتب، أو في الهياكل، أو في القصور الشريفة.

وهذا المعنى قد ذكره الحكيم محمد بن زكريا الرازي رحمه الله، وبالغ في ملازمة فعله لمن يجد في نفسه أفكارًا رديئة ووساوس فاسدة غير موافقة للنظام الطبيعي، وقال: فإنَّ الصور الجميلة إذا جمعتْ إلى صورتها حسنُ الأصباغ المألوفة من الأصفر والأحمر والأخضر والأبيض، مع ضبط نسبة المقادير في أشكالها، فإنها تشفي الأخلاط السوداوية، وتزيل الهموم الملازمة لنفس الإنسان، وتزيل الكدورة عن الأرواح، لأن النفس تلطف وتشرق بالنظر إلى مثل هذه الصور، فيتحلل ما فيها من الكدورة.

قال: وتفكَّرْ في الحكماء المتقدمين الذين استنبطوا الحمام في مددٍ من السنين، كيف علموا — بدقة فكرهم وصائب عقلهم — أن الحمام إذا دخله الإنسان يتحلل من قواه شيء كثير، فاقتضت حكمتهم أن استَخْرَجوا بعقولهم ما يجبر ذلك سريعًا، فرسموا في الحمام صورًا بديعة الصنعة بأصباغ حسنة مفرحة، وقسموا ذلك إلى ثلاثة أقسام، ولم يجعلوه قسمًا واحدًا لأنهم علموا أن أرواح البدن ثلاثة أصناف: حيوانية، ونفسانية، وطبيعية. فجعلوا كل قسم من التصوير سببًا لتقوية قوة من القوى المذكورة والزيادة فيها، فصوروا للقوى الحيوانية: القتال، والحرب، وطرد الخيل، واقتناص الوحوش؛ وصوروا للقوى النفسانية: العشق، والتفكر في العاشق والمعشوق، وتصوير معاتبة بينهما، أو معانقة وما أشبه ذلك؛ وصوروا للقوى الطبيعية: البساتين، وصوروا الأشجار البهيَّة المنظر مع كثرة تصوير الأزهار والألوان المشوقة، فهذه التصاوير وأمثالها هي جزء من أجزاء الحمام الفاضل، ولو سألت

المصور عن خصوصية أن الحمام لم لا يصوِّر المصورون فيها إلا هذه الأقسام الثلاثة لما علم لها تعليلًا، لكن تذكر هذه الصفات الثلاثة لا تعلل، وسبب ذلك تقادم السنين على تعليل مبادئ الأشياء، فما خلق شيء سدًى، ولا جعل شيء هدرًا.

وقال الحسن المتطبب: ورأيت ببغداد في دار الملك شرف الدين هارون بن الوزير الصاحب، شمس الدين محمد بن محمد الجويني، حمامًا متقن الصنعة، حسن البناء، كثير الأضواء، قد احتفت به الأنهار والأشجار، فأدخلني إليه سائسه، وذلك بشفاعة الصاحب بهاء الدين ابن الفخر عيسى المنشئ الإربلي، وكان سائس هذه الحمام خادمًا حبشيًّا، كبير السن والقدر، ففرَّجني في مياهه، وشبابيكه، وأنابيبه المتخذة من الفضة المطلية بعضها بالذهب، وبعضها على هيئة طائر، إذا خرج منها الماء صوَّت بأصواتٍ طيِّبة، ومنها أحواض رخامٍ بديعة الصنعة، والماء يخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض، ومن الأحواض ترمى جميعها إلى بركةٍ حسنةِ الإتقان، ثم منها يخرج إلى البستان، ثم فرجني في خلوة نحو عشر خلوات، كل خلوة صنعتها أحسن من أختها، ثم انتهى بي إلى خلوة عليها باب مقفل بقفلٍ حديد، ففتحه ودخل بي إلى دهليز طويل، كله مرخَّم بالرخام الأبيض الساذج، وفي صدر الدهليز مربعة تَسَعُ بالتقريب نحو أربعة أنفس إذا كانوا قيامًا، واثنين إذا كانوا جلوسًا، ورأيت من الشيء العجيب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالًا لا فرق بينه وبين صقال المرآة، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها.

ورأيت أرضها مصورة بفصوصٍ حمرٍ وصفر وخضر ومذهَّبة، وكلها متَّخذة من بلور مصبوغ، بعضه أصفر وبعضه أحمر، فأما الأخضر فقيل: إنه حجارة تأتي من الروم، والمذهب فهو زجاج مليَّس بالذهب؛ صورًا في غاية الحسن والجمال، وهم على هيئات مختلفة في نومهم، وهم بين فاعل ومفعول به، إذا نظر إليهم الإنسان تتحرك شهوته. قال لي الخادم: هذا صنعوه هكذا لمخدومي، حتى إذا نظر إلى ما يفعله هؤلاء بعضهم مع بعض من المجامعة، والتقبيل، ووضع أيدي بعضهم على أعجاز بعضٍ، تتحرَّك شهوته سريعًا، فيبادر إلى مجامعة من يحب. قال: وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي رأيت، هي مخصوصة بهذا الفعل إذا أراد الملك هارون أن يجتمع بأحدٍ من مماليكه أو خدمه الحسان، أو جواريه، أو نسائه، في الحمام ما يجتمع به إلا في هذه الخلوة، فإنه لَمَّا يرى كل محاسن الصور الجميلة مصورة في الحائط ومجسمة بين يديه يرى كل واحد منهما صاحبه على هذه الصفة. ورأيت في صدر الخلوة حوض رخام مضلَّع، وعليه مركب في صدره أنبوب من ذهب، يفتح ويغلق بلولب يُدار، وفوقه

أنبوب آخر مثله برسم الماء الحار، وفوقه أنبوب آخر برسم الماء البارد، والأنبوب الأول برسم الماء الفاتر، وعن يمين الحوض ويساره عمودان صغيران منحوتان من البلور، يوضع عليهما مباخر الند والعود، ورأيتها خلوة شديدة الإضاءة، مفرحة بديعة، قد أنفقَ عليها أموالًا كثيرة. وسألت الخادم عن هذه الحيطان المشرقة المضيئة: من أي شيء صنعت؟ فقال: ما أعلم. فما رأيت في عمري ولا سمعت بأحسن من هذه الخلوة، ولا أحسن من هذه الحمَّام، مع أنني ما أُحْسِنُ أَصِفُها كما رأيتها، فإنه لم تتكرر رؤيتي لها ولا اتفق لي الظفر بصناعها ومباشريها، وفي الذي ذكرت كفاية.

انتهى كلام الحكيم بدر الدين حسن بن زفر الإربلي، ومن خطه نقلت هذه الفوائد.

وقال بعضهم فيه ملغزًا:

ومنزلِ أقوامٍ إذا ما تقابلوا ... تشابَه فيه وَغْدُهُ ورئيسُهُ
يُنفِّسُ كربي إذْ يُنَفِّسُ كربَه ... ويَعْظُمُ أُنْسِي إذْ يَقلُّ أنيسه
إذا ما أعرْتَ الجوَّ طرفًا تكاثرَتْ ... على مَن به أقمارُه وشموسه

وقال العفيف التلمساني:

مررنا بحمَّامٍ كأنَّا نحجُّه ... وقد عُقِدَتْ منَّا المآزرُ نُحرِمُ
فلما حللنا منه صدرًا كأنَّما ... غدتْ فيه نيرانُ الصَّبابةِ تَضرِمِ
بكتْ منه أجفانُ الأنابيبِ بيننا ... كأنَّا له اللُّوَّام وهو المتيِّم

وقال محاسن الشواء الحلبي:

شَدُّوا المآزرَ فوقَ كُثْبانِ النَّقَا ... بأناملٍ حلُّوا بها عَقْدَ التُّقى
وتَجرَّدوا فرأيتُ بان معاطفٍ ... نشروا ذوائبهم عليه فأورقَا
وبَدوا فأطلعَ كلُّ وجهٍ منهم ... بَدرًا فأضحى كلُّ قُطْرٍ مُشرِقا
وتضوَّع الحمَّام مِسكًا عندما ... فرطوا من الأصداغ نظمًا معقبا
من كلِّ أهيفَ حَلَّ عُقْدَةَ بَنْدِهِ ... وغدَا بلحظِ عيوننا مُتَمَنْطِقَا

وقال جمال الدين يوسف الصوفي في مليحٍ تركي دخل الحمَّام وبخَّ ماء ورد:

ولـمْ أَنْسَـهُ لمَّا تَعـرَّى ثـيـابَه　　　وجـاءَ إلـى حـمَّامـهِ يـتـخـطَّـرُ
ولمَّا أفـاضَ المـاءَ فـوقَ قَوامِهِ　　　وفي وجهـه نورٌ من الحُسْنِ يَظهَرُ
أتـانـا هـلالًا تَحـتَه غُصـنُ فضَّـةٍ　　　يَـلـوح عـلـيـه لـؤلـؤٌ يـتـحـدَّرُ
فقلـت: أظبيُ التُّرك قـد فـاح مِسـكـه　　　أم الـوردُ مـن خـدَّيْـه يـحمى فـيقْطر

دخل ابن بقيٍّ الحمام وفيه الطليطلي الأعمى، فقال له ابن بقي: أجِزْ:

حـمَّامُنـا كـزمـانِ الـقَيْظِ مـحـتـدمٌ　　　وفـيـه لـلـبردِ بـردٌ غـيرُ ذي ضـررِ

فأجازه بقوله:

ضِـدَّانِ يَنْعَمُ جِسـمُ المرءِ بَينـهـمـا　　　فـالغصـنُ يَنعمُ بين الشـمسِ والمطرِ

وقال ابن رشيق:

ولـم أدخـلِ الـحَمَّامَ سـاعـةَ بَيْنـهـم　　　طلابَ نَعيمٍ قـد رضـيـتُ ببُؤسـي
ولـكـنْ لـتَجْرِي عَبْرَتـي مُطـمـئـنَّةً　　　فـأبكي ولا يـدري بـذاك جليسـي

أخذه صدر الدين بن الوكيل فقال:

ولـم أدخـل الـحـمـام مـن أجـل لـذَّةٍ　　　فكيف ونـار الشـوق بين جوانحي
ولـكنني لـم يـكفني فـيض مـقـلـتي　　　دخلـت لأبـكي مـن جـميع جـوارحي

وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ الورع، الزاهد الثقة، شمس الدين محمد بن سمنديار الذهبي مضمنًا:

لـمْ أبـغِ بـالـحـمَّامِ طـيـبَ تـنـعُّمٍ　　　أفنى البُكـا من دمع عيني أجمعـا
لكن بكيـتُ أسًـى بجسـمي كلِّه　　　حـتـى كـأنَّ لـكـلِّ عِـرْق مَـدمـعـا

وأنشدني سيدي ومولاي القاضي صدر الدين بن الآدمي، فسَّح الله في أجله:

إنَّ حَمَّامـنـا الـتـي نـحـن فـيـهـا　　　أيُّ مـاءٍ بـهـا وأيَّـةُ نـارِ
قـد نـزلـنـا بـهـا عـلـى ابـن مـعـين　　　وروينـا عـنـه صـحـيح الـبخـاري

كتب الشيخ صلاح الدين الصفدي في حواشي المقامات عند ذكر ابن سكرة وذكر كافاته، وهو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي، من ولد علي بن المهدي، قال: دخلت يومًا وخرجت وقد سرق مُدَاسي فعدت إلى داري حافيًا وأنا أقول:

إلـيـكَ أذمُّ حَمَّامَ ابـنِ مـوسـى   وإنْ فـاقَ المُـنَـى طِـيـبًـا وحَـرَّا
تـكـاثـرَتِ الـلُّصـوصُ عـلـيـهِ حتَّى   لَـيَـحْـفَـى مَـن يَـطِـيـفُ بـه ويَـعْـرَى
ولـمْ أفـقـدْ بـه ثـوبًـا ولـكـنْ   دخـلـتُ مُـحَـمَّـدًا وخـرجـتُ بِشـرَا

نادرة

اتفق أن اثنين سبحا في نهرٍ، فلما خرجا صفع أحدهما صاحبه، فقال له بعض الحاضرين: أين فلوس الحمام؟ فقال: أنزلتها في القرعة.

وقال نصير الحمَّامي:

لِي مـنـزلٌ مـعـروفـةٌ   يـنـهـلُّ جـودًا كـالسُّـحُـبْ
أقـبِّلُ ذا الـعـذرِ بـه   وأكـرمُ الـجـار الـجـنـبْ

ووعده السراج الوراق وتأخر فقال:

وكـدَّرتَ حَمَّامـي بِغَيْبَتِكَ الَّتـي   تكـدَّر مِن لـذَّاتهـا صـفْوُ مَشـربي
فما كان صـدرُ الحوض منشـرحًا بها   ولا كـان قـلـب المـاء فـيـه بـطـيِّب

وقال:

مُذْ لـزمـتُ الـحـمَّام صـرت فـتـى   لُـطْـفٍ يُـداري مَـن لا يـداريـه
أعـرف حَرَّ الأشـيـا وبـاردَهـا   وآخـذُ المـاءَ مـن مَـجـاريـه

وقال يستدعي:

من الرأي عنـدي أن تُواصـلَ خلوةً   لـهـا كـبـدٌ حـرَّى وفـيـضُ عـيـون
تُراعـي نـجـومًا فـيـكَ مِن نـارِ قـلبـهـا   وتـبـكـي بـدمـعٍ فـائـضٍ كـحـزيـن

غدَا قلبها صبًّا عليك وأنت إن   تأخَّرتَ تضحي في حياضِ مَنون

وقال صدر الدين بن عبد الحق الحنفي رحمه الله تعالى:

وجنةٍ لا تنطفي نارها   ندخلها وهي لنا مُقصيةْ
نعيمنا فيها بلا طاعةٍ   عذابنا فيها بلا معصيةْ

وقال أيضًا:

جهنَّم حمَّامكم نارها   تقطِّع أكبادنا بالظَّما
وفيها عصاةٌ لهم ضجَّة   وإن يستغيثوا يغاثوا بِمَا

وقال شهاب الدين بن فضل الله:

وحمَّامنا كعبة للوفود   نحجُّ إليها حفاةً عراةْ
يكرِّر صوتُ أنابيبه   كتابَ الطهارة بابَ المياه

وقال الشهاب محمود مضمنًا:

قل لي عن الحَمَّام كيف دخلته   يا مالكي لِتَسُرَّ خِلًّا مُشفقا
أدَخَلْتَه وأولئك الأقوام قد   شدُّوا المآزر فوقَ كثبان النَّقَا؟

وقال مجير الدين بن تميم مضمنًا:

لو كنتَ في الحمَّام والحِنَّا على   أعطافه ولجسمه لألاء
لرأيتَ ما يُسبيك منه بقامةٍ   سالَ النُّضارُ بها وقامَ الماء

وقال مضمنًا:

عاينتُ في الحَمَّام أسودَ واثبًا   مِن فوقِ أبيضَ كالهلال المُسْفِرِ
فكأنَّما هو زَورَقٌ مِن فِضَّةٍ   قد أثقلته حمولةٌ مِن عنبرِ

وقال جمال الدين بن نباتة مضمنًا:

تـأمـلـتُ فـي الـحَمَّام تـحـتَ مـآزرٍ   روادفَ بيض مـا شـنـاهـا بعـائـبِ
كـأنِّي مـن هَذِي وهَاتِيـكَ نـاظـرٌ   بيـاضَ العطـايـا في سـوادِ المطـالـب

وقال آخر في تعجيل الخروج منها:

خـذْ مـن الـحـمَّام واخـرج   قـبـل أن يَـأخـذَ مـنـكـا
حـدِّثَنْ عـنـه وإلَّا   حـدَّث الـحـمـام عـنـكـا

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة في المفاضلة بين حمامات مصر وحمامات الشام:

أَحـواض حـمـامـاتِ الشـام   أتسـمـعـي لـي كـلـمـتـين؟
لا تـذكـري أحـواضَ مصـر   فـأنـتِ دون الـقُـلَّـتـين

وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ عز الدين الموصلي معاكسًا للشيخ جمال الدين:

إلـيـك حـيـاض حـمـامـاتِ مصـرٍ   ولا تـتـكـثِّـري عـنـدي بِـمَـيْـنِ
حـيـاضُ الشـام أحـلـى مـنـكِ مـاءً   وأطـهـرُ وهْـي دونَ الـقُـلَّـتـينِ

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

ولمْ أنسَـه كـالغصـن يُمطره الحيـا   على إثرِ حمـامٍ فيعطفـه الصـَّبـا
تـلـثَّم بـالمـنـديـل أبـيـضَ سـاذجًا   فصـارَ بضـوءِ الخـدِّ أحمرَ مـذهبـا

وله:

دعـانـي صـديـقٌ لـحـمـامـه   فـأوقـعـنـي فـي الـعـذاب الألـيـم
فسـاد يـزيـد ومـاء يـقـل   فبـئـسَ الصـديـقُ وبـئـس الـحـمـيـم

وقال زين الدين بن الوردي:

ومـا أشـبـه الـحمَّام بـالموتِ لامرئٍ   يُـذَكِّـرُ لـكـنْ أيـنَ مَـن يَـتـذكَّـرُ
يُجـرَّد مـن أهـلٍ ومـالٍ ومَلـبَسٍ   ويصـحـبـه مـن كـلِّ ذلـكَ مِـئـزرُ

وقال ابن وزير يشبِّه الماء على الرخام:

لله يومٌ بحمَّامٍ نعمتُ بهِ ... والماءُ من حوضه ما بيننا جارِ
كأنَّه بين شقَّات الرُّخامِ ضُحًى ... ماءٌ يَسيل على أثوابِ قَصَّارِ

فقال ابن الذروي يهجوه:

وشاعرٍ أوقدَ الطبعُ الذكاءَ له ... فكادَ يَحرقه من فَرْط إذْكاء
أقامَ يُجْهد أيامًا قريحَتَه ... وشبَّه الماءَ بَعْدَ الجَهْد بالماءِ

قال ابن وزير مثل قول الآخر:

كأنَّنا والماءُ من حولنا ... قومٌ جلوس حولهم ماء

وقال إبراهيم المعمار في المجون:

عاتبتُ أيري إذ جاء مُلتثمًا ... بالخرء من علقه فما اكترثا
وقال لي حين لُمتُه: قسمًا ... ما جزت حَمَّام قعره عبثا
كيف وفيه طهارتي وبه ... أقلِّب ماءً وأرفع الحدثا

وقال المعمار أيضًا:

في صاحب الحمام أيري قال لي: ... أتلوم في حبي له وملامي
لا يشتفي أيرٌ عليه طهارةٌ ... إلا بقلبِ الماء في الحمَّام

وقال شيخ الشيوخ بحماة:

وقيِّمٍ كلَّمتْ جسمي أناملُه ... من غير ألسنةٍ تكليمَ خُرْصانِ
إنْ أمسكَ اليد منِّي كادَ يخلعها ... أو سرَّح الشَّعْر أنكاني وأبكاني
فليسَ يُمسِكُ إمساكًا بمعرفةٍ ... ولا يسرِّح تسريحًا بإحسانِ

وأنشدني الجناب المجدي بن مكانس للشيخ بدر الدين بن الصاحب:

وقيِّمٍ قيمٍ في حسنِ صنعته ... حازَ الجمال على لطفٍ من الترف

لو يخـدم البـدر أنقى البـدر من كلفٍ   لـكنـه لـم يُـزِلْ مـا بـي مـن الـكلـف

وقال شهاب الدين بن العطار في بلَّان يدعى موسى:

هـــيَّأ الـــبــلَّان مـــوســـى   خَـلْـوةً تُـحـيِـي الـنُّـفـوســـا
قُلْـتُ: مــا أصــــنــعُ فـيـهـا؟   قــال: تســـتــعــمــل مــوســـى

وعلى ذكر موسى ذكرتُ واقعة لطيفة اتفقت لركن الدين الوهراني، وهي أنه لما قدم إلى القاهرة المُعزِّيَّة مدح الأمير عز الدين موسَك بن جكُّو الهَذَباني، ابن خال صلاح الدين يوسف بن أيوب، فأمر له بشيء لم يرضه، فحضر مجلسه يومًا وفيه حفل من الناس كثير، فقال: يا مولانا، قد احتجت إلى أن أحلق رأسي هذه الساعة، وانتهى الأمر إلى بعض الجمدارية أن يحضر الساعةَ ليحلقه لي بحضرتك. فكاد الأمير أن يأذن له في ذلك ثم فهم مقصده فقال لبعض مماليكه: أعطِهْ مائة دينار وقل له: خذ هذه واحلق رأسك في الحمام. فأخذها ومضى شاكرًا، فقال له بعض الحاضرين: يا مولانا، ما معنى هذه الحركة؟ فقال: إنه أراد إذا حلقه يقول: يا مهتار، موسك رديء! فيشتمنا في وجوهنا.

ولا بأس بإيراد نبذة مما قيل في المشط إذا كان من لوازم الحمام: قال شرف الدين بن الحلاوي وقد طُلب منه ثلاث أبيات تكتب على مشط برسم سلطان حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي:

حـلـلـتُ مـن المـلـكِ الـعـزيـز بـراحـةٍ   غـدًا لَثْمُـهَـا عـنـدي أجـلَّ الـفـرائض
وأصـــبـحـتُ مـفـترَّ الـثـنـايـا لأنَّني   حـلـلـتُ بكفٍّ بـحـرُهـا غـير غـائـض
وقـبَّلْـتُ ســـامـي خـدِّه بـعـد كـفِّه   فلمْ أَخْـلُ في الحـالَيْن من لَثْمِ عـارض

وللشيخ بهاء الدين الموصلي ولدِ الشيخ عوز الدين ملغزًا فيه من أبيات:

ظَنَنْتُــم تصـــحــيــفَ مَقْلُوبِه يَخْـ   ـــــفَـى ولـيـسَ الـظَّـنُّ بـالـكـاذب

قلت: ورد على سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومي المالكي الشهير بابن الدماميني — رحمه الله — كتابًا من مكة المعظمة المشرفة، بتاريخ تاسع عشر المحرَّم، سنة إحدى وثمانمائة، وفيه أنه اجتمع بمكة بالقاضي شهاب الدين بن حجر رحمه الله، ووجد صحبته شخصًا يقال له: ابن المرجاني، ذكر القاضي شهاب الدين أن المشار إليه كان رفيقًا من اليمن إلى مكة المشرفة، وأنشدنا له:

يـا إمـامًا ســـــألـتـه حـلَّ لـغـزٍ   شـــطَّ عـن مـزار أهـل الـذكـاء
أهـمـلْ الـثـلـثَ بـاعـتـنـاءٍ وقـلِّـب   تَـرَهُ جـاءَ قـائـدَ الشـــعـراء

وذكر لي القاضي بدر الدين في مشرفته أنه من الألغاز الصعبة، فينبغي أن تقع الفكرة في حله.

قلت: اشتغلتْ الفكرة في حلِّه، فإذا هو مشط، فتأمَّلْه. ولقد أجاد قائله.

قال السراج الورَّاق ملغزًا:

وبيضـــاءَ قـد عـانقتهـا وضـــممتهـا   ولا قبح في جهري بهـذا وإســـراري
عـلـى أنـه لا عـار فـيـهـا مـحـقـق   ومـا ســـلـمـت والله قطُّ من الـعـارِ

وقال بعض المتأخرين:

ألَا رُبَّ حـمَّامٍ بـدا لـي حـمـيـمـه   فـظـاهـره مـاءٌ وبـاطـنـه نـارُ
كـإخوانِ هـذا العصـــر مَن تلقَ منهم   فـلـلـودِّ إعـلان ولـلـحـقـد إســـرار

وكتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يستدعي إلى حمام: هل لك — أطال الله بقاءك — في المشاركة في جمع بين ماء ونار، وأنواء وأنوار، وزهر وأزهار، قد زال فيه الاحتشام فكلٌّ عارٍ ولا عار، نجوم سمائه لا يعتريها أفول، وناجم رخامه لا يعتريه ذبول، تتنافس العناصر على بلوغ مآربه، فأرسل البحر ماء جسده من زَبَده، لتقبيل أخمصه إذ قصرت همته عن تقبيل يده، ولم يرَ التراب له في هذه الخدمة مدخلًا فتطفَّل وجاء، لما علم أن التسريح لمن جاء متطولًا وأعلمت النارُ ضدها الماء، فدخل وهو حر الأنفاس، وغلت من أجله فلأجل ذلك داخله من صوت تسكابه الوسواس، ورأى الهواء أنه قصر عن مطاولة هذه النار، فأمسك متهيبًا ينظر من وراء زجاجة إلى تلك الدار، ثم إن الأشجار رأتْ أنْ لا شائبة لها في هذه الخطوة، ولا مساهمة في تلك الخلوة، فأرسلت من الأمشاط أكفًّا أحسَّت بما يدعو إليه الفَرَق، ومرَّت في سواد العذار الفاحم كما يمر البرق، وذلك بيد قيِّمٍ بحقوق الخدمة، عارف بما يَعامل به أهل النعيم أهل النعمة، خفيف اليد مع الأمانة، موصوفٍ بالمهابة عند أهل تلك المهانة، لطيف أخلاق كأنها عتاب بين جحظة والزمان، وحسن صنعة فلا يمسك يدًا إلا بمعروف، ولا يسرِّح تسريحًا إلا بإحسان، أبدًا يرى من طهارته وهو ذو صلف، ويشاهد مزيلًا لكل أذًى حتى لو خدم البدر لأزال ما بوجهه من الكلف، بيده موسى كأنها صباحٌ ينسخ ظلامًا، أو نسيم ينفض عن الزهر كمامًا، إذا أخذ صابونة أفهم

من يخدمه بما يمر على جسده أنه بحر عجاج، وأنه يبدو منها زبد الأعكان التي هي أحسن من الأمواج، فهلمَّ إلى هذه اللذة، ولا تعد الحمام دعوة أهل الحراف فربما كانت هذه بين تلك الدعوات فذَّة.

وكتب في محضر قيم حمام الصوفية: يقول العبد الفقير إلى الله تعالى فلان: إن أبا الحجاج يوسف ما زال لأهل الصلاح متيمًا، وله جودة ذهن يستحق بها أن يدعى قَيِّمًا، كم له عند كل جسد من جسيم، وكم أقبل مستعملوه ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾، كم تجرَّد مع شيخ صالح في خلوة، وكم قال ولي الله: يا بشرايَ. لأنه يوسف حين أدلى في حوضه دلوه، كم خدم من الصلحاء والعلماء إنسانًا، وكم ادَّخر ببركتهم لدنيا وأخرى، فحصل من كلٍّ منهم شفيعين مؤتزرًا وعريانًا، كم حرم خدمة له عند أكابر الناس، وكم له يد عند جسد ومنة على راس، كم شكرته أبشار البشر، وكم حكَّ رِجْل رَجُلٍ صالح، فحقق أن السعادة لتلحظ الحجر، قد ميز بخدمة الفضلاء أهله وقبيله، وشكر على ما يعاب به غيره من طول الفتيلة، تتمتع الأجساد من تنظيفه لحمامه، بظل ممدودٍ، وماء مسكوب، ويكاد كثرة ما يخرجه من المياه أن يكون كالرمح أنبوبًا على أنبوب، كم رأس أنشدت موساه:

ولو أنَّ لي في كلِّ منبتِ شعرةً — لسانًا يبثُّ الشَّوقَ كنتُ مقصِّرَا

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى ابن معبد، وكان متولي دمشق، يشكو من حمام سرق فيها شاشه: يقبِّل الأرض مستجيرًا بهذا البيت الذي لا يذل جاره، مستغيثًا بكرمه الذي ملأت الأقطار أخباره، فما عبر المملوك في عمره أحر من هذا الحمام، ولا نكس في رأسه العرية مثل هذه الأيام، للعواطف العربية، ولمراغم النَّفوس الأبيَّة، فوالله، لقد خف رأس المملوك من الجهتين عقله وشاشه، ولقد تعوض من تاجِ عمته العربية مخدة فراشه، ولقد أخذت منه هذه الحمام المتلفَّة، ولقد نشفته بالوساوس، فبئس الحمام والمنشفة، وهذا وقت إغاثة الملهوف، والرغبة في إسداء المعروف، لا قطع الله عن أرواح المضطرين ترويحَ هِباته، ولا عطَّل من مِننه المنتظمة أجياد عفاته، بمنه وكرمه.

وكتب الشيخ برهان الدين القيراطي وقد استدعيَ إلى الحمام:

قدْ أجبْنا وأنتَ أيضًا فصبْ — بَحت بصبحي سوالف وسُلاف
وبُساق يسبي العقول بساقٍ — وقَوامٍ وَفَقَ العناقِ خلافِ

يقبِّل الأرض، ويُنهي أن المملوك ما خرج عن الاهتمام، لدخول الحمام، فإنه متشوِّق لما لمولانا متشوق إليه، وموجِّه وجه فكرته عليه، وكيف يمكن الوقوع في الخلاف، والميل إلى الإخلاف:

وحــمَّامــكــمْ كــعــبــةٌ لــلــوفــودِ نَــحــجُّ إلــيــهــا حُــفــاةً عــراةْ
يــكــرِّرُ صـــوتُ أنــابــيــبــه كــتــابَ الــطــهــارة بــابَ الــمــيــاهْ

فلا عدمت التنبيه من مولانا على هذا المنهاج، ولا فقد الألفاظ آدابه الممدوحة التي ما لها من هاج، ولا حرمت عند الحمام هذا النصير، ولا عاقني عند إرادة التخليق بمطالبها تقصير، ولا زلت أمحق بها آية ليلة الشعر، وأخلع بها بعدَ ثياب البدن ثياب الوضر، وأتنعَّم بها حسناء لها من جامها في كل ناحية من وجهها قمر، ولا يخفى أن الرأس تروي الآن عن الأشعث إلى الشعثاء أخباره، والجسد كأنما كانت على أب وزير المعتصم أطماره، فالأوْلى أن يلقى ويعتاض عنها بما هو أبقى، ومولانا أجلُّ ساعٍ في إسداء المعروف، وأفعال بر أعيذها بالأسماء الحسنى ما اشتملت عليه من الحروف، لا زال بحر إحسانه الطهور سالمًا من الخوض، وخزانة فضائله الجمة محروسة الجناب بجاه صاحب الحوض.

فصل في ما ورد في ذمها

قال الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: بئس البيت الحمام، تُكشف فيه العورات، وترتفع فيه الأصوات، ولا يُقرأ فيه آية من كتاب الله تعالى.

ودخل بعض الأمراء مع الرقاشي الحمام فقال: ذُمَّه. فقال: يهتك الأسرار، ويؤلف الأقذار، ويذهب بالوقار. فقال: امدحه. فقال: يذهب بالقشافة، ويعقب النظافة، ويفش التخمة، ويطيب النغمة.

قيل: ويُكره الحمام بين العشاءين وقريب من المغرب.

قال الزمخشري: ويكره أن يعطي الرجل امرأته أجرة الحمام، لأنه يكون معينًا لها على المكروه.

وقال أيضًا: الحزم ترك الحمام، إذ لا يخلو من عورةٍ مكشوفة، ولا سيما من تحت السرة إلى العانة.

ومن آدابه: أنه إذ دخله رفع رجله اليسرى عند الدخول، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الرِّجْسِ والنِّجْسِ، والخَبيثِ المُخْبِث، الشيطان الرجيم.

وذكر السمعاني في كتاب الحمام، عن مجاهد عن عليٍّ أنه كان يغتسل من مسِّ الإبط والحجامة وماء الحمام.

وبسنده إلى فرقد السبخي أنه قال: ما دخل نبي الحمام قطُّ، ولا أكل فومًا ولا بصلًا ولا كُرَّاثًا.

الوصف

قال بعضهم:

وحـــمَّامٍ ســـــوءٍ وخـــيـــمِ الـــهـــوى قـــلـــيـــلِ المـــيـــاهِ كـــثـــيـــرِ الـــزحـــام
فـــمـــا لـــلـــقـــيـــام بـــه مـــن قـــعـــودٍ ولا لـــلـــقـــعـــود بـــه مـــن قـــيـــام
حـــنـــيَّاتُهُ عَطَفـــاتُ الـــقســـيِّ وقَـــطْـــراتُـــه صـــائـــبـــاتُ الســـِّهـــام

وقال شعرًا:

حمَّامنـــا مـــن ضِـــيـــقـــهـــا تشـــتـــكـــي كـــأنَّـــهـــا صـــــدرٌ وقـــد أحـــرجـــوه
فـــهـــي لَظَى نـــزاعـــة لـــلشَّـــوَى ومـــاؤهـــا كـــالمُـــهْـــل يشـــوي الـــوجـــوه

وقال ابن شرف القيرواني:

كـــأنَّمـــا حـــمَّامـــكـــم فَقْحـــةٌ الـــنَّـــتْـــنُ والـــظُّـــلـــمـــةُ والضـــِّـــيـــق
كـــأنَّنـــي فـــي وَسْـــطِـــهـــا فَيْشـــةٌ أَلُـــوطُـــهـــا والـــعَـــرَقُ الـــرِّيـــق

وقال ابن رشيق:

وأنـــتَ أيضـــًا أعـــورٌ أصـــلـــعُ فصـــادَفَ الـــتشـــبـــيـــهَ تـــحـــقـــيـــقُ

الباب السابع والعشرون

في النار والطبَّاخ والقُدور

النار: مؤنثة من ذوات الواو لأن تصغيرها نُوَيْرة، والجمع نُوَر وأنوار ونيران، بقلب الواو ياءً بكسر ما قبلها، وليس في الأرض شجرة إلا وتقدح منها النار إلا العنَّاب، وهي على أنواع عند العرب:

- **نار القِرى:** وهي أعظم النيران.
- **ونار السلامة:** توقَد للمسافر إذا قدم سالمًا غانمًا.
- **نار الزائر والمسافر:** وذلك أنهم إذا أحبوا أن الزائر والمسافر لا يرجع إليهم أوقدوا خلفه نارًا وقالوا: أبعده الله وأسحقه.
- **ونار الحرب:** يوقدونها على مكان عالٍ لمن بَعُدَ عنهم.
- **ونار الصيد:** يوقدونها للظِّباء فتغشى أبصارهم.
- **ونار الأسد:** كانوا يوقدونها إذا خافوه، لأنه إذا رآها حدَّق إليها وتأملها، ولم يستطع الهجوم على ما حولها.
- **ونار الحلف:** لا يعقدون الحلف إلا عليها، يطرحون فيها الملح والكبريت، فإذا استشاطت قالوا: هذه النار قد توعدتك.
- **ونار الغدر:** كانوا إذا غدر الرجل بجاره أوقدوا له نارًا بمِنًى أيام الحج وقالوا: هذه غدرة فلان.
- **ونار الفداء:** كانت ملوكهم إذا سَبَت قبيلة وطلب منهم الفداء كرهوا أن يعرضوا النساء نهارًا لئلا يفتضحن.
- **ونار الوسم:** التي يسمون بها الإبل لتُعرف إبل الملوك فتَرِدُ الماء أولًا.

- **ونار الحرَّتين:** كانت ببلاد عبس تسطع من الحرة بالليل، فبعث الله خالد بن سنان، وهو أول نبي بُعث من ولد إسماعيل، وقد قدمتْ ابنته على النبي ﷺ فبسط لها رداءه وقال: بنت نبيٍّ ضيَّعهُ قومه. فحفر لتلك النار بئرًا فأدخلها فيها والناس ينظرون، ثم اقتحم فيها حتى غيَّبها وخرج منها.

وقد بالغ مهيار الديلمي في وصف نار القِرى:

ضَربوا بمَدرجةِ الطَّريقِ خِيامهم — يتقارعون على قِرى الضِّيفان
ويكادُ موقدهم يجودُ بنفسه — حُبَّ القِرى حطبًا على النيران

وقال أبو ظافر البغدادي:

خَطَرتْ فكادَ الوُرْقُ يَخطر فوقها: — إنَّ الحَمَامَ لَمُغْرَمٌ بالبانِ
مِن مَعشرٍ نشروا على هامِ الرُّبى — للطارقينَ ذوائبَ النِّيران

وقال صَرَّدُرُّ:

قومٌ إذا حيَّا الضيوفُ جِفانهم — ردَّت عليهم ألسن النيران

وقال ابن سناء الملك:

لنيرانه في الحيِّ أيُّ تحرُّقٍ — على الضَّيفِ إنْ أبْطَأَ وأيُّ تلهُّبِ

وأين هؤلاء القوم الكرام من الذين يقول فيهم الأخطل:

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبَهم — قالوا لأمِّهم: بولي على النارِ
فتحبسُ البولَ شُحًّا أن تجودَ به — فما تبولُ لهم إلَّا بمقدارِ

لا يخفى ما في هذا البيت الأول من المعايب، وقد أولع الأدباء بجلها وما فيها من المعاني.

وقال مجير الدين بن تميم:

وكأنَّما النار التي قد أوقِدَتْ — ما بيننا ولهيبها يتضرَّمُ
سوداءُ أحرقَ قلبها ولسانها — بسفاهةٍ للحاضرين يكلِّم

وقال آخر:

انـظرْ إلـى الـنـار وهـي مُضـــرمـةٌ   وجـمـرهـا بـالـرَّمـاد مســـتـورُ
شـــبــهَ دمٍ مــن فَوَاخــتٍ ذُبِحَتْ   وفــوقَــه ريشـــهــنَّ مــنـثـورُ

وقال آخر:

كـانـون يُطـفـئ بـرده كـانـونـنـا   مـا بـين ســاداتٍ كـرامٍ حُـذَّقِ
بـأرقـامٍ حـمـر الـبـطـون ظـهـورهـا   ســودٌ تبصــبص بـاللســان الأزرق

وقال ظافر الحداد:

تـأمَّلْ ففي الكـانـون أعـجـبُ مـنـظر   إذا ســرحـت في فحمـه جمرة النـارِ
كـمـا مـثـل الـزق المـروَّق ســاكـب   فـذابَ احمرار الخمر في ذلـك القـار

وقال آخر:

كـأنَّ كـانـونـنـا سَــمـاءٌ   والـجـمـر فـي وَسْـطِـهِ نـجـوم
ونــحــن جِنٌّ بــجــانــبَيْه   والشــَّـرَر الـطـائـرُ الـرجـوم

وقال آخر:

كـأنـمـا دخـانـنـا إذ بـدا   لـعـينِ مَـن يـنـظـره مِـن قـريـب
ذوائــبُ مــن غــادةٍ سُــرِّحــتْ   وقـد بـدا فـيـهـا بيـاض المشـيـب

وقال آخر:

كـأنَّمـا الـنـار فـي تـلـهُّبـهـا   والـفـحـمُ مِـن فـوقـهـا يـلـظِّـيـهـا
زنـجـيَّةٌ شــبَّكـتْ أصــابـعـهـا   مـن فـوق نـارنـجـةٍ تـغـطِّـيـهـا

وقال آخر:

كـأنَّ نضــيـدَ الفحم فوقَ شَـراره   إذا الـنـار مســَّتْ جـلـده فـتـلـوَّنَا

يُذكِّر أيـامَ الســـحـاب الـتـي جـرت تــثــنــيــه لمــا تــأوَّد أغصـــُــنـا

فــأنـبــتَ مــنــهــا الأبَنُوسُ بَنَفْسَـــجًا وأثـمـرَ عُـنَّـابًـا وأورقَ ســَـوســَـنـا

وقال الشيخ صفي الدين الحِلِّي:

إن البحيري منـذ مـا فـارقتموه غـدا يحثـو التراب على كـانونـه الخَرِبِ

لو شـــئتم أنـه يُضـــحي أبـا لهـب جـاءت بِغـالكـم حمَّالـة الحطـب

وقال ظافر الحداد:

كـأنَّ ســـواد الفحـم من فوق جمرة وقد جُمعا فاسـتُحْسِـنَ الضـدُّ بالضـدِّ

غـدائـرُ خـودٍ فـرَّقـتـهـا وقـد غـدتْ على خَفَرٍ من تحتها حمرةُ الخـدِّ

فـلـمَّا تـنـاهـى صـــبـغـه خِلْتُ أنَّه فصـــوصُ عقيقٍ أو جنى زَهَر الورد

إلـى أن حكى بعـد الخمـودِ رمـادُه غُبـارًا من الكـافورِ في قِطع النـد

كتب النصير الحمَّامي ملغزًا إلى السراج الوراق:

ومـا اســـمٌ ثلاثيٍّ بـه النَّفْع والضَّــرَر لـه طلعـةٌ تُغني عنِ الشـــمس والقمرْ

ولــيــس لــه وجــهٌ ولــيــس لــهُ قَفًا وليس لـه ســَـمعٌ وليس لـه بصـــر

يمدُّ لســـانًا يختشـــي الرمحُ بأســـه ويســـخر يومَ الحرب بالصـــارم الذكر

يموت إذا مـا قمتَ تَسْـــقيه قـاصـــدًا وأعجـبُ من ذا أنَّ ذاك من الشـــجر

أيـا ســـامـعَ الأبـيـاتِ دُونَكَ حـلُّهـا وإلَّـا فـنـمْ عـنـهـا ونـبِّـه لـهـا عُمَر

ومن التغزلات اللطيفة بذكر النار قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ:

قـد أودَعُوا القلـبَ لمـا وَدَّعوا سَـــحَرًا فظـلَّ في الليـل مثـل النجم حَيْرانـا

راودْتُه يســـتعيـرُ الصَّـــبرَ بعـدهـمُ فقـال: إنِّي اســـتعرتُ اليومَ نِيرانـا

قال علاء الدين الوداعي:

يـا مـودعًا بـوداعـه فـي مُهـجـتـي نـارًا تـؤجِّـجـهـا يـدُ الـتَّـذكـارِ

أبكيتَ طرفي بعد أدمُعِه دمًا وكذا يكون بكاءُ أهل النار

قال صفي الدين الحِلِّي:

لا غروَ أنْ يَصلَى الفؤادُ ببُعْدكم نارًا تؤجِّجها يدُ التَّذكار
قلبي إذا غِبْتُم يُصوِّر شخصَكم فيه وكلُّ مصوِّر في النار

وأنشدني الشيخ عز الدين الموصلي لنفسه:

يا مقلةَ الحبِّ مهلًا فقد أخذتِ بثارك
وأنتِ يا وجنَتَيْهِ لا تحرقيني بنارك

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة مع منقلٍ أهداه: وينهي أنه تهجم ونقل منقلًا لطيف الصنعة، جليلًا إذا تأمل نفعه، إذا بدت شهب الشرار في ليل فحمه، ولعبت يد الرياح بأزاهر حرمه، فكأنه معدن ياقوت أحمر، أو منبت جُلَّنار يزهر، يروق البصائر والأبصار، ولا يكن فيه على الحقيقة جلنار، ففيه جل نار طالما حمدت معاشرته، ولذَّت في الليالي الشتوية مسامرته، وأطلع من أفقه نجومًا سعيدة القران، وتلا على الريح والثلج: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾، والرأي أعلى في قبول إهدائه، والله يجعل ما في قلبه في قلوب أعدائه.

قرأت في كتاب روضة الجليس ونزهة الأنيس، تأليف الفاضل بدر الدين حسن بن زفر المتطبب الإربلي، حكى عن سليمان بن محمد المهدي الصقلِّي قال: كان بسوسة إفريقية رجلٌ نبيهٌ شاعر، وكان يهوى غلامًا من غلمانها، وقد اشتد كَلَفُه به، وكان الغلام يتجنَّى عليه ويُعرض عنه كثيرًا، فبينما هو ذات ليلة منفرد بشرب الخمر وحده غلب عليه السكرُ وذكر معشوقه، وأجرى بخاطره ما كان يفعله به من التجني، فقام من حينه وأخذ قبسَ نارٍ وجعله عند باب الغلام ليحرق عليه داره، فلمَّا دارت النار بالباب بادر الناس لإطفائها، وقبضوا عليه واعتقلوه، فلما أصبحوا مضوا به إلى القاضي وأعلموه بفعله، فقال له القاضي: لأي شيء أحرقت باب هذا الغلام؟ فأنشأ يقول:

لمَّا تمادى على بعادي وأضرمَ النَّارَ في فؤادي
ولمْ أجد من هواه بُدًّا ولا معينًا على السُّهاد
حملتُ نفسي على وقوفي ببابه حَمْلة الجواد

فطارَ من بعض نارِ قلبي أقلُّ في الوصف من زناد
فأحرقَ الباب دونَ علمي ولم يكنْ ذاك من مُرادي

قال: فاستظرف القاضي واقعته وشعره، ورحمه وتحمل عنه ما أفسده من باب الغلام.

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة في وصف حصارٍ بالنار: فما كان إلا ريثما ابتسمتْ لهم النار عن الموت العابس، وعاملتهم من إعجال وَقودها باليابس، وجاءت بما ينضج ملابس الجلود وجلود الملابس، وعاجلتهم من منفعة الغوث قبل العطب، وأصلتهم نارًا تبَّت بها أيدي الأبراج حمالة الحطب، فإذا بأبدان البدنات القائمة قد قعدت، والأبراج لتلاوة الحرب قد سجدت، فهنالك هجمها المسلمون هجوم الليث الكرَّار، وقطعت ألسنة السيوف المجادلة حجج رقاب الكفار.

وقال القاضي الفاضل في مثله: فولجتِ النار موالج تضيق عنها الكفر، وتعجز عنها الإبر، وخولف المثل في أن السعادة لتلحظ الحجر، وأغنى ضوء نهارها سؤال كل إمَّعة أن يسأل هذا وذاك ما الخبر، إلى أن بدا ضوء الصباح وكأنه منها أمتار، وانشق الشرق فكأنه من عصفرها صبغ الإزار، إلى أن سرى أدى النقوب إلى المقاتل، ودب سكرها بين المفاصل، وغدت الجدران قائمة والبلاء سائر في أعقابها، متجلدة والنار تحت ثيابها.

وقال أيضًا: وقد أحمته إلى أن أحرقته، وصرح الشرك وقد خاضته إلى أن أغرقته، وإن الخندق بركة والبرج لها فوارة، وإن الله أعد للعدو نارًا في الآخرة وأحرقهم في الدنيا بشرارة، وإن العدو تحصن من البرج بكثيب بنفسج، أحرقه الله بجلنار.

وقال سيدي تقي الدين بن حجة في حريق دمشق: هذا وكم مؤمن خرج من دياره حَذَرَ الموت وهو يقول: النجاةَ! وطلب الفرار، وكلما دعاه قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاصطبار، ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

وقال ابن سناء الملك:

يا فالقَ الصُّبحِ مِن لألاءِ غُرَّته وجاعلَ الليل من أصداغه سَكَنا
لا غَرْوَ أنْ أحرقَتْ نارُ الجوى كبدي فالنار حقٌّ على مَن يَعْبُد الوَثَنَا

القول على الطَّبَّاخ

وينبغي أن يكون عند الرئيس والملك طباخ حاذق، إذا لم يشته طعامًا صنع له ما يشتهيه.

وقيل: كل طعام أعيد إلى القِدر فهو فاسد، وكل غناء خرج من تحت السِّبال فهو بارد.

قال بعضهم: كنت جالسًا عند بعض ولاة الطوف وقد جاءه الغلمان برَجُلَيْن، فقال لأحدهما: من أبوك؟ فقال:

أنا ابنُ الذي لا تَنزلُ الدَّهرَ قِدرُه ... وإنْ نزلتْ يومًا فسوفَ تعودُ
تَرى الناسَ أفواجًا إلى بابِ داره ... فهمْ قيامٌ حَوْلَها وقُعودُ

فقال: ما كان أبو هذا إلا كريمًا. ثم قال للآخر: من أبوك؟ فقال:

أنا ابن مَنْ ذُلَّت الرِّقابُ له ... ما بين مخزومها وهاشمها
خاضعةً أذعنتْ لطاعته ... يأخذ مِن مالها ومن دَمِها

فقال الوالي: ما كان أبو هذا إلا شجاعًا. وأطلقهما فلما انصرفا قلت للوالي: أمَّا الأول فكان أبوه يبيع الباقلَّاء المصلوقة، وأمَّا الثاني فكان أبوه حجَّامًا. فقال الوالي:

كُنْ ابنَ مَن شئتَ واكتسبْ أدبًا ... يُغنيك مضمونُه عن النَّسبِ
إنَّ الفتى مَن يقول: ها أنا ذا ... ليس الفتى مَن يقول: كان أبي

قلت: وأنشدني سيدنا ومولانا القاضي شهاب الدين بن حجر — رحمه الله — للشيخ بدر الدين بن الصاحب في مليحٍ يطوف بالفول:

أنا ابن الذي في الليل تسطع نارُه ... كثير رماد القِدر للعبء يحملُ
يدور بأقداح العوافي على الورى ... ويصبح بالخير الكثير يفول

قال محمد بن العفيف في مليحٍ طباخ:

رُبَّ طبَّاخٍ مليحٍ ... فاترِ الطَّرفِ غَرير
مالكي أصبح ولكنْ ... شغَلوه بالقدور

وقال الصفدي:

كَلَفي بطبَّاخٍ تَملَّك مُهجتي ... فعذابُ قلبي في هواه سَرْمَدُ
وكأنَّما أنا منصب قُدَّامه ... نارٌ تشبُّ وزفرةٌ تتصعَّدُ

وقال المعمار:

كلفي بطبَّاخٍ تنوَّع حسنه ... ومِزاجه للعاشقين يُوافِقُ
لكنْ مَخافي من جَفاه وكم غدتْ ... منه قلوبٌ في الصدور خَوافِقُ

وقال أيضًا مواليًا:

هويتُ طبَّاخًا بالصنجة أخذ ميةْ ... حلوَّ المِزاج كأنَّه ابن تركيَّةْ
وله أطارف نواعم بيض زيديةْ ... لها معانٍ على الإخوان مخفيَّةْ

وقال إبراهيم المعمار:

وطبَّاخٍ بمنصبه افتخارٌ ... وقَدْرٌ قد علا في الناس وافي
أياديه على الإخوان مُدَّت ... وكم قلبٍ له بالودِّ صافِ
وكم أمِنُوا به من خوفِ جوعٍ ... سيُعطِي الآمنَ في يوم المَخافِ

وقال بعضهم: ما على الشيخ المسنِّ أضرُّ من أن يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء، لأنه يكثر من الطعام فيسقم، ومن النكاح فيهرم.

دخل ابن الفضل الشاعر يومًا على الوزير ابن هُبَيرة، وكان نقيب الأشراف وكان مبخَّلًا، وكان ذلك في يومٍ شديدِ الحر من شهر رمضان، فقال له الوزير: أين كنت؟ فقال: في مطبخِ سيدي النقيب. فقال له: ويحك! أَيْش عملت في شهر رمضان في المطبخ؟ فقال: كسرت الحر فيه يا مولانا. فتبسم وخجل النقيب.

الفرزدق:

وقدْ عَلِمَ الجيرانُ أنَّ قُدورَنا ... ضَوامِنُ الأرزاقِ والريحُ زَفزَفُ
ترى حولهنَّ المُعْتَقينَ كأنَّهم ... على صنمٍ في الجاهلية عُكَّف

وقال أمية بن أبي الصلت:

وكأنَّها بفنائه للضيفِ مُتْرَعةً زواجر
وكأنَّهن بما شُجْنَ وما حَمِينَ به ضوامر

وقال الفرزدق يهجو ابن عمار:

لو أنَّ قِدرًا بكتْ مِن طولِ ما حُبِسَتْ   على الجفون بكتْ قِدر ابنِ عمَّارِ
ما مسَّها دسمٌ مُذ فضَّ مَدمَعُها   ولا رأتْ بعد نارِ القَينِ من نارِ

الباب الثامن والعشرون

في الأسماك واللحوم والجزور

كتب الوزير المرحوم فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس إلى الشيخ بدر الدين البشتكي رحمه الله، وقد كانوا بمجلسٍ أُنْس بشاطئ الروضة في أيام وفاء النِّيل السعيد، فاتفق أن الشيخ بدر الدين صاد حوتًا عظيمًا بالصنارة، يداعبه: بلغني، رفع الله قدرك على السماك، وأعلى محلَّك وأسماك، وأجرى بسعدك وأمرك في نهر السماء وبحور الأرض الأفلاك، ولا زالت همم نظمك البدرية ونثرك تعلو على النثرة، وفتكات عزماتك الملوكية تسمو إلى صيد نسر السماء من وكره وحوتها من المجرة، ولا برحت تصرف حروف المحاسن فتخدمك من كل محجر عين، ومن كل حاجب نون، ولا فتئت تجمع شمل المعالي إلى أن يفترق الفرقدان ويلتقى الضب والنون:

ويغدو سـهيل في السـماء مصـادق الثُّرَيَّـا، ويصـبو الحوت للسـرطـان

أنَّ مولانا، مع جماله، خلافًا للمعزى أقلق السابح في لجه، وراع كل حوت حتى حوت الأرض في تخومه، وحوت السماء في برجه، وجاور دواب البحر فكان لها بئس الجار، بطعمه الذي أقامه لهم في الحيلة مقام بنجه، فإنه شد وسطه للصيد، وكان من الحزم، وأرسل آلة صيده إلى الأسود والأحمر من أمم البحر فعادت عَوْدَ أولِي العزم، ثم قعد بعد ذلك مولانا للصيد بالمرصاد، وأطاعته حروف النص فكلما تلا لسان البحر نون لسان العزم صاد:

وهي السـعادةُ في السـماك فلوْ تَشَـا لـطـعـنـتَ مـنـهـا رامـحًـا بـالأعـزلِ

فمن ذلك صيد الحوت الذي قدم من أقصى النيل، فيا له من سفر بعيد، وفارق وطنه وورد مع التيار السريع في البحر المديد، فآوى إلى الشط طالبًا غداءه إذ لقي من سفره هذا نصبًا، وركن إلى البر

فليته لو عقل ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، ولم يعلم أن سيدنا وضع الحيل لصيده معنى وصورة وسببًا، فاخترمته يد المنية باعوجاج الصنارة التي نصبها لدواب البحر فخًّا للقهر، والضعيفة التي تعامل أقوياء الأسماك في عظيم البحور السائلة بالنهر، وكان هذا المسكين من صالحي الأسماك الذي أفنى الأيام سحبًا طويلًا فساح، وأتى يقبِّل جدارًا حلَّ فيه قدم مولانا وبركته فجازاه مجازاة التمساح، أو كأنه لجأ إلى البر هربًا من عوارض الأمواج، وأمن بمجاورته فأخذ من مأمنه وخاب أمله من لاج، فسبح بعد بحار الأمن من بحار المنون في لجج، وقالت له الحيتان: إذا أعماك القضاء عن رشدك حدِّث عن البحر ولا حرج.

وكان ظنه أن عومه في البر ينجيه فكان حتفه في ذلك العوم، وعلى الجملة فقد آن أجله، ولو أوى إلى جبل لقيل له: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ﴾، فأتت به حوتًا يلوح بياضه بين هضبات الموج، كالبدر من سجف الغمام، وتبدو عليه مهابة تشعر أنه من نسل حوت يونس عليه السلام، فأعيذ هذا الحوت بالنون، وصائده الكاتب الأديب بالقلم وما يسطُرون، فلقد ظفر بما لا ظفر به الحواريون في شباكهم المشبكة، ووقع له ما لو وقع لابن صيَّاد لتطاولَ عجبًا، وانتفخ حتى ملأ الشبكة، وحصل به للجماعة من السرور ما يحصل بوفاء النيل، وشاهدوا من جزله العظيمة كل خيرٍ جزيل، ومنحوا من سنِّه وعظمه بالجوهر النقي وأنياب الفيل، وأرخصوه للقِرى بعد أن أمسى في القدور يُغلى، وقلوه فطاب مأكلًا وإن كان مما لا يُقلى، ونوَّعوه محلًّى وحامضًا فالمحلى جعلوه نقلًا على الكؤوس حين تُجلى، وفازوا على رأي ابن حزم وإن لم يكن من أصحاب الرأي بالمحلَّى والمجلَّى، والحامض فقطعوا عند أكله بالذوق أن ذلك الحوت مزٌّ لا محالةَ، وقال آخرون: بل هو هالة لتناسب البدور والهالة.

وجمَّلوا به الموائد لصائده بالتقدم على الضفدع الأديب في مصائد الشوارد، وقدموه على ما عندهم من طريٍّ وبائت، وأكلوه من ساعته كي لا يندموا على فائت، قائلين لا تؤخروه فللتأخير آفات، ولا تبيتوه فكل ما بات فات. وبادِرُوا طرواته لعلمهم أنه أطيب ما يؤكل من السمك البوري الطري، واستطابوه ضرورة ولا خلاف أن صائد الحوت أكثر تلذذًا بأكله من المشتري، هذا وأما الأسماك بذلك الشاطئ فقد نادى مناديهم بالرحيل، وقال أديبهم للبنية مصحفًا: يا بثينة، ليس المُقام هنا جميل، فكم فرخ حول وكره مرَّ من هناك وشال، وكم عصبة من السمك صرخت: قاقا، وقطعت الحبال، وكم طائفة من رشادها فرَّت إلى البُرور الخالية من العباد، وكم طائفة تخلَّفت ووقعت في الشباك فقيل: ضلَّت عن سبيل الرشاد، وكم طائفة أسرعت إلى رؤوس الجبال الحركة، وكذبت العروضيِّين في قولهم: لم أرَ على

ظهر جبل سمكة. وكم سمكة قالت لفراخها: اهجروا ماءكم ومأواكم كما هجرت مأواي، وأخلوا هذه الديار وإن أعشبتْ، وابتَغُوا صائب الرأي.

ومنهم من عمل إلى عمق البحر نجاة، وسارت به سفينة عزمه في موجٍ كالجبال وكان سبب النجاة، وتواصَوْا لما رأوْا طغيان الماء أن لا يأووا إلى البُرور، وتحققوا أنه الطوفان لما فار على أخيهم المصاب التنور، وكم قائل: الحمد لله الذي قطع عنا أثر هذا التنور العظيم وأزال عينه. وقائلة: سبحان مَن أراح ضعفاء السمك من هذا الجبَّار وفرَّق بينهم وبينه. فشكرًا إذ غدا مولانا شيخ البر والبحر، وأضحى في نسكه ابن السمَّاك، وفي صدق حديثه أبا ذر، وأمسى ضرع البلاغة مسخَّرًا له فإن جمح لغيره أو أبي در، أحياه الله بدرًا يُشرِق في سماء المعالي، وتحلى أجياد الفصاحة من بحور نظمه ونثره بالجواهر واللَّآلي، وجمل به السماء كما جمل الأرض، ولا جعله كأدباء أهل هذا الزمان الذين هم كالأسماك يأكل بعضهم بالغِيبة لحمَ بعضٍ، بمنه وكرمه.

والسمك بارد رطب يولِّد البلغم، وينفع المحرورين، ويضر بالمشايخ. ودفع مضرته بالفواكه الحارة، والصعتر، والملح. وصغاره بالخل نافع لأصحاب الأمزجة الحارة ومن به يرقان وكبده حارة. والمالح منه حار يابس يولد السوداء ويضر بالمحرور.

فصل في اللحوم

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيِّدُ طعامِ أهلِ الدنيا وأهل الجنة اللَّحْمُ».

وفي حديث آخر: «سيد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم، وسيد الشراب في الدنيا والآخرة الماء».

وقال ﷺ: «اللحم يطيِّب النفسَ، ويُفرِح القلب، ويحسِّن الوجه، ويشدُّ العصب».

وكان محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة عَبْلًا رَخْصَ الأنامل، يكاد الماء يجري بين جلده ولحمه، فقال له أبو حنيفة: ما غذاؤك؟ قال: ما أزيد على الخبز واللحم شيئًا. قال: هذه الشحمة منهما تنعقد، ولحم البقر داء، ولبنها شفاء، وسمنها دواء.

وقالت الأطباء: أحمد اللحمان ما خُصِيَ من الضأن وكان فَتِيًّا، ولا خير في ما أسنَّ. ولحم الضأن نافع من المرة السوداء، إلا أن الممرورين الذين يُصرَعون إذا أكلوه اشتدَّ بهم ذلك، ولحم الماعز يُورِث الهمَّ، ويفسد ويحرِّك السوداء، ويحدث النسيان، ويخيِّل الأولاد. ولحم الدجاج الهرم أضرُّ اللحمان وأغلظها.

وقال أبو حاتم: قال خالد بن يزيد: أطيب الإبل لحومًا الورق، وأطيب البقر لحومًا الصفر، وأطيب الشاء لحومًا الحمر، وأطيب الدجاج لحومًا السود، وأطيب الفراخ لحومًا البيض.

وقال عبد الله بن جعفر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أطيب اللحوم لحم الظهر».

وعنه ﷺ أنه قال: «مَن سرَّه أنْ يقلَّ غيظه فليأكل لحم الدُّرَّاج».

ولما حضرت الوفاة الحارث بن كَلَدة قيل له: أوصنا بما ننتفع به بعدك. فقال: لا تتزوجوا من النساء إلا الشباب، ولا تأكلوا من اللحم إلا الفتيَّ، ولا من الفواكه إلا ما نضج، ولا يتداوينَّ أحدكم بدواءٍ ما احتمل بدنه الداء، وإذا تغدَّيتم فناموا قليلًا، وإذا تعشيتم فتمشوا خطوات.

وقال بختيشوع للمأمون: أوصيك، يا أمير المؤمنين، أربعة أشياء: لا تأكل طعامًا بين نبيذين، ولا تجامع على شبع إلى أن يخلو جوفك من الرياح والنَّجْو، ولا تأكل من لحم البقر، فوالله إني أمرُّ به في الطريق فأغطِّي عينيَّ وعين برذَوْني من شدَّة مضرَّته.

نادرة

قرأتُ في كتاب مُلَح الكنايات ولمح التعريض والإشارات، تأليف جمال الدين يوسف بن مرتفع: مرَّ الفقيه فتح الدين، مجلد الكتب المعروف بنقانق، فوجد الشريف محاسن عريف سوق الكتبيين في دكانه يتغدى، فدعاه للأكل فقال: أي شيء تأكل؟ فقال: شرائح من لحم جمل صغير، فاشتهيت أن آكل منه. فجلس وأكل معه، فنظر إليهما الضياء موسى الناسخ فقال: يا محاسن، احذرْ أن يراك المحتسب فيؤذيك. قال: عَلَامَ؟ قال: لأنك تحشي النقانق بلحم الجمل. فاستحسن ذلك منه.

وفي الحديث: «من داوم على اللحم أربعين يومًا قسا قلبه، ومن تركه أربعين يومًا ساء خلقه».

فصل

كتب الوزير العلامة فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس — سامحه الله تعالى — إلى فتح الدين صدقة بن سعيد بديوان الخاص، وكان المذكور أسود ينحرف من ذكر العبيد والسواد: يقبل اليد الكريمة السيدية الفتحية لا زال فتحها رشيدًا، وفعلها سديدًا، وسعدها جديدًا، وقولها مفيدًا، ومطلعها صبيحًا، ومفلح مقاصدها نجيحًا، وإقبال سرورها مستمرًّا، ورواق العز عليها مستطرًّا، كثَّر الله عبيدها، وألحق مُقتِرها بسعيدها، ويصف ولاءه الذي تشهد به ذاته الكريمة بل السواد الأعظم، وإخلاصه الذي صفا

وده إلى أن عاد كغُرَّة البدر في الليل الأدهم، ويبدي ما يجده إلى مولانا في نفسه من الميل، ويذكر محبته التي لا تتغير ما ولج الليل في النهار والنهار في الليل. ويُنهي أنه يبسط عذر مولانا في تأخير أبقار الأضحية في هذا العهد جعله الله عليه أبرك الأعياد، وشكر من إنعامه بكل كبش ينزل في سواد وينظر في سواد بهذا سواد، ويمشي في سواد، وكيف لا ومولانا إنسان عين الزمان، والمفدَّى بسويداء القلوب من طوارق الحدثان، فأبقاه الله يجرر في ميادين الكرم الذيل، ويستر بحمله سقطات الجهَّال ستر الليل، وعلم المملوك أن المقر الأشرف المالك، قد اقتدى في أضحية المملوك خاصة برأي الإمام مالك، إذ يرى الأضحية بالغنم أفضل، وأن القربى بذبحها أكمل، وأن الله جعل الأبقار لحرث الأراضي ذات الطول والعرض، وأنه خصها من أضحية المملوك بكل ذَلُول تُثير الأرض، فإذا عُوتِب على ذلك قال: نعم، أخلينا بأضحيته في هذا العيد، وقابلناه عن محبته لنا بالحرمان بما لا عنه مزيد، وقطعنا مرتبه من الديوان إذ كان عندنا المخلص ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، ثم تأخذه العزة لأنفة المناصب، ويتذكر عز المطلوب وذل الطالب، فيقول: قد منعنا ما سقنا من هَدي إنعامه إليه، و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، فلو كان الأمر لمولانا مستبدًّا به لبدَّل البقر بكرائم الخيل، وأوضح من فجر إنعامه الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ومحا من ظلم المنع آية الليل، وساقَ — أيَّده الله — ما شاء من البقر إلينا، وأنعم به غير معتذر ولا متعتِّب يقول: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، على أن مولانا إذا لاحظ أنعم كل صفراء فاقعٌ لونها لكن من الذهب العين، وإذا نأى نعق بفراق البقر غراب البين، وإذا شاء أتحف من ضياء إنعامه بكل در نفيس، وإذا أتى يقلع من بحر الظلمات في الريح المريس، فطالما أمست من شآبيب إنعامه مسكوبة، وحركات فضله محبوبة، وألسنة الخوض قائلة: الحمد لله الذي كف عنا النوب بأكف النوبة. والمملوك ما برح كثير المحبة لمولانا من حين شمله بجزيل الإحسان، هاجر مجموع الطير بجملته كرهًا للقائل منها دق قفا السودان.

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي مضمنًا:

بِتنا ضيوفًا لغادةٍ قصدت ... ذبحَ خروفٍ قد طابَ واعتدلا
وحَلَّتْ رباطَ الخروف مُنشِدةً: ... أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلا

وممن ولع بذكر الجزارة الجزور الأديب الفاضل أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار، فمن ذلك قوله:

إنِّي لمِنْ مَعشرٍ سَفْكُ الدِّماء لهم ... دأبٌ وسَل عنهم إنْ رُمتَ تصديقي

تُضـــيء بـالـدم إشـــراقًا عراصـــهمُ		فـكـلُّ أيـامــهــم أيـامُ تشــــريــقِ

وقوله أيضًا:

حُسْـــنُ الـتـأنِّي مـمًّا يُعـين عـلـى		رزقِ الـفـتـى والـحـظـوظ تـخـتـلـفُ
والـعـبـد قـد كـان فـي جـزارتـه		يـعـلـمُ مـن أيـن يُـؤكَـل الـكـتـفُ

أهدى بعضهم إلى صديق له كبشًا في يوم أضحيَّة، وكتب معه رقعة يصف سمنه، فأجاب المُهدَى إليه: وصلتْ رقعتك ففضضتها عن خطٍّ مشرق، ولفظ مؤنق، وعبارة مضيئة، ومعانٍ عربية، واتساع في البلاغة يعجز عنه عبد الحميد في بلاغته، وسحبان في خطابته، وتصرُّف بين جدٍّ أمضى من القدر، وهزل أرق من نسيم السحر، وتقلب في وجوه الخطاب، الجامع للصواب، إلا أنَّ الفعل قصر عنه القول، لأنك ذكرت حملًا جعلته بصفتك جملًا، وكأنَّ المعيدي تسمع به لا أن تراه، وحضر فرأيت كبشًا استقدم الميلاد من نتاج غنم قوم عاد، قد أفنته الدهور، وتعاقبت عليه العصور، فظننته أحد الزوجين الذين جعلهما نوح في سفينته، ليحفظ بهما جنس الغنم لذريته، صغر من الكبر، ولطف عن القدم، فبانت ذمامته، وتقاصرت قامته، وعادنا حلًّا ضئيلًا، باليًا هزيلًا، بادي السقام، عاري العظام، جامعًا للمعايب، مشتملًا على المثالب، يعجب العاقل من حلول الحياة فيه لأنه عظم مجلد، وصوف ملبَّد، لا يوجد فوق عظامه سلب، ولا تقع اليد منه إلا على خشب، لو مرَّ به الكلب لاستجافه، أو طرح للذئب عند الخوى لعافه، قد طال فقده الكلاء، وبعد عهده بالامتلاء، لم يرَ القتَّ إلا نائمًا، ولا الشعير إلا حالمًا، وقد تحيرت بين أن أقتنيه فيكون فيه عناء الدهر، أو أذبحه فيكون جيفة على وجه النهر، فملت إلى استبقائه لما تعرف من محبتي في التوقير، ورغبتي في التثمير، وجمعي للولد، وادِّخاري للعدد، فلم أجد فيه مستمتعًا للبقاء، ولا مرفقًا لقناء، لأنه ليس بأنثى فيحمل، ولا بثني فينسل، ولا بصحيحٍ فيرعى، ولا سيلم فيبقى، فلمت إلى الثاني مِن رأيك، وعملت على الآخر من قولك، فقلت: أذبحه ليكون وظيفة للعيال، وأقيمه رطبًا مقام قديد الغزال، فأنشدني وقد أضرمت النار، وحددت الشفار وشمَّر الجزار:

أعـيـذهـا نـظـراتٍ مـنـك صـــــادقـة		أنْ تَحْسَـبَ الشــحم في من سـمنه ورم

ثم قال: وما الفائدة لك في ذبحي وأنا لم يبق فيَّ إلا نَفَس خافتٌ، ومقلة إنسانها باهتٌ، لست بذي لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمي، ولا جلدي يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمي، ولا صوفي يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصَّت وَبَري، وإن أردتني للوقود فكف بعرافتي من ناري، ولن

تفي حرارة جمري بريح قتاري، ولم يبقَ إلا أن تطالبني بدين حل، أو بيني وبينك دم وحل؟ فوجدته صادقًا في مقالته، ناصحًا في مشورته، ولم أعلم من أي حالَيه أعجب، من مماطلته للدهر من أجل البقاء، أم من صبره على الضر والبلاء، أم من قدرتك عليه مع إعواز مثله، أم من تأهيلك الصديق مع خساسة قدره.

الباب التاسع والعشرون

في السُّفرة والبقول

القول على القرع

ويسمى الدُّبَّاء. قال ابن جزلة في المنهاج: أجوده الرطب الأخضر الحلو، وهو بارد رطب في الثانية. وقال روفس: إنه حار رطب، ويتولد منه غذاء شبيه بما يصحبه، فإن أكِل بالخردل ولَّد خلطًا حريفًا، وإن أكل بالملح ولد خلطًا مالحًا، ومسلوقه يغذو غذاء يسيرًا، وينحدر سريعًا، وهو جيد للصفراويين، وعصارته تسكِّن وجع الآذان مع دهن ورد، وينفع من أورام الدماغ، وسويقه ينفع من السُّعال ووجع الصدر من حرارة، وهو لقطع العطش جيد، ويلين البطن، وإذا دفن في الخمر وشرب مع السكر نفع من الحميات، وهو يفسد في المعدة لمخالطة خلط رديء، ويضر بأصحاب السوداء والبلغم. انتهى.

رافع الأندلسي فيه:

وقَرْعٍ تبدَّى للعيون كأنَّه ... خراطيمُ أفيالٍ لطخن بزِنْجار

الباذنجان

قال ابن النفيس في الموجز: قيل: بارد. وقيل: حار يابس في الثانية. وهو أصح. يولِّد السوداء، والسدد، والسرطان، والجَرَب السوداوي، والبواسير، والصلابة، والجذام، ويفسد اللون ويصفِّره، وينتن الفم. انتهى كلامه.

الوصف: قال ابن المعتز فيه:

وابْذَنْج بُســـــتــانٍ أنــيــقٍ رأيــتــه عــلــى طـبـقٍ يـحـكـي لُمقـلـة رامـقِ
قـــلـــوبَ ظِبـــاء أُفْرِدتْ مِن كُبُودهــا على كـلِّ قلـبٍ منـه مخلـبُ عـاشـــق

وقال ابن رشيق القيرواني:

وإذا صـــــنـــعـــتَ غِذاءنـــا فـــاجـعَـلْــهُ غــيــرَ مُـبَـذْنَــجِ
إيَّاك هـــــامـــــةَ أســـــودٍ عُــريــانَ أصــــلَـعَ كَـوســـَـجْ

وقال صاحب كتاب ملح الممالحة: وكان شيخنا الأسدي يعجبه الباذنجان ويقول في تفضيله: إن الناس يأكلونه ثمانية أشهر من السنة وهم أصحَّاء، ولو أكلوا الرمان ثمانية أشهر فلجوا.

وقيل لرجل: ما تقول في الباذنجان؟ فقال: أنوف الزنج، وأذناب المحاجم، وبطون العقارب، وبِزر الزقُّوم. فقيل: إنه يحشى باللحم فيكون طيِّبًا. فقال: لو حُشيَ بالتقوى والمغفرة ما أفلح!

وقال صاحب المنهاج: أجوده الحلوُ الأوساطِ، والعتيق رديء، والحديث أسلم، ولا يبين ضرره كثيرًا لأنه غذاء مألوف، وهو حار يابس في الثانية، وفيه غلظ، والمر منه حار يابس بلا خلاف، والحديث أقل حرارة، وأردؤه ما أُكِل مشويًّا، وهو ينفع من عرق الدم لشدة رقته، وليس له نسبة إلى إطلاقٍ ولا عقل، ولكنه إن طُبخ في دهن أطلق، وإن طبخ في خل أو سماق عقل، وهو يُحدث وجع الخواصر والمعدة، والعتيق منه ينتن الفم ويولد السوداء والسدد، ويسوِّد البشرة ويولد البواسير، وينبغي أن يُنقَع في الماء والملح ويسلق فيه، ثم يعمل بالدسم الكثير والخل والكراويا.

القُلْقاس

قال ابن جزلة في المنهاج: حار رطب في الأولى، وقيل: إنه معتدل الحر رطب في الثانية. يزيد في الباءة. انتهى.

وللشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في رسالته السجع الجليل في ما جرى من النيل عند ذكر الجزيرة الوسطى: وقد أخلق ديباج روضها الأنف، وترك قلقاسها بمده وجزره على شفا جرف.

بِعَينِي رأيـتُ المـاءَ فيـهـا وقـد جـرى على رأســــه من شـــــاهقٍ فتكسَّـــرَا

طالما تضرَّع بإصبعه إلى ربِّه، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه، وتمثل بقول الأول:

وإنْ سَـألـوكَ يـومَ الـبـيـنِ عن قلبي وما قاسى
فـقُلْ: قاسى وقل: قاسى وقُلْ: قاسى وقل: قاسى

لم يفد تحصنه من ورقه بالدَّرَق والستائر، ولا حَنَّ عليه حين تضرَّع بأصابعه، فصحَّ أن الماء سلطان جائر.

وفي ذلك أقول:

يـا ويحَ قُلْقاسٍ بمصـرَ يقول لي لما اغتدى في غيظه غرقانا:
النيل مثل دمٍ لفرطِ زيادةٍ فلذا برأسي يلطم الحيطانا

السَّلْجَم

وبالشين أيضًا. قال ابن جزلة: هو اللفت، وهو بريٌّ وبستانيٌّ، وهو حار في الدرجة الثانية، رطب في الدرجة الأولى، يغذو كثيرًا، ويولِّد منيًّا، ويدرُّ البول، ولا يُسهِل، ويشهِّي الطعام إذا سلق دفعتين وطُيِّب بالخل والخردل، وماؤه ينفع من الحصر، وفيه غلظ ونفخ، وإن عرض منه ذلك فليتناول بعده بعض الجُوَارِشْنات.

الجَزَر

في المنهاج: أجوده الأحمر الشتوي، وغذاؤه أقل من السلجم، وهو حارٌّ في آخر الدرجة الثانية، رطب في الأولى، يحرك الباءة، ويسهل ويلطف ويدر البول، وهو عسر الهضم منفِّخ، يولِّد ماءً رديئًا، وينبغي أن يكثر إنضاجه، ويُصلح بالمَرِيِّ والخل والخردل. وقال بعضهم:

انظرْ إلى الجَزَر الذي يحكي لنا لَهَبَ الحريقِ
كمُذبَّةٍ من سندسٍ فيها نِصابٌ من عقيقِ

الإسفاناخ

قال ابن جزلة في المنهاج: أجوده الممطور، وهو بارد رطب في آخر الدرجة الأولى، وقيل: معتدل بين الحرارة والبرودة. فهو مليِّن ينفع السعال والصدر، وفيه قوة تجلو، وهو سريع الانحدار عن المعدة، يليِّن الطبع وينفع من أوجاع الظهر الدموية، وهو سيِّئُ الهضم، ويضر أصحاب الأمزجة الباردة.

السِّلْق

قال ابن جزلة: هو صنفان: أسود لشدة خضرته، وأقل لونًا منه. وأجوده العذبُ الطعمِ، وهو حار يابس في الدرجة الأولى، وقيل: هو مركب القوة. وقيل: رطب في الأولى. فيه بورقية ملطفة وتحليل وتفتيح، وفي الأسود قبض، وينفع من داء الثعلب والكلف والحزاز والثآليل إذا طليَ بمائه، ويقتل القمل، وتُطلى به القوباء مع العسل، ويفتح سدد الكبد والطحال، والأسود منه يعقل، وخصوصًا مع العدس المصلوق المهرأ، ويحقن بمائه لإخراج الثفل، وهو ينفع من القولنج مع المري والتوابل، وهو يمغص ويولِّد النفخ، وهو رديء الكيموس، قليل الغذاء، يحرق الدم، ويصلحه الخل والخردل، وأصله رديء للمعدة. انتهى.

وقال ابن زهر في خواصه عن هِرمِس: ورق السلق إذا جُعل في طعام باسم إنسان، وأطعم عمل فيه روحانية المحبة عملًا عجيبًا. وقال ابن زهر: وإنْ رُضَّ السِّلق وعاقر قرحًا، وذرَّ في مجرى ماء الحمام برد وسكن حره. وقال أيضًا: وإن رُضَّ ورقه بدم الحمَام، ودفن في إناء رصاص في زبل أربعين يومًا تولَّد منه دود أخضر أطوالًا، فإذا طبخ بماء السلق وطُليَ به رأس الأقرع أنبت الشعر، وإن شدِّخت الدودة التي تكون في السلق ودفنت في برج حمام أو علقت عليه، لم يقرب البرج شيء من الحيوان الضاري. انتهى.

البصل

في المنهاج: فيه مع الحرافة المقطعة مرارة وقبض، وما كان منه أطول فهو أحرف، والأحمر أحرف من الأبيض، والنيء أحرف من المشوي، واليابس أحرف من الرطب، وأجوده الأبيض الريان، وهو حار يابس في الثالثة، وقيل: إنه رطب في الدرجة الثانية. وقيل: في الثالثة. وهو ملطف يقطع ويجذب الدم إلى خارج البدن، ويزيد في الباءة، وينفع من تغير المياه، ويفتق الشهوة، ويلين الطبيعة، وإذا قطر ماؤه في الأذن ينفع من الطنين، وهو يجلو البصر وينفع من ابتداء الماء والبياض اكتحالًا بعصارته، ويهيج

خروج الشعر، وإذا دُقَّ وعجن بعسل ووضع على الظفر الغليظ والقوابي والبهق قلع ذلك، ويطلى به داء الثعلب، وينفع من عضة الكلب الكلِب سقيًا بشراب، ومن نهش الحيَّات، وهو يصدع الرأس، والإكثار منه يشيب ويضر بالعقل، ويكثِّر اللُّعاب، ويفتح أفواه البواسير، ويصلحه الخل واللبن الحامض أو مع الهندباء.

وقال نصر بن سيار يومًا وحوله بنونٌ له: هؤلاء بنو البصل. لأنه كان يأكل كثيرًا منه فيهتاج.

وقال ابن وكيع:

يحكي لعينك احمرار قشره إذا رآه ناظر بفكره
غلائلًا حمرًا على جسوم بيضٍ رِطابٍ من جسوم الروم

الثُّوم

كذا ذكره صاحب المنهاج بالثَّاء المثلَّثة، منه بستاني، ومنه بري كُرَّاثي، والكراثي مركب القوة من الثوم والكُرَّاث، وهو حار يابس في الدرجة الرابعة، وقيل: في الثالثة. وهو أقوى حرارة ويبسًا من البصل، وهو يحل النفخ، وينفع من تغيير المياه، وطبيخ الجبلي منه إذا شرب قتل القمل، ورماده يطلى به البهق مع العسل، ولداء الثعلب والجرب والقوابي، ويصفي اللون والحلق مطبوخًا، ويخرج العلق من الحلق، وإذا جلس في طبيخ ورقه وساقه أدر الحيض والبول وأخرج المشيمة، وأكله يخرج الديدان ويطلق الطبع، وهو نافع من لسع الهوامِّ ونهشة الحيات وعضة الكلب الكَلِب سقيًا بشراب، وينفع السعال من برد، ويصفي الحلق، وهو مقرِّح للجلد، مصدِّع مضعف للبصر، جالب بثور العين، وإذا طبخ قلَّت حرارته وحرافته، وتصلحه الحوامض والأدهان واللحوم السمان، والثوم دواء لمن أصابه وجع السقي في بطنه، وإذا شويَ ووضع على الضرس المأكول سكنه.

وقال علي بن أبي طالب: أمرنا النبي ﷺ بأكل الثوم وقال: لولا أن المَلَك ينزل عليَّ لأكلته.

وقال بعض الشعراء فيه:

يا حبَّذا ثُومةٌ في كفِّ طاهيةٍ بديعةِ الحُسنِ تَسبي كلَّ مَن نَظَرَا
أبصرتُها وهي من عُجْبٍ تُقلِّبها كصُرَّةٍ من دَبِيقيٍّ حَوَتْ دُرَرَا

الكزبرة

ويقال: كسبرة. منها رطبة ومنها يابسة، وقوَّتها مركبة، والغالب فيها أرضية، أجودها البستاني، وهي باردة في آخر الأولى، واليابسة منها في الثانية، وأبقراط يقول: فيها حرارة وبرودة. وعند جالينوس أنها تميل إلى التسخين. وفيها قبض وتخدير، وهي تزيل روائح البصل والثوم إذا مضغت رطبة أو يابسة، وعصارتها مع اللبن تسكن كل ضربان شديد، وتنفع من الأورام الحارة مع الخل والإسفيذاج، ودهن الورد ومعه العسل للشرى والنار الفارسي، وينفع من الجمرة ومن الدوار عن بخار المرار والبلغم، وخاصيته أن يمنع البخار من الرأس، وكذلك يجعل في الطعام، ورطبه ينفع الرعاف وذرور يابسه، والمضمضة بعصارته رطبة تنفع من القلاع والخفقان، وحرارة ودرهمان منها مع لسان الجمل ينفع نفث الدم، وهو يمنع من القيء والجُشاء الحامض بعد الطعام، والإكثار منه يخلط الذهن، ويظلم البصر، ويخفِّف المنيِّ، ويكسر الباءة، ويصلحه سِكَنْجَبِين السفرجل.

وأمَّا البقل

فما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: البقل حلية الموائد. وفي ما رواه مكحول عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: أحضروا موائدكم البقل فإنها مُطرِدة للشياطين.

ورويَ عن علي رضي الله عنه أنه قال: دخلت مع النبي ﷺ إلى حذيفة بن اليمان، فتلقَّانا بنبات يقال له: الباذَرُوج. فنظر إليه وقال: أهلًا بك من بقلة، ما أطيب ريحك وأحسن منظرك! فإنك لمِنْ رياحين الجنة. ثم نظر إلى الهندباء فقال: يا لك من بقلة، تهضم الطعام وتحيي الفؤاد وتجلو عن النظر!

فائدة منقولة من خط القاضي أمين الدين بن الأنفي المالكي رحمه الله تعالى: قال: ذكر السويدي صاحب التذكرة أن الإمام فخر الدين الرازي ذكر أنه من رأى الهلال أول ليلة وكان موجوع الضرس فقال: نذرت لله أن لا آكل الهندباء ولا لحم الفرس سكن وجع ضرسه ذلك الشهر.

وقال ابن زهر في خواصه: قال يوحنا بن ماسوَيْه: إن دُقَّ أصل الهندباء وضمد به لسعة العقرب سكن الوجع. والبري منه إذا شرب ماؤه مع الشراب نفع من لدغ الأفاعي.

وقال ابن النفيس في الموجز: يابسه يابس في الأولى، ورطبه رطب في الأولى، يفتح سداد الأحشاء والعروق، وفيه قبض صالح يقوِّي المعدة والكبد، أما الحارة فشديد الموافقة لها، وأما الباردة فللخاصية، وتنفع مع الخيار شَنبَر لأورام الحلق، وتنفع الرمد وبياض العين.

وقال بعضهم: المائدة بلا بقل كالشيخ بلا عقل.

الكَرَفْس

حار يابس، يفتح السدد ويدر البول، وهو نافع للمعدة ويبطئ بالهضم، ولذلك يجب أن يقدم قبله طعام يختلط به، وهو يطيِّب النكهة، ويحتاج إلى أكله من يداخل السلطان ومن كان خدمته السر.

وقال ابن النفيس في الموجز: حار في الأولى، يابس في الثانية، يحلِّل النفخ ويفتح السدد، ويسكن الوجع ويطيب النكهة جدًّا، رديء للصرع يهيجه في المصروعين، وينفع السعال والكبد والطحال، والكلى والمثانة، وينفع الاستسقاء وعسر البول، ويفتت الحصاة، ويضر الحبالى لإدراره، ويهيج الباءة.

النعنع

حار يابس، وهو نافع من الفواق. قال ابن زهر في الخواص: إن جُعل من ورق النعنع الثلث، ومن ورق السدس، ومن حب القرع النصف، وجعل في طعام باسم أحد عمل فيه روحانية المحبة.

الطَّرْخُون

في المنهاج: قيل: إن عاقر قرحًا هو أصل الطرخون، وهو جبلي وبستاني، وأجوده البستاني، وهو حار يابس في الثانية، وفيه قوة مخدِّرة. وقيل: إنه بارد وهو مجفف للرطوبات، فإذا مضغ نفع من القلاع، ويمضغ قبل شرب الأدوية الكريهة، وهو يقوي المعدة، ويحدث وجع الحلق، وهو عَسِر الهضم، ويقطع شهوة الباءة ويعطش، ويصلحه الكرفس.

الفُجْل

هاضم للطعام، وبزره نافع من الفواق إذا أكل بالعسل، وإذا شدخ على عقرب ماتت، وإن شرب ماء ورقه نفع من اليرقان الحادث من الطحال.

قلت: ومن منافعه ما جربته وصح أنه إذا مضغ ووضع على العين المحمرَّة من لطم، وكرِّر ذلك، فإنه يزيل الحمرة في الحال.

وقال ابن زهر في خواصه: ورق الفجل معصورًا يؤخذ ماؤه وشيء من نشادر فيلطخ به سلة الحاوي، فتموت الحيات كلها، وورقه يحد البصر، وإن سحق بزره مع كندس متساويين، وطُلِيَ به البهق الأسود في الحمام بالماء الحار والخل، أذهبه. وإن أخذ ماؤه وخلط بالخل والطين، وطلي على لسعة الزنبور، أبرأها.

وقال جالينوس: عصارة الفجل إذا اكتُحِل بها جلت البياض من العين، وإذا خلط ماء الفجل بماء الورد وسخن وقطر في الأذن أذهبَ عسر السمع والطنين منها، وإن دق ورقه وصفِّيَ ماؤه، وأسْعِطَ به صاحبُ اليرقان رأيت عجبًا.

وقال أرسطاطاليس: مما يبيض الشعر مثقال من ورق الملوخيا والفجل، ويعجن بمرارة الثور، ويضمد به الشعر بالليل ويغسل بالنهار، فإنه يصير الأسود أبيض، وإن طلي الوجه بماء الفجل أذهب عنه النمش والكلف، وإن دخن بورقه في بيت هربت منه الهوام.

قال النور الإسعردي يهجو:

أيا مُطعِمًا أصحابه إذ دعاهمُ ... من الفجل في أمراقه غير ما يمري
وحقِّكَ ما أكرمتهم مُذ لَقِيتَهم ... بجَيشِ ضُراطٍ تحتَ راياته الخُضْرِ

نادرة: كان أبو نواس يومًا عند بعض إخوانه فخرجت عليه جارية عليها ثياب خضر، فلما رآها مسح عينيه وقال: خيرًا رأيت إن شاء الله. قالت: ما رأيت؟ قال: رأيت كأني راكب أشهبَ عليه جل أخضر. قالت له: إن صدقت رؤياكَ استدخلتَ في استك فجلة.

الرَّشاد

قال ابن البيطار: إذا شرب بالماء الحار حل القولنج، وأخرج الديدان. وحب القرع إن سحق نيئًا وسُفَّ نفع من البرص، وإن لطخ عليه وعلى البهق الأبيض بالخل نفع منهما، وإذا خلط بالعسل ولعق منه نفع من السعال المتولد عن أخلاط غليظة، وإذا ضمدت به لسعة العقرب نفعها.

زين الدين بن الوردي:

رُبَّ خـــولـــيٍّ بـــدا مـــن حـــيِّـــه وهْـــو يـــنـــادي
مـــن يَمُتْ فـــي بـــقـــل خَدِّي أهـــدِهِ ســـُـــبُـــلَ الـــرَّشـــاد

أنشدني الشيخ عز الدين الموصلي لنفسه ملغزًا:

مـــا اســـمٌ لـــه أحـــرفٌ ثـــلاث تصـــحـــيـــفـــه جـــمـــعـــه يـــقـــلُّ
عِدَّتـــهـــا فـــي الـــحـــســـاب ســـبـــعٌ وإنْ تُـــرِدْ مـــثـــلـــه فـــكـــبـــلُ
إنْ تـــجـــر مـــاءً إلـــيـــه يـــكـــثـــر وإن تـــزد نـــقـــطـــةً يـــقـــل
يَدوِي إذا المـــاء قـــلَّ لـــكـــن يصـــحُّ جســـمًـــا إذا يـــعـــل

الباب الثلاثون

في الخُوان والمائدة

وما فيهما من كلام مقبول

كنية الخُوان: أبو جامع، لاجتماع الناس حوله.

قال الحريري في درة الغواص: ويقولون لما يتخذ لتقديم الطعام عليه: مائدة، والصحيح أن يقال: خوان، إلى أن يحضر الطعام عليه فيسمَّى حينئذٍ مائدة، يدل على ذلك أنَّ الحواريين حين سألوا عيسى عليه السلام بأن يستنزل لهم طعامًا من السماء قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾. ثم بينوا معنى اسم المائدة بقولهم: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

وقال الأصمعي: غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لي، فاستشرت بعض الأخلَّاء فقال: إن كان لفائدة، أو عائدة، أو مائدة؛ وإلا فلا.

وقد اختُلف في تسميتها بذلك فقيل: سميت به لأنها تميد بما عليها، أي: تتحرك، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾. وقيل: بل هي من مادَ، أي: أعطى، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

إلى أمير المؤمنين الممتاد

أي: المستعطى. وكأنها تميد من جوانبها مما أحضر عليها. وقد أجاز بعضهم أن يقال فيها: ميدة، واستشهد عليه بقول الراجز:

ومِيدةٍ كثيرةِ الألوان تَصلُح للجيران والإخوانِ

وقال الكواشي في تفسير سورة المائدة: ولما سأل الحواريون المائدة لعيسى عليه السلام لبس صوفًا وبكى وقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية. فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين من فوقها وتحتها، وهم ينظرون وهي تهوي منقضة حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين! اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة! ثم قال: ليقم أحسنكم عملًا فليكشف عنها وليذكرِ اسم الله تعالى. فقال له شمعون: أنت أولى بذلك منا. فقام عيسى عليه السلام وتوضأ وصلَّى صلاةً طويلة وبكى بكاء كثيرًا، ثم كشف المنديل عنها وقال: بسم الله خير الرازقين. فإذا هو سمكة مشوية ليس عليها فلوسها ولا شوكها، يسل منها الدسم، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكرَّاث، وإذا خمسة أرغفة، على واحد زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. فقال شمعون: أمنْ طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال عيسى: ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، ولكنه شيء افتعله الله بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم يمددكم الله ويرزقكم من فضله. فقالوا: يا روحَ الله، كن أول من أكل منها. فقال: مَعاذَ الله أن آكل منها، ولكن يأكل منها من سألها. فخافوا أن يأكلوا منها، فدعا لها أهل الفاقة والمرضى وقال: كلوا من رزق الله، ولكم الهناء ولغيركم البلاء. فأكلوا وصدروا، وكانوا ألفًا وثلاثمائة ما بين رجل وامرأة، من فقير ومريض، وزمِنٍ ومبتلى، وإذا سمكة كهيئتها حين نزلت ثم طارت المائدة صعدًا وهم ينظرون إليها، حتى توارت، وما أكل منها مريض إلا عوفي، ولا فقير إلا استغنى، وندم من لم يأكل منها، فلبثت أربعين صباحًا تنزل ضحى فيأكل منها الفقراء والأغنياء، والصغار والكبار، والرجال والنساء، حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون في ظلها، وكانت تنزل كناقةِ صالحٍ في الحَلْب، فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي ورزقي في الفقراء دون الأغنياء، فعَظُمَ ذلك على الأغنياء حتى شكُّوا الناس فقالوا: أترون المائدة حقًّا تنزل من السماء؟ فأوحى الله تعالى: إني شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبته ﴿عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. فقال عيسى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية. فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين رجلًا أصبحوا خنازير، فلما رأى الناس ذلك بكوا ورغبوا إلى عيسى، فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف به، وعيسى يدعوهم بأسمائهم، ويشيرون برؤوسهم ويبكي ويبكون، وهم لا يقدرون على الكلام، ثم هلكوا أجمعين.

وما أظرف قول ابن حجاج:

يـــا ذاهـــبًا فـــي داره جـــائـــيًا   بـــغَـــيْـــرِ لا مـــعـــنًـــى ولا فـــائـــدة
قَد جُنَّ أضـــــيـــافُكَ مـــن جُوعِهـــم   فـــاقـــرأْ عـــلـــيـــهـــمْ ســـُـــورةَ المـــائـــدة

قلت الشيء بالشيء يذكر؛ أنشدني الشيخ المحدث الفاضل المفنن الرحال صلاح الدين خليل الأقفهسي نزيل دمشق المحروسة قال: أنشدني الشيخ العارف المحقق المسلك الحكيم برهان الدين إبراهيم الغزيِّ الشهير بابن زقاعة — أعاد الله من بركاته — من لفظه لنفسه:

لَمَّا مـــرضـــــتُ أرســـــلـــتْ   لـــي صـــــِلـــــةً وعـــائـــدةْ
جـــاريـــــةً وسُـــــكـــــرًا   لـــــلأكـــــلِ والمشـــــاهـــدةْ
لِعِلـــــمِهـــــا أنِّي فـــــتًى   أهـــوى الـــنِّـــســـا والمـــائـــدةْ

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي:

أميـلُ لأغصــــانِ القُدُود صـــبـابـةً   وإنْ هـي زادتْـنـي جـفًـا وتَـبـاعُـدَا
ويـعـجـبـنـي بـين الأنـام تـطـفُّـلي   عـلـيـهـا إذا شـــاهـدتـهـنَّ موائـدا

رجع: قال حاتم الطائي لغلامه: قدِّم إلينا مائدة تباعد ما بين أنفاسنا.

قال هدبة بن خالد: حضرت أمير المؤمنين فلما رفعت المائدة جعلتُ ألتقط ما في الأرض، فنظر إليَّ المأمون وقال: أما شبعت يا شيخ؟ قلت: بلى، يا أمير المؤمنين، إنما شبعت في فنائك وفي كنفك، ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أكلَ مِن تحتِ مائدته أَمِنَ مِنَ الفَقْرِ». فنظر المأمون إلى خادم بين يديه فأشار إليه، فما شعرت حتى جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار، فناولني فقلت: يا أمير المؤمنين، وهذا من ذاك.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: من أكل ما سقط من الخُوان رُزِقَ أولادًا كانوا صِباحًا.

وينبغي أن يُصرَف عن المائدة السِّنَّورُ، والكلب، وذو العيون الرديئة من الغلمان، ومن يُعلَم منه الشَّره أو يشبعوا قبل إحضارهم الطعام.

قال النبي ﷺ: مَن أكل وذو عينين ينظر إليه ولم يواسه ابتُلِيَ بداءٍ لا دواء له.

قال التِّيفاشي في سرور النفس: حدثني من حدثه بعض التجار الذين كانوا يردون إلى خدام القصر: فأضافني في حجرة له متصلة بالقصر، فلما حضرت المائدة كان بين أيدينا سنانير كثيرة، فعندما

شاهدوا المائدة وُضعتْ لم يبقَ عندنا منها واحد، ومرَّت كلها خارجة عن المجلس دون طاردٍ يطردها، فعجبت من ذلك كل العجب، فلما انقضى الطعام أحببت أن أعرف العلَّة في ذلك، فسألت الخادم، فأخذ بيدي وأدخلني إلى بيتٍ صغير فيه عدَّة أوانٍ فيها طعام لسنانير مجتمعة عليه تأكله، فقال: عوَّدناها إذا حضر الطعام أن تُطرَد إلى هذا البيت، ويعد لها طعام فيه، فصارت عادة لها.

واتفق في أمر الكلب وحضوره بالمغرب واقعة عجيبة، وذلك أنه كان بمدينةٍ من بلاد المغرب حمَّال يحمل في السوق، فأتى من حمله ذات يوم فاشترى زلابية وهريسة في صفحة، وصعد بها إلى سطح السوق يأكلها، فتبعه كلب فجلس إزاءه وهو يأكل، فجعل كلما شال لقمة إلى فيه يتبعها الكلبُ ببصره حتى يبتلعها الرجل، ثم صار يرفع اللقمة ويومئ بها إلى الكلب على سبيل العبث به، فيقرب الكلب منه ليأكل اللقمة فيزجره، فلم يزل دأبه ذلك إلى أن بقيت لقمة واحدة فروَّغها في الدهن وأومأ بها إلى الكلب، ثم ألقاها في فمه فمضغها وابتلعها، والكلب محدِّق نحوه، فلما صارت اللقمة في حلقومه والكلب يشاهدها نازلة إلى بطنه، فوثب عليه وقبض على حلقومه، فاستلَّ الحلقوم واللقمة، فأكلهما وخر الرجل ميتًا.

عبد العزيز بن المهذب:

لله دَرُّ غلامٍ جاء يخدمنا ... بسُفرةٍ من رفيع القُطنِ قَوْراءِ
بدائرٍ أزرقٍ مِن حَولِ دوزنها ... تَحارُ فيه وفيها مُقلةُ الرَّائي
كأنَّها روضةٌ خضراءُ مزهرة ... وحولَها جدولٌ من أزرقِ الماء

ومن التحف النفيسة ما ذكره القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف، أنه أصاب عطية بن مرداس الكلابي لما ملك الرحبة في سنة اثنين وخمسين وأربعمائة وحاز جميع ما كان ادَّخره أبو الحارث رسلان البساسيري من مالٍ وغيره، ومما كان وجد ببغداد من الخليفة أبي جعفر عبد الله القائم، ومن ذخائر بني العباس حين خلعه ونهب داره في سنة خمسين وأربعمائة، وجد فيها مائدة فيروزج بحوافٍ مكللة بالجواهر لا قيمة لها ولا قدر يُعرف مما انتقل إلى بني العباس من ذخائر الأكاسرة.

كتب البرهان الغزولي النحوي الإسكندري صحبة ملاعق أهداها للصاحب زين الدين بن الزبير:

لمَّا بعدتم وكاد اليأسُ يُقصِينا ... مِن نَيْلكم ودنتْ منَّا أمانينا

بِتنـا علـى سَـــغْبِ الآمـالِ فـي ظمـأٍ | والشـــوق ينشـــرنـا طَوراً ويطوينـا
ثم اســـتنبنا تحياتِ الســـلامِ عســـى | تـعـود مـنـكـم تـحـيَّـاتٌ فـتُـحْـيِـيـنـا
وقـد بـعـثـت لـكـم مـمـلـوءةً قُبَلًا | مثـلَ الأيـادي الـتـي أَعْيَـتْ أيـادينـا
مســـتطعمـات طعـامًـا من مطـاعمنـا | وافتكم بلســـانِ الحـال تحكينـا

ومما يكتب على سفرة الأكل:

أَلَا كُلْ هـنـيـئًا ولا تـحـتشـــمْ | فـمـا الاحـتشـــام فِـعـالُ الـكـرَم
فـمـا الـجـود والـفضـــل إلا لَمَن | تـفضـــَّل إلـيـنـا بـنـقـل الـقـدم

الخبز وما ورد فيه

قال ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: أكرموا الخبز. قيل: وما إكرامه؟ قال: لا تنتظروا به الإدام؛ إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره.

وقال محمد بن خلاد: كان الحسن بن رجاء يقول: السميد طعام الملوك، والحُوَّارى طعام الخواصِّ، والخُشْكار طعام العامة، والشعير طعام الزُّهَّاد.

وكان حميد لا تخلو مائدته من مائة رغيف سميد، في كل رغيف رطلان، وكان خبزه موصوفًا ببغداد كأنه المرايا المجلوَّة بياضًا وحسنًا، وربما يُرى فيه شَعر اللحية لشدَّة بياضه.

وقال أحمد بن أبي دؤاد: قال لي المأمون يومًا: ما جمال الموائد؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، كان يقال: جمالها كثرة الخبز عليها. فقال: أصبت وأحسنت.

فإذا اختلفت الألوان وكان الخبز كثيرًا شهد لصاحبها بالشرف.

قال الأصمعي: كان الرشيد يأكل يومين متواليين خبزَ السميد، والثالث الحُوَّارى، والرابع الخُشكار، والخامس والسادس خبز الأرزِّ النقي من خبز التنور، وكان يقول: الأرز غذاء صحيح.

قال بعض الأطباء: الخشكار فيه بعض الحرارة، وهو أسرع انحدارًا من المعدة لأجل النخالة التي فيه، لأن فيه جِلاء للمعاء، وهو يولِّد الحكة، وأكله بالإدام الدهن يدفع ضرره، والخبز الخمير أحمد الخبز وأوفقه وأمرؤه، والفطير بطيء الانهضام يولد الرياح، وخبز التنور أغذى وأنفع، والخبز الملول وخبز الطابق ثقيلان ضارَّان، والخبز السميد المعتدل الخَبْز يخصب الجسم ويجدد السدد، وأكله

بالإسفيذاج أو الطباهجات المالحة يصلحه، وكان جبريل بن بختيشوع لا يُؤْثر على الحُوَّارى شيئًا ويقول: هو الواسطة.

ورويَ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: هو خبز البُرِّ وماء القراح والظل.

قال العتبي عن أبيه: قال: خرج أبو سفيان في جماعة من قريش وثَقيف يريدون بلاد كِسرى بتجارة لهم، فلما ساروا قال أبو سفيان: إنَّا لعلى خطر من قدومنا على ملك لم يأذن لنا بالقدوم عليه، فأيُّكم يذهب بالعِير فإن أصيب كان علينا دمه وإن يغنم فله نصف الربح؟ فقال غَيلان بن سلمة الثقفي: أنا أمضي في العير. وكان أبيض طويلًا جَعدًا، فلما وصل ديار الملك لبس ثوبين أصفرين وشهر نفسه، وقعد بالباب حتى أذن له، فدخل على الملك وهو جالس في شباك ذهب، فقال له الترجمان: يقول لك الملك: ما أدخلك بلادي بغير إذن؟ فقال: لست من أهل عداوة الملك، ولم أك جاسوسًا، وإنما حملت تجارة؛ فإن أرادها فهي له. قال: فبينا هو يكلمه إذ سمع صوتًا فخرَّ ساجدًا، فقال له الترجمان: يقول لك الملك: ما أسجدك؟ فقال: سمعت صوتًا مرتفعًا حيث لا ترتفع الأصوات، فظننته صوت الملك فسجدت. قال: فشكر الملك ذلك له، وأمر له بِمرفَقة توضع تحته، فرأى فيها صورة الملك فوضعها على رأسه، فقال الحاجب: الملك يقول لك: إنما بعثناها لك لتجلس عليها. فقال: قد علمت، ولكن رأيتها وعليها صورة الملك فوضعتها على أعظم أعضائي. فقال له الملك: ما طعامك في بلادك؟ قال: خبز البر. قال: هذا عقل الخبز. ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها، ورجع في أمن وسلامة.

وقال أبو الحسن الجزَّار في الخبز:

قسمًا بلوح الخبز عند خروجه	من قرنه وله الغداة فخارُ
ورغائفٌ منه تروقك وهي في	سحب التُّفال كأنها أقمار
من كل مصقول السَّوالف أحمر الـ	ـخدَّين للشونير فيه عذار
وكأنَّ باطنه بكفِّك درهم	وكأنَّ ظاهر لونه دينار
كالفضة البيضاء لكن يَغتدِي	ذهبًا إذا قويتْ عليه النار

وقال ابن الرومي في الرقَّاق:

لا أنسَ لا أنسَ خبَّازًا مررتُ به	يدحو رُقاقته كاللَّمح بالبصرِ

ما بين رؤيتها في كفِّه كرةً وبين رؤيتها قَوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يُلقى فيه بالحجر

وله في الزلابية:

يلقي العجين لجينًا من أنامله فيستحيل شبابيكًا من الذهب

المأموني في الكماج:

عندي للأكل إذا ما قمتُ للتَّسحُّرِ
مَلتوتةً بسمنها وسمسمٍ مقشَّرِ
مثل البدور الطالعا ت في شطور الأشهرِ
أو أوجه الترك إذا أثر فيها الجدَري

وقال بعضهم وأجاد:

خبز شعيرٍ بغير أُدَم عندَ فقيرٍ من الكرامِ
ألذُّ عندي من ألف لونٍ عند غنيٍّ من اللِّئام

وقال مجير الدين بن تميم:

وكأنَّ أرغفةَ الخُوان وحولها بقلٌ تهشُّ إليه نفس الآكلِ
وجْنات غيدٍ صفِّفت وجميعها يبدو بها خطُّ العذار الباقل

غريبة: ذكرها الحافظ العلامة المؤرخ عماد الدين بن كثير في تاريخه، في ترجمة الوليد بن عبد الملك، ورواها الحافظ ابن عساكر بإسناد رجاله، وكلهم ثقات، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبيه قال: خرج الوليد بن عبد الملك يومًا من الباب الأصغر فرأى رجلًا عند المئذنة الشرقية يأكل، فوقف عليه فإذا هو يأكل خبزًا وترابًا، فقال له: ما يحملك على هذا؟ قال القنوع: يا أمير المؤمنين. فذهب إلى مجلسه ثم استدعى به فقال له: إن لك لشأنًا فأخبرني به وإلا ضربت الذي فيه عيناك. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، كنت رجلًا جمَّالًا، فبينما أنا أسير في مرج الصُّفَّر قاصدًا الكسوة، إذ زرَّمني البول، فعَدَلْتُ إلى خربة لأبول، فإذا سرب فحفرته، فإذا مالٌ صبيب، فملأت منه غرائري ثم انطلقت أقود برواحلي،

وإذا بمخلاة فيها طعام فألقيته منها، وقلت: سآتي الكسوة. ورجعت لأملأ تلك المخلاة فلم أهتدِ إلى المكان بعد الجهد في الطلب، ثم رجعت إلى الرواحل فلم أجدها، ولم أجد الطعام، فآليت على نفسي أن لا آكل إلا خبزًا وترابًا. قال: فهلْ لك عيال؟ قال: نعم. ففرض لهم في بيت المال.

قال ابن جابر: وبلغنا أن الرواحل سارت حتى أتت بين المال فتسلَّمها خازنه فوضعها فيه.

الباب الحادي والثلاثون

في الوكيرة والأطعمة المشتهاة

الوكيرة: طعام البِناء، كان الرجل إذا فرغ من بنائه أطعم أصحابه يتبرَّك بذلك.

قال النبي ﷺ: الوليمة في أربع: في عرس، أو خرس، أو إعذار، أو توكير.

قال الشاعر:

خـيـرُ طـعـامٍ شَـهِدَ الـعشـيـرة　　　الـعـرس والإعـذار والـوكـيـرة

قال الشيخ محيي الدين النواوي — رحمه الله — في شرح مسلم في كتاب النكاح: قال أصحابنا وغيرهم: الضيافات ثمانية أنواع: الوليمة للعرس، والخُرس (بضمِّ الخاء المعجمة) للولادة، وقيل فيه: الخرص بالصاد المهملة أيضًا؛ والإعذار (بكسر الهمزة والعين المهملة والذال المعجمة) للختان، والوكيرة للبناء والنقيعة لقدوم المسافر يصنع الطعام وقيل: يصنعه غيره، والعقيقة يوم سابع الولد، والوَضِيمة (بفتح الواو وكسر الضاد المعجمة) الطعام عند المصيبة، والمأدُبة (بضم الدال المهملة) الطعام المتخذ ضيافةً بلا سبب.

قال صاحب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: ولما كمل بناء القصر الأبلق الذي أنشأه السلطان الملك الناصر لسكناه بقلعة الجبل المحروسة، عمل وليمة عظيمة حضرها الغني والفقير من كبير وصغير، وخلع على الأمراء التشاريف على قدر مراتبهم، وأنعم عليهم بالبِدر من الأموال، وكانت عدة الخلع التي خلعت ألفي خلعة وخمسمائة، والمال المطلق مائة ألف دينار من العين المصري، وذلك سنة أربع عشرة وسبعمائة.

وقرأت في بعض المجاميع الأدبية أن الفتح بن أبي حصينة المعري — رحمه الله — امتدح نصر بن صالح بحلب فقال له: تمنَّ! فقال: أتمنى أن أكون أميرًا! فجعله بحلب مع الأمراء ويُخاطَب بالأمير، وقربه وصار يحضره في مجلسه في جملة الأمراء، ثم وهبه أرضًا بحلب قِبَلي حمام الواساني، فعمرها دارًا وزخرفها وقرنصها، وتم بنيانها وكمل زخارفها ونقش على دائر الدرابزين:

دارٌ بنيناها وعشنا بها   في نعمةٍ من آل مرداسِ
قومٌ محوا بؤسي ولم يتركوا   عليَّ للأيام من بأس
قل لبني الدنيا: ألا هكذا   فليصنعِ الناس مع الناس

قال: فلما انتهى العمل بالدار عمل دعوة، وأحضر نصر بن صالح بن مرداس، فلما أكل الطعام رأى الدرابزين والدار وحسنها وحسن بنيانها ونقوشها، وقرأ الأبيات. فقال: يا أمير، كم خسرت على هذه الدار؟ فقال: والله يا مولاي، ما للملوك علم، بل هذا الرجل وليَ عمارتها. فلما حضر المعمار قال: كم لحقكم غرامة على بناء هذه الدار؟ فقال المعمار: غرمنا ألفي دينار مصرية، فأحضر من ساعته ألفي دينار مصرية وثوب أطلس، وعمامة مذهبة وحصانًا بطوق ذهب، وسرج ذهب، ودفع ذلك جميعه إلى الأمير أبي الفتح وقال له:

قلْ لبني الدنيا: ألا هكذا   فليصنع الناس مع الناس

قلت: وما أحسن ما ضمن هذا البيت سيدي القاضي شهاب الدين بن حجر يمدح سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن الدماميني المالكي رحمهما الله:

نسيتُ أنْ أمدحَ بدرَ العُلا   فلم يدع بِرِّي وإيناسي
قل لبني الدنيا: ألا هكذا   فليصنع الناس مع الناس

حكيَ أن ابن البطريق — واسمه عليٌّ — حضر عنده السراج بن البجلي، ناظر دار الضرب والجيش في بغداد، في وليمة عملها لأجل دار عمَّرها، فلما خرج من عنده اجتمع بالوزير نصير الدين أحمد بن الناقد فسأله: أين كنت؟ قال: في وليمة ابن البجلي. فقال الوزير: قيل لي: إن داره مليحة. فقال: نعم، وقد عملت فيها:

دارُ السِّراجِ مليحةٌ   فيها تصاويرٌ بِمُكْنَةْ

تَحــكـــي كـــتـــابَ كَلــيـــلـــةٍ فـــمـــتـــى أراهـــا وَهْـــيَ دِمْـــنَـــةْ

ومن الدعوات المشهورة دخول عبد الله بن المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، وكانت النفقة في يوم ملاكها وعرسها، قال ابن عبدوس في سنة عشر ومائتين ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم، وقيل: خمسين ألف ألف درهم، في جملة الجرايات على ستة وثلاثين ألف ملاح، ووصل المأمون في قُوَّاده وحشمه، وكان يجري في كل يوم لأخيها ألف ألف درهم، وكساه وأقطعه فم الصلح، وكانت غلته ثمانين ألف دينار في السنة، وبلغت نفقة أبيها في هذه الوليمة أربعين ألف ألف درهم، وبلغت نفقة الحسن بن سهل على قواد المأمون وحملتهم فأوصلهم وخلع على الخاصة خِلَعًا قيمتها سبعون ألف ألف درهم، وجلبت بوران على المأمون وقد فُرِشَ لهم حصيرٌ من الذهب، وجاءت جدة بوران بمكتل من ذهب مرصَّع بالدر والجوهر، فيه در كبار، فنُثر على من حضر من النساء، وفيهن أم جعفر وحمدونة بنت الرشيد وغيرهما، فلم يمسسنَ منه شيئًا، فقال المأمون: شرِّفْنَ أم محمَّد وأكرمنها. فمدت كل واحدة يدها وأخذت حبة، وبقي سائر الدر يتدحرج على حصير الذهب، فقال المأمون: قاتل الله ابن هانئ، كأنه رأى ما نحن فيه حيث قال:

وكـأنَّ صُـــغـرَى وكُبـرى مِن فَوَاقِعِهَا حَصْــبـاءُ دُرٍّ على أرضٍ من الـذهـبِ

ونثرت أم الفضل بن سهل جدة بوران عليها يوم دخل بها المأمون ألف درة في صينية ذهب، وأُوقد في تلك الليلة على المأمون شمعةُ عنبر وزنها أربعون منًّا، ونثر في مِلاكها كل شيء له قدر من الكراع، والرقيق، والكسى، والصياغات، والطيب، والضياع، والعقار، والجواهر، والدنانير، والدراهم. وكانت أسماء كل هذا تثبت في رقاع وتلقى، فمن التقط رقعة مضى إلى الخازن الذي لذلك الصنف فأخذه منه، وكان عند الحسن بن سهل أربعون بغلًا مرتبة لحمل الحطب، تضرب كل يوم عدة دفعات أقامت تنقل سنة كاملة، ولم يكفهم حتى قطعوا سعف النخل رطبًا وصبوا عليه الدهن والزيت وأوقدوه.

وحكى القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في ترجمة الآمر بأحكام الله أبي عليٍّ المنصور، في المجلد الرابع والعشرون منه: أن الآمر بالله بينا هو في موكبه قبلي بركة الحبش إذ تقدَّمهم، فمرَّ برجلٍ على بابِ بستانٍ له وحوله عبيد وموالٍ له، فاستسقاه ماءً فسقاه، فلما شرب قال: يا أمير المؤمنين، قد أطمعتني في السؤال، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكرمني بنزوله لأضيِّفَه. فقال: ويحك، معي الموكب! فقال: وليكن، يا أمير المؤمنين. فنزل فأخرج الرجل مائة

بساط، ومائة نطع، ومائة وسادة، ومائة طبق فيه فاكهة، ومائة جام حلوى، ومائة زبدية أشربة سكريَّة كلها، فبُهِتَ الآمر وقال: أيها الرجل، خبرك عجيب! فهل علمت بهذا فاعتدت له؟ فقال: لا والله، يا أمير المؤمنين، وإنما أنا رجل تاجر من رعيَّتك لي مائة حظيَّة، فلما أكرمني أمير المؤمنين بنزوله عندي أخذت من كل واحدة شيئًا من فرشها وبعض أكلها وشربها، ولكل واحدة في كل يوم طبق فاكهة، وطبق طعام، وطبق بوارد، وجام حلوى، وزبدية شراب.

فسجد الآمر شكرًا لله وقال: الحمد لله الذي جعل في رعايانا من تسع حاله هذا! ثم أمر له بما في بيت المال من الدراهم ضَربَ تلك السنة، فكان ثلاثة آلاف ألف وسبعمائة ألف، ثم لم يركب حتى أحضرها وأعطاها للرجل، وقال: استعنْ بهذه على حالك ومروءتك. ثم ركب وانصرف.

ولما زوَّج الحجاجُ محمدَ بن الحجاج قال: لأصنعنَّ طعامًا لم يسبقني إليه الأولون، ولا يدركه الآخرون. فقيل له: لو بَعثتَ إلى المدائن فسألت كيف صنع كسرى، فتعمل على مثال ذلك. فأرسل إلى بعض من أدرك ذلك فقال: أخبرني عن الطعام الذي صنعه كسرى. فقال: ما أكثر ما كان يصنعه من الطيبات! قال: أطيبَه. قال: حين تزوج هند ابنة بهرام كتب إلى عمَّاله في الآفاق ليقدم عليَّ كلُّ رجل منكم ويخلف والي شرطته على بلده، فرأى عنده اثني عشر ألفًا، فأطعمهم في ثلاثة أيام، كلَّ يوم ألفَ خوان، يقعدون على بُسِط الديباج المنسوجة بالذهب ووسائد الديباج المنسوجة بالذهب، وكلما أكلوا أُتيَ كل واحد منهم بمثقال مسك، فيغسل يده به، فلما قاموا بعث بتلك الآنية والبسط فقُسِّمتْ عليهم.

فقال الحجاج: أفسدت عليَّ لعنك الله! اذهبوا فاشتروا الجُزر فانحروها في مربعات واسط، وكان قد أمر بالنداء بالحضور فحضرها الناس، وذلك في أشد الحر وكثرة الذباب، فاستغنى أهل الدعوة من المراوح ولم يجدوا ذبابة واحدة، وكان قد عمد إلى المرافق التي في المجالس، فنصب فيها حجارة الثلج، وكانت الريح تفضي إليها من باذهنجات فيخرج نسيمها إلى المجالس والصحون، وسئل عن عدم الذباب فقيل: إنه اشترى قبل الدعوة من دور الجيران ما يمكن شراؤه واستعار الباقي، وطلى حيطانها بعسل قصب السكر، فاشتغل الذباب به وانقطع عن داره، فلما انقضت أيام الدعوة ردت جميع الدور إلى أربابها.

وعلى ذكر الذباب فلا بأس بإيراد نكتة غريبة وموعظة عجيبة، وهي أن الحاكم الذي كان خليفةً بمصر وادعى أنه من ولد فاطمة، وبنى المسجد الجامع بالقاهرة المُعِزِّيَّة المجاور لباب الفتوح، فسدَّ حاله في آخر أمره وادعى الإلهية، وكتب: بسم الحاكم الرحمن الرحيم، وجمع الناس للإيمان به، وبذل

لهم نفائس الأموال، وإن ذلك كان في فصل الصيف والذباب يتراكم على الحاكم، والخُدَّام تدفع الذباب ولا يندفع، فقرأ بعض القُرَّاء، وكان حسن الصوت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. فاضطرب الحاضرون لسماع هذه الآية حتى كأنَّ الله تعالى أنزلها تكذيبًا للحاكم في دعوى الإلهية، وسقط الحاكم عن سريره خوفًا من أن يُقتل، وولى هاربًا، وأخذ في استجلاب ذلك الرجل إلى أن طمأنه وسيَّره في صورة رسول إلى بعض الجزائر، وأمر الربَّان أن لا يسير به غير ثلاثة أيام ويغرقه، فلما غرق رُئيَ في المنام فقيل له: ما وجدت؟ فقال: ما قصر معي الربان، أرسى بي على باب الجنة.

رجوع: ومن الهمم الملوكية والنخوة العربية والنفوس الأدبية، ما ذكره الثعالبي في كتابه لطائف المعارف، عن جميلة بنت ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان، أنها حجَّت سنة ستٍّ وستين وثلاثمائة، فصار عامُ حجها مثلًا وتاريخًا، وذلك أنها أقامت من المروءة، وفرقت الأموال، وأظهرت من المحاسن، ونشرت من المكارم ما لا يوصف بعضه، عن زبيدة وغيرها من حاجات بيت الخلافة والملك، ولا عن الخلفاء والملوك والحاجِّين. وهو ما ذكره الثقات أنها سقت جميع أهل الموسم السويق بالسُّكَر الطبرزدِ والثلج، وكانت قد استصبحت البقول المزروعة بمراكن الخَزَف على الجِمال فضلًا عمَّا سواها، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين من رجَّالة الحاج، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، واستصبحت فيها شموع العنبر في مدة مقامها بمكة، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومائتي أمة، وأغنت المجاورين بالصِّلات الجزيلة، وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب، وكان معها أربعمائة عماريَّة لا يُدرى في أيتها هي.

ومن قصتها أنها لما رجعت إلى بلدها الموصل وضرب الدهرُ ضرباته، وكان ما كان من استيلاء عضد الدولة فَنَّاخِسْرُو على أموالها وحصونها وممالك أهل بيتها، أفضت بها الحال إلى كلِّ قلة وذلة، وتكشفت عن فقر مُدقِع، وكان فنَّاخسرو خطبها لنفسه فامتنعت من إجابته ترفُّعًا عنه، فاحتقد عليها، وحين وقعت في يده اقتصَّ بها، وما زال يُعنِّف بها في المطالبة حتى عرَّاها وهتكها، ثم ألزمها أحد أمرين: إمَّا أن تصحح بقيَّة ما وقفت عليه من المال، وإما أن تختلف إلى دار القِحاب فتكتسب فيها ما تؤديه من مال مصادرتها، فلما ضاق بها الأمر وأشرفت على الفضيحة، انتهزت فرصة من غفلة المتوكلين بها، وغرَّقت نفسها في دجلة، رحمها الله تعالى ولا آخذها.

ومن ظريف الأخبار أن زوجة المحسن بن الفرات أرادت إعذار ابنها بعد قتل أبيه، فتعذرت عليها النفقة، فرأت المحسن في منامها فذكرت له ذلك، فقال: إنَّ لي وديعة عند فلان الدين عشرة آلاف دينار، فانتبهت وأخبرت بالقصة، فسألوا الرجل فاعترف بها وحمل المال إليها.

واتخذ الحجاج وليمةً اجتهد فيها واحتشد، ثم قال لزاذان فروخ: هل عمل كسرى مثلها؟ فاستعفاه، فأقسم عليه فقال: أَوْلَمَ عبد عند كسرى، فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، في يد كل واحدة إبريق من ذهب. فقال الحجاج: أفٍّ، والله ما تركتْ فارسُ لمن بعدها شرفًا.

قلت: ذكرت بقوله: أولم، ما أنشدنيه من لفظه لنفسه سيدي المقر المجدي ابن مكانس:

قال خِلِّي لحبيبي: صِلْ فتًى فيك قد أضحى معنًّى مغرما
قال: هل يولم إن واصلته؟ قال: إن فاز بثغرٍ أولما

وأول من ضيَّف الضيف، وأطعم المساكين، وقص شاربه، وقلم أظفاره، واستحد واستاك، ورأى الشيب، وفرَّق شعره، وتمضمض واستنثر، واستنجى بالماء، واختتن بالقَدُّوم، ولبس السراويل، وأسس المحجوج — أي بنى أساس البيت الحرام — خليل الله ونبيه ورسوله أبونا إبراهيم الخليل، عليه أفضل الصلاة والسلام.

قيل: ما خلا مضيفه إلى يومنا هذا من ضيف قط. وقيل له ﷺ: بمَ اتخذك الله خليلًا؟ قال بثلاث: ما خُيِّرت بين شيئين إلا اخترت الذي لله على غيره، وما اهتممت بما تكفَّل الله لي، ولا تعشَّيتُ إلا مع ضيف.

ما أحسن قول صفوان بن إدريس في من اسمه إبراهيم:

أسَمِيَّ مَن سَنَّ القِرى رفقًا بمَن يَفنى عليكَ صبابةً وغراما
أنا ضيفُ حبِّك فاصْطَنِعْنِي إنَّه ضيفُ الهوى يَستوجبُ الإكراما
أفنيتَ جسمَ الصَّبِّ شوقًا مثلَمَا أفنى سَمِيُّكَ قبلَكَ الأصناما
يا زهرةً سكنتْ فؤادي غَضَّةً إنِّي تبوَّأتُ اللَّهيب كماما
حتَّى كأنَّ الحبَّ قال لأضلعي: يا نارُ كن بردًا له وسلاما

وكان الحسن بن قَحْطَبة مِضيافًا، له مطبخان، في كل مطبخ سبعمائة تَنُّور، هكذا نقل عنه الزمخشري.

وحدَّث عمر بن شبة قال: كان الحجاج يطعم في كل يوم على ألف مائدة، على كل مائدة سمكة مشوية سمينة، وجنبٌ مشوي، وساقِيان يسقي أحدهما اللبن والآخر العسل، وكان يُطاف به على كرسيٍّ فيقول: يا أهل الشام، مزِّقوا الخبز الرقيق كي لا يعاد عليكم.

وقال الجاحظ: كان كسرى ينصب في كل يوم ألف مائدة، على كل مائدة فخذ حمار وحش، وبيضة نعامة، ومن سائر الأصناف التي توجد في البر والبحر، والسهل والجبل، حتى لا تخلو الموائد من سائر الأطعمة.

كان النبي ﷺ يجيب الوليمة، ويجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب، ويكافئ عليها، ولا يتأنَّق في مأكل، ويَعصِب على بطنه الحجر من الجوع، وآتاه الله مفاتيح كنوز الأرض فلم يقبلها، واختار الآخرة، وأكل الخبز بالخل وقال: «نِعمَ الإدام الخل». وأكل الدجاج ولحم الحُبَارى، وكان يأكل ما وُجد ولا يرد ما حضر، ولا يتكلف ما لم يحضر، ولا يتورع عن مطعم حلال، إن وجد تمرًا دون خبز أكله، وإن وجد شواء أكله، وإن وجد خبز بُر أو شعير أكله، ولا يأكل متكئًا ولا على خوان، ولم يشبع من خبز بر ثلاثًا تباعًا قط، حتى لقي الله عز وجل، إيثارًا على نفسه لا فقرًا ولا بخلًا.

وكان يحب الذراع من الشاة والدباء، وأكل خبز الشعير بالتمر، والبطيخ بالرطب، والقثاء بالرطب، والتمر بالزبد، وكان يحب الحلوى والعسل، وكان يشرب قاعدًا وربما شرب قائمًا، ويتنفَّس ثلاثًا مبينًا للإناء، ويبدأ بمن عن يمينه إذا سقاه، ويشرب لبنًا، وقال: «من أطعمه الله طعامًا فليقل: اللهمَّ بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه. ومن سقاه لبنًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، وإذا رفع الطعام من بين يديه قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وآوانا وجعلنا مسلمين». وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهن.

قال بعض الكرماء: من ألطاف الله تعالى بالكريمِ أنه يسامح المسافرَ بالفِطر في رمضان، فلولا ذلك لخجل الكريم، إذ يمر عليه ضيف فيعتذر من أكل طعامه بالصوم.

وأين هذا من قول بعض البخلاء وقد سئل ما الفرَج بعد الشدة فقال: أن تدعو الضيف فيعتذر بالصوم.

وكان معن بن زائدة إذا أراد أحدٌ من غلمانه أن يرضى عليه بعد الغضب الشديد بادر إلى شيء من طعامه فوضعه في فيه بحضوره.

ووقفتُ في أخبار عمارة الشاعر اليمني قال: كنت هجوت ابن دخان وهو يومئذ صاحب ديوان المطبخ، فشكاني إلى السلطان شاور فأعرض عنه، ثم شكاني ثانيةً فأعرض عنه، ثم شكاني ثالثة فالتفت إليه وهو محرج وقال له: ما تستحيي من أن تشتكي إليَّ رجلًا يأكل معي على طعامي في كل يوم وليلة؟ قال عمارة: فلم أشعر إلا وقد حضر ابن دخان إلى داري ليلًا وحمل إليَّ راتبي إلى آخر السنة.

وحكى بعضهم قال: كنا عند الشيخ الزاهد الورع أبي العباس بن تامِتِّيت نفع الله به، فقدَّم لنا طعامًا فأكلنا، فقال بعض الجماعة: يا سيِّدي، قد أسأنا الأدب وأكلنا بغير إذن. فقال الشيخ: فإذًا، لا ترفع يدك إلا بإذن.

نادرة

نزل ضيف على بخيلٍ في ليلة وكان جائعًا، فقدَّم له طعامًا فأتى على آخره ولم يغادر منه شيئًا، فحلف البخيل أن لا يبيت الضيف عنده. فقال الضيف: يا أخي، اصبرْ عليَّ إلى الفجر! فقال: لا ولَيالٍ عَشْر! فقال: أما سمعت أن الضيافة ثلاث؟ فقال البخيل: لا وحقِّ الواحد، لا يبيت عندي ثلاثًا مَن يأكل بالخَمْس في السبعة، ولو كان له فضل من أُوتِيَ تسع آياتٍ بيِّنات وحُسْن من سجد له أحد عشر كوكبًا! فخرج الضيف وقال: كيف جمع زوجُ الثَّكلَى هذه الأفراد على الترتيب!

وكان لعبد الله بن جدعان جَفْنة يأكل منها الطعام القائمُ والراكب، فوقع صبي فيها فغرق فمات.

وذُكِرَ أنَّ عطية بن صالح بن مرداس طبخ في بعض ولائمه تسعمائة خروف مصرية سوى ما طبخ من الألوان.

قال علي بن الأعرابي: قال الحجاج لرجل يومًا وهو على خوانه وكان عليلًا: ارفقْ بيدك. فأجابه على الفور: وأنت يا حجاج، فاغضض بصرك. فقال له: إن هذا الجوابُ المسكت.

قال أعرابي: مما يزيد في طيب الطعام مؤاكلة الكريم الودود.

حثَّ رجل رجلًا على الأكل من طعامه فقال: عليك تقريب الطعام، وعلينا تأديب الأجسام.

وقال علي رضي الله عنه: إذا طرقك إخوانك فلا تدَّخر عنهم ما في المنزل، ولا تتكلف ما وراء الباب، وإذا طرقت فما حضر، واذا دعوت فلا تذر.

قيل لحكيم: أي الأوقات أحمد للأكل؟ قال: أمَّا من قدر فإذا اشتهى، وأما من لم يقدر فإذا وجد.

وقال جعفر بن محمد: تبيَّن محبَّة الرجل لأخيه بجَوْدة أكله في منزله.

نزل الشافعي بمالك رضي الله عنهما، فصبَّ بنفسه الماء على يده وقال: لا يَرُعْكَ مني ما رأيتَ، فإنَّ خدمة الضيف فرض.

وكان الشافعي رضي الله عنه نازلًا بالزعفراني ببغداد، فكان الزعفراني يرقم كل يوم في رقعةٍ ما يطبخ من الألوان، ويدفعها إلى الجارية، فأخذها الشافعي يومًا وألحق بها لونًا آخر، فعرف ذلك الزعفراني فأعتق الجارية سرورًا بذلك.

نادرة

رويَ عن أبي العباس المبرَّد قال: ضاف رجل رجلًا فأطال المقام حتى كرهه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن يعلم مقدار مقامه عندنا؟ فقالت: ألقِ بيننا بشرٍّ حتى نتحاكم إليه. ففعلا فقالت المرأة: بالذي يبارك لك في غدوك غدًا، أيُّنا أظلم؟! فقال: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرًا، ما أعلم.

قيل: ويقبح على الكريم أن يغتاظ على غلمانه بحضور ضيوفه، وكذلك إذا أبطأ طباخه بالطعام.

حُكي أنَّ بعض قُوَّاد ابن طُولون حضر سِماطه يومًا وعليه قَباء خفتان منزَّل بفضة، فجاء بعض غلمانه عَجِلًا فانكبَّ على القَباء من الطعام، فما قدر أحد منا يجيبه، ففهم تخوَّفَ الغلام وانقباض الجماعة مما رأوه، فرفع طرفه إلى الغلام وقال: يا شيطان، قد فهمت غرضك، لا شك أنك استحسنت القباء، اذهب به فهو لك. فسرِّي عن الغلام وجميع من حضر.

نادرة

قيل لبنان الطفيلي: كم عدد صحابة رسول الله ﷺ يوم بدر؟ فقال: ثلاثمائة وثلاثة عشر رغيفًا.

وكان نقش خاتمه: ما لكم لا تأكلون.

ونظر طفيلي إلى قوم ذاهبين فلم يشكَّ أنهم ذاهبون إلى وليمة، فقام وتبعهم، فإذا هم شعراء قد قصدوا دار السلطان بمدائح لهم، فلما أنشد كل واحد منهم شعره وأخذ جائزته، لم يبقَ إلا الطفيلي وهو جالس ساكت، فقيل له: أنشد أنت. فقال: لست بشاعر. قيل: فمن أنت؟ قال: مِن الغاوين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. فضحك السلطان وأمر له بمثل جائزة الشعراء.

كان مسلم بن قتيبة لا يجلس لحوائج الناس حتى يشبع من الطيِّب والطعام، ويروى من بارد الماء، ويقول: إن الجائع ضيق الصدر، فقير النفس، والشبعان متسع الصدر، غني النفس.

وقال ابن الأعرابي: كان المحسن الضبي في الشرف من العطاء، وكان ذميمًا، فقال له زياد ذات يوم: كم عيالك؟ قال: تسع بنات. قال: فأين هنَّ منك؟ قال: أنا أحسن منهن وهنَّ آكَلُ مني. وقال: جاد ما سألت لهم! وأمر له بأربعة آلاف دينار.

وكتب كسرى أنوشروان باللؤلؤ على مائدةٍ من الذهب: ليهنه طعام من أكله من حلِّه، وجاد على ذوي الحاجات من فضله، ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته، وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك.

نادرة

حكى الهيثم بن عدي قال: ماشَيتُ أبا حنيفة في نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة، وكان مبخلًا، وتواصينا على أن نعرِّض بالغداء، فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال أحدنا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾. وقال آخر: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾. وقال آخر: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾. قال: فتمطَّى المريض وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾. فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال: قوموا، فما لكم هنا من فرج.

كان بعض مفاليس الكتَّاب في دعوة، فلما أخذِت الكأس منه قال: أنتم عندي غدًا. فلما أصبح حدثه غلامُه ما بدا منه، فسُقِط في يده وأخذ يعنِّف غلامه كيف لم ينبههم على إفلاسه وسوء حاله، والغلام يعتذر عن ذلك بإشفاقه من عربدته لو أطلعهم على ذلك، إذ دق قوم الباب فقال لغلامه: عليَّ بالدَّواة والقرطاس. وكتب إليهم: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾. فلما قرؤوا رقعته عرفوا عذره وتفرَّقوا عنه.

نادرة أيضًا

قيل: تغذَّى رجل مع بعض الرؤساء فقدَّم إليه جَدْيًا، فجعل يُمعن فيه، فقال له الرئيس: إنك لتمزِّقه حتى كأنَّ أباه نطحك! فقال له: وأنت تشفق عليه حتى كأن أمه أرضعتك. فخجل وانقطع.

عمر بن هبيرة: عليكم بمباكرة الغَداء، فإن في مباكرته ثلاث خصال: يطيِّب النكهة، ويطفئ المرة، ويعين على المروءة. قيل: ما إعانته على المروءة؟ قال: أن لا تتوق النفس إلى طعام غيرك.

فصل في الأطعمة المشهورة ومضارها ومنافعها

السِّكباج: حارة معتدلة الرطوبة، تنفع الكبد الصفراوية، وتولد دمًا صالحًا، وتقوِّي الشهوة، وتحبس البطن، وهي بلحم البقر نافعة لمن ينحدر إلى معدته مِرار كثيرة، وقال بعضهم: السكباج في البطيخ بمنزلة الفالوذج في الحلوى. وقال الصولي: كان بعض الصوفية يقول: أول من عمل السكباج آدم، ولذلك استوى في استطابتها ملوك ولده وسوقتهم. وكنيتها أم القِرى لأن طعامها من أجلِّ الأطعمة، وأم الشيء معظَّمُه وجليله، وأم القرآن الحمد، وأم القُرى مكة، وأم الشيء أجله.

المدقَّقات: حارة رطبة، مخصبة للبدن، تولد دمًا معتدلًا، لا يحتاج لمن ضاق عليه الاستفراغ بالجماع وعرض له من الأحداث النفسانية ما يبلبل الهضم كالهم والفزع والغم، لأن جوهر اللحم أنحل أكثره في المرق، ولهذه الحال يخفف عن الهضم، وهي من أطعمة المخمورين صالحة لهم جدًّا.

النرجسية: حارة رطبة، تزيد في الباءة، تولد غداء كثير، وهي مضرة بالصفراء، مكروهة لمن يعتاده الغثيان ولأصحاب المعدة الحارة لتغطيتها، وأكلها مع الحوامض صالح، وهو غذاء شهي موافق لأهل الرياضة والقوة، وكثرة البيض فيها صالح، وهي من الألوان المأثورة الموصوفة.

الجزورية: حارة رطبة، تحرك الباءة، وتدر البول، وأصلح ما كانت باللحم السمين والخل والمري والخردل.

ابن سكرة الهاشمي في جزوريَّة:

أكلت بالأمس جزورية ... تُخبِر عن خِسَّة أربابها

اللَّحمُ فيها أثرٌ دارس ... كأنَّما مرَّ على بابها

الحِصرَميَّة: باردة يابسة، وأجودها ما عُمِل بالماء العتيق العذب، والذي يعمل بالحصرم الطريِّ يولِّد رياحًا في المعدة، لأنَّه ثمرة فجَّة لم تنضج، ويختار فيها استعمال اللوز المر لتعديل يُبسها وتحسين منظرها.

السُّمَّاقيَّة: باردة يابسة أيضًا.

الرُّمَّانيَّة: كذلك، ولها فعل في تقوية المعدة، وينفعان من نزف الدم، ومن أحبَّ تعديل الطبع فيهما فليلقِ فيهما الإسفاناخ والسِّلق.

التُّفَّاحيَّة والرِّيباسِيَّة: أيضًا متناسبان في البرد واليبس، نافعان لأصحاب المزاج الصفراوي والأكباد الحارة والمعتدلة الضعيفة، يُكرهان لأصحاب القَوْلَنْجِ، وهما مضرَّتان بالعصب والمفاصل والمنيِّ والباءة.

الزِيرَباج: معتدلة الحرارة، نافعة الكبد دمًا معتدلًا، وهي مسكِّنة لحدَّة الأخلاط، مفرحة للقلب، وللناس فيها مذاهب، وأحمدها السهلة المائعة الوَرسيَّة، وبعضهم يختارها ردعية بالزعفران خثرة جدًّا، وبعضهم يتخيرها ساذجة بيضاء، وهذه أقل حرارة، وأحسن منظرًا، وعلى تصرف أحوالها فهي سليمة الغذاء، صالحة للمرضى والأصحاء.

المَضِيرَة: باردة معتدلة الرطوبة، قامعة للصفراء، تولد غذاءً بلغميًّا، واستعمال حلواء العسل بعدها صالح، وهي من الألوان المستحبَّة المأثورة، ويُختار عملها بالفراخ الجبيلة، فإنها أوفق لها من سائر اللُّحْمان، وللبصل فيها معنى خلاف سائر الطبيخ. وكان بشَّار بن بُرد الأعمى يقول فيها: ما أظن في الطعام أطيب من بصلة مضيرة، لأني ما سبقت البصراء إليها قطُّ ولا هم يؤثرون بها. ويُستحبُّ تقديمها في الصحون الزُّرْق أو ما شاكلها، وتكره لها الصحون البيض، ويراه بعضهم قبيحًا ويعده من سوء الاختيار. وكان أبو هريرة رضي الله عنه تعجبه المضيرة جدًّا، فيأكلها مع معاوية، فإذا حضرت الصلاة صلَّى خلف عليٍّ رضي الله عنه، فإذا قيل له في ذلك شيء قال: مَضيرةُ معاوية أدسم، والصلاة خلف عليٍّ أتم. فقيل له: شيخ المضيرة.

حكى ابن شكلة الكاتب: إنَّ صَرَّدُرَّ امتنع من حمل ما طُلب منه، واحتمل غليظ المكروه، وكان يؤتى بطبقٍ فيه طعام فرأى يومًا مضيرة في صحن أبيض فقال: عليَّ بدواة وقرطاس. فكتب ما طلب منه وقال: أقعد حتى يقدم إليَّ مضيرة في صحن أبيض. وهذا ما لا يكون أبدًا.

القَلايا: حارة معتدلة اليبس، تُختار للذين تجتمع في معدتهم البلاغم لتقطيعها، لا سيما إذا عُملت بالأبازير الحلوة، وهي باعثة للشهوة، مهيِّجة لذي النَّهْمة.

المُهَلَّبِيَّة: أول من اتخذها بنو المهلَّب فنسبت إليهم، وهي من الألوان المستحسنة المستلذَّة، تحفظ الصحة، وأحمدها منفعةً السلسة، والانعقاد بالدجاج الحديث السمان والعسل الخالص الذهبي والسكر النقي، وهي معتدلة الحرارة والرطوبة، تغذو غذاءً صالحًا، إلا أنها مضرة بالصفراء، وتُدفَع مضرتها بالحصرمية قبلها.

الأرزُّ باللَّبن: قال محمد بن خلاد: كان كثير من رؤساء العراق يقدمون في أول الطعام الأرز باللبن والسكر المنخول، ثم يتبعونه ما شاءوا إيثارًا له على غيره. وكان الحسن بن سهل يفضِّله على كثيرٍ من المطعم ميلًا إلى رأي المأمون فيه، وقال له: إنه يزيد في العمر يا أمير المؤمنين. قال: من أين قلت هذا؟ قلت: لأن الأطباء زعموا أن الأرز يولد أحلامًا صحيحة، فإذا صحت الأحلام فهي من زيادة النوم على اليقظة، لأنَّ النوم موتٌ واليقظة حياة.

الشِّواء: قال أبو عبيدة: العرب تقول: الشواء رئيس الطعام. يقال: مر الفرزدق بالأحوص فقال له: اقترح يا أبا فراس. فقال: شواء وطلاء وغناء. فقال: ادخل فقد أُعِدَّ لك.

والشواء حار رطب، وأجوده المستوي على الماء مثل شَيِّ الرؤوس، فإن ذلك يكسبه فضل ترطيب ونِضاج ويلطفه.

الكَباب: بفتح الكاف، هو اللحم المشروح، وأجوده ما شُرِّح اللحم تشريحًا خفيفًا، ونثر عليه الملح، ونصب له مقلى على النار بلا دسم، وطرح عليه، وقُلِّبَ من جنبٍ إلى جنب حتى ينضج ويحمرَّ، هذا الكباب الخالص بعينه، وهو الذي كان يُعمل ليحيى بن خالد ولولده، وفيه يقول أبو الفتح البستي:

عليكَ إذا انْجابَ الدُّجَى بِكَبابٍ ... وعَقِّبْهُ مُرتاحًا بكأسِ شَرابِ
فلمْ يفتَحِ الأقوامُ بابًا إلى المُنى ... كبابِ شَرابٍ أو كَبابِ كَبابِ

الخَيطِيَّة: تخصب الجسم وتغذوه، وتزيد في الباءة.

الكِشْك: قال جالينوس: أبوان كريمان أنتجا لئيمًا.

الطُّطْماج: عَسْر الهضم من أجل أنه من خبز فطير، فهو يزلق في المعدة، وإصلاحه الثوم، ويؤكل بعجه النعنع، ويشرب نبيذًا صرفًا قويًّا، وعسلًا مطبوخًا بأفواه، إلا أن يكون محرورًا فلا يُحتاج إلى ذلك.

المُلوخِيًّا: غليظة لزجة باردة، الإكثار منها يضر بالمرطوبين والمبلغمين، وإصلاح ضررها أن تطبخ بلحوم الغزلان لخفَّته وحرارته، أو مع الحَجَل، أو مع الفراخ النواهض، أو الفراريج السرخسية، فإنْ لم يتفق فتُلقَى فيها الشرائح الجافة المدخَّنة أو التَّنُّورية عند خروجها من التنور، وكذلك الباذنجان المقلي، يلقى عليها ويكمَّر ساعة، ثم تؤكل، وماء الليمون يلطِّف غِلْظها، ويقطع لزوجتها، ولا يصلحها إصلاحًا تامًّا إلا هو، وإذا قطع ورقها الأخضر ووضع على لسعة الزنبور نفعها، وطبيخ ورقه ينفع حرق النار، وفيه أكثر منافع الخطمي، وهي فرع منه، وذُكر أنها قديمًا لم يكن لها ذكر ولا قدر ولا

تصريف في مدينة ولا في إقليم، إلا بعد ثلاثمائة وستين سنة مضت من الهجرة النبوية، بمصر خاصة، وكان السبب في ذلك أن المعز باني القاهرةِ لما دخل مصر استبوأها، واختلف عليه الهواء الذي كان يعهده بإفريقية ورطوبته لمجاورته البحر، فأصابه يبس، واستولت عليه أمراض حادة، فتدبر له أطباء مصر قانونًا من العلاج من جملته الغذاء بالملوخيا، فوجد لها نفعًا بيِّنًا في التبريد والترطيب، وأقلع عنه معظم ما كان يجده من الأعراض الرديئة التي سببها اليبس والحرارة، فأدمن أكلها فأبل من مرضه ووقعت منه بموقع عظيم، وأمر بإصلاحها له ولخواصه حتى سميت الملوكيَّة، وبلغ من اعتنائهم بها أنهم كانوا يجففونها ويطبخونها مجففة السنة كلها، وكان باكورها إذا دخل القصر يكون ذلك اليوم موسمًا عظيمًا، ويُعطى مُهديها عطاءً جزيلًا.

مما ورد من المنظوم والمنثور في هذا الباب: كتب الشيخ جمال الدين بن نباتة يتشكر من بعض الرؤساء، وقد أهدى له خروفًا مشويًّا: وشكر الله إحسان مولانا الذي وصل فأوصل إلى القلب جبره، وإلى الكف بِرَّه، وإلى الفم كل شحمة كأهداب الدِّمَقس المفتل، وكلَّ فلذة صفراء تسر ناظر المتأمل، فما أحسن ما ملأ ذلك الجود فمه وعينيه، وتلقاه المملوك قائلًا هذا الشرف الذي ينطح النجوم بروقيه، لقد أربى تواتر هذا البر على ما في النفس، ولقد جددت هذه الهدية فخرًا حتى كأنما أُهدِيَ له حمل البروج على طبق الشمس، ولقد آن أن تَثْأَرَ من الدهر وتنتصف، ولقد عرف رجاءه من أين يُؤكل الكتف، فإنه الكرم الذي لا يُحيل الآمال على سَوْف، والفضل الذي أضاف المملوك وآواه فأطعمه من جوع وآمنه من خوف، لا برح مولانا يحيي مآثر آبائه الأولى، ويقيم سُنَنَ قِراهم التي هي على الدهر كالحلى، ولا زال يفتخر فيقول عزمه: أنا طلاع الثنايا. ويقول بِشره: أنا ابن جلا. وقال ابن وكيع فيه:

خروف لو أَشارَ إليه وهمٌ ... تَقَطَّرَ جلده بالشحم يَجري
لِبَاطنه قميصٌ من لُجَينٍ ... تَسَرْبَلَ فَوقَه بقميصِ تِبْرِ

وما أحسن ما كتب به ابن خروف النحوي إلى ابن اللهيب وكان قد دعاه:

دعاني ابنُ لهيب ... دُعاءً غيرَ نَبيه
إنْ سِرتُ يومًا إليه ... فوالدِي في أبيه

نادرة

قُدِّم إلى أبي علي الفارسي النحوي شواء غير نضيج فقال: هذا لم تعمل فيه العوامل.

قدِّم إلى الفاضل في دعوة خروف مشوي فقال: هذا من البهائم التي علمت. يريد قوله ﷺ: «لو تعلم البهائم ما تعلمون من أمر الموت ما أكلتم منها سمينًا».

قيل إن سليمان بن عبد الملك كان نهمًا على طعامه، وأنه كان يلف على يده بفاضل كمه ليتناول به الكلى من بطون الحملان وهي في شدة الحرارة، ولا يمهل حتى تبرد، وقد ذكر ذلك الأصمعي في أيام الرشيد لما وُجدَ سفط فيه ثياب مذهَّبة ثمينة وأكمامه مبتلة بالدهن في ذخائر بني أمية والقصة مشهورة.

وَصَفَ جَحظة دعوةً حضرها فقال: أُتِينَا برغفانٍ كالبدور المنقَّطة بالنجوم، وملحٍ كالكافور السحيق، وخلٍّ كذوب العقيق، وبقل كاخضرار العِذار، وحمل من الفضة جسمه، ومن الذهب قشره، وفي جوفه أرز مدقوق بالسكر، ثم جاءنا غلام بشراب ألذ من ذكره، وأطيب من روحه، وأصفى من ودِّه، وأرق من لطفه، وأذكى من عرفه، وأعذب من خلقه، وأشهى من قربه.

سيف الدين المشد في دجاجة مشوية:

دجاجة صفراء من شَيِّها ... حمراء كالورد من الوهج
كأنَّها والجمر من تحتها ... أُتْرُجَّة من فوق نَارَنْج

وما أظرف قول الشيخ زين الدين بن الوردي:

لي شهوتان أحبُّ جمعهما ... لو كانتِ الشهوات مضمونةْ
أكبادُ عُذَّالي مدقَّقة ... ومفاصل الرُّقَباء مدفونةْ

نادرة

مرض ابن تقليَّة المغني وأشرف على الموت، فجاء إليه ابن الصاحب يعوده فقال له: أَيْش حال التقليَّة؟ فقال: ما أخوفني تبقى مدفونة.

وقال كشاجم يصف مائدة وما عليها:

ومِن فـراريـجٍ بـمـاءِ الـحِصـرَمِ ... تَصـلُحُ للمَحموم أو للمُحتَمي
قـد شـويـت أكـبـادهـا بـبـيـضٍ ... فـهـي كـمـثـل نـرجـسٍ بـروضِ
وجـاءنـا فـيـهـا بـبَيـض أحـمـر ... كـأنَّـه الـعـقـيـق مـا لـم يُـكسـر
حـتـى إذا أتـى بـه مـقشَّـرًا ... أبـرز مـن تـحـت الـعـقـيـق الـدُّرَرا
كـأنَّه إذ حـاز أوصـاف المُلَح ... أعـاره تـلـويـنـه قـوسَ قُـزَحْ
وجـاءنـا بـراضـعٍ لـم يـعـتـكـف ... كـأنَّ قـطـنًـا بـين جـنـبـيـه نـدف
وجـاءنـا فـيـه بـبـاذنـجـان ... مـثـل قـدود أُكَـرِ المـيـدان
إذ قـارن الـهـلـيـون بـالمـمـازحـة ... تَـقـارُنَ الـكُـرات بـالصـوالـجـةْ

وقال ابن القُطَّاع في البيض:

اسـمع عن البيض وصـفَ مضـطلع ... بـالوصـفِ مـاضـي الجنـان نِحرير
بـنـادق الـتِّبـر غَشِـيـت ورقًا ... أو مشـمش في صـِحـافِ كـافور

الوداعي:

تـفضَّـل فـرُّمَّانـيَّة الـعـبـدِ آيـة ... ومِن حُسـنها يلتـذُّ تَكرارهـا القـاري
فقـد ذاب من طول انتظـارك لحمهـا ... وشـوقًـا إلى لُقيـاكَ ظلَّـت على النـار

ابن تميم:

ولـمْ أنـسَ إذ بَيَّتُّ لـيـلًا هـريسـةً ... وبـتُّ لـخـوفِ الـنـار أحـمـلُ همَّـهـا
فلما دنـا الإصـبـاح بـادرتُ مسـرعًا ... لأكشـفَ من غَمِّي وأكشـفَ غمَّـهـا
فصـادفتها في جاحم النار قد عصـت ... فلم أسـتطِع خوفًا من الحرِّ شـمَّـهـا
ومـا أنـا في شـكٍّ بـأن لو بـدا بهـا ... فُـتورٌ لـغـيظي كنـت آكـل لـحـمـهـا

السراج الورَّاق:

وأحـمـقَ أضـافَنـا بـبـقـلـة ... لـنسـبـةٍ بـيـنـهـمـا ووصـلـةْ

فمَن أقلُّ أدبًا من سفلة قدَّم في وجه الضيوف رِجلَهْ

وله أيضًا:

ومغمومات رؤوس باكرتنا بطيب شذًا ولا طيبِ العروس
ونبَّهنا لها الظامي بلَيلٍ حكى لون المسوح على القسوس
فقمنا مائلين له وقلنا: يقلُّ له القيام على الرؤوس

وله:

أتيت أرجِّيه في حاجة فلم تنبعث نفسه الجامدة
وفتَّل في ذقنه والنفوس تعافُ المفتَّلة الباردة

وقال ابن نباتة:

يا سيِّدي عطفًا على عصبة أفكارهم للقمح محميَّةْ
قد طُبختْ بالشوق أحشاؤهم فيا لها طبخة قمحية

كتب الصلاح الصفدي إلى ابن نباتة وقد كان أهدى له ابنُ نباتة بِسِلًّا:

ظننتَ العبدَ عن مصرٍ تَسَلَّى فأهدى جودَكَ الوافي بِسِلًّا
نَعَمْ قد أذكرْتني عَيشَ مصر وإقبالًا من الدُّنيا تَوَلَّى
طعامٌ فوقَه لحمٌ شهيٌّ إلى كلِّ النُّفوس فكيفَ يُقلى
ودُهنٌ فوقَه قد كان صَبًّا تَلَظَّتْ نارُه حتَّى تسلَّى

المعمار في المجون:

وصاحبٍ جئتُ إلى داره فلمْ أجدْ بالبابِ مَن يَحرُسْ
دخلتُ للدارِ على غفلةٍ وجدته متَّكئًا ينعسْ
فقال: ما تبغي؟ فقلت: القِرى منك فإنِّي جائعٌ مُفلسْ
فجادَ لي بالدُّهن من رأسه وجادت المرأة بالكُسْكُسْ

مطاعم شهيَّة وملاذٌّ ملوكيَّة

سأل الوزير أبو نصر بن أبي زيد أبا منصور بن سعيد بن أحمد اليزيدي، وكان من أبناء الأمراء والسادة بالبصرة، على ما يحبه ويتشهاه ويختاره من أطايب الأطعمة الملوكية، فقال: قشور الدجاج الفتيَّة المسمَّنة المشويَّة، والسكباجة النمامة، التي يُجمع فيها ما بين لحم البقر والغنم، ثم ينفى عنها لحم البقر، وتُحلَّى بالطَّبَرْزَد، وتُطيَّب بالعنبر والهريسة بلحوم الحملان التي رضعت شهرين، ورتعت شهرين، ومن اللحم المجذَّع والملتفة بالأرز المدقوق، والدهن بالسكر المسحوق المبخر بالند، المشرَّب بالجلاب وماء الورد.

فقال: يا أبا المنصور، قد تحلَّب فمي من هذا الوصف. أشهد أنَّك من أبناء النعم والمروءات. وأمر أن يلقيه على طباخه.

ولما دخل الرشيد البصرة في سنة ست وتسعين ومائة زار جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي، وكان يومئذ واليها، فأحضر له جعفر بن سليمان على مائدته كلَّ حارٍّ وبارد، وأحضر ألبان الظباء وزبدها، فاستطاب الرشيد طعومها، فسأله عن ذلك، فأمر بعض الغلمان فأطلق الظباء، فتبعها أخشافها وعليها سملها حتى وقفت في عرصة الدار تجاه عين الرشيد، فلما رآها مقرطة محيصة استفزَّه الفرح لذلك والتعجب، حتى قال له جعفر: يا أمير المؤمنين، هذه الألبان واللَّبأ ورائب الزبد بين أيدينا من هذه الظباء ألفت وهي خشفان فتلاقحت وتلاحقت.

نادرة: حضر الغاضري عند بعض الرؤساء فقدم صفحة فيها أرز مطبوخ، وقد قعر وسط الصفحة جلاب، فأخذ الغاضري الملعقة وخرق التقعير إلى ما يليه، حتى اختلط بالأرز، فقال له صاحب المنزل: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؟! فقال: بل ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾.

وقال ابن الجصاص الصوفي: دخلت على أحمد بن روح الأهوازي فقال: ما تقول في صحفة أرز مطبوخ فيها نهر من سمن، على حافتها كثبان من السكر المنخول؟ فدمعت عيناي، فقال: ما لك؟ قلت: أبكي شوقًا إليه، جعلنا الله وإياك من الواردين عليه بالغواصة والردادتين. فقال: يا غلام، قدمها. فجاء بها تفور، فقال لي: ما الغواصة والردادتين؟ فقلت: الغواصة الإبهام، والردادتان السبابة والوسطى. فقال: أحسنت، بارك الله فيك.

وكيفية الأكل عند الظرفاء والأدباء: هو أن يقبض الإنسان الخنصر والبنصر، ويأكل بأصابعه الثلاث، وهي مَذهَب الظرفاء، أن البنصر إذا أصابه الزفر فليس بظريفٍ في الأكل، اللهمَّ إلا في الثَّريد،

فإن أكلها بأربعة أصابع سوى الخنصر. وقالوا: الأكل على أربعة أنحاء بإصبع من المقت، وبإصبعين من الكبر، وبثلاث وأربع من السنَّة، وبخمس من الشَّرَه.

فصل في ما يشهِّي المأكل

قال بعضهم يصف سُكُرْدانًا:

وافَى السُّكُرْدان وفِي ضِمنه ... مطجنات من فَراريج
كأنَّه بَدرٌ وقد رُصِّعَتْ ... فيه ثُرَيَّا من سَكاريج

وقال آخر في عُجَّة:

وجاءتنا بعُجَّتها عجوزٌ ... لها في القَلْي حِسٌّ أيُّ حِسْ
فلمْ أرَ قبلَ رؤيتها عجوزًا ... تَصوغُ مِن الكواكبِ عينَ شَمسْ

وقال ابن تميم في لبأ وتمر:

يا حبَّذا لبنٌ أتانا بُكرةً ... يزهي لنا حسنًا بأنواع الرُّطَب
فكأنَّما أهدى سماءً فضة ... قد أشرقت فيها نجوم من ذهب

وقال صفي الدين الحِلِّي يطلب جبنًا:

خفَّفتْ عنكم فلم أطلبْ بمجلسنا ... مِنَ المَآكِلِ شيئًا غاليَ القِيَمِ
لكنَّ أقصى مُرادي مِن هديَّتكم ... ما بالكرائم من لاميَّة العَجَمِ

يريد قول الطغرائي:

قد زاد طِيبُ أحاديثِ الكرام بها ... ما بالكرائم من جُبن ولا بُخل

قال صلاح الصفدي ملغزًا في قَرِيشة:

أيُّ شيءٍ يَروقُ للنَّفسِ أكْلًا ... ذو بياضٍ وأصله من حشيشةْ
خمسه أثقل الجمادات وزنًا ... فتعجب له وباقيه ريشةْ

وقال أبو الفرج الأصفهاني يصف بيضة:

فيها بدائعُ صنعةٍ ولطائفٍ ... أُلِفنَ بالتَّقدير والتلفيقِ
خِلْطان ماويَّان ما اختلطا على ... شكلٍ ومختلف المزاج رقيقِ
صنع تدلُّ على حقيقةِ صانعٍ ... للخلق طرًّا ليس بالمخلوقِ
فبياضها وَرَقٌ وتِبْرٌ مُحُّها ... في حقِّ عاجٍ بُطِّنتْ بِدَبِيقِي

وقال الشيخ جمال بن نباتة يتقاضى ملوحة بدرب الحجاز: يا مولانا، ما كأنَّ الملوحة إلا قد اتخذت سبيلها في بحار السراب سَرَبًا، أو تعلمت من تلك الهمة فاتخذت إلى نهر المجرة سببًا، وجعل فضلها مقصورًا على الأسماع، وخلقت من الملائكة فلا يمكن على صورتها الاطِّلاع، ولا غروَ فإنها ذات أجنحة مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع، وتوقفت من المنع والعطاء بين أمرين، وخصت من مولانا ومن الجناب الفخري بمَجمع البحرين، وما كان الظن أن يتفق هذا، ولو أنها من نسل حوت يونس عليه السلام والتسليم، وإن عظمها مما يسبح في بطن آكله إلى يوم ﴿يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، وإن بينها ألذ من القرب بعد البين الطويل، ورأيها أحسن من رأى عمرو بن العاص في الأمر الجليل، وإنَّ قمصها اللؤلؤية مما ينظم في السلوك، وأذنابها المرجانية مما ترصِّعه في تيجانها الملوك، وعيونها الدُّرِّيَّة هي التي دلَّت الخَضْرَ على عين الحياة فوردها، وإن بطونها الذهبية غناء من قصدها، وعلى الجملة فقد سطَّر المملوك هذه الورقة، ولقم الانتظار تزاحم القلم في يده، وأنامله المستعدة كالصنانير في تصدِّيه لها وتصيُّده، فمولانا يتدارك هذا الأمر قبل أن يفوت، ويأمر بإنفاذها ولو أنها بين السماء والأرض عند الحوت، ومكارمه المشهورة لا تقف في البذل مع احتياط، ولا يغير عادتها طريق الحجاز ولولا الغلو لقال: ولا طريق الصراط.

نوادر في هذا الباب

ذكر الشيخ علاء الدين الوداعي في تذكرته أن الصاحب تاج الدين محمد بن حنَّا — رحمه الله — كانت له أخت ذات مال، وكان كلما اجتمع بها حضَّها على إطعام الفقراء والمساكين والصدقة وفعل الخير ويقول لها: لا تتباخلي! فقالت له يومًا وقد قال لها: لا تكوني بخيلة. فقالت له: ما تستحيي كم تقول لي إنني بخيلة وأنا كريمتك؟

قال عبد الملك بن مروان لبعض الشعراء: هل أصابتك تخمة قط؟ قال: أمَّا من طعام الأمير فلا.

وقال بعضهم: أربعة ممسوخة البركة: أكل الأرز البارد، والغناء من وراء الستارة، والقُبلة فوق النقاب، والجماع في الماء.

وقال بعض الصوفية: من جلس على مائدة وأكثر الحديث فقد غشَّ بطنه.

قيل لطفيلي: لمَ أنت حائل اللون؟ قال: للفترة بين الطعامين مخافة أن يكون قد فنيَ الطعام.

أَوْلَمَ طفيلي على ابنته فأتاه كل طفيلي، فلما رآهم رحَّب بهم ثم رَقَّاهم إلى غرفةٍ بسُلَّم، وأخذ السلم حتى فرغ من طعام الناس أنزلهم وأخرجهم.

دعا يحيى بن أكثم عدوله، فقدم إليهم مائدة صغيرة فتضامُّوا عليها حتى كان أحدهم يتقدم فيأخذ اللقمة، ثم يتأخر حتى يتقدم الآخر، فلما خرجوا قيل لهم: أين كنتم؟ قالوا: كنا في صلاة الخوف.

الحارث بن كلدة: إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه، وإذا تعشَّى فليَخْطُ أربعين خطوة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، أفاد الجناب المجدي — رحمه الله — إلى أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ مما يُستشهد به على التتميم في البديع.

قدم رجلٌ كذَّاب من سفره وقد أفاد من سفره مالًا كثيرًا، فدعا قومه إلى الطعام وجعل يحدثهم ويكذب، فقال أحد القوم: نحن كما قال الله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

عبر بعض الطفيلية على قوم وهم يأكلون فقال: السلام عليكم أيها القوم اللئام. فقالوا: لا والله، إلا الكرام! فقال: اللهم اجعلهم من صادقين، واجعلني كاذبًا. وقعد يأكل.

وعبر طفيلي أيضًا على قوم وهم يأكلون فقال: هل تحتاجون إلى مساعدة؟ فقالوا: بالدعاء. فقال: لا هنَّأكم الله إن لم تأذنوا لي بالأكل معكم.

وما أحسن قول ابن دانيال في شخصٍ يُدعى علي شير:

إذا ما كنتَ متخومًا ... فكُنْ ضيفَ علي شيرِ
فما يخرج منه الخبزُ ... إلَّا بالمناشير

فائدة جليلة: ذَكَر التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة: من أدمن الأكل والشرب في أواني النُّحاس أفسدت مزاجه وعَرَضت له أمراضٌ صعبة، وإن أدنيت أواني النحاس من السمك شَمِمتَ لها رائحةً كريهة، وإن كُبَّت آنية النحاس على سمك مشويٍّ أو مطبوخ بحرارتهما حدث منه سمٌّ قاتل.

قيل لصوفي: ما حد الشبع؟ قال: لا حد له، ولو أراد الله تعالى أن يؤكل بحدٍّ لبيَّنه كما بين جميع الحدود، وكيف يكون للأكل حد والأكلة مختلفون بالطباع، والمزاج، والعارض، والعادة، وحكمة الله تعالى ظاهرة في إخفاء حد الشبع حتى يأكل من شاء على ما شاء كما شاء.

وقيل لفقيه: ما حد الشبع؟ قال: ما نشَّط على أداء الفرائض، وثبَّط عن إقامة النوافل.

وقيل لمتكلم: ما حد الشبع؟ قال: حده ما يَجلب النومَ، ويُضجِر القوم، ويبعث على الكوم.

وقيل لأعرابي: ما حد الشبع؟ قال: أمَّا عندكم يا حاضرة فلا أدري، وأما عندنا في البادية فما وجدتِ العين، وامتدت إليه اليد، ودارت عليه الضروس، وطابت له اللَّهاة، وأساغه الحلق، وانتفخ له البطن، واستدارت عليه الحوايا، واستغاثت منه المعدة، وتقوَّست منه الأضلاع، والْتَوتْ منه المصارين، وخشيتَ منه الموت.

وقيل لمَلَّاح: ما حد الشبع؟ قال: حد السُّكْر. قيل: فما حد السكر؟ قال: أن لا تعرف السماء من الأرض، ولا الطول من العرض.

وقيل لمدني: ما حد الشبع؟ فقال: لا عهد لي به فأحدَّه، فكيف أصف ما لا أعرف؟

وقيل لسمرقندي: ما حد الشبع؟ فقال: إذا جحظت عينك، وبَكِم لسانك، وثقلت حركتك، وارجحنَّ بدنك، وزال عقلك، فأنت في أوائل الشبع. قيل: إذا كان هذا أوله فما آخره؟ قال: أن تنشقَّ نِصفَين.

وقيل لجَمَّال: ما حد الشبع؟ قال: إني أواصل فما أعرف الحد، ولو كنت أنتهي لوصلتُ الحال فيه، أعني: ساعةً أعجن الدقيق، وساعة أمل المَلَّة، وساعةً أثرُدُ، وساعة آكل، وساعة أشرب لبن اللقاح، فليس لي قرار فأدري أني بلغت الشبع، إلا أني أعلم في الجُملة أن الجوع عذاب، وأن الأكل رحمة، وأن الرحمة كلما كانت أكثر كان العبد إلى الله أقرب، والله عن العبد أرضى.

قال إسحاق: كنت يومًا عند أحمد بن يوسف، فدخل علينا أحمد بن أبي خالد، فجرى ذكر الغناء فقال: لا والله، لا أجد شيئًا مما أنتم فيه. فهان عليَّ وخفَّ في عيني، فقلت له كالمستهزئ به: جُعِلتُ فِداكَ، قصدتَ إلى أرقِّ شيء خلقَهُ الله، وألينه على القلب والأذن، وأظهره للسرور والفرح، وأنفاه للهم والحزن وما ليس للجوارح منه مؤنة، إنما يقرع السمع وهو منه على مسافة، فتطرب له النفس، فذمَمْتَه، ولكنه كان يقال: لا يجتمع في رجل شهوةُ كلِّ لذة. وبعدُ، فإنَّ شهوة كل رجل على قدر تركيبه ومزاجه. قال: أجل، أمَّا أنا فالطعام الرقيق أعجب إليَّ من الغناء. فقلت: إي والله، ولحم البقر، والجواميس، والتيوس الجبلية، بالباذنجان المبزَّر أيضًا تقدمه. فقال: الغناء مختَلف فيه، قد كرهه

قوم. قلت: فالاختلاف فيه من أطلقه لنا حتى تجتمعوا على تحريمه؟ أعلمتَ — جُعلتُ فداك — أنَّ الأوائل كانت تقول: من سمع الغناء على حقيقته مات؟ فقال: اللهم لا تُسمِعْناه على حقيقته إذن فنموت. فاستظرفته في هذه اللَّفظة، وقدموا إليه الطعام فشغله عن ذمِّ الغناء.

نظر بعضهم إلى مائدة بخيل تُوضع عليها دجاجة فلا تُمَسُّ، ثم تردُّ من الغد، فلما مضت عليها أيام قال: يا أخي، هذه الدجاجة عمرها بعد موتها أطول من عمرها حال حياتها!

ولقي رجل أبا الحارث جميز وقد تعلَّق به غلام فقال: يا أبا الحارث، من هذا؟ فقال: غلام الفضل بن يحيى، كنت عند مولى هذا بالأمس فقدَّم إلينا مائدةً عليها رغيفان قد عملا من نصف خشخاشة وثَريدة في سُكُرُّجة، وخبيص في مُسْعَط، فتنفَّستُ الصعداء، فدخل الخوان وما عليه في أنفي، فمولاه يطالبني بالقيمة. قال الرجل: أستغفرُ الله مما تقول. فأومأ إلى غلامٍ كان معه فقال: غلامي هذا حرٌّ إن لم يكن ما قلته صحيحًا، ولو أن عصفورًا وقع على بعض قشور ذلك الخشخاش الذي عمل منه ذلك لما رضي مولى هذا حتى يؤتى بالعصفور مشويًّا بين رغيفين، والرغيفان من عند العصفور. ثم قال: وعليَّ المشي إلى بيت الله الحرام إن لم يكن إذا عطش بالفرعاء رجع إلى دجلة العوراء، حتى يشرب منها صحيحًا، ولو أن مولى هذا كلف في يوم قائظ أن يصعد على سلم من رمل حتى يبلغ كواكب بنات نعش فيلقطها كوكبًا كوكبًا، لكان ذلك أسهل عليه من أن يَشَمَّ شام تلك الثريدة، أو يذوق ذائق تلك الخبيصة. فقال الرجل: عليكَ لعنة الله وعليه إن كان سمع بمثل هذا.

فصل في الطَّسْت والإبريق والخِلال والمحلب والأُشْنان والمنشفة وآداب غسل اليد وكيفية الاستعمال

ولا بأس بغسل اليد في الطست، وإن ندب إلى ذلك فليقبل الكرامة ولا يردها. قال دفتر خوان:

والطَّسْتُ إنْ رامَ إليك المَقْصَدا ... فلا تُخالف مَن يقول: اغسل يدا
وصاحبُ المرشِّ دَعْهُ ساكبًا ... ولا تَقُلْ: بس اكتفيتُ كاذبا

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: اجتمعوا على غسل الأيدي في طست واحد، ولا تستنوا بسنَّة الأعاجم.

وقالوا: غَسلُ اليد في الطست في حالة واحدة أَدْخَلُ في التواضع، ويقتضي أن يجمع فيها.

وقال ﷺ: «مَن باتَ وفي يده غَمْرٌ لم يَغسله فأصابَه شيءٌ فلا يلومَنَّ إلَّا نفسه». وفي حديث آخر: الوضوء قبل الطعام ينفي اللمم. واللمم من الشيطان.

والطست: والطَّسُّ بلغة طيِّئ، أبدل من أحد السِّينين تاءً للاستثقال، فإذا جمعت وصغرت رددتَ السِّين لأنك فصلت بينهما بالياء، فقلت: طِساس وطسيس.

وهو أعجمي معرَّب، أصله طشت (بالشين المُعجمة)، فلما عُرِّب قيل بالسِّين المهملة.

الإبريق: عربيٌّ صحيح، وهو إفعيل من البريق.

وقال الحريري في المقامات: إياك واستِدْناء المُرجِفَيْنِ قبل استدعاء حلول البَيْن. أراد بالمرجفيْن: الطست والإبريق، لأن الإتيان بهما يؤذن بالقيام وفراغ الطعام.

وما أحسن قول القاضي الفاضل في المقامة العسقلانية يصف المائدة: وتَناوَبَتها الألوانُ، صِنْوانٌ وغيرُ صِنوان، وأبطأ القوم بالمرجِفَيْنِ، فما يرجفان ولا يوجفان. وأتينا بغاسول تحظى به الأفواه والأنوف، ولا يوجد بعده بفم الصائم خُلُوف.

وقيل: إن كنية الأُشنان أبو إياس، وكنية الملح أبو عَون. وسمعت بعضهم يسمِّيها البداية والنهاية، ولهذا حكيَ أن بوران بنت الحسن بن سهل لما تزوجها المأمون وأراد أن يدخل بها، جعل الناسُ يهدون لأبيها الأشياء النفسية، وكان بالقرب منهم رجل من الأدباء، فأهدى إليه مِزوَدًا فيه ملح مطيَّب ومزودًا فيه أشنان، وكتب إليه معهما: إنِّي كرهتُ أنْ تُطوَى صحيفةُ أهلِ البِرِّ ولا ذكر لي فيها، فوجهت إليك بالمبدأ به ليُمنه وبركته، وبالمختوم به لطِيبه ونظافته، ومع ذلك:

بِضاعَتِي تَقْصُرُ عَن هِمَّتِي ... وهِمَّتِي تَقصُرُ عَن مالي
فالمِلحُ والأُشْنانُ يا سيدي ... أحسنُ ما يُهديه أمْثالي

وذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف، أن سيد الوزراء، أبا محمد اليازوري، وُجد في موجوداته طَست وإبريق من البلَّور، فأفرط في استحسانه لهما ولعظيم قدرهما، وأن المستنصر وهبهما له، ووجد أيضًا مدهن ياقوت أحمر، وزنه سبعة وعشرون مثقالًا، أخذه سرًّا من السلطان ووجده السلطان في خزانته حين قبض عليه في سنة خمسين وأربعمائة، ولما أخرج السلطان الذخائر المصريَّة عند أيام فتنة ناصر الدولة وجد في ما أخرج من دار ناصر الدولة تسعين طستًا وتسعين إبريقًا من صافي البلور وجيِّدِه كبارًا وصغارًا.

وقال ابن معقل في ما يكتب على سفرة الطست:

لمْ أصحَبِ الطَّستِ مِن شوقٍ إليهِ ولَا ... جعلتُ خَدِّي له أرضًا وما شعرا

لـولا وُصـــولـي بـه يـومًـا إلـى مَلِكٍ يُصـــيبني فضـــلُ ما ينفى بـه الغمرا
وغـيـرة أن يـمـسَّ الـتُّرب مـبـتـدلًا مـا مـسَّ كـفَّـيـه مـن مـاءٍ إذا قـطـرا

وقال جلال الدين بن المكرم في الطست والإبريق والمنشفة:

وَلِي صـــاحبٌ يَنْفِي الأذَى عَن جَوَارحي فـيُـخـرجـنـي مـنـه نَـقِـيًّـا مُـطَـهَّـرَا
وآخَرُ يَحـويـه إلـيـه فـيَجـعـلُ الْـ ـــلَذِي كان لي منه إليه مصـــبرا
وثـالـثـةٌ غـارت لـفـعـلـهـمـا فـلا تَـزالُ تَـعـفـى مـا لـجســـمـي أثـرا

وقال أبو طالب المأموني:

مـنشـــفـةٌ خـمـلـهـا يـخـالُ بـهـا قـد فـت كـافـورة عـلـى طـبـق
كـأنَّمـا انـتـســـمـتْ خـمـائـلـهـا مـا ارتشـــفـت مـن لآلـئ الـعـرق

الأشنان: عُمِل لهارون الرشيد. يُؤخَذ من القرنفل، والسَّلِيخة، والقِرفة، والقاقُلَّى، والفلنجة، من كل واحد جزء؛ ومن المُصْطَكَى، والإذْخِر، والسُّعد، والمَيْعة اليابسة جزء؛ ومن المرزجوش ثلاثة أجزاء، ومن الطين الأبيض المكي خمسة، ومن الأشنان البارقي ضعف ذلك أو ثلاثة أضعافه، ومن الأرز الأبيض المبلول المجفف المنخول مثل الأشنان، يُدَقُّ كل واحد على حدته ويخلط.

صفة بنك محمص: يُؤخَذ من البنك الأصفر المخمَّر وزن ثلاثين درهمًا، ومن القرنفل عشرين درهمًا، ومن الزعفران خمسة دراهم، ومن الورد خمسة عشر درهمًا، ومن السليخة الحمراء الرِّقاق والسُّنْبُل، من كل واحد ستة دراهم، يُدَقُّ الجميع بأسره ويُطحَن ويحمَّص بماء الورد ويبخَّر بالعود الند والكافور والزعفران، تبخيرًا جيِّدًا، فإنه يجيء غاية من الغايات.

كيفية تناول الأشنان: أشنان الملوك والرؤساء، هو طِيب من جملة الطيوب، وهو يجعل في أشنان دان له غطاء يَحفظ رائحته، ويكون له ملعقة يناول بها الغلامُ الأشنان، ولا يُمس باليد البتة، ولا سيَّما يد الغاسل، فإنه إنْ أدخلَ يده فيه زفره فسد جميعه، لسرعة قَبول الطيب الفساد بدخول أدنى سبب من الرائحة الكريهة عليه للطف جوهره.

كان بعض الظرفاء إذا قُدِّم إليه الطعام تناول بعض الأدهان العَطِرة الطيبة، فمسح به يديه فلا يتمكن الزفر من مسامها، ولا يَعلَق بهما طائل منه، والذي يعلق يسهل زواله بأدنى غسل.

وقالوا: كان كسرى في زمن السَّفَرْجَل يتناول قطعة سفرجل، وفي غير زمانه يتناول مربَّاه، فيأكلها عندما يقدم إليه الطعام فينسدُّ خلل ما بين أسنانه وعموره بالسفرجل، فلا يَعلَق بهما من مضغ اللحم طائل، وكان يستعمل على مائدته بين كل لونين ملعقة رمَّان ليغسل فمه من الطعام الأول، فيذوق الطعام الثاني خالصَ الطعم من شَوْب الطعام الأول، فيدرك فرق ما بين الطعامين ويلتذُّ بكل واحد بمفرده.

ومن آداب الملوك أن لا يغسل الإنسان يديه في مجلس الملك أو بحضرة الرئيس، ولا بحيث يراه إلا بإذنه، وكذلك يصنع بالخِلال فإنه من سوء أدب الجليس، وإن أذنَ الرئيس لجليسه في الغَسل وأحبَّ أن يتخلل، فلينعزلْ بحيث لا يراه ولا يقع نظر الرئيس عليه.

وحُكيَ أنَّ أول غَضَبِ المعتصمِ على الإفْشِين، وكان حظيًّا عنده، أنه أكل عنده ثم دعا بالطست فغسل يده بحيث يراه المعتصم، فقال المعتصم: هذا التيس طويل اللحية يدعو بالطست حيث أراه!

ثم من أدبه له بد أن يستقصي إزالة الزفر، ولا يقصِّر في غسل يده.

يُحكى أن رجلًا قصر في غسل يده في دعوةٍ بعض الظرفاء فقال له ربُّ الدعوة: أنق يدك وإلا دنَّست منديلنا.

وكان عبد الله بن سلمان يبطئ في غسل يده ويقول: مِن حكم اليد أن يكون زمان غسلها بمقدار زمان أكلها.

وسأل المأمون اليزيدي معلم ولده العباس عن أخلاقه فأخبره أنه لا يفلح ولا همة له. قال: كيف علمت ذلك؟ قال: رأيته قد ناوله الغلام أشنانًا فاستكثر ما وقع في يده منه، فردَّه في الأشنان دان، ولم يُلْقِه في الطست، فعلمت أنه بخيل والبخيل لا يصلح للملك. فكان الأمر كما قال.

وليحترز عند غسل اليدين من الترشش على من يليه، أو نفض يدَيْه بالماء إذا فرغ، أو التَّنَخُّع في الطست أو المَخاط فيه.

الخِلال: رُويَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: تخلَّلوا فإنَّه نظافة، والنظافة من الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة.

وفي حديث عمر رضي الله عنه: عليكم بالخشبتين. يعني: الخلال والسِّواك.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: السواك بعد الطعام يُذهِبُ وَضَر الطعام.

وفي حديث آخر أنه ﷺ أَمَرَ بالخِلال ونهى عن أن يُتخلَّل بالرُّمَّان والقَصَب. وقال: إنهما يحرِّكان عرق الآكلة، وفي رواية: يحرك عرق الجذام.

وفي كتاب طب أهل البيت عليهم السلام، عنه ﷺ: الخِلال يَجلب الرِّزقَ. وفيه: مَن تَخلَّل بالقصب لم تُقضَ له حاجة سبعة أيام.

وعن أبي أيوب الأنصاري، عن رسول الله ﷺ قال: حبَّذا المتخللون. قالوا: يا رسول الله، ما المتخللون؟ قال: المتخلِّل من الطعام، فإنه ليس شيء أشد على الملك الذي على العبد أن يجد من أحدكم ريح الطعام.

والخِلال عمله من الصفصاف وعيدان الخلاف، وطبع الصفصاف بارد يابس، قليل الإضرار بالأسنان، كثير النفع لها، وهو أجود ما استُعمل وخُلِّلت به الأسنان من الزُّهومات، مأمون عليها.

ومن مُستظرفات المعاني، وإن لم يكن من غرض هذا الفصل لكن الحديث شجون، ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ونقلته من خطه بالقاهرة المحروسة، سيدنا أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومي المالكي، الشهير بابن الدماميني، رحمه الله، من قصيدة أولها:

أَفْديـــهِ مِن ظَبْـــيٍ غـــزال ... بِلَــواحِــظٍ تَــبــغــي قــتــالــي
وأراه يُضـــمِر بـــالـــجَفـــا ... فـــي خـــاطـــرٍ مـــنـــه وبـــالِ
مـــا لـــلـــعـــذول إذا أبَحْــ ... ـــتُ لحســـنه روحي ومالي
والـجسـم مـن عِشـــقـي لـذا ... ك الـثَّـغـرِ أصــبـحَ كـالـخِـلال

رجع إلى ما كنا فيه: والخلال المأمون، هو زهر قضيب ينبت في الصحراء، يقال: إنه الجزر البري، وهو حار يابس، بزره إذا استُفَّ ألقى الدود من الجوف، وإنما سمِّيَ المأمون لقلة أذاه للأسنان واللثة للينِهِ، وهو خلال يستعمله العوامُّ من الناس.

الأدب في الخلال: قال صاحب سرور النفس: ورأيت في زماننا من يغلط في تناوله الخلال، فإني رأيت في بعض مجالس الوزراء من الطستدارية من يضع الخلال خلف أذنه ويقدم الطست، ثم يناوله مخدومه من ذلك الموضع، وهو موضع قذر ولا يخلو غالبًا من أذى، ولو كان حامله أنظف الناس وأظرفهم، وأما تناوله فإني رأيت كثيرًا بعد الفراغ من الغسل ليده وفمه، ورفع الطست يتناول الخلال، وذلك خطأ من وجهين: أحدهما أنه إذا تخلل وهو مغسول الفم خرج اللحم من عموره وأسنانه إلى

فمه، فعاد الزفر وبطلتْ فائدة الغسل، والأخرى أنه يلقي ما خرج بالخلال على البساط، وحيث اتفق من مواضع مجالسه، وتلك قذارة، وإن كانت محقَّرة المقدار فالتنزه عنه أشبه بذوي الأقدار.

وأدب المناولة في الخلال أن يكون مع الطستدار ملفوفًا في ورقة بيضاء، فإذا أخرجه وضع إحدى رأسيه بين إصبعيه السبابة والوسطى، ومدَّ به يده للرئيس وهو قائم، فيتناوله الرئيس وهو على الطست، فيخلل ويلقي ما يخرج بالخلال في الطست أيضًا، ويلقي الخلال في الطست، ثم يغسل يده وفمه.

وقال: ومن أقبح ما رأيت في أخذ الخلال أنَّ بعض الرؤساء يتناول الخلال بيده وهي زفرة، فيرشقه في شعر لحيته ويغسل يديه ويتحدث طويلًا والخلال مغروز في لحيته، وذلك أقبح ما يكون. ورأيت هذا الرئيس الذي أشرت إليه يأخذ الخلال بعد غسل يده وتنظيفها ومسحها بالمنشفة، فيستعمل الخلال ويضعه في شعر لحيته تظرفًا منه.

قال كشاجم: وأخذ الخلال من المروءة لتنظيف الأسنان وتنقيتها من زفر اللحم، لأن اللحم إذا بات في الأسنان أنتن، لا سيما إذا كان فيه صلابة، والخبز أيضًا إذا بات في الأسنان أنتن الفم وصفَّر الأسنان.

استشارت امرأةٌ امرأةً في رجل تتزوجه فقالت: لا تفعلي؛ فإنَّه وَكِلة تَكِلة، يأكل خِلَله. ووكلة وتكلة بمعنى واحد، كُرِّر للمبالغة، وهو الذي يَتَّكِل في الأمور على غيره، ولا يباشرها بنفسه. والتاء في تكلة واو، كما قالوا: تراث، وهو من وراث. والخِلَل ما يخرج من بين الأسنان عند التخلُّل. قال أبو هلال العسكري: وليس في اللوم شيء من الكلام أبلغ من هذا.

ولبعضهم فيه:

وناولني من كفه شبه خصره ... وشبه محبٍّ ذابَ مِن طُول هجره
وقال: خلالي قلت: كل حميدة ... سوى قتل صب فيك حار بأمره

وقال الفقيه أبو الحسن بن عبد الكريم الأنصاري:

وخِلالٍ صنعَ السُّقمُ به ... من نحولي في الهوى ما قد وجَبْ
أذهبَ الجسمَ وأبقى رأسه ... وكان الرأسُ كالجسم ذهب
مغرم بالبيض يسعى نحوها ... لارتشاف الثغر أو ورد الشنب

في الاحتياط باعتبارات الأسباب المتعلقة بغسل اليد المؤدية إلى الهلاك: ذكر جماعة من المصنِّفين: وفي كتاب شاناق وزنطاح الهنديين، صفاتٌ مياه تمزج بماء القراح وتخفى فيه، فمن اغتسل بها أو تمضمض بها حصل بمسام جلده ولهواته داءٌ مهلك، ومنها ما تحمرُّ به الأسنان، ومنها ما ينقع فيه الخلال، ومنها ما يُجعل في الثياب والمناشف والمناديل، ومنها ما يسقى به مبضع الفصد فيفعل ذلك، وأوصوا واحترزوا وأكثروا في الاحتراز من ذلك لما يجب من حفظ مهج الملوك ومهج مدبري مملكتهم.

والذي يجب الاحتياط فيه أربعة: الأشنان، والماء، والمنشفة، والخلال. ولكل واحد منها نوع من الاحتياط يخصه؛ أما الأشنان والماء فوجه الاحتياط فيهما هو أن الغلام إذا قدم الطست جثا على ركبتيه ثم قدَّم قدح الأشنان والمحلب أو المسك، ففتحه ثم أخذ الملعقة فحرك بها الأشنان جميعه حتى يقلبه ظهرًا لبطن، ثم يتناول برأس الملعقة منه يسيرًا قدر الدرهم أو ما يقاربه، فيجعله في كفه، ثم يستفُّه ويعمد إلى الإبريق، فيمسكه بيده اليسرى ويبسط يده اليمنى، ويجمعها قليلًا ويصب فيها الماء من الإبريق، ويشربه على أثر سَفِّ الأشنان، ثم يضع الإبريق ويناول الرئيس الأشنان بالملعقة، ويسكب عليه الماء.

وأما المنشفة، فإنه يكون مع الغلام منشفتان، إحداهما يناولها للرئيس عندما يقدم الطست، يضعها مبسوطة على حجره تقي ثيابه رشاش الماء الزفر، والأخرى تكون مطويَّة معلَّقة في وسطه على طيِّها، وهي التي يجفف يده بها، فهذه إذا وُضع الطست بين يدي الرئيس أو الملك ثم جمع حواشيها باليمنى إلى آخرها، ثم أقامها قائمة وقبض عليها بيده اليسرى من تحت اليمنى، وسلتها بيده اليسرى سلتًا قويًّا، ثم أمسكها باليسرى من وسطها وثناها وقبض عليها باليمنى من تحت يده اليسرى وهي مثنية، كما فعل باليسرى وهي غير مثنية، ثم سلتها باليمنى إلى آخرها، ثم يجمعها بين يديه وعركها، ثم قبض عليها من حاشيتها الأخرى وأقامها قائمة كما جعلها في المرة الأولى، وسلتها بيده حتى يستوي تجعيدها، ثم يعلقها في وسطه، وحينئذ يجثو لمناولة الأشنان.

وأما الخلال، فقد ذكرنا أنه يجب أن يُنقع ليلةً أو ليلتين حتى يلين، ويعوجُّ عند التخلل لئلا يتشظَّى بين الأسنان، فيكون له قدح صغير من زجاج طول الإصبع، بحيث تدخله الإصبع، يجعل فيها ماء ورد أو ماء قراح، وماء الورد أنفع لأن فيه قبضًا تنتفع به الأسنان ويشد اللثة، ثم يترك فيه الخلال قبل الحاجة إليه، فإذا احتِيج إليه أخرجَ الغلام قَدَح الخلال مغطًّى بغطاءٍ محكم، مغلَّفًا بغلاف من أديمٍ

معدٍّ له، يعلقه الغلام في وسطه فيعمد إلى ماء الورد أو الماء الذي يكون فيه الخلال، أو اليسير منه يُجزئ، فيصبه في راحته ويشربه جميعه، ثم يتناول الرئيس حينئذ الخلال على الصورة السابقة في ذلك.

وفي ربيع الأبرار للزَّمَخشري: أول من عمل الصابون سليمان عليه السلام.

ولبعض الأدباء في رئيسٍ بيده صابونة:

صـــــابُونــةٌ فـــي راحــتَي مــاجــد ... قدْ أضــــحَتْ السُّــحبُ لها حُســَّدَا
تَلاطَمَ الــبَحــرانِ مِن حــولــهــا ... فــأصـــــبــحَ المَــوجُ بــهــا مُــزبِــدَا

الباب الثاني والثلاثون

في الماء وما جرى مَجراه

قالوا: وينبغي أن لا يُشرب الماء على المائدة ولا بعد الأكل، إلى أن يجف أعالي البطن، إلا بمقدار ما يسكِّن بعض العطش، ولا يُروى منه ريًّا واسعًا، حتى إذا جفَّ البطن وانحدر الطعام استوفى منه ومن المشروب.

وفي آداب شرب الماء أحاديث نبوية، ومنها أدبيةٌ حضَّ عليها العلماء في مراعاتها.

أما الشرعية: فلا يشرب قائمًا؛ فقد رُويَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو يعلم أحدكم ما في بطنه إذا شرب قائمًا لاستقاء».

ومنها: أن تمزَّ الماء مزًّا، ولا تعبَّه عَبًّا؛ ورويَ عن النبي ﷺ أنه قال: الكباد من العب. والكباد: داء الكبد.

ومنها: أن لا يستوفي الماء إلى آخره. ومنها: أن يناول من على يمينه. ومنها: أن لا يشرب من ثُلمة الإناء.

هذه كلها من إحياء علوم الدين.

ومن آداب شرب الماء: أن يجلس ويتناول الكوز بيمينه، ويسمِّي الله عز وجل، وينظر في الإناء قبل الشرب، ويضع يده اليسرى من تحته لعله يكون قد وُضع على موضع يقطر منه على ثيابه قطرة غير نظيفة، ثم يشرب ثلاثة أنفاس، ولا يتنفس في الكوز، ويحمد الله تعالى بعد الشرب، وأن يُؤثر إنْ كان معه غيره.

أدب شرب الماء في مجلس الملوك

اتفق أكابر العلماء بالآداب أن استدعاء الكوز في مجلس الملك والرئيس وشرب الماء في مواجهته من سوء الأدب، وأما مجلس الملك خاصة فلا سبيل إلى شرب الماء فيه البتَّة.

ذُكرَ في سِيرة كافور الإخشيدي حكاية يَنتفع بسماعها من يلزم مجالس الملوك. قالوا: كان أبو جعفر مسلم وأبو الفضل جعفر بن الفضل الوزير عند كافور الإخشيدي عشيَّة صيفٍ، ولم يكن عنده غيرهما، فقال لهما: قد اشتد الحر وللثلج أيام ما جاءنا من الشام. وما كان كافور يذوق الثلج وإنما كانت الكيزان تُوضع عليه فيشرب منها، وبهذا سَلِمَ من ضرر الثلج، فبينما هم كذلك إذا أُخبِر بمجيء الثلج، فقال: هاتوا ثلاث كيزان. فجاؤوا بها، فأخذ كافورُ كوزًا فشربه، وأخذ أبو الفضل كوزًا فشربه، وأخذ أبو جعفر كوزًا وقام فخرج من المجلس وشربه، ثم عاد وأكبَّ على يدِ كافور، ثم قعد أبو جعفر ساعة وانصرف، وأراد أبو الفضل أن ينصرف فشاغله كافور، ثم قال: هاتوا أبا اليمن. فجاء فقال: زد في جراية الشريف أبي جعفر ألف دينار في كل عام. وإنما أجلس أبا الفضل ليريه مكافأته لأبي جعفر عن حسن أدبه معه في شرب الماء.

كتب أبو الخطَّاب الصابي إلى لبن عمه أبي إسحاق الصابي مع كوز ماءٍ بعث به إليه:

> شرطُ المودة — أطال الله بقاء سيدي — أن لا أنفرد دونه بلذة، ولا اختص قبله بعطيَّة، إذ كان لا فرق بين محبتي ومحبته، ولا فصل بين مبرَّتي ومبرَّته، وقد شربت الساعة في هذا الكوز فوجدته أعذبَ ارتشافًا من الأفواه، وأحلى مصًّا من الشِّفاه، وأصفى جوهرًا من فاخر الدُّرِّ، وأنقى من الثنايا الغر، وأرق طبعًا من الهواء، وأخف وزنًا من الهباء، وأعبق طيبًا من نسيم العنبر، وأذكى رائحة من المسك الأذفر، رقت حواشيه فخفَّ على الأنامل والقلوب، فكأنه مستعمل من طيب أنفاس المحبوب. ينمُّ على القذى، ولا يحول بين الماء والهوى، يلطف عن صفاء الزجاج، ولا يُحوِج الغلام إلى الثلاج، إن أفرغ شف، وإن أترع رف، تتساوى المياه فيه عذوبةً، ويعجب العيون قبل النفوس رويَّة، أشهى إلى الأبصار مِن وجهِ الحبيبِ بلا رَقيب، تَهدي لَنَا أنفاسُهُ مَا قيل مِن كَرَمٍ وطِيب. حتى كأن طِينته من طِينتك، وعذوبَته مُشتقَّة من عذوبتك، وطيبه من طيب أعرافك، وقد أنفذته ملآنًا إليك، لتعلم أن قلبي ملآن من المحبَّة عليك، والسلام.

وقال صالح بن يونس في كوزٍ ومرفع:

أمُّ الحياة على سَريرٍ من نُحاس ... عُريانة أبدًا بغيرِ لباس

هي في الممات لدى الورَى معدودة ... لكنها ضمنتْ حياةَ الناس

وأهدى رجل لرئيس كيزانًا وكتب إليه:

ما بعثتُ الكيزان إلَّا احتيالًا ... جعلتُ مُهجتي وروحي فِداكا

منعتْنِي الأيامُ تقبيلَ كَفَّيْـ ... ـكَ فأرسلتُها تُقبِّل فَاكَا

ولا يُسمَّى الكوز كوزًا إلَّا إذا كان له عُروة، وإلا فهو كوب، وعلى ذلك فُسِّرَ قوله عز وجل: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾. ولذلك نظائر في اللغة، وهو أنَّ المائدة لا يقال لها: مائدة، إلا إذا كان عليها الطعام، وإلا فهي خُوان، كما تقدم. ولا يسمى الكأس كأسًا إلا وفيه شراب، وإلَّا فهو قَدَح، وإلى ذلك أشار العلَّامة ذو الوزارتين وإمام العدوتين لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير صاحب الأندلس وكاتم سره، في قوله لما وقف على كتاب ديوان الصبابة، تأليف الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة مخاطبًا له على قوله في الكتاب المذكور:

كتابٌ حَوَى أخبارَ مَن قتلَ الهوى ... وسارَ بهم في شَرقٍ ومغرب

مَقاطيعه مثل المواصيل أطربت ... يُشبِّبُ فيها بالرَّباب وزينب

وله أيضًا:

يا مَن أدارَ من الصَّبابةِ بيننا ... قَدَحًا ينمُّ المسك من ريَّاهُ

وأتى بريحانِ الحَديث فكلَّما ... صبح النسيم براحةٍ حَيَّاه

أنا لا أهِيمُ بذكرِ مَن قتل الهوى ... لكنْ أهيمُ بذكرِ مَن أحياه

أنشدني هذه الأبيات المرحوم فخر الدين بن مكانس، وذكر لي أن شهاب الدين بن أبي حجلة أنشده إياهما، وأنه تبجَّح بكونه مدح كتابه. قال: فقلت له: يا شيخ شهاب الدين، خنَّز عليك لسان الدين، وذكر أن كتابك فارغ من المحاسن. قال: وكيف ذا؟ قلت: لقوله:

يا من أدار من الصبابة بيننا ... قدحًا ينم المسك من رياه

أَمَا علمتَ أنَّ الكأس لا يُقال له: الكأس، إذا شُرِب، وإلا فهو قدح؟ فامتعضَ له شهاب الدين.

وأخبرني أن لسان الدين عارضه بكتاب سماه روضة التعريف بالحب الشريف، في التصوف. انتهى.

رَجْعٌ إلى ما كنا فيه

سأل رجل الشيخ أبا الفرج بن الجوزي رحمه الله: ما لنا نرى الكوز الجديد إذا صُبَّ فيه الماء نَشَّ وخرج منه صوت، فما معناه؟ قال له: يا ولدي، ذاك صوتُ شَكواه، يشكو إلى برد الماء ما لقيه من حر النار. فقال السائل: فما لنا نراه إذا ملأناه لا يبرد، فإذا نقص برد؟ فقال الشيخ: حتى تعلموا أن الهوى لا يدخل إلا على ناقص.

وذكر الوداعي في تذكرته قال: حدثني جماعةٌ من أهل عانة وهيت بالعراق أنه: إذا كان أوان الأربعينيات في الكوانين طرحوا في الماء كيزانهم وشرباتهم مدة الأربعينيات، فإذا انقضت رفعوها إلى زمان الصيف، وشربوا فيها الماء، فإنها تبرده بردًا كثيرًا يقوم مقام الثلج. انتهى.

قلت: وذكر لي الوزير العالم الفاضل فخر الدين بن مكانس رحمه الله أن ماء طوبة إذا شيل إلى الصيف وسُكِب في آنية الماء برَّده إلى الغاية، وأنَّ ماء هذا الفصل لا يَفسُد إذا شيل بخلاف غيره من الفصول.

وما أحسن قول ابن عبد الظاهر ملغزًا في شربة:

وذي أذُنٍ بِلا سَمَعٍ لهُ قلبٌ بِلا قلبِ
إذا استولى على حبٍّ فقل ما شئت في الصَّبِ

قال: وأهل مصر تقول للحب: الزير.

وإليه أشار المرحوم فخر الدين بن مكانس في السبيل الذي أنشأه الوزير الملكي الشهير بالنشو، بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه:

أنشأ القطيم النشو لما ارتقى وزارةً زادته في وِزره
بالجامعِ العَمْرِيِّ سبيلًا وقد قالت لنا عنه بنو مِصْرِه
هذا سبيلُ حاله فاسد وزيره يَرشَحُ مِن قَعْرِه

أنشدني الشيخ شمس الدين الرئيس لنفسه، وكتبها على مكان الخوابي:

تــــرفَّقْ أيُّهـــــا السَّـــــاقِي وزِدْ فـــي الـــطَّــفِّ بـــالصـــَّـــبِّ
وداوِ الـــقــلـــب بـــي واعــلـــمْ بــــأنِّـــي مَـــنـــزلُ الـــحُـــبِّ

فصل في المحمود من المياه

قال ابن النفيس في الموجز: أفضل المياه مياه الأنهار، خصوصًا الجارية على تربة نقية فيتخلص الماء من الشوائب، أو على حجارة فيكون أبعد عن قبول العفونة، وخصوصًا الجارية إلى الشمال والمشرق، وخصوصًا المنحدرة إلى أسفل، وخصوصًا إذا بَعُدَ المنبع، فإن كان مع هذا خفيف الوزن يُخيَّل لشاربه أنَّه حلو، ولا يحتمل الشراب منه إلا قليلًا، فذلك هو البالغ. وأما النِّيل قد جمع أكثر هذه المحامد. وماء العين لا يخلو من الغلظ، وأردأ منه ماء البئر، وما النز أردأ، وأما الشرب على الرِّيق وعُقَيبَ الحركة، وخصوصًا الجماع، وعقيب الفاكهة، وخصوصًا البطيخ فرديء جدًّا، سواء كان المشروب ماءً أو شرابًا، فإن لم يكن بُدٌّ فقليل من كوز ضيِّق الرأس امتصاصًا، وكثيرًا ما يكون عطش عن بلغم لزج أو مالح، وكلما روعي بالشرب زاد، فإن صبر عليه أنضجت الطبيعة المادة المعطشة وأذابتها، فيسكن من ذاته، وفي مثل هذا كثيرًا ما يسكن بالأشياء الحارة كالعسل.

قلت: وعلى ذكر النيل، فلا بأس بإيراد نبذة مما قيل فيه.

قال الشيخ: شهاب الدين بن أبي حجلة في كتابه السكردان: ذكر المهدوي في تفسيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن الله تعالى سخر للنيل كل نهر يجري على وجه الأرض في المشرق والمغرب، وذلَّلَّ له، فإذا أراد الله تعالى أن يجري نيل مصر أَمَرَ كلَّ نهرٍ أن يمدَّه، فإذا انتهى جَريُه إلى ما قدَّره الله تعالى أمرَ كل نهر أن يرجع إلى عنصره. ومصداق هذا: ألا ترى أن النيل مخالف لكل نهر على وجه الأرض، لأنه يزيد إذا نقصت، وينقص إذا زادت، لأنها — والله أعلم — تمدُّه بمائها.

وفي أصل النيل أقوال للناس، حتى ذهب بعضهم إلى أن مجراه من جبال الثلج، وهي بجبل قاف، وأنه يخترق البحر الأخضر بقدرة الله تعالى، ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد، فيسير ما شاء الله تعالى إلى أن يأتي بُحيْرة الريح، قال الحاكي لهذا القول: ولولا ذلك (يعني: دخوله في البحر المالح وما يختلط به منه) لَمَا كان يُستطاع أن يُشرَب منه لشدَّة حلاوته.

وقال قوم: مبدؤه من خلف خط الاستواء بأحد عشر درجة. وقال قوم: إن مبدأه من جبل القمر، وإنه ينبع من اثني عشر عينًا. واختُلف في سبب زيادته ونقصانه، فقال قوم: لا يعلم ذلك إلا الله تعالى.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشتهي أن يعرف أصل هذا النيل، فرسم أن يشتري عبيد صغار زنوج وما شاكلهم جلب لم يستعربوا، وسلَّمهم لصيَّادي السمك والبحَّارة، ليعلِّموهم صنعة البحر وصيد السمك، وأن يكون قُوتهم من السمك لا غير، فإذا مهروا في ذلك تُصنَع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها، ويأتوه بخبر النيل.

وكان فرعون يَجبي خراجَ مِصرَ في كل سنة ألفَ ألف دينارٍ، فيأخذ الربع من ذلك لنفسه وأهل بيته وبيت ماله، والربع الثاني لوزرائه وامرأته وكتَّابه وجنده، ويكنز الربع الثالث ذخيرةً، ويصرف الربع الرابع في حفر الخلجان وسد التراع وعمل الجسور ومصالح الأرض، وكان في كل سنة إذا كمل التخضير ينفذ مع قائدَيْن من قُوَّاده إردبين من قمح، فيذهب أحدهما إلى أعلى مصر، والآخر إلى أسفلها، فيتأمل القائد كل ناحية وأرض كل قرية، فإن وجد موضعًا بائرًا عطلًا قد أغفل بذره كتب إلى فرعون بذلك، وأعلمه فقتل العامل، وأخذ ماله وولده، فربما عاد القائدان ولم يجدا موضعًا لبذر الإردب، لتكامل العمارة واستظهار الزرع.

وجباها عمرو بن العاص اثني عشر ألف ألف دينار، وكان ذلك أول دخوله إليها، والكلام على ذلك طويل.

ومما قالت الفضلاء في النيل المبارك، فمن ذلك قول علاء الدين الوداعي:

رَوِّ بمصرَ وبسُكَّانها شَوقِي وجَدِّدْ عَهدِيَ الخالي
وصِفْ لِي القرط وشنِّف به سمعي وما العاطل كالخالي
وارْوِ يا سعدُ عن نِيلِها حديثَ صَفوانَ بِن عسَّال

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

دِيارُ مِصرَ هِيَ الدُّنيا وسَاكنُها هُمُ الأنامُ فقابِلها بتقبيلِ
يا مَن يُباهِي ببغدادَ ودجْلَتها مِصرُ مقدِّمةٌ والشَّرح للنيلِ

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي:

رأيتُ في أرض مصـــر مُذ حللتُ بها عجـائبًـا مـا رآهـا النـاسُ في جيـلِ
تَســـودُّ في عينيَ الـدُّنيـا فلم أرهـا تبيضُّ إلّـا إذا مـا كنـتُ في النِّيـل

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

زادتْ أصـــــابـــعُ نِيــلـــنــــا وطَــمَــتْ فــأَكْــمَــدَتِ الأعـــادي
وأتَتْ بِكـــلِّ جَمـــيـــلـــةٍ مـــا ذي أصـــــابـــعُ ذي أيــادي

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي:

لـنيـلِ مصـــــرَ كَمـالٌ فـي زِيـادتـه وفَضــْـلُـه غـيـرُ مـخـفـيٍّ ومـكـتـتـم
إذا بـدا لـكَ مـن تـيَّاره شِـيَمٌ رأيتـه طـاهـرَ الأوصـــافِ والشـــيم

وقال الشيخ شمس الدين بن الصائغ رحمه الله:

سما النِّيلُ إذ يحكي السما في انبساطه فللـه مـا أحلـى وأصـــدقـه حـاكِ
تَســـيرُ بـهِ الأفلاكُ شــــرقًـا ومغربًا وحـافـاتـه أيضـــًا تُـحَـفُّ بـأمـلاكِ

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة:

نشـــروا القلـوع وبشَّـروا بوفـائـه فـالرايـة البيضـــاء عليـه بـالوفـاء

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب مضمنًا:

للهِ يـوم الـوفـا والـخَلْقُ قـد جُمِعـوا كـالـرَّوضِ تـطـفـو عـلـى نـهـر أزاهـرُهُ
ولـلـوفـاء عـمـودٌ مـن أصــــابـعـه مـخـلـق تـمـلأ الـدنـيـا بشـــائـره

وقال الشيخ سديد الدين بن كاتب المرج:

يـا نِيـلُ يـا مَلِكَ الأنهـارِ قـد سُـقِيَتْ منـكَ البرايـا شــَرابًـا طيِّبًـا وغِـدَا
وَقَد دخلـتَ القُرى تَبغي مَنـافعهـا فعَمَّـهـا بعـدَ فَرطِ النَّفعِ منـكَ أذى
فـقـال: تـذكـر عـنِّي أنَّنـي مَلِكٌ وتـنـثـنـي نـاســـيًـا إنَّ المـلـوك إذا

وقال إبراهيم المعمار:

سمعتُ يومًا سَدَّ مِصرَ يقول: النِّيلُ وافَى زائدًا عندي

وكان هذا خبرًا صادقًا فرُحْتُ أرويه عن السدِّ

وفي هذه النبذة كفاية. وعلى الجملة، فمحاسن النيل مستكثرة، ولو استوعبنا ما للفضلاء في ذلك من النظم والنثر لحفيت من تسطيرها الأقلام، وضاقت صدور الأوراق، وما أحقَّ هذه المقاطيع أن تسمى مقاطيع النيل.

رجع إلى ما كنا فيه

أنشدني من لفظه لنفسه، ونقلته من خطه، الشيخ الفاضل بقية المتأخرين زين الدين بن العجمي رحمه الله، ملغزًا: سألتك — أعزك الله — عن سائل لا حظَّ له في الصدقة وإن لم يكن متصل النسب بالأشراف، كثير الرجفان من غير أن يخاف، كم ردَّ سائله نهرًا، وعفَّر وجه فاقده بالتراب قسرًا، مذكر كثير الحيض، لطيف الانبساط سريع الغيظ، مطلق التصرف وعليه الحجر، وطالما قبل العشاء أبدى لنا الفجر، يتشعَّب ويتكسَّر، ويتعوَّج ويتدوَّر، وله خمسون عينًا وأكثر، يحمل القناطير المقنطرة، ويعجز عن حمل إبرة، سريع الاستحالة، قلَّ ما يَثبت على حالة، بعيد الغوص ليس له قرار، يعاجل صفاء وداده بالإكدار، يسكن في تخوم الغبراء، وينمُّ على أحوال أهل السماء، رقيق القلب على كل عديم، وكيف لا وهو الولي الحميم، يجود بأفخر الحلى، ولا يرد من نداه مؤملًا، كم عمَّر سبيلًا، وقطع طريقًا وأخاف سبيلًا، كم طفا واحترق، وأظهر الجفاء وهو كثير الملق، كم علا درجًا وحط قدر الدقائق، وقلع بأصابعه عين كلِّ مارق، وكم طهَّر أممًا من أرجاسها، وأماط عن أرضٍ رديءَ أدناسها، وكم درأ عن شيخٍ خَبَثًا، ورفع كهلًا وحَدَثًا، صيقل يجلو الصدأ، ويظهر على شدة البرد تجلُّدًا، يبلغ فيه بشيء يسير، مقامًا لا ترقى إليه همَّة الملك الكبير، كم أباح محرَّمًا للعباد، وأكثرَ الفساد في البلاد، وكم رأينا شموسًا تجري لمستقرِّها فيه وتجنح، وتلوح في فلكه وتسبح، كم خاض في ذاته خائضٌ، مع كثرة سياحته وربما وجد في الجبال رائض، قد جمع فيه الخوف والرجاء، والكدر والصفاء، ومن العجائب أنه كافر، وقد أعان على العبادة أهل الصلاح، وقد أضاف نزيله بالمنية ولم يخش في ذلك من جناح، فسبحان من جمع فيه الأضداد، وأرسله رحمةً للعباد.

وقال أبو الفضل أحمد بن محمد الخازن فيه:

وخِلِّ صفاءٍ زُرتُه بعدَ هجعةٍ فألقيتُ شخصي في حشاهُ مُصوَّرَا

وأودعْتُهُ سِـــرًّا فــأفشـــــاهُ لــلــورى ... فيا حُسْـــنَ ما أفشـــى الغَداةَ وأظهرَا
أبـــوه حـــلـــيــفٌ لــلــثُّريَّا وأمُّه ... بـه حـامـلٌ في بطن منخفضِ الثَّرى
ســـطيحٌ لـه جســـمٌ بغيـرِ جـوارحٍ ... يُبـاري الريـاح الجـاريـاتِ إذا جَرَى
تُصـــافـح كـفِّي مـنـه كـفًّا رَطيـبـةً ... يُخـادع عيني كـالخيـال إذا ســـرى
تَزُرُّ عــلــيــه الــرِّيــحُ ثَوبًا مُفَرَّكًا ... وتكســـوه شُـــهْبُ الليلِ ثوبًـا مُـدَثَّرًا

وقال أبو الحسين الباخرزي ملغزًا:

لا أُحـاجِي فــي زُمـرةِ الـفضـــلاء ... غيـرَ خِـلٍّ خَصَـصـْـتُه بـإخـائي
فــي شــبيـهِ الـبلَّورِ رُدَّ إلـى المـاء ... وقــد كــان قــبــلَ عَــينِ المـــاء
يــنــذر الــحــر بــالــهـزيــمـة بـردًا ... فــهــو المــنـذر بــن مـاء الســـمــاء

وأنشدني المقر الأشرف، المرحوم فريد المتكلمين، لسان المملكة، خاتمة المنشئين، أبو عبد الله محمد بن الأنصاري، صاحب ديوان الإنشاء بالشام، لنفسه حكاية حال:

ضَـــلُّوا عـن الـوردِ لَمَّا أنـهـم رحـلـوا ... قَومـي فظلُّوا حَيـارَى يَلـهـثون ظمَا
واللهُ أكــرمـــنـــي بــالــوردِ دونَهــمُ ... فقلـتُ: يـا ليـتَ قومي يَعلمون بمـا

وعلى ذكر الماء، ذكرتُ ما أنشدنيه من لفظه لنفسه شيخنا العلامة، أقضى القضاة، بدر الدين أبو عبد الله محمد المخزومي المالكي، الشهير بابن الدماميني، ملغزًا في قربةٍ، وكتب به إلى المقر المرحومي الأميني صاحب ديوان الإنشاء، وذلك بتاريخ نهار عيد الأضحى المبارك من شهور سنة خمس وثمانمائة من القاهر المحروسة، على يد مسطرها:

أكـاتِبَ سِـــرِّ المُلْكِ والفـاضــــل الـذي ... ثَـنــاهُ عــلــى الأفـكـارِ فَـرضٌ مُـرَتَّــبُ
ومَن فــاهَ فــي فـنِّ الـبـديـع بـمـنـطـق ... فـأمســـت عويصـــات المعـاني تهـذبُ
تَحــدَّثَ عــن سَـــهــلٍ رُواةُ كــلامِهِ ... إذا مــا أتــاهُ اللُّغزُ يَرويـهِ مُصـــعَــبُ
فــديــتُكَ مــا ذاتٌ أطـالــعُكـم بــهـا ... ويُبحَـثُ في الأســـفـار عنهـا وتُطلَــبُ
تُشَـــدُّ وكَـمْ فــي الأرضِ دار أمــالَهـا ... فصـــــدق إذا مـا قيـل: تُملَى وتُكتَــبُ

وما هي في التحقيق راويةٌ وكم   لها خبرٌ في الذَّوق يحلو ويَعذُبُ
مَليحةُ شَكْلٍ يألفُ الحُبُّ صَبَّها   زمانًا وفي وقتٍ لها يتجنَّبُ
ويبلغُ منها للحِياض حقيقةٌ   ولكنَّ رأيْنَا قَلْبَهُ وهو طيِّبُ
يزيدُ مُريدُوها إذا ما تصوَّفَتْ   ويشكرُها أهلُ الزوايا ويَطْنَبُوا
لها أربَعٌ لكنْ بِساقٍ رأيتُها   على السَّعيِ في الأحياءِ بالنَّفْعِ تدْأَبُ
وتُوضَعُ أحيانًا وما حانَ وضْعُها   وكمْ من فتًى في حملها راحَ يَرغبُ
وتَحملُ ما فيه الحياة لرَبِّها   فيا حبَّذا منها البسيطُ المركَّبُ
وتُرسلُهُ فاعجَبْ لهُ من مُسَلْسلٍ   غَدَا مُرسَلًا عنه الرِّوايةُ تَعجبُ
وكم مِن خليعٍ سمْتهُ إذْ تعَتَّقَتْ   يَمُدُّ إليها الراحَ لهوًا ويَطربُ
وما نالَ إثمًا في تَعاطيهِ بعدما   رأيناه من تلك العتيقةِ يَشربُ
وَسُمْ فمها المفتوح كم راحَ مائلًا   وما نطقتْ حرفًا عن القصدِ يُعرِبُ
وكم قد تعبَّدْنا بتحريفِ لَفظِها   ولمْ أرَ بالتحريفِ من يتقرَّبُ
وتَصْحيفُها يا بَهجَةَ الدَّهرِ بَلْدةٌ   حَواها من الأقطارِ شَرقٌ ومَغْرِبُ
وتُوجَدُ في الأفلاكِ عاليةً بها   ويَألَفُها بعضُ الحواري ويَصحبُ
فيا مَنْ لِرقِّ الفضلِ أصبحَ مالكًا   فما لي إلَّا نحوَ عَلياهُ مَذهَبُ
تلفَّتْ لِلُغزٍ نحوَ بابكَ قد أتَى   وكُلٌّ غدَا مِن ظَرفِهِ يَتَعجَّبُ

وقال بعضهم ملغزًا في قربة السباحة:

وذاتِ فمٍ طورًا تسبِّح ربَّها   ولمْ تكتسب أجرًا بتسبيحها قطُّ
معانقةَ الصبيان مُضمرةَ الهوى   كأنَّ بقايا قومِ لوطٍ لها رَهْطُ

الباب الثالث والثلاثون

في الحلوى والمشروب

قال أبو عبيد معمر: تقول العرب: كل طعام لا حلوى فيه فهو خِداج. أي: ناقص غير تام.

وقال الزمخشري عن بعضهم أنه قال: اللَّوْزِينَجُ قاضي قضاة الحلوى، والخبيص خاتمة الخير.

وقيل لبعضهم: التمر يسبح في البطن. فقال: على هذا التقدير اللَّوْزِينَج يصلِّي التراويح!

دخل الجمل المصري على قادم وعنده قوم بين أيديهم طباق حلوى ولا يمدون أيديهم، فقال: لقد أذكَرْتُمُونِي ضيفَ إبراهيم. وتلا الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾. ثم قال: كلوا رحمكم الله. فضحكوا وأكلوا.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: أكل تمرةٍ أمانٌ من القُولَنجِ، وشرب العسل على الريق أمان من الفالج، وأكل الرُّمَّان يُصلح الكبد، والزبيب يشدُّ العصب، ويذهب الوصب والنصب.

قيل لأعرابي على مائدة بعض الملوك وهو يأكل الفالوذج: لم يشبع منه أحد إلا مات. فأمسك وفكَّر ثم ضرب بالخمس وقال: استوصوا بعِيالي خيرًا.

وكان عبد الله بن جذعان سيِّدًا شريفًا في قريش، فوَفدَ على كِسرى وأكلَ عنده الفالوذَج، فسأل عنه فقيل له: الفالوذج. قال: وما هو؟ قيل: لُباب البُرِّ يُلبَكُ مع عسل النحل. فابتاع من عنده غلامًا يصنعه، وقَدِمَ به مكة فصنع الفالوذج، فوضع موائده بالأبطح إلى باب المسجد، ثم نادى من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر، فكان ممَّن حضر أميَّة بن أبي الصلت، وكان يمدحه كثيرًا فقال:

لِكُلِّ قبيلةٍ رأسٌ وهادٍ ... وأنتَ الرأسُ تَقدُمُ كلَّ هادِ
لهُ داعٍ بمكةَ مُشمَعِلٌّ ... وآخَرُ فوقَ دارَتِهِ يُنادي

إلـى دَرَجٍ مـن الشـيـراء مـلأى لُـبـاب الـبُـرِّ يُـلـبَـكُ بـالشـهـادِ

حدَّث أبو المحسن عن ابن خلاد بإسناده في كتاب الموائد، أن الرشيد وأم جعفر اختلفا في الفالوذج واللوزينج، فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد، فقال: إذا حَضَرَ الخصمان حكمتُ بينهما. فقُدِّما إليه فأكل منهما حتى انتهى، فقال له الرشيد: احكمْ. فقال: كلما أردتُ أن أقضي على أحدهما أدلى الآخر بحجته! فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار. وبلغ زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا واحدًا.

حدَّث حمَّاد بن سلمة قال: دخلت على إياس بن معاوية وهو يأكل فالوذجًا فقال: ادْنُ فَكُلْ، فإنْ كان شيء يزيد في العقل فهذا.

وأتى أعرابي بفالوذج، فأكل منه، فقيل له: تعرف ما هذا؟ فقال: هذا — وجَدِّكَ — الصراطُ المستقيم.

ومن نوادر الصوفية أنهم إذا أكلوا طعامًا عند أحد قالوا: أكل طعامك الأبرار، وأفطر عندك الصائمون. ولا يقولون: وصلَّت عليك الملائكة. إلا بعد الحلوى.

قيل لأبي الحارث جُمَّيز: ما تقول في الفالوذج؟ فقال: وددت أنها ومَلَك الموت اختلجا في صدري. واللهِ، لو أن موسى لقي فرعون بفالوذج لآمَنَ، ولكن لقيه بِالعصا.

وقال أنس يرفعه: مَن لقَّم أخاه لقمة حلوى صرف الله عنه مرارة الموقف.

اشترى رجل أحمالًا من السكَّر وأمر باتخاذ مسجد من السكر ذي شرف، ومحاريب، وأعمدة منقوشة، ثم دعا الفقراء فهدموه ونهبوه. ذكر ذلك الزمخشري في ربيع الأبرار.

قُدِّمَ فالوذَجٌ حار إلى مائدة عليها أبو هِفَّان وأبو العيناء، فقال له أبو هفان: هذا آخِر مكانك من جهنم. فقال أبو العيناء: إن كانت حارةً فبرِّدها بشِعرك.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن لَعِقَ العسل ثلاثًا في كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء أبدًا». وعنه ﷺ أنه قال: «شفاء أمتي في ثلاثٍ: لَعقةٍ من عسل، أو شَرطةٍ حِجام، أو آيةٍ من كتاب الله».

ونقلت من خط القاضي الفاضل واقعة غريبة، اتفقت بالديار المصرية، وهي أنه لما أحرق شاوَرُ مصرَ أيام دخول الفِرَنجِ إليها، كان بها رجل صالح وله ابنة مليحة، احترقت دكانُهُ في جُملةِ ما احترق، فرحل إلى البَرِّ الغربي، وسكن في بعض القرى، وجلس في حانوت سَمَّان يرتفق به، واتفق أنَّ مُقطِع القرية رأى ابنته فهَوِيَها، وجعل يروم إفسادَها، فلم يتيسَّر له، فخطبها من أبيها فما رضيه كُفُؤًا لها، فشرع في أذيَّته وتسخيره، وطرحَ عليه غرامةً لا تلزمه، وعزم على حبسه، فسأل إمهاله مدة معينة،

فقال: اكتبْ لي بها حجَّة. علمًا منه أنه فقير، ومتى دخلت الحجة أخذ ابنته بتلك الحجة، فكتب وأشهد عليه، فلما انقضت المدة، جاءه شابٌّ واشترى منه عسلًا، فأخذه في جرَّة ومضى، فسقطت منه صُرَّة مشدودة، فأخذها الرجل وفتحها، فوجد فيها عشرة دنانير فأخذها، فلما جاءه المقطع طالَبَه ورفعه إلى القاضي، فقال له: أحضرِ الحجة. فأحضرها، ودفع إليه العشرة أشرفية، وأخذ الحجة فقطعها، وتخلص من الظالم، فلما عاد إلى حانوته، جاء الشاب الذي اشترى منه العسل وسقط منه الذهب وقال: اجعلني في حِلٍّ وأبرِئْ ذمَّتي، فإني لما اشتريتُ منك العسل ذلك اليوم وقعت مني صرة فيها عشرة دنانير فاتهمتك بها وظننت أنك أخذتها، فلما حضرتُ اليومَ وجدتها مَرميَّة في طريقي! فتعجب الرجل من ذلك وقال: اشكرِ الله الذي ردَّ عليك، فأنت في حِلٍّ من جهتي! فلما كان ثاني يوم، جاءه الجندي الظالم وقال: اجعلني في حل، فإني رأيت البارحة منامًا أزعجني بسبك، وأما الذهب فإنه وقع مني، وذلك لأني قد أخذته حرامًا، وقد تُبتُ إلى الله تعالى مما جرى مني. فشكر الله تعالى وتفرَّقا.

كتب الشيخ شرف الدين عيسى العالية إلى سيدنا ومولانا الشيخ البدر الدماميني لغزًا في عسلٍ:

يا أيُّها المولى الرَّئيسُ ومَن له ... ألَّفتُ مدحًا كالجواهر نَظمُه
اسمعْ سمعتَ الخيرَ لُغزًا مُحكمًا ... يَمضي على الألغازِ جمعًا حُكمه
قالوا: مِن الأطيار حقًّا أصلُه ... أكرمْ به أصلًا يَروقُكَ طَعمُه
لكنَّه ما حازَ مُنقارًا ولا ... رِيشًا وأجنحةً ولستُ أذمُّه
والجسمُ منه ما حَوَى عظمًا ولا ... لحمًا ويُعجِبُ مَن رأى جِسمُه
وبفرد عينٍ كم بدا لمُعاينٍ ... لمْ يدرِ ما هي مِن تَبَلُّدِ فَهمِهِ
يا مَن له ذكرٌ يَفوحُ لناشقٍ ... كالمسك حين يفيض عنه ختمه
قل للذي يُبدي الدعاوي: قل لنا ... ما أصل هذا في الطيور وما اسمه؟
إنْ قال: هذا واضح فهو الذي ... قد غَرَّه في ما ادَّعاه وهمُّه
مِن أينَ يَعرفُ اسْمَ شيءٍ ربَّما ... أكَلَتْهُ في وقتِ المَجاعةِ أمُّه

فأجابه:

يا فاضلًا نثر المحاسنِ نَظمُه ... ولعِزِّهِ قدْ ذَلَّ عَجزًا خَصمُهُ

وتــطــرَّزتْ حُلَلُ الــبــديــعِ بــمَنــطــقٍ عنــه عــلا بـين الأفــاضـــــل رَســـمُه
شـــــرفٌ لأغـراضِ الـبـلاغــة ســـــابقٌ ومن الفضـــــائـلِ قـد توفَّر ســـَهمُه
ألــغــزتَ فــي اسْـــمٍ عــاطــل حـلَّيـتَهُ بــنــفــيــسِ دُرٍّ صـــَــحَّ فِــيــنــا يُــتــمُه
فــإذا أضـــفــتَ القلـبَ منــه لأصـــلــه قُلنـا: بهـذا الفعلِ قد وضـــحَ اســـمُه
وإذا عكســـــتَ الأصــــلَ منه فَهْوَ إنْ أعربـتَ لحنًـا ليس يُجهَل حُكمـه
قــدْ كــانــتِ الأذهــانُ مــنـــه خَلِيَّةً فَـحَـوَتْ بــهِ شـــَـهـدًا لـذيـذًا طَعـمُه
وروى ابْنُ سُـــكَّرةٍ حــلاوةَ نَظــمِهِ فــقضــــــى بــتَــفــطــيــرِ المَـرارةِ هَـمُّه
ورأى بــعَينٍ لُغــزَكَ الــحُلــو الــجَنــي عَــذبَ المَــذاقِ فــحــارَ فــيــه وهَــمَّــهُ
وأعــاذهُ بــحُلــى أمــيــرِ الــنَّحــلِ إذ أضـــحى عَلِيًّا في الفصـــاحـةِ نَظمُـهُ
فـاســـمعْ وصـــغ حلى البيـانَ لفَهمِنـا يــا مــن تــحــلَّــى بــالــنــبــاهــةِ فَــهــمُه
واصـــفَحْ بفضـــلٍ عنِ جوابٍ ســـافلٍ يــا طــالــعًــا فــي خَــيــرِ أُفْــقٍ نَــجــمُه

ومن تذكرة الوداعي: قال الصاحب فخر الدين بن الشيرجي: أَهدى إليَّ الأميرُ بدر الدين لؤلؤ المسعودي قصبَ سكَّر من الغَور، فأرسلت إليه مع الرسول أُبلُوج سكرٍ مكرر. وكتب فيها رقعةً فيها:

كــالــبَحــرِ يُمــطِرُهُ السَّـــحــابُ ومَا لَهُ فَضــــْــلٌ عــلــيــهِ لأنَّــه مِــن مــائــهِ

أبو الحسن الجزار ملغزًا:

أتــعــرفُ لــي حُبلــى مــا تــنــفَّســـــتْ سَــــرى لأُنوفِ القَومِ مِن طِيبها نَشْـــرُ
ويرضـــع منها الثدي ســـــاعةَ حَملِها أبوهــا فتغــدو وهْـي مِن وَقتهــا بِكرُ
تُريـكَ جَنينًا وهـي مِن غيرِ جنســـــهـا فــوِجْــدانُــهُ حُــلــوٌ وفُــقــدانــه مُــرُّ
عــلــيــه بِهِ ســـتــرٌ دَقــيــقٌ وإنَّمــا تَجِـلُّ إذا مــا دَقَّ من فوقهــا الســـِّترُ
إذا كُســـرتْ في القوم تَجبرُ كَســـرَهـا فيَحسُـــنُ بعد الكســـرِ من قلبِها الجَبرُ
تَروقُ عُيــونَ الــنَّاظــريــنِ جَلالــةً إذا جلَســـتْ يومًا ومَوضِـــعُها الصَّـــدرُ

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

بَعـــثـــتَ قَطـــائـــفًا روًّى حَشـــاهـــا قَـطـرُهـا الـغـامِـرْ
فسُـــــكَّرهـــــا أبـــــو ذَرٍّ ومُـرسـِـــلُ صـــَحـنِـهـا جَـابـرْ

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة يستهدي قطرًا:

لِجُودِ قـاضِـــي الـقُضـــاةِ أشـــكُو عَـجـزِي عَـنِ الـحُـلْـوِ فـي صـــِيـامِي
والـــقَطـــرَ أرجـــو ولا عَجـــيـــبٌ لَـلـقَـطـرُ يُـرجَـى مِـنَ الـغَـمـامِ

وقال الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي المريني نزيل حلب المحروسة:

وَقَفَتْ لـــلـــوداعِ زَيـــنـــبُ لَمَّا رَحَـلَ كَـوكـبٌ والمـدامـع تُسـكَـبْ
مَسَـــحـتْ بـالـبَنـانِ دَمـعـي وحُلـوٌ سَـكْـبُ دمعي على أصـابعِ زَيْنَـبْ

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة ملغزًا:

أُحـاجِيـكَ مـا حُلـوُ الـلِّسـانِ وإنَّهُ لأبْـكَـمُ إذْ تُـعـزَى إلـيـهِ المَـعـارِف
يُرى جالسًـا في الصَّـدرِ ما كانَ كاملًا فـإنْ نَقصـُوهُ فهو في الخَلقِ طَـائِف

وله يستهدي قطرًا:

أَمَولايَ عِنـدِي لـلـثَّنـاء قصـائـدُ تُريـكَ رِيـاضَ اللَّفظِ بـاسـِمـةَ الزَّهْرِ
وتَشـتاقُ مِن إحسـانكَ الحُلوِ رسـمها ولا عجـبَ شَـوقُ الرِّيـاضِ إلى القَطرِ

ابن نباتة:

أقـولُ وقـد جـاءَ الـغـلام بصَـحـنِهِ عُقَيـبَ طَعـامِ الفِطرِ: يـا غـايـةَ المُنَى
بِعَيشِـكَ قُلْ لي: جاءَ صَـحنُ قَطائفٍ وبُحْ بـاسْـمِ مَن تهوى ودَعْنِي مِن الكُنَى

الصلاح الصفدي:

أتـانـي صَـحـنٌ مِن قَطـائـفـك الـتـي غَـدَتْ وَهْيَ رَوضٌ قَـد تَنَبَّـتَ بـالقَطْرِ
وَلا غَرْوَ أنْ صـــدَّقْتُ حُلـوَ حَديثـهـا وســُكَّرُهـا يَـرويـهِ لـي عَـن أبِـي ذَرِّ

وما أحسن قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في منزلة القطيفة:

هَذِي القُطَيِّفَةُ الَّتِي لا تُشْتَهى عَقلًا ونَقْلَا
حُشِيَتْ بِبردٍ يابسٍ فلأجْلِ ذاكَ الحَشْوِ تُقْلَى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي، وكتب بها إلى القاضي نور الدين بن حجر، والد سيدنا القاضي شهاب الدين، رحمهم الله:

أمولايَ نورَ الدِّينِ ضيفُكَ لمْ يَزِلِ يَروي مَكارمك الصَّحيحة عن عَطا
صَدَقتْ قطائفك الكبارُ حلاوةً بفَمِي وليسَ بمُنكرٍ صِدقَ القَطا

وأنشدني القاضي بدر الدين بن الدماميني قال: أنشدني شرف الدين عيسى بن حجاج العالية لنفسه:

تَهَنَّ بِنِصف كم به من حَلاوة وَجُدْ لي بفضلٍ لا يَضيعُ ثَوابُهُ
فإنَّ لساني صارمٌ وفَمِي لَهُ قِرابٌ وأرجو أن يُحلَّى قِرابُهُ

وأنشدني من لفظه لنفسه شيخنا زين الدين بن العجمي، أحد فضلاء الديار المصرية، وقد أُهديَ له حَلاوة سَكْب:

لِفَضلِكَ يا قاضي القُضاةِ مَزِيَّةٌ على السُّحْبِ لا تَخفى على مَن له لُبُّ
فأوَّلُ جُودِ الغَيثِ قَطرٌ مُبَدَّدٌ وَغَيثُ نَداكَ الجَمُّ أوَّلُهُ سَكْبُ

قال المشد:

وَقَطائفُ مِثلُ البُدورِ أَتَتْ لَنا مِن غَيرِ وَعْدِ
فَحَسِبْتُها لمَّا بَدَتْ في صَحنِها أقراصُ شَهدِ

السِّراج الورَّاق:

قَطائِفُكَ الَّتي رَقَّتْ جُسومًا لِمَاضِغِها كَما كثفتْ قُلوبا
كغَيمٍ رَقَّ لكنْ فيهِ قَطرٌ غَدَا المَرعَى الجَديبُ بِه خَصيبا

وقال أبو الحسن الجزَّار يستهدي قطرًا:

أَيَا عَلَمَ الـدِّيـنِ الَّذي جُودُ كَفِّهِ | بِراحتِـهِ قـدْ أَخْجَـلَ الغَيـثَ والبَحرَا
لَئِنْ أَمْحَلَـتَ أرضَ الـكُنـافـة إنَّنـي | لَـأَرْجُو لَها مِن سُـحبِ رَاحَتِكَ القَطرَا

وله:

سَـقَى اللهُ أكنـافَ الكُنـافـةِ بـالقَطرِ | وجَـادَ علـيـهـا سـكَّـرٌ دائـمُ الـدَّرِّ
وَتَبًّا لأوقـاتِ المُخَلَّلِ إنَّهـا | تَمرُّ بِلا نَفعٍ وتُحسـَبُ مِن عُمرِي
ولـي زوجـةٌ إنْ تَشـتَهِي قـاهِرِيَّةً | أقولُ لهـا: مـا القـاهريـة في مصـر

ولمؤلفه:

رئـيـس الشـام إن الـعشـر وافـي | ومـا لـي غـيـر جـودك مـن مـعـينِ
وعـائـلـتـي تـروم الـقـطـر مـنـي | ومـا عـنـدي سـوى قطـر الـجفـون

ولمؤلفه أيضًا:

عـيـالـي خـمـسـة رامـوا | حـلاوى الـعشـر يـا صـدري
وكـفـي عـطـل مـن ورق | فـحـلـى الـخـمـس بـالـعشـرِ

وقال المعلم المرصص:

وَحَقِّكِ مـا أولـيـتـي مِن لَطـائـفٍ | ألـذُّ وأحلى مِن وِصـول القطـائفِ
وقـد ضَـمـنَتْ مِثـلَ الـعِتـابِ حَلاوةً | أَلَمْ تَرَهـا مَلفوفـةً كـالصـحـائفِ

ابن نباتة:

رَعَى اللهُ نَعـمـاكَ الَّتـي مِن أَقَلِّهـا | قَطـائفُ مِن قَطرِ النَّبـاتِ لَهـا قَطرُ
أَمُدُّ لَهـا كَفِّي فَأَهـتَزُّ فَرحـةً | كَمـا انْتَفَضَ العُصـفورُ بَلَّلَـهُ القَطْرُ

وله:

شُـكْرًا لِبِرِّكَ يـا غـيـثَ الـعُفـاةِ وَلَا | زالـتْ مَـدائِـحُـكَ الـعَلـيـاءُ تُنْتَخَـبُ

قَد جُدْتَ بـالقَطرِ حتَّى زِدْتُ في طَمَعٍ ... وأوَّلُ الـغَيـثِ قَطـرٌ ثُـمَّ يَـنسـكِـبُ

سعد الدين بن عربي:

قـال الـقـطـائـف لـلـكـنـافـة: مـا ... بـالـي أراكِ رقـيـقـةَ الـجَسَـدِ
أنـا بـالـقـلـوب حـلاوتـي حُشِـيَتْ ... فَـتَـقَـطَّـعِـي مِـن كَـثـرةِ الـحَسَـدِ

ولآخَر في أَقرِصةِ البَسَنْدُود:

أَقـرِصـةٌ هَشَّـةٌ مُدوَّرةٌ ... كـأنَّـهـا فـي الـنَّـقـاء كَـافُـورُ
كـأنَّهـا فـي الصِّـحـافِ مُطـبـقـةً ... دَراهـمُ فَـوقَـهـا دَنـانـيـرُ

كتب سيدنا القاضي صدر الدين بن الأَدَمي إلى سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد بن الدماميني ملغزًا في لوزنيج: يقبِّل الأرض وينهي أنه أصدرها عن صدر محرور، وقلب لانقطاعه عن الباب الكريم مكسور، فأسبلْ عليها من فضلك الستور، واعذر فإنها نفثة مصدور:

يـا مَن لـه في عَروضِ الشِّـعر أي يـدٍ ... فـاقَ الخليـلَ بِهـا فَضـلًا وتَمكِينـا
مـا اسْـمٌ دَوائِرُهُ فـي نـظـمـه ائْتَلَفَتْ ... والثَّلْمُ في صـدرها مُسـتَعمَلٌ حِينا
أجزاؤه من زِحافِ الحَشـوِ قَد سَـلِمَتْ ... هـذا ويَـقـطَـعُ مَـطـويًّـا ومَـخـبُـونـا
تَصـحيفُ مَعكوسـهِ لفظٌ يُرادِفُهُ ... يـا فَـردُ يـا رُحلـةً قَـومٌ مُـقـيـمُـونـا
والـعـبـدُ مُنـتـظِرٌ مِن حَلِّه فَرَجًا ... لا زالَ سـعـدُكَ بـالإقبـال مَـقـرُونـا

وقد جهزها لتنوب عنه في تقبيل اليد الكريمة، وتستمطر من سحائب جوده الصيب ديمة.

فكتب إليه الجواب: يقبِّل الأرض وينهي ورود المشرفة التي عَذُبَ معناها، وشهد أهل الذوق بحلاوة مَجناها، وحاول العبد حلَّ لغزها المسير فإذن دون شهده إبر النحل، وقرنه بألغاز المتأدبين فإذا هو مخصب النبات بتوالي القطر، وإذا تلك مطرقة المحلِّ بالمحل، وكادت مرارة الفقير تنفطر لعجزه عن هذه الحلاوة، وجرى على عادته في الأسف المكرر حيث فقد هذا الرونق وتلك الطلاوة، ولكنه عقد الفضيحة على نفسه بعد أن استقال، وتجاسر بعد الخوف على نظم الجواب فقال:

يـا مُرسِـلًا مِن شَـهِيِّ النَّظْمِ لي كَلِمًا ... منهـا ابْنُ سـكَّرةٍ قـد راحَ مَغبونـا

للهِ دَرُّكَ صَـــدرًا مِن حَلاوتـــه وجَـوهـرُ الـنَّـظـمِ لَـم يَـبـرَحْ يُـحـلِّـينـا
حَلَّيـــتَ لُغـــزَكَ إذْ أَبْهَمْتَهُ فَلِذا يـا فـاتِني رُحْـت بـالإعجـابِ مَفتونـا
هــذا وكــم قــد رأَيْنــا فـــي دوائِرِهِ للكَفِّ قَبضـــًا يَزيـدُ العقـلَ تَمكينـا
وكُن لنا هـاديًا صـــوبَ الصَّـــوابِ ودُمْ فِينـا أمينًـا رَشـــيـدَ الرَّأيِ مَــأمُونـا

والله تعالى يحلِّي أفواه ذاكريه بما هو أشهى من اللوزينج وأحلى، وأعناق المتأدبين من كلمه بما هو أنفس من الدُّرِّ وأغلى، ويَكلَؤه في الإقامة والارتحال، ويَقِي عيشه كل مرٍّ ويحفظه على كل حال.

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي ملغِّزًا:

هــذان لُغــزان قَد حـلَّا بـبـابـك يـا قـاضـــي البريَّة ما هـذان خصـــمانِ
اســـمـانِ كـلٌّ خمـاســـيٌّ إذا كتبـت حــروفــه وهُــمــا لا شــــكَّ حـرفـان
تبـاينـا في الورى شـــكلًا إذا نظرا وصـــورةً وهُمـا في الأصـــل مِثلان
يُرى بكـانون إصــــلاح لشــــأنهمـا كمـا لأصــــلهمـا نفـع بنســـيـان
في مصــر والشـــام منســوب لأصـلهما يُضـــاف يا خير بســـتان لبســـتان
لكنْ إلى الصــــين منســـوبٌ مَقرُّهمـا إنْ أُحضـــرا في مكـانٍ بـين إخـوان
لــذا كُنَّى وهـو بـين النـاس ليس لـه من كنيــةٍ مـا انتحى في ذاك اثنـان
في البَرِّ يُلقى وإنْ فتَّشـــتَ عنـه تَجِدْ في لُجَّـةِ البَحرِ يُلقى خُمســـه الثـاني
نَبـتٌ أرى الـنـار قـد أبـدتْ لـه وَرقًا فـاعـجـبْ لـه ورقًـا يـنـمـو بـنـيـران
يحيـا إذا مـا سَـــقـاه القطرُ وابلـه وجـاده بســَـحـابٍ مـنـه هــتَّـان
كـبـاقـةٍ هــو لــكـن لا يُشــــمُّ ولا يُضـــاف يومًـا إلى أزهـارِ بســـتـان
ذو رِقَّةٍ فــإذا صَـــحَّفْتَهُ ظـــهــرتْ كُنـافـةٌ مـنـه فـاســـترهُ بكـتـمـان
وكـــم لـــه مـــن بُدورٍ كُمَّلٍ طَلَعَتْ في ســـائرِ الشـــهر لمْ تُمحَقْ بنقصـــان
فـقـدهـا خـيـط فـجـر أبـيـض عـجـل بـالبرق يســـطو عليها ســـطوةَ الجاني
يا حُســـنها أَلْسُـــنًا أضـــحتْ حَلاوتُها يَحلو الـمـديحُ لهـا مِن كـلِّ مِلســـان

تُطوَى على الحشــوِ أحشــاءٌ وليس له   فـي الأشـــعـريَّـة مِـن رامٍ بـنُـكـران
بـالطَّيِّ والنَّشـــرِ في حالٍ قد اتَّصـــفَتْ   والطي والنشـــر في مـا قيـل ضـــدَّان
كمْ ســـكرت فَفَتَحْنـا لـلـدخولِ بـهـا   أبـوابَـهـا فَـتَـلَـقَّـتْـنـا بـإحسـان
حَســنـاءُ أجمعَ أهـلُ الحـل أجمعُهم   والـعـقـد منَّـا عـلـيـهـا بـعـد عِـرفـان
وصـــالهـا حـلٌّ بـالإجمـاع في زمن   فيـه الـوِصـــال حـرامٌ عـنـدَ أعيـان
ثُلُثَا ثـلاثـةِ أخـمـاسٍ لـهـا وجـدا   شـــيئًـا يجيء بـإيضـــاح وتبيـان
ومـا ذكرت من الأخمـاس كم نطقـت   صـــدقًا بذكر اســمها من غير بُهتان
وخـمســـهـا جـبـل لـكـن بـقـيَّـتـهـا   فـي مـكَّـة تـرتـجـي فـوزًا بـغـفـران
تـقـلـى ولـكـن لـهـا قـلـب تـقـربـه   مـمَّـن قَـلاهـا مِـن الأقـوام عـيـنـان
مـا مـلَّ راوٍ مـن الـقـالـي أمـالـيـه   عنهـا ومـا خطر القـالي لهـا شـــان
في الجوف منـهـا قلوبٌ جمَّةٌ جُمِعَت   ولا يكون لـجـوفِ الشـــخص قلبـان
كم ظـلَّ يطرحهـا مَن ليسَ ذا شَـــرَفٍ   جـهـرًا ويـوصـــف مع هـذا بـإتقـان
جميلة الوصـــف طابت عنصـــرًا وزَكَتْ   أصـــلًا ومـا سَـــلِمَتْ مِن طَعْنِ طعَّان
بـالحـل أنعمْ سَـــقَى القطرُ المواطئَ من   أقـدامِ ســَـعْـيِـكَ فـي إرواءِ ظَـمـآنِ

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى بعض أصحابه وقد أرسل قطرًا رديئًا: وينهي أن الذي أرسل إليه مولانا الوصول، وأحال عليه بالبر المحصول، أرسل قطرًا ولكن بزيادة حرفين، فإذا هو قطران، وبكسر أوله فإذا هو لسدِّ الأمل الواحد قِطران، عندما شمَّه المملوك أنكره، وعندما عاينه استغرب كدره، حتى حلف بالسجدة ما هو إلَّا دخان، وقالت عينه المنتظرة: خيرٌ من هذا القطر قطر الأجفان، وقال الفكر: ما هذه إلَّا فعلة الواسطة التي فعلها وهو من الظالمين، وهمته التي بعثها وهو من الآثمين، وردَّ المملوك ذلك المرسل بالعيب لوقته، وعجبت من الأيادي كيف نفض عليها سواد محبته، وعلى كرم مولانا تدبير هذه القضية، والله تعالى لا يُخلِ الأمل من وجود سَنَته الشمسية، بمنه وكرمه.

وكتب إلى الجناب العالي العلائي ابن القلانسي وقد أرسل إليه سكَّرًا: يقبل الأرض وينهي وصول البر الذي حلت مواقعه، وجلت صنائعه، وحلت عن أبهى وأبهر من بدر التمام مطالعه، وابيضَّت به

أيادي الكرم، وشب شخصه الجميل وإن كان أشبه شيء بالهرم، فضمه المملوك كنهد الحبيب، وقبله أحلى وأزهر من الثغر الشنيب، وابتهج به نظرًا وفكرًا، ونقطَّه بدمع السرور حتى عاد السكر بالتنقيط شكرًا، وكرر حديثه فقال: هكذا يكون المكرر. وهكذا يبعث قطعة من سحابه المسخَّر، وهذا — والله — البِرُّ الذي لا يستبطئ لديه القصد منجحًا، والفضل الذي هو أحقُّ بقول الأول:

لنـا الجفنـات الغر يلمعن في الضـــحى

أمتع الله العُفاة بيمين مولانا التي أعادت من العيش حلواء، وعتب الدهر خلواء، وشكر عوارفه التي ما فتح على مثلها الطالب جفنه، وأياديه التي حسنت المدح حتى نسي الناس ما قال حسان في آل جفنة.

فصل في الأشربة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ: أي الشراب أفضل؟ فقال: «الحلو البارد». قالوا: أراد العسل.

وقال ﷺ: «سيِّدُ شرابِ أهلِ الدنيا والآخرة الماء».

وقيل لبعضهم: أي الشراب أحب إليك؟ فقال: أعز مفقود وأهون موجود.

وكان المأمون يقول: شرب الماء بالثلج أدعى إلى إخلاص الحمد.

قال الحسن لفرقد: بلغني أنَّك لا تأكل الخبيص. قال: إني لا أقوم بشكره. قال: وهل تقوم بشكر الماء البارد؟

صِفةُ شرابٍ ينفع من العطش والخمار ولهب المعدة: يُؤخذ من ماء الرمانين ومن ماء حماض الأُتْرُجِّ، من كل واحد نصف رطل، ومن ماء الإجاص وماء نقيع التمر هندي، من كل واحد رطل. يطبخ بنار ليِّنة حتى يغلظ ويصير في قوام الأشربة، ويُسقى منه أوقيتان بماءٍ بارد وثلج وماء ورد وماء خلاف.

الفُقَّاع: يُتَّخذ من أصناف من الحلاوات. يتخذ من السكَّر البياض النقي، بأن يُحلَّ بماء الورد، ويطيَّب بالمِسك، ويوعى ويبرَّد بالثلج؛ ويُستعمل ويتخذ من العسل، ويتخذ من ماء الزبيب الحلو السمين، ويتخذ من الدبس، وغير ذلك. ومن الناس من يطيِّبه بالزنجبيل، أو الفلفل، أو القرنفل، مع المسك والماء ورد، وهذا يضر المحرورين. ومن الناس من يَحلُّ شرابَ التفاح ويصبُّه في كِيزان الفُقَّاع

ويبرِّده ويستعمله. وجميع أنواع الفقاع شُربُها الواجب النافع أن يكون قبل الطعام، ويصبر عليها حتى تنحدر، فأما بعده فلا فائدة فيه، غير حشوات يسيرة يلتذُّ الإنسان بخروجها.

فُقَّاع ينفع المحرورين: يُؤخذ من الخبز الحُوَّارى مثل ما يؤخذ من الشعير ويصنع منه فقاع، ويضاف إليه كرفس، ونعنع، وماء الرمان المز، ويُحلَّى بسكر بياض ويستعمل.

وأهل دمشق يأخذون الفقاع الخرجي ويسمونه المُسذَّب لأنه يُعمل في كيزان محشوَّة بالسَّذَاب البري، فينفضونه في الأواني النظيفة، ويرمون فيه قطعة سكر بياض، ويعصرون عليه ليمونًا أخضر قَدرَ ما يطيب لهم حمضه، ويحرِّكونه بعِيدان نعنع بحيث يظهر طعمه فيه ظهورًا يسيرًا، ثم يبرِّدونه بالثلج، ويُرشُّ عليه الماء ورد وماء الخلاف ويستعملونه. وهذه الصفة تنفع أصحاب الخمار، وتشهي وتطيب النفس وتصرف.

واعلم أن جميع أنواع الفقاع تطيب بالأشياء المناسبة لمزاج شاربه: إن كان المزاج حارًّا كانت المطيبات باردة، وإن كان المزاج باردًا كانت المطيبات حارة.

وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ شهاب الدين أحمد بن الشيخ جمال الدين يوسف الزُّعَيفَرْنِي رحمه الله:

وكِيزانٍ من الفُقَّاعِ جاءتْ زَكَتْ طَعمًا على الشَّهْدِ المُذابِ
هدايًا مِن أحبَّتنا ولكنْ كما قالوا: على ورق السَّذَاب

صفة أُقسما ملوكية: يؤخذ سكر أبيض يعقد جُلَّابًا رقيقًا أرقَّ ما يكون، ويؤخذ دقيق أبيض مثلث يُطبخ مثل العصيدة القوية بغير ملح، ويبرَّد ويُجعل في طَست ويضرب باليد، ويُقلَّب عليه الجلاب مغرفةً بعد مغرفة، وكلَّما زدتَ ضربها باليد زادت رغوتها، إلى أن يصير لها قَوامُ الحريرة الشديدة الثخينة، ثم يُقلَّب عليها فُقَّاع خرجيٌّ، وفي مصر عوض الفقاع أُقسما، فإذا صارت رقيقة اجعلها في وعاء نظيف، ويكون فيه أثر دِبس أو أثر عسل، واجعل معها قبضة سَذَاب مربوطة، وقبضة نعنع كذلك، وأطرافَ طيب القرنفل والباسل والزنجبيل وجوز الطيب وماء ورد ومسك، ويكثِّر فيها من أطراف الطيب ويجعل في مكان دافئ ويُغطَّى بغطاءٍ كبير، فإنها تبقى جميعها كالرغوة، ثم إنها تطلع، فإذا طلعت خذ لها إناءَ زجاج، أو حقًّا يمينًا، وبخره بالعنبر واجعله فيها، واستعمله. وعند استعمالها انفض عليها فقَّاعًا خرجيًّا، فهذا النوع من الأقسما هو أطيب المشروبات.

صفة نقوع مشمش: يؤخذ المشمش اللوزي أو غيره، ويُغسل من التراب والغبار غسلًا مستقصًى، ثم يصب عليه ماء اللَّينُوفَر، وماء لسان الثور، وماء ورد، ويعصر عليه ماء رمان طري حامض، ويرمى فيه طاقات نعنع، ثم يحلَّى بسكر بياض، ويترك حتى ينتقع المشمش في هذه المياه المذكورة نقعًا معتدلًا لا يبلغ أن يتهرى في إناء مبخر بالعنبر، فإنه يجيء في غاية الطيبة واللذة. ومن أراد أن يتنقل بالمشمش اليابس الطيب فيأخذ ماء ورد ومسكًا يُحلَّان في سكر فائق وقليل ماء، ثم ينقع المشمش فيه بعد غسله بحيث لا يتهرى في نقعه، بل يكون فيه قوة ظاهرة، ثم يخرج المشمش من الماء المنقوع فيه، ويجفف تجفيفًا معتدلًا في مكان نظيف، ثم يتنقل به، فإنه يكون في غاية الطيبة.

ومن الأدعية المستعملة بين الناس قولهم: هنيئًا مريئًا. فالهنيء: الطعام الذي لا يحصل عُقَيبَ أكله أو هضمه ضرر، والمريء: السريع الهضم.

الباب الرابع والثلاثون

في بيت الخَلاء المطلوب

قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله: الخلاء، بالمدِّ، في الأصل هو: المكان الخالي، كانوا يقصدونه لقضاء الحاجة، ثم كَثُرَ حتى تجوَّز به عن غير ذلك.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال: «اللهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخبائث». والخبث (بضم الخاء والباء): جمع خبيث. والخبائث: جمع خبيثة. استعاذ من ذكران الشياطين وإناثهم.

قال بعضهم: إذا كَمُلَ للإنسان في داره حُسنُ ثلاثة مواضع لم يبالِ ما فاته منها، وهي: مجلس السكن، والدِّهليز، والكَنِيف.

وفيه يقول القائل:

بيتٌ إذا ما زاره زائرٌ فقد قضى أعظم أوْطَارِهِ
يَدخُلُهُ المَولَى ببَزٍّ كما يدخله العبد بأطمارِهِ
وهو إذا ما كان مُسْتنظفًا مرآة الإنسانِ في دارهِ

وكان جعفر الصادق يقول: مِن سعادةِ المرء سَعة داره، وحسن مجلسه، ونظافة مُتوَضَّأِه.

حكيَ عن بعض الحمقى أنه استدان سبعمائة درهمٍ وأنفقها على كَنيف داره، فبلغ ذلك بعض إخوانه الظرفاء فقال: ليتَ شِعْري، ما الذي يريد أن يخرأ فيه؟

وحكى أبو الفرج الأصبهاني في أخبار العَرْجيِّ عن الأصمعي قال: مررت بكنَّاس يكنِّس كنيفًا وهو يغني:

أضـــــاعُونِي وأيَّ فُتًى أضـــــاعــوا لِـيَــومِ كَـريــهــةٍ وَســــِدادِ ثَــغْــرِ

فقلت: أما سِداد الكنيف فمعلوم، وأما سداد الثغر فلا علم لنا بك كيف أنت فيه؟ وكنت حديث السن وأردت العبث به.

فأعرض عنِّي مليًّا ثم أقبل عليَّ وأنشد:

وأُكـــرِمُ نَفسِــــي إنَّنِي إنْ أهَنْتُهــا وحَـقِّـكَ لَـم تُـكـرَمْ عـلـى أحـدٍ بَـعـدِي

فقلت له: والله، ما أكرمتها! وما يكون من الهوان أكثر مما أهنتها به. فبأيِّ شيء أكرمتها؟ فقال: بلى والله، وإنَّ من الهوان لشرًّا مما أنا فيه. فقلت: وما هو؟ قال: الحاجة إليك وإلى أمثالك! فانصرفت عنه وأنا أخزى الناس.

ومن آداب المُضيف أنه يُرِي الضيف بيت الخلاء. قال ملك الهند: إذا أضافك أحد فأرِهِ الكنيف، فإني قد ابتُلِيتُ فوضعتُ في قَلَنْسُوتي.

نادرة: قيل: إن رجلًا حكى قال: كنت بائتًا في بيتٍ بين جماعة، وكنت ضيفًا، فتحرَّكت بطني في أثناء الليل، فقمت فلم أجد موضعًا، فطُفتُ في البيت فإذا أنا بمهدٍ فيه طفل، فأخذت الطفل في حِجري، ثم خَرئت في المهد، ثم رجعت لأردَّ الطفل في المهد فإذا به قد خَرِئَ في حجري أضعاف ما خرئت في مهده، فما جرى عليَّ كائنةٌ أعظم منها.

قلت: الطبيعة مكافئة.

ومثلها: حُكيَ أنَّ دُعبُل بن علي الخُزَاعيَّ دعا أبا هِفَّان فأطعمه ألوانًا كثيرةَ الحبوب، وسقاه نبيذًا حلوًا، وأمر الجواري أنْ لا يدلُّوه على بيتِ الخلاء، ثم تركه ونام، فلما أجهده الأمرُ قال لبعض الجواري: أين الخلاء؟ فقالت لها الأخرى: ما يقول سيدي؟ قالت: يقول: غَنُّوني. فغنت:

خَلَا مِن آلِ عـــالـــيـــةَ الـــدِّيـــارُ فَـمَـثْـوَى أهْـلِـهـا مِـنـهـا قِـفـارُ

فغنت هذه، وضربت هذه، وزمرت هذه، وشربوا أقداحًا وسقوه، فقال: أحسنتم وأجودتم، غير أنَّكم لم تأتوا على ما في نفسي. وسكت، فلما أجهده الأمر قال: لعل الجارية بغدادية لم تفهم ما قلت لها. ثم التفت إلى أخرى فقال لها: فداك أبوك، أين المُسْتراح؟ فقالت الأخرى: ما يقول سيدي؟ قالت: يقول: غنوني. فغنت:

وَأَســـْـتَـرِيــحُ إلــى لَيـلَـى فــأذْكُرُهــا		كمــا اســـتراحَ عَليـلُ مِن تَشـــكِّيـهِ

فغنت هذه، وضربت هذه، وزمرت هذه، وشربوا أقداحًا وسقوه، فقال: أحسنتم، غير أنكم لم تعلموا مرادي. ثم أجهده الأمر فقال: لعلها بصرية لم تفهم ما قلت لها. فقال للأخرى: أين المتوضأ؟ فقالت الأخرى: ما يقول سيدي؟ قالت: يقول: غنوني. فغنت:

توضـــَّـأْ للصـــلاة وصـــلِّ خمسًـــا		وبــاكــر بــالمــدام عــلــى الــنـديــم

فغنت هذه، وضربت هذه، وزمرت هذه، وشربوا أقداحًا وسقوه، فقال: أحسنتم وأجودتم، غير أنكم لم تأتوا على غرضي. ثم قال: لعلها ما فهمت. ثم قال لإحداهن: فداك أبوك، أين الحَشُّ؟ فقالت الأخرى: ما يقول سيدي؟ قالت: يقول: غنوني. فغنت:

وَحَاشَـــاكِ أنْ أدْعُو عــلــيــكِ وإنَّمــا		أردتُ بـهـذا القـولِ أنْ تَقْبَلِـي عُـذْرِي

فغنت هذه، وضربت هذه، وزمرت هذه، وشربوا أقداحًا وسقوه، فقال: أحسنتم وأجودتم، غير أنكم لم تأتوني ما في نفسي. ثم أجهده الأمر فقال: لعلها كوفية. ثم قال للأخرى: فداك أبوك، أين الكنيف؟ فقالت الأخرى: ما يقول سيدي؟ قالت: يقول: غنوني. فغنت:

تَكَنَّفَنِي الــواشُـــونَ مِن كُلِّ جــانــبٍ		ولــوْ كــانَ وَاشٍ واحــدٌ لَـكَـفــانِي

فغنت هذه، وضربت هذه، وزمرت هذه، وشربوا أقداحًا، فما تمالك حتى وثب وحلَّ سراويله وذرق في وجوههن، فتصارخن، فانتبه دعبل فقال: ما شانك يا أبا هفان؟ فقال:

تَكـنَّفـنِي السُّـــلاحُ فــأَضْـــجَرُونِي		عــلــى مــا بــي بُـنَـيَّـاتُ الـزَّوَانِي
فـلـمَّا قـلَّ عـن حـالـي اصْـــطِبـارِي		رَمَـيـتُ بِـهِ عــلــى وَجـهِ الـغَـوانِي

فقام دعبل فدلَّه على الخلاء، فدخل واغتسل، وخلع عليه بعد أن ضحك منه ضحكًا عظيمًا.

وما أظرف قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

أَمِطْ بــــالـــدَّواءِ ثِيــــابَ الأذَى		وَطِــبْ فــي الــرَّواحِ بِــهِ والــغُـدُوْ
وكَرِّرْ أحـــاديـــثَ بَيـــتِ الــخَلا		وَلَـكِـنْ عَـلــى رَغْـمِ أَنـفِ الـعَـدُوْ

ولبعضهم يستحثُّ:

يـــــا قــــاعـــــدًا مُتَفَكِّرًا لِـمَــنِ الـوِلَــايــةُ بِـالــعِـراق
ارْحَمْ فَدَيْتُكَ مُدْنِفًا قَـد لَـفَّ سـاقًـا فَـوقَ سـاق

نادرة: قال رجل لآخر يمدحه: أنت من بيت الطهارة! فقال الرجل: دعني من هذا المدح. فقال: صدقت؛ الشكر في الوجه ذم، ولكن أنا أذكرك في الخلاء.

حكي أن بعض الكتَّاب كان يلقَّب بجعيص، فلقيه بعض حرفائه فقال له: أوحشتني يا جعيص! وأين كنت؟ فأنشده:

وحَيـثُ مـا كـنـتُ مِن بـلادٍ فَـلِـي إلـى وَجْـهِـكَ الْـتِـفـاتُ

قلت: وضمَّن هذا الشيخُ بدرُ الدين بن الصاحب فقال:

يـا كَعـبـةَ اللهِ إنْ رَحَلْنـا وطـالَ مـا بَـيـنَـنـا الشـَّـتـاتُ
فَحَيـثُ مـا كـنـتُ مِن بـلادٍ فَـلِـي إلـى وَجْـهِـكَ الْـتِـفـاتُ

كان لبعض المغفَّلين دار، فقال له الساكن: إن الكنيف قد انفتح. فقال له صاحب الدار: نظرتُ إليه من أيامٍ، وأردت أن أتغدى به قبل أن يتعشى بي، فسبقني.

قلت: الشيء يُذكر بلوازمه. نقلت من خط الفاضل المؤرخ الناظم، الناثر الرحَّال، صاحب المؤلفات المبدعة، نور الدين علي بن سعيد، من كتابه الذي سمَّاه بالمُغرب في حلى المَغرب، قال في ترجمة أبي العباس أحمد بن القاسم، وهو الذي يقول فيه ابن تقي في موشَّحته المشهورة التي منها:

أمَّا ترى أحمد في مجده العالي لا يُلحق أطلعـه المغربُ فـأرِنـا مِثلـه يـا مَشـرق

وجرت له معي حكايات، أكرُمها حكايته وقد وفد عليه مرة فوجده قد عرَّج عن الارتياح، وأقلع عن شرب الراح، وكانت له عادة بإحضاره لمجلس راحته عندما يصل، فخطب ذلك منه فأعلمه بتوبته، وتكلف له مجلسًا فيه أصحابه ومن يشرب من أقاربه، وحضر هو فيه عازمًا على المؤانسة دون المشاركة في شراب، فقال ابن تقي موشحته المشهورة:

نـديمًـا قـد تـابَ غَنِّ لـه واشـدُ واردُدْ عليـه الكـأسَ عَسـاه يَرتَد

فارتد عن توبته، وشرب كأسه من نوبته، وأتى من المطايبة والطرب، ما أقر به عين الظرف والأدب، ولما أخذ السُّكْر من ابن تقي قام إلى المستراح، وفي وسطه كيس فيه جملةٌ من الذهب الذي جرت عادة أبي العباس أن يصله به في كل سفرة وما اجتمع له من غيره، فحطَّه في كوَّة المستراح حتى يقضي شغله، ومضى لما فرغ ونسي الكيس لِما كان فيه من السكر، ونام فلما أصبح وصحا قلَّب وسطه ليطلب الكيس فلم يجد شيئًا، ونظر إليه أبو العباس فقال له: ما لك؟ فأخبره فقال: أنا أخذته منك البارحة لئلَّا يضيع منك، وإذا احتجت إليه دفعته إليك. واستفْهَمَهُ عن عددِ ما فيه فأخبره، فلما دخل إلى منزله جعل في كيس من عنده ذلك العدد ودفعه إليه، وابن تقي لا يشك أنه ذهبُه، ثم ودعه وانصرف. ولما اجتاز عليه في سفرة ثانية حضر في ذلك المجلس ليلةً على مثل تلك الحالة، فلما سكر قام إلى المستراح، ثم تفكر في حالة السكر أنه كان قد حلَّ هناك سراويله ووضع الكيس في الكوة، فمد يده إلى الكوة فوجد الكيس بعَيْنِه، فأخذه وجعله في وسطه، ثم عاد لشربه والمجلس غاصٌّ محتفل بالأعيان، فبكى ابن تقي وكدَّر المجلس، فظنَّ أبو العباس أنه جرى عليه ما أوجب ذلك فقال له: ما يبكيك؟ هل نابك أمر أكشفه عنك؟ فقال: والله، ما أبكي إلا حسرة على العالَم أنه لا يَخلُدُ مثلُكَ فيه! وحكى الحكاية، فقال أبو العباس: ما كان يسعني في ذلك الوقت إلا ما فعلته لأني خفت أن يكون ضاع لك فتتَّهم به أحد ندمائي ويشيع ذلك، ولا بد من غرمه لك لئلَّا تنصرف خائبًا، فكان الأولى غرمه دون أن يفتضح أحد من أصحابنا. فقبَّل الأرض ودعا له، وهذه إحدى مكارمه جدَّد الله عليه الرحمة وجازاه بما هو أهله في جنة الفردوس من النعمة. آمينَ آمين.

رسم لي بعض المخاديم أن أنظم له أبياتًا تُكتَب على الخريشت الذي جدده بعد حريقه وانهدامه في الواقعة المشهورة، وهو الخواجا بدر الدين محمد بن الخواجا شمس الدين محمد بن المزلق، أدام الله سعدهما، بباب البريد بالجامع الأموي، وكان والده قد بيَّضه:

يا بُقعةً لِقَضا الحَوائجِ أُسِّسَتْ ... لا زالَ سَعدُكِ دائمًا يَتزَيَّد
لَمَحَتْكِ مِن بدرٍ وشمسٍ نَظرةٌ ... فغدَا قِرانًا سَعدُه لك يُرصَد
جَدَّدتَ فِعلَ الخَيرِ يا بن مزلق ... لا زال فعل الخير منكَ يُجدَّد
عِشرونَ بَيتًا قد قَصَدتَ رَوِيَّها ... يا خيرَ مَن يَروِي ومَن يتقصَّد
كانَتْ مُسوَّدة وقد بَيَّضتَها ... فالماءُ للأبياتِ منها يُنشَد

وإذا نـظـرتَ إلـى الـبِقـاعِ وجـدتـهـا   تَشـــقَى كما تشـــقى الرِّجالُ وتَســـعَد

الباب الخامس والثلاثون

في نُبلاءِ الأطبَّاء

قال الحكيم الفاضل، الفيلسوف العارف، أبقراط: ينبغي أن يكون الطبيب حرًّا في جنسه، جيدًا في طبعه، حديثَ السن، معتدل القامة، متناسب الأعضاء، جيد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأي عند المشورة، عفيفًا شجاعًا، غير محبٍّ للفضة، مالكًا لنفسه عند الغضب، ولا يكون تاركًا له في الغاية، ولا يكون بليدًا، وينبغي أن يكون مشاركًا للعليل، مشفقًا عليه، حافظًا للأسرار، لأن كثيرًا من المرضى يُوقِفُونا على أمراضٍ بهم لا يحبُّون أن يقف عليها غيرهم، وينبغي أن يكون مُحتَمِلًا للشتيمة، لأن قومًا من المُبَرسَمِين وأصحاب الوسواس السوداوي يقابلونا بذلك، وينبغي لنا أن نحتملهم ونعلم أنه ليس منهم ذلك، وأن سببه المرض الخارج عن الطبيعة؛ وينبغي أن يكون حلق رأسه معتدلًا مستويًا، لا يحلقه ولا يدعه كالجُمَّة، ولا يستقصي قصَّ أظافير يديه ولا يتركها تعلو على رؤوس أصابعه، وينبغي أن تكون ثيابه بيضاءَ نقيَّة ليِّنة، ولا يكونَ في مَشيِه مستعجلًا، لأن ذلك دليل على الطَّيش، ولا متباطئًا لأنه يدل على الفتور، وإذا دُعيَ إلى المريض فليقعد متربِّعًا، ويختبر منه حاله بسكونٍ وتأنٍّ، لا بقلق واضطراب، فإن هذا الشكل والزي والترتيب عندي أفضل من غيره.

وأبقراط هذا أول من برهن كيف يكون المرض والصحة في جميع الحيوان وفي النبات، وهو الذي استنبط أجناس الأمراض وجهات إمداداتها، وكانت له العناية في نفع المرضى ومداواتهم، ويقال: إنه أول من جدَّد البِيمارَسْتان واخترعه وأوجده. وذلك أنه عمل بالقرب من داره موضعًا من بستانٍ له مفردًا للمرضى، وجعل فيه خدمًا يقومون بمداواتهم، وسمَّاه أخشندوكين، أي: مجمع المرضى. وكذلك أيضًا تقع لفظة البيمارستان، وهو فارسي، وذلك أن البيمار بالفارسي هو: المرضى، وستان هو: موضع المرضى.

ولم يكن له دأب في مدة حياته وطول بقائه إلا النظر في صنعة الطب واتخاذ قوانينها، ومداواة المرضى، واتصال الراحة إليهم، وإنقاذهم من عللهم، ولم يكن لأبقراط رغبة في خدمة أحد من الملوك لطلب الغنى، ولا في زيادة المال، وكان أبقراط في زمن بهمن بن إسفنديار بن بستاشت، وظهر أبقراط سنة ستٍّ وتسعين لبُخْتَنُصَّر، وهي سنة أربع عشرة لملك بهمن، وأما تفسير اسمه فإن معناه: ضابط الحِيَل. وقيل: معناه ماسك الأرواح. وقيل: ماسك الصحة. وأصل اسمه باليونانية: إبقوقراطيس، ويقال: هو بقراطيس. وإنما العرب عادتها أن تخفِّف الأسماء، فخُفِّفَ هذا الاسم فقالوا: أبقراط، وبقراط أيضًا. وقد جرى ذلك كثيرًا في الشعر. ويقال أيضًا بالتاء: أبقرات، وبقرات. ومات مفلوجًا.

ومن ألفاظه الحكيمة ونوادره المفردة في الطب قال: الطب قياس وتجرِبة.

وقال: العادة إذا قُدِّمت صارت طبيعةً ثانية، والزجر والفأل حسٌّ نفساني.

وقال: كل مرضٍ معروفِ السبب موجودُ الشفاء.

وقال: لا تأكل حتى تجوع.

وقال: يتداوى كل عليلٍ بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تفرغ إلى عادتها.

وقيل له: لمَ يكون البدن أثور ما يكون إذا شرب الإنسان الدواء؟ قال: لأن أشدَّ ما يكون البيت غُبارًا إذا كُنِّس.

وقال: مَثَلُ المنيِّ في الظهر كمثل الماء في البئر، إن نزفته فارَ، وإن تركته غار.

وقال: إن المُجامِع يقتلع من ماءِ الحياة.

وسئل: كم ينبغي للإنسان أن يجامع؟ قال: في كل سنة مرة. قيل: فإنْ لم يقدر؟ قال: في كل شهر مرة. قيل: فإن لم يقدر؟ قال: في كل أسبوع مرة؟ قيل له: فإن لم يقدر؟ قال: هي روحه، في أيِّ وقتٍ شاء يخرجها.

وقال: العافية مُلكٌ خفي، لا يعرف قدرها إلا من عدمها.

وقيل له: أي العيش خير؟ قال: الأمن مع الفقر خير من الغنى مع الخوف.

ودخل على عليل فقال له: أنا وأنت والعلة ثلاثة، فإنْ أعنتني عليها بالقَبول لِما تسمع مني صرنا اثنين وانفردت العلة، فقوينا عليها. والاثنان إذا اجتمعا على واحدٍ غلباه.

وقال: للقلب آفتان، وهما: الغم والهم. فالهم يَعرِض منه النوم، والغم يعرض منه السهر. وذلك أن الغم فيه فِكرٌ في الخوف بما سيكون، فمنه يكون السهر، والهم لا فكر فيه، لأنه إنما يكون بما قد مضى وانقضى.

ومن كلامه في العشق: العشق طمعٌ يَتولَّد في القلب، وتجتمع فيه موادٌّ من الحِرص، وكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج، وشدة القلق وكثرة السهر، وعند ذلك يكون احتراق الدم واستحالته إلى السوداء، والتهاب الصفراء وانقلابها إلى السوداء، ومن طغيان السوداء فساد الفكر، ومع فساد الفكر تكون الندامة ونقصان العقل، ورجاءُ ما لم يكن وتمنِّي ما لا يتم، حتى يؤدي ذلك إلى الجنون، فحينئذٍ ربَّما قَتَلَ العاشقُ نفسه، وربما مات غمًّا، وربما وصل إلى معشوقه فيموت فرحًا وأسفًا، وربما شهق شهقة تختفي فيها روحه أربعًا وعشرين ساعة فيُظنُّ أنه قد مات، فيُقبَرُ وهو حي، وربما تنفَّس الصُّعَداء فيختنق نفسه في تامورِ قلبه فيموت، فينضمُّ عليها القلب فلا ينفرج حتى يموت، وربما ارتاح وتشوَّق للنظر ورأى من يحب فيموت فجأةً دفعةً واحدة. وأنت ترى العاشق إذا سمع بذكر من يحب كيف يهرب دمه ويستحيل لونه، وزوال ذلك عمَّن هذه حاله بلطفِ رب العالمين لا بتدبير من الآدميِّين، وذلك أن المكروه العارض من سببٍ قائم بمفرده بنفسه يتهيَّأ التلطفَ في إزالته بإزالة سببه، فإذا وقع السببان — ولكل واحد منهما علة لصاحبه — لم يكن إلى زوال واحد منهما سبيل، كما إذا كانت السوداء سببًا لاتصال الفكر، وكان اتصال الفكر سببًا لإحراق الدم والصفراء وميلهما إلى السوداء، فالسوداء كلما قويت قوي الفكر، والفكر كلما قوي قوَّى السوداء، فهذا الداء العَياء الذي يعجز عن معالجته الأطباء.

ومن كلامه: الإقلال من الضارِّ خير من الإكثار من النافع.

وقال: أمَّا العقلاء فيجب أن يُسقَوا الخمر، وأما الحمقى فيجب أن يسقوا الخربق.

وقال: ليس معي من فضيلة العلم إلا علمي بأني لست بعالم.

وقال: المالك للشيء هو المسلَّط عليه، فمن أحبَّ أن يكون حرًّا فلا يهوَ ما ليس له، وليهربْ منه، وإلَّا صار له عبدًا.

وقال لتلميذٍ له: إنْ أحببت أن لا تفوتك شهوة فاشتهِ ما يمكنك.

وقال: الدنيا غير باقيةٍ فإذا أمكن الخير فاصطنعوه، وإذا عدمتم ذلك فتحمَّدوا، واتخذوا من الذكر أحسنه.

انتهى ما لخَّصته من ترجمة أبقراط، من طبقات الأطباء، للعلَّامة موفق الدين أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الخزرجي، المعروف بابن أبي أُصَيْبُعة رحمه الله.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة في شرح العيون: ومن ظرائف حكايات أبقراط أن ولدَ أحدِ الملوك عشق جارية من حظايا أبيه، فنحل بدنه واشتدت علَّته، وهو كاتم خبره، فأحضر أبقراط، فجسَّ نبضه ونظر إلى بشرته، فلم يرَ علَّةً، فذاكره حديث العشق فرآه يهتزُّ لذلك ويضطرب، فاستخبر الحال من حاضنته فلم يكن عندها خبر، فقال: هل خرج من الدار؟ فقالت: لا. فقال لأبيه: مُرْ رئيسَ الخصيان بطاعتي. فأمره فقال: أخرِجْ عليَّ النساء. فخرجن وأبقراط إصبعه على نبض الصبي، فلما خرجت الجارية اضطربَ عرقه وحارَ طَبعُه، فعلم أبقراط أنها المعنيَّة، فصار إلى الملك فقال: إن ابن الملك عاشق لمن الوصول إليها صعب. قال الملك: من ذلك؟ قال: زوجتي. فقال: انزل عنها ولك عنها بدل. فتمنَّع أبقراط وقال: هل رأيت أحدًا كلف أحدًا إلى طلاق زوجته ولا سيما الملك في عدله ونصفته، يأمرني بمفارقة زوجتي وهي عديلة روحي؟! فقال الملك: إني أوثر ولدي عليك، وأعوِّض لك أحسن منها. فامتنع حتى بلغ الأمر إلى التهديد والسيف، فقال: إن الملك لا يسمَّى عادلًا حتى يُنصِف من نفسه، أرأيتَ لو كانت العشيقة حظيَّة الملك؟ ففهم الملك المراد وقال: يا أبقراط، عقلك أتم من معرفتك. ونزل عن الحظية لابنه وشُفيَ الفتى.

فِيثاغُورُث

قال القاضي صاعد في طبقات الأمم: إن فيثاغورس كان بعد بندقليس بزمان، وأخذ الحكمة عن أصحاب سليمان بن داوود عليها السلام بمصر، حين دخلوا إليها من بلاد الشام.

ومن كلامه وآدابه وحكمه قال: كما أن بدء وجودنا وخلقنا من الله سبحانه، هكذا ينبغي أن تكون نفوسنا منصرفة إلى الله تعالى.

وقال: الفكرة لله خاصة، فمحبتها متصلة بمحبة الله، ومن أحبَّ الله سبحانه وتعالى عمل بمحابِّه، ومن عمل بمحابه قرب منه، ومن قرب منه نجا.

وقال: الأقوال الكثيرة في الله تعالى علامة تقصير الإنسان عن معرفته.

وقال: ما لا ينبغي أن تفعله احذر أن تخطره ببالك.

وقال: الأشكال المزخرفة والأمور المموَّهة في أقصر الأزمان تتبهرج.

وقال: الأخلق بالإنسان أن يفعل ما ينبغي، لا ما يشتهي.

وقال: الدنيا دُوَل، مرة لك وأخرى عليك، فإن توليت فأحسِنْ، وإن تَوَلَّوْكَ فلِنْ.

وكان يقول: إن أكثر الآفات إنما تعرض للحيوانات من عدمها الكلام، وتعرض للإنسان من قبل الكلام.

وكان يقول: من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به مكروه كما ينزل بغيره: العجلة، واللجاجة، والعُجب، والتواني. فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة العجب البغضاء، وثمرة التواني الزلَّة.

ونظر إلى رجلٍ عليه ثياب فاخرة يتكلم فليحن في كلامه، فقال له: إمَّا أن تتكلم بكلامٍ يُشبه ثيابك، أو تلبس لباسًا يشبه كلامك.

وقال: استعمل الفكر قبل العمل.

وقال: كثرة العدو تقل الهدو.

وحضرت امرأتَه الوفاةُ في أرضِ غُربةٍ، فجعل أصحابه يتحرَّقون على موتها في أرض الغربة، فقال: يا معشر الإخوان، ليس بين الموت في الغربة والوطن فرق، وذلك أن الطريق إلى الآخرة واحدة من جميع النواحي.

وقيل له: ما أحلى الأشياءِ؟ فقال: الذي يشتهي الإنسان.

وقال: أنكى لعدوك أن لا تريه أنك تتخذه عدوًّا.

انتهى كلامه.

سُقْرَاط

كان من تلاميذ فيثاغورث، واقتصر من الفلسفة على العلوم الإلهيَّة، وأعرض عن ملاذِّ الدنيا ورفضها، وأعلن بمخالفة اليونانيين في عبادتهم الأصنام، وقابل رؤساءهم بالحِجَاج والأدلَّة، فثوَّروا العامةَ عليه، واضطروا مَلِكَهُم إلى قتله، فأودعه الملك الحبس تحمدًا إليهم، ثم سقاه السمَّ تفاديًا من شرِّهم، مع مناظراتٍ جرت له مع الملك محفوظة، وله وصايا شريفة، وآداب فاضلة، وحِكَم مشهورة.

ومعنى سقراطيس باليونانية: المعتصم بالعدل. وبلغ من تعظيمه الحكمةَ مبلغًا أضرَّ بمن بعده من محبي الحكمة، لأنه كان من رأيه أن لا تُستودع الحكمة في الصُّحف ولا القراطيس، تنزيهًا لها عن

ذلك. ويقول: إن الحكمة طاهرة مقدَّسة، فلا ينبغي أن تستودعها إلا الأنفسُ الحيَّة وتنزهها عن الجلود الميتة.

ولم يصنِّف كتابًا ولا أملى على أحدٍ من تلاميذه ما أثبته في قرطاس، وإنما كان يلقِّنهم علمه تلقينًا لا غير، وتعلَّم ذلك من أستاذه طِيمَاوُس، فإنه قال في صِباه: لا تدعني أدوِّنُ ما اسمع منك من الحكمة؟ فقال له: ما أوثقك بجلودِ البهائم الميتة، وأزهدك في الخواطر الحية! هَبْ أن إنسانًا لَقِيَكَ في طريقٍ فسألك عن شيء من العلم، هل كان يحسن أن تُحِيلَهُ على الرجوع إلى منزلك والنظر في كتبك؟ فإن كان لا يحسن فالْزَمْ الحفظ. فلزمه سقراط.

ومن آداب سقراط وحكمه ونوادره ما ذكره الأمير المبشر بن فاتك في كتابه قال: قال سقراط: عجبًا لمن عرف فَناءَ الدنيا كيف تُلهيه عمَّا ليس له فناء. وقال: النفس جامعةٌ لكل شيء، فمَن عرف نفسه عرف كل شيء. وقال: ما ضاع من عرف نفسه، وما أضيع من جهل نفسه.

وقال: ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقود، والحسود، وحديثُ عهدٍ بغنًى، وغني يخاف الفقر، وطالب رتبة يقصر قدره عنها، وجليس أهل الأدب وليس منهم.

وقال: خير من الخير، وشر من الشر، مَن عمل به.

وقال: اتقوا من تبغضه قلوبكم.

وقال: من اهتمَّ بالدنيا ضيَّع نفسه، ومن اهتم بنفسه زهد في الدنيا.

وقال: طالب الدنيا إن نال ما أملَ تَرَكَهُ لغيره، وإن لم ينل ما أمل مات بغصَّته.

وقال: من أحبَّ أن لا تفوته شهوة فلْيَشْتَهِ ما يمكنه.

وقال له رجل شريف الجنس وَضِيعُ الخلائق: أما تأنف نفسك يا سقراط من خساسة جنسك؟ فأجابه: جنسك عندك انتهى، وجنسي مني ابتدأ.

وقال: لا يكون الحكيم حكيمًا حتى يغلب شهواتِ الجسم. وكان يقول: القِينة مخدومة، ومن خدم غير ذاته فليس بحُرٍّ.

وقال: إنما جُعِلَ للإنسان لسان واحد وأذنان ليكون ما يسمعه أكثر مما يتكلم به.

وقال: أنفع ما اقتناه الإنسان الصديقُ المخلص.

وقال: الصامت ينسب إلى العِيِّ، والمتكلم ينسب إلى الفضول ويندم.

وقال: إذا ضاق صدرك بسِرِّك فصدر غيرك به أضيق.

وقال: من أراد النجاة من مكائد الشيطان فلا يطيعنَّ امرأةً، فإن النساء سُلَّم منصوب ليس للشيطان حيلة إلا بالصعود عليه.

وقال لتلميذٍ له: يا بني، إن كان لا بد لك من النساء، فاجعل لقاءك لهنَّ كأكل الميتة لا تأكلها إلا عند الضرورة، فتأخذ منها بقدر ما يُقيم الرَّمَق، فإن أَخَذَ آخذٌ منها فوق الحاجة أسقمته وقتلته.

وقيل له: ما تقول في النساء؟ فقال: هُنَّ كشجر الدِّفْلَى: له رونق وبهاء، فإذا أكله الغِرُّ قتله.

وقال: من قلَّ همَّه على ما فاته استراحت نفسه وصفا ذهنه.

وقال: أفضل السِّيرة طيبُ المكسب وتقدير الإنفاق. وقال: من يُجرِّب يَزدَدْ عِلمًا، ومن يؤمن يزدد يقينًا، ومن يستيقِن يعمل جاهدًا، ومن يحرص على العمل يزدد قوة، ومن يكسل يزدد فَترَةً.

وقال: القِينة ينبوع الأحزان، فلا تقنوا الأحزان.

وقال: لولا أنَّ في قولي: إنني لا أعلم إخبارًا أنني أعلم، لقلت: إنِّي لا أعلم.

أَفْلَاطُون

رومي فيلسوفي يوناني، طبي عالم بالهندسة وطبائع الأعداد، ومعنى اسمه: العميم الواسع. لزم سقراطَ وسمع منه خمس سنين، ثم مات سقراط، فبلغه أن بمصرَ قومًا من أصحاب فيثاغورس، فسار إليهم حتى أخذ عنهم. وبلغ من العمر إحدى وثمانين سنة. وكان حَسَنَ الأخلاق، كريم الأفعال، كثير الإحسان إلى كل أحد غريبًا وقريبًا، مثابرًا حكميًا صبورًا.

ومن كلامه ومواعظه: العادة على كل شيء سلطان.

وقال: من لم يواسِ الإخوان عند دولته خذلوه عند فاقَته.

وقيل له: لمَ لا تجتمع الحكمة والملك؟ فقال: لعِزِّ الكمال.

وقال: إذا أردتَ أن تدوم لك اللذَّة فلا تستوفِ الملتذَّ أبدًا، بل دع منه فضلة تدوم لك اللذة.

وقال: غاية الأدب أن يستحيي المرء من نفسه.

وقال: ما أَلِمَتْ نفسي إلا من ثلاث: من غني افتقر، وعزيز ذلَّ، وحكيم تلاعبت به الجهَّال.

وقال: لا تطلب سرعة العمل، واطلب تجويده، فإن الناس ليس يسألون في كم فرغ من هذا العمل، وإنما يسألون عن جودة صنعته.

وقال: اطلب في الحياة العلم والمال تَحُزِ الرياسة على الناس، لأنهم بين خاصٍّ وعام، فالخاصة تفضِّلك بما تُحسِن، والعامة تفضلك بما تملك.

وقال: عين المحبِّ عمياء عن عيب المحبوب.

وقال: الحِلم لا يُنسَب إلا إلى من قدر على السطوة، والزهد لا ينسب إلا إلى من ترك بعد القدرة.

وقال: الحَسَنُ الخُلُقِ من صبر على السيِّئ الخلق.

وقال: أشرف الناس من شرَّفته الفضائل. وذلك أن من كانت الفضائل فيه جوهرية فهي تشرفه، ومن كانت فيه عرضية تشرَّف بها ولم تشرفه.

وقال: الحَياءُ إذا توسَّط وقف الإنسان عما عابه، وإذا أفرط وقفه عما يحتاج إليه، وإذا قصر حمل عنه ثوب التجمُّل في كثيرٍ من أحواله.

وقال: لا تصحبْ الشرِّير فإنْ طبعك يسرق من طبعه شرًّا وأنت لا تدري.

وقال: من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راضٍ عنك، ذمَّك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك.

وقال: رُبَّ مغبوطٍ بنعمةٍ هي بلاؤه، ورب محسود على حال هي دواؤه.

وقال: الأمل خِداعُ النفوس.

وقال: لا تستكثرنَّ من عشرة حملة عيوب الناس، فإنهم يلتقطون ما غفلت عنه، وينقلونه إلى غيرك كما ينقلونه عنهم إليك.

وقال: الإفراط في النصيحة هجم بصاحبها كثيرًا من الظنَّة.

وقال: ليس ينبغي للرجل أن يشغل قلبه بما ذهب منه، ولكن يعتني بحفظ ما بقي عليه.

وسئل عند موته عن الدنيا فقال: خرجت إليها مضطرًّا، وعشت فيها متحيِّرًا، وها أنا أخرج منها كارهًا، ولم أعلم فيها إلَّا أنني لا أعلم.

أَرِسْطوطَالِيس

وتفسيره: تام الفضيلة.

قال سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل في كتابه عن أرسطوطاليس أنه كان فيلسوفَ اليونان وعالِمها، ونِحْرِيرَها وخطيبها، وطبيبها. وكان أوحدًا في الطب، وغلب عليه علم الفلسفة.

قال المسعودي: وكان أفلاطون يجلس فيستدعي من الكلام فيقول: حتى يحضر الناس. وربما قال: حتى يحضر العقل. فإذا حضر قال: تكلموا فقد حضر العقل.

ومن كلامه وحكمه: رغبتك فيمن زهد فيك ذلُّ نفسٍ، وزُهدك فيمن يرغب فيك قصر همة.

وقال: الجاهل عدو نفسه، فكيف يكون صديق غيره؟

وقال: الحاجة تفتح أبواب الحيلة.

ونظر إلى حَدَثٍ يتهاون بالعلم فقال له: إنك لم تصبر على طلب العلم، وصبرت على شقاء الجهل!

وقال: كفى بالتجارِب تأدبًا، وبالأيام عِظة. وقال: خير الأشياء أجدُّها إلا المودَّات.

وقال: كلام العجلة موكل به الزلل.

وأعاد على تلميذٍ له مسألة فقال له: أفهمتَ؟ فقال التلميذ: نعم. فقال: لا أرى آثار الفهم عليك. قال: وكيف ذلك؟ قال: لا أراك مسرورًا، والدليل على الفهم السرور.

جالِينُوس

وكان مولده بعد زمان المسيح بتسعة وخمسين سنة على ما أرَّخه إسحاق بن حُنَين. وأما قول من زعم أنه كان معاصره، وأنه توجه ليراه ويؤمن به، فغير صحيح. وقد أورد جالينوس في مواضع متفرقة من كتبه ذكر موسى وعيسى، وتبيَّن من قوله أنه كان من بعد المسيح بهذه المدة التي تقدم ذكرها.

ومن ألفاظ جالينوس وحكمه ونوادره ما ذكر حُنَين بن إسحاق في كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء وآداب المعلمين القدماء، قال: الهمُّ فَناء القلب، والغم مرض القلب. ثم بيَّن ذلك فقال: الغم بما كان، والهم بما يكون. وفي موضع آخَر: الغم بما فات، والهم بما هو آت.

ومن كلامه في العشق قال: العشق استحسانٌ ينضاف إليه طمع.

وقال: لِنْ تَنَلْ، واحلمْ تَنْبُلْ، ولا تكن مُعجبًا فتُمْتَهَن.

وقال: الحياء خوف المستحيي من نَقصٍ يقع به عند من هو أفضل منه.

وقال: يتهيأ للإنسان أن يصلح أخلاقه إذا عرف نفسه، فإن معرفة الإنسان نفسه هي الحكمة العظمى، وذلك لأن الإنسان لإفراط محبته لنفسه بالطبع يظنُّ بها من الجميل ما ليست عليه، حتى إن قومًا يظنون بأنفسهم أنهم شجعان وكرماء وليسوا كذلك، وأما العقل فيكاد أن يكون الناس كلهم يظنون بأنفسهم التقدُّم فيه، وأقرب الناس إلى الذي يظن ذلك بنفسه أقلُّهم عقلًا.

ورأى رجلًا تعظمه الملوكُ لشدة جسمه، فسأل عن أعظم ما فعله فقالوا: إنه حمل ثورًا مذبوحًا من وسط الهيكل حتى أخرجه خارجًا! فقال لهم: فقد كانت نفس الثور تحمله، ولم يكن لها في حمله فضيلة.

وقال: إنَّ العليل يتروَّح بنسيمِ أرضه كما تتروَّح الأرض الجَدْبة ببلِّ القطر.

وقيل له: متى ينبغي للإنسان أن يموت؟ قال: إذا جهل ما يضرُّه مما ينفعه.

ومن كلامه أنه سئل عن الأخلاط الأربعة، فقيل له: ما قولك في الدم؟ فقال: عبدٌ مملوك، وربما قتل العبدُ مولاه. قيل له: فما قولك في الصفراء؟ قال: كلب عقور في حديقة. قيل له: فما قولك في البلغم؟ قال: ذلك الملك الرئيس، كلما أغلقتَ عليه بابًا فتح لنفسه بابًا. قيل له: فما قولك في السوداء؟ قال: هيهاتَ، تلك الأرض إذا تحرَّكت تحرك ما عليها.

ومن ذلك قال: أنا ممثِّل لك مثالًا في الأخلاط الأربعة فأقول: إن مثال الصفراء (وهي المرة الحمراء) كمثل امرأة سليطة صالحة تقيَّة، فهي تؤذِي بطولِ لسانها وسرعة غضبها، إلا أنها ترجع سريعًا بلا غائلة؛ ومثل الدم كمثل الكلب، فإذا دخل دارك فعاجِلْه إما بإخراجه أو قتله؛ ومثل البلغم في البدن إذا تحرك مثل ملِكٍ دخل بيتك وأنت تخاف ظلمه وجَوره، وليس يمكن أن تخرق به وتؤذيه، بل يجب أن ترفق به وتخرجه؛ ومثل السوداء في الجسد مثل الإنسان الحقود الذي لا يتوهم فيه بما في نفسه، ثم يثب وثبةً فلا يُبقي مكروهًا إلا يفعلُه، ولا يرجع إلا بعد الجهد الجهيد.

ومن تمثيلاته الظريفة قال: الطبيعة كالمدَّعِي، والعلَّة كالخصم، والعلامات كالشهود، والقارورة والنبض كالبيِّنة، ويوم البُحران كفصل القضاء، والفضل والمرض كالمتوكل والطبيب كالقاضي.

ابن كَلَدَةَ الثقفي

لما وفد على كسرى أنوشروان أذِن له بالدخول، فلما وقف بين يديه مُنتصبًا قال له: من أنت؟ قال: أنا الحارث بن كَلَدة. قال: فما صناعتك؟ قال: الطب. قال: أعرابيٌّ أنت؟ قال: نعم، من صميمها وبحبوحة دارها. قال: فما تصنع العرب بطبيبٍ مع جهلها، وضعف عقولها، وسوء أغذيتها؟ فقال: أيها الملك، إنه إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى ما يُصلح جهلها، ويُقيم عِوَجها، ويَسُوس أبدانها، ويُعدِّل أمشاجها، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه، ويميِّز موضع دائه، ويحترز عن الأدواء كلها بحسن

سياسته لنفسه. قال كسرى: فكيف تعرف ما تُورِده عليها؟ ولو عرفتِ الحلم لم تنسب إلى الجهل. قال: الطفل يناغى فيُداوى، والحيَّة ترقى فتحاوى.

ثم قال: أيها الملك، العقل من قسم الله تعالى، قسَمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم، فكلٌّ مِن قسمته أصاب، وخصَّ بها قومًا وزاد، فمنهم مثر ومعدوم، وجاهل وعالم، وعاجز وحازم، ذلك تقدير العزيز العليم. قال كسرى: فما الداء الدويُّ؟ قال: إدخال الطعام على الطعام، وهو الذي يفني البرِيَّة، ويهلك السباع في البرِّيَّة. قال: أصبت. قال: فما العلة التي تظلم منها الأدواء؟ قال: هي التخمة، إن بقيت في الجوف قتلتْ، وإن تخللت أسقمت. قال: صدقت. قال: فما تقول في الحِجامة؟ قال: في نقصان الهلال، في صحو لا غيم فيه، والنفس طيبة، والعروق ساكنة، لسرور يفاجئك، وهمٍّ يباعدك.

قال: فما تقول في الحمام؟ قال: لا تدخله شبعان، ولا تغشَّ أهلك سكران، ولا تقم بالليل عُريان، ولا تقعد على الطعام غضبان، وارفِقْ بنفسك تكن رخيَّ البال، وقلِّل من طعامك يكن أهنأ لنومك. قال: فما تقول في الدواء؟ قال: ما لزمتك الصحة فاجتنبه، فإنْ هاجَ داءٌ فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه، فإنَّ البدن بمنزلة الأرض: إن أصلحتها عمرت، وإن تركتها خربت.

قال: فما تقول في الشراب؟ قال: أطيبه أهنؤه، وأرقُّه أمْرَؤه، وأعذبه أشهاه، تشربه صرفًا فيوِّرثك صداعًا، ويثير عليك من الأدواء أنواعًا. قال: فأي اللُّحمان أفضل؟ قال: الضأن الفتيُّ، والجدي الرضيع، والقديد المالح مهلك للأكل، واجتنب لحم الجزور والبقر. قال: فما تقول في الفواكه؟ قال: كُلْها في إقبالها وحين أوانها، واتركها إذا أدبرت وانقضى زمانها، وأفضل الفاكهة الرُّمَّان والأُتْرُجُّ، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج، وأفضل البقول الهندباء والخَسُّ.

قال: فما تقول في شرب الماء؟ قال: هو حياة البدن، وبه قوامه، ينفع ما شرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر، وأفضله أمرؤه، وأرقُّه أصفاه. قال: فأخبرني عن أصل الإنسان، ما هو؟ قال: أصله من حيث شرب الماء، يعني رأسه. قال: فما هذا النور الذي في العينين؟ قال: مركبٌ من ثلاثة أشياء، فالبياض شحمة، والسواد ماء، والناظر ريح.

قال: فعلى كم شيء جُبِل وطُبِع هذا البدن؟ قال: على أربع طبائع: المرة السوداء، وهي باردة يابسة؛ والدم حار رطب، والبلغم بارد رطب، والصفراء حارة يابسة. قال: فلمَ لمْ يكن من طبع واحد؟ قال: لو خُلِق من طبعٍ واحد لم يأكل ولم يشرب، ولم يمرض ولم يهلك. قال: فمن طبيعتين، لو كان اقتصر عليهما؟ قال: لم يجز، لأنهما ضدَّان مختلفان يقتتلان. قال: فمن ثلاثة؟ قال: لم يصلح؛ مُوافِقان

ومخالف، فالأربع هو الاعتدال والقيام. قال: فأجمِلْ ليَ الحار والبارد في أحرفٍ جامعة؟ قال: كل حلو حار، وكل حامض بارد، وكل حريف حار، وكل مر معتدل، وفي المر حار وبارد. قال: فما أفضل ما عولج به المرة الصفراء؟ قال: كل بارد لين. قال: فالمرة السوداء؟ قال: كل حار لين. قال: فالبلغم؟ قال: كل حار يابس. قال: فالدم؟ قال: إخراجه إذا زاد.

الشيء بالشيء يذكر. كنت أنشدت سيدي القاضي صدر الدين علي بن القاضي أمين الدين، محمد بن الأدمي، قولَ بعض الفضلاء، وهو:

أصْبَحتَ تُخرِجُني بِغَيرِ جَريمةٍ ... مِن دَارِ إكرامٍ لِدارِ هَوانِ
كَدَمِ الفِصادِ يُراقُ أرذَلَ مَوضِعٍ ... أبدًا ويَخرُج مِن أعزِّ مكان

فأنشدني لنفسه بعد أيام:

قد كنتَ مِثلَ دَمِي صدقت أجله ... وأعزه لا بان عن جثماني
لما فسدت وزدت لم آمن على ... روحي فصلت عليك بالهِجران

قال: فالرياح؟ قال: الحقن اللينة والأدهان الحارة اللينة؟ قال: أَفَتَأْمُرُ بالحقنة؟ قال: نعم، قرأت في بعض الكتب للحكماء أن الحقنة تنقِّي الجوف وتكسح الأدواء عنه، والعجب ممن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد! وإن الجاهل كل الجهل من يأكل ما عرف مضرَّته ويؤثر شهوته على راحة بدنه. قال: فما الحِمْية؟ قال: الاقتصاد في كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح مساحتها، ويسد مسامها.

قال: فما تقول في النساء وإتيانهن؟ قال: كثرة غشيانهن رديء، وإياك وإتيان المرأة المسنَّة فإنها كالشن البالي: تجذب قوتك وتسقم بدنك، وماؤها سم قاتل، ونَفَسها موت عاجل، تأخذ منك الكل ولا تعطيك البعض؛ والشابة ماؤها عذب زُلال، وعناقها غنج ودلال، فُوها بارد، وريحها طيب، وهَنُها ضيق، يزيدك قوة إلى قوتك، ونشاطًا إلى نشاطك. قال: فأيُّهنَّ القلب إليها أميل، والعين برؤيتها أسرُّ؟ قال: إذا أصبتها؛ المديدة القامة، العظيمة الهامة، واسعة الجبين، قَناةُ العِرنِين، كَحلاء لَعساء، صافية الخد، عريضة الصدر، مليحة النَّحر، في خدها رقَّة، وفي شفتيها لعس، مقرونة الحاجبين، ناهدة الثديين، لطيفة الخصر والقدمين، بيضاء فرعاء، جَعْدة غَضَّة بَضَّة، تخالُها في الظُّلمة بدرًا زاهرًا، تبسم عن

أقحوان، وعن مَبسمٍ كالأرجوان، كأنها بيضاء مكنونة، أَلْيَنُ من الزبد، وأحلى من الشهد، وأنزه من الفردوس والخُلد، وأذكى ريحًا من الياسمين والورد، تَفرَحُ بقُربها، وتسرُّك الخلوة بها.

قال: فضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه. قال: ففي أي الأوقات إتيانها أفضل؟ قال: عند إدبار الليل؛ يكون الجوف أخلى والنفس أهدأ، والقلب أشهى والرحم أدفأ، فإنْ أردت الاستمتاع بها نهارًا لتشرح عينيك في جمال وجهها، ويجتني فوك من ثمرات حسنها، ويعي سمعُك من حلاوة لفظها، وتسكن الجوارح كلها إليها، فتجنَّب الشبع، ووقتَ القيلولة، وهيجان الدم.

قال كسرى: لله درُّك من أعرابي! لقد أُعْطِيتَ علمًا وخُصصت فطنةً وفهمًا. وأحسن صِلَته وأمر بتدوين ما نطق به.

تَياذُوق

كان في دولة بني أميَّة، وصحب الحجاج بن يوسف الثقفي، وخَدَمَه بصناعة الطب، ومن وصيته له: لا تأكل حتى تجوع، ولا تتكارَهنَّ على الجماع، ولا تحبس البول، وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك.

وقال: أربعة تهدم العمر وربما قتلن: دخول الحمام على البِطنة، والمجامعة على الامتلاء، وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق، وما مجامعة العجوز ببعيدة منهن.

وقيل: إن بعض الملوك لما رأى تياذوق شاخ وكَبُر خشي أن يموت ولا يعتاض عنه لأنه كان أحذق الأمة في وقته بالطب، فقال له: صِفْ لي ما أعتمد عليه فأَسُوس به نفسي وأعمل به أيام حياتي، فلست آمن من أن يحدث عليك حادثُ الموت، ولا أجد مثلك. فقال تياذوق: أيها الملك، أقول لك عشرة أبواب، إن عملت بها واجتنبت ما عداها لم تعتلَّ مدَّةَ حياتك، وهي: لا تأكل طعامًا وفي معدتك طعام. ولا تأكل ما تضعف أسنانك عن مضغه فتضعف معدتك عن هضمه، ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين، فإن أصل الداء التخمة، وأصل التخمة الماء على الطعام؛ وعليك بدخول الحمام في كل يوم مرة واحدة، فإنك تخرج من جسدك ما لا يصل إليه الدواء؛ وأكثرْ الدم في بدنك تحرس به لنفسك. وعليك في كل فصل بقَيئة ومَسهلة، ولا تحبس البول وإن كنت راكبًا، وأعرض على نفسك الخلاء قبل نومك، ولا تكثر الجِماع فإنه يقتبس ماءَ الحياة منك، فلتكثر أو تقل. ولا تجامع العجوز فإنه يورث موت الفجأة.

فلما سمع ذلك، أمر كاتبه أن يكتب هذه الألفاظ بالذهب الأحمر ويضعه في صندوق من ذهب مرصَّع بالجوهر، وبقي ينظر إليه في كل يوم يعمل به، فلم يعتلَّ مدة حياته حتى جاءه الموت الذي لا بدَّ منه ولا محيص عنه.

بَخْتَيْشُوع

طبيب الرشيد. من كلامه: أربعة تهدم العمر: إدخال الطعام على الطعام، والشرب على الريق، ونكاح العجوز، والتمتع في الحمام.

يُوحَنَّا بن ماسَوَيْه

ومن كلامه وقد سئل عن الخير الذي لا شر معه فقال: شُرب القليل من الشراب الصافي. ثم سئل عن الشر الذي لا خير معه فقال: نكاح العجوز.

يَعْقُوبُ بن إسْحاقَ الكِنْديُّ

فيلسوف العرب. من كلامه: ما أوصى به لولده أبي العباس، قال الكندي: يا بني، الأب ربٌّ، والأخ فخٌّ، والعَمُّ غمٌّ، والخال وَبَالٌ، والولد كَمَد، والأقارب عقارب، وقَولُ: لا، تصرف البلاء، وقول: نعم، تزيل النِّعم، وسماع الغناء برسام حاد، لأن الإنسان يسمع فيطرب، ويُنفق فيُسرف، فيفتقر فيغتمُّ، فيموت. والدينار محموم، فإن صرفته مات، والدرهم محبوس، فإن أخرجته فرَّ، والناس سُخرة، فخذ شيئهم واحفظ شيئك، ولا تقبل ممن قال: إنَّ اليَمينَ الفاجِرةَ تَدَعُ الدِّيار بَلَاقِع.

أَوْحَدُ الزَّمان هِبةُ اللهِ أبو البَرَكاتِ بنُ عَليٍّ

كان يهوديًّا وأسلم. ومن حِذْقه أن مريضًا كان ببغداد قد عَرَضَتْ له عِلَّة الماليخولياء، وكان يعتقد أن على رأسه دَنًّا وأنه لا يفارقه أبدًا، فكان كلما مشى يتحايد المواضع التي سقوفها قصيرة، ويمشي برفقٍ ولا يترك أحدًا يدنو منه، حتى لا يميل الدن أو يقع عن رأسه، وبقي هذا المرض مدة وهو في شدة منه، وعالجه جماعة من الأطباء ولم يحصل لمعالجتهم تأثير يُنتفع به، وانتهى أمره إلى أوحد الزمان ففكَّر أنه ما بقي شيء يمكن أن يبرأ به إلا بالأمور الوهمية، فقال لأهله: إذا كنتُ في الدار فائتوني به. ثم إن

أوحد الزمان أمر أحد غلمانه بأنَّ ذلك المريض إذا دخل وشرع في الكلام معه، وأشار إلى الغلام بعلامةٍ بينهما، أنْ يُسرِع بخشبةٍ كبيرة فيضرب بها فوقَ رأس المريض على بُعدٍ منه، كأنه يريد كسر الدن الذي يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلامًا آخر، وكان قد أعدَّ معه دنًّا في أعلى السطح، أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضُرب فوق رأسه أن يرميَ الدن الذي عنده بسرعة إلى الأرض، ولما كان أوحد الزمان في بيته وأتاه المريض، شرع في الكلام معه وحادثه وأنكر عليه حمله الدن، وأشار إلى الغلام الذي عنده من غير على المريض فأقبل إليه، وقال له: والله، لا بد لي أن أكسر الدن وأريحك منه. ثم أدار تلك الخشبة التي معه وضرب بها فوق رأسه بنحوِ ذراعٍ، وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدن من أعلى السطح، فكانت له وَجْبةٌ عظيمة، وتكسَّر قطعًا كثيرة، فلما عاين المريض ما فعل به ورأى الدن المكسَّر، تأوَّه لكسرهم إياه ولم يشكَّ فيه أنه الذي كان على رأسه بزعمه، وأثر فيه الوهم أثرًا برئ به من علَّته تلك. وهذا باب عظيم في المداواة.

العنتري صاحب النور المجتنى

كان طبيبًا ممارسًا مشهورًا، وعالمًا مذكورًا، وافرَ الفضل، فيلسوفًا متبصِّرًا في علم الأدب.

ومن كلامه: الجاهل عبدٌ لا يُعتق رِقُّه إلا بالمعرفة.

وقال: الحكمة سراج النفس، فمتى عدمتْها عميت النفس عن الحق.

وقال: الأدب أَزْيَنُ للمؤمن من نسبه، وأولى بالمرء من حسبه، وأدفع عن عِرضه من ماله، وأرفع لذكره من جماله.

وقال: مَن أحبَّ أن يُنوَّه باسمه فليكثر من العناية بعلمه.

وقال: الجاهل يطلب المال، والعالم يطلب الكمال.

وقال: الغم ليل القلب، والسرور نهاره، وشرب السم أهون من معاناة الهم.

ومن شعره:

لَوْ كُنتَ تَعلَمُ كُلَّ ما علِمَ الورَى   جَمْعًا لَكُنتَ صديقَ كُلِّ العالَمِ
لكنْ جَهِلتَ فَصِرتَ تَحسَبُ كُلَّ مَن   يَهوَى خِلافَ هَواكَ لَيسَ بِعالِمِ

يحيى بن إسحاق

كان طبيبًا ذكيًّا، وعالمًا بصيرًا بالعلاج، صانعًا بيده، وكان في دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزره. نُقِلَ عنه من حِذقه أنه أتى إليه بدويٌّ على حمارٍ وهو يصيح على باب داره: أدركوني وكلموا الوزير بخبري! فلما خرج إليه قال: ما بالك؟ فقال له: ورم في إحليلي منعني النوم منذ أيام كثيرة، وأنا في الموت! فقال له: اكشف عنه. فإذا هو وارم، فقال لرجلٍ كان قد أقبلَ مع العليل: اطلب لي حَجَرًا أملسَ. فطلب فوجد، فقال: ضَعهُ على كفِّك وضع عليه الإحليل. فلما تمكن إحليل الرجل على الحجر، جمع الوزير يده وضرب على الإحليل ضربة غشي على الرجل منها، ثم اندفع الصَّديد يجري، فلما استوفى الرجل جري الصديد فتح عينيه، ثم بال البول في إثر ذلك، فقال له: اذهب، فقد برئت علَّتُك، وأنت رجل عابث واقعت بهيمة في دبرها، فصادفت شعيرة من علفها في عين الإحليل فورم لها، وقد خرجت في الصديد. فقال له الرجل: قد فعلتُ هذا. وأقرَّ بذلك.

وهذا يدل على حدسٍ صحيح وقريحة صادقة.

ابن جميع الإسرائيلي

من الأطباء المشهورين، والعلماء المذكورين، خدم سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وحظي في أيامه، وكان رفيع المنزلة، نافذ الأمر. ونُقِل عنه من حذقه أنه كان جالسًا في دكانه وقد مرت عليه جنازة، فلما نظر إليها صاح: يا أهل الميت! إن صاحبهم لم يمت، وإنْ تدفنوه لتدفُنُنَّه حيًّا. فبقوا ناظرين إليه كالمتعجبين من قوله ولم يصدقوه في ما قال، ثم إنه قال بعضهم لبعض: هذا الذي يقوله لا يضرنا، إنَّا نمتحنه، فإن كان حيًّا فهو الذي نريده، وإن لم يكن حيًّا فما يتغيَّر علينا شيء. فاستدعَوْه إليهم وقالوا: بيِّن الذي قلت لنا. فأمرهم بالمصير إلى البيت، وأن ينزعوا عنه أكفانه، وقال لهم: احملوه إلى الحمام، واسكبوا عليه الماء الحار واحموا بدنه، ونطلوه نطولًا. ففعلوا فرأوا فيه أدنى حسٍّ وتحرك حركة خفيَّة، فقال: أبشروا بعافيته. ثم تمَّم علاجه إلى أن أفاق وصَلُح، فكان ذلك مبدأ اشتهاره بجَودة الصنعة والعلم، وظهرت عليه.

ثم إنه سئل بعد ذلك: من أين علمت حال ذلك الميت وهو محمول وعليه الأكفان أن فيه روحًا؟ فقال: إني نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين، وأقدام الذين قد ماتوا تكون منبسطة، فحَدَسْتُ أنه حي، وكان حدسي صائبًا، والله أعلم.

الحكيم صَدَقة السامري

هو الفاضل صَدَقة بن مُنَجَّا بن صدقة. ويعرف بابن الشاعر. من الأكابر في صناعة الطب والمتميزين من أهلها والأماثل من أربابها، خدم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب إلى أن توفي في خدمته، وكان يحترمه غاية الاحترام ويكرمه غاية الإكرام، وخلَّف من الكتب عشرة آلاف مجلدة، غير كراريس وأوراق مفرطة تقدير ألف مجلد.

ومن كلامه: انظر الموت بعين عقلك تره قريبًا، ولا تنظره بعين أملك تلحظه بعيدًا.

وقال: العلم شجرة في القلب تُزرَع، ومن ألسنتنا تظهر ثمارها.

وقال: أنت بنفسك قريب من مُوجِدك ومكوِّنك، وبشهواتك وعصيانك بعيد من ربك.

ومن نظمه:

يا بن قَسيمٍ أصبحتَ تَنتَحِلُ النَّحْـ ـوَ ودعواكَ فيهِ مَنْحُولةْ
أُمُّكَ ما بالُها؟ قلْ وأَجِبْ مَرفوعةَ الساقِ وهي مَفعولَةْ
فَاعِلُها الأَيرُ وهو مُنْتَصِبٌ مسائلٌ قد أتتكَ مَجهولةْ
والعَينُ عطلٌ وعينُ عَصْعَصِها بنقطةِ الخِصيَتَيْنِ مَشكولَةْ

وله:

شيخٌ لنا مِن عظمه داهِيةْ ما مِثله في الأمم الخاليةْ
مُهندسٌ في طُولِ أيَّامِهِ مَع قصرِهِ يَبتلعُ السَّاقِيةْ
مُثَلَّثٌ بَدعَمُهُ قائمٌ لأنَّه مُنفَرِجُ الزَّاويةْ

نقلت من خط المرحوم فخر الدين بن مكانس: كتب صاحبنا فخر الدين عبد الوهاب، كاتب المرج الشريف رحمه الله، إلى ابن صغير المتطبِّب وقد دعاه من مرضه، ودخل إلى الطهارة فعثر في طست الحقنة فاختضبت قدمه، رقعةً يداعبه بها، أولها: الشيء بالشيء يذكر؛ توجه سيدي بالأمس مُخضَب القدم من هِيُولاه، ذا مأمن محله المعمور لمأمنه تولَّاه، وما كان من حقه في أمسه تكدير نفسه، ولكل شيءٍ آفة من جنسه، هذه مسألة علكها أكبر منه لَحيَين، واشتغل بها اشتغال ذات النِّحْيَيْنِ، وأظنه قبَّل قدمه فخرج على تلك الصورة، أو بعض أجزائه خلع صورة ولبس صورة.

مفرد:

فتًى غَير مَحجوبِ النَّدى عَن صَـــدِيقِهِ ولا مُظهِر الشـــَّكوَى إذا النَّعـلُ زَلَّـتِ

على أنه أكثر محافظةً وودًّا، وأرعى ذمةً وعهدًا، كم أحرقته نار وجد إلى أوطانه، وأزعجته من مكانه، وهو لا يظهر إلا حُبًّا، ولا يطلب منه إلا قربًا.

لا شـــــَـكَّ إذْ لَوْنُكُمَا واحـــدٌ أنَّـكـمـــا مِــن طِـيـنــةٍ واحــدةْ

وبالجملة، فأنا أسأل الله أن يكفيه سوء هذه المحنة، كما كفى شمائله اللطيفة شرَّ الأُبْنة، إنه مجيب الدعاء وليُّ النعمة.

حُكِيَ أن بعض الأطباء كان في خدمة بعض الملوك في غزوة، ولم يكن معه وقت النصرة كاتب يرسل، فتقدَّم إلى الطبيب أن يكتب إلى الوزير يعلمه بذلك، فكتب الطبيب:

أمَّا بعد؛ فإنَّا كنا مع العدو في حلقة كدائرة البيمارستان، حتى لو رميتَ مِبْضَعًا لما وقع إلَّا قيفال، فلم يكن إلا كنبضةٍ أو نبضتين، حتى لحق العدو بُحرانٌ عظيم، فهلك الجميع بسعادتك يا معتدل المزاج.

قلت: ما رأيت أحسن من هذا ولا أوجز!

ووجدت بخط طبيبٍ على بعض الكتب: طالعت هذه النسخة فوجدتها بيِّنٌ سقمها، فعالجتها بالمقابلة إلى أن تماثلت للصحة.

ولبعضهم يهجو طبيبًا يهوديًّا:

قـــالـــوا: الــيَهُودِيُّ أَخُو حِكــمَةٍ لا زالــتِ الأمــراضُ فــي كــأســــِهِ
لَوْ كــانَ ذا الــنــحــس أخَا حِكــمــةٍ أزال ذا الصـــــفــراءِ مِــن رأســــِهِ

وما ألطف قول الشيخ زين الدين بن الوردي مضمِّنًا:

يـــا مَن يُطَبِّبُ قَومًـــا ثُمَّ يُمـــهِلُهُم يَـومًـا بِمـاذا عـداك الشــــر تَـعـتَـذِرُ
اذكــرْ فُلانَ الــذي أسْـــهَلْتَه سَـــحَرًا إنَّ الـكـرامَ إذا مــا أســـْهَلُـوا ذَكَـرُوا

ولآخر بيت مفرد:

حَكِيـمٌ لَطـيـفٌ مِن لَطـافـةِ وَصْـفِهِ يَـوَدُّ المُعـافَى السُّقمَ حتَّى يَعودَهُ

كتب المرحوم الوزير فخر الدين بن مكانس إلى ابن صغير في بعض مرضاته: يسرع المولى عند الوقوف عليها بنقل الخطوة ولا يتأخر، فإن القوة على الضعيف ضعف في القوة. فجاءني على عادته:

تَغـدُو المَنـايـا فَمـا تَنـفَكُّ واقـفـةً حـتَّـى تَـراهُ عـلـى عَـزمٍ فَـتَـتْـبَـعَـهُ

فحين رآني من الهزيزة كالرِّعْدِيد، وشاهد ما بي من البرد قال: ما أراك إلَّا جليد. فقلت له: معالجة أم محاججة، ومناصحة أم ممازجة، ومطايبة أم مداعبة؟ واستوصفته، فجرى على المعهود منه في الجهل بما يقول، وعدم التمييز بين المعقول والمنقول، ولكني الظالم لنفسي، والمشكِّك في حِسِّي، فإني أعهده لم يزل مميت الأحياء، ومقفر الأحياء، فكم له بالديار المصرية من قتلى، وأوراقه للمرضى أشدُّ من أوراق الدِّفلى، كم شاب عالجه فأكسبه الصَّرَع الفالج، ولَأَنْ يُسمَّى مصارعًا أليَقُ به من معالج:

ثـلاثـةٌ تـدخـل فـي دفـعـة طـلـعـتـه والـنـعـش والـغـاسـل

لكنه مع ذلك ممن يجمع بين الأقران، ويعمل المحرم في رمضان، قد ملك قِيادة القيادة على الفنَّين، وطالت فيها مدته فاستحقَّ أن يُدعى بذي القرنَيْن، فاستعذتُ بالله من الشيطان، وسرَّحتُه بإحسان.

وكتب القاضي الفاضل في الكَحَّالِين: يُباكرني كل ذي عبري العناصر، يعزِّيني بالرحمة على تحت ناصر، كأنه غاسل يدخل إلى إنسان العين بحنوط من كحله الملعون، ويدرجه في كفن من الخرقة السوداء التي يلبسها سواد العيون، مردودة عصيَّة ولديها عصى العمى، ينقل العين إلى بياض الثغور ويسلبها اللَّمى، قد انتهى إلى فوق ما ضُرِبَ به المثل إذ قيل: يسرق الكُحْل من العين. وهذا يسرق العين من الكحل. فهذا وأمثاله لص من اللصوص. وسُمُّوا كحَّالين، وهم صاغة، لما يصوغون ويركِّبون فوق العيون من الفصوص، بل دباغون يدبغون الجفن أبيض وما يعدوهم سهل الدباغ، بل صباغون يصبغون الأسود أبيض وليس ذلك بصباغ، قد أودعوا حزن يعقوب في كحلهم مكاحلهم، فمن كحل به ابيضَّت عيناه، وجحدوا معجز القميص اليوسفي، فلو مرُّوا به على ناظرٍ ما انفرجت جفناه، وإذا رفعوا أميالهم، فإنما هي لشمس العيون مزوَّلة، وإذا أولج أحدهم الميل في المكحلة فهو أولى بالرحم ممن أولج الميل في المكحلة، وما يؤم أهل الكتاب في التبديل بواحد ولا خطاهم طريق إلى الغيِّ غير راشد، فيومًا محوا آية النبي ﷺ من التوراة وهي مسفرة، ويومًا محوا آية النور من الأبصار وهي مبصرة، ولا خير فيهم، حاربوا فمحوا بالأمس الخطوط من الأوراق، واستداموا إلى اليوم فمحوا الخطوط من الأحداق.

كتب الحكيم شمس الدين بن دانْيال إلى السراج الوراق وقد أرسل له قطعةَ كحل أصفهاني:

قُلْ لِعَينِ الأماثِلِ الأعيانِ ومَحَلِّ الإنسانِ للإنسانِ
خُذْهُ كُحْلًا مِثلَ السُّيُوفِ جَلاءً وصفاءً يَروقُ في الأجفانِ
حَجَرٌ كسره أجلُّ من الإكْـ ـسِيرِ فِعلًا في العيونِ أو في العِيانِ
أَلْفُ عَينٍ تُقيمُها حَبَّةٌ منـ ـه قِياسًا يَصِحُّ بالبُرهانِ
إنْ يعظم مثاله في حِجازٍ فلهذا التعظيم في أصبهانِ

الباب السادس والثلاثون

في الحُسَّاب والوزراء

اعلم أن الوزير مشتقٌّ اسمه من حمل الوِزْر عمَّن خدمه. وحمل الوزير لا يكون إلا بسلامةٍ من الوزير في خلقته وخلائقه. أما في خلقته، فإنه يكون تام الصورة، حسن الهيئة، متناسب الأعضاء، صحيح الحواسِّ؛ وأما في خلائقه، فهو أن يكون بعيد الهمَّة، ساميَ الرأي، ذكي الذهن، جيد الحدس، صادق الفِراسة، رحب الصدر، كامل المروءة، عارفًا بموارد الأمور ومصادرها. فإذا كان كذلك كان أفضل عدد المملكة لأنه يصون الملك عن التبذل، ويرفعه عن الدناءة، ويغوص له عن الفكرة، ومنزلته منزلة الآلة يتوصَّل بها إلى نَيل بغيته، ومنزلة الذي يحرز المدينة من دخول الآفة، ومنزلة الجارح الذي يصيد أطعمة صاحبه، وليس كل أحد — وإن صلح لهذه المنزلة — يصلح لكل سلطان، ما لم يكن معروفًا بالإخلاص لمن خدمه، والمحبة لمن استنصحه، والإيثار لمن قرَّبه.

وقال الثعالبي في يواقيت المواقيت: الوزارة اسم جامع للمجد والشرف والمروءة، وهي تلو الملك والإمارة والرتب العلياء والدرجة الكبرى بعدهما.

وقال المنصور النَّمِيري يمدح يحيى بن خالد البَرْمَكي:

ولــو عُلِمَتْ فَوقَ الــوِزارةِ رُتْبــةٌ تُـنــالُ بِمَـجـدٍ فـي الـحـيـاةِ لَـنـالَـهـا

والأنبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن الوزراء، فكيف الملوك والأمراء؟ وقد نطق القرآن بوزارة هارون لموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾. ثم قال في نظام الآية الكريمة وعلى نسق الكلام: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾. فدل على أنه

جعله وزيره، وصاحب سرِّه، وشريكه. فأفصح عن حسن موقع الوزارة وجلالتها، ووقوع الحاجة إليها.

وكان آصَفُ بن بَرخِيا وزيرَ سليمان بن داوود عليهما السلام والمستولي على أموره. وكان نبينا المصطفى ﷺ يقول: «إن لي وزيرَيْن من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض؛ فأما اللذان من أهل السماء، فجبريل وميكائيل عليهما السلام، وأما اللذان من أهل الأرض فأبو بكر وعمر» رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «إذا أرادَ اللهُ بِمَلِكٍ خيرًا قيَّض له وزيرًا صالحًا، إنْ نسي ذكَّرَه، وإن نوى خيرًا أعانه، وإن أراد شرًّا كفَّه».

وكان أنوشروان يقول: لا يَستغني أعلمُ الملوكِ عن الوزير، ولا أجود السيوف عن الصقال، ولا أكرم الدواب عن السَّوط، ولا أعقل النساء عن الزوج.

فصل في ما ينبغي للوزير أن يأتيه ويذره

اعلم أن الملوك لا يشبهون الآدميين إلا بالصور، فأما بالطباع والأخلاق والهِمَم فإنهم لا يشاكلهم أحد فيها ولا يشابههم، والملك وإن كان كريمًا سخيًّا، بعيدَ الهمة، كثير المحاسن، فإنه لا يخلو قطُّ من أربع خِصال: الحسد، والحقد، والمَلال، والحرص على المال، فينبغي أن يكون الوزير أعقل الناس وأحزمهم، وأدهاهم وأبعد غورًا، ويجب عليه أن يُداري أخلاق الملك كما يداري السبَّاح الماء المغرق، والوالدان أولادهم الصغار، والحاوي الحية، ويتحفظ من غائلته كما يتحفظ من السبع والنار القوية والمجنون الذي بيده السيف المسلول، ويجب أن لا يملك ما يصلح للملك من الأعلاق إلا ما في نفسه أن يهديه إليه ويخدمه به، وينبغي له أن يظهر ويشيع أن كل ما يملكه وتحويه يده للملك، وأنه إنما يمسكه ويحفظه من أجله، ويجب عليه أن لا يسرف في الإهداء، ولا يتحرق في بذل ما في يده، وكما لا تشبع النار من الحطب لا يشبع الملك من الأموال. ولا بدَّ للوزير من الاستظهار بالذخائر الخفية.

وقد قال الحكيم لوزيرٍ كان يستكثر من اعتقال الضياع ويغالي به: عليك بحفظ الدنانير التي تشتري بها روحك من الملك، فربما فعلت ألف دينار ما لا تفعله ضياع ومستغل بمائتي ألف.

ومن نكت هذا الكتاب أن الملك يريد كل حَسَن وطيِّب لنفسه، ويستأثر به على والده وولده، ولذلك يقال: مَن مَلَك اسْتَأْثَر. وكان معاوية يقول: وددتُ لو أن الدنيا في بيضة نِيمْبَرِشْت فأحسوها حسوة واحدة لا يشركني فيها أحد.

ودعا الفضلُ بن مروان المعتصمَ مرة إلى داره واحتفل، واحتشد في إحسان الدعوة، فلما حضر المعتصم ورأى مروءته وتجمُّله، عمل فيه الحسدُ عمله، فانقبض ورُئيَ في عينه، ولم ينبسط لطعامٍ ولا شراب، وزعم أنه يشتكي بطنه. وفطن الفضل لِما دهاه، وأراد أن يوهم أن تلك الآلات مستعارة من دار أمير المؤمنين ليطفئ نار حسده، فتقدم إليه وقال: يا أمير المؤمنين، إنما استعرت أكثر هذه الأشياء من دار أمير المؤمنين، وقد أرهقني الخزَّانون والفرَّاشون باستعجالها، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمهالي في ردها فعلت. فضحك المعتصم وقال لهم: لا تسترجعونها اليوم. ثم نشط للطعام والشراب.

ومما ورد في تجنبها: قال المأمون لأحمد بن أبي خالد: هل لك في أن أستوزرك؟ فقال: دعني يا أمير المؤمنين، يكون بيني وبين الغاية درجةٌ يرجوها الصديق ويخافها العدو، فلست أريد بلوغ النهاية لئلا يقول عدوي: قد بلغها وليس إلَّا الانحطاط.

وكان إبراهيم بن المدبِّر إذا عرضتْ عليه الوزارة أنشد قول العَتَّابي:

تَلُومُ عَلَى تَركِ الـغِنـى بـاهلِيَّةٌ ... طَوَى الـدَّهرُ عنهـا كـلَّ طِرْفٍ وتـالِـدِ
رأتْ حَولَهـا النِّسـوانَ يَرْفُلْنَ كـالـدُّمى ... مُـقـلَّـدةً أَجـيـادُهـا بـالـقَـلائـدِ
يَسُـرُّكَ أنْ قَد نِلـتَ مـا نـالَ جَعـفَرٌ ... مِن المُلْـكِ أو مـا نـالَ يَحيى بْنُ خـالـدِ
وأنَّ أمـيـرَ المـؤمـنـينَ أغصَّـنِي ... بِـغُصـتِـهـا بـالمُـرهَـفـاتِ البَـوارِدِ
ذَريـنِي تَجِئـنِي مـنـيَّتِي مُطْمَئِنَّةً ... ولَـمْ أتَـجَشَّـمْ هَـولَ تِـلـكَ المَـواردِ
وأنَّ عُلَيَّاتِ الأمـورِ مَشـوبَةٌ ... بِمُسـتَودَعـاتٍ في بُطونِ الأسـاوِدِ

فصل في لطائف كلام الوزراء

أبو سَلَمة الخَلَّال وزير السفاح كان يقول: خاطَرَ مَن رَكِبَ البحرَ، وأشدُّ منه مخاطرةً مَن داخَلَ الملوك.

أبو عبد الله وزير المهدي يقول: الرجال تحت ألسنة أقلامها. خير الكلام ما قَلَّ ودَلَّ.

يحيى بن خالد وزير الرشيد: ما رأيت باكيًا أحسن تبسُّمًا من القلم. ما رأى أحدٌ في ولده ما يحبُّ إلا رأى في نفسه ما يكره.

الفضل بن يحيى وزيره أيضًا، جرى بين يديه يومَ مَدح الناسُ أباه لجُوده، فقال: وما قَدرُ الدنيا حتى يُمدَح من يَجودُ بكلِّها فضلًا عن بعضها!

ولما عُزِلَ بأخيه جعفر قال: ما انتقلتْ عنِّي نعمةٌ صارت إلى أخي، ولا غربَتْ عنِّي رتبة طلعت عليه.

جعفر بن يحيى وزيره أيضًا: شرُّ المال ما لزمك إثمُ مَكسَبِه، وحُرِمْتَ الأجر من إنفاقه.

الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين كان يقول: ما أظنُّ النعمةَ إلَّا مسخوطًا عليها، أما تَرَونَها أبدًا عند غير أهلها؟!

الفضل بن سهلٍ وزير المأمون من توقيعاته: الأمورُ بتَمامِها، الأعمال بخواتيمها، والصنائع باستدامتها.

أخوه الحسن بن سهل وزير المأمون أيضًا: عجبتُ لِمَن يرجو مَن فوقه كيف يَحرِمُ مَن دونه؟

وقيل له: لا خير في السَّرَف. فقال: لا سَرَفَ في الخير.

ومن كلامه: لا يصلح للصدر إلا واسع الصدر.

أحمد بن أبي خالد وزيره أيضًا: بالأقلام تُساسُ الأقاليم.

وكتب إلى صديقٍ له يستدعيه: يومُ الالتقاءِ قصير، فأعِنْ عليه بالبُكور.

وكتب إلى المأمون مع هدية: بعثتُ إلى أمير المؤمنين قليلًا من كثيره عندي.

محمد بن يَزداد وزيره أيضًا: ليس في الحب مشورة، ولا في الشهوات خصومة.

ومن توقيعاته: أبواب الملوك معادن الحاجات، وليس لاستنجاحها إلَّا الصبر والملازمة.

الفضل بن مروان وزير المعتصم: الكاتب كالدُّولاب إذا تعطَّل تكسَّر. ما رأيت أقرب رضًى من سخط، ولا أسرع ما بين قربٍ وبعد، من الملوك.

محمد بن الفضل الجرجاني وزير المتوكل، عاتبه المتوكل يومًا على اشتغاله بالملاهي فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ مقاساة هموم الدنيا لا تتأتَّى إلا باستجلاب شيء من السرور.

سليمان بن وهب وزير المهدي: إنِّي أغار على أصدقائي كما أغار على حُرَمي.

ونظر يومًا في المرآة فرأى شيبًا كثيرًا، فقال: عيبًا لا عدمناه.

الحسن بن مَخلَد وزير المعتمد كان يقول: أعوذ بالله من نَحسِ الأربعاء، وحدِّ الأحد.

وكان يقول: أمر أمثالنا يأتي جُملةً، ويذهب جملة، فلمَ لا تتعجَّل اللذات قبلَ فَوتِها، وتتمتَّع بصفو الزمان قبل كدره؟

أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر: ما أريد الوزارة إلا لصديقٍ أنفعه، أو لعدوٍّ أقمعه.

وكان يقول: إني لآلَفُ كلَّ شيءٍ حتى الطريق.

ومن كلامه: ما رأيت أحدًا على بابي وفي داري ليس لي عنده إحسان إلَّا استحييتُ منه وصرفت عنايتي إلى إرفاقه وتحصيل مُراده، ولولا حبُّ المروءة ما رغبتُ في الرِّياسة والوزارة.

أبو علي بن مقلة وزير المقتدر والقاهر والراضي كان يقول: إذا أحببتَ تَهالَكْتَ، وإذا أبغضتَ أَهلَكتَ، وإذا رضيتَ آثرتَ، وإذا غضبت أثَّرتَ.

وكان يقول: أنا في وزارتي أُقدِمُ على العظائم كلِّها إلا على اثنين: إزالة النِّعَم، وهتك الحُرَم.

أبو جعفر محمد بن شيرزاد وزير المستكفي: الأصاغرُ يَهْفُون، والأكابر يَعفُون. إيَّاك والإفراط المُمِل، والتفريط المخل.

أبو عبد الله الجَيهاني الكبير وزيره أيضًا كان يقول: جمال المرء في لسانه، وجمال المرأة في عقلها.

ومن كلامه: حُسنُ الذِّكرِ ثمرة العُمرِ.

أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة: خير القَولِ ما أغناك جِدُّه وألهاك هَزْلُه. العاقل مَن افتتح من كلِّ أمرٍ خاتمته، وعَلِمَ من بدء كل شيء عاقبته.

الصاحب أبو القاسم بن عَبَّاد وزير فخر الدولة: وَعدُ الكريم ألزمُ مِن دَين الغريم. يبلغ الكلام حيث يَقصُر السِّهام. الآمال ممدودة، والأنفاس معدودة.

ومن كلامه: يا أسفي على رِداءٍ من الأيام رقيق، ما لبسناه حتى خلعناه، وروض من الزمان مَرِيع، ما حللناه حتى فارقناه.

قلت: لم أسمع في رقة العيش ألطف من قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي، رحمه الله تعالى:

لَستُ أنْسى رِقَّةَ العَيشِ الَّذِي ... زادَ في الرِقَّةِ حتَّى انْقَطَعَا

رجع: أبو نصر بن أبي يزيد وزير الراضي قال في امتهانه ببعض الأعداء: ما عسى أن يبلغَ عَضُّ النملة، ولسعُ النحلة، ووقوع البَقَّة على النخلة؟

ومن كلامه: الهدية تردُّ بلاءَ الدنيا، والصدقة تردُّ بلاء الآخرة.

أبو إسحاق، إبراهيم بن حمزة، وزير أبي علي السيمجوري قال: ينبغي للأصاغر أن يتقدموا على الأكابر في ثلاثة مواضع: إذا ساروا ليلًا، وإذا خاضوا سيلًا، أو لقوا خيلًا.

أبو الحسن الأَهْوازِي: العدل أقوى جيشٍ، والأمن أهنأ عيش. الإحَن حصد المِحَن.

عبيد الله بن يحيى بن خاقان كان يقول: إذا دهانا أمر تمثَّلناه في أصعب حالاته فما نقص منه كان سرورًا بتعجيله.

ونقلت من تاريخ الصاحب كمال الدين بن العديم، وهو تاريخه الكبير المسمَّى ببغية الطلب في تاريخ مدينة حلب، بسنده إلى يحيى بن خاقان قال: حضرتُ الحسن بن سهلٍ وقد جاءه رجل يستشفع فيه في حاجة، فقضاها، فأقبل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل: علامَ تشكرنا ونحن نرى أن للجاهِ زكاةً كما أن للمال زكاة؟ ثم أنشأ يقول:

فُرِضَتْ عليَّ زَكاةُ ما ملكتْ يَدِي ... وزكاةُ جاهي أنْ أُعِينَ وأَشفَعَا
فإذا مَلَكْتَ فَجُدْ فإنْ لم تَستَطِعْ ... فاجْهَدْ بِفَضلِكِ كُلِّهِ أنْ تَنفَعَا

الصاحب عون الدين يحيى بن هُبَيرة، وزير المستنجد، صاحب كتاب الإفصاح، حُكي عنه أنه لما أدركته الوفاة أغميَ عليه، ثم أفاق فرأى أهله يبكون، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: بكينا لكونك خدمت الملوك والخلفاء. فقال: مذ دخلتُ في عمل السلطان إلى يومي هذا ما خجَّلت أحدًا من خلق الله تعالى، وأرجو من كرم الله تعالى أنه لا يخجل هذه الشَّيبة.

فصل في لطائف تناسب هذا الباب

قال بعض الفضلاء:

غَزالٌ قد غَزَا قَلبِي ... بِألْحاظٍ وأَحداقِ
لَهُ الثُّلُثانِ من قَلْبِي ... وَثُلثَا ثُلثِهِ الباقِي
وثُلثَا ثُلثِ ما يَبقَى ... وثُلثُ الثُّلثِ للسَّاقِي
وتَبقَى أسْهُمٌ سِتٌّ ... تُقَسَّمُ بَينَ عُشَّاقِي

هذا الشاعر قسَّم قلبه إلى أحدٍ وثمانين سهمًا، جعل لمحبوبه منها الثُّلثين، وذلك أربع وخمسون سهمًا، بقي الثلث، وهو سبع وعشرون سهمًا جعل له ثلثيها وذلك ثمانية عشر سهمًا، فصار له اثنان وسبعون، يبقى ثلث الثلث، وهو تسعة زاده منها ثلثَيْ ثلثها، وهو اثنان، بقي من الثلث واحد أعطاه الساقي، بقي من التسعة ستة قسمَّها بين العشاق، فحصل لمحبوبه أربعة وسبعون سهمًا، وللساقي سهم، وللعشاق ستة؛ الجميع أحد وثمانون.

وقال أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي نزيل حلب المحروسة:

قَسَـــمَ الـقَلْـبَ فـي الـغـرامِ بِلَحـظٍ   يَضـــرِبُ القَلبَ حِينَ يُرســـِلَ سَـــهْمَهْ
هَذهِ فـــي هَواهُ يـــا قَومُ حَالِي   ضـــاعَ قَلبِي ما بَينَ ضَـــربٍ وقِســـمَةْ

وقال شيخنا عز الدين الموصلي:

نِســـبةُ قَلـبـي لـلـهـوى قَسَـــمَتْ   فِـكـري وكـم لـلـعـين مـن ضـــَربةْ
ضـــاعَ حِســـابي ولَقِيتُ الأسَـــى   بـالضـــَّربِ والقِســـمـةِ والنِّســـبةْ

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي:

عَمِلـتُ مَعَ الـزَّمـانِ حِســـابَ بـعْدِي   وســـُقـتُ الأصـــْلَ مِن يومِ الفِراقِ
وكُنـــتُ أظُنُّنـــي غَلَّقـــتُ قســـطـي   فـقـد طَـلَـعَـتْ عـلَـيَّ لَـهُ بَـواقِ

وأنشدني فخر الدين بن مكانس لنفسه مضمنًا:

عَمِلـتُ مَالي ارتفـاعًا ســـقتـه غلطًا   لحـاصـــلٍ راح في مضـــمونه مـالي
وكـلَّمـا نِلـتُ مِنـة عـزمٍ ومـن نـكـد   مـن غـفـلـةٍ ونـوالي ســـوء أعـمـالي

وأنشدني من لفظه لنفسه في نكبة حصلت له وأجاد:

ومـا تَعَلَّقـتُ في السِّـــريـاقِ مُنْتَكِسًـــا   لِجَرمـةٍ أَوجَبَـتْ تَعـذيـبَ نـاســـوتي
لـكـنَّنـــي مُذ نَفَثْتُ السِّـــحْرَ مِن كَلِمِي   عُـذِّبـتُ تَـعـذيـبَ هـاروتٍ ومـارُوتِ

وقال شهاب الدين المعمار:

وَلِي رَفـــيـــقٌ جَهُولٌ   خَـــالٍ مِـــن الآدابِ
أَقُولُ لمَّا أراهُ   فـــي جُـمـلَـةِ الـكُـتَّـابِ:
سُـــبـــحـــانَ رازِقِ هَذا   رِزقًـــا بِـــغَـــيـــرِ حِســـابِ

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

شاهدت في الديوان شخصًا حاضرًا ... وكأنَّهُ من جُملةِ الغُيَّابِ
لَم يَدرِ ما مَخرُومةٌ وجَرِيدةٌ ... سُبحانَ رازقِهِ بِغيرِ حِسابِ

وأنشدني الشيخ المحدِّث الفصيح البارع الرحَّال، غرس الدين خليل الأَقْفَهْسي لابن حربيٍّ المغربي:

يا ناصِبًا عِلْمَ الحِسابِ حِبالةً ... لِقَنَاصِ ظَبيٍ ساحِرِ الألْبابِ
إنْ كُنتَ تُرزَقُ بالحِساب وِصالَهُ ... فاللهُ يَرزُقُنا بِغيرِ حِسابِ

وما أظرفَ قول حسام الدين الحاجري:

صَحَّ حِسابُ السِّحرِ من طَرفِهِ ... إذْ كانَ في جَفنَيْهِ جَمعُ الكُسورْ

وقال إبراهيم المعمار ولطف:

ومَلِيحٍ قال: صِفْ حُسـ ... ـنِي لأزدادَ سرورا
كم حوى جَفني معنًى ... قلت: ألفًا وكُسورا

وقال التقي السروجي:

خَدَمتُ بِذاكَ الوَجهِ للثَّغرِ ناظِرًا ... لَعلِّي أُمسي واليًا من وُلاتِهِ
وأصلُ حِسابي ضَبطُ حاصِلِ وصْلِهِ ... وتَقبِيلِه مُستَخرَجٌ من جِهاتِهِ

وقال برهان الدين القيراطي:

خَدَمتُ بالأغزال أبوابَهُ ... لمَّا تَبدَّى حُسنُهُ الباهِرِ
ولِي مِنَ الدَّمعِ على خِدمَتِي ... جِرايةٌ أطْلَقَها النَّاظِرِ

وقال إبراهيم المعمار:

لمولانا الوزير ندى بئس ... وإحسانٌ به سمحت حياتي
فيُرضِينا بألفاظٍ وكذب ... مُحالاتٍ على كلِّ الجِهات

وظرف ابن الوردي في قوله:

وكـــنـــتُ إذا رأيـــتُ ولَو عـــجـــوزًا يُـــبـــادِرُ بـــالـــقِـــيـــامِ عـــلـــى الـــحـــرارةْ
فـــأَضْــحَى لا يَقُومُ لِبَدرِ تَمٍّ كـــأنَّ الـــنَّـــحـــسَ قـــد أُعـــطِـــي الـــوزارةْ

الباب السابع والثلاثون

في كُتَّاب الإنشاء

وهو فصلان:

- **الفصل الأول:** في ما يَحتاج إليه كاتب الإنشاء من الأخلاق والأدوات والآلات.
- **الفصل الثاني:** في أعيان كتاب الإنشاء قديمًا وحديثًا ونبذة مما لهم من المُكاتبات.

الفصل الأول: في ما يَحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من الأخلاق والأدوات والآلات

قال أبو حَيَّانَ التوحيدي: يجب على الكاتب أنْ يكون حافظًا لكتاب الله تعالى ليَنتَزِعَ من آياته، وأن يعرف كثيرًا من السنة والأخبار والسِّيَر، حافظًا لكثيرٍ من الرسائل والكتب، وأن يكون متناسب الألفاظ، متشاكل المعاني، متشابه الخط، ذكيًّا، عارفًا بما يحتاج إليه، خبيرًا بالحُلَى والشِّيَات، مضطلعًا بعبء الكتابة، له يد في السواد، وعمل بالحساب، وأن يكون له يد في الشعر، نظيف الثوب، لطيف المَركب، ظريف الغلام، لبق الدواة، حادَّ السِّكِّين، صقيل الكاغد، صُلب الأقلام، متوددًا إلى الناس، مُخالِطًا لهم غير متكبِّر عليهم، ولا منقبضٍ منهم، دَمِثَ الأخلاق، رقيق الحواشي، تَرِف الأطراف، عَذبَ السجايا، حسن المحاضرة، مليح النادرة، غير قَنِفٍ ولا مُتعجرف، ولا متكلِّف للألفاظ الغريبة، ولا متعسِّفًا للُّغةِ العويصة. انتهى كلام أبي حيان.

وقال أبو الحسين محمد بن أحمد (أظنُّه قدامة): منزلة الكاتب التي يستحق بها أن يكون كاتبًا في قوله وفعله، ومحاورته وفِطنته وحِجاجه، وأن يكون مطبوعًا على المعرفة، محنَّكًا بالتجربة، عالمًا بحلال الكتاب والسنة وحرامهما، ومتشابههما، وناسخهما ومنسوخهما، وبالأزمنة والأدوار في

اختلافها وتعاقبها، وبالملوك في سِيَرها وأقدارها، وبالخطوط وأنسابها وأقلامها في تصاريفه وجهاته، وببوادي الكلام ومقاطيعه في فواتح الوصف وخواتم الوقف، وفصول التمام ورسوم الكتب، وأقدار الرجال، وتآليف الأوصاف، ومشاكلة الاستعارة، وإثبات المعنى بشكله من القول، والعلم بالنظائر والأشباه، والتثبُّت بالشواهد والأمثال حتى ينصب البيان أشخاصًا مائلة، ويقيم المقول صورًا ناطقة، تُنبِئ عن أحوالها وتدلُّ على منازلها، مع التخلق بأخلاق الدين، والتحلِّي بحُلية الكَرَم، وإثبات محاسن الأمور، والإجمال في الصبر والطلاقة، وانتحال يشبه اللب والوفاء، واجتناب الدنايا والنقائص في الشره، والارتشاء، والقلق، والضجر، والسخف، والسفه.

وكان محمد بن أيوب بن سليمان عميد الرؤساء، أبو طالب، وزَّر للقائم حال كونه ولي عهد، وكان مترسِّلًا بليغًا متفننًا، صنف كتابًا في الخَراج، وهو القائل: الكتَّاب سبعة:

- **أولهم:** الكامل، الذي ينشئ ويُملي ويكتب.
- **الثاني:** الأعزل، وهو الذي ينشئ ويملي وخطه رديء.
- **الثالث:** المبهم، الذي يكتب خطًّا مليحًا ولا يد له في الإنشاء.
- **الرابع:** الرقاعي، يجيد رقعةً يكتبها ولا خطَّ له في التطويل.
- **الخامس:** المختلُّ، وهو الذي له حفظ ورواية ويعجز عن الإنشاء، فهذا نديم.
- **السادس:** المخلِّط، وهو الذي يأتي بالدُّرَّة والبَعْرة ويقرن بينهما.
- **السابع:** السكِّيت، شبه بالمتأخر في الحلبة، فربما جهد نفسه وأتى بمعنى.

توفي سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وقال الشيخ الإمام، سيد كتَّاب الإنشاء، شهاب الدين أبو العباس، أحمد بن فضل الله العمري، في كتابه الذي سمَّاه: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: إنَّ كتابة الإنشاء كانت في المشرق في خلافة بني العباس مَنُوطةً بالقدماء، وربما انفرد بها رجلٌ.

وذكر ابن عبدوس في مواضعَ من كتابه من ديوان السر وديوان الترسل: ثم كانت آخر وقت أُفردت، واستقلَّ بها كتَّابٌ لم يبلغوا مبلغ الوزارة.

وكان في المشرق يسمَّى: كاتب الإنشاء، ثم لما كثر عددهم سمِّيَ رئيسهم: رئيس ديوان الإنشاء، ثم بقي يطلق عليه تارةً: صاحب ديوان الإنشاء، وتارة: كاتب السر. وهي عندي أحب. وعندي أَنْبَهُ، وعند الناس أدلُّ. وكان في دول السلاجقة وملوك الشرق يسمى: ديوان الطُّغْرائيَّة، وبه سمِّيَ مؤيد الدين

الطغرائي، والطُّغراء هي: الطُّرَّة، وهي التي تكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، تتضمن ألقاب الملك، وهي لفظة أعجمية، وكانت تقوم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب، ويستغنى بذلك عن أن يكون للسلطان علامة بخطِّه لكثرة وثوق الناس بصاحب هذه الرتبة.

وأهل المغرب يسمُّون رئيس ديوان الإنشاء: صاحب القلم الأعلى. وأهل هذه الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والقرب أكثر من كل عامٍّ وخاص، تحتاج الأمراء إلى مُدَاراتِهم وتقصر الوزراء مع علوِّ المرتبة في الوزارة عن مباراتهم، يجتمعون بالملك إذا أرادوا عدد الأنفاس، وهم معنى الدولة، وعليهم عَوْلة كل الناس، وما كانت الملوك تكاتب الخلفاء ببغداد إلا على هذا الديوان، أعني: ديوان الإنشاء، وكانت تسميه: الديوان العزيز. ولهذا كانت كتبتهم تستفتح: أدام الله أيام الديوان العزيز، إشارةً إلى ديوان الإنشاء. وعليه كان يطلق هذا الاسم، وله بهذا من الشرق ما له، ومن الفخر ما يجرُّ على السماء أذياله. انتهى كلام القاضي شهاب الدين.

وذكر الثعالبي في كتابه لطائف المعارف، أن: إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم، وكان يوسف الصدِّيق عليه السلام يكتب لعزيز مصر، وكان هارون ويوشع يكتبان لموسى عليه السلام، وكان سليمان يكتب لأبيه داوود عليهما السلام، وكان آصَف يكتب لسليمان عليه السلام، وروي أن النبي ﷺ استكتب عبد الله بن الأرقم، وكان يجيب عنه الملوك والسلاطين. واستكتب أيضًا زيد بن ثابت، وكان يكتب الوحي ويكتب للملوك. وكان إذا غاب عبد الله بن الأرقم وزيد بن ثابت، واحتاج أن يكتب إلى أمراء الأجناد والملوك، أو يكتب لإنسانٍ بقطيعة؛ أمر من حضر أن يكتب. وكتب له عمر وعثمان وعلي والمغيرة بن شعبة، ومعاوية بن أبي سفيان، وخالد بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وحنظلة بن الربيع التميمي.

آداب الكتابة: رويَ عن الشعبي أنه قال: كتب النبي ﷺ أربعة كتب: أولها: باسمك اللهمَّ. ونزلت سورة هود وفيها: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾، فكتب: بسم الله. ثم نزلت سورة بني إسرائيل وفيها: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾، فكتب: بسم الله الرحمن. ثم نزلت سورة النمل وفيها: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فكتبها.

ورويَ أن فصل الخطاب الذي أعطيَ داوودُ: أما بعد.

ورُوي أن أول من قالها كعب بن لؤي، وهو أول من سمَّى يومَ الجمعة.

وكان زيد بن ثابت يكره أن يكتب: بـــم الله، ليس لها سين. وكان إذا رآها بغير سين محاها.

ورويَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب عمرو بن العاص لما كتب إليه: بسم الله، بغير سين. وقيل له: فيمَ ضربك؟ فقال: ضربني في سينٍ.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: إذا كتب أحدكم فليُتْرِبْه، فإن التراب مبارك، وهو أنجح للحاجة.

ورويَ عنه ﷺ أنه كتب كتابين إلى قريتين، فأترب أحدهما ولم يُترِب الآخر، فأسلمت القرية التي أترب كتابها.

وقال الحسن بن وهب: كاتِبْ رئيسك بما يستحق، ومَن دونك بما يَستوجِب، وكاتب صديقك بما تكاتب حبيبك، فإن غَزَلَ المودةِ أرقُّ من غزل الصبابة.

قال الوداعي في تذكرته: إن القاضي تاج الدين بن بنت الأعز — رحمه الله — كان إذا كتب كتابًا بدأ في تَرمِيله بالبسملة لتعمَّ بركتها سائر الكتاب، وإنه يخزِّن ذلك الرمل ويحتفظ به ولا يرميه إلى الأرض.

وقال بُزُرجِمِهر: من لم يختم كتابه فقد استخلف صاحبه، وإذا كتبت فأعد النظر فيه، فإنما تختم على عقلك.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾. قال: مختوم. وفَضَّ الكتاب: إذا كَسَرَ ختمه. ومعنى الفض في اللغة: التفريق والكسر، ومنه: لا يَفْضُضِ الله فاك.

العنوان: فيه خمس لغات، أفصحها: عُنوان، ويقال: عُلْوان وعينان وعُنيان. وجمع عنوان: عَناوين. وجمع علوان: عَلاوين. والعلوان الأثر وهو أَثَرُ الكتاب، ممَّن هو، وإلى مَن هو.

ضَحَّوْا بـأشـمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ

والقلم: لا يقال له: قلم، إلا إذا بُرِيَ، وإلَّا فهو أُنْبوبة.

ومن أحسن ما قيل فيه قول السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب، موفَّق الدين علي بن الآمدي، نقلته كذا من خَطِّ الوادعي:

تَمشِي اليَراعةُ والمِدادُ وَراءَها ... ظِلٌّ على شَمسِ الطُّرُوسِ نبوعُ
عوض المعاني لو تَلوحُ لُمسلمٍ ... هذي المعاني راح وهو صريعُ
لَوْ لَمْ تَكُنْ ألفاظُهُ خَطِّيَّةً ... ما راحَ سَرْبُ اللَّفظِ وهو مَنيعُ

أَلْفــاظُهُ رَقَّتْ بِوَجْنَــةِ طِرسِــهِ ... فـكـأنَّـهـنَّ وقـدْ جَـرَيْـنَ دُمـوعُ
قلـمٌ مَسـيحـيٌّ الخِطـاب لنُطقـه ... في المهـدِ مِن يُمناهُ وهو رَضـيعُ
وغدا كليميًّا وقد ضـاهى العصـا ... فـغَـدَا يَـروقُ بِـفِـعـلِـهِ ويَـروعُ
باللَّفظ حاكته الشُّمول وبالضِّـيا ... حاكَتْه في حالِ المِداد شُـموعُ
قـد لازَمَ القِرطـاسَ وهـو مُنَوَّر ... والصـلُّ يَهوَى الرَّوضَ وهو مَريعُ
نُورٌ ونَورٌ خَـطُّه وكَلَامُهُ ... هَـذا يُضـيءُ بِهِ وذاكَ يَضـوعُ

وله أيضًا رحمه الله تعالى:

لـيُمـنـاهُ ذو طَرْفٍ كَحيلٍ إذا بكى ... تبسَّم ثَغْر الخَطِّ من دمعه عجبَا
وَقد راحَ مَشـقوق اللِّسـانِ متى جَرَى ... بِثَغرِ الدَّوَى اللُّعْسِ أبدى اللَّمى العَذبَا
وأولـه فـي سـنـه سـمٌّ أرقـم ... إذا مـا ثنى في الرَّقم من جِيده جنبا
فَطَورًا خطيـبٌ والسـواد شـعـاره ... إذا مـا علا أعوادَ كفٍّ جلا خطبـا
ويَحـقُرُ فِعـلُ الخَطِّ بَينَ كـتـائـبٍ ... تلاقتْ إذا ما خَطَّ في يدك الكتْبَا
حكى السُّمر قد أحيت للبيض خدَّه ... فطاعِنْ به إنْ شئتَ واضـرِبْ به ضَـرْبَا

قال الشيخ الإمام مجد الدين الرُّوذْرَاوِرِيُّ الهمداني، عبد المجيد بن أبي الفرج بن محمد الفقيه الشاعر المفيد المفنن، مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة وتوفي في بدمشق سنة سبع وستين وستمائة، من نظمه في وصف القلم، من قصيدةٍ مدح بها الوزير القُمِّيَّ مؤيَّد الدين، وزير الدولتين الناصر والمستنصر، كذا نقلته من خط محيي الدين بن عبد الظاهر من كتابه المسمى بالنجوم الدرية في الشعراء العصرية:

لـكَ مِن نبـاتِ المـاءِ أصـفرُ للعِدى ... مِـن رأسـه المُسْـوَدِّ مـوتٌ أحـمـرُ
خَجِلَ الـقَنـا مِن فعـلـه حـتَّى غَدَا ... مِثل النِّسـاءِ غـدا عليه المِعْجَرُ
يَصـفُو بِهِ وَردُ العُلا وَورودُهُ ... أبـدًا لـعَيشِ الحـاسـدِينَ مُكَدِّرُ
ظُلُمـاتُ نَفْسٍ خـاضَـهـا بِرَوِيَّةٍ ... من مـاءِ الحيـاةِ كـأنَّه الإسْكَنْدرُ

مُتــقــيِّدٌ يَعــدو ويَنــطِقُ ســــاكتًا مُتحكِّمٌ في الـدَّهـرِ وهـو مُســــخَّـرُ
يـا راكعًـا لَبِسَ السَّــوادَ وســـاجِدًا يَـتـلُـو بَـنِـي الـعَـبَّـاسِ وهـو مُـزَنَّـرُ
قـد خَرَّ رأسُـــكَ فـي اللِّســـانُ لبَثِّهِ ســـرَّ العُـلا واســـْوَدَّ منـكَ المَنْظَرُ
هَبْ أنَّ جِســـمَكَ مِن جَواه نُحـولُهُ أو أنَّ لَـونَـكَ لـلـنَّـحـافـةِ أصـــْفَـرُ
مَركُوبُكَ الـبَحـرُ الـجَوادُ ومـا لَهُ مِـن كَـبـوةٍ عــلامَ ذا تـتَـعـثـرُ

وأنشدني من لفظه لنفسه سيدي وأخي تقي الدين بن حِجَّة الحَمَوِيُّ، فسح الله في أجله من قصيدة امتدح بها سيدنا ومولانا قاضي القضاة وخطيب الخطباء، شيخ شيوخ العارفين أبا الحسن علاء الدين علي الخزرجي السبكي أسبغ الله ظلاله:

لَهُ يَراعٌ سَــعــيــدٌ فــي تَقَلُّبِهِ إنْ خَـطَّ خَـطًّـا أطـاعَـتْـهُ المَـقـادِيـرُ
مُحــبَّرٌ وبــتَحــبـيــرِ الــعُلــومِ إذا جَـرَى يُـرى مِـنـه تَـحـريـرٌ وتَـحـبِـيـر
غُصـــنٌ عـلـيـه طُيورُ العِلمِ عـاكِفـةٌ وجَـانَـسَ الـنَّـوْرَ مِـن أوراقـه الـنُّـورُ
وأَشـــقَرٌ يَدهُ الــبَيضـــاءُ غُرَّتُه لــه إلـى الرِّزْقِ فَوقَ الطِّرسِ تَيســـِيرُ
بـل أَســـمَرٌ عَينُه السَّـوداءُ تَلحَظُنـا وهُـدْبُ أجفـانِهـا تِلـكَ التَّشـــاعِيرُ
أو سَـــهمُ عِلمٍ بـأطرافِ السُّـطورِ غَدَا مُـرَيَّشـــًا ولـه فـي الضـــدِّ تَـأْثِيـرُ
كَذا مَحـابِرُه ســـودُ الـعـيـونِ فـإنْ دانـت أَيـادِيـهِ قُلْـنـا: الأعْيُـنُ الحُـورُ

ومَن وقف على رسالة السيف والقلم للشيخ جمال الدين بن نباتة رأى من هذه المعاني العجائب، ولولا إطالتها لأثبتها في هذا الباب.

ولقد ظرف إلى الغاية شمس الدين الواسطي حيث قال:

مــا زال بــقَلْبِهِ لــهـيــبُ الــنَّارِ إذْ صَـيَّرَ جِســمـه خَيالًـا سـَـاري
اللهُ بِقــلــبِهِ فــمــا يَعــلَم مــا قـاســـاه الـواســطيُّ إلَّـا البـاري

وأنشدني أخي تقي الدين بن حجة الحموي يَصِفُ سكِّينًا أهداها له بعض الأصحاب: سكينٌ قطع الملوكُ بها أوصالَ الجَفاء، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء، وتالله ما غابت إلا وبلغت

الأقلام من تعثيرها الجَفاء زرقاء، وكم شاهدت منها البيض ألوان خرساء، ومن العجب أنها لسان لكل عنوان، ما شاهدها موسى إلا وسجد في محراب النصاب، وذلَّ بعدما خضعت له الرؤوس والرقاب، إن هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف، وكم لها من خاصِّيَّة حازت بها الحد على السيف، تُنسي بحلاوة العسال فلا يظهر لطوله طائل، وتغني عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل، كم مرَّت بشكلها المحلَّى فتركت المعادن عاطلة، ولم يكن للحديد في هذه الواقعة مجادلة، فلو لمحها الفاضل لتحقَّق أن خاطر سكينه كلَّ، أو شاهدها ابن نباتة لما أقرَّ برسالة السيف وفلَّ، إن أدخلت القراب كانت قد سبكت على الدخول، أو أبرزت من غيمه كأن على طلعتها الهلالية قبول، كم أيقظت طرف القلم بعدما خط، وعلى الحقيقة ما رأى مثلها قط، ما أسفر صبح نصلها في ليل نصابها الذي دجا، إلا تغزلت وقالت: ما أحسن طُرَّة الصبح من تحت أذيال الدُّجى، تطرف بأشعَّتها الباهرة عين الشمس، وبإقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس، وكم لها من عجائبَ تركت جدول السيف في بحر غِمده غريق، لو سمع بها من قبلِ ضربه لما حمل التطريق، لا زالت صدقات مهديها تتحف بما يَذبَحُ نَحْرَ فَقري، وتأتي في كل حين بما يشفي من داءِ الفَقر ويُبري، بمنِّه وكرمه.

كتب مولانا محمد بدر الدين الدماميني إلى المرحوم أمين الدين الأنصاري صاحب ديوان الإنشاء بالشام ملغزًا في دَوَاة:

كَتَبتُ وأعذاري إليك تقرَّر ... ونُطقِي بها يا كاتب السِّرِّ يَجهَرْ
أتَتْكَ بأبياتِ المعاني فرضتها ... وحَكَتْ حبيرَ اللَّفظِ فهو محرَّر
وحليت أهل الفضل إذ كنت خاتمًا ... لهم فعليك الآن يُعقَد خِنصر
وما أنتَ إلَّا البحر جاشَ عُبابه ... ولكنْ رأيْنَا منكَ حِلمًا يُحير
فما كلمةٌ أفديكَ دامَ اعتلالُها ... وفيها دَواءٌ إنْ اعتراها تغير؟
ويحفظها ذو السرِّ وهي التي وشت ... وذلك من عاداتها ليس يُنكَر
وما مَسَّها إلَّا وجادَتْ بِنفسِها ... وصَحِّفْ تَرَ المقصودَ بالنَّفْسِ يَظهَر
وتحمل سمر الخط رايات ملكها ... على الرأس عَبَّاسيَّة حين تخطر
كَحيلةُ طَرفٍ تَعشَقُ العَينُ شَكلَها ... وحُسنَ مَرآها إذا ما تحَبَّر
مُؤَنَّثةٌ كَم ذَكَّرَتْنا بِلَونِها ... عُهودَ الصِّبا والشَّيءُ بالشيءِ يُذكَر

إذا هُجِرَتْ يبدو المَشِيبُ بِرأسِها ... وفي الوَصْلِ ترى دمعها يتَحدَّر
وكمْ قد أرانا رِيقُها مِن مُسَلْسَلٍ ... يَلَذُّ بِهِ في الذَّوقِ وردٌ ومَصدَر
وكم لاقتِ الأحبارُ منها مَحاسِنًا ... فعادتْ لَها الجُهَّالُ بالعِيِّ تُحصَر
مُسوَّدة إنْ ترضَ فالعيشُ أخضر ... وإنْ سَخَطَتْ فالمَوتُ لا شكَّ أحمر
ويعذب للسمر الرقاق رُضابُها ... فتنهلُّ منه مَوردًا لا يُكدَّر
لقد أحكمتْ والنَّسخُ ما زالَ دأبَها ... بذلكَ قد جاءَ الكِتابُ المُسطَّر
وما هي إلَّا ذاتُ مَتْرَبَةٍ غَدَتْ ... وكم ذا غِنًى عن قَصْدِها لَيسَ يفتَر
إذا امتدَّت الرَّاحاتُ وهي مثيرةٌ ... إلى نحوها أمستْ على المدِّ تُقصَر
ولَسْنا نَراها غَيرَ سائِلةٍ ولمْ ... تَفُهْ بِسؤالٍ فاعترانا التَّحيُّر
فانْعَمْ بِحَلِّ اللُّغزِ يا خَيرَ منعم ... فأنتَ بِهِ واللهِ أجدَى وأجدَر
ولا زالتِ الأقلامُ تَسعَى بِشُكْرِكُم ... على رأسِها طُولَ المَدى لا تقصر

فكتب الجواب إليه بعد أيامٍ:

مواقعُ أقلامٍ لها الفَضلُ تُنشَر ... ورَوضةُ آدابٍ لَها القَلبُ يُجبَر
تَحرَّر معنى حُسنِها نَسجَ وَحدة ... فيا حبَّذا الإسكندريُّ المحرَّر
يَطولُ على الأفهام شقة شأوها ... فكلُّ بليغٍ عن مَداها يقصر
أتَتْ سَهلَةَ الألفاظِ مَمنوعةَ الذرى ... حِماها من العَلياء لا يَتسَوَّر
تُشيرُ إلى الحُبلى التي عزَّ وَضعُها ... فأحشاؤها فيها الأجِنَّةُ تُقبَر
يَنامونَ لا تَغشاهُم سِنَة الكَرَى ... فإنْ هَبَّ فَردٌ ظَلَّ يَسعى ويُحصَر
وإنْ أرشَفَتْه مِن سُلافٍ رُضابُها ... تَهادَى بِهِ نَشوانَ يَمشي ويَعثَر
إخاء إذا أعتموا السواد فكلُّهم ... خَطيبٌ له فوقَ الأنامِلِ مِنبَر
تَسيل دُموعًا في مَجالِ سُجودِهِ ... فيخضلُّ من ريَّاه روضُ مُحبَّر
وينطِقُ عَن عِلمٍ وطُولِ نَباهةٍ ... وعمَّا أراهُ في المنامِ يُعبَّر

تطاوِل سمر الخَطِّ أنَّى تَشامَخَتْ سَمَوا ومع هذا على الطولِ تقصر
وكلُّ بني الآدابِ تُلقى بيوتهم تُقام به بين الأنامِ وتُعمر
فأكرِمْ بمن قد ولَّدَتْه وأنشأت وربَّتْ ويَكفيها بذلك مَفخَر
نَجيَّةُ فِكري إنْ جلستُ ووجهها تُجاهي وجاهي عندها ليس يُحقَر
وقدْ فتحت فاها فقال وقصَّرت فأنَّى استقالتْ فهي في ذاك تُعذَر
فلا زِلتُم أهلَ الكَمَالِ وخيركم لذي النَّقص مثلي منه حظٌّ مُوفَّر
بِمَدحِكُم الأقلامَ يَضحكُ سِنُّها بِحَقٍّ وأفواهِ الدَّوى تعطر

قال بعض الفضلاء: إذا أردت أن تضمِّن كتابًا سرًّا فخُذْ لبنًا حليبًا، واكتب به في القِرْطاس، فإذا أراد قراءته المكتوبُ إليه فَلْيذر عليه رمادَ القراطيس سُخنًا، فإنه يظهر ما كُتِب، وإن شئت كتبت بماء الزَّاج الأبيض، فإذا وصل إلى المكاتَب فليمِرَّ عليه شيئًا من ماء العفص، وإن شئت بالعكس، وإن شئت أنْ يُقرأ ليلًا ولا يقرأ نهارًا، فاكتبه بمرارة السلحفاة.

قال الشيخ شهاب الدين بن العطار في ما يُكتب على الدَّواة:

أنَا دَواةٌ يَضحَكُ الجُودُ من بُكاء يَراعِي جَلَّ مَن قَد بَراهُ
دُلُّوا على جُودِي مَن شَفَّه داءٌ مِن الفَقرِ فإنِّي دَواهُ

وأنشدني شمس الدين الجرائحي لنفسه:

أنا دَواةٌ كبَحرِ جُودٍ في الفَضلِ قُلْ للسَّخِي عني
فلو غَدَا كفُّه سحابًا عند العَطا يَستَمِدُّ مِنِّي

وقال ضياء الدين المناوي يصف حِبرًا:

وعِندِي حِبرٌ وَدَّتِ العَينُ لَونَهُ سَوادًا وتَرضاهُ الحِسانُ خِضابَا
غَدَا سائِلًا مِن فَرطِ سُقمٍ ورِقَّةٍ وأصْبَحَ للسُّمْرِ الرِّقاقِ رُضابَا
كأنِّي لمَّا بِتُّ أشكو صَبابَتِي إلى اللَّيلِ بالأشواقِ رَقَّ وذابَا

وكتب الشيخ برهان الدين القيراطي صحبةَ حبرٍ أهداه:

لِيَراعِكُم أُهـديـتُ إنســـانَ الـنَّظـرِ وشـــبـاب طِرسٍ شـــاب من فَرطِ الكِبَر
أرســــلـتــه عَبـدًا دَعُوه عَنـبـرًا إذا فـاحَ طِيـبُ نَشـــرِهِ بـينَ البَشَـــر
أقـــلامُهُ أخـــذَتْه حـــالَ كِتـــابـــةٍ ســــبحًـا وألـقـتـه علـى طِـرس دُرَر
ويـــودُّ مُرسِـــلُه إلـــى أبـــوابـكـــم لو زادَ فيـهِ ســـَوادُ قلـبٍ أو بَصَـــر
لـــيـــلٌ وإنْ أبـدى لـنـا ألـفـاظَكُم في صُـــبحِ طِرسٍ أبيضٍ قالوا: سَـــحَر

وأنشدني المرحوم فخر الدين بن مكانس لنفسه:

لِداوودَ الـرئـيـسِ الـحَبـرِ فَضْـــلٌ وأُنـــسٌ عــمَّ أبـــنـــاءَ الـــوُجـــودِ
أتـــانـــا مِنـــه حِبـــرٌ فـــابْتَهَلْنـــا وقُـلـنـا: نِـعـمَ أحـبـارُ الـيَـهـودِ

وقال ابن الوردي في رئيس انقلب حبرٌ على ثوبه:

انــقــلــب الـــحـــبـــر عـــلـــى ثـــوبـــك فـــأبشـــــر بـــالأرَب
فــــحـــبـــرُ كـــلِّ كـــاتـــبٍ ربِـــحٌ إذا هـــو انـــقَـــلَب

وأنشدني القاضي أمين الدين محمد الأنصاري صاحب ديوان الإنشاء بالشام لنفسه في لوح الموقعين المرصد للصاق الأوصال على لسانه:

قَطَعُونِي وكُنـــتُ مِنـــبَرَ سَـــجْعٍ طـالَ مـا في الرِّيـاضِ أسْـبَغْـتُ ظِلَّا
فَبِكَسْــرِي جَبَرتُ بـــينَ المَوالِي وبِقَـطْـعِي جعلـتُ للـوَصـــلِ أهـلَا

ومنها له أيضًا:

طـــرحـــوهـــا كـــأنَّهـــم لـــيـــسَ يَـدْرُونَ فَضـــْلَـــهـــا
وهـــي مِن أصْـــلِ دَوحـــةٍ أســـبـــغَ اللهُ ظِـــلَّـــهـــا

ابن نُباتة وكتبها على مُرَمَّلة:

عَمِلْتُ لِمَنْ جُودُ أقـــلامِهِ رَبِـيـعٌ ومَـنـطِـقُـهُ بـارِعُ
إذا طَلَعَ الـــخَطَّ رَمَّلْتُهُ فـيـا حَـبَّـذا الـرَّمـلُ والـطَّـالِـعُ

وقال السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب، موفق الدين علي بن الآمدي، مجاوبًا لمن كاتبه في ورقة زرقاء:

أرسلتَ زَهرَ الرَّوضةِ الغَنَّاءِ ... في مثلها من رقعةٍ زرقاءِ
فكأنَّما هي مِن أديمِ سَمائنا ... قُدَّ نقَّطتها أَنْجُمُ الجَوزاءِ
وَرَقٌ حكى دُرَرَ القَريضِ بحُسنه ... كالوَشْمِ يَجلو مَبسَمُ اللَّمياءِ
أو مِثلَ مُنعَطَفِ الخَليجِ وقد صفا ... فتمثَّلت أزهارُه في الماء

وله أيضًا:

أنتَ أرسلتَ بالكِتاب سماءً ... تُبرزُ الشُّهبَ قبلَ وقتِ الزَّوالِ
فيهِ كُلُّ نُقطةٍ مثل نَجمٍ ... وَبِهِ كُلُّ جَزمةٍ كهلالِ

وله أيضًا:

كلمات لضحكها قد بكى الرَّا ... ووق وهل منكر بُكا اليتيم
قد حكى المِسك نفسهُ فَغَدَا ... أَسْوَدَ ذا زفرةٍ بخدٍّ لطيم

وله:

وذي مقول يُخفي الكلام فإنْ رقَى ... إلى أذنِ قِرطاس فَفِيها يُحدِّثُ
عُقودٌ بلا سِلكٍ ببَحرِ طُروسِهِ ... ولا عُقَد في سِحْرِهِ وهو يَنفِثُ

وقال:

جادتْ رياضُ الطِّرسِ سُحبَ يَراعِهِ ... لَمَّا صَدَرْنَ مِن النُّهى عن أَبْحُرِ
فَكَسَتْ غُصونُ طُروسِهِ ورِقابُها ... أكمامَ لَفظٍ بالمعاني مُثمِرِ

وقال أبو الفتح محمد بن قادوس الدِّمياطي:

مِدادُهُ في الطِّرسِ لَمَّا بَدَا ... قبَّلَهُ الصَّبُّ ومن يَزهَدُ
كأنَّما قدْ حَلَّ فيهِ اللَّمى ... أو ذاب فيه الحَجَر الأسْوَدُ

الفصل الثاني: في أعيان كُتَّاب الإنشاء قديمًا وحديثًا ونبذة ممَّا لهم من المُكاتَبات

عبد الحميد بن يحيى: كان يقول: لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء لنزل على بلغاء الكتَّاب.

وذكر البلاغة فقال: هي ما رضيته الخاصَّةُ وفهمته العامَّة.

ومن كلامه: خير الكلام ما كان فحلًا ومعناه بِكرًا.

إسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد: لم يُسمع في الجمع بين الشكر والاستزادة بأحسن وأوجز مما كتب به إلى يحيى بن خالد: في شُكرِ ما تقدَّم من إحسانك شاغلٌ عن استبطاء ما تأخَّر منه.

عمرو بن مسعدة كاتب المأمون: كان يقول: قليلٌ دائمٌ خَيرٌ من كثيرٍ منقطع.

وكتب إلى المأمون: كتابي هذا ومن قبلي من أجناد أمير المؤمنين وقُوَّاده في الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جندٍ تأخَّرتْ أرزاقهم واختلَّت أحوالهم. فقال المأمون لأحمد بن يوسف: لله درُّ عمرٍو ما أبلغه! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الأجناد، وإعفائه سلطانه من الإكثار؟

إبراهيم بن العباس الصولي كاتب المعتصم والواثق والمتوكل: كان يقول: المتصفح للكتاب أبصرُ بمواقع الخلل فيه من مُنشِئه.

الحسن بن وهب: سئل عن مبيته فقال: شربت البارحة على عقد الثريا ونطاق الجوزاء، فلما تنبَّه الصبح نمت، ولم أستيقظ إلا بلبسي قميص الشمس.

ومدح صديقًا له فقال: خُلِق كما يشتهي إخوانه.

ووصف مغنيًّا فقال: كأنه خلق من كل قلب، فهو يغني بما يشتهيه.

أحمد بن سليمان: أحسن الكلام ما لا تمجُّه الآذان، ولا تتعب فيه الأذهان.

بديع الزمان الهمَذاني: من إنشائه: الحمد لله الذي بيَّض القار، وسمَّاه الوقار، وعسى الله أن يغسل الفؤاد، كما غسل السواد.

وله: قد يُوحَش اللفظُ وكلُّه وِدٌّ، ويُكرَه الشيء وليس منه بُدٌّ، هذه العرب تقول: لا أبًا لك. ولا يقصدون الذم. و: ويل أمه. للأمر إذا أهمَّ. وسبيل أولي الألباب في هذا الباب أن ينظر في القول إلى قائله، فإنْ كان وليًّا فهو للولاء وإن خَشُنَ، وإن كان عدوًّا فهو للبلاء وإن حَسُن.

ومن إنشاء **أبي القاسم علي بن الحسين المعروف بالمغربي:** ووصلت الرقعة فاستجفيت النسيم العذب بالإضافة إلى لطافتها، فاستثقلت مجمل عقود اللؤلؤ بالقياس إلى خفة موقعها.

وله: وكتبت هذه الأحرف وقد أظلَّ البلادَ ثلجٌ ذكَّرني قولَ الصنوبري:

وَردُ الــــــرَّبـــــيــــــعِ مُوَرَّدٌ والــوَردُ فِـــي كـــانـــونَ أبْـــيَض

إلَّا أنه انتقل إلى ضد طباعه معي، واستأنس إلى عكس خلقه فيَّ، فإنه مع برده أحدَثَ لي شوقًا إلى سيدنا ألهب جوانحي، وصبابةً نحوه أضرمتْ جوارحي، حتى عاد بياضه في عينيَّ سواد التذكرة، وسُقياه ظمأً بَرْحًا لقلبي بتصوره، على أن قلبي مزحوم من جهته مما يزدحم فيه من كلِّ جفائه، وصبابةِ بُعده ونائه.

قال: وغرقت في هواجس الفكر، ووسواس الذكر، حتى نسيتكم من شدة التَّذكُّر، ولقيتكم من حدة التصور، وحتى عدت كأني أجد في فمي عَبَقًا من تقبيل ذلك الورد الناضر، وفي عينيَّ لمعًا من سناء ذلك الجمال الباهر، واللهَ تعالى أسأل أن يُسقط بيننا في تَشاكِيَّ ألمَ الفِراقِ إسنادَ القلم، بمشافهة الفم للفم.

أبو القاسم الحَريري: قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتابه نُصرة الثائر على المثل السائر: سمعت الشيخ شهاب الدين محمود حين قرأت المقامات عليه يحكي عن القاضي الفاضل أنه أراد معارضتها، ووَضَعَ ثلاث عشرة مَقامة عارَضَ كلَّ فصلٍ منها بمثله، حتى جاء إلى قوله —أعني: الحريري — في المقامة الرابعة عشر: اعلموا يا آمالَ الآمل، وثِمال الأرامل، إني من سَرَوات القبائل وسَرِيَّات العَقائل، لم يزل أهلي وبَعْلي يَحُلُّون الصَّدْر، ويَسرون القلب، ويُمطَون الظهر، ويُولُونَ اليد، فلمَّا أردى الدهرُ الأعضادَ، وَفَجعَ بالجوارح والأجساد، وانقلب ظهرًا لبطن، نَبَا الناظرُ، وجفا الحاجب، وذهبت العين، وفُقدَت الراحة، وصَلَدَ الزَّنْدُ، ووَهَنَتِ اليمين، وضاع اليسار، وبانت المرافق، ولم يبقَ لنا ثَنِيَّةٌ ولا نابٌ، فمُذْ اغْبَرَّ العيشُ الأخضر، وازورَّ المحبوب الأصفر، اسودَّ يوميَ الأبيض، وابيضَّ فؤادي الأسود، حتى رَثَى ليَ العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر.

فقال القاضي الفاضل: من أين يأتي الإنسان بفصلٍ يعارض هذا؟! ثم انقطع عمَّا عمله من المقامات ولم يظهرها، أو كما قال، وناهيك بمن يقول مثل القاضي الفاضل في حقه مثل هذا، ويعترف له بالعجز، وأما أنا فكلما قرأت هذا الفصل أجد له نشوة ولا نشوة الراح، وبهجة ولا بهجة الساري بضوء الصباح.

أبو الحسن بن بسام: عارِضٌ إذا هَمَعَ استوشلت البحار، ونَجمٌ إذا طلع تضاءلت الشموس والأقمار، وسابق لا يمسح وجهه إلا بهيادِب الغيوم، وصارم لا يحلَّى غمده إلا بأفراد النجوم.

القاضي السعيد هِبة الله بن سناء الملك: وإن للشوق بحرًا وقلبه — واللهِ — الغريق بأمواجه، وجمرًا وصدره المظلم بسراجه، وأقل يد للهموم عنده أنها حلته في عنفوان الشباب بحلية الأشيب، وجعلتْه ساذجًا من الشعر الأسود، وإن كان في وسط العشر المذهب كما قال أبو عبادة:

ذهبيَّة الصَّبواتِ مِن أعوامه

فالإسلام من طلقاته، والكفر مجاهد ولكن بإبقائه، وسيوفه تحسن في الأجسام البَسْط وفي الأرواح القبض، ورماحه تكاد لطولها تُمسك السماء أن تقع على الأرض.

وله: لا جَمَعَ الله عليك المصيبتَين: فراقَ الأحباب وفراق الثواب، ورزقك من الإعانة على ما تعانيه ما يفضل عنك إلى أن تخلعه عليَّ وترسله إليَّ.

وله: وازهَدْ في دنيا تُنْبِتُ الحِمام، وتحصد الأجسام، وتقصف أغصان الأشباح، وتقطف أزهار الأرواح، واذهلْ عن الذهول، وأحسنْ ضيافة النُّصح بالقبول.

وإذا رأيتَ جَنازةً مَحمولةً فاعلمْ بأنَّك بَعدَها مَحمولُ

وكيف لا يحمل المملوك تلك الأشواق وهي تقربه من المولى بالتخيل إذا أبعدته الأيام، وتمثل له المقام الكريم فيقابله كلَّ ساعة بالسجود ويشافهه بالسَّلام، ويرفع ناظره فلولا نظره إليه لكانت عينه مُطرقة، وستور أهدابه مُسبَلة، وأبواب جفونه مغلقة، ولولا اشتغالها بمطالعةِ طَلَعَتِه لالتهبتْ من دموعها بمياهٍ مُحرِقة، فهو منها في نارٍ وجنه، مغلول بغُلِّه مطوَّق بمنِّه.

وله: ولقد أنساه فراقُ المولى حروفَ المعجم، فما يعرف منها حرفًا، وعاقب خاطره الذي كفر بالبَلادة فأسقط عليها من سمائها كِسَفًا، شوق ما خطر مثله على قلب بشر، ودمع ما مر على بصر إلا ومرَّ بالبصر، ولسانٌ لا ينفكُّ من الدعاء على يوم الفراق ومن دعا على ظالمه فقد انتصر.

ضياء الدين بن الأثير الجزري: ودولته هي الضاحكة، وإن كانت نسبتها إلى العباس. وهي خير دولة أُخرِجَت للدهر، ورعاياها خير أمَّة أخرجت للناس، ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلًا بأنها لا تهرم، وإنها لا تزال محبوَّة من أبكار السعادة بالوصل الذي لا يُصرَم.

وله يصف بناء مرتفعًا: إذا أضرم برأسه قبس يظنه المتأمِّل نجمًا، وإذا استدار عليه قوس السماء كان في كبده سهمًا.

وله في القلم: فهو الملقَّب بالجواد المضمر، وإذا أخذت السوابق في إحضارها بلغ الغاية وما أحضر.

وله: لون يحقق فيه القول النبوي: لو جمعت الخيل في صعيد واحد لسبقها أشقر، فإن الأشواق عن الحمام خليفة، وإذا كانت حركة الفلك شوقية فما الظن بالقلوب الضعيفة؟

القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يصف بطيخًا حلبيًّا أهدِي إليه: فشاهد إهابه وكأنما جُمِع من زهر الأقاح، وكأنَّ كل واحد منه قنديل وعروقه فتيلة الاصطباح، وكأن كُبراه بطن خميص كم له من مجموع اللُّب حنين، وكأن صُغراه رأس كم منها فصلت جبين، يقسم بكل رأس منه رئيس من الأناسي، وقصر أيمانه في الاستحسان عليه فما يقول إلَّا: وحق رأسي.

ومن إنشائه: يعلمه بفتوحاتٍ استطعم الإيمان حلاوتها من أطراف المِران، واستنطق الإسلام عبارتها من ألسنة الخرصان، وذلك بفتح حصن الأكراد الذي كان في حلق البلاد الشامية غصَّة، لم يسغ بمياه السيوف المجردة، وشجى في صدورها لم يقاومه في أودية العزائم المفردة، طالما اكتسبت البلاد رغبًا ورهبًا، وطالما استمرأ من أخلاق الأمصار جلبًا.

ومن إنشائه من كتاب يأمر في بإبطال الحشيش بعد الخمر: إن المنكرات التي أمرْنا أن تُملَأ الصحائف بأجرها وتفرغ الصحاف، وأن لا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف، قد بلغنا الآن أنها اختصرت، وأن كلمة الشيطان بالتعويض عنها قد نصرت، وأنَّ أم الخبائث ما عقمت، والجماعة التي كانت ترضع ثدي الكأس قد ارتفعت بعدما فُطِمَت، وأنها في النشأة ما خيَّب إبليس مسعاها، وأنه لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها، وأنها استراحت من الخمار، واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تَبتاعه من الخمر بدينار، وأن ذلك فشا في كثير من الناس، وعُرِف في عيونهم ما يعرف من الاحمرار في الكأس، وصاروا كأنهم خشب مسنَّدة سَكرى، وإذا مشوا يقدِّمون لفساد أذهانهم رِجلًا ويؤخِّرون أخرى، ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقطع، ويؤدب غارسها حتى يحصد من الندامة ما زرع، وتطهَّر منها المساجد والجوامع، ويشهر مستعملها في المحافل والمجامع، حتى تنتبه العيون من الوسن، وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن.

ومن إنشائه من كتابٍ إلى الفرنج: وقد أخذت شواني السلطان وخيولهم المركب ومراكبنا الخيول، وفرق من يجريها كالبحار وبين من يقف بها في الوحول، وبين من يتصيد بالصقور من الخيل العراب، وبين من إذا افتخر قال: تصيَّدت بغراب. فلئن أخذتم لنا قرية مكسورة، فكم أخذنا لكم قرية معمورة؟ وقد قال الملك وقلنا وعلم الله أن قولنا هو الصحيح، واتكلنا واتكل، وأين مَن توكَّل على الله ممَّن اتَّكل على الريح؟

وله: وأما فلان فإنه شمر الذيل، وامتطى هربًا أشهب الصباح، وأحمر الشفق، وأصفر الأصيل، وأدهم الليل.

وله: فكم شاهدنا من قتلاهم كل مَهِيب الهامَّة، حسن الوسامة، قد فَضَّ الرمحُ فاه فقرع السن على الحقيقة ندامة.

وله من منشور كتبه للأمير جمال الدين المحمدي عند إخراجه من الاعتقال، أوله: الحمد لله الذي أظهر جمال الدين المحمدي.

وله من منشور كتبه للبيسري عن السلطان الملك المنصور: وجرينا في الإحسان إليه على القياس، وإنْ كان من أكابر أصحاب الظاهر.

ومن إنشائه: يقبل اليد التي لو تجسدت القُبَل فيها لنظمت سبحًا، ولو أثَّرت فيها كتأثير الوضوء كانت حجولًا ووضحًا، ولا برحت القبل التي قبلتها ساجدة، والأفواه إلى مشرعتها واردة، حتى يقال والمباسم يقبلها: أحباب في حياض أم زهر في رياض؟ وبُروق في غمام أم درر في بحر طام؟

ومن إنشاء **قوام الدين بن زيادة** يهنِّئ الوزير البلدي: وأضاف عليه من صنوف تشريفاته خلعًا خلع بها قلوب الأعادي من أعماق الصدور، وطلع فيها من آفاق البدور، كأنما أُنشِئت من عيون عين الصريم وغزلانه، أو غُشيَت بعصر الشباب وريعانه، فألبَسَها من حلاه سربال الجلال، وجرَّ بها على المجرة أذيال الاختيال، وقلده سيفًا عقد النصر بلوائه، وتعلم المضا من آرائه، أهدى في قلوب العِدى من الأوجال لا ينصل نصله من خضاب الضراب، ولا يغمد إلا في قراب الرقاب، وأمطاه صهوة صافن أسرع من تأدية الأسماع إلى الأفهام، وأوحى من مضاحكة البرق سجف الغمام، فيسبق مطارح نظره بمواقع حافره، ويهدي ظلال ظله بأهلة أثره، تشكل رايته فيه إذا تدرع بشوطه واشتد، أطرفٌ رديءٌ أم طرف يرتد كأنه بركة سهم، وسنبكة وهم، أو يحف بقوادم شهاب، أو عنده علم من الكتاب، ولاطفه بدواة هي دوام العدم، وأداة النعم، ومنبع الكرم، ومربع أرزاق الأمم، يستشفُّ لآلئ الآراء من قَرارها، ويصفق أمواج الحكمة والبلاغة من أقطار تيارها، تكتنف يراعًا يروعُ كلَّ روع، ويتبع أمره كل متبوع، قد حمل من أعباء الخلافة، وحمى الأسد رضيعًا والملك فطيمًا، يصوب بكرم الغيوث الغوادي، ويصول بقرم الليوث العوادي:

يَمــحُو ويُثْبِتُ أَرزاقَ الــعِبــادِ بِهــا   فَمــا المَقــاديـرُ إلَّـا مـا مَحَـا ودَحَا

من إنشاء **الصدر عز الدين بن سينا** من بشارةٍ للديوان العزيز بكسر عساكر الفرنج من عكا عن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، في سنة اثنين وأربعين وستمائة: فلا روضة إلا درع، ولا جدول إلا حسام، ولا غمامة إلا نقع، ولا وبل إلا سهام، ولا مدامة إلا دم، ولا نغم إلا صهيل، ولا معربد إلا قاتل، ولا سكران إلا قتيل، حتى أنبت كافور الرمال شقيقًا، واستحال بلور الحصباء عقيقًا، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقًا، وضرب النقع في السماء طريقًا، وعاد الفارس بالدماء غريقًا:

وَضـــــاقَتِ الأَرْضُ حَتَّى كـادَ هـاربهم إذا رَأى غَـيـرَ شـــَـيءٍ ظَـنَّـه رَجُـلَا

من إنشاء **القاضي تاج الدين ابن الأثير:** والمنجنيقات تفوِّق إليهم سهام قِسيِّها، وتُخَيَّلُ إليهم أنها ساعِية إليهم بحبالها وعِصِيِّها، وهي في الحصون من ألدِّ الخصوم، وإذا أَمَّت حِصنًا، حكم بأنه ليس بإمامٍ مَعصوم، ومتى امْتَرَى خَلق في آلات الفتوح ولم يكن فيها أحد من المُمتَرين، وإذا نزلت بساحة قوم فساء صباح المنذرين، تُدعى إلى الوَغى فتُكلِّم، وما أُقِيمتْ صلاةُ حربٍ عند حصن إلَّا كان ذلك الحصن ممَّن يسجد ويُسلِّم.

ومن إنشاء سيد كتَّاب الإنشاء، وإمام البلغاء، **القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني:** فقمْ عنَّا بهذه الفريضة وطِرْ، في ذلك المطار ورفِّه قوادِمنا المهيضة وأدر، وعلينا أن نشرب، وقل: وعلينا أن نطرب. وتفرَّدْ بالحرب ونحن النظارة، وأعطنا السلب وباشر أنت الغارة، وأنفِذْ إلينا كلَّ يومٍ من أقمصة يوسف قميصًا وليكنْ قميص البشارة.

وله في شفاعة: وعلى المذكور ديون كثيرة، والدَّين عثرة الصراط، والدنيا على المطلوب سَمُّ الخِيَاط، فإنْ رأى مولانا أن ينظر له بما يَفُكُّ أَسْرَهُ، ويُغنِي فَقره، فهناك الإطلاق على الحقيقة والأسر، والغنى بعد العرض على الله أو الفقر، فبهذا عُرِفتم يا أهل المعروف من آل أيُّوب، ولذا كان يُوسُفُكُم — رحمه الله — يقضي كل حاجة في نفس يعقوب.

وله: والجو يتنفَّس عن صدرٍ مسجور، كصدر المهجور، والحرُّ وصاليه في نحو هذا الطرف جارٌّ ومجرور، والمهامِهُ قد نُشر فيها مُلاءُ السَّراب، وزخر فيها بحر ماء وُلِدَ لِغَيرِ رُشده على غير فراش السحاب، وحَرُّ الرمل قد منع حثَّ الرَّمَل، ونحن في أكثر من جموع صِفِّين إلَّا أننا نخاف وقعة الجمل، ووردنا ماء هذه العيون وهو كماء المحابر يغترف منه المجرمُ مثل عمله، ويرسله سهمًا فلا يخطئ ثغر مَقتَله، وهو مع هذا قليل كأنَّه مما جادت به الآماق في ساحات النفاق، لا في ساعات الفراق، فيا لك من ماءٍ لا تتميَّز أوصافه من التراب، ولا يرتفع به فرض التيمُّم كما لا يرتفع بالسراب، ولا يعدو ما وُصِف

به أهل الجحيم في قوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾. فنحن حوله كالعوائد حول المريض يعللون عليلًا لا يرد الجواب، بل يندبون ميتًا حال بينهم وبينه التراب، يُجَهَّز للدفن نَعشه المُراد، ويُحفر عليه ليقوم من قبره وذلك خِلاف المعتاد:

وفـي غيـر مَـن قــد وارتِ الأرضُ فــاطمـع

على أنه لو كان دمعًا لما بلَّ الأجفان، ولو كان مالًا لَمَا رَفَعَ كَفَّة الميزان. وإنَّ امرأً روحه في جلد غيره وهو المراد، وخصمه من غير جنسه وهو النار التي في غير الزناد، لَجديرٌ أن يغرى به إغراؤه، وأن يُلام على مفارقة الأحبة ويقال: هذا جزاؤه.

وله: إلى أن ترد كتب العسكر وأعلامها من مدَّات أَلِفاته، ورؤوس العِدى قطعت همزاته. والأيام التي لا أشاهد فيها الوجه لا أحسبها من العمر، والأيام التي لا يصل فيها ركابه لا أحسبها من الدهر، ولا تختصر عليَّ عمري، ولا تغالطني في حساب دهري.

وله: وقد أحسنت الحضرة في بشراي في كتابة كتابها فقد اطلع طيفًا للحبيب الزَّوَّار، ونجمًا لفجره ولا أقول: الفرار. وعليه — أبقاه الله — سلام أَنْوَرُ مما بعد الفجر وأشرق مما تحت الخمار، وأجلب للسرور مما قبل الخمار.

وله: وذكر الله ذلك العهد بخير ما ذُكِرَت العهود، ولعن الله الفرنج المُخَندِقين وقَتَل أصحاب الأخدود، فقد قطعوا طُرُقات المسار، وأطالوا عمر البيكار، وسبكت نار مقاساتهم الديار، فعجَّل الله إعلام الكافر لِمَن عُقبى الدار.

وله: وظننا أنَّا به، بل بدعائه، قد دخلنا الجنة؛ لِما نلناه من خمرها الذي هو لذَّةٌ للشاربين، أو أنَّا خالطنا أهلها فأشخاص المعاني من الحروف على سُرُرٍ متقابلين، ووثقنا بأن لنا منه الدعاء الذي نأوي منه إلى كنز عتيد، والرأي الذي أنزله الله هو والحديد فيهما بأسٌ شديد.

وله: رَبِّ إنِّي لا أملك إلا نفسي وها هي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة نرجوها مقبولة، وَوَلَدِي وقد بذلتُ لعدوِّك صفحاتِ وجوههم، وهان عليَّ محبوبك بمكروهي ومكروههم، وثقف هذا الحد، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فيا عَصَبَةَ محمَّدٍ ﷺ اخْلُفْه في أمته بما تطمئنُّ منه مضاجِعُه، ووَفد الحق فينا فإنَّا والمسلمون عندك ودائعه.

وله: وعاد المسلمون برؤوس عدوِّهم في رؤوس القناء وقد اجتنوا ثمراتها، وبأرواحهم في صدور الظباء وقد أطفؤوا بمائها جمراتها.

وله: فبنت سَنابِك الخيل سماءً من العَجَاجِ نُجومُها الأسنَّة، وطارت إليهم عُقبان من الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعِنَّة، وتصوَّبت عيون السُّمْر إلى قلوبهم كأنما تطلب سوادها، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنما أرادت أن تروي جادها، ونُصِبَت للملك خيمةٌ حمراءُ كأنَّما وُضِع على الشِّرْكِ عمادُها، وتولَّت حِفظَ أطنابها الرجالُ فكأنَّهم أوتادها.

وله: وقد كان يقال: إن الذهب الإبْرِيز لا يَدخل عليه آفَةٌ، وإنَّ يدَ الدهر البخيل عنه كافَّة. وأنتم — يا بني أيوب — أيديكم آفة نفائس الأموال، كما أن سيوفكم آفة نفوس الأبطال، فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليَه أداهِم، وقلَّدتم أيامه صوارم، ووهبتم شموسه وبدوره دنانير ودراهم، وأيامُ دولتكم أعراس وكان ما تمَّ فيها على الأموال مآتِم، والجود في أيديكم خاتم، ونفس حاتم نقش في ذلك الخاتم.

وله: وما أحسبُ الأقلامَ جُعِلت ساجدةً إلا لأن طِرسه محراب، ولا أنها سمِّيَت خرساء إلا قبل أن ينفث سيدنا في رَوعها رائعَ هذا الصواب، ولا لأنها اضطجعت في دويِّها إلا ليبعثها ما ينفخ من روحه مِن مَرقَدها، ولا سُوِّدَت رؤوسها إلا لأنها أعلام عبَّاسيَّة تناولتها الحضرة بيدها، لا جَرَمَ أنها تحمي الحِمَى، وتسفك دمًا وتحقن دمًا، وتتَّشِحُ بها يده عَنانًا، ويرسلها فيعلم الفرسان أن في الكُتَّاب فرسانًا، وتقوم الخطباءُ بما كتبتْ تعلِّم الألسنة أن في الأيدي كما في الأفواه لسانًا، ولقد عجبتُ من هذه الأقلام تخرُّ ألسنتها شِقًّا فتنطق فصيحة، وتُجدَعُ أنوفُها بريًا فتخرج صحيحة، وتجلى مليحة، وما هي إلا آيةٌ في يد سيدنا البيضاء الموسويَّة، ومادتها في الفصاحة عَلَويَّة، ولولا الغلوُّ لقال: عُلْوِيَّة.

وله: ففضه عن فضَّةٍ مسَّها ذهب، وفاوض عن نار ذكاء لو لم يمازجه ماء الطَّبع لَهَب منه أي لهب، وخمد له كل ملتهب القريحة وقصرت يده فإن نواه قيل له: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وأغار به على القلوب فرجع وهي بالأشواق محتوية الفضل مأخوذة السلب، فكم فيه من فقرة قيل لها: يا أختَ خَيرِ أخٍ، يا بنتَ خيرِ أب.

وله: وأما الثلوج التي وصفها ذلك البيان فأجَّجها، بل أهداها إلى الصدور فأثلجها، فقد ثملت البلاد وكأنَّما نشر عليها المولى عرضَه، وسرَّني أن سر ذلك الفضاء فضَّه، وأراني النجوم في هذه السنة وقد ناصحت في خصبها فنزلت بأنفسها، وبرزت ظاهرةً في النهار بجواريها وخُنَّسها، وأجدر بها أن تكون سنةً يُغسَل وَضَرُ الكُفر بصابون ثلجها، وتُنير العزمةَ الناصريَّة من هذه الرَّغوة صَريع فلجها.

وله: وبَينا أنا من الخمول في مهبط رمس، إذ دفعني التنويه إلى مطلع شمس، وبينا أنا أندب أفعال بني الأصفر في عسقلان وجَفوةَ أبيهم (يعني: الدينار) لي في مصر فما يراني إلا وكأنَّ عليه من سلبه

عوذًا بها مني يعتصم، وكأنما يصفرُّ خوفًا مني وهو إلى الغير يبتسم، إذ صرتُ أنفضه من بنان أبِي الطيِّب من دنانير شمسه، وربما أثقله بعد الضرب إلى النفي لا إلى اعتقال الكيس وحبسه.

وله: وإنْ ادَّعى سحرُ البيان أنه يقضي أيسرَ حقوقه، ويُثمر ما يجب من شُكر فروعه وعروقه، لكُنتُ أفضحُ باطلَ سِحره، وأُذِيقه وَبالَ أمره، وأصلب الخواطر السَّحَّارة على جذوع الأقلام، وأعقد ألسنتها كما تعقد السَّحَرة الألسنةَ عن الكلام.

وله: أشكو بَعدَ قلبي جسمي، فقد ضَعُفَت قوَّته، وقَوِيَ ضَعفُه، ونَسَجَت عليه همومي ثوبًا دون الثياب، وشعارًا دون الشعار، من الجَرَب الذي عاد بيني وبينه، وأسقَمَ يدي من جسمي، واستخدمها تحرث أرضه فإن لم يكن لأرضه.

الباب الثامن والثلاثون

في الهدايا والتُّحَف النَّفيسةِ الأثمان

ذكر ابنُ بَدْرُون في شرحه لقصيدةِ ابن عَبدون عند ذكر كِسرى وبنائه للسُّور المذكور في الباب السادس من هذا الكتاب: ولما بنى كسرى هذا السور هابته الملوك وراسلته وهادته، فمنهم ملك الصين، فكتب إليه:

> من يعفور ملك الصين، صاحب قصر الدر والجوهر، الذي في قصره نهران يسقيان العود والكافور، الذي تُوجَد رائحةُ قصره على فَرسَخَيْن، الذي تخدمه بنات ألف ملك، الذي في مربطه ألف فيل أبيض، إلى أخيه كسرى أنوشروان.

وأهدى إليه فارسًا من در منضَّد، عَينا الفارسِ والفَرَس من ياقوتٍ أحمر، وقائمُ سيفه من الزُّمرُّد منضد بالجوهر، وثوبًا حريريًّا صينيًّا عشريًّا، فيه صورة الملك على إيوانه، وعليه حُلَّته وتاجه، وعلى رأسه الخدم بأيديهم المذاب المصورة من ذهب تحمله جارية تغيب في شعرها، تتلألأ جمالًا، وغير ذلك مما تُهديه الملوك إلى أمثالها.

وكتب إليه ملك الهند:

> من ملك الهندِ وعظيم ملوك الشرق، وصاحب قصر الذهب وإيوان الياقوت والدر، إلى أخيه كسرى أنوشروان، ملك فارس وصاحب التاج والراية.

وأهدى إليه ألف مَنٍّ مِن عود يذوب في النار كما يذوب الشمع، ويختم عليه كما يختم على الشمع، وجامًا من الياقوت الأحمر فَتْحَ شِبرٍ مملوءًا درًّا، وعشرة أمثالها كافور كالفستق، وأكبر من ذلك، وجارية

طولها سبعة أذرع تضرب أشفارَ عينيها إلى وجنتيها، كأنَّ بين أجفانها لمعان البرق مع إتقان شكلها، مقرونة الحاجبين، لها ضفائر شعر تجرُّها، وفِراشًا من جلود الحيَّات ألْيَنُ من الحرير وأحسن من الوَشْي، وكان كتابه في لحاء الشجر المعروف بالكاذيِّ، مكتوب بالذهب الأحمر، وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين، وهو نوعٌ من النبات عجيب، ذو لون حسن وريح طيبة، تُكاتِبُ فيه ملوكُ الصين والهند.

وكتب إليه ملك التنبت:

> من ملك تنبتان ومشارق الأرض المتاخمة للصين والهند، إلى أخيه المحمود السيرة والقدر، ملك المملكة المتوسِّطة الأقاليم السبعة، كسرى أنوشروان.

وأهدى إليه أنواعًا مما يُحمل من عجائب أرض تنبت، منها: مائة جوشن، ومائة تُرس مذهبة، وأربعة آلاف مَنٍّ من المسك والنوافج الغزلانيَّة.

وأهدى يعقوب بن الليث الصَّفَّار صاحب خُرَاسان إلى المعتمد هديةً في بعض السنين، من جملتها: عشر بُزَاة، منها بازي أبلق لمْ يُرَ مثله، ومائة مُهْرٍ، وعشرون صندوقًا على عشرة بغال فيهم ظرائف الصين وغرائبه، ومسجد فضَّة بِرواقَيْن يصلِّي فيه خمسة عشر إنسانًا، ومائة منٍّ مسك، ومائة منٍّ عود هندي، وأربعة آلاف درهم.

وأهدت ملكة إفرنجة إلى المكتفي بالله في سنة ثلاث وتسعين ومائتين خمسينَ سيفًا، وخمسين رمحًا، وخمسين فرسًا، وعشرين ثوبًا منسوجًا بالذهب، وعشرين خادمًا صقلِّيًّا حسانًا، وعشرة كلاب كبار لا تُطيقها السباعُ، وستَّة بازات، وسبعة صقور، ومضرب حرير يجمع ثلاثةً وعشرين ثوبًا معمولًا من صوف، يكون في صدف يخرج من البحر يتلوَّن بجميع الألوان كقوس قزح، يتلون كل ساعة لونًا؛ وثلاثة أطيار تكون في أرض إفرنجة إذا نظرتْ إلى الطعام المسموم صاحت صياحًا مُنكَرًا، وصفقَّت بأجنحتها ليُعلمَ ذلك من حالها؛ وخرزًا يجتذب النصول فتخرج من غير ألم، وقدَّم الرسول بكتابها وهديَّتها وكان في فصل من كتابها:

> وعرفت أن بينك وبين ملك قسطنطينية صِلةً، وأنا أوسع منه سلطانًا، وأكثر جندًا، وأشد سطوة، وملكي على أربعة وعشرين مملكة، لسانها لا يشبه الآخر، وفي مملكتي وطاعتي رومية الكبرى.

ومن ظريف الهدايا ما أهدته شجرة الدر، جارية المتوكل، وكان يميل إليها ميلًا كثيرًا ويفضلها على سائر حظاياه. فلما كان يوم المهرجان، أهدى إليه حظاياه هدايا نفيسة واحتفلن في ذلك، فجاءت شجرة الدر بعشر غزلان تربية، عليهن عشرون سراجًا صينيًّا، على كل غزال خرج صغير مشبك من حرير فيه المسك والعنبر والغالية وأصناف الطيب، ومع كل غزالٍ وصيفة بمنطقة ذهب، وفي يدها قضيب ذهب، وفي رأسه جوهرة. فقال المتوكل لحظاياه وقد سُرَّ بالهدية: ما كان فيكن مَن تُحسن مثل هذا وتقدر عليه! فحسدنها وعملن على قتلها بشيء سقَيْنَهُ لها، فماتت.

عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، أبو عبد الرحمن الأمير، وَلِيَ المدينة للرشيد، ثم ولي الشام والجزيرة للأمين، وجَّه الرشيد فاكهةً في أطباق خيزران وكتب إليه:

> أسعد الله أمير المؤمنين، وأسعد به. دخلتُ إلى بستانٍ أفادَنِيه كرمُك، وغمرته لي نعمُك، قد أينعتْ أشجاره، وتهدَّلت ثماره، فوجَّهتُ إلى أمير المؤمنين من كل شيء على القُدرة والإمكان، في أطباق القضبان، ليصلَ إليَّ من بركة دعائه مثلُ ما وصل إليَّ من بركة عطائه.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين، لم أسمع بأطباق القضبان! فقال: يا أبله، كنَّى عن الخيزران بالقضبان إذ كان اسمًا لأمِّنا.

وأنشدني في المجدي فضل الله بن مكانس وقد أهدى له والده تُحَفًا جليلة:

تَنـاهَيـتَ فـي بِرِّي إلـى أنْ هَدَيْتَني وقد كنتُ قبلَ اليوم في الغَيِّ ســارِيا
وأهـديـتَ لي مـا حَيَّرَ الفِكرَ حُسـنُه فلا زِلـتَ في الحـالَيْنِ للعَبـدِ هـاديـا

التحف النفيسة الأثمان

ذكر الأصمعي قال: حُدِّثت أنَّ برمك جد يحيى بن خالد كان زوَّارًا للملوك، وكان يتطيَّب، فحدث أنه صار إلى ملك الهند فأكرمه وآنَسَ به وأحضر له طعامه، قال: فأكلت حتى انتهيت، فقال لي: كُل. فقلت: لا والله أيها الملك، ما أقدر على أن أزيد شيئًا! فقال: يا غلام، هات القضيب. قال: فتوهمت وظننت أني أخطأت، فلم يلبث أن جاءه بقضيب فأخذه الملك وأمرَّه على صدري، فكأنني لم آكل شيئًا قطُّ، ثم أكلت أكلًا كثيرًا حتى انتهيت، فقال: كل. فقلت: ما أقدر على ذلك. فأخذ القضيب وفعل مثل ما فعل، فكأنِّي

لم آكل شيئًا قط، ثم أكلت حتى انتهيت، فقال لي: كل. فقلت: ما أقدر على ذلك! فأراد أن يمر القضيب فقلت: أيها الملك، إن الذي دخل يحتاج إلى أن يخرج. فقال: صدقتَ. وأمسكَ عنِّي، فسألته عن القضيب فقال: تحفة من تحف الملوك.

ثم خرجت من عنده فأتيت الأصيهد فقربني وأكرمني، وكان جالسًا في مجلس على البحر وفي يده خاتم ياقوت أحمر يغلب نورُه نورَ الشمس، قد أضاء المجلس منه، فلم أزل أنظر إليه فلمَّا رآني أفعل ذلك نزعه من يده ورمى به في البحر، فوردتْ عليَّ أعظمُ مصيبة وقدَّرت أني قد جنيت جنايةً ووجمت، فلما رآني قال: ما لك؟ قلت: أحسب أنك أنكرت نظري إلى الخاتم فألقيته في البحر. قال: لا. وضحكَ ودعا بسفط، فأخرج منه سمكة من فضة في رقبتها سلسلة طويلة فألقاها في البحر، فغاصت ثم ظهرت بالخاتم في فيها، فجذبها وأخذ الخاتم وردَّه إلى إصبعه، فورد عليَّ ما حيَّرني ولم أعرف سببه.

ثم خرجت وأتيت الشام، ولقيت هشام بن عبد الملك، فأكرمني ورحَّب بي، وسألني عن خبري فأخبرته، فأمرني أن اتَّخذ له أنتجات أرداها.

قال الشيخ: الأنتجات هي أخلاط تربت في العسل مثل الأترجِّ والإهليلج ونحوها.

رجع: فتشاغلت بعملها، فبينما أنا في بعض الأيام في منزلي قد نزعتُ ثيابي وأخذت في إصلاح حالي وما أمرني به، إذا بغلمانه قد هجموا عليَّ وقالوا: أميرُ المؤمنين يطلبك. فأردت أن أغتسل وألبس ثيابي فقالوا: كما أنت. فأخذت بصورتي وأُحضِرتُ مجلسه، فلما دخلت من الباب قال: اتركوه، اذهبْ اذهب، لا تقربني، معك سمٌّ والله، أخرِجوه. فأُخرِجتُ وعدتُ إلى منزلي وأنا على حال حيرةٍ من انزعاجه، فاغتسلت وتنظَّفت ولبست ثيابي ثم رحلت إليه، ودخلت إلى حضرته وسألته عما كان منه، فقال لي: كان معك سم، أو عبثت بشيء من السموم؟ فقلت: لا والله، إلا أني كنت أعمل تلك الأنتجات التي أمر أمير المؤمنين بها، ولما لم يدعني الغلمان أن أغتسل، وكان من جملتها الأفيون، وهو سم. قال: ما أشك في ذلك. فقلت: فكيف علم أمير المؤمنين ذلك؟ قال: في عضدي كبشان من الياقوت إذا لقيني إنسانٌ معه سم أو قدَّم إليَّ ما فيه سم انتطحا، فلما وقعت عيني عليك انتطح الكبشان فعلمت أن في يدك شيئًا من السم.

نقلتُ هذه الحكاية من مجموعة بخط سيدنا وشيخنا شمس الدين محمد بن الكتبي الشهير بالتريكي رحمه الله.

ذكر صاحب كتاب المباهج مما وُجد في خزائن الملوك والخلفاء والوزراء من الجواهر النفيسة، فمنه الدُّرَّةُ اليتيمة، وسمِّيت بذلك لأنها لم يوجد لها نظير. حملها إلى الرشيد مسلم بن عبد الله العراقي، فباعها عليه بتسعين ألف دينار. ومنها الفَصُّ الياقوت الأحمر المسمى بالجبل، كان وزنه مثقالًا ونصف، اشتراه بثمانين ألف دينار. وكان للمتوكل فص ياقوت أحمر وزناه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار، وكانت له سبحة فيها مائة حبة جوهر، وزن كل حبة مثقال، اشتُرِيَت كلُّ حبة منها بألف دينار.

وأهدى بعض ملوك الهند إلى الرشيد قضيبَ زُمُرُّد أطول من ذراع، وعلى رأسه تمثالُ طائرِ ياقوت أحمر لا قدر له نفاسةً، قُوِّم هذا الطائر على حِدَته بمائة ألف دينار.

ودفع مصعب بن الزبير حين أحسَّ بالقتل إلى مولاه زياد فصًّا من الياقوت الأحمر وقال له: انجُ بهذا! وكانت قيمته ألف ألف درهم.

وقُوِّم الجوهر الذي سلم من النهب عند فتنة المأمون ألف ألف وستمائة ألف وستة عشر ألف درهم.

وسقط من يد الرشيد في أرضٍ كان يتصيَّد فيها فاغتمَّ لفقده، فذُكِر له فَصٌّ ابتاعه صالح صاحب الموصل بعشرين ألف دينار، فأحضره ليكون عوضًا عما سقط منه، فلم يره عوضًا عنه.

ووهب المأمون للحسن بن سهل عقدًا قيمته ألف ألف درهم.

ووُجد في تَرِكة السيدة بنت المعزِّ العُبَيدي طَستٌ وإبريق من البلَّور، ومدهن ياقوت أحمر وزنه تسعة وعشرون مثقالًا، وكان الناس يستعظمون الطست والإبريق إلى أن قُبِض على ابن البازوري وزير المستنصر العبيدي، فوُجِد عنده تسعون طستًا بأباريقها من صافي البلور وجيده، كبارًا وصغارًا، فهان عليهم ما استعظموه.

وكان لمحمود بن سُبُكْتِكِين صاحب غَزْنة كنِصاب المرأة من الياقوت الأحمر، إذا قبض عليه بيمينه يبين طرفاه من جانبي يده بحيث ينظر إليهما الناس.

ووُجد في خزائن مروان بن محمد مائدة جزع أرضها بيضاء، فيها خيوط سود وحمر، سعتها ثلاثة أشبار، وأرجلها ذهب، فيقال: إنها صنعت على شكل المُشترِي، مَن أكلَ منها لا يشبع.

ووجد أيضًا في خزانته جام زجاجٍ فرعونيٍّ، غلظ إصبع، وفتحه شبر ونصف، في وسطه صورة أسد ثابت، وأمامه رجل قد بَرَك على ركبتيه، وقد أغرق السهم في القوس.

وكان في ما أُخِذَ من خزائن قصرِ العاضد العبيدي بعد وفاته الحبل الياقوت، وكان وزنه سبعة عشر درهمًا أو سبعة عشر مثقالًا، ولما انهزم أبو الفوارس بهاء الدولة البُوَيْهِي عن أخيه سلطان الدولة قصد يمينَ الدولة محمود بن سبكتكين، فبلغ محمودًا أنه باع جوهرتين كانتا على جبهة فرسه، فاشتراهما نصير الدولة صاحب ديار بكر بعشرة آلاف دينار، فقال: من غَلَطِكم جعلتم على جبهة الفرس مثلَ هذا! وقيمَتُه سِتُّون ألف دينار.

وأهدى صاحب قلعة إصْطَخْرَ إلى السلطان الملك العادل آلْب أرسلان السلجوقي قَدَحَ فيروزج، فيه مَنَوَا مسك، مكتوب عليه: جم شاد. أحد ملوك الفرس الأُوَل.

وأخذ يوسف بن تاشْفِين من عبد الله بن بلكين الصنهاجي — وكان ملك إفريقية — لما قبض عليه سبحةً فيها أربعمائة حبة جوهر، كل حبة منها قُوِّمت بمائة دينار.

ووجد في ذخائر العبيديين لما أُخِذَ المُلك منهم عشرة آلاف قطعة بلَّور محكم، فقاومت قيمتها من ألف دينار إلى عشرة دنانير، ووجد فيها قطعة بَلْخَش حمراء وزنها ثلاثة وعشرون قيراطًا.

وكان في ما أفاء الله على السلطان محمود بن سُبُكْتِكِينَ لما فتح الهند قطعةُ ياقوت أزرق، زِنَتها أربعمائة وخمسون مثقالًا.

وكان في ما أُخِذَ لمؤيد المُلك بن نظام الدولة من الجواهر قطعة بلخش، وزنها أحد وأربعون مثقالًا.

وحكى الواقدي في فتوح السند أن عبد الله العبيدي عامِلَ معاوية على السِّند غزا بلد القيفال فأصاب منه مغانم كثيرة، وأن ملك القيفال بعث إليه يطلب الفداء، وحمل إليه هدايا كان فيها قطعة مرآة يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم لما كثر ولده وانتشروا في الأرض، فكان ينظر فيها فيرى مِن بُعدٍ منهم على الحال التي هو عليها من خير وشر، فحملها عبد الله إلى معاوية، فبقيت في ذخائر بني أمية إلى أن انتقل الملك منهم إلى بني العباس، فصارت عندهم في الذخائر.

بَدَنة عبدة

ذكر أصحاب التواريخ أن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان مات وخلَّف عاتكة بنت يزيد، وكانت تحت عبد الملك بن مروان، فلما ماتت عاتكة أوصت بأن يفرَّق مالها على أولاد أخيها، فقسم عبد الملك تَرِكتها بين عثامة وعبدة، فتزوج عبد الملك عثامة وتزوج هشام عبدة، فرآها يومًا هشام وقد ألقت حُلِيَّها وإذا في نحرها خال، فبكى وقال: لَأنتِ هِي! فقالت: وما معنى هذا القول؟ فقال: إنَّا نُروَى أن

امرأةَ خليفةٍ وابنة خليفة في جِيدِها خالٌ تُذبَح كما تذبح الشاة. فقالت: لا يحزنك الله! إن كان الأمر صحيحًا فلا حيلة في دفع القضاء، وإن لم يكن فلا معنى لتعجيل الهم.

فلما قتل عبدُ الله بن عليٍّ بني أمية واستباح أموالهم، أخذ بدنة عبدة وبعث بجواهر إلى السفاح فعرضها على امرأته أم سلمة بنت يعقوب المخزومية، فقالت: ما لي لا أرى بدنة عبدة؟ فكتب إليه بذلك، وأمره بإنفاذ بدنة عبدة، فأنفذ إليه بدنة وزعم أنها هي، فعرضها على امرأته فقالت: ليست هي، هذه بدنة الرائقة جارية هشام، وحبة واحدة من بدنة عبدة أفضل من هذه كلها، وعلامتُها أنَّ في ظهرها وصدرها خَطَّين من كبار اللؤلؤ الأحمر. فكتب أبو العباس إلى عبد الله يعزم عليه في البعث ببدنة عبدة، فكتب إليه أنه لا يعرفها، فقالت أم سلمة لأبي العباس: مُره يبعث لنا بعبدة فهي تعرف أين بدنتها. فكتب إليه بذلك، فكَرِه أن يبعث إليه بعبدة لئلا تقر عليه، ولم يجد بُدًّا فبعث بها، ودسَّ بعض أجناده وقال: إذا صارت بموضعِ كذا فاقتلوها.

فلما صارت بموضعٍ من طريق الشام يُعرف اليوم بجُبِّ عبدة أرادوا قتلها فقالت لهم: إن كنتم عزمتم على هذا فاتركوني حتى أصلِّيَ وأستتر. فتركوها فصلت وشدَّت إزارها على يديها ورجليها، وأبرزت لهم نحرها فذبحوها، وكتب عبد الله إلى السفَّاح: إني نفذت عبدة، فقتلها بعض الأعراب بالطريق.

فلما أوقع أبو مسلم الخراساني بعبد الله وهرب منه وأخذ ماله ونفذه إلى المنصور أخذ البدنة، فكانت في خزائن بني العباس إلى أن صارت إلى زُبَيدة بنت جعفر، ثم بعث بها بعد ذلك المتوكل إلى ابنة عبد الله بن طاهر التي زوجها من المعتزِّ ولدِه.

وذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف: كان المعتزُّ بالله التمس من أمه قبيحة خمسين ألف دينار ينفقها في الجند، فذكرت أنها لا تملك حبة واحدة، وظهر لها بعد قتل ابنها في سنة خمس وخمسين ومائتين وكانت قبيحةُ قد استخفت لها خزانة فيها ألف ألف دينار، وثلاثة أسفاط في أحدهم زمرد لم يُرَ مثله قط، وفي الآخر نصف مَكُّوك حَبِّ لؤلؤ كبار، وفي الآخر كيلجة فصوص ياقوت أحمر، فقُوِّم ذلك فكانت قيمته ألفَي ألف دينار، وكانت غلَّتها في كل سنة عشرة آلاف ألف دينار، والله أعلم.

الباب التاسع والثلاثون

في خواصِّ الأحجار وكِيانها في المعادن

الجوهر

قال الفاضل أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف التيفاشي: الجوهر اسم عام يُطلَق على الكبير والصغير منه، فما كان منه كبيرًا فهو الدُّرُّ، وما كان صغيرًا فهو اللؤلؤ المسمى: حَبًّا، ويسمى أيضًا اللؤلؤ: الدق، ولؤلؤ النظم. وحيوان الجوهر الذي يتكوَّن فيه كبيره وصغيره يسمى باليونانية: أسطوروس، يعلو لحم ذلك الحيوان صدفتان ملازمتان لجسمه، والذي يلي الصدفتين من لحمه أسود. ولهذا الحيوان فم، وأذنان، وشحم يلي الفم من داخلهما إلى عامة الصدفتين، والباقي رغوة، وصدفة، وماء.

وذكر أرسطاطاليس في كتابه الحيوان غير الناطق: السرطان يشتهي أكل لحم هذه الدابة، فلما حال دونه ودون شهوته شيء بمنزلة الحاجز بينه وبين ذلك اللحم الرخص الذي في الصدفات، احتال عليه فلا يزال السرطان راصدًا له حتى يراه قد فتح جلدة الصدفة، فيأخذ حجرًا صغيرًا فيرمي به في جوف الصدفة، فلا يقدر عند ذلك على إضمامها كما كانت، لأنها لا تلتحم بمنع الحجر من انطباقها، فيُدخِل السرطان قرنَيْه إلى ذلك اللحم الرخص فيستخرجه، ويأكله لالتذاذه به، ويذكر مَن أكله من الغوَّاصين أنه شبيه بطعم قوانص الطير.

وذكر أرسطاطاليس في كتابه الأحجار أن البحر المحيط بالعالم، الذي هو في ظلمات مقيمة، يلحق آخره أول البحر المسلوك وأن الرياح تصفق هذا البحر المحيط المسمَّى: أوقيانوس، في أوقات فصل

الشتاء، فيهيج هيجانًا شديدًا، فيطلبه الصدف الذي يكون فيه الدر في وقت ريح الشمال، فإذا هاجت الرياح والأمواج من ذلك البحر المحيط كان لأمواجه رشاش، فيلتقمه الصدف الكائن في البحر الذي يسلكه الناس كما تلتقم الرحم المنيَّ، فتصير تلك النطفة من ذلك الماء في اللحم المركب في الصدف، فلا يزال الصدف يعمد إلى الموضع الساكن من ماء البحر فيفتح فمه ويستقبل ذلك الماء الذي هو مثل النطفة رياح الهواء وحر الشمس عند طلوعها وعند غروبها. ولا يعرض لها في وسط النهار لشدة حرِّ الشمس وهيجان البخارات التي تهيج من العالم، والغبار الذي تهيجه الرياح، فإذا انعقدت الدرة وصلبت، وصارت حجرًا مستويًا، هبط الصدف إلى قعر البحر، وضرب بعروق، فيتشعب منه مثل الشجر ويصير نباتيًّا بعد أن كان حيوانيًّا ذا نفس وروح وفعل متحرك، فيقطع مثل الثمرة النضيجة إذا قطعت من الشجرة.

وذكر أرسطاطاليس أن الدرة إن تركت حتى يطول بها المكث تغيرت وضمرت، كالثمرة إذا انتهت ولم تقطف في وقتها ذهبت نظارتها وطيب طعمها، فيأتي الغائص إلى خشبات من المقل معروفة في موضع الدر الذي يعلم بها الغاصة المواضع التي جرت العادة أن يكون الدر فيها، فإذا رأى الصدف وقف مركبه قائمًا وأدلى حبله، ويكون من ليف المقل وغيره، ويكون فيه حجر يثقله إن كان للماء حركة، ثم يتدلى إلى الغواص بحبل وثيق مشدود به حجر، يكون وزنه ستون رطلًا، أو نحو ذلك من حجارة سود، ليفرَّ من سواده الحيوانات المهلكة للغاصة.

فقد ذكر الكندي أن هذا البحر فيه حيوان ربما ابتلع الغائص، وضروب من الحيوانات الضارة بأفعالها، ولو جعلوا الحجر أبيض لطلبته تلك الحيوانات طمعًا في أن يكون طعمًا لها، فأسرعت إليه فابتلعته وقطعت الحبل، فلأجل هذا يجعلون الحجر أسود.

فإذا غاصوا ووصلوا إلى الصدف قطعه الغواصون بحديد مهيًّأ لذلك مثل المناجل من أصله، ووضعوه في محال لهم من شريط كالشبك ليسيل منها الماء ويبقى الصدف، فإذا خرجوا بها إلى الساحل استخرجوا ما فيه.

قال المسعودي: إنه إذا كان شهر نيسان، نزل على البحر الذي فيه صدف الدر مطرٌ غزير، فيصعد ذلك الصدف ويفتح فاه لقطر المطر، فإذا التقطه غاص به على الوجه المذكر، ولو كانت الدرة منها نهايةً في الكبر فإنها لا يكون لها طائل ثمن إذ ليس فيها شيء من أصناف الدر النفيس.

جيِّده ورَدِيئه: الجوهرة الكاملة خواصها: أما في الكمية، فالعظم وكثرة الماء؛ وأما في الكيفية، فشدة البياض، وكثرة الإشراق، واستواء اللون، واستواء استدارته، واكتنازه، وشكله. وما لم يكن كذلك فالآفات أفسدته.

ومنها أنه ربما وُجِد بعضُ الدرة لم تتمَّ تربيتها وربما لصق بها قشر من لحم الحيوان صار كالصدأ والوسخ، فأفسد لونها. وربما كانت كَدِرةً، أو كان فيها ماء، أو كان فيها دودة، أو كانت مجوَّفة غير مُصمَتة، وكل هذه آفات دخلت على الدرة من مقرِّ التربية لها.

وأما فساد شكلها، فمن قِبَل أن الحَبَّة تقع في موضعٍ من اللحم الذي في الصدف غير مستوٍ، فتتجسد الدرة على صورة الموضع الذي ضمَّها، فجيِّد الجوهر على الجملة المدحرج القار، الصافي الشفَّاف، الكبير الجرم، الكثير الوزن، الضيق الثقب، وجيد اللؤلؤ الأبيض النقي من الوسخ.

ذِكر خواصه ومنافعه: من خواص الجوهر أنه يتكون قشورًا رقاقًا طبقة على طبقة، وما لم يكن كذلك فليس بجوهر مخلوق. والجوهر بالجملة الدر الذي هو كبار اللؤلؤ، وحَبه الذي لا يمكن ثقبه لصغره، كل ذلك معتدل في الحر والبرد، واليبس والرطوبة، لطيفٌ يجفف الرطوبة في العين، ويزيل كثرة وسخها. ولا سيما العتيق منه الذي يوجد في التراب وقد جففت رطوباته، فإنه أصلح من ذلك، ولذلك يخلطه الكحالون في أكحالهم لنفعه وتشديده أعصاب العين.

معدنه الذي يتكون فيه: يوجد في مواضع كثيرة إلا أن مطان الجيد الفاخر النفيس بسرنديب، وكش، وعمان، والبحرين، والجزيرة، وبين كش والبحر من أرض فارس وجوهرها أفخر أصناف الجواهر، وما يوجد منه بغير هذه المواضع فلا اعتبار به، وكذلك ما يوجد منه ببحر القلزم وسائر بحر الحجاز، والله أعلم.

وخاصيته: مع ذلك لخفقان القلب من الخوف والجزع الذي يعرض من المرة السوداء، ويلطِّف الدم الذي يعرض في الفؤاد، ولهذا أيضًا يخلطه المتطبِّبون في أدوية القلب، ويحبس نزف الدم، ويجلو الأسنان جلاءً صالحًا، وإذا سُحِق وسقي مع سمن بقر نَفَعَ من السموم.

وذكر أرسطاطاليس أن ماء البحر الذي يتكون منه اللؤلؤ على ما قدمناه إذا قطر منه في الكف أو غمس فيه بعض أعضاء البدن ألبس ذلك العضو صبغًا كالفضة المذابة.

وذكر أيضًا أنه من وقف على حل الدر من كباره أو صغاره حتى يصير ماءً رجراجًا، ثم طُلِي به البياض الذي يكون في الأبدان من البَرَص أذهبه في أول طَلْية يطليه، وأنه من كان به صداع من قبل انتشار أعصاب العيون وسعط بذلك الماء أذهبه عنه وكان شفاؤه في أول تسعيطة.

قال التيفاشي: مما جربته واختبرته ووقفت عليه بالعمل أن حماض الأترجِّ يحل الجواهر، إلا أنه يحله خاثرًا مثل المني لا يعلق بالأجسام إذا طلي عليها، والمياه الحادة الظاهرة القوية الحريفة تحله رجراجًا يعلق بالأجسام، على ما يوجبه القياس في حل الحماض له. وقد جربته فصحَّ.

عيوبه: التصديف وعدم الاستفراد، والصفرة والانبراص وهو قبح البياض، وحصبته وعدم رونقه، وسعة الثقب، وصغر الجرم، وقلة الوزن.

الأشياء التي تضر بالجوهر: الأدهان جميعها، والحموضات بأسرها، لا سيما ماء الليمون، ووهج النار، والعرق، والزفر، والاحتكاك بالأشياء الخشنة التي تجلوه وتُذهِب وسخه ماء حماض الأترج، إلا أنه إذا ألحَّ عليه قشره ونقص وزنه، وهو يحله أيضًا خاثرًا كما ذكرنا قبل.

محاسن تليق بهذا المكان: قال القاضي السعيد بن سناء المُلك من قصيدةٍ فاضليَّةٍ أولُّها:

نَعَم هِيَ سُعدِي وَهْيَ لِي قَمَرٌ سَعْدُ ... وِصالٌ ولا صدٌّ وقُربٌ ولا بُعدُ
يُعانِقُها مِن دُونِيَ العِقْدُ وحْدَهُ ... فيا عَجَبًا يا قوم لم يَلتَقِ العِقدُ
هي البَدرُ إلَّا أنَّه كله سَنًا ... هي الغُصنُ إلَّا أنه كله وَردُ
ولو أبصرَ النُّظَّامُ جَوهَرَ ثَغرِها ... لَمَا شكَّ فيهِ أنَّه الجوهر الفَردُ

وقال من قصيدة أخرى فاضلية أيضًا أولها:

باتَتْ ولكنْ في الكَرى ... أتُرى دَرَى ذاكَ الرَّقيبُ بِما جَرَى
ونَعَم دَرَى لمَّا رأى في بُردَتِي ... ردعًا وشمَّ مِن الثِّيابِ العَنبَرَا
بِأبِي وأمِّي مَن حلَمتُ بِذِكرِها ... لمَّا انتَبَهتُ ومُذْ رَقَدْتُ تَفسَّرَا
ومِن العجائبِ أنَّ ماءَ رُضابِها ... حُلوٌ ويَخرجُ حِينَ تبسم جَوهَرَا

وله من مرثية أولها:

كَجِسمِكَ جِسمِي أصبَحَ اليومَ باليًا ... ولكنَّ ما بِي عادَ للنَّاسِ بادِيَا

يُخَـيَّل لِي أنِّي دُعَـيـتُ إِلـى الـرَّدى … وأنَّـك عـنِّـي قـد أَجَـبـتَ المُـنـادِيـا
فيـا أسَـــفِي إذْ كنـتَ قَبلِيَ مـاضِـــيًا … ويـا خَجَلِي إذْ صِـــرتُ بَعـدَكَ بـاقِيـا
وغـــاصَ فُؤادي فـــي بُحـــورِ هُمُومِهِ … فـأَلـقَى إلى جَفني الـدُّموعَ لَـآلِيـا

وقال ابن الحلاوي جوابًا عن رقعةٍ من أبيات:

فَإِنْ كـانَ زهرًا فَهْوَ صُـــنْعُ سَـــحابـةٍ … وإنْ كـانَ دُرًّا فَـهْوَ مِنْ لُجَّـةِ البَحْـرِ

وقال صفي الدين الحِلِّي من قصيدةٍ أولها:

أَلَســـتَ تَرى مـا بِالعُيونِ مِنَ السُّـــقْمِ … لَقَـد نَحَـلَ المَعنَى المُـدَقَّقُ مِن جِســـمِي
وأضــعافُ ما بِي بالخُصــورِ مِنَ الضَّـنا … على أنَّها مِن ظُلمِها غَصَـــبَتْ قِســـمِي
ومــــا ذاكَ إلَّا أنَّ يَومَ وَداعِنــــا … وقـد غَفَلَـت عَينُ الرَّقيـبِ على رُغْمِ
ضَـــمَمتُ ضَـــنا جِســـمي إلى ضُـــعفِ … لجِنســـيَّـةٍ كـانـتْ لها عِلَّـةَ الضَّـــمِّ
فَيـا مَن أقـامَتنِي خَطِيبًـا لِوَصـــفِهـا … أُرَصـــِّعُ فيهـا صـــَنعَـةَ النَّثرِ والنَّظمِ
خُذِي الـدُّرَّ مِن لَفظِي وإنْ شـــئتِ نظمه … وإن عُزتِ سِـــلكًا للنِّظام فها جســـمي

وقال ابن سناء الملك من قصيدة أشرفية أولها:

حَســـبِي كمـا حَكَمَ الغَرامُ وحَســـبُها … أنَّ الـــغـــرام يَـــزورُنِــي ويَـــغـــبُّـــهـا
عــلـقـتُ ظَبـيـتَه وعَيشـــــي أَخضَـــرُ … فَرَعَتْـهُ ظَنًّـا أنَّ عَيشـــِيَ عَيشـــُهـا

ومنها في المدح:

وَأَرَى العُقودَ حَسَـــدْنَ ما قد سَـــطَّرَتْ … يُمنـاهُ حَتَّى اصـــْفَرَّ مِنـهـا حَبُّهـا

ومما ينظم في هذا السلك قول شيخنا العلامة بدر الدين الدماميني من قصيدة أولها:

رضــــيت فيه بقتلِ النَّفسِ مُذ سَـــخِطا … مهفهف ســـَلَّ ســـيفَ الجَفنِ واخترطا

ومنها في المديح:

ونَظـمُه الـدُّرَّ حُسـنًا قـد علَا وغَلَا   بَينـا سـِواهُ رأينـا نَظمَـهُ سـَقَطَا

الياقُوت

قال بلنياس: العِلَّة في تكوُّن حجارة الياقوت هي أن الشمس لما طلعت على الأرض سخَّنتها بقوتها، فسخن من الأرض ما لم يُحجَب منها، واشتدت سخونة المكان بظهور الشمس عليه، وغيَّرت الشمسُ رطوبةَ المكان الذي اشتدت حرارتها عليه، فلما اشتد يبسه لقلة رطوبته اجتذبت قوته من الشمس وقوتها حرًّا ويبسًا، فانقلب عن طباعه ولونه وطعمه على قدر الرطوبة التي كانت فيه، من كثرتها وقلتها، فلما جاءته الرطوبة وأقامت عليه اجتذب الماء ما كان في ذلك المكان من حر الشمس ويبسها، وطلعت عليه الشمس وسخَّنته، فحجبت الرطوبة عن ذلك اليبس الذي فيها بحر الشمس، فسخن الماء بحرِّها، فتلطَّف وقوي على تحليل اليبس الذي قبلته الأرض من يبس الشمس المتصل بها في الماء، وانحل به، واشتدت عليه السخونة، حتى ظهرت قوة اليبس المفرط فيه، فكان الحجر منه الحجر المسمى بالياقوت، ولشدة يبسه ضاقت مسامُّه لقبض اليبس له، ولشدة انحلاله وشدة لطافته رجع منعقدًا، ولشدة اليبس تكاثفت أجزاؤه بعضها في بعض وتداخلت.

الياقوت الأصفر فمنه الرقيق، وهو قليل الصُّفرة، كثير الماء، ساطع الشعاع؛ والخلوقي، وهو أشبع صفرةً من الرقيق؛ والجلناري، وهو أشبع من الخلوقي، وأشد شعاعًا، وأكثر ماء، وهو أجوده؛ والآسْمانْجُونِي، فمنه الأزرق، واللازوردي، والكُحلي، وهو أشبع من النيلي، ويسمى الزيتي؛ وأما الأبيض فمنه المهائي، وهو أشد بياضًا، وأكثر ماءً، وأقواها شعاعًا؛ ومنه الذكر وهو أثقل من المهائي، وأقل شعاعًا، وأصلب حجرًا، وهو أدونها، وثمنه أرخص أثمان الياقوت.

ذكر خالص الياقوت ومعيبه: أجود الياقوت الأحمرُ، البرهماني، والرماني، والوردي، والنَّيِّر المشرق اللون، الشفاف الذي ينفذه البصر بسرعة، السالم من العيوب.

عيوبه: الشعرة والسوس. فالشعرة شبه تشقيقٍ يُرى فيه، والسوس خروق توجد في باطنه يعلوها شيء من ترابية المعدن، وربما وجد في تلك الشعرة دودٌ حي يتحرك، إذا خرجت الدودة منها إلى الهواء ماتت، ورأينا من رأى ذلك من الثقات.

عيوب ألوانه: أردأ الألوان الأحمر الوردي الذي يَضرِب إلى البياض، والسمَّاقي الذي يضرب إلى السواد. وأردأ منه الأزرق الذي يضرب إلى لون الرماد، ويسمى: السنوري، وكذلك الذي يسمَّى: الزيتي.

وأردأ ألوان الياقوت الأحمر ما نقص لونه وضرب إلى البياض، وأردأ صفات جميعه في الجملة قبح الشكل والذي قدمناه.

ذكر خواصَّه ومنافعه: قوة الياقوت على قدر معادنه المتكوَّن فيها، وعلى قدر أصبغته وألوانه. فالأحمر منه حار يابس، والأصفر أقربها إلى الأحمر، وفيه فضل حر، وكذلك الأصفر والآسمانجوني أبرد وأيبس، والأبيض أبرد الياقوت وأرطبها.

خواصه في نفسه: من خواص الياقوت أنه يقطع كل الحجارة شبيهًا بقطع الماس، وليس يقطعه شيء غير الماس، وإنما يُثقَب بالماس، وذلك بأن تُركَّب منه قطعةٌ في طرفِ مِثقابِ حديدٍ، ثم يثقب به كما يثقب الخشب. ومن خواصه أنه لا ينحك على الخشب الذي يحك عليه كل شيء إلا الياقوت، فإنه لا يُحَكُّ على شيء إلا على صفيحة نحاس، يكسر الجزع اليماني ويحرق حتى يصير كالنُّورة، ثم يُسحق بالماء حتى يصير كأنه الغِراء، ثم يحك به على وجه الصفيحة النحاس حجر الياقوت فينجلي حتى يصير أشد الجواهر صقالة.

ومن خواص الياقوت الشعاع، فإنه ليس لشيءٍ من المشفَّة شعاع مثله. ومن خواص الياقوت الثقل، فإنه أثقل الأحجار الماسَوِيَّة، لمقداره في العِظَم. ومن خواصه صبره على النار فإنه لا يتكلَّس كما يتكلس غيره من الأحجار المثمنة، كالزمرد وغيره. ومن خواصه أنه يقبل البرودة بسرعة إذا أُخرِج من النار، بخلاف غيره من سائر الأحجار، وليس في ألوانه ما يَثبُت على النار غير الأحمر فقط.

وقد ذكر أرسطاطاليس في كتاب الأحجار أن الياقوت الأحمر إذا نُفِخَ عليه في النار ازداد حسنًا وحُمْرةً، وإذا كانت فيه نُكتة شديدةُ الحمرة ونُفخ عليها في النار انبسطت في الحجر، فسَّقته من تلك الحمرة وحسَّنته، وإن كان فيه نكتة سوداء نقص سوادها. وهو حجر يزداد حسنًا وصفاءً عند النفخ عليه في النار. وإذا كان الحجر أحمر ونفخ عليه فزالت حمرته فليس بياقوتٍ، بل أحد الأشباه أو مصبوغ مدلَّس.

وقد رأيت بسوق القاهرة جواهرَ تُباع على أنها ياقوت أزرق وأصفر، وهي مدلَّسة كأن أصلها ياقوت أبيض.

ومن خواصه أنه لا تفعل فيه المبارد والحديد، ولا يلصق بشيء من جسمه من جميع ألوانه: أحمره وأصفره وسماوِيِّه. ومن خواصه قطع الأحجار المشفة غير الماس، والأحمر في جميع هذه الخواص زائدٌ على جميع ألوانه في القوة.

خواصه ومنافعه: ذَكَر أرسطاطاليس من خواصه أنه مَن تقلَّد هذا الحجر أو تختَّم به من أجناس اليواقيت التي وصفنا وكان في بلدٍ قد وقع الطاعون فيه منعه أن يصيبه ما أصاب أهلَ ذلك البلد من الطاعون، ونَبُلَ في أعين الناس، وسَهُل عليه قضاء الحوائج، وتيسَّر له من أسباب المعاش أمور صعبة.

ومن خواصه تقوية قلب لابسه وتشجيعه والهيبة له في قلوب الناس وإجلاله. ومن خواصه أن ينفع من خفقان القلب، والوسواس في التعليق له. ومن خواصه أن الصاعقة لا تقع على مَن تختَّم به أو علَّقه عليه. ومن خواصه أنه لم يُرَ في إصبع غريقٍ قط. ومن خواصه أنه يقطع العطش إذا وُضِع في الفم وتحت اللسان. ومن خواصه أنه يمنع جمود الدم إذا عُلِّق. ومن خواصه أنه يقطع نزف الدم إذا علق. ومن خواصه ما أخبرني به شريفٌ جوهريٌّ معروف بالخبرة والذكاء في هذا الفن، ودخل إلى الهند ومارس كثيرًا من علم الأحجار أنَّ الهند يقولون: إنَّ من كان معه حجر ياقوت جذب قوسًا قويًّا عن طبقته وقوته، إذا لم يكن معه ذلك الحجر، على شرط أن لا يفعل ذلك على سبيل الخبرة والامتحان، بل يكون ذلك بغير قصد له ولا تعمُّد.

ومحنة أشباه الياقوت بأجمعها أن يُحَكَّ بالياقوت الأحمر، فإنه يخرجها كلها ولا تخرجه، وليس شيء منها يقوم على النار كما قدَّمنا، فهذه علة تكوُّن الياقوت.

وأما اختلاف ألوانه فإنه بنسبة بقاع الأرض، إذا وقع عليها الماء فدام عليها فتغير الماء بما انحل فيه من يبس الأرض وتسخين الشمس له فيحمى الماء على قدر الحرارة، وينعقد أحمر، وربما انعقد أصفر لقلة الحرارة فيه، وربما اعتدل الحر عليه في اللِّين والانحلال فانعقد أبيض صافيًا، وربما اشتدت يبوسته فعرض فيه البرد لشدة اليبس وتباعُد الحر عنه، فعرض فيه السواد وظهر على أعلاه لتكوُّن الحمرة في باطنه، وربما طَرَحَتْ الحمرة نورها إلى خارج مع ظهور السواد في ظاهره، فقام بينهما لون أسود آسمانجوني، وذلك أن صفرة الرطوبة إذا التحمت مع سواد اليبس قام من بينهما اللون الآسمانجوني.

قال بلينوس: والياقوت حجر ذهبي، وجميع الحجارة غير الأجساد الذائبة إنما انعقدت وابتدأت لتكون ياقوتًا أقعدتها عن الياقوتيَّة كثرةُ الرطوبة وقِلَّتها، وكثرة اليبس وقلَّته، فلم تكن ياقوتًا وصارت حجارةً حمرًا وبيضًا وخضرًا وصفرًا، وغير ذلك من الألوان التي لا تذوب في النار، ويقع عليها الحديد فيستحلها، وفيها ما لا يستحله الحديد، ووضعت عليه أسماء كثيرة خلاف الياقوت.

ذكر معدنه الذي يتكون فيه: يؤتى به من معدن يقال له: سجران، من جزيرة خلف سَرَنْدِيب بنحوٍ من أربعين فرسخًا، والجزيرة تكون نحوًا من ستين فرسخًا في مثلها، وفيها جبل عظيم يقال له: جبل الراهون، تحدر منه الرياح والسيول الياقوت فيلقط وهو حجر من أرض ذلك الموضع وحصبائه وما تجرُّ سيوله من جبل الراهون. ويقال: إن الشمس إذا أشرقت على ذلك الجبل أنبتت منه شعاعاتٍ كثيرة لوقوع شعاع الشمس على حصى الياقوت، فيسمى ذلك: برق الراهون. وهذا الجبل هو الذي أُهبِط عليه آدم عليه السلام من الجنة، ومنه خرج إلى الأرض، فإذا أصيب ذلك الحصى أصيب وظاهره مظلم، يميل أكثره إلى السواد والغبرة كالحصى الموجودة في هذه الألوان عندنا، فإذا استشفَّ في الشمس أشف لونه أحمر كان أو أصفر أو سماويًّا أو غير ذلك من ألوان الياقوت.

قال التيفاشي: أخبرني مَن دخل جزيرة سرنديب من التجَّار أن أهل ذلك الموضع إذا لم تحدر السيول والرياح لهم من حصباء الياقوت في بعض السنين ما جرت به العادةُ احتالوا لتحصيله بالحِيلة التي نذكرها، وذلك أن الجبل الذي فيه الياقوت جبل شاهق صعب المسلك، لا يمكن الوصول إلى أعلاه، وفي أعلاه نسور كثيرة تُعشعش فيه وتتخذ مساكنها به لخلوته، فيعمد أهل ذلك الموضع إلى حيوان يذبحونه ويسلخون جلده، ثم يقطعونه قطعًا كبارًا ويتركونه في سفح الجبل المذكور، ويبعدون عنه وهم يرقبونه، فتأتي النسور فترفع ذلك اللحم وتنزل به عند أوكارها، فإذا وضعته على الأرض علق به من حصى الياقوت ولصق فيه، ثم تأتي نسورٌ أخرى فتجتمع على اللحم لتخطفه فيأخذه بعضها وتطير به من الجبل، فيسقط منه الياقوت لثقله، فيلقطه الذين يرقبونه من الموضع الذي يسقط فيه.

ويذكر أن في سفل هذا الجبل غياضًا عظيمة، وخنادق عميقة، وأشجارًا شاهقة، ويسكن بها حيَّات عظام، تبتلع الحية منها الإنسان ورأس البقرة وغيره صحيحًا، فإذا ابتلعته عمدت إلى أصل شجرة فالْتَوَتْ عليها واشتدت، فيتكسر في بطنها ما تبتلعه وتندقُّ عظامه، فينهضم لها، ولأجل ذلك أيضًا لا يستطاع سلوك هذا الجبل ولا الوصول إليه وإلى ما فيه من عجائب الأحجار.

ذكر أصنافه: أصول الياقوت أربعة أصناف: أحمر، وأصفر، وآسمانجونيٍ، وأبيض. فالأحمر منه ينقسم إلى أربعة أقسام: الوردي، وهو يتفاضل في شدة الصبغ إلى الوردية ونحو ذلك، ويقل صبغه إلى أن يقرب من البياض؛ ثم الخمري وهو مشوب بفُرفُريَّة كلون ورد الخيرى، وأظهر فرفرية، وهو يتفاضل في قوة الصبغ وضعفه إلى أن يقرب من البياض؛ ثم الأحمر، وهو بلون العُصفُر الشديدِ الحمرة الناصعِها في القوة، وإلى القرب من الوردية في الضعف؛ ثم البهرماني، وهو أحمر نقيُّ الحمرة، لا

يشوبها شائبة، وهو يتفاضل في قوة الصبغ وضعفه حتى ينتهي إلى لون العصفر الشديد الحمرة الناصعها في القوة، وإلى قريبٍ من لون الوَرْس في الضعف. وأثمن الياقوت الذي في لون الحمرة البهرماني، وأثمن كل واحد من بقية أصنافه أشدها صبغًا، وأرقها مستشفًّا وأشدها شعاعًا، وأسلمها من العيوب التي تُذكر فيما بعد إن شاء الله تعالى.

محاسن تليق بهذا المكان: قال ابن منير وأجاد:

لا تـخـدعـنَّكَ وَجـنـةٌ مُـحـمـرَّةٌ   رَقَّت ففي اليـاقوت طَبعُ الجَلْمَدِ

وقال النور الإِسْعَرْدِي:

قـد كِدتُ أحـرِق وجـهـه يـومَ الـنَّوى   بـتـنـفُّسِـي لـو لَـم يَـكُـن يـاقـوتـا

وما أحسن قول أبي الحسن علي بن عبد العزيز الحلبي المعروف بالفُكَيك يخاطب بعض التجار:

أبـا جَعـفَرٍ أنْفَذت أطـلـب عِمَّةً   أفـاقَ عليهـا الـدهر رَونَقَ حُسـنِـهِ
كـرِقَّةِ دِيـنِ الـبـابِلِيِّ ولَونُهـا   كـطـاجـنـه المـبـيض فـي طـول قَـرنهِ
فـأنفـذتها بـالضِّـدِّ في لون عرضِـه   وهِمَّتـهِ قَصـرًا وفي سـِلْكِ ذِهنـه
وفَصًّـا من اليـاقوت أحمرَ نـاصـعًا   كـإخـوتـه بـردًا وفـي ثـقـل ابـنـه
فـأنـفـذتَ لـي فَصًّـا كـخِفَّةِ عَقـلِهِ   وسـحـنـةِ عَينٍ قُلِبتْ تَحـتَ جَفنِـهِ
قَصـدتَ خلافي فـي جميع مـآربي   فـأنشـرتَ مَيتَ السـخط من بعد دفنه
فـلـو قـلـت: قـبِّل رأسـه وثـيـابـه   خَرئـتُ اعتمـادَ الخُلفِ في جَوفِ ذَقنـه

الزُّمُرُّد

قال بِلِينُوس: إنَّ الزمرد هو الياقوت لأنه إنما ابتدأ لينعقد ياقوتًا في جميع أجزائه، وكان لونه أحمرَ، فلشدَّة تكاثُف الحُمرة بعضِها على بعض عَرَضَ له السَّوادُ فصار آسمانجونيًّا، ولثقل اليُبس وغلظه بَطَنَ الآسمانجوني وارتفع ما صَفَا من الحمرة على أعلاه فاصفرَّ، ولما كان باطنه آسمانجونيًّا واشتدت عليه الحرارة بطبخها فمزجتْ اللونين جميعًا، لُوِّن ظاهره بلون باطنه، فتولدت الخُضرة بينهما، فصار

لونه أخضر، فسُمِّيَ: زمردًا. وإنما كان أصله ياقوتًا لأن الياقوت هو حجر ذهبي، وهو رأس الحجارة كما أن الذهب رأس الأجساد المذابة.

ذكر معدنه الذي يتكون فيه: موضع الزمرد الذي يؤتى به منه في التخويم بين بلاد مصر والسودان، خلف أُسوَان، يوجد في جبل هناك كالجسر فيه معادن تحتفر منها الزمرد قطعًا صغارًا كالحصى، منبته في تراب المعدن، وربما أصيب العِرق منه متصلًا فيُقطع وهو جيده، وأما صغيره فإنه يصاب في التراب بالنخل، وذلك أنهم ينخلون التراب ثم يوجد في خلاله فيغسل كما يغسل تراب الفضة، فيوجد فيه الحجر بعد الحجر، ويوجد بعضه على بعض تربة كالكُحل الشديدِ السواد، وهو أشد خضرةً. وأكثر ما وجد من الزمرد في التراب فهو الفص، وما قطع منه من العروق فهو القصب في اصطلاح الجوهريِّين، وهو أعتقه وأخلصه.

ذكر جيده ورديئه: أصنافه أربعة: الذُّبابي، والرَّيحاني، والسَّلقي، والصابوني. فأعلاه وأغلاه وأفضله في سائر الخواص الموجودة في الزمرد هو الذبابي، وهو أخضر معلوق اللون جدًّا، لا يشوبه في خضرته شيء آخر من الألوان، حسن الصبغ، جيد المائيَّة. وإنما سمِّي ذبابيًّا لشبه لونه بالخضرة التي تكون في الكبار من الذباب الربيعي، لا في صغاره الموجودة في البيوت، وهو أحسن ما يكون من الخضرة يبصبص، وذلك اللون غير موجود في ذباب البيوت. وأما بقية الأصناف المذكورة من الزمرد غير الذبابي فإنها نازلة مقصرة عن جميع الخواص الموجودة في الذبابي، ولهذا ألغيتها.

عيوب الزمرد: من أكبر العيوب في الزمرد الذبابيِّ اختلاف الصبغ حتى لا يكون موضعٌ منه بلون مخالف للون موضع آخر. ومن عيوبه عدم الاستواء في الشكل، وهذا عامٌّ له وللياقوت ولكل حجر مستشفٍّ، ثمين أو غير ثمين. ومن عيوبه التشعير، وهو من لوازمه لا يكاد يخلو منه، وهو شبه شقوقٍ خفيَّة تظهر فيه.

خواص الزمرد الذبابي في نفسه: فخاصته الكبرى في نفسه، وهي التي انفرد بها عن سائر الأحجار وبها يُمتحن الخالص منه من غيره، أن الأفاعي إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه تفقأت عيونها على المكان.

قال أحمد التيفاشي: وقد كنت أقف على هذه الخاصية في الزمرد في كتب الحكماء، ثم جربتها بنفسي فوجدتها صحيحة، وذلك أنه كان وقع لي فص زمردٍ ذبابي خالصٍ أردت امتحانه على عيون الأفاعي، فاستأجرت حوَّاءً على صيد أفعى فصادها وجعلها في طست، وأخذت قطعةَ شمعٍ فألصقتها في رأس

سهم، ثم ألصقت فيها الفص وقرَّبته من عين الأفعى، فكانت تثبُّ أولًا نحو السهم، وكانت لها حركة قوية تروم بها الخروج من الطست، فلما قرَّبتُ الزمرد من عينها سمعت فرقعة خفية كمن يقتل صُؤابةً على ظفره، ثم رأيت عينَيِ الأفعى وقد برزتا على وجهها بروزًا ظاهرًا، وبقيت حائرة في الطست تدور فيه لا تقصد مخرجًا ولا تدري حيث تتوجه، وسكنت أكثر حركاتها وانقطع وُثوبها بالجملة.

ومن خواصه الرخاوة وتخلل الأجزاء. ومن خواصه خفة الوزن. ومن خواصه شدة المَلاسة والصِّقال والنعومة. ومن خواصه زيادة الخضرة والماء إذا ركب على البطانة، وأخص صفاته به الخفة.

خواصه في نفسه: منها أنه من أدمن النظر إليه أذهب عن بَصَره الكَلال. ومن خواصه أنه من تقلَّد بخاتم منه دفع عنه داء الصرع إذا كان لبسه له قبل حدوث الداء. من أجل هذا كانت الحكماء تأمر الملوك أن تُعَلِّقَه على أولادهم عند ولادتهم ليدفع عنهم داء الصرع.

ومن خواصه أنه من سَحَل منه وزن ثمانِ شَعِيرات وسقاه شارب السُّمِّ قبل أن يعمل السم فيه خلَّص نفسه من الموت، ولم يتمعط شعرُه، ولم ينسلخ جلده، وكان شفاؤه.

ومن خواصه أنه ينفع من نفث الدم وإسهاله إذا عُلِّق على من به ذلك. ومن خواصه النفع من وجع المعدة إذا علق عليها من خارج. ومن خواصه أنه ينافي الحيَّات المسمومة ولا تقرَب حامله. ومن خواصه أنه إذا شُربَ حُكاكته تنفع من الجُذام. ومن خواصه أن جميع أصنافه كلها تصلح أن تكون على العَضُد وعلى الرَّقَبة للتعويذ، وعلى الفخذ لسرعة الولادة، مُجرَّب.

ومن معانيه الشِّعرية قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

ذُبـابُ السَّـيفِ مِنْ لَحْظٍ إليـهِ   لأخْضـرِ صـُدْغِـهِ بَعد انْتِسـابِ
فـلا عَجَبٌ إذا مـا قِيـل: هـذا   لـه صـُدغٌ زُمُـرُّدُهُ ذُبـابِي

البَلَخْش

معدنه الذي يتكون فيه: يؤتى به من بَلَخْشانَ، والعجم تقول: بَذَخْشَان (بذال مُعجَمة)، وهي من مدن التُّرك فيما يتاخم الصين. وأخبرني من وصل إلى معدنه من التجار أنه وَجَد في المعدن حجرًا في باطنه ماء لم يكمل طبخه وانعقاده بعدُ، والحجر مجتمع عليه.

جيده ورديئه: وهو ثلاثة أنواع: أحمر مُعَقْرَب، وأخضر زَبَرْجَدِي، وأصفر. وأجوده الأحمر. وليس لجميعه شيءٌ من الخواص التي للياقوت ومنافعه، وإنما أفضليَّته شبهُه، والمائية، والشعاع الأحمر، لم يذكر له شيء من الخواصِّ البتَّة.

الماسُ

قال بلينوس: الماس هو حجر ذهبي، وهو أشبه الأحجار بالأجساد المُذابة، لأنه ليس من الأحجار شيءٌ يسحقه حتى تَسحق الأحجار بعضها بعضًا، فلذلك شبَّهتُه بالأجساد، ولم يفسده شيء من الأحجار غير الأبار، فلذلك قلت: إنه حجر ذهبي. وأقول: إن الماس إنما كان في معدنه وابتداء خلقته ليكون ذهبًا، وذلك أن الماء في معدنه، فلما سخَّنته الحرارة يبس الماء من الحر الذي سخنه جدًّا، فصار حجرًا، فلما كثرت عليه الحرارةُ عرض في الماء غلظٌ فصارت فيه لُزوجة لغلظه، وصار أشبه شيء بالزِّئبَق، ويولد فيها رطوبة المعدن ويبسه بلطافة الطباخ ملح فنشَّفه الريح فغلظ، واشتدت عليه الحرارة فقوي الملح على نشف الحر يبسه، واشتدت يبوسته فظهر على وجه الماء اللزج الذي يشبه الزئبق، فانعقد حجرًا بإفراط اليبس عليه، وإنما انعقد ليكون ذهبًا فأقعده عن الذهبية انعقاده باليبس والملوحة، فلو انعقد باللبن ولم يفرط عليه اليبس والحلاوة مكان الملوحة لكان ذهبًا، فلما انعقد وكان فيه ملوحة وشدة يبسٍ نقصَ عن كيان الذهب فصار حجرًا صُلبًا، يأكل الأحجار كلها بملوحة طبيعته وشدة يبسه، وإنما صار يتكسر للملوحة فبقيت الملوحة واليبس في جسده، وإنما صار لا يفسده شيء غير الأبار لأنه ذهبي، كما أن الأبار يُفسد الذهب ويسحقه.

وإنما يسحق الأبار الماس لكبر يبسه، وذلك لاجتماع الكبريت الذي في الأبار مع ملوحة الماس، لأن الملح الذي في الماس إذا أحسَّ برائحة الكبريت تفتَّت وانسحق، وإنما صار لون الماس أبيض لانعقاده بالرطوبة، ودفع رطوبة الموضع عنه وهج النار، فصار لذلك أبيض وهذه علة تكوُّن الماس.

معدنه الذي يتكون فيه: يوجد في معدن الياقوت ويتكون فيه، ويخرج منه كما يخرج الياقوت، فهو حصباء معدن الياقوت إذا أخرجته الرياحُ والسيول من معدنه، حسب ما بيَّناه فيما سلف.

جيده ورديئه: الماس نوعان: الزيتي والبلوري. والزيتي أجودهما، والبلوري أبيض شديد البياض كالبلور، والزيتي يخالط بياضه صفرةٌ كلون الزجاج الفِرْعَونِي.

خواصه في ذاته: من خواصه أنَّ جميعه ذو زوايا قائمة، ست زوايا، وثماني زوايا، وأكثر من ذلك وأقل، يحيط بزواياه سطوح قائمة مثلثة الشكل، وإذا كُسِر فلا ينكسر إلا مثلثًا.

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه، وهو في نفسه عَسِر الانكسار، وإن وضع على سِندان حديد ودُقَّ بمطرقة لم ينكسر، ودخل في وجه السندان ووجه المطرقة وكسرهما. وإنما يُكسَر بأنْ يُصيَّر في شيء من الشمع ثم يُدخل في أنبوب قصب وينقر بمطرقةٍ أو بغيرها برفقٍ ومُداراة، بحيث لا يباشر جسمه الحديد، حتى ينكسر؛ أو يُصيَّر في أسربة ويفعل به ذلك.

ومن خواصه أن الإنسان إذا ابتلع منه قطعة، ولو كانت أصغر ما يكون، حرقت أمعاءه فقتلته على الفور.

ومن خواصه ما ذكره أرسطاطاليس من أن بينه وبين الذهب محبة شديدة يَتشَبَّث به حيث كان حتى يخالط منه الحبة الخفيفة، يَعرف ذلك صُيَّاغ الذهب، فإنهم إذا بَرَدوه وقعت تلك الحبة تحت مباردهم فأكلت المبارد وأفسدتها.

ومن خواصه أنه يثقب الدر والياقوت والزمرد، وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار. كما يثقب الخشب، وذلك بأن يُركَّب في رأس مثقابِ حديدٍ منه قطعة بقدر ما يُراد من سعة الثقب وضيقه، ثم يثقب به فيثقب بسرعة.

وأما طبعه فإنه بارد يابس في الدرجة الرابعة.

خواصه في منافعه: منها ما ذكره أرسطاطاليس من أنه: من كانت به الحصاة الحادثة في المثانة من مجرى البول ثم أخذ حبة من هذا الحجر وألصقها في مِروَد نحاس أو فضة بمصطكى إلصاقًا محكمًا، ثم أدخل ذلك المرود إلى الحصاة فتَّتها.

قال أحمد بن أبي خالد المعروف بابن الجزار في كتابه في الأحجار: وبهذا الفعل عالجت أنا وصيفًا الخادمَ من حصاةٍ كانت به، وامتنع من الفتح عليها بالحديد، فلما فعلنا به هذا الفعل انسلخت الحصاة حتى صَغُرت وسَهُل عليه خروج ما بقي منها في البول.

ومن خواصه أنه ينفع من المغص الشديد ومن فساد المعدة إذا علِّق على البطن من خارج.

عين الهِرِّ

معدنه الذي يتكون فيه: هذا الحجر يوجد في معدن الياقوت مع الماس، فهو من حصباء معدن الياقوت كما ذكرنا عن الماس في ما سلف.

جيده ورديئه: هذا الحجر عجيب الشكل، وذلك أن الغالب على لونه البياض بإشراق عظيم، ومائيَّة رقيقة شفافة، إلا أنه يُرى في باطنه نُكتة على قدر عين الهر، أعني الناظر الحامل للنور المتحرك في فص مقلته، وعلى ذلك اللون سواء، وتلك النكتة مع ذلك متحركة على الدوام إذا حرِّك الفص تحركت بخلاف جهة حركته، بحيث إن أُميلَ إلى جهة اليسار مالت النكتة متحركة إلى جهة اليمين، وكذلك في الأعلى والأسفل، فهي كناظر الهر حقيقةً، ولذلك سمِّي به، فإنْ كُسر أو قطع على أقل الأجزاء ظهرت تلك النكتة في كل جزء من أجزائه. وأجوده ما اشتدَّ بياضُ أبيضه وشَفيفه، واشتدت كثرة مائية تلك النكتة التي فيه وسرعة حركتها وإشراقها، وحسنُ الشكلِ وكبر الجرم زائدان في جودته كسائر الأحجار.

خواصه ومنافعه: هو أنه يَحفظ حامله من عين السوء والأنفس الخبيثة. ومما أنقله فيه عن ثقات الجوهريين ممن دخل الهند ومارس هذا الفن ومَهَرَ فيه أنه يجمع خواص الياقوت البهرماني في منافعه، ويزيد عليه بمنفعتين: إحداهما أنه لا ينقص مال محتمله ولا تعتريه فيه الآفات والنكبات، والأخرى أنه إذا كان في يد رجل أو معه وحضر مصافَّ حرب ثم هُزِمَ حِزبه، فألقى نفسه بين القتلى، يراه كل من يمرُّ عليه من أعدائه كأنه مقتول مُتَشَحِّط في دمه، فتنفر عنه النفوس حتى لا يقربه بشر منهم.

وأخبر بعض من دخل الهند من الجوهريين أنه رأى هذا الجوهر يُعبَد في المعبد كما تعبد الأصنام. قال: وثمنه عندهم أغلى من ثمنه ببلاد العرب، وهم به أغبط، وهو عندهم أعز. وذكر أنه وقف على حجر بِيعَ في المعبد بمائة وخمسين دينارًا، ولعله يساوي في الهند عُشر هذا الثمن، وذلك لعلمهم بخواصه ووقوفهم عليها بالتجربة.

البازَهْر

الموجود من هذا الحجر الآن بأيدي الناس نوعان: أحدهما حيواني، والآخر معدني. فأما المعدني منهما فيقال: إنه ينفع من لدغة العقرب فقط، وهو مقصر عن جميع ما يُذكر في الكتب عن البازهر الحيواني، ويذكر أنه يُجلَب من الصين، وهو حجر خفيف هش أصفر وأغبر، منقَّط نقطة خفيفة، توجد طبقات

رقاقًا في أصول تكوُّنه، طبقةً فوق طبقة، لا يوجد إلا كذلك، وينحكُّ سريعًا إذا حُكَّ، ومَحَكُّه يميل للبياض، وأعظم ما يوجد منه من مثقالٍ إلى ثلاثة مثاقيل، يؤتى به من بلد فارس من تخوم الصين.

والحيوان الذي يوجد فيه هو الأيِّل، الذي يكون بتلك الجهات، ويذكر أن الأيل الذي يوجد فيه البازهر يشتهي أكلَ الحيَّات، لا سيِّما مَن صَغُر من أولادها، وهو مُعظَم غذائه، يبحث عنها ويستخرجها من حيث كانت، فيأكلها. وقد اختلف الناس في أي موضع من الحيوان يتكون البازهر على ثلاثة أقوال:

- **الأول:** أنه يتكون في عينيه. قالوا: وذلك أنه إذا كان أكثرَ مِن أَكْلِه لفراخ الحيات اعْتَرَته حكَّةٌ في سائر جسده من سُمِّها، فيعمد إلى بركة ماءٍ فيغوص فيها رافعًا رأسه عن الماء إلى أن يغيب كله في الماء فلا يظهر منه إلا حدقتاه، فيرتفع حينئذٍ من سائر جسده بخارٌ رطب إلى عينيه، ثم يخرج من مَأْقَيْه اللَّذين يليان أنفه يُمنةً ويُسرةً، ويستحيل ماءً، ويسيل من ذلك الموضع بعينه على الحجر المتكون قبل فيجمد إذا باشره الهواء فوق الحجر الأول كما جمد الذي قبله فلا يزال كذلك حتى يثقل الحجر فيسقط من ذاته أو يحكه الحيوان إذا ثقل عليه إلى حجر أو أصل شجرة، فيسقط فتُتَبَّع مظانُّه حتى يُوجَد، فيُؤخَذ منها. وأخبرني من لا أشك في صِدقه وثقةِ نقله أن بتخوم الشامِ في ما بينها وبين بلد الروم بموضع يسمَّى: مرعش، وما يتصل به، أيلًا يأكل فراخ الحيات، ويعرض له من أكلها ما ذكرناه، ويفعل الوصف الذي وصفناه، وأن البازهر يتكون في عيونها على حسب ما قررناه.
- **القول الثاني:** أن هذا الحجر يتكوَّن في قلب هذا الحيوان، وأنه يُصاد لأجله ويُذبح، ويستخرج الحجر من قلبه. وهذا القول رأيته لبعض أطبَّاء مصر حسب ما نُورِده عنه في ما بعد، وهو غير صحيح.
- **القول الثالث:** أن هذا الحجر يتكون في مرارة هذا الحيوان كما يتكون كثير من الأحجار في كثير من الحيوان، ويُذبح فيَخرج البازهر من مرارته. ومن يقول ذلك يستدلُّ على صحة قوله بأن هذا الحجر إذا ذِيف ظاهرُه باللسان وُجِد طعمُ المرارة عليه ظاهرًا. وأكثرُ حُذَّاق الجوهريِّين وأربابِ الخبرة منهم على هذا القول، وهذا عندي هو الصحيح. وأخبرني بعضهم أنه شاهد حجرًا منه انكسر، فوجدَ فيه حشيشة اشتمل عليها الحجر في أصل تكوُّنه.

جيده ورديئه: الخالص الجيد الموجود منه في هذا التاريخ هو الحيواني المذكور قبل، وهو الأصفر الخفيف، الهش المنقط، ذو الطبقات، الأبيضُ المحَكِ، المُرُّ المذاقِ.

خواصه في نفسه: منها أنه إذا مر على حُمَة العقرب أبطل لسعها، وإن لسعت لم يؤذِ سمُّها، ومنها أن أفواه الأفاعي والحيات أوسع من أجوافها، فإن سحق من هذا الحجر قدر شعيرتين وذيف بماء وصُبَّ في أفواه الأفاعي والحيات خنقها وماتت، وهذا والذي قبله مما يُختَبر به البازهر الحيواني الخالص من المغشوش. ومنها أنه إذا جُعِل مع أجسامٍ خشنة مباشِرة لجسمه محتكَّةٍ معه، غيَّرت صورته وخشَّنته، وغيرت لونه وجميع صفاته، حتى لا يَكاد يُعرَف. وقد كان عندي حجر بازهر حيواني خالص، فجعلته في كيس فيه دنانير ذهب، ثم سافرت من موضعٍ إلى موضع آخر، فلما استقرَّيتُ فتحت الكيس واستخرجت الحجر البازهر، فلم أعرفه حتى ظننت أنه قد بُدِّل عليَّ، لتغير جميع صفاته، ثم وزنته فوجدته أقلَّ مما كان فزاد تشكُّكي، ولم يكن مَن أتهمه فعجبت من ذلك وبقيت متحيرًا في أمره. ثم جعلته في حقٍّ صغير بعد أن لففته بإبريسَم وغفلت عنه مدةً ثم أخرجته، فوجدته الحجر الذي كنت أعرفه أولًا، قد زالت عنه الهيئة الرديئة التي اكتسبها من احتكاكه بخشونة الذهب، إلا أن وزنه قد نقص بما انحكَّ فيه في الكيس. ولما كان بعد ذلك، جرى ذكر البازهر بيني وبين حذَّاق الجوهريين، فعرَّفني أن من خاصِّيَّته أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يغيِّره، فعرَّفته بما شاهدته في ذلك بالتجربة تصديقًا لقوله.

خواصه في منافعه: أخصُّ منافعه النفعُ من السم، أي سم كان قاتل أو غير قاتل، من سموم الحيوان والنبات، ومن السموم الحارة والباردة، ومن عَضِّ الهَوامِّ، واللدغ، والنهش، إذا شُرِب منه من ثلاث شعيرات إلى اثنتي عشرة شعيرة، مسحوقة أو مسحولة بالمبرد، أو محكوكة على المسنِّ بزيت الزيتون أو بالماء، فإنه يُخرِج السم بالعرق من جسد المسموم، ويخلِّص نفسه من الموت، ويفعل ذلك بجملةِ جوهره. والخاصِّيَّة المُودَعة فيه أنه هو حجر شريف نفيس، ليس له في جميع الأحجار ما يقوم مقامه في دفع السموم. ومن خواصه أنه إذا سُحِقَ ونُثِر على موضع النهش وغيره جذبَ السمَّ إلى خارجه وأبطل فِعله.

ومن خواصه ما ذكره ابن جميع في كتابه الملقَّب بالإرشاد إلى مصالح الأنفس والأجساد، قال: والحيواني من البازهر، وهو الموجود في قلوب الأيائل، أفضل في جميع الأوصاف المذكورة في البازهر، حتى إنه إذا حُكَّ بالماء على مسنٍّ وسُقي منه كلَّ يومٍ وزن نصف دانق للصحيح على طريق الاستعداد والتقدم بالحوطة قاوم السموم القاتلة، وحسم من مضارِّها ولم يخشَ غائلة ولا إثارة خلط حامٍ كما يخشى من غيره، ولا يضر المحرورين ولا النحيفين لأنه إنما يفعل ذلك بخاصية جوهره.

ومن خواصه أنه من تختَّم منه بوزن اثنتي عشرة شعيرة في فص خاتم، ثم وضع ذلك الفصُّ على موضع اللدغ من العقارب والهوامِّ الطيَّارات أو غير الطيارات من ذوات السموم، وأجناس الزنابير، والدراريج، نفع منها نفعًا بيِّنًا.

ومن خواصه أنه إذا سُحق ثم نُثر على موضع اللدغ من الهوام الأرضية حين تَلدغ اجتذب السمَّ وأرشحه، وإن عفر الموضع قبل أن يبادر إليه بالدواء ثم نثر عليه من هذا الحجر مسحوقًا أبرأه.

ومن خواصه ما ذكره بعض الحكماء الأوائل أنه إذا صُنِع خاتم من ذهب، ويكون فصُّه بازهر، ونقش عليه صورةُ العقرب حين يكون القمر في العقرب، ويكون العقرب وتدًا من أوتاد الطالع، ثم طبع بهذا الخاتم طوابعُ من كُندُرٍ ممضوغ معمول منه قرص، والقمر في العقرب أيضًا، ويرفع، فمَن لدغته العقرب وشرب قرصًا من هذه الأقراص المختومة بهذا الفص البازهر لم تضرَّه اللسعة، وبرئ منها. وقد جُرِّب هذا فوُجد صحيحًا، وختم به على غير الكندر لئلا تكون الخاصية للكندر، ففعل كما يفعل إذا ختم به على الكندر. انتهى.

الفَيْرُوزَج

حجر نحاس، يتكون من أبخرة النحاس الصاعدةِ من معدنه، على ما نذكره بعدُ في تكوُّن غيره من الأحجار النحاسيَّة.

معدنه الذي يتكون فيه: الفيروزج يجلب من معدن جبل نَيْسابُور، ومنه يُحمل إلى سائر البلاد، ومنه نوع يوجد في بِشاوَر، إلا أن النيسابوري خير منه.

جيده ورديئه: الفيروزج نوعان: سبحاقي، وقبحقبي. والخالص منه العتيق، وهو السبحاقي، والأجود منه الأزرق، الصافي اللون، المشرق الصفاء، الشديد اللمعان، المستوي الصبغ. وأكثر ما يكون فصوصًا. وذكر الكندي أنه رأى حجرًا زِنَتُه أوقية ونصف.

خواصه في نفسه: منها أنه حجر يصفو لونه في صفاء الجو، ويكدر مع كدورته. وذكر أرسطاطاليس أن كل حجر يستحيل عن لونه فهو رديء لِلَابسه. ومنها أنه يقبل الجلاء أكثر من اللازورد، ويحسن صفاؤه عليه. ومنها أنه إذا أصابه شيء من الدهن أفسد حُسنه وغيَّر لونه، وكذلك العَرَق يفسده ويُطفئ لونه بالكلِّيَّة، وكذلك المسك إذا باشره أبطل لونه وأذهب حسنه.

خواصه ومنافعه: منها أنه يجلو البصر بالنظر إليه، ومنها أنه ينفع العيون إذا سُحق في الأكحال، ومنها إذا سحق وشُرِب نفع من لدغ العقارب.

وطبيعته البرد واليبوسة.

العقيق

حارٌّ يابس. وفيه ثلاث خصال من الخواص:

- **الأولى:** أنه من تقلَّد بالأحمر منه الشديد الحمرة سكنتْ رَوْعة الخصام.
- **الثانية:** أنه من تختَّم بالنوع الثاني منه — وهو الذي لونه لون ماء اللحم — إذا أُلقِيَ فيه الملح وفيه خطوط بيض قَطَعَ عن حامله نَزْفَ الدم من أي موضع كان من الجسد، ولا سيِّما النساء اللواتي يدوم طمثهن.
- **الثالثة:** أنه إذا استِيكَ به من أي أنواعه اتَّفقَ أذهَبَ عن الأسنان صَدأها وبيَّضها، وأذهب الحُفَر، ويمنع الأسنان أن يخرج من أصولها الدم.

ظرائف تليق بهذا الباب: قال بعض الفضلاء ممَّن يُعتَمد على قوله: مَن تَمَذْهَبَ للشافعي، وقرأ لأبي عمرو، ولبس البياض، وتختَّم بالعقيق، وحفظ قصيدة ابن زريق البغدادي، فقد استكمل الظَّرْف.

وممَّا سُمِعَ عنه قيل: إنَّ خاتمه ما وُجِدَ في إصبع قتيل.

وما أحسن استخدام بعضهم فيه:

عُجْ بالعقيق فإنَّ فيض مَدامعِي يَحكِيهِ

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

لا تَسَلْ عَن حَدِيثِ دَمْعِيَ لَمَّا ظَعَنَ الرَّكبُ واستقلَّ الفريق
لَوَّنَتْهُ وَأَمْطَرَتْهُ دُمُوعٌ جَرَى مِنه الوادِي وسالَ العَقيق

وقال صدر الدين بن عبد الحق:

أُذَكِّرُها الغَضا ولَذِيذَ عَيشٍ تَقَضَّى بالعَقيقِ دُوَينَ سَلعِ
فقالت: ما الغضا؟ فأجَبْتُ: قَلْبِي وقالت: ما العقيق؟ فقلتُ: دَمْعِي

وأنشدني الشيخ تقي الدين بن حجة من قصيدة نبويَّة أولها:

شَـــدَتْ بِكُمُ الـعُشَّــاقُ لمَّا تَرَنَّمُوا فَـغَـنَّـوا وقـد طـابَ المَـقـامُ وزَمـزَمُـوا
وضَــاعَ شَــذاكُم بَينَ سَــلْعٍ وحَاجِرٍ فـكـانَ دَلِـيـلَ الـظَّـاعِـنـينَ إلـيـكُـمُ
وجُزتُمْ بِوادِي الجزْعِ فـاخضَــرَّ والْتَوَى على خَـدِّهِ بـالنَّبـتِ صـــُدْغٌ مُنَمنَمُ
ولمَّا رَوَى أخـبـارَ نَشــــرِ ثُغُــورِكُم أراكُ الـحِمَـى جـاءَ الـهَوَى يَتَنَســَّمُ

ومنها في المدح الشريف:

فَيـا ســــاكِنِي وادِي الـعَقـيقِ بِأحـمَد خَـواتِـمُ خَـيـرٍ قَـد أَتَـتْ فَـتَـخَـتَّـمُـوا

وهذه القصيدة كلها غرر، فسَّح الله في وجود قائلها، وأنالنا وإياه شفاعة ممدوحها ﷺ.
وكيف لا تكون غررًا وهو القائل فيها:

نَبِيٌّ غَدَا فـــي جَبــهــةِ الــدَّهْرِ غُرَّةً بِســـُنَّتِـهِ البَيضــــاءِ والشـــركُ أدْهَمُ
ورَوضَـــةِ حُســـنٍ في ربيعٍ لَنـا بَدَتْ ومَنْبِتُـهـا الـبَـيـتُ الـعَـتِيـقُ المُحَـرَّمُ
لَهُ النَّسَـــبُ الأعْلَى فَيـا مـادِحَ الوَرَى إذا كـانَ مَـدحُ فـالنَّســـيبُ المُقَـدَّمُ
وَيــا مَن غَدا فِي حُبِّ زَيـنَبَ هـائِمًا وكــانَ لَــهُ عِـنـدَ الـرَّبـابِ تَـرنُّـمُ
بِحُبِّ ابـــنِ عَبــدِ اللهِ أَوْلَى فــإنَّه بِـهِ يَبـدَأُ الـذِّكـرُ الـجَـمـيـلُ ويُـخـتَـمُ

تأمل ما أحسن هذا التضمين.

اليَشْم واليَشْب

حجران فضِّيَّان. وكيانهما قريب بعضه من بعض، ويتكوَّنان من أبخرة مقصرة على كيان الفضة، على ما تقدم القول في ما سلف.

معدنه الذي يتكون فيه: كاشْغَر، ومنه يُجلَب إلى البلاد. وكاشغر بين الصين وغزنة، مسيرة نيِّفٍ وعشرين يومًا من غزنة إلى جهة الشمال. لسانهم تركي.

جيده ورديئه: اليشم نوعان: أحدهما أبيض، والآخر أصفر كلون العاج العتيق. ويقال: إن هذا هو الخالص.

خواصه ومنافعه: من خواصه في نفسه أنه إذا لُفَّت عليه شَعرةٌ من شعر الإنسان ثم وضع في النار لم يَحترق الشعر. وكثير من المُتحَرِّفين ببلاد العجم يحملونه ويفعلون به ذلك، ويدَّعون أنه من شعر النبي ﷺ، فيُوهمون العوامَّ بذلك. وبهذه الخاصية يُختبر الخالص من هذا الحجر ممَّن سواه.

ومن خواصه ومنافعه أن الصاعقة لا تقع عليه وعلى من حمله البتَّة. وقد أخبرني ثقاتٌ من العجم أنهم شاهدوا ذلك ببلاد العجم، حيث تقع الصواعق كثيرًا، فبنَوا في القلعة منارةً وعلَّقوا فيها هذا الحجر، فترى الصواعق نازلة من السماء تَحيد عن موضع الحجر إلى سائر الجهات البعيدة عنه.

ويقال: إن من تختَّم به قَطَع عنه كثرة الاحتلام.

ومن خواصه ما ذكر جالينوس في الأدوية المفردة أنه: ينفع من وجع المعدة بالتعليق عليها من خارج.

البِلَّوْر

معدنه الذي يتكون فيه: منه ما يوجد بتربة العرب بالحجاز الشريف، على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، وهو أجوده. ومنه ما يؤتى به من الصين، وهو دون العربي؛ ومنه ما يكون ببلاد إفرنجة، وهو جيد أيضًا، ومنه معادن بناحية أرمينيةَ يميل إلى الصُّفرة الزجاجيَّة، كأنه مطبوخ بالنار.

وقد ظهر منه بهذا التاريخ معدن بالمغرب الأقصى بمَقرُبة من مَراكِش حاضرة الغرب، نقي اللون إلا أنَّ فيه تشعيرًا، وهو كثير عندهم حتى فرش منه ملك المغرب مجلسًا كبيرًا أرضًا وحيطانًا.

جيِّدُه ورَدِيئه: أجوده أنقاه، وأصفاه، وأشفُّه، وأبيضه، وأسلمه من التشعير، فإنْ كان مع ذلك كبير الجِرم، آنية كان أو غير آنية، كان الغاية في نوعه.

قال التيفاشي: أُخبِرت أن تاجرًا من تجار الإفرنجة أهدى إلى ملك من ملوك المغرب قبَّة من البلور قطعتين، يجلس فيها أربعة نفر، ورأيت منه صورة دِيكٍ مخروط، إذا صُبَّ فيه الشراب ظهر لونه في أظفار الديك ورؤوس أجنحته، صنعه بلاد الإفرنجة، ويُصنع منه كل عجيب من الأواني.

وقال الكندي: إن في البلور قَطِعًا، يخرج في القطعة منها من المعدن أكثر من مائة مَنٍّ.

قال التيفاشي: وأخبرني غيرُ واحدٍ من أهل غَزْنة بنقلٍ متَّفق على صحَّته أنَّ بالقرب منها، بينها وبين كاشغر بمسيرة ثلاثة عشر يومًا، واديًا، بين جبلَي ذلك الوادي طريقٌ مُوصِلٌ إلى كاشغر، والجبلان اللذان على الوادي من جهتيه كلاهما بلور خالص، يُقطَع في الليل لأن أشعته إذا طلعت عليه الشمس تمنع العمل فيه بالنهار، ويُصنع منه خَوابٍ للماء في كاشغر وغزنة.

وأخبرني من كان متصلًا بشهاب الدين الغوري ملك غزنة أنه رأى في قصره أربعة خوابٍ للماء، كل خابية تحمل ثلاث راويات ماء من روايا الجِمال، جميعها على محامل يُصعد منها إليها من بلور، كل واحد من محملٍ ثلاثِ قناطيرَ إلى أربعة.

خواصه في نفسه: أنه يذوب كما يذوب الزجاج، ويقبل الصبغ. ومنها أنه يُستَقبل به الشمس، ثم يُنظر إلى موضع الشعاع الذي قد خرج من الحجر فيستقبل به خرقة سوداء، فتحرق وتوجد فيها النار.

خاصيته في منفعته: من عُلِّق عليه لم يَرَ منامَ سُوء ثمَّ ذلك.

ذكر القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري في تاريخه الذي سمَّاه مسالك الأبصار، أن شخصًا من بعض التجار في أصناف الجوهر كان يجهز كل سنة مماليكه وجماعة إلى المغاص ليغوصوا على اللؤلؤ في الوقت المعتاد، وهو في شهرَيْن في السنة، فاتفق أنه أنفذ جميع ما يملكه في ذلك، ولم يحصل على طائل، ولم يطلع له شيء، وافتقر ولم يبقَ له ما يجهز به إلى المغاص، فطلب من امرأته مِعضَدةً كانت في عضدها ذهبًا، فقالت له: يا هذا، أتعمل لك بهذه المعضدة حِرفة غيرَ ما أنت فيه من اللؤلؤ. فقال: ما أرجع عن صنعتي ومتَّجري. وتجهز هو بنفسه في جماعة إلى المغاص فغاصوا له في الوقت المعتاد إلى اليوم التاسع والخمسين، فلم يطلع له شيء إلى آخر النهار طلع له درة ما لها قيمة، فأحضروها إليه وقالوا له: هذه غصنا على اسم إبليس، وقد ردَّ الله عليك جميع ما أنفقته، فاستدعى بحجرين ووضعها بينهما إلى أن أعدمها وكسرها، ثم رمى بها في البحر. فلامه الحاضرون رفاقه من التجار على ما فعل وقالوا: قطعة مثل هذه تقع لك وما عندك مثلها تعدمها؟! فقال: هذه القطعة ما أنتفع بها ولا أجد لها بركة، ويجيء كل من يأتي بعدي يقتدي بفعلي ويغوصون له على اسم إبليس ويبقى عليَّ إثم ذلك إلى يوم القيامة؟! اذهبوا وغوصوا على اسم الله عزَّ وجلَّ.

فأصبحوا تمام الستين يومًا غاصوا له على اسم الله، فطلعت لهم الدرة اليتيمة، فوُجِّه بها إلى الخليفة ببغداد وهو إذ ذاك المقتدر، فابتاعها منه بثلاثمائة ألف درهم، وحَسُنَ حاله ببركة اسم الله عز وجل.

انتهى ذلك، والله أعلم.

الباب الأربعون

في خزائن السِّلاح والكَنائن والسيف

السيف

سأل عمرُ بن الخطاب عَمرَو بنَ مَعدِي كَرِبَ عن السلاح فقال: ما تقول في الرمح؟ قال: أخوك، وربما خانك فانقصف. قال: فما تقول في التُّرس؟ قال: هو المِجَنُّ، وعليه تدور الدوائر. قال: فالنَّبل؟ قال: منايا، تُخطِئ وتُصيب. قال: فما تقول في الدرع؟ قال: مفشلة للراجل، مشغلة للفارس، وإنها لحصن حصين. قال: فما تقول في السيف؟ قال: هنالك لا أمَّ لك يا أمير المؤمنين. فعلاه عمر بالدرة وقال له: تقول: لا أم لك؟! قال: الحُمَّى أصرعتني.

القاضي الفاضل من قصيدة:

تَمُدُّ إلى الأعداءِ منها مَعاصِمًا ... فترجِعُ من ماءِ الكُلى بأساوِرِ

وله من أخرى:

وَلَرُبَّ هاتِفةٍ دَعَتْهُمْ لِلوَغَى ... جَعَلوا صَليلَ المُرهَفاتِ صَداها
هِيَ في بِحارِ يَدَيهِ أمواجٌ تُرَى ... ونُفوسُ مَن قَتَلَتْهُ مِن غَرْقاها

الغنوي:

كَأَنَّ على إِفْرِنْدِهِ مَوجُ لُجَّةٍ ... تحول في حافاتِهِ وتَجُولُ

كــأنَّ عُيــونَ الــذَّر كَسَّـــرنَ حَولَهُ		عــيــون جَــرادٍ بَــيــنَــهُــنَّ ذحــولُ
حُسَـــــامٌ غــداة الــرَّوح حــتَّى كــأنــه		مِنَ اللهِ في قَبضِ النُّفوسِ رَسـُــولُ

أبو العلاء المعرِّي:

وَدَبَّتْ فَوقَهُ حُمْــــرُ المَنــــايــــا		ولـكـنْ بَـعـدَمَـا مُسـِـخَـتْ نـمـالا
غَراراهُ لِســــــانَا مَشْــــرَفــــيٍّ		يَـقــولُ غــرائـــبَ المــوتِ ارْتِــجــالا
يُذِيــبُ الــرُّعــبُ مِنــهُ كُلَّ عَضْـــبٍ		فَلَـولا الـغِـمـدُ يُمســـِكُـهُ لَســـــالا

النامي:

ذِي مَدمَعٍ مِن غَيــرِ مــا مُســـــتَعــبــرٍ		وتَــبَسـَـــُّـمٍ مِــن ثَــغْــرِهِ مُــتــوالِ
ويُريـــــكَ فــــي لَأْلَائِهِ مُتَوقِّدًا		حَـنَـقَ المَـنـونِ بــه عــلــى الآجــالِ

وقال أعلم الرؤساء، ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب، من نثره على طريق اللغز: يبالغ في شكره إذا أفسد وبرَّح، ويقبل في تزكية شهادة المُجرَّح.

ابن قلاقس:

أَسْـــهَرتَهم وســـــهرتَهـا فـهجوعـهـم		مــذ أُحْـرِمَـتْ فــي راحـتـيْـكَ حَـرامُ
وكِلاهُمــا جَفــنٌ مــنــعــتَ غِرارَه		لــكــنَّ ذا عَضـــــبٌ وذاك مَــنــامُ

ابن سناء المُلك:

لــهُ مُنْصُــلٌ لَا يَنقَضِـــي فَرضُ حَجِّهِ		فبالضَّـــربِ لبَّى وهو بالســَّلِّ أَحْرَما
تَنَسَّـــكَ بــالإســـــلامِ لــكــن رأيــه		يُحِلُّ له في الشَّـــرعِ أنْ يَشــربَ الدِّما
فــكــمْ سَــلَّ لمَّا سُـــلَّ مِن بَطْنِ غِمْده		لِســــانَ دَمٍ مِن ضَـــربــه خلقـتْ فَمـا

وقال زين الدين بن الوردي:

فَتَقْتَ بـأَجْســـــادِ الأُســــودِ لَواحِظًا		رَمَـتْ بـالمنـايـا عن عيون الثَّعـالـبِ
وأَنــطَقْتَ أفــواهًا عــلــى قِــمَـمِ الــعِدى		بـألســـنـةِ البِيضِ الرِّقـاقِ المَضـــــارِبِ

بِحَيثِ الوَغى روضٌ تَغنَّى ذُبابُهُ　　وَسالَ على نُورِ الطِّلا كالمذانِبِ
وقد نشقت وِردَ الكلومِ صِعاده　　وما شربت إلَّا دماءَ التَّرائِبِ

وله:

سَكْران مِن شُربِهِ خَمرَ الدِّماءِ فإنْ　　حَيَّاهُ نُورُ الطِّلا غَنَّى لَهُ هَزَجَا

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب الأندلسي:

وَخَلِيجِ هِندٍ راقَ حُسْنُ صَفائِهِ　　حتَّى يَكادُ يَعُومُ فِيهِ الصَّيقَلُ
غَرِقَتْ بِصَفحَتِهِ النِّمالُ وَأَوْشَكَتْ　　تَبغِي النَّجاةَ فَأوثَقَتْها الأَرْجُلُ
فالصَّرحُ مِنهُ مُمَرَّدٌ وَالصَّفحُ مِنـ　　ـهُ مُوَرَّدٌ وَالشَّطُّ مِنه مُهَدَّلُ

وقال مجير الدين بن تميم:

لمَّا اقْتَنَيتُ مِن الصَّوارِمِ أعْوَجًا　　يَجرِي القَضاءُ بِنَهرِهِ المُتَعَوِّجِ
جُبتُ القِفارَ وما حَمَلتُ إداوةً　　لِلماءِ مِن ثِقَتِي بِنَهرِ الأعوَجِ

ابن نباتة:

وصارِمٍ كَعُبابِ المَوجِ مُلتَطِمٍ　　يَكادُ يَغرَقُ رائيه ويَحتَرِقُ
لمَّا غدا جَدولًا تُسقَى المَنونُ بِهِ　　أضْحَى يَشِفُّ على حافاتِهِ العَلَقُ

الشريف البياضي:

وإنَّا إذا الأرواحُ ذابَتْ مَخافةً　　فَتَحْنا بِأَشْطانِ الرِّماحِ رَكايَاهَا
مَتى ما أَرَدْنا أنْ يُذاقَ حَديدُنا　　خَلَعْنا بِحَدِّ المَشرَفِيَّة أَفْواها

ومن كلام الشيخ تقي الدين بن حجة في معنى سكون الحرب: واعتُقِلَ الرُّمحُ بسجن السِّلم بعد أن كان على رأسه لواء الحرب المعقود، وهجعت مُقَلُ السُّيوف في أجفانها لما علمت أن الزيادة في الحدِّ نقص في المحدود.

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

قـوم مَنـادِيـلُهُم بِيـضٌ فَكَم مَسـحَتْ رِقـابَ أعـدائِـهِـم تِـلـكَ المَـنـادِيـلُ

الغَزِّيُّ وأجادَ:

وقَدْ سَـلَبَ الـطَّعـنُ الأَسِـنَّةَ لَونَهـا فَعَصـفَرَ فِي اللَّبَّـاتِ مـا كـانَ أَزرَقَا
وأَسْـيـافُنـا في السَّـابِغـاتِ كـأنَّهـا جَـداوِلُ تَـجـرِي بَـينَ زَهـرٍ تَـفَـتَّـقَا

ابن خفاجة:

مُوَسَّـدٌ تَحْتَ ظِلِّ السَّـيفِ تَحسَـبُهُ مُسـتَلقِيًا فَوقَ شـاطِئِ جَـدولٍ ثَمِلَا

الرُّمح

ذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف، أنه كان في خزانة السلاح أيام السفَّاح خمسون ألف درع، وخمسون ألف سيف، وثلاثون ألف جَوشَن، ومائتا ألف رمح.

ومنه قال الفضل بن الربيع لما وَلِيَ محمدٌ الأمير الخلافةَ في سنة ثلاث وتسعين ومائة: وأمرني أن أُحصِيَ ما في الخزائن من الكِسوة والفُرُش والآنية والآلة (ذكرت الفرش والكسوة في بابها من هذا الكتاب)، وأما الآلة فعشرة آلاف سيف محلَّاة بالذهب، وخمسون ألفًا للشاكرية والغلمان، ومائة وخمسون ألف رمح، ومائة ألف قوس، وألف درعٍ خاصة محلاة، وألف درع عامة، وعشرون ألف بيضة، وعشرون ألف جوشن، ومائة وخمسون ألف ترس، وأربعة آلاف سرج محلاة خاصة، وثلاثون ألف سرج عامة.

القاضي الفاضل:

يُقَتِّلُ حَيَّاتِ الـحَقـودِ مِنَ الـعِدى بِحَيَّـاتِ سُـمرٍ بـالأَسِـنَّـةِ نُهَّشَـا
ويَنْصِـبُها إنْ يَرتَقُوا السُّـحبَ سُـلَّمًا ويُرسِـلُها إنْ يَنزِلوا القَلبَ كـالرِّشَـا

وله:

أَمُنَصَّـلَ الـرُّمـحِ الـطَّوِيـلِ بِكَوكَبٍ مَن ذا يُطـاعِنُ والسِّـمـاكُ سِـنـانُ

ابن سَناء المُلك:

مُلــوكٌ يَحــوزُونَ المَمــالِكَ عَنــوَةً بِسُـــمرِ العَوالِي أو بِيضِ القَواضـــِبِ
رِمــاحٌ بِأَيــدِيــهِمِ طِوالٌ كــأَنَّمــا أرادُوا بِـهـا تَـثـقِـيـبِ دُرِّ الـكَـواكِـبِ

ابن قلاقس:

وَقَدْ كَحَلَــتْ بــأَمــيــالِ الــعَوالِي أُســـــاةُ الــحــربِ أَحْــداقَ الــدُّروعِ
وَشَــبَّ الــيــأسُ نِيــرانَ المَواضِــي وأَســـبَلَ غَـيــثُ أمــواهِ الــدُّمــوعِ
فَلِلــفُرســـــانِ مِن مَحــلٍ ووَحــلٍ حــديــثٌ عــن مَصـــيــفٍ أو رَبـيــعِ

وله:

ومصـــرف الرُّمح الطويـل ســـنــانــه فـتـخــالــه قـلـمًـا هـنـاكَ مُـحـرَّفـا
حيثُ العَجـاجـةُ فَوقَ لَامعـةِ الضُّــحى تَثنِي على الإصـــبـاح ليلًـا مُغـدِفـا
فَتُريـكَ طَرفَ الـجَوِّ مِنــهـا أكـحـلًا ومِنَ الـطِّوال الســَّـمـهَرِيَّـةِ أوطـفـا

ابن النبيه:

والـنَّبـلُ فــي خـلـل الـعَجـاجِ كـأَنَّه وبـلٌ تـتـابـعَ في خِلالِ ســَحـائِـبِ
لَعِبَت أسِـــنَّتُه عـــلـــى أعـــلامِهـا فـكـأنَّـهـا شـــُـهُـبٌ ذَواتُ ذَوائِـبِ

الوردي:

وَوَراءَ هـــاتَيـــكِ الـــخِيـــامِ أَهِلَّةٌ هــالاتُـهـا نَـبـتُ الـوَشـــيـحِ الأعـوَجِ
ارتـــحـــتَ حَولَهُمُ لـــزُرقِ أســـــنَّة حتَّـى كـأنَّـك فـي ريـاضِ بَنَفْســَجِ

سيف الدين المشد ملغِّزًا فيه:

أيُّ شَـــيءٍ يَكــونُ مــالًا وذُخــرًا راقَ حُســـنًـا عـنـدَ اللِّقـاءِ ومَـخـبَرْ
أســـمرُ الـقَدِّ أزرقُ السِّـــنِّ وَصْــفًا إنَّـمـا قَـلـبُـه بِـلا شـَـك أحـمَـرْ؟

القاضي الفاضل من قصيدة:

فَيـا عَجَبًا لـلـمـلـك قـرَّ قـرارُه بمُـختلفـاتٍ مِن قنـاك الشـَّواجِرُ
طَواعِنُ أســـرارِ الـقُلـوبِ نَواظـر كـأنَّـهـمـا قَـد نَصـَّـلـتـهـا نـواظِـرُ

لسان الدين محمد بن الخطيب:

وَبِكُلِّ أَزْرَقَ إنْ شَـكَتْ أَلْحـاظُهُ مَرَهَ العُيونِ فَبِالعَجـاجـةِ يكحَـلُ
مُتَأَوِّد أعـطـافـه مِن نَشـوةٍ مـمَّـا يَـعـلُّ مِـن الـدِّمـاءِ ويَـنـهَـلُ
عَجَبًا لَهُ إنَّ الـنَّجـيـعَ بِطَرفِهِ رَمـدٌ ولا يَـخـفَـى عـلـيـه مَـقـتَـلُ

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفَّق الدين علي بن الآمدي:

غُصـون بِهـا طَيرُ النُّفوسِ تَنـافَرَتْ وعَـهـدِي أنَّ الغُصـنَ للطَّيرِ يَـأَلَفُ
وَلَا ورق إلَّا مِن الـتِّبـرِ حَولَهـا ولا زَهـر إلَّـا مِـن النَّصـرِ يُـقـطَفُ

وقال فخر القضاة نصر الله بن بصاقة، كتب للناصر داودِ بن عيسى ووزر له، وجلس معه في صدر الإيوان. فقال ملغزًا:

عَصِـيٌّ ثَقـيـلٌ إنْ أُطِيـلَ عَنـانُهُ مُطيعٌ خَفيفُ الكَـلِّ حِينَ يُقصـَّرُ
تَرى مِنْه أمـيًّا إلـى الـخـطِّ يـنـتـمـي ومـغـرًى بِـغَـزوِ الـرُّومَ وهـوَ مُـزَنَّـرُ
عَجبِـتُ لَهُ مِن صـامـتٍ وهو أجْوَفُ ومِن مُسـتطيـلِ الشَّـكـلِ وهو مُـدَوَّرُ
ومِن طـاعنٍ في السِّـنِّ لَيسَ بِمُنحَنٍ ومِـن أرْعَـنٍ مَـا عـاشَ وهْـوَ مُـوَقَّـرُ

ابن نباتة السعدي:

وَوَلَّوْا عـلـيـهـا يَقـدُمُونَ رِمـاحَنـا وتَـقـدُمُـهـا أعْـنـاقُـهـا والـكـواكِـبُ
خَلَقْنـا بِأطـرافِ الـقَنـا لِظُهـورِهِمْ عُيونًـا لَهـا وَقعُ السـُّيوفِ حَواجِـبُ

ذكر الثعالبي في لطائف المعارف أن أول من عُمِلَ له سِنانٌ من حديد ذو يزن الحميري، وإليه نسبت الرماح اليزنيَّة، وإنما كانت أسنَّة العرب من صياصي البقر.

قلتُ: قد كان رسمٌ لجماعة من الفضلاء بالمملكة الشاميَّة أن ينظموا أبياتًا تُكتب على أسنَّة الرماح، وأن تكون البيوت أربعة، وذلك برسم المقرِّ العلائي الطُّنبُغا الجوباني كافل الشام المحروس، رحمه الله تعالى. فنظم سيدنا المقر المرحوم، الشهير بابن الشهيد فتح الدين، رحمه الله تعالى رحمة واسعة:

إذا الغُبارُ عَلا في الجَوِّ عِثْيَرُه ... فأظلمَ الجَوُّ ما لِلشَّمسِ أنوارُ
هذا سِناني نَجمٌ يُستضاءُ بِهِ ... كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ
والسَّيفُ إنْ نامَ مِلءَ الجَفنِ في عَلَقٍ ... فإنَّني بارزٌ للحَربِ خَطَّارُ
إنَّ الرِّماحَ لَأَغْصانٌ وليسَ لَها ... سِوى النُّجومِ على العِيدانِ أزْهارُ

وأنشدني القاضي المرحوم أمين الدين محمد الأنصاري لنفسه، وهو إذ ذاك كاتب السرِّ بحمص المحروسة:

عَروسُ سِناني حين تُجلى على العدى ... وتَظهُر تُبدِي ما لَهُم مِن بَواطِنِ
وقَد صِيغَ مِن هَمٍّ فَبَيَنَ صُدُورِهِمْ ... مَجالٌ لهُ رَحبٌ فَسيحُ المَواطِنِ
سَيَلقَونَ يومَ الجَمعِ غَبنًا لموتِهِم ... بِطَعنِي ويَومُ الجَمعِ يَومُ التَّغابُنِ
وإنْ شَهِدُوا بِالجَورِ فِيَّ وعَدَّلُوا ... فإنِّي قَد بَيَّنتُ فِيهِم مَطاعِنِي

ونظم سيدنا القاضي صدر الدين علي بن الحنفي الأدمي رحمه الله، وأنشدنيها من لفظه، وهي من مبادئ نظمه:

النَّصْرُ مَقرونٌ بِضَربِ أسِنَّةٍ ... لَمَعانُها كَوَمِيضِ بَرقٍ يُشرِقُ
سُبِكَتْ لِتُسبِكَ كُلَّ خَصمٍ مَاردٍ ... وتَطَرَّقَتْ لِمُعانِدٍ يَتَطَرَّقُ
زُرقٌ تَفوقُ البِيضَ في الهَيجاءِ إذْ ... يَحْمَرُّ مِن دَمِه العَدُوُّ الأزرَقُ
يَنسَخْنَ يَومَ الحَربِ كُلَّ كَتيبةٍ ... تَحتَ الغُبارِ فَنَصْرُهُنَّ مُحَقَّقُ

ونظم الشيخ شمس الدين محمد بن بركة الرئيس، وأنشدنيها من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى:

أنا أسْمَرٌ والرايةُ البَيضاءُ لِي ... لَا لِلسُّيوفِ وسَلْ مِنَ الشُّجعانِ
لَم يَحْلُ لِي عَيشُ العُداةِ لأنَّني ... نُودِيتُ يَومَ الجَمعِ بالمُرَّانِ

وإذا تَنــاغَمَتِ الــكُمــاةُ بِجَحْفَلٍ كَــلَّــمْــتُــهُــمْ فِــيــهِ بِــكُــلِّ لِســـــانِ
فَتَخــالُهُم غَنَمًا تُســـــاقُ إلــى الــرَّدَى فــهــو المــعــظِّــمُ ســـــطــوةَ الــجَــوبــانِ

قلت: لو قال: كَلَّمْتُ كُلًّا منهم بلسان، لكان أحسن.

الشيء يذكر بلوازمه. نقلت من مجموعةٍ بخط بعض الأفاضل أن بعض الأمراء بالأندلس، وأظنه المنصور بن أبي عامر رحمه الله، كان إذا قصد غَزاة عقد لواءه بجامع قرطبة، ويجعل مسيره إلى الغزاة من الجامع، فاتفق أنه في بعض حركاته للغزوات توجَّه إلى الجامع لعقد اللواء، واجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة، فرفع حامل اللواء فصادف ثُريًّا من قناديل الجامع فانكسرت على اللواء، وتبدَّد عليها الزيت فتطيَّر الحاضرون من ذلك، وتغيَّر وجه المنصور، فقام رجل وقال له: أبشِرْ يا أمير المؤمنين بغَزاةٍ هَنيَّةٍ وغنيمة سارَّة، فقد بلغت أعلامك الثريا، وسقاها الله من شجرةٍ مباركة! فاستحسن ذلك المنصورُ واستبشر به، وكانت تلك الوجهة من أبرك غزواته.

وما أظرف وألطف قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل متغزِّلًا:

كَمْ قــالَ: مَعــاطِفــي حَكَتْهــا الأَسَـــلُ والــبِيضُ ســـَرَقْنَ مــا حَــوَتْــهُ المُقَــلُ
فَالآنَ أوامِري عَلَيـــــهِمُ حَكَمَتْ الــبِــيــضُ تُــحَــدُّ والــقَــنــا تُــعــتَــقَــلُ

ابن تميم:

لَوْ كُنــتَ تَشـــــهَدُني وقَد حَمِيَ الــوَغَى فــي مَــوقِــفٍ مــا المَوتُ عَنــهُ بِمَــعــزِلِ
لــتــرى أنــابــيــبَ الــقَنــاةِ عــلــى يَدي تَجري دَمًــا مِن تَحــتِ ظِــلِّ القَســـطَــلِ

ابن شرف القيرواني:

وَقَد وَخَطَتْ أرمــاحُهُم مَفــرَقَ الــدُّجــى فبــاتَ بــأطرافِ الأســـنَّــةِ شـــــائِبــا

القوس

حدَّث العُتبي عن بعض مشايخه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والي اليمامة، فأُتِيَ بأعرابي كان معروفًا بالشَّرَف، فقال له: أخبرني عن بعض عجائبك. قال: عجائبي كثيرة، ومن أعجبها أنه كان لي بعير لا يُسبَق، وكان لي خيل لا تُلحَق، فكنت أخرج هاربًا، فخرجت فاحترشتُ ضبًّا فعلَّقته على قَتَبي،

ثم أرجع خائبًا، فمررت بخباءٍ ليس فيه إلا عجوزٌ وليس معها غيرها، فقلت: يجب أن تكون لها رائحة من غنمٍ وإبلٍ. فلما أمسيت، إذا أنا بإبل مائة فيها شيخ عظيم البطن، شَثن الكفَّين، ومعه عبد أسود، فلما رآني رحَّب بي ثم قام إلى الناقة فحلبها، وناولني العُلبة فشربت ما يشرب الرجل، فتناول الباقي فضرب به جبهته، ثم حلب تسع أينُق، فشرب ألبانهنَّ، ثم نحر حُوارًا فطبخه، ثم ألقى عظامه بيضاء، ثم جثى على كومةٍ من بطحاء فتوسدها، ثم غطَّ غطيط البَكْر، فقلت: والله، هذه الغنيمة الباردة!

ثم قمت إلى فَحلِ إبله فخطمتُه، ثم قرنته ببعيري وصِحتُ به، فاتَّبعني، واتَّبعَتْه الإبل إربًا كأنه في قطار، فصارت خلفي كأنه حبل ممدود، فمضيت أبادرُ ثنيَّةً بيني وبينها مسيرة ليلة للمسرع، فلم أزل أضرب بعيري مرة بيدي ومرة برجلي حتى طلع الفجر، فأبصرت الثنية فإذا عليها شيء أسود، فلما دنوتُ إذا الشيخ قاعد وقوسه في حجره، فقال: أَضَيْفَنا؟ قلت: نعم. قال: أتسخو بنفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا. فأخرج سهمًا كأنما نصله لسان كلب ثم قال: أبصِرْهُ بين أذني الضَّبِّ المعلق من القَتَب. فرماه فصدع عظمه عن دماغه، قال: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيي الأول! ثم قال: أبصِرْ هذا السهم الثاني في فَقارة ظهره الوسطى. ثم رمى فكأنَّما غرسها فيه، ثم قال: ما رأيك؟ قلت: أحبُّ أن أستثبت. قال: انظر هذا السهم الثالث في عُكوة ذَنَبه، والرابعُ — واللهِ — في بطنك. ثم رماه فلم يخطئ العكوة، قلت: أنزل آمنًا؟ قال: نعم. ثم دفعت إليه خطامَ فَحلِه وقلت: هذه إبلك لم يذهب منها وبرة، وأنا أنظر متى ترميني بسهم تقصد به قلبي.

فلما تباعدت قال: أقبِلْ! فأقبلت — والله — فَرَقًا من شرِّه لا طمعًا في خيره، فقال: أحسبك ما جشمتَ الليلةَ إلا من حاجة. قلت: أجل والله! قال: فاقرُن من هذه الإبل بعيرين وامضِ لطيبك. فقلت: لن والله، حتى أخبرك عن نفسك، فلا — والله — ما رأيت أعرابيًّا قطُّ أشد ضِرسًا، ولا أعدى رِجلًا، ولا أَرْمَى يدًا، ولا أكرم عفوًا، ولا أسخى نفسًا منك. قال: فاستحيا وترك الإبل جميعها.

قلت: ذكر هذه الحكاية الشيخ جمال الدين بن نباتة في سرح العيون بخلاف هذه الألفاظ، وإن الشيخ المذكور: زيد الخيل واسمه: مهلهل.

عزم الملك المعظَّم على الصيد فقال له بعض الجماعة: يا مولانا، القمر في العقرب والسفر فيه مذموم، والمصلحة الصبر إلى أن ينزل القمر القوس. فعزم على الصبر، فبينما هو يفكِّر إذ دخل مملوك كان له من أحسن الناس وجهًا، يقال له: أيدغدي. فوقف قُدَّامَه وقد توشَّح بقوس فقال بعض

الحاضرين: يا مولانا، اركبِ الساعة فهذا القمر حقيقة. فقام لوقته وركب استبشارًا، فلم يرَ أطيب من تلك السفرة ولا أكثر من صيدها.

الشهاب العَزازي ملغزًا فيها وفي النُّشَّاب:

مـا عَجـوزٌ كـبـيـرةٌ بـلـغَتْ عُمْـ ـــــرًا طويلًـا وتَـتَّقِيـهـا الرِّجـالُ
قَد عَلا جِســمَها صَــفارٌ ولَم تَشْـ ــــكُ ســَقـامًـا ولا عَراهـا هُزالُ
ولَهـا فـي الـبَنـينِ سَـهـمٌ وقسـم وبـنـوهـا كـبـارُ قَـدرٍ نـبـالُ
وأراهـا لـم يُشــبـهـوهـا فَفِي الأمْـ ــــمِ اعوجـاجٌ وفي البنين اعتـدالُ؟

الحلِّي ملغزًا:

ومـا اســمٌ تَراهُ فـي الـبُروجِ وإنَّمـا يَـحِـلُّ بِـهِ الُمـرِّيـخُ دُونَ الـكَـواكِـبِ
إذا قَدَّرَ الـبـارِي عَلَيـهِ مُصـــيـبـةً عَـدَتْـهُ وحَلَّـتْ في صــُدورِ الكَتـائـِبِ؟

بدر الدين بن الصاحب ملغزًا:

لِلـــهِ مـــمـــلـــوكٌ إذا مـا قـام فـي الشــُّغـل اعـتـرضْ
لـــكِنَّهُ فـــي لـــحـــظـــةٍ مُـحَصـــِّـلٌ لـكَ الـغَـرَضْ

أَيْدَمِر يرثي سهمًا انكسر:

يـا سَــهـمُ هـاجَ رَداكَ لِي بِلـبـالًا وأطـارَ نَـومِـي والـهُـمـومَ أَطـالَا
مُذ بِـنـتَ مـا راعَ الـحِمـامُ حَمـامَةً يَـومًـا ولا عَـلِـقَ المَـنـونُ غَـزالَا
ولطالَ ما شَــوَّشــتَ مِن ســربِ المَها ألِـفًـا ومِـن ســَطـرِ الـكَـراكي دالا
قـد كُنـتُ أعْجَبُ للقِسِـيِّ سَـقيمـةً صــُفـرًا تَـئـنُّ كـأنَّـهـن ثَـكـالـى
فـإذا بـهـا عِلـمًا بيَومِكَ فـي الـرَّدى كـانـتْ عـلـيـكَ تُـكـابِـدُ الأهـوالا
عـجـبًا مـن الآجـالِ كـيفَ تَقسَّـمـتْ فـيـه وكـانَ يُـقسـِّـمُ الآجـالا

وقال الإمام كمال الدين، إسماعيل بن جمال الدين عبد الرزاق الأصفهاني رحمه الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ

سَبَبًا﴾، حكيم جُبِل على السداد، يهدي إلى سبل الرَّشاد، آثار بأسه مشهورة على ذُرَى الأعواد، بَطشُه شديد، ومَرماه بعيد، أُيِّد في مغزاه بالتعقيب، يأخذ في التشريق بعد التغريب، فشُدِّد بكلِّ شديد الإغارة أسرُه، ووسِّد إلى كل مشبوح الذراعين نصرُه، فأنفذ رُسُلَه تَترى، شَفعًا ووِترًا، وطير يردُّه إلى الأطراف، بنَوعٍ من الاستعطاف، وأثبت ما في ضميره في القرطاس، إظهارًا للبأس وإنذارًا للناس، وأغرق قوس عزائمه في الركض، وحرَّم على جنبه القَرارَ في الأرض، فأُعِينَ بقوةٍ جَمَعَ بها بين اليدين، ثم قُبِضَ في البَين عند مُلتقى الحدَّين، وكان من دُعائه في انحنائه: ربِّ اشرح لي صدري، واشْدُدْ لي أَزْرِي، واحْلُلْ عُقدةً مِن لِساني، يفقهوا قولي، وأخي أفصحُ منِّي لِسانًا فأرسلْه معي، وأشرِكْه في أمري. نعم، ويسألونك عن الأَهِلَّة، صفراء من غير علَّة، حنَّانة حنَّت ولا تهنَّت، حيَّة إذا انطلقت ارجحنَّت، مِرنان لا عن مرض، تَشرَئبُّ إلى غرض، هلال يطلعُ بحلول الأجل المضروب، استهلال دليل الوقائع والحروب، مجرَّة تنقضُّ منها نجوم الرجوم، برج ذو جسدين يطلع بالطائر الميشوم، ثابت يقارن السَّيَّارات، واقع ينهض من وكره الطيَّارات، ذات الحبك لا تراجع كواكبها، برج معوجُّ الضلوع تَغور في أسرع زمان غواربها، مَغنًى أُحكِمت مبانيه، ورُفِعَت معانيه، حائطه مائل، وعِماده زائل، لا يُقَوَّم مَيَّاده، ولم يُنقَض ويكاده، بِناءٌ ساء بساكنه فترحَّل منه، وبيتٌ أزعج نازله فتحوَّل عنه، رباط موقوف على المَآرَة، لا تلبث فيه السيَّارة، بيت منزحف ينفر عنه الطبع السليم، ويَفرُّ عنه النَّبْعُ المستقيم، محلُّ النزاع يظهر فيه عند المجادَلة، متحرِّف للقتال يولِّي الظهر عند المقاتلة، سورة مُحكَمةٌ ذُكِر فيها القتال، يَتمسَّك به أصحاب الجدال، شديدُ القُوَى ذو مِرَّة، يُواتِر بَينَ رسله من غير فترة، مُنِيَ بذاتِ الجَنْب يُقلقه انبعاث مُرَّته، لا يَسكُن إلَّا إذا دَسَعَ بِجِرَّته، شيطان تطلع شمس النُّصرة من بين قَرنَيْه، مارد لا يسكن إلا بتَعرِيك أذنيه، صورة مركَّبة ليس لها من تركيب النَّظم، إلا ما حَمَلتْ ظُهورُها أو الحَوايا أو ما اختلطَ بِعَظْم، أضلاع على الوتر تُطوَى، أكبادٌ تَحِنُّ إلى القدِّ من الطوى، مُستأسِر شدَّ إلى العَقِب أذقانه، يضيق صدره ولا ينطلق لسانه، بطلٌ شَدَّ حَيازِيمَهُ للموت، ويجزع من خوف الفَوت بأعلى الصوت، مِقدامٌ من بني الأصفر قُبِضَ في دار الحرب وشُدَّ عليه الوَثاق حتى شكا ضِيقَ الخِناق، وجرى عليه سهمُ الاسترقاق فصار مِلك اليمين بالاستحقاق، ولا غَروَ أنْ مالَ إلى أصحاب الشِّمال، فهو فَرعٌ أصلُه ضال، متكبِّرٌ يأبى السُّجودَ للبشر، في صُلبِه مِثلُ صياصي البقر، مغشيٌّ عليه جَمَعَ إلى الاصفرارِ نُحولًا وحنينًا، فقُبِض وكان في النَّزع حِينًا، مَطِيَّة تُخالف سائر الأنعام، قِيامها باليد وقيامهن بالأقدام، وكلَّما كانت أثبتَ على المقام، كان راكبها أقربَ إلى بلوغ المرام، مصبرة يمتطيها الراكب إذا كانت معقولة، وينزل عنها إذا

أُرسِلَت محلولة، أعوجيٌّ يشد في مراكض السباق، أعجميٌّ يلوي الأشداق، شاكية تودع سفرًا لا تعود، عقيلة تحن إلى زوج من عود، عائلة شبقى شديدة الغرامة، أعجبْ بها حدباء مديدة القامة، عنقاء تزق فراخ النسور، تزيد في مُرَّتها من الدهور، سلس القياد صعب أبيٌّ، ذو مرة غير سويٍّ، مبهوض جمع الباري عظامه، فصوَّره وأحسن نظامه، فقامت عليه القيمة أَلِفٌ ونونٌ جمعًا للتثنية، لا يرميه أهل القياس بالتخطئة، بل ألف قارن نونًا مشددًا فإذا حركته أنَّ، وإذا تركته اطمأنَّ، حرف إذا رُفِع نُصِبَ للجرِّ، لا يُستعمل جزمًا بعدما دخله الكسر، وحرف آخرُ معطوف عليه، ومجرور بالإضافة إليه، حرف أُدْغِم فيه غيره بتسكين، وحصل منه تشديد وتنوين، هيئته تشبه علامة المدِّ إذا عُطِّلت، وتُشاكِلُ الياء إذا استُعمِلت، ذو نَيْرَبٍ مشَّاءٌ بنَمِيم، عُتُلٍّ على الجفاء مُقيم، مغرق يتنكَّب عن موارد الماء، معرق عند جر النسب والانتماء، وأخوه دعِيٌّ به لاحق، عنصر ألف ونبعه ممطورة ينمى إذا اتصل الدَّعِيُّ اللاصق، مقيَّد يحمل عليه المطلق، طويل العنق من حبل عاتقه معلَّق، خفيف الرأس يميل إلى كل طياش، عاري المناكب في حِبالته ذات الرياش، نحيف يُرى أثرُ المحاجم بظهره، يتشمَّر لقصد غيره، أَجَشُّ يرفع صوته بين الرماة بارز، يفتُّ في أعضاد الكماة:

لِأَمْرٍ ما تنادرك الرُّقَاةُ ونكَّب عن مَراشِفكَ الرُّماةُ
كأنَّ شَظِيَّة مِن فَرعِ أَيكٍ تسنَّمها النسورُ الطائرات

أعجوبة جمعت بين أضدادها تمنُّعًا في خضوع، وإباءً في خشوع، وتعطفًا في قساوة، وصلابة في رخاوة، أشباه أعناق الجِمال طابقها زمامها، أضلاع أنضاء توسطها سنامها، كأنَّ قرنَيْه صِلٌّ انسلخ من إهابه، فخلع عليه بعض ثيابه، مضمارٌ جمع بين الإنسيِّ والوحشي، عاطل يرفل في لباس موشي، ثنوي يغشى النار ولا يخشى العار، مَوتورٌ نشر أذنيه لدرك الثأر، مُوتِر أخذ في الركوع وهو قائم، خميص البطن يبتلعُ ذراعًا وهو صائم، مجذوب بلغ قاب قوسين في الارتياض، متقشِّف أبلى طِمْرَيه في التذلُّل والانخفاض، منقبض جمع للانزواء أطرافه، مرابط يهز عند اللقاء أعطافه، متحرِّج يعضُّ على ناجذ التصبُّر في الشدة والرخاء، من صاحبه طَرْفة عين مشى على الهواء، فقَلَّ في نونٍ التَقَمَ مُرسَلًا فنبذه بالعراء، راكعٌ أَوَّاهٌ يشكو وِزْرَه، الذي أنقضَ ظَهرَه، عطوف على من مدَّ إليه يد الاجتذاب، قَؤولٌ ولو أن السيف جواب، مجرم أُلْزِم طائرَه في عنقه، وعُرِض على النار لسوء خُلُقه، وسوف يؤخذ بالنواصي والأقدام، ويجزى بما تحمَّله من الأوزار والحِطام، ويستنطق جلوده قسرًا وقهرًا، فينطق بما يخفيه جهرًا، وأنَّى له التناوش من مكان بعيد، وقد تمكن من حزِّ رقبته من هو أقرب إليه من حبل الوريد؟

ناحل ألصق بطنه بظهره، حتى بدت للناظرين ذواتُ صدره، وغارت كِلاهُ في خصره، لاستيلاء قوته الدافعة الهالكة، على قوتيه الجاذبة والماسكة، وانقطاع حبل وريده عن شريانه، وتجافي جنبه عن مُصرانه، ثعبان إذا أُنْشِطَ من عِقاله، أمن الناس عاديةَ أفعاله، جموح يعثر بالراكب، معرقب تحمله المناكب، ضرس شرش يتمطى ويتثاءب لتمدد أعصابه، متجرِّد يستظهر ويدلُّ بأولاده وأعقابه، ظرفٌ مظروفه يخالف الظرف، هذا لا يقبل العدل وذا لا يقبل الصرف، هيفاء متنها مجدول، وفرعها مفتول، خصرها دقيق، وقَدُّها رشيق، قوية العلياء، محطوطة المطاء، ناشرة أكبادها قب الكلأ، يضمها صاحبها إلى الصدر، فتتنكب عنه فتزورُّ، مِزواج مطلاق، يودِّع صاحبه عند الاعتناق، مكلَّف خُلِق في كَبَد، طموح لا يذعن إلا لمن عنده مدد، مقبوض يقارب السريع، ويفارقه عند التقطيع، صحيح معلول، ممدود في العَرض مقصور في الطول، قرناء أحصنت فرجها، وأبعدت عن نفسها زوجها، محبب ذو أَناةٍ تعود وأراد البنات، غيور إذا لاقى بناتَه الأتراب، زوَّى حاجبه للإضراب، فيمسكه على هُونٍ أم يدسُّه في التراب، عِرق من عروق الشريان، إذا جسَّته البَنان، ينبض وله ضربان، قوسه حين دائرة السوء يحيط بالأعداء، متعصب ينشط للمنازعة بعد الإغراء، دهري أتى عليه قرن بعد قرن فانحنى مطاه، لا ينتصب إلا وعلى اليد متَّكاه، ويُنشِد إذا فتح فاه:

سَلَبتِ عِظامِي لَحْمَها وتَركْتِها ... مُجَرَّدةً تَحظَى لديْكِ وتَحضرُ
خُذِي بِيَدِي ثُمَّ اكْشِفِي الثَّوبَ تَنْظُرِي ... ضَنَى جَسَدِي لَكِنَّني أتَستَّرُ

عظاميٌّ إذا انتصب، عصابي إذا انتصب، مكاشح أُولِع بتضريب غيره، وربما رد كيده في نحره، منجذب يظهر الحنوء، ويضمر السوء، من عصبةٍ هي بالقوة تنوء، ميالة الأعطاف تسند العود إلى صدرها، وتمكِّنه بين سحرها ونحرها، وتُدنِي من الأسماع أوتارها، فيضربها فتغنِّي فتفشي أسرارها، قرنان يسمح بأزواجه على البُعداء، ويقذف بنات صُلبه بالنكداء، غليظ الكبد يجفو أفلاذ كبده، ويشمئزُّ من حمل أعباء ولده، فينفيه عن حجره ثم يحن على أثره، فقيل له: يا هذا، أسوقًا وشوقًا أجمعًا:

حَنَنتَ إلى رَيَّا ونَفسُكَ باعَدَت ... مَزارَكَ مِن رَيَّا وسعياكما مَعَا
فَما حَسَنٌ أنْ تأتِيَ الأمْرَ طائِعًا ... وَتَجزَعَ أنَّ داعِي الصَّبابةِ أَسْمَعا
وأَذكُرُ أيامَ الحِمَى ثُمَّ أنْثَنِي ... عَلى كَبِدِي مِن خَشيةٍ أنْ تصدعا

ساحر مشجَّر النسب، يطاوع من مدَّ إليه بسبب، غَدِقٌ يُثمِر الشَّوك دون الرُّطَب، منحني الظهر حمله الحطب، وثيقة جامعة لأسباب اللزوم والأحكام، عريَّة عن النواقص مطوية على النفوذ والانبرام، يتشبَّث به عند الخطام، متمرِّد كلما قِيدَ إلى الاستسلام بأسبابه، نَكَصَ وارتدَّ على أعقابه، أمين غير مأمون على الودائع، وكلُّ ما استودَعْتَه فهو ضائع، ظلومٌ يقبل الأمانة لجهله، ويؤدي ما قبله إلى غير أهله، نافذُ الأمر ليس بعادل، ثاني عِطفِه ليجادل، مكبود يُعالَج بالكيِّ، مطالب يدافع باللَّي، مسدد غير سديد، جمع بين المد والتشديد، قاتلٌ له في سهم الفرائض نصيب، يأخذ ما يأخذ بالتعصيب، معشعش أفراخ العُقاب، صرَّت عليه رجل الغراب، متجلِّد لا يتضعضع لريب الدهر، ولو رُمِيَ بقاصمة الظهر، يساهمني في مكابدة الشدائد، ويسعد في التحنُّن على الأولاد والولائد:

لَنَا كُلَّ يَومٍ رَنَّةٌ خَلفَ ذَاهِبٍ ومُستَهلَكٍ بَينَ النَّوى والنَّوائِبِ
وقَلعةُ إخوانٍ كأنَّا وراءَهُمُ نُرامِقُ أعجازَ النُّجومِ الغَوارِبِ

منحني الظهر يتوكَّأ على العصى، فيلقيها فإذا هي حيَّةٌ تسعى، مجاهد يزجي دهره بين شدة وراحة، وكدٍّ واستراحة، ولِين ووقاحة، وقبض وسماحة، وهو بين وليٍّ ظاهر، وعدوٍّ مجاهر، جذوب يميل إلى من يجذب بضبعه، وينازع من خالفه بطبعه، وإن نحت من نبعه، متعتب إذا أتاه ابن السبيل فاغرًا فاه، أطعمه من عنده ثم ضرب قفاه، وأبعده ونفاه، جانية مختضبة، سليطة دريَّة، كاسية عارية، كأنها أفعى جارية، رقيق فيه شِدَّة، بليد فيه حدَّة، فاتكٌ تأبَّط شرًّا، ملاعب الأسنَّة يقتل صبرًا، ملتف مخلف، وهارب لا يُمسَك، سخيٌّ بما يملك، كزُّ اليدين بذول، كأنما عناه من يقول:

يُعطي ويمنع لا بخلًا ولا كرمًا

محاكم يعاضد ذا اليدين على صاحب الرقبة، مسترسل لا يبالي باقتحام العَقَبة، حاجب غمزات ألحاظه كالعين تُدخل الرجل القبر، مبذر يده مغلولة، إلى عُنُقه للحَجْر كوماء معقولة، هوجاء مغلولة، حاجب مقرون، لا يوجد مثله في القرون، كالحيَّة الرقشاء مسها ليِّن، وخطبها هيِّن، نائم العين بصره حديد، كالجمل الأنِف ينقاد إذا قِيد، شاحب يَحقَوقِف، سابق لا يستوقف، بطل شد للموت حيازيمه، وشحذ للقاء العدو العزيمة، طائفة تنبو عن سرعة الأصحاب، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

ومن آخر رسالة القوس للشيخ كمال الدين الأصفهاني شيخنا زين الدين بن العجمي محاجيًا في لامة:

يـــا سَـــيِّدَ الـــحُجـــاة ســـِرُّ المـحــاجـاة يُــكشَـــف
مـــا مـــثـــل قـــول المـــحـــاجـــي لـــلـــنَّـــهـــي والأمـــر بـــالـــكَـــف؟

ومن إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر نثرًا: ومن الجواشن حسنة التسامي والتسامت، لا يُرى في حلق سمائها تفاوت، قد رُفِع بعضها فوق بعض درجات، وبنيت أسوار تحفظ المهجات، قد زينت سماؤها بزِينةٍ الكواكب، وفاق غمامها المتراكم وراق موجها المتراكب، كم أحسنت دفاع البؤس عن النفوس عدة وقوع، وكم حنَّت حين حُنِيَت أضالعها على الضلوع، كم دخلت جنة جنتها بسلام، وكم بدت كأنَّها طَلَعٌ نضيد ولا عجب فإنها ذواتُ الأكمام.

كتب إليَّ الجناب المجدي في ما ينقش على طَبَر:

لَإنْ لحـت طورًا كـالـهِلال شـــكـالـةً فَلِي مِن غُبارِ النَّقعِ يا صـــاحِبي سَـــما
وإنْ لحت مثل البرق في ســـاعةِ الوَغى فـعمَّـا قـلـيـلٍ بَـعـدَه تـمـطـر الـدِّمـا

وله فيه:

ألَا انظرْ إلى شَـــكلي وإتْقانِ صـــنعَتِي وروح بَـديـع الـحُســـنِ عنِّـي مـخـبِّـرَا
طلـعـتُ هِلالًا فـي سَـــمـاء النَّقـع نَيِّرًا بِتَقصـــيِرِ أعمـارِ الكمـاةِ مُبَشِّـــرَا

الباب الحادي والأربعون

في الكُتُب وجَمعِها وفَضلِ اتِّخاذها ونَوعِها

قال ابن الخشاب ملغِّزًا فيها:

وَذِي أَوجُهٍ لـكـنَّهُ غَيـرُ بـائـحٍ ... بِســِرٍّ وَذُو الوجْهَينِ للسـِّرِّ يُظهِرُ

تُنـاجِيـكَ بـالأسـرارِ أسْـرارُ وَجهِهِ ... فَتَسـمَعُهـا مـا دُمـتَ بـالعَينِ تَنظُرُ

وقال أبو زيد الدبوسي:

إذا مـا خَلا الـنـاسُ فـي دُورِهِم ... بِـزَهـرِ الـنَّـدامَـى وعِـزِّ الصـِّحـاب

وأكْلِ الـطَّعـامِ وشُـربِ المُدام ... وتَـمَّ الســُّرورُ بـخُـودٍ كِـعـاب

خَلَوتُ وصَـحـبِي كُتـبَ الـعُلـومِ ... فَـكـانَ الأنـيـسَ لـقَـلْـبِـي كِـتـاب

ودَرسُ الـعُلـومِ شَـرابُ الـعُقـولِ ... فَـطُـوفُـوا عـلـيَّ بـذاكَ الشـَّراب

ومَن كـانَ فـي دَهـرِهِ جـامِعًا ... سـِوى العِلـمِ يَجمَـعُـهُ لـلـذَّهـاب

أبو النصر الفارابي:

لَمَّا رأيـتُ الـزَّمـان نـكسًـا ... ولـيـسَ فـي الصـُّحـبـةِ انـتـفـاعُ

كُلُّ رَئـيـسٍ بِهِ مَلالٌ ... وكُـلُّ رَأسٍ بـه صـُـداعُ

لَزِمـتُ بَيـتِي وصُـنـتُ عِرضًـا ... بـهِ مِـنَ الـعِـزة اقْـتِـنـاعُ

أشـــــرَبُ ممَّا اقْتَنَيـــتُ راحًا   لَـهـا عـلـى راحَـتِـي شـــُـعـاعُ
لـــي مِن قَوارِيـــرِهـــا نَدامـــى   ومِـــن قَـــراقِـــيـــرِهـــا ســـَـمـاعُ
وأجْتَنِي مِن حَديـــثِ قـــومٍ   قَـد أقْـفَـرتْ مِـنـهـمُ الـبِـقـاعُ

القاضي نصر الدين بن شافع:

وَمـا شَـــغَفِي بـالـكُتـبِ إلَّا لأنَّهـا   تُســـامِرُنِي مِن غَيرِ عِيٍّ ولا ضـَجَر
وأحْسَـــنُ مِن ذا أنَّهـا في صَـــحـابَتِي   تُـخـفِّـفُ تَـكـلِـيـفِـي وتَـقـنَـعُ بـالـنَّظَر

ابن نباتة:

للهِ مَجـــــمُوعٌ لَهُ رَونَقٌ   كَـرَونَـقِ الـحَـبَّـاتِ فِـي عِـقْـدِهـا
كـادَتْ مَجـامِيـعُ الـوَرَى عِنـدَه   تَـمُـوتُ لِـلـهَـيـبـةِ فـي جِـلـدِهـا

قال الجاحظ: الكتاب وعاء مُلِئ علمًا، وحُشِي ظَرفًا، وإناء شُحِن مُزاحًا وجِدًّا، إنْ شئتَ كان أعيى من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت ضحكتَ من نوادره، وإن شئت أشْجَتكَ مواعظه. والكتاب نِعمَ الظهرُ والعِدَّة، والكنزُ والعقدة، ونعم الذخر والعمدة، ونعم النزهة والنشرة، ونعم الشغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين في الرحيل، ونعم الوزير في النزيل، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملُّكَ، والمستَمِيحُ الذي سماحته لا تستزيدك، وهو يعطيك بالليل طاعته وبالنهار، ويفيدك في السفر كفائدته في الحضر.

ثم قال: فمتى رأيتَ بُستانًا يُحمَل في رُدْن، وروضةً تُقَلُّ في حِجر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء، ومَن لك بواعظ مُلهٍ وبزاجر مُغرٍ، وبِناسكٍ فاتك وبساكت ناطق وحارٍّ بارد، ومن لك بطبيب أعرابي، وبرومي هندي؟

قال: وسمعت حسن اللؤلؤي يقول: غَبَرتُ أربعين عامًا ولا بِتُّ ولا اتكأت إلَّا والكتاب موضوع على صدري.

وكان يقال: إنفاقُ الفضَّة على كتب الآداب يخلِّف عليك ذهاب الألباب.

وقرأ أبو الحسن بن طباطبا في بعض الكتب: الكتب حصون العقلاء، إليها يلجئون، وبساتينهم فيها يتنزهون.

وقال بديع الزمان الهمذاني: ما رأيت جارًا أبرَّ، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلِّمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاءةً، ولا أقلَّ خيانة، ولا أزهد في مالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، مِن كتاب.

وقال الزمخشري: ما رأيت قرينًا أحسن موافاةً، ولا أعجل مكافأة، ولا أخصَّ معرفةً، ولا أخفَّ مؤنة، ولا أطول عمرًا، ولا أجمع أمرًا، ولا أطيب ثمرًا، ولا أقرب مُجتنًى، من كتاب.

وكتب ابن نباتة إلى بعض الأجلَّاء يستعيد كتابًا في عاريته: ويسأل إرسال الكتاب الذي أشرقت بمولانا حروفه، وأينعت في الأوراق قطوفه، وأصبح لفظه الباسم، كما قال العباس:

يَكـونُ أُجـاجًـا دُونَكُم فـإذا انْتَهـى إِلَيكُمُ يَصـيرِ المِلحُ مِن وِرده عَـذبـا

وقد عزم المملوك على السفر حيث يُجلى صدأ الغياهب، ويتسلَّم الغربُ وديعة الشرق من دُرر الكواكب، ويسحب ذيل الفجر المجرور، ويتلو لسانُه على الأفق سورة النور، والله تعالى الخليفة على مجد مولانا الغريب، وفضله القريب وشخصه الذي لولاه في هذا البلد لم يلف بها غريب.

وكتب لشخص أهدى إليه كتاب فضائل الأعمال: يقبِّل الباسطة، لا زالت بادية الأجمال، وافية الكرم على ما في الآمال، هادية مهدية بما أوَّلته من فضائل الأقوال، وفضائل الأعمال، ويُنهي ورود كتابَيه اللذين ملآ بالبرِّ يديه، والنورِ قلبَه وعينيه، ونعماه نظرًا ومسمعًا، وأرياه القمرين في وقت معًا، فلله مكاتبته التي حيت نسماتها السَّحرية، وغازلت عيون فضائلها السِّحرية، وتضوَّعت حتى أرخصت الغوالي بنفحاتها الشجرية!

تُركَت والحسـن تـأخـذه تَـنـتَـقـي منـه وتَـنـتَـخِب

ولله كتابه الذي جمع بين الأعجاز والأعجاب، وجالس المملوك فكأنه المعنيُّ بقول أبي الطيب:

وَخَيـرُ جَلِيـسٍ فـي الـزمـانِ كِتـابُ

ما أبهج عقوده المتَّسقة، وما أحسن ما يدخل النواظر عدنًا من أبوابه المتفرِّقة، وما أجمع فصوله لحسن وإحسان، وما أطيب أحاديثه عن جنان الخلد إذا طابت الأحاديث عن جنان، لقد أضاء حتى حسبه مشارق الأنوار، وتأمله فإذا عجائب الحسن من نقشه وطرسه في ليل ونهار، وغنَّى فهو للطرف مَغنى، وتلمحُ من فنون أفنانه الجنَّة صورةً ومعنى، فهذه الأسطر المبدعة أشجارها، وهذه الألفاظ

المتنوعة أزهارها، وهذه الثمرات المرتفعة أطيارها، وهذه الطريق المترقرقة بين الظهور أنهارها، وما كان المملوك قبله يحسب أن جنة تُهدى في أوراق، ولا أن حديقة تسير على البعد فتعْرضُ على أحداق، فشكر الله لمولانا هذه المنن الباهرة، ونفع بهداياه التي تجمع للأولياء بين خَيرَي الدنيا والآخرة.

استعار الصنعاني كتابًا سفينةً من صاحبٍ له فكتب إليه لما ردها على معيرها:

رأيتُ السَّفينةَ مَشحونةً عُلومًا وصاحبها الحِبْر بَحرَا
وكان مِن الرَّأيِ رَدِّي إليه سَفِينَتَهُ فَهي بالبَحرِ أحرَى

وعلى ذكر المجموع فما أحسن قول الحكيم موفَّق الدين المعروف بالورن:

للهِ أيَّامُنا والشَّملُ مُنْتَظِمٌ نَظمًا بِهِ خاطرُ التَّفريقِ ما شَعَرَا
وَا لَهفَ نَفسِي على عَيشٍ ظَفِرْتُ بِهِ قَطَعتُ مَجموعَهُ المُختارَ مُختَصَرَا

ابن الوردي في شخصٍ أخذ له كتابًا ولم يرده:

إذا لَم يَرُدَّ فُلانُ الكِتابَ ودافَعَنِي عَنهُ بالباطِلِ
نَدَبتُ لَهُ قاضيًا فاضلًا وخلَّصتُ حَقِّيَ بالفاضِلِ

ابن نباتة مع كتابٍ أهداه:

أَرسَلتهُ نِعمَ الجَلِيسُ إذا تَغيَّرتِ البَشَرْ
يَبقَى على سُنَنِ الوَفا أبَدًا ويَقنَعُ بالنَّظَرْ

وخير جليس في الأنام كتاب

هو النديم الكريم، والخِدن الأمين البريء من الذنوب، السليم من العيوب، الذي إنْ أدنيته لم يباعدك، وإن أقصيته لم يعاودك، وإن واصلته حَمِدته، وإن هاجرته أمنته، وإن استنطقته أسمعك، وإن استكفيته أقنعك، وإن استكففته كفَّ، وإن استثقلته خفَّ، وإن دعوته لبَّاك، وإن استعفيته أعفاك، لا يعصي لك أمرًا، ولا يحمِّلك إصرًا، عرضك معه وافر، وهو لسرِّك غير ناشر، أنيق المنظر، طيِّب المخبر، جميل المشاهد، كثير المحامد، يملأ العيون قُرَّةً، والنفوس مسرَّة، يُضحك الحزين اللَّهِف، ويُلهي الغضبان الأسِف، يجتلب السرور، ويشرح الصدور، ويطرد الهموم والأحزان، وينفي بواعث الأشجان،

مجاورته أحسن مجاورة، ومسامرته أحلى مسامرة، ومجالسته أنفع مجالسة، ومؤانسته أمتع مؤانسة، فيه مَدعاة إلى الطرب، ومسلاة من الوَصَب، وتَعِلَّة لذي الغرام، وتلهية لقلب المُستهام، وأُنسٌ للمستوحش، ورَيٌّ للمتعطِّش، وعمارة للمجالس، وحلية للمؤانس، تُلقي القلوب محبَّتها عليه، وتميل النفوس بكلِّيَّتها إليه، ليس بينه وبين حبَّات القلوب حجاب، ولا يغلق بينه وبين سُوَيداواتِها باب.

كتب شيخنا زين الدين بن العجمي في مناسك قاضي القُضاة عز الدين بن جماعة:

أَلِفتَ يا أزكى الورى مناسِكًا   فُقْتَ بِها حَقِيقةً مَن قَبلَكا
قد وضَّحت لكلِّ سارٍ بهجة   ولم تدع للناقدين مدركا
وقد تَلَتْ أحكامُها على الوَرى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾

الدِّيوان

الأصل الذي يُرجَع إليه ويُعمَل بما فيه.

قال ابن عباس: إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشِّعر، فإن الشعر ديوان العرب. أي: أصله.

ويقال: دوِّن هذا، أي: أثبته واجعله أصلًا.

وزعم بعضهم أن أصله أعجمي، وذكره سِيبَوَيْه في كتابه وقال: إنَّ أصله: دِوَّان.

الدَّفْتَر

عربيٌّ، لا يُعلم له اشتقاق. وحُكِي: دِفتر (بالكسر). ويقال أيضًا: تفتر.

وأما الكُرَّاسة

فمعناها: الكتب المضمومة بعضها إلى بعض، والورق الذي أُلصِق بعضه إلى بعض. مشتق من قولهم: رسم مُكرَس، إذا هالت الريح التراب به. كما قال العجاج:

يا صاح، هل تعرف رَسمًا مُكْرَسًا   قال: نَعَم، أعرِفُهُ وأَبلَسا

أبلسَ: تحير ولم تكن له حجة.

وقال الخليل بن أحمد: الكُرَّاسة من الكتب، مأخوذة من أكراس الغنم، وهو أن تبول في الموضع الذي له شيئًا بعد شيء فيقلبه.

شمس الدين بن العفيف كان عنده مجموع فطلبه منه بعض الرؤساء فأرسل إليه وكتب معه:

يا أيُّها الصَّدرُ الَّذي وَجْهُ العُلا ... مِنهُ يُزانُ بِمَنظَرٍ مَطْبوعِ
لا تَعتَقِدْ قَلبِي بِحُبِّكَ وَحدَهُ ... ها قد بَعثتُ لِسَيِّدي مَجمُوعِي

اجتمع لسيف الدولة بن حمدان ما لم يجتمع لغيره من الملوك: كان خطيبه ابن نباتة الفارقي، ومعلمه ابن خالوَيه، ومطربه الفارابي، وطبَّاخه كشاجم، وخزَّان كتبه الخالديَّان والصنوبري، ومدَّاحه المتنبي والسلامي، والوأواء الدمشقي، والببغاء والنامي، وابن نباتة السعدي، إلى غير ذلك.

قال مجير الدين بن تميم فيما يُكتَب على خزانة كتب:

انْظُرْ إليَّ تَرَى في صُورَتِي عَجَبًا ... شَخصًا حَوى العِلْمَ في صَدرٍ مِنَ الخَشَبِ
وَفِيهِ مِن كُلِّ فَنٍّ غَيرَ أنَّ لهُ ... وَجْدًا يَميلُ بِهِ شَوقًا إلى الأَدَبِ

وله:

يا حُسنَها نُسخَةً يَلهُو مُطالِعُها ... بها لِما قَد حَوَت مِن رائِقِ الكَلِمِ
صَحَّتْ وقَد لَطُفَتْ في حَجْمِها فَحَكَتْ ... لُطفَ النَّسيمِ وحاشاها مِنَ السَّقَمِ

ولبعضهم:

إنَّ مجموعي البديع لَحِلِيٌّ ... قد تَنَقَّيتُ دُرَّه المُختارا
وإذا لَم أُعِره ليسَ عجيب ... شغل الحلي أهله أنْ يُعارا

قلتُ: ولا بأس بإيراد نبذة من التورية بأسماء الكتب، فمن ذلك قول بعضهم:

يا سائلي مِن بَعدِهم عَن حالتِي ... تَركُ الجَوابِ جَوابُ تِلكَ المَسأَلَةْ
حالي إذا حَدَّثتُ لَا لُمَعًا ولا ... جُمَلًا لإيضاحي لها مِن تكملةْ
عبدٌ حَوى بَدرَ الفَصيحِ مُبلَّدًا ... فاتركْ مَفصَّلَةً ودُونَكَ مُجْمَلَةْ
القلبُ ليسَ منَ الصِّحاح فيُرتَجَى ... إصلاحُهُ والعَينُ سُحبٌ مُثقلَةْ

ومنه للشيخ أبي عبد الله بن جابر المغربي نزيل حلب:

عَرَائــسُ مَدحِي كَم أتـيَن لِغَيـرِهِ ... فَلَـمَّـا رَأتْـهُ قُـلـنَ: هـذا مـن الأكْـفـا

نَوادِرُ آدابِي ذَخـيـرةُ مـاجِدٍ ... شـمـائـلُ كَم فِيهنَّ مِن نُكَـتٍ تُلفَى

مَطـالِعُها هُنَّ المَشـارِقُ لـلـعُلا ... قَلائِـدُ قـد راقَـت جَواهِرُها رصـفـا

رسـائـل مَدحِي فِيكَ واضـحـةٌ ولِي ... مَسـالـكُ تَهـذيـبٍ لِتنبيـهِ مَن أغفَى

فيا مُنتَهى سُـؤلِي ومَحصـولَ غـايَتي ... لَأنتَ امرؤٌ من حاصـل الوجد مُستَصفَى

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتابًا، وهي: العرائس للثعالبي، والنوادر لأبي علي القالي وغيره، والذخيرة لابن بسام وغيره، والشمائل للترمذي، والنكت لعبد الحق الصقلِّي وغيره، والمطالع لابن قرقول وغيره، والمشارق للقاضي عياض ولغيره، والقلائد لابن خاقان وغيره، ورصف المباني في حروف المعاني للأستاذ ابن عبد النور، كتاب لم يصنف مثله في فنه، والرسالة لابن أبي زيد ولغيره، والواضحة لابن حبيب، والمسالك للبكري وغيره، والجواهر لابن شاس وغيره، والتهذيب في اختصار المدونة وغيره، والتنبيه لأبي إسحاق ولغيره، ومنتهى السؤال لابن الحاجب، والمحصول للإمام، والغاية للنووي ولغيره، والحاصل مختصر المحصول والمستصفى للغزَّالي ولغيره؛ تمَّ ذلك.

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب:

ولَمَّا رَأَتْ عَزمِي حَثيثًـا على السُّـرَى ... وقـد رابَهـا صَـبرِي عَلَى مَوقِفِ البَينِ

أَتَتْ بِصِـحـاحِ الـجَوهَرِيِّ عُيـونُهـا ... فغـازلَـتْ مِن دَمعِي بِمُختَصـر العَينِ

ولما أنشدتهما لشيخنا العلامة، أقضى القضاة، بدر الدين بن الدماميني، أسبغ الله ظلاله، أنشدني ولم يسمِّ قائله:

فـي نصـف الاسـتـذكـار أعطيتـه ... مـخـتـصـر الـعـين فـأرضـاهُ

قلت: هما لابن شعيب المغربي، والأول منهما:

وبـائـع لـلـكـتـب يـبـتـاعُهـا ... بـأَرخَـصِ السـِّعـرِ وأغـلاهُ

مأمون بن مأمون خوارزم سُمِعَ يقول: هَمَّني كتابٌ أنظر فيه، وحبيب أنظر إليه، وكريم أنظر له.

نادرة

مر العلم ابن الصاحب بن سُكَّرة المعروف بالأجوبة على بعض الأكابر من المصريين ومعه كتاب مجلَّد، فقال له شيخ العلم: أَرِنِي أنظُرْ في كتابك هذا. فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

استعار الصدر، تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير الكاتب، مجموعًا من مجاهد الدين بن شقير وأطال مطله به، فاتفق أن حضر يومًا إلى ديوان المكاتبات فقال ابن الأثير: كيف أنت يا مجاهد الدين؟ والله قلبي عندك وخاطري عليك! فقال: وأنا والله، مجموعي عندك! فطرب لهما الحاضرون.

قال الفاضل: فإن كل كراسة لا يُخرَم أنفها ولا يكون الجلد دفَّها عُرضةٌ للضَّياع، وما مكانها من الخزانة إلا مسترق الوداع.

الصفدي:

مَلَكتُ كِتابًا أَخلَقَ الدَّهرُ جِلدَهُ   وما أَحَدٌ في دَهرنا بِمُخلَّدِ
إذا نظرتْ كُتبِي الجَديدةُ جِلدَهُ   يَقولونَ: لا تَهلِكْ أسًى وتَجَلَّدِ

كتب سيدي وأخي، القاضي شهاب الدين بن حجر — سامحه الله — على جزأَي تذكرتي التي سمَّيتها ثمرات الأوراق:

نَظَرتُ لِما سَطَّرتَهُ من مَجامِعٍ   لَها الفَضلُ إذ رَاقَت مَحاسِنُها تُعزَى
وقدْ لَذَّ مِنها ما كَتَبتُ بِخاطِرِي   ولَم يَكفِ طَرفي مِنهُ جُزءٌ ولا أَجْزَا

ابن نباتة:

رُبَّ مَليحٍ رأى كِتابًا   فقال: ما ذا المليح عندك
فقلت: في الحال يا كتابي   غَيِّبْ وإلَّا سَلَختُ جِلدَك

وجدت على ظهر كتابٍ هذا البيت:

وما الكتب إلَّا كالضُّيوفِ وحَقُّها   بأنْ تُتَلَقَّى بالقَبولِ وأنْ تُقرَا

ابن الوردي، وكتبها على كتاب الشمائل للترمذي مضمِّنًا:

يا أشرفَ مُرسَلٍ كَريمٍ   ما ألطفَ هذهِ الشَّمائل

مَن يَســـــتَمِعِ لَفـــظَهـــا تَراه   كـالـغُصـــنِ مَـعَ الـنَّسـيـمِ مَـائِل

الباب الثاني والأربعون

في الخَيلِ والدَّوابِّ ونَفعِها

قيل: أول من اتخذ الخيل وركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وكان داود وسليمان — عليهما السلام — يحبَّان الخيل، وورث سليمان عن أبيه ألف فرس.

وكان للنبي ﷺ فرسٌ يُقال له: السَّكْب.

نادرة

كانت مغنية عند رجل، فلما أرادت الانصراف قال: أسرجوا لها الأشهب. فقالت: لا أريده؛ هو يمشي إلى خلف. قال لها: فحوِّلي ذنبه إلى ناحية بيتكم.

القول في طبائع الفَرَس

وإنما بدأت به لأنه قريب من الاعتدال الخالص، وأحسن ذوات الأربع صورةً، وأفضل من سائرها، وأشبهها بالإنسان لما يوجد فيها من الكرم، وشرف النفس، وعلو الهمة. وتزعم العرب أنه كان وحشيًّا، وأول من ذلَّل صَعبه وركبه إسماعيل عليه السلام.

وهو جنسان: عتيق، وهو المسمَّى: فرسًا؛ وهجين، وهو المسمى بِرذَونًا. والفرق بينهما أنَّ عَظمَ البرذون أحسن من عظم الفرس، وعظم الفرس أصلب وأثقل من عظم البرذون، والبرذون أحمل من الفرس، والفرس أسرع من البرذون، والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذون بمنزلة الشاة، ولكل واحد منهما نَفْس تليق به، وآلات مواتية له.

وفي طبع الفرس الزُّهُوُّ، والخُيَلَاءُ، والعُجب، والسرور بنفسه، والمخاطبة لصاحبه. ومن أخلاقه الدالَّة على كرمه شرف نفسه، ومن شرفها أنه لا يأكل بقية عَلِيق غيره.

وعلوُّ همَّته كما حكى المؤرخون أنَّ أشقر مروان كان سائسه لا يدخل عليه إلا بإذن، حتى يحرك له المِخلاة، فإن حمحم دخل، وإن دخل ولم يحمحم شدَّ عليه، وناهيك بهذا الخلق في علو الهمة.

والأنثى من الخيل ذاتُ شَبَقٍ شديد، ولشدة شبقها تُطِيع الفحل من غير نوعها. ويقال: إنه متى اشتدَّ شبقها وقص من عرفها سكن عنها.

والذكر يشتد به الشبق ويزيد حتى يُؤْثِرَ أن يُؤتى لفرط شهوته وقصور آلته عن الوفاء بتسكين ما يجد.

وربما اقتتل الفحلان بسبب الأنثى، حتى تكون لمن يَغلب منهما.

ويقال: إن الإناث تمتلئ في أوان السِّفاد ريحًا، وإذا أصابتها هذه الآفة رَكَضَ بها رَكْضًا شديدًا متتابعًا، ولا يؤخذ بها إلى الشرق ولا إلى الغرب، بل إلى الشمال والجنوب، حتى يخرج من أرحامها بشيء كما يخرج عند ولادتها، وهي في زمان السفاد تُطأطِئ برؤوسها، وتحرِّك أذنابها، ويسيل مِن قُبُلِها شيء يشبه المَنِيَّ، غير أنه رقيق.

وإذا تودَّقت الرَّمَكة فأفرطت، وكان بها هُزال أو ضعف من علة، ولم يكن أن يُنزَى عليها لتلك العلة، أُنزِيَ عليها بغل لأنه لا يلقحها، وهو يبلغ أقصى شقائها وغاية شهوتها بالذي معه من الطول والغِلَظ، فيسكن ذلك عنها.

والذكر يكون مع ثلاث إناث وأكثر، وإذا دنا آخر من الأنثى التي اختارها قاتله وطرده.

والطمث يعرض للإناث لكنه أقل من طمث النساء، والذكر ينزو إذا تمَّت له سنتان، وكذلك الإناث.

والإناث تحمل أحد عشر شهرًا، وتضع في الثاني عشر، وهي تضع ولدًا واحدًا، وربما وضعت في النادر اثنين.

والذكر ينزو إلى تمام أربعين سنة، وربما عُمِّر إلى تسعين سنة، والأنثى تأنف أن ينزو الحمار عليها، فإذا أُرِيدَ ذلك منها أُخِذَت بعُرفها فتذلُّ وتستكين، وكذلك الفحل يأنف أن ينزو على أخته وعلى أمه.

ولقد حُكِيَ أنه أريد أن يُحمل على رمكة ولد لها، يريدون بذلك العِتق، فأنف، فلما سُتِرَت بثوب نزا عليها، فلما رُفِعَ الثوب ورآها فرَّ حتى ألقى نفسه في بعض الأودية فهلك.

والخيل قد ترى الأحلام وتحتلم كبني آدم، وذلك لفرط الشهوة فيها.

ومتى حبلت الأنثى أو هلكت، وكان لها فِلْوٌ أرضعته الإناث وربَّته، وإذا لم يكن فيها ما يرضع عطف عليه العواقرُ وتعاهدنه، ولكنه يهلِك إذ ليس فيها لبن، وربما ضلَّ الفلو عن أمه فرضع من غيرها.

ويعتري الفرس داء شبيه بالكَلَب، وعلامته استرخاء أذنيه إلى ناحية عُرفه، وامتناعه من العلف، وليس لهذا الداء علاج إلا السكين.

وفي طبع الفرس أنه لا يشرب الماء إلا كدرًا، حتى إنه يَرِدُ الماء وهو صافٍ فيضرب بيده حتى يكدِّرَه ويبين عكره. وربما ورد الماء الصافي وهو عطشان فيرى فيه خيالًا له ولغيره، فيتحاماه ويأباه، وذلك لفزعه مما يراه.

ويوصف بحدَّة البصر، حتى إن بعض المغالين فيه يقول: لو أجري فرس من شوط بعيد في يوم ضبابٍ واعترضت بين يديه شعرةٌ لتوقف عندها ولم يتعهدها.

وفي طبعه أنه إذا وطئ على أثر الذئب خدرت قوائمه حتى لا يكاد يتحرَّك، وخرج الدخان من جلده، وإذا وطئته الحاملُ منها أزلقت.

فصل

والعلامات الجامعة للنجابة في الفرس ما ذكره أيوب بن القِرِّيَّة وقد سأله الحجاج عن صفة الجواد من الخيل، فقال: القصير الثلاثِ، الصافي الثلاث، الطويل الثلاث، الرحيب الثلاث. فقال: صفهن. فقال: أما الثلاث الصافية: فالعينان، والأديم، والحوافر؛ وأما الثلاث القصار: فالعَسيب، والساق، والظهر؛ وأما الثلاث الطوال: فالأنف، والعنق، والذراع؛ وأما الثلاث الرَّحبة: فالجوف، والمنخر، والجبهة.

ومما قيل فيه قول عبد الجبار بن حَمديس الصقلِّي:

وَمُجَرِّر فـي الأرضِ ذَيـلَ عَسِـيـبِهِ ... حَمَـلَ الزَّبَرجَـدَ مِنـهُ جِسـمُ عَقِيقِ
يَجـرِي فَلَمـعُ الـبَرقِ فـي آثـارِهِ ... مِـن كَـثـرةِ الـكَـبـواتِ غَـيـرُ مُـفِـيـق
وَيَكـادُ يَخـرج سُـرعـةً مِن ظِلِّهِ ... لَـو كـانَ يَـرغَـبُ فـي فِـراقِ رَفِـيـق

القول في طبائع البغل

قال أصحاب الكلام: البغل حيوان مركب من الفرس والحمار، ومتولِّد من فساد مَنِيِّهما، ولما كان ممتزجًا بينهما صار له صلابة الحمار وعِظَمُ آلاتِ الخيل، وكذا شحيجه مولد بين نهيق الحمار وصهيل الخيل.

وقال الجاحظ: البغل يخرج بين حيوانَين يلدان مثلهما، ويعيش نتاجهما، ويبقى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر، وخرج أطول عمرًا من أبوَيه، وأصبر على الأفعال من طرفيه، كابن المُذْكِر من النساء والمؤنث من الرجال، فإنه يكون نتاجهما أخبث نتاجًا من البغل، وأفسد أعراقًا من السبع، وأكثر عيوبًا من العسبار. وشر الطباع ما تجاذبته الأعراق المتضادَّة، والأخلاق المتعادية، والعناصر المتباعدة.

ويقال: إن أول من أنتجها قارون. وقيل: أفريدون. ومن أخلاقه الأُلف لكل دابة، ويذكر بالهداية في كل طريقٍ يسلكه مرة واحدة، ويقول أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إنَّ أبوال إناث الأبغال تنقية لأجسادنا، كما تنقَّى النساء بدم الطمث.

مخايل النجابة فيه

قال بعضهم: إذا اشتريت بغلة فاشترها طويلة العنق تجده في نجابتها، مشرفة الهادي تجده في طباعها، مجفرة الجوف تجده في صدرها.

والأحسن في مدحها قول عبد الرحمن بن أبي ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جوابًا لصفوان بن عمرو بن الأهتم وقد أنكر عليه ركوب البغل، قال: تطأطأت عن خُيَلاء الخيل، وارتفعت عن ذلة العير، وخير الأمور أوسطها.

ويقال: كم في السواحج من أسحج الخدين، شهير الحدين، سومه سوم العتاق، ويومه شهر لذوات الأعناق، راكبه يركب أبدًا وطيًّا، وتحسبه وهو يمر مرَّ السحاب طيًّا، والإناث منها أحمد أثرًا، ولذلك قيل:

عليك بالبغلة دون   فإنها جامعة
مركب قاضٍ وإمام   وعالم وسيد وكهل

وساير عبد الحميد مروانَ بن محمد الجعدي على بغلة فقال له: طالت صحبة هذه الدابة لك. فقال: يا أمير المؤمنين، من بركة الدواب طول صحبتها. فقال: صفها. فقال: همُّها إمامها، وسَوطها زمامها، وما ضُرِبَت قطُّ إلا ظلمًا.

القول في طبائع الحمار الأهلي

قال المتكلمون في طبائع الحيوان: ليس في الحيوان شيء ينزو في غير نوعه فيلقح ويأتي فيه شبهه إلا الحمار، وهو ينزو إذا مضت له ثلاثون شهرًا، ولا يولد له قبل أن يتم له ثلاث سنين ونصف.

قالوا: وهذا النوع صنفان: صنف عاسٌّ حاسٌّ، وهو يصلح لحمل الأثقال؛ والآخر لدنٌ دمثٌ أحرُّ وأيبس من نفس الفرس، فتراه كثير الشغب والحركة، بمنزلة النار المتوقدة التي لا يهدأ إضرامها، فهذا يصلح أن يرفه للركوب في قضاء الأوطار والحاجات. وأجود الحمر المصريةُ، وأهلها يعتنون بتربيتها والقيام عليها لِما يجدونه من الفراهة، وسرعة الحصر والنجابة، ويبالغون في أثمانها بحسب فراهيَّتها حتى بِيع منها في بعض السنين حمارٌ بمائة دينار وعشرة دنانير، كان صاحبه يسمع الأذان بالعشاء أو المغرب بالقاهرة، فيركبه ويسوقه فيلحقها بمصر، وبينهما ثلاثة أميال. ومن عادة الحمار أنه إذا شمَّ رائحة الأسد رمى بنفسه عليه من شدة خوفه منه، يريد بذلك الفرار منه.

قال حبيب بن أوس الطائي في أبيات يخاطب بها عبد الصمد بن المعدل وقد هجاه، حيث يقول:

أَقْدَمْتَ وَيــلَكَ مِن هَجــوِي عَلــى خَطَرٍ كَــالعَيرِ يُقــدِمُ مِن خَوفٍ على الأَســـَدِ

ويوصف بالهداية لأنه لا يَضِلُّ عن طريق سلكه ولو مرة واحدة، ولا يخطئه، فإن ضلَّ راكبه هداه إلى الطريق، وحمله على المَحَجَّة. وربما غاب عن الموضع الذي كان فيه السنينَ العديدة، فإذا مر بالزقاق الذي فيه الموضع دخله. وربما سُرِقَ فتكون معرفته للموضع عونًا لصاحبه على معرفة من سرقه. ويوصف بحدَّة السمع بحيث أنه يُنذِر راكبه بما يتوقَّع خوفه فيحذر منه، وإنْ بَعُدَ مثواه.

وهذا الحيوان يحسُّ بالبرد ويؤذيه أكثر من غيره، ولهذا لا يوجد في بلاد موغلة في الشمال، وبلاد الصقالبة. ويعتريه داء الدماغ كالزكام، يعرض لبرد دماغه ويسيل من منخره بلغم كثير حار، فإنِ

انحطَّ إلى الرئة مات. والعجيب أنه إذا نهق أضرَّ بالكلب حتى يقال: أهون نهيقه يحدث بالكلب مغسًا، فلذلك يطول نباحه.

طريفتان رأيت ألا أتركهما لأنهما أعجوبتان

- **إحداهما:** أني ركبت حمارًا من مصر إلى القاهرة، فلما كنتُ في أثناء الطريق حاد بي عن السكَّة، فجهدت أن أردَّه فلم أُطِقْ، حتى انتهى إلى جدار بستان، فوقف وبال وعاد إلى الطريق، وكذا جرى لي مع حمارَين آخرين.
- **والأخرى:** أنه كان عندنا رجل بمصر يضرب حلقة على حمار قد علَّمه، كان يجمع له عدة مناديل من المتفرجين ويلقيها على ظهره، ويأمره بأن يعطي كلَّ منديل لصاحبه، فيدور في الحلقة ولا يقف إلا على من له في ظهره منديل، فإن أخذه ذهب عنه، وإن أخذ غيره لا يذهب ولو ضربه مائة ضربة، ويأخذ الخاتم من إصبع الرجل ويسأله عن وزنه ويقول له: كم وزن هذا الخاتم؟ فإن كان وزنه درهمًا مشى خطوة واحدة، وإن كان درهمًا ونصفًا مشى خطوة ونصفًا، وإن كان أكثر من ذلك فبحسابه. وبينما هو واقف إذ قال له: الوالي يسخِّر الحمير. فما يتم كلامه إلا وقد ألقى نفسه على الأرض، ونفخ بطنه، وقَطَعَ نَفَسه كأنه ميت منذ زمان، ثم قال له بعد ذلك: ما بقي سُخرة. فينهض قائمًا. ذكر ذلك صاحب المباهج.

ما قيل فيه من الأوصاف

قال أبو العيناء لبعض سماسرة الحمير: اشتر لي حمارًا لا بالطويل اللاحق، ولا بالقصير اللاصق، إن خلا الطريق تدفَّق، وإن كَثُر الزحام ترفق، لا يصادم بي السواري، ولا يدخل بي تحت البواري، إن أكثرت علفه شكر، وإن أقللته صبر، وإن ركبته هام، وإن ركبه غيري نام. فقال له: إنْ مسخ الله بعض قُضاتنا حمارًا أصبتَ حاجتك، وإلَّا فليستْ موجودة.

قال شبيب بن شبة: لقيت خالد بن صفوان على حمارٍ فقلت له: يا صفوان، أين أنت عن الخيل؟ فقال: تلك للطلب والهرب، ولست طالبًا ولا هاربًا. قلت: فأين أنت عن البغال؟ فقال: تلك للأنزال والأثقال، ولست ذا نزل ولا ثقل. قلت: فأين أنت عن البراذين؟ قال: تلك للمعدين والمسرعين، ولست معدًا ولا مسرعًا. قلت: فما تصنع بحمارك؟ قال: أدبُّ عليه دبيبًا، وأقرِّب عليه تقريبًا، وأزور إذا شئت

عليه حبيبًا. ثم لقيته بعد ذلك على فرسٍ فقلت له: يا أبا صفوان، ما فعل الحمار؟ قال بئس الدابةُ، إن أرسلته ولَّى، وإن استوقفته أدلى، قليلُ القوت، كثير الروث، بطيء عن الغارة، سريع إلى الغرارة، لا ينكح به النساء، ولا يوقى به الدماء.

ويروى أن سليمان بن عليٍّ رآه على حمار فقال له: يا أبا صفوان، أين الخيل؟ فقال: الخيل للجَمال، والبغال للأثقال، والإبل للأحمال، والحمير للإمهال.

وقال جرير بن عبد الحميد: لا تركبِ الحمار فإنه إن كان حديدًا أتعب بدنك، وإن كان بليدًا أتعب رجليك.

ومما قيل فيه قول أحمد بن أبي طاهر:

شِيةٌ كأنَّ الشَّمسَ فيها أشرقَتْ ... وأضاءَ فيها البَدرُ عِندَ تَمامِهِ
وكأنَّه مِن تَحتِ راكبِهِ إذا ... ما لاحَ بَرقٌ لاح تَحت غَمامِهِ
ظَهرٌ كَجَريِ الماءِ لين ركوبه ... في حالَتَي إتعابِهِ وجمامِهِ
سَفِهَتْ يَداهُ على الثَّرى فتلاعَبَتْ ... في حَزنِه وسهوله وإكامِهِ
عن حافرٍ كالصَّخرِ إلَّا أنَّه ... أقوى وأَصلَبُ منه في استحكامه
ما الخَيزُرانُ إذا انثَنَت أعطافُهُ ... في لِينِ مَعطِفِهِ ولِينِ قوامِهِ
فكأنَّه بالرِّيح مُنتَقِلٌ وما ... جَري الرِّياح كجَريِهِ ودَوامِهِ
أَخَذَ المحاسنَ آمِنًا مِن عَيبِهِ ... وحَوى الكمالَ مُبَرَّأً مِن ذامِهِ

ولأبي الحسين الجزار يصف حماره بالبلادة والعجز:

هذا حِمارِي في الحَميرِ حِمارٌ ... في كُلِّ خطوةٍ كَبوةٌ وعِثارُ
قنطارُ تِبنٍ في حَشاهُ شَعيرةٌ ... وشعيرةٌ في ظهره قِنطارُ

القول في طبائع الإبل

وهذا النوع ثلاثة أصناف: عرابي، ويماني، وبختي. فاليماني هو النجيب، ومتنزل منها منزلة العتيق من الخيل؛ والعرابي كالبرذون، والبختي كالبغل. ويقال: النجب ضأن الإبل، وهي متولدة من فاسد

منيِّ العرابي فقط، فإن مني النجب منجب، فكأنه حصل له نصف البغل، فأما النجيب فزعم من حكى عن الجاحظ قوله: إن في الإبل ما هو وحشي، وإنه يسكن أرض وبار وهي غير مسكونة، وقالوا: ربما بدأ الجمل في الهياج فيحمله ما يعرض له على أن يأتي أرض عمان، فيضرب في أدنى هجمة من الإبل، فالمهرية من ذلك النتاج. وتسمى الإبل الوحشية الحوس، ويقولون: إنها بقايا إبل عادٍ وثمود ومن أهلكه الله تعالى من العرب العاربة، والمهرية منسوبة إلى مهرة، قبيلة باليمن، وهي لا يعدلها شيءٌ في سرعة عدوها، يعلفونها بسمك يُصاد في بحر عمان، يصاد ويقدَّد. وأما النجب فمنها ما يرهون مثل البراذين، ومنها ما يجمز جمزًا، ويرقل إرقالًا، والجمز في الإبل كالخبب في الخيل.

وحكى أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل: إن أول من ريضت له الإبل على الجمز أم جعفر، زبيدة بنت أبي جعفر المنصور، لمَّا حجت.

وقال الجاحظ: إذا ضربت الفواتح في العراب جاءت بالجوامز والبخت الكريمة، وفي البخت ما له سنامان في ظهره كالسرج، ولبعضها سنامان في عرض ظهرها، أحدهما في ذات اليمين والآخر في ذات الشمال، وتسمى الخُراسانية. وقد يشق عن سنام البعير ويكشط جلده، ثم يجتث من أصله ويعاد على موضعه الجلد، فيلحم عليه، ويؤخذ السنام فيؤكل، كما يفعل بعض الناس ذلك بالكباش إذا عظمت إلياها وعجزت عن النهوض، فيقطعونها.

ويقول أصحاب السَّير لطبائع الحيوان: إنه ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند الهِياج من الإزباد، وسوء الخُلق، وهِجران المرعى، وترك الماء، حتى ينهضم إبطاه ويقوم رأسه، ويكون كذلك الأيامَ الكثيرة، وهو في هذا الوقت لا يدع إنسانًا ولا جملًا يدنو منه، ولو حمل على ظهره حينئذ، مع امتناعه شهرًا من الطعام ثلاثة أضعاف حمله يحمله، وهو لا ينزو إلا مرة واحدة يقيم فيها النهار أجمع، يُنزل فيها مرارًا كثيرة، يجيء منها ولد واحد، ويخلو في البراري حالةَ النزو، ولا يدنو منه غير راعيه الملازم وذَكَرُه صُلبٌ جدًّا لأنه من عصب. والأنثى تحمل اثني عشر شهرًا، وتلقح إذا مضى عليها ثلاث سنين، وكذلك الذكر ينزو في هذه المدة ولا ينزو عليها إلا بعد أن تضع بسنة، وفيه من كرم الطباع أنه لا ينزو على أمهاته ولا أخواته، ومتى حُمِل على أن يفعل، حقد على من ألزمه ذلك إلى أن يقتله.

وحُكِيَ أنَّ جملًا احتيل عليه بتغيير صورة أمه حتى نزا عليها، ثم عرفها عند فراغه، فألقى نفسه من شاهق حتى مات.

وليس في الحيوان من يحقد حقده لأنه يترصد من حقد عليه الفرصة والخَلوة، لينتقم منه، فإذا أصاب ذلك لم يُبقِ عليه.

وفي طبعه الاهتداء إلى الطريق التي اعتاد سلوكها، لا يضل فيها ليلًا ولا نهارًا، والعرب تضرب به المثل في ذلك فيقولون: أهدى من جمل. والغيرة والصولة والصبر على الحمل الثقيل وعن الماء الزمن الطويل، الخمسة أيام والستة والعشرة، إذا كان الزمان ربيعًا.

والعرب تسمي الأيام التي ترد فيها الإبل الخِمس، والسِّدس، والسِّبع، والثِّمن، والتِّسع، والعِشر، وكلها بالكسر.

ويقال: إن البعير إذا صَعُبَ وخافته رُعاته استعانوا عليه، فتركوه وعقلوه حتى يلومه فحل آخر، فإذا فعل به ذلك ذلَّ.

والإبل تميل إلى شرب الماء الكدر الغليظ، وهو الماء النمير، فهي أبدًا إذا وردت مياه الأنهار حرَّكتها بأرجلها حتى تتكدر.

وهي عشاق الشمس، ولهذا تُرى أبدًا تصوب إليها في أي جهة كانت، من المشرق أو المغرب.

ومن عجيب ما ذهبت إليه العرب في الإبل إذا كثرت فبلغت الألف فقؤوا عين الفحل، فإن زادت على الألف فقؤوا عينه الأخرى، ويزعمون أن ذلك يطرد العين عنها.

ومما قيل فيها قول بعضهم: لم يخلق الله نِعَمًا خيرًا من الإبل، إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حُلبت أروت، وإن نُحرت أشبعت.

الشيخ عز الدين الموصلي في غلام حادي:

حادٍ لَنا كالشادِنِ الرَّبيبِ ... لَحظته بالمَنظَرِ المُريبِ
فقال في السَّكرة عند نومه: ... يا ربِّ سلِّمها من الدَّبيبِ

وعلى ذكر الحادي، قال الشيخ شمس الدين بن الصائغ: أحسن ما سمعته من الحداة يحدون به جِمالهم في طريق الحجاز قولهم:

يا خود إنْ طال المدى تَنسيني ... ينسى الذي ينساك نومَ العين

وآخر يقول:

كم ليلة سهرتها لم أَرقُد ... إلَّا رقادًا كرقاد الأرمد

القاضي الفاضل في وصف الخيل:

جنائب في بحر العجاج سفائن ... فإن حركت للرَّكض فهي جنائبه
وإن خفقتْ راياته فكأنَّها ... أناملُ في عمرِ العَدوِّ تُحاسبه

وله من قصيدة:

لها غرر يستضحك النصر وجهها ... فتفهم منها العين معنى البشائر

وقال النبي ﷺ: «بطونها كنز، وظهورها حرز، وأصحابها معانون عليها».

صِفةُ جِيادِ الخَيل

سأل معاوية صعصعة بن صوجان: أي الخيل أفضل؟ فقال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث. فقال: فسِّر لنا. قال: أما الطويل الثلاث: فالأذن، والعنق، والحزام؛ وأما القصير الثلاث: فالصلب، والعسيب، والقضيب؛ وأما العريض الثلاث: فالجبهة، والمنخر، والورك؛ وأما الصافي الثلاث: فالأديم، والعين، والحافر.

كان محمد بن السائب الكلبي يحدِّث: إن الصافنات الجياد المعروضة على سليمان بن داود كانت ألفَ فرس ورثها عن أبيه، فلما عُرِضَت عليه أَلَهَتْهُ عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب، فعرقبها إلا فرسًا لم تعرض عليه، فوفد عليه قوم من الأزد وكانوا أصهاره، فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبي الله، إنَّ أرضنا شاسعة فزوِّدنا زادًا يبلِّغنا. فأعطاهم فرسًا من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلًا فاحملوا عليه غلامًا واحتطبوا، فإنكم لا تورون ناركم حتى يأتيكم بطعام. فساروا بالفرس، فكانوا لا ينزلون منزلًا إلا ركبه أحدهم للقَنَص، ولا يفلت شيء تقع عينه عليه من طير أو بقرة أو حمار، إلى أن قدموا بلادهم فقالوا: ما لفرسنا هذه اسم إلا زاد الراكب! فسمَّوه زاد الراكب، فأصل فحول العرب من نتاجه.

وطلب البحتري الشاعر من سعيد بن حميد الكاتب فرسًا، فوصف له أنواعًا من الخيل في شعره فقال:

لأُكَلِّفَنَّ العِيسَ أَبعَدَ همَّةٍ ... يَجري إليها خَائفٌ أو مُرتَجِ

وإلـــى سَـــراةِ بَنِي حَمَـيـدٍ إنَّهـم	أمسَـــوا كَواكبَ أشـــرقَتْ في مَـذحَجِ
والـبـيـتُ لَولا أنَّ فـيـه فَضــــيـلـةً	تَعلـو البيوتَ بفَضــــلِـهِ لَـم يُحجَجِ
فـــأَعِنْ عـلـــى غَزوِ الـعَدوِّ بـمُنْـطَوٍ	أحشـــــاؤه طَـيُّ الـرشـــــاء الْمُـدرَجِ
إمَّا بـأشـــقرَ ســـاطعٍ أغشَـــى الوَغى	مـنـهُ بِـمِـثْـلِ الـكَـوكَـبِ المـتـأجِّجِ
مُتَسَـــربلٍ شـيـــةً طَلَتْ أعـطـافـه	بِـدمٍ فـمـا تَـلـقـاه غـيـرَ مُضـــرَّجِ
أو أدهــمٍ صــــافـي الأديـم كـأنَّه	تَـحـتَ الـكـمـيِّ مُـطـهَّـرٌ بِـالـنَّـبْـرَجِ
صَـــرِمٍ يَهيجُ السَّـــوطُ من شُـــؤبُوبِهِ	هَـيـجَ الـجَـنـائـبِ مِن حَـريـقِ الـعَـرفَجِ
خــفَّت مــواطــئ وقــعــه فَلَوَ أنَّه	يَـجـري بِـرَمـلـةِ عـالـجٍ لَـم يُـرهـجِ
أو أشـــــهَبٍ يَقَقٍ يُضــــيءُ وراءَه	مَـتنٌ كـمـتنِ الـلُّـجَّـةِ الْمُـتَـرَجـرِجِ
يُخـفـي الـحـجـول ولـو بـلـغـن لَبـابِـهِ	فـي أبـيـضٍ مـتـألِّـقٍ كـالـدَّمـلَـجِ
أوفَى بِعُرفٍ أســــودٍ مُتَعــرِّفٍ	فـيـمـا يـلـيـه وحـافـر فَـيـرُوزَجِي
أو أبـلـقٍ يـمـلا الـعـيـون إذا بـدا	مـن كـلِّ لـونٍ مُـعـجِـبٍ بِـنَـمـوذَجِ
جـذلانَ تَحسُـــدُه الجيادُ إذا مشـــى	عَنَقًـا بـأحســـنَ حُلَّـةٍ لم تُنسـَـجِ
وعـريـضٍ أعـلـى المـتن لـو عـلَّيـتَه	بـالـزِّئـبـق الْمُـنـهـال لـم يـتـدحـرج
خــاضـــتْ قَوائمـه الـقـويمُ بِنـاؤهـا	أمــواجَ تــجــنــيــب بــهــنَّ مُـدرَّجِ
ولأنـت أبعـد في الســمـاحـة همـةً	مِن أنْ تَضــنَّ بمُـلجـمٍ أو مُســـرَجِ

نادرة

ذكرها أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة، قال الأصمعي: مر أعرابي على قوم وهم على ماءٍ لهم فقال: من رأى جملًا أحمر بعنقه عِلاط، وفي أنفه خِزامة، يتبعه بكرتان سمراوان، عهد العاهد به عند البئر؟ فجعل القوم يقولون: حفظ الله علينا وجمع عليك! لا والله، ما أحسسنا. وجويرية على حوض لها تَمدُرُ وهي تقول: لا جمع الله عليك يا فاسق! فقالوا: ما تريدين من الرجل؟ قالت: إنما ينشد سَوءتَه! قال: فتبعته فقلت له: يا هذا، ما تنشد؟ قال: أيري وخِصيَتَيَّ.

نادرة

اشترى رجل من رجل برذونًا، فقال له المشتري: سألتك بالله، هل فيه عيب؟ قال: لا، إلا أنَّ فيه قليل مشش كأنه سفرجلة، وقليل جرد كأنه قثاءة، وكليل دبر كأنه بطيخة. فقال له المشتري: يا بن الفاعلة! جئنا نشتري منك برذونًا أو بستانًا؟!

قال المدائني: كان ابن أبي هبيرة يساير سنان بن مكمَّل النميري، فتقدمت بغلة النميري ابنَ هبيرة، فقال: غُضَّ من بغلتك! فالتفت إليه النميري وقال: أصلح الله الأمير، إنها مكتوبة!

وإنما أراد ابن هبيرة قولَ الشاعر:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمَيرٍ فَلا كَعبًا بَلَغْتَ وَلا كِلابا

وأراد النميري قول سالم بن دارة من بني فزارة:

لا تَأمَنَنَّ فَزاريًّا خَلَوتَ بِهِ عَلى قُلُوصِكَ واكْتُبها بأسيارِ

وكتب الوهراني على لسانِ بغلته إلى الأمير عز الدين موسك:

المملوكة ريحانة، بغلة الوهراني، تُقبِّل الأرض بين يدي الأمير عز الدين حسام، أمير المؤمنين، نجَّاه الله من حر السعير، وعطَّرَ بذكره قوافل العِير، ورزقه من القرط والتبن والشعير، وسق مائة ألف بعير، واستجاب فيه صالح أدعية الجَمِّ الغفير، من الخيل والبغال والحمير، وتنهي إليه ما تقاسيه من مواصلة الصيام وسوء القيام، والتعب في الليل والناسُ نيام. قد أشرفت مملوكته على التلف، وصاحبها لا يحتمل الكَلَف، ولا يوقن بالخلف، ولا يقوم بالعلف، لأنه في بيته مثل المسك والعنبر، والإطْرِيفُل الأكبر، أقلُّ من الأمانة في الأقباط، والعقل في رأس قاضي سنباط، فشعيرُه أبعد من الشِّعرى العَبور، ولا وصول إليه ولا عبور، وقُرطه أعز من قرط ماريَّة، لا يخرجه صدقةً ولا هبةً ولا عاريَّة، والتِّبن أحب إليه من الابن، والجُلْبان أعز من دهن البان، والقصيم بمنزلة الدُّرِّ النَّظيم، والفِصَّة أجمل من سبائك الفضة، وأما الفول فمن دونه ألف باب مقفول، فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلا بعيون الآداب، والفقه اللُّباب والسؤال والجواب، وما عند الله من الثواب، ومعلوم — يا سيدي — أن البهائم لا توصف بالحلوم، ولا تعيش بسماع العلوم، ولا تَطرب إلى شعر أبي

تمام، ولا تعرف الحارث بن همام، ولا سيِّما البغال، التي تشتغل في جميع الأشغال، شبكة من القصيل، أحب إليها من كتاب التحصيل، وقفة من الدريس، أشهى إليها من فقه ابن إدريس، لو أكل البغلُ كتابَ المَقامات مات، وإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ضاع، وإن قيل له: أنت هالك إن لم تأكل موطَّأ مالك، ما قبِل ذلك، وكذلك الجَمَل، لا يتغذَّى بشرح أبيات الجُمَل، وحزمة من الكلاء، أحب إليه من شعر أبي العلاء، وليس عنده بطيِّب، شِعرُ أبي الطيِّب، وأما الخيل فلا تطرب إلا لسماع الكيل، وإذا أكلت كتاب الذيل، ماتت في النهار قبل الليل، والويل لها كل الويل، ولا تستغني الأكاديش، عن الحشيش وكل ما في الحماسة من شعر أبي الحريش، وإذا أطعمت الحمار شعر أبي عمار، حلَّ به الدمار، وأصبح منفوخًا كالطبل، على باب الإصطبل، وبعد هذا كله فقد راح صاحبها إلى العلَّاف، وعرض عليه مسائل الخلاف، فطلب من تِبنه خمس قِفاف، فقام إليه بالخِفاف، يخاطبه بالشعير، وفسَّر عليه آية التعبير، وطلب منه وَيبَة شعير، فحمل على عياله ألف بعير، فانصرف الشيخ منكسر القلب، مغتاظًا من الثَّلْب، وهو أنحس من ابن بنت الكلب، فالتفت إلى المسكينة، وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة، وقال لها: إنْ شئتِ أن تكدِّي فكُدِّي، لا ذقت شعيرًا ما دُمتِ عندي، فبقيت المملوكة حائرة، لا قائمة ولا ثائرة، فقال لها العلاف: لا تجزعي من خياله، ولا تلتفتي إلى مقاله، ولا تنظري إلى نفقته، ولا يكون عندك أخس من عَنفَقَتِه، هذا الأمير عز الدين، سيف أمير المؤمنين، عز المجاهدين، أندى من الغَمام، وأمضى من الحُسام، وأبهى من البدر ليلةَ التمام، يرثي للمحروب، ويفرِّج عن المكروب، وهو من بني أيوب، لا يردُّ قائلًا، ولا يخيِّب سائلًا. فلمَّا سمعت المملوكة هذا الكلام، جذبت الزمام، ورفضت الغلام، وقطعت اللِّجام، وشقَّت الزحام، حتى طرحت خدها على الأقدام. ورأيك العالي؛ والسلام.

ذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والطرف: ولما مات أحمد بن طولون ترك في بيت ماله عينًا عشرة آلاف دينار، وفي حاصله ألفَي ألفٍ وسبعمائة ألف درهم، سوى ما كان مُودعًا عند حميد الطويل وهو ألف دينار، سوى ما حمل إلى المعتمد في أربع سنين أولهن سنة اثنين وستين ومائتين، ما نفدت به السفاتج لم يظهر بعضه وهو ألفا ألف ومائتا ألف دينار، وكان له أربعة وعشرين ألف

غلام مملوكًا، وخمسة وعشرون ألف غلام أسود، وتطبق جريدته على سبعة آلاف حر مسترزق، وخلَّف من الخيل الميدانية سبعة آلاف رأس وثلاثمائة وثلاثين رأسًا، ومن البغال ستمائة بغل، ومن الجمال ألفين ومائة جمل، ومائةَ مركب حربيَّة، ومن الدواب المركوبة مائة ألف وثلاثين دابة، وكان خراج مصر في السنة التي مات فيها أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، مع ما يضاف إليها من ضياع الأمراء بالحَضرة، وأنفق على الجامع مائة وعشرين ألف دينار، وعلى البيمارستان ومستغله ستين ألف دينار، وأنشأه في سنة تسع وخمسين ومائتين، وحبس عليه سوق الرقيق وغيره، ولم يكن قبل ذلك بمصر بيمارستان، وكان قد شرط ألا يُعالَج فيه جنديٌّ ولا مملوك، وكان يباشره ويشارفه بنفسه ويركب إليه في كل أسبوع مرة، وأنفق على عين المصنع بِبركة الحَبَش مائة وأربعة وأربعين ألف دينار، وعلى سور الجزيرة ثمانين ألف دينار، ولم يُتْمِمه، وعلى الميدان مائة ألف دينار وخمسين ألفًا، وكانت صدقاته في كل شهر ثلاثة آلاف دينار، ورَسْمُ مطبخه في كل يوم مائة وعشرون دينارًا، ومات في سنة سبعين ومائتين، وخلَّف سبعة عشر ولدًا ذكرًا، ومن الإناث ست عشرة أنثى.

فائدة جليلة

قال ابن عباس رضي الله عنه: من هرب من عدوٍّ أو خاف فكتبَ بسَوطِهِ بينَ أُذُنَي دابَّته: ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾، أمَّنه الله من خوفه، وحال بينه وبين عدوه.

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتابه غيث الأدب: ويحكى أن بعض الرؤساء قال لشهاب الدين القوصي: أنت عندنا مثل الأبِّ. وشدَّد الباء، فقال: لا جرمَ أنكم تأكلوني.

وأقول: لا يخفى ما في هذا التندير من اللطف، لأن الأبَّ (مشدَّدَ الباء) هو المرعى. قال بعضهم: هو للدواب بمنزلة الخبز للأناسيِّ، ومن يشدد الباء من الأب الذي هو الوالد ما يكون إلا دابَّة.

قال الشيخ بدر الدين الدماميني — رحمه الله تعالى — رادًّا عليه: قصد الصفدي بهذا الكلام الرد على من شدد باء الأب المراد به الوالد، وفيه دليل على قصوره، فإن الإمام جمال الدين بن مالك نصَّ في التسهيل على ذلك، قال في أوائله: وقد تُشدَّد نون هَن، وباءُ أب، وخاء أخ. وحكى في الشرح عن الأزهري أن تلك لغة وأنه يقال: استأببت فلانًا (ببائين). أي: اتخذته أبًا. وإذا كان كذلك فلا وجه للإنكار على الرئيس الذي شدد الباء من أب. قلت: ولو قال القوصي في جوابه: لا جرم أنكم ترعوني. لكان ألطف في التندير، وأحسن موقعًا مما قاله، والله أعلم. انتهى كلام أقضى القضاة بدر الدين المخزومي.

الشيخ جمال الدين الزملكاني:

وفــي حــلـبــةِ الــخَدِّ مِن أَدمُعِي خُــيــولٌ تُــجــولُ ولا تُــركَــبُ
فَسَــبــقُ الــكُمَيــتِ بِهــا بَيِّنٌ ولــكــنْ تَــقَــدَّمَــهُ الأَشْــهَــبُ

وعلى ذكر البغال، ذكرتُ قول شمس الدين الضفدع الخيَّاط في وقعة القاضي شهاب الدين محمد بن المجد عبد الله الإربلي الدمشقي الشافعي التي مات فيها رحمه الله تعالى:

بَغــلــةُ قــاضِــيــنــا إذا زُلْزِلَتْ كــانَــتْ لَــه مِــن فَــوقِــهــا الــواقــعَــةْ
تَكــاثُرُ أَلــهــاهُ مِن عُجــبِــهِ حَتَّــى غــدا مُــلــقًــى عــلــى الــقــارِعَــةْ
وأظــهــرت زوجــتــه عــنــدهــا ضــائــقــةً بــالــرَّحــمــةِ الــواســعَــةْ

أبو الحسين الجزار وقد رآه بعضهم ماشيًا عُقَيب موت حماره:

كــمْ مِن جَهــولٍ رآنِي أمشــي لأطــلــبَ رِزقــا
وقــال لــي: صِــرتَ تَمشِــي وكــلُّ مــاشٍ مُــلــقَــى
فــقــلــتُ: مــاتَ حِمــاري تَــعــيــشُ أنــتَ وتَــبــقَــى

المعمار:

إنَّ ابــن الأطــروشِ حــوى رُتــبــةً بــاع بــهــا الــجــنَّــة والــنــارِ
تَنَصَّــرَتْ بَغــلَتُه تَحــتَهُ وأصــبــحــتْ تَــمشــِي بِــزنَّــارِ

ابن دانيال مضمنًا:

ولــقــد ركــبــتُ مِن الــحَمــيــر مــكــمَّدًا مكرًا بطيئًا للحران مُصــاحبــا
رِجــلاي فــي رِجــلــيــه مــنــذ ركــبــتــه لــنْ تَــفــتُــرا فــغــدوتُ أمشــي راكــبــا

جمال الدين بن نباتة:

أصــبــحــتُ يــا ســيِّدي ويــا ســنــدي أقصُّ في أمر بغلتي القصــصــا
بــالأمــسِ كــانــتْ لِفَرطِ سُــرعَتِهــا طَيرًا وفي اليوم أصــبــحــتْ قَفَصــا

صفي الدين الحلي مضمنًا:

رأى فرسي إصطبل عيسى فقال لي: قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ ومَنزِلِ
بِه لَمْ أَذُقْ طَعمَ الشَّعيرِ كأنَّني بِسَقطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فَحَومَلِ
تُقَعقِعُ مِن بَردِ الشِّتاء أضالِعي لِما نَسَجَتْها مِن جَنوبٌ وشَمأَلِ
إذا سَمِع السُّوَّاسُ صَوتَ تَحَمحُمي يقولون: لا تَهلِكْ أسىً وتَجَمَّلِ
أعوِّلُ في وَقتِ العَليقِ عَلَيهِمُ وهلْ عِندَ رَسمٍ دَارِسٍ مِن مُعَوِّلِ؟

وحكيَ أن العماد الكاتب قال للقاضي الفاضل: سِرْ فلا كبا بكَ الفرسُ. فقال له: دام علا العماد.

ولبعض أهل عصره، أعني أبا الحسين الجزار لما نفق حماره:

مات حمار الأديب قلت لهم: مضى وقد فات منه ما فاتا
مَن مات في عِزِّه استراح ومَن خَلَّفَ مثلَ الأديبِ ما ماتا

وقال شرف الدين البوصيري ناظم البردة فيه:

فلا تيأسنَّ لهذا الأديب عليه فللموت ما يولد
إذا عشتَ أنتَ لنا بعده كفانا وجودك ما نفقد

قال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس: كان للشيخ شرف الدين البوصيري حمارة استعارها منه ناظر الشرقية، فأعجبته فأخذها وسيَّر له ثمنها مائتي درهم، فكتب على لسانها: إلى الناظر المذكور من المملوكة حمارة البوصيري:

يا أيُّها السيِّد الذي شهدتْ أخلاقُه لي بأنه الفاضلْ
ما كان ظني يبيعني أحدٌ قطُّ ولكنَّ صاحبي جاهل
لو حرَّضوه عَلَيَّ من سفهٍ لقلتُ غيظًا عليه: يستأهل
أقصى مرادي لو كنتُ في بلدي أرعى بِها في جَوانبِ الساحِلْ
وبعدَ هذا ما يَحِلُّ لَكَم أخذي لأنِّي من سيِّدي حامل

فردَّها الناظر ولم يأخذ الدراهم منه.

وقال ناصر الدين ابن النقيب:

نَفَقَتْ لي رأسٌ مِن الخَيلِ كانتْ ... تَسبِقُ البَرقَ والرِّياحَ الزَّعازِعْ
وابتَلَى اللهُ في المشاعِرِ أُخرى ... بشقاقٍ لها عَن المشْيِ مانِعْ
فإذا قيلَ: كم بَقِي لكَ رأسٌ؟ ... قلتُ: رأسٌ لكن بغير كَوارِعْ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة وأفحش في السرقة في فرس له على الأربعة:

يقول لي صاحب وفيٌّ ... والخيل تحت الورى تسارع:
كم لك في ذا الزمان رأسٌ؟ ... فقلت: رأس بلا كوارع

وقال ابن دانيال:

قَد كَمَّلَ اللهُ برذَونِي بِمَنقصَةٍ ... وشانَهُ بَعدما أعماهُ بالعَرَجِ
أسيرُ مِثلَ أسيرٍ وهو يَعرُجُ بِي ... كأنَّه ماشيًا يَنحَطُّ مِن دَرَجِ
فإنْ رَمانِي على ما فيه مِن عَرَجٍ ... فما عليه إذا ما مِتُّ مِنْ حَرَجِ

صلاح الدين الصفدي في من وعده ببغل:

طلبتُ البغل منكَ فقلتَ: إني ... أسيِّره وما كَذَبَ الكلامُ
نعم أتعبتُهُ رَكْضًا ولمَّا ... أتى الإصطبل سيَّره الغلامُ

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي: أنشدني لنفسه المولى جمال الدين محمد بن نباتة بدمشق المحروسة، سنة تسع وعشرين وسبعمائة:

وردٌ من الوَردِ مَنسوبٌ فلا قَطَعَتْ ... أيدي الحوادثِ مِن أنسابه شجرةْ
إذا امتطى ظَهرَه رامي السِّهامِ مَضَى ... والسهمَ حَذوًا فلولا سبقه عقرَهْ
عَجِبْتُ كيفَ يُسمَّى سابِحًا وله ... وَثبٌ لو البَحر أمسى دونه ظفره
كأنَّه في هضاب الحُسن صاعدةً ... أو لا فصاعقة في الحُسن منحدرَةْ
لمَّا ترفَّع عَن ندٍّ يُسابِقُه ... أضحى يُسابِقُ في ميدانه نظَرَهْ

قال صلاح الدين: وأنشدني من لفظة لنفسه المولى جمال الدين يوسف بن سليمان بن أبي الحسن الصوفي بدمشق، في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة:

وأدهـمِ الـلَّونِ فـاتَ الـبَرقَ وانْتَظَرَه   فـغـارتِ الـرِّيـحُ حـتَّـى غـيَّـبـتْ أثَـرَهْ
فـواضــــعٌ رِجـلَهُ حـيـثُ انـتـهـتْ يَدُه   وواضــــعٌ يَـدَه أنَّـى رمَـى بَصــــَرَه
شـــهمٌ تَراه يُحـاكي السَّـــهم مُنطلقًا   ومـا لـه غـرض مســــتوقـف خـبـره
يعفر الوحش في البيـداء فـارســــه   ويـنـثـنـي وادعًـا إذ يســــتـتـر غـيـره

شرف الدين أحمد الحلاوي وأجاد:

جــاء غــلامــي وشـــكــا   أمــر كُــمَــيــتِــي وبَــكــى
وقــال لــي: لا شــكَّ بِر   ذَونُــكَ قــد تَشــبَّــكــا
قــد سُــقْتُهُ الــيــومَ فــمــا   مشــــى ولا تــحــرَّكــا
فــقــلــتُ مِن غــيــظــي لــه   مــجــاوبًــا لمــا حــكــى:
ابــن الــحــلاويِّ أنــا   فــلا تــكــن مُــعَــلَّــكــا
لــو أنــه مســـيَّرٌ   لَــمــا غَــدا مُشــَـبَّــكــا

ابن نباتة:

وأدهــم الــلــون حــنــدســــي   فــي جــريــه لــلــورى عــجــائــب
يَقصُــرُ ســـعــيُ الــريــاح عــنــه   فــكــلُّــهــا خــلــفــه جــنــائــب

ابن سعيد المغربي في فرس أغرَّ أصفرَ:

وعســـجــديِّ الــلــون أعــددتُه   لســـاعــةٍ تُــظــلــم أنــوارهــا
كــأنَّه فــي رهــجٍ شـــمــعــةٌ   مصـــفــرَّةٌ غــرَّتْــهُ نــارهــا

وله في أدهم أغر:

وقدْ اغتدَى والليلُ قد سَــلَّ صُــبحَهُ   بِلَيـلٍ بِجِلْبـابِ الصَّــبـاحِ مُلَثَّمَا

وَأَحسَبُهُ خَالَ الثُّرَيَّا لِجامَهُ فصيَّر هادِيه إلى الأُفْقِ سُلَّما

ولابن خفاجة في أشقر أغر:

وأشقرٍ يَضرِم منه الوغى بشُعلةٍ من شُعَل الباسِ
وتَطلُع الغُرَّة في شقرةٍ حبابةً يطلع عن كاس

النامي:

ومصغيةٍ كأنَّ الحربَ تُلقي إلى آذانها بُشرى الخلود
تَرى آذانها ألفاتِ سَطرٍ قيامًا في صحائفَ من بنود

الأَرَّجاني:

وحَرفٍ تَجُوبُ القاعَ والوَهدَ والرُّبى كحرفٍ مُديمِ الرفع والجر والنصب
نجائب يقدحن الحصى كلَّ ليلةٍ كأنَّ بأيديها مصابيح للركب

نور الدين بن سعيد في فرسٍ لُوبانيَا أغرَّ أكحل الحِلية:

وأجردٍ تِبْرِيٍّ أثَرْتُ به الثَّرى وللفجرِ في خَصرِ الظَّلام وِشاحُ
عَجِبتُ لَهُ وهو الأصيلُ بعُرفِهِ ظلامٌ وبين الناظرين صَباحُ

ابن نباتة السعدي في فرس محجَّلٍ بغُرَّة:

وكأنَّما لَطَمَ الصَّباحُ جَبينَهُ فاقتصَّ مِنهُ فخاضَ في أحشائِهِ

الشيء بالشيء يذكر؛ قال ابن حجاج في المُجون:

غَضِبَتْ صباحُ وقدْ رأتْني قابضًا أَيْرِي فَقُلتُ لها مقالةَ فَاجِرِ:
باللهِ إلَّا ما لَطَمْتِ جَبينَهُ حتَّى يُصدَّق فيكِ قَولُ الشاعرِ

أشار إلى البيت المتقدم الأديب الفاضل الكامل الرحَّال إبراهيم الساحلي المشهور بالطويجن، مولده بغَرناطة، ووفاته بعد سنة تسع وثلاثين وسبعمائة من قصيدة:

ركبوا إلى الهيجاء كلَّ طرَّة　　من نسل أعوجَ أو بنات الأبحرِ
مِن كل مخضوب الشواعيل العرى　　عاري النواهق مستدير المحجر
ألوى بقادمتي جآجئ أفتخ　　ولوى بسالفتَي غزال أعفَرِ
وأدار جفنًا أشوسيًّا مُبصرًا　　ظلَّ الفوارسِ في الظلام المعكر
مِن أحمرٍ كالورد أو من أصفرٍ　　كالوُرْسِ أو من أدهمٍ كالعنبرِ
وبكلِّ صَهوةِ أجردٍ متقطِّبٍ　　إلَّا إذا ضحك السنان السمهري

لسان الدين بن الخطيب:

قال جوادي عندما　　هَمَزتُ هَمزًا أعجزَهْ:
إلى مَتى تَهمِزُنِي؟　　ويلٌ لكلِّ هُمَزَةْ

أحمد بن سعيد بن غازي البستي يصف ناقة:

حَرفٌ كَمِثلِ الصادِ إلَّا أنَّها　　بَعدَ السُّرى جاءت كحرف النُّونِ
كالبدرِ قَدَّرَهُ الإلهُ مَنازِلًا　　في الأُفْقِ حتى صارَ كالعُرجُون

ما أحسن قول الشريف العقيلي وإن لم يكن مما نحن فيه:

وأدهم من خيول الجوِّ وافى　　فثار من الضبابِ له غُبارُ
إذا أبدى صَهيلَ الرَّعدِ منه　　لِوَحشِ المحل داخله نفار
أُشَبِّهه وَلَمعُ البَرقِ فيهِ　　بِحرَّاقٍ تمشَّت فيه نارُ

نادرة

ذكرها العلامة شهاب الدين أحمد بن فضل الله في كتابه مسالك الأبصار، في ترجمة موفق الدين، المعروف بالوَزْن، الواعظ الكحال المتطبب: كان بالبقاع والٍ من أهل الأدب يُعرَف بابن درباس واسمه عليٌّ، وكان ينظم الشعر ويتوالى، والوزير بدمشق إذ ذاك بدر الدين جعفر بن الآمدي، وكان يتوالى أيضًا، فاتَّفق أنه ولَّى عنده بالبقاع كاتبًا ممَّن سَلِمَ من التَّشمير من ديوان المطابخ، وكان من حديث

هؤلاء أنهم سرقوا قَندًا كثيرًا كان قد حُمِل من غَور الكَرَك ليُطبَخ بدمشق للسلطان، فبلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس، فأمر بهم فسُمِّروا وطِيفَ بهم على الجمال، إلا هذا الكاتب فإنه شُفِع فيه فأُطلِق بعد أن قُدِّمَ له الجمل ليُسمَّرَ، فلما استخدمه ابن الآمدي بالبقاع ضيَّق على ابن درباس، فأقام يُعمِلُ قريحته فيما يكتبه إلى ابن الآمدي فلم يأت بشيء، فسأل الوَرْنَ في ذلك فكتب:

شَـــكِيَّةٌ يـا وزيـرَ الـعَصـــرِ أَرفَعُـهـا ... مـا كـان يُـؤمَـلُ هـذا مـن وِلاكَ عَـلِـي
لـم يَبـقَ فـي الأرضِ مُخـتـارٌ فـتَبـعَثُهُ ... إلَّـا فتًـى مِن بقـايـا وَقـعَـةِ الـجَمَـلِ

فضحك ابن الآمدي وعزله.

ومن إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: وينهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وُجِدَ الخيرُ في نواصيها، واعتدَّ ظهورها حصنًا يُعتَصم من الوغى بصياصيها. فمِن أشهبَ غطَّاه النهار بحُلَّته، وأوطأه الليل على أهِلَّته، يتموَّج أديمه ريًّا، ويتأرَّج رِئيًا، ويقول من استقبله في حُلى لِجامه: هذا الفجر قد أطلع الثُّريَّا، إن التفتَ إلى المضائق انْسابَ انسيابَ الأيم، وإن انفرجت المسالك مرَّ مرور الغيم، كم أبصر فارسُه يومًا أبيض بطلعته، وكم عاين طرفُ السنان مقاتل العدى في ظلام النقع بنور أشعَّته، لا يسير داحس في مضماره، ولا تطمع الغبراء في شق غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره، تسابق يداه مرامي طَرفه، ويدارك شوارد البروق ثانيًا من عِطفه. ومن أدهم حالك الأديم، حاليَ الشكيم، له مقلةُ غانيةٍ وسالفةُ ريم، قد ألبسه الليل برده، وأطلع بين عينيه سعده، يظنُّ من نظر إلى سواد طُرَّته، وبياض حُجوله وغُرَّته، أنه توهم النهار نهرًا فخاضه، وألقى بين عينيه من رشاش تلك المخاضة. ومن أشقر وشَّاه البرق بلهبه، وغشَّاه الأصيل بذهبه، يتوجَّس ما لديه برقيقتَيْن، وينفضُّ وفرتيه عن عقيقتين، وينزل عذارُ لجامه من سالفتَيْه على شقيقتين، له من الراح لونها، ومن الرِّيح لِينُها، إنْ جرى فبَرقٌ خَفَق، وإن أُسرِج فهلالٌ على شفق. ومن كُمَيت نَهد، كأنَّ راكبه في مهد، عندميِّ الإهاب، شماليَّ الذهاب، يزلُّ الغلامُ الخف عن صهواته، وكأن نغم الغريض ومعبد في لهواته، فسيح الخطى، قصير المطا، إنْ رُكِب لصيدٍ قيَّد الأوابد، وأعجل عن الوثوبِ الوحوشَ اللوابد. ومن حبشي أصفر يروق العين، ويشوق القلب لمشابهة العين، كأن الشمس ألقت عليه من أشعتها جلالًا، وكأنه نفرَ من الدُّجى فاعتنق منه عُرَفًا واعتلق حِجالًا، ذي كفلٍ زيَّن سرجه، وذيل يشد إذا اشتدَّ بدنه منه فرجه، قد أطلعته الرياضة على مُراد راكبه وفارسه، وأغناه نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده وتوشيع ملابسه، له من البرق خفةُ وطئِه وخطفُه، ومن النسيم ظروفه ولطفه، يطير بالغمز، ويدرك بالرياضة مواضع الرَّمز، ويغدو

كألف الوَصْل في استغناء مثلها عن الهمز. ومن أخضر حكاه من الرياض تفويفه، ومن الوشي تقسيمه وتأليفه، قد كساه النهار والليل حلتَيْ وقار وسنا، واجتمع فيه من البياض والسواد ضدَّان لما اجتمعا حَسُنا، ومنحه الباري حلية وشيِهِ، ونحلته الرياح ونسماتها قوة ركضِه وخفةَ مشيه. ومن أبلق ظهره حَرَم، وجريه ضرم، إنْ قصد غايةً فوجدان القضاء بينه وبينها عدم، وإن صُرِّف في حربٍ فعمله ما يشاء البنان والعنان، وفعله ما يريد الكفُّ والقدم، قد طابق الحسن البديع بين ضدي لونه، ودلَّت على اجتماع النقيضين علَّةُ كونه، وأشبه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار، وأخذ وصف حلَّتَي الدُّجى في حالتي الإدبار والإسفار، فهو الأبلق الفرد، والجواد الذي لمجاريه العكس وله الطرد، قد أغنته شهرة لونه في جنسه عن الأوصاف، وعدل بالرياح عن مباراته سلوكُها من الاعتراف له جادَّةُ الإنصاف، وترقَّى الملوك إلى رتب العز من ظهروها، وأعدها لخِطبة الحِسان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها، وكَلِف بركوبها فلما أكمله عاد، وكلما ملَّه سره فلو أنه زَيدُ الخيل ما زاد، ورأى من آدابها ما دلَّ على أنها من أكرم الأصائل، وعلم أنها ليومَي حربِهِ وسِلمه جَنَّة الصائد وجُنَّة الصائل، وقابل إحسان مهديها بثنائه ودعائه، وأعدَّها في الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه، والله تعالى يشكر برَّه الذي أفرده الندى بمذاهبه، وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه، بمنِّه وكرمه إن شاء الله تعالى.

ومن إنشاء الشيخ محيي الدين عبد الظاهر: وسير من الخيول الرهاوين كلُّ ما هو على الحسن مشتمل، ومع سرعته يمشي الهُوَينى كمشي الشارب الثمل، من كل أشقر كأنه النجم السريع لا البطيء، وكل أحمر كالشفق وعزمه ما يتخلل الشفق من النور المضيء، وكل أشهب كالنهار وما في هذا من سواد ما بذاك من أواخر الليل وأوائل العشيِّ، وكل أصفر حبشي يحسن أن يكون لركاب المقر خادمًا وكيف لا وهو الخصيُّ الحبشي، ومن البغال كل فارهة الوثبة، كارهةٍ ألا تكون دون رتبة الجياد في حلبة، كم قاست بذراعها شقة أرض فعلمت طولها من عرضها، وكم لحقت بمشيها ما تلحقه الجياد بركضها، كم حسب راكبها أنه مِن وطء ظهرها على فرش مرفوعة، وكم بُويِعَ لها بالخلافة عن الجرد المطهمة على أنها مخلوعة، يشهد بتمام حسنها العقل، ويصدقه على ذلك منها النقل، ما ضرتها هُجنة أمها مع أصالة أبيها وأمها هجينة، وما شانها ذلك والله تعالى قد ساوى بينهما بقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾. تسبق الطِّرف والطَّرف، وأمها خالها وما هي حرف.

ومن إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة: وأما الخيل المسيرة فقد وجد المملوك لذة أنسها، وأوجب على نفسه فروض خَمسها، واستنهض لشكر محاسنها يراعَتَه فسعت ولكن على رأسها، واستنزلت له

الآمال من صياصيها، وحلَّت منه محل الخير المعقود في نواصيها، وأمده بالإسعاف مددها، وقبلها عوض أنامله الشريفة لأنه عددها، وما هي إلا زهرات أنبتتها سحب كفه الكريمة، وعقود من طوَّق بها جِيدَ العبد فسبَّح بمدامع نعمها العميمة، ومنابرُ قام عليها خطيبًا بمحاسنه التي مَن كتمها فكأنما كتم من المسك نظيمة. فمن أشهب كأنه طلعة نجح، أو قطعة صبح، أو غرة قمر تعرب بأشعته أبدار جنح، قد تزيَّنت منه الأوضاع، وانقطعت دون غايته الأطماع، واعتذرت له الريح فصوَّب أذنَيْه للسماع، وأصبح لصاحبه نعم العون في يوم السبق والغوث في يوم القراع، وكاد يكون من الملائكة فكم له من غبار السبق أجنحة مَثنَى وثُلاثَ ورُباع، ما خفيت مصلحة إلا قيَّضها، ولا ادلهمَّت سحابة تقع إلا أقام بنفسه وبيَّضها، وما حدث عن حسن إلا رآه، ولا امتطاه عازم إلا حمد عند صباح لونه سُراه، تقرب الطلب سفارة عزائمه المسفرة، ويختال في الخيل كالنهار فلا جرم أن آيته مُبصِرَة، كم ثنى عنانه عن مسابقة الرياح وأعرض، وكم تعب عليه عازمٌ حتى فاز منه بالعيش إلا أنه أبيض. يتلوه أشقر كلمعة برق، أو غزالة شرق، فسيح الليان، رقيق مجرى العِنان، يروق الأبصار، ويدني الأوطان والأوطار، ويُسمِع بحافره صُمَّ الأحجار، يَضعُف البصرُ عن اقتفاء ما له من السنن، ويعجز عن بلوغ غايته السيل إذا هجم والغيث إذا هتن، وتقصر عن شأوه الرياح فعن عذر إذا حثت في وجهها التراب للحَزَن، فكأنما أُصعِد لأشعة النجوم فكسبها، أو راهن البرق عن حُلَّته فلبسها وسلبها، قُرِنت حركاته بحسن الاتفاق، وحكته في تلطُّفها الشموس عند الإشراق، وامتدت كف الثريا تمسح وجهه من غبار السباق، يتبعه كميت يَسُرُّ الناظرَ، ويشوق الخاطر، كأنه جذوة نار، أو كأس عقار، أحلى من الضرب، له من نفسه طرب، كم خدمه من النصر أعوان، وأسكره اسمه فاختال تحت راكبه كالنشوان، وزاد لونه حتى كأنما هو بهرام وأجلَّه عن أن أقول: بهرمان، أسرع الأشياء شوطه، وأضيع ما في عدته سوطه، يجمع لراكبه بين الطرب والجلالة، وتحتجب الشمس إذا تصدَّى لصيدٍ خوفًا من تسميتها بالغزالة، كم أرعد بصهيله وأبرق، وكم لقي منه الموتَ الأحمر العدوُّ الأزرق، قصرت عن معاناته الهمم، واسودَّ ذَنَبه وعُرفه فكأنما لِذَوبِ نار جسمه حِمَم، يوسع أهل الحي مِرَرًا، ويقدُّ بخنجر نعله أديم الأرض سيرًا. يقفوه أصفر يستر النظار، ويسمو على النظَّار، ويشوق البصائر وربما شق سعيه على الأبصار، ويخفق وراءه حتى قلب البرق إذ ذكرهما السبق في مضمار، كم أوسع وقعه في ليل السرى من سهر، وكم نقش بنعله ظهر جبل فجاء كما قيل: نقش في حجر، يطلع بسماء الطلب أهلَّةً هو عيدها، وإذا امتطاه عازم رأى الأرض تُطوَى له ويدنو بعيدها، كم حسن خُبرًا وخَبَرًا، وتأثير وأثرًا، وكم عشا إلى نار سنابكه طارق فأجزل

له من قصره القِرى، كأنما خلع عليه الدهر حلة ذهب، ووهبته صفرة لونها الراح حين تحلَّى بالحبب، لو أمكن أول فجر لما تسمَّى في زمنه بالسرحان، ولو كتب اسمه على مقدمة طليعة قرنها اليُمن والأمان، يصحبه أدهم كأنمَّا الْتَحَفَ سُبَجًا، أو دخل تحت ذيل الدُّجى، تخضع عواصي الذرى لعزَّته، وينشقُّ الصباح غيظًا من تحجيله وغرته، كأنما لطمته يد الفجر فخاض في أحشائه، ووَرَدَ نهرَ المجرة فطارتْ لجبهته نقطةٌ من مائه، فسيح المتَّسق، متدرع ملابس حب القلوب والحدق، كم عنت شوامخ الجبال لجلاله، وقصرت عنه الخيل حتى لم تسابق إلا ظل إدباره وإقباله، وخاف سطوته الليل فحباه بمثل أنجمه وأنعله بمثل هلاله، يسر الموالي ويسوء المناصب، ويأتي من صباح تحجيله وليل تكوينه بالعجائب، وتكبو الريح دون شأوه فكلها من خلفه جنائب، ولا برح سيدنا يجوِّد في القول ويجود في العمل، ويتطول من خفيٍّ كرمه، ومفيد كلمه، بما لا تترقَّى إليه همة آمل، إن شاء الله تعالى.

مجير الدين بن تميم مضمنًا:

بَعــثــتَ عِنــدي جَوادًا لا حَراكَ بِهِ	يَكــادُ مِن هَمـزِهِ بـالـرَّكض يَنـخَـرِمُ
فــلا يَغُرَّكَ مِنــه سِـــنُّه غــلــطًا	إنَّ الــجـواد عــلــى عِــلَّــاتــه هَــرِمُ

كمال الدين ابن النبيه من قصيدة:

فهي كمثـل القســـي شـــكلًـا ولكن	هي في الســـبق أســـهم لا محـالــةْ
تركتـهـا الـحـداة فـي الـخَفضِ والـرَّفْـ	ـــــع حُروفًـا فـي جرِّهـا عمـالـةْ

علاء الدين ابن أيبك من قصيدة:

كالقوس في كورها ســـهم إذا رشـــقَتْ	بــه العجــاج فشـــخص البعـد مقتولُ
يَسُـــوقها شَـــوقُها نَحوَ الحِمى فترى	كــأنَّ مـيـل الـفـلا فـي عـيـنـهـا مـيـلُ

القاضي الفاضل يحيى بن مُجير يصف الخيل:

لــه خـطـبـةُ الـخَيـلِ الـعِتـاق كـأنَّهـا	نَشـــاوى تهادتْ تَطلُب العَزفَ والقَصْـــفا
عَرائسُ أغْنَتْهـا الـحـجـولُ عن الـحِلـى	فلم تَبغِ خلخـالًـا ولا التمســـــتْ وقفَا
فَمِنْ يَقَقٍ كــالــطِّرسِ تَحســـــبُ أنَّه	وإنْ جــرَّدوه فــي مُــلاءتــه الــتَـفَّا

وأبلقَ أعطى الليلَ نِصفَ إهابِهِ ... وغارَ عليه الصُّبحُ فاحتَبسَ النِّصفا
وورد ٍ تغشَّى جلده شفقُ الدُّجى ... فمُذ حازه دلَّى له الذَّيلَ والعُرفا
وأشقرَ مَجَّ الراحَ صِرفًا أديمُه ... وأصفر لم يسمحْ بِه جلده صِرفا
وأشهبَ فِضَّيٍّ الأديم مُدَنَّرٍ ... عليه خطوط غير مُفهِمة حرفا
كما خطر الزاهي بِمُهرَقِ كاتبٍ ... فجرَّ عليه ذَيلَهُ وهو ما جفَّا
تَهُبُّ على الأعداء منها عَواصف ... لِيَنسِفَ أرض المشركينَ بِها نسفا
سرى كلُّ طِرفٍ كالغزالِ فتمتري ... أظبيًا ترى تحتَ العجاجة أم طِرفا؟
وقد كان في البيداء يألفُ سِربَهُ ... فَرَبَّتْه مُهرًا وتحسبه خِشْفا
تناوله لفظُ الجوادِ لأنَّه ... متى ما أردتَ الجَريَ أعطاكَهُ ضِعفا

ابن خفاجة:

ولمْ أرَ إلَّا غرَّةً فوق شُقرةٍ ... فقلتُ: حباب يستدير على خمر

نادرة

قيل: وقف أعرابي على أبي عبيد فقال له: ما يعني الشاعر بقوله:

ولقد علوتُ بِمُشرفٍ يافُوخُهُ ... يأتي المجنَّة ماؤه يتفصَّدُ
مرحٍ يَسيلُ مِنَ المراح لُعابُهُ ... فيكاد جلدُ إهابِهِ تتقدَّدُ
حتى علوتُ به مَشَقَّ ثَنِيَّةٍ ... طَورًا أغورُ به وطَورًا أُنجِدُ

فقال: يصف فرسًا. فقال الأعرابي: حملك الله عليه!

برهان الدين القيراطي في حماره:

تراه أوَّلًا في الأكل سبقًا ... وعند السير يأتي في الأخير
وكم وضعوا سُكُرُّجَةً بفِيهِ ... فما منعته عن صحن الشعير

عرض شُرَيح ناقةً ليبيعها فجاء إليه رجل من قريش فقال له: يا أبا أميَّة، كيف لبنها؟ فقال: احلب في أي إناء شئت! قال: وكيف الوطاء؟ قال: افرش ونم! قال: فكيف قُوتُها؟ قال: احمل على الحائط ما شئت! فاشتراها فلم يجد شيئًا مما وصف، فرجع إليه فقال له: لم أرَ شيئًا مما وصفتها به! قال: ما كذبتك.

كتب الصابئ عن بختيار إلى أبي تَغلُب في وصف فرس أهداه له: أمَّا الفرس الذي سألت إيثارك به فقد تقدمنا بقوده إليك، والله تعالى يبارك لك فيه ويجعل الخير معقودًا بناصيته، والإقبال غرة وجهه، وإدراك المطالب تحجيله، ونيل الأماني طلق شأوه، وفتحَ الفتوحِ غايةَ شده، وسلامة العواقب مثنى عِنانه.

ابن حمديس الصقلي:

وكــــأنَّهـــا نُونٌ تُمَطُّ وعَيـــنُهـــا	مـيـمٌ لـطـولِ نُـحـولِـهـا بـالـفـدفـدِ
كحلـتْ جُفونَ اللَّيـلِ منهـا بـالســرى	وتـكـحَّـلـت مـنـه بـلـون الإثـمـد
فلِجِســـمِهـا والصـــبحُ يتبع نورَه	من جفـنِ لَـيلَـتِـهـا انســلالُ المرود
يـا لـيتـهـا كـانـت ســـفينـةَ زاجرٍ	فـتـخـوضَ فـي مـدِّ الـعَبـاب المـزبـد
فـأرى ابـن حـمـدانٍ ونـور جـبـيـنـه	يـجلـو ســـنـاهُ قـذى جفـون الأرمَـدِ

وله أيضًا فيهن:

قِلاصٌ حـنـاهـنَّ الـهُزال كـأنَّهـا	حـنـيَّـاتُ نـبـع فـي أكُـفٍّ جـواذبِ
إذا وردتْ مــن زُرقــةِ المــاءِ أَعــيُنًا	وَقَـفْنَ عـلـى أرجـائـهـا كـالـحـواجِـبِ

ما جاء في رقية الدابة

عن سحيم بن نوفل قال: كنا نعرض المصاحف عند عبد الله فجاءت جارية أعرابية إلى رجل من القوم فقالت: اطلبْ راقيًا فإنَّ فلانًا قد لفع فرسك بعينه فتركه يدور كأنَّه فلك. فقال عبد الله: لا تطلب راقيًا، اذهب فانفث في منخره الأيمن أربعًا والأيسر ثلاثًا ثم قل: بسم الله، لا بأس، أذهبِ البأس رب الناس، واشفِ أنت الشافي، لا يُذهِب الضُّرَّ إلا أنت! قال: فذهب الرجل ثم رجع، فقال: فعلت الذي أمرتني فأكل وبال وراث!

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا استعصت دابةُ أحدكم أو كانت شموسًا فليقرأ هذه الآية في أذنها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

نادرة

قال أبو العنبس: دخل أعرابي السوق ليبيع ناقة له فقال له بعض المجَّان: تبيعها — يا أعرابي — بأير بغل؟ فقال الأعرابي: اقعدْ على عَطِيَّتك، فإنْ زادونا وإلَّا أنت أحقُّ بها.

الأسعد بن مماتي:

أصبح بَغلِي مَثَلًا	يُضرَبُ وهو سائر

ناصر الدين بن النقيب:

لي بغلةٌ مِن ضَعفها	حزامها يثقلها
كأنَّها رِجلَيَّ كما	تحملني أحملها

بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

ترحلت عن ناديك لا عن ملالة	وقد لفعتني بالهجير البسائس
على بغلةٍ أَمطَيتَنِيها قَصيرةٍ	كأنِّي بلا شكٍّ على الأرض جالسُ
وتحسبني مِن فوقها الناسُ راجِلًا	ولكنَّني في ما ترى العين فارسُ

الصاحب بهاء الدين زهير في بغلة شهاب الدين القوصي:

لكَ يا صديقي بغلةٌ	ليستْ تساوي خردلةْ
تمشي فتحسبها العيونُ	على الطريق مشكَّلةْ
وتخالُ مُدبِرةً إذا	ما أقبلتْ مُستعجِلةْ
مِقدار خطوتها الطويـ	ـلةِ حِينَ تُسرِع أَنمُلَةْ
تَهتزُّ وهي مكانها	فكأنَّما هي زلزلةْ
أشْبَهتَها بل أشبهتْـ	ـكَ كأنَّ بينكما صِلةْ

تَحكِي خِصالك في الثُّقا ... لةِ والمَهانة والبَلَهْ

برهان الدين القيراطي:

لي بغلة قد أتعبتْ راحتي ... والرِجلَ من فخذي إلى كعبي
طِباعها خارجةٌ كلُّها ... وقطٌّ لا تمشي على الضَربِ

لأبي الحسين الجزار يرثي حماره:

ما كلُّ حينٍ تنجحُ الأسفارُ ... نَفَقَ الحِمارُ وبارتِ الأشعارُ
خُرْجي على كتفي وها أنا دائرٌ ... بينَ البُيوتِ كأنَّني عَطَّارُ
ماذا عليَّ جرى لأجل فِراقه ... وجَرَت دُموعُ العينِ وهي غزارُ
لم أنسَ حِدَّة نَفْسِه وكأنَّه ... مِن أنْ تُسابقه الرِّياحُ يَغارُ
وتَخالُهُ في القَفر جِنًّا إنَّما ... ما كلُّ جِنٍّ مِثله طيَّارُ
وإذا أتى للحوض لم يُخلَع له ... في الماء مِن قبل الورود عِذارُ
وتراه يَحرس رِجلَه مِن زلَّةٍ ... برشاشها يتنجَّس الحُضَّارُ
وإذا علوتَ عليه يُظهِرُ خِفَّةً ... وإذا نزلتَ يكون فيه وقارُ
وتراه يُلقِي في المعادي نفسَه ... قبل الدَّواب كأنَّه بَحَّارُ
ويَلِينُ في وقت المضيق فيلتوي ... فكأنَّما بيَديكَ منه سِوارُ
ويُشير في وقت الزحام برأسه ... حتَّى تَحيد أمامكَ الحُضَّارُ
لمْ ألْقَ عيبًا فيه إلَّا أنَّه ... مع ذا الذكاءِ يُقال فيه: حمارُ
ولقد تحامته الكلاب وأحجمت ... عنه وفيه كلُّ ما تختار
راعت لصاحبه عهودًا قد مضت ... لمَّا علمنَ بأنَّه جَزَّار
بَعُدَ القريبُ عليَّ منذ عَدِمْتُه ... فلذا نأت دارٌ وشطَّ مَزارُ
وتمنَّعت بالأمن في أوطانها الـ ... ـكُتَّاب والعُمَّال والنُّظَّارُ
ومتى يعوِّضني الزمان بمثله ... مذ عزَّت الأعوانُ والأنصارُ؟

ومن إنشاء المقر الفتحي ابن الشهيد — تغمده الله برحمته — من رسالةٍ كتبها عن حضور اكديش أدهم: وينهي وصول المنعم به على المملوك، فأضافه إلى ما في يده من الصدقات العميمة يقدر قدرها، ويضاعف بالخدمة والنصيحة شكرها، وفرح المملوك أنه ما خُصَّ بالفرس إلا وقد ثبت عند سيده أنه غلام، وما أجراها له من ديوان الخاص إلا لتمييز قَدْره على العوام، ووصل هذا الجواد أدهم من الخيل، كأنما ألبسه الليل حلة سابغة الكُمِّ والذيل، وفهم المملوك من بعثه حالِكَ السواد، أن الأمر العالي اقتضى أن المملوك يكتم هذا الإحسان في سواد الفؤاد، ويستره عن الحُسَّاد، كما ستر الليل عن الرقباء اجتماع أهل الوداد، فتسلمه المملوك كما تسلمت الجفون طيف الحبيب، وأسرَّ السرورَ به لما علم أنه من صدقة السر التي أخفتها اليد الكريمة ولا يعزب عن الله مثقال ذرة منها ولا يغيب، واتخذ المملوك ظهر هذا الجواد حرزًا لأنه من الهياكل، وتصيَّد بعنانه غزلان الأعنَّة لأنه لصيد العز حبائل، وجعله ذخيرة وعزًّا لأنه أدهم لا يندم صاحبه إن نابت النوائب أو غالت الغوائل.

منها: وصل والظهر قد أعوز، والسفر قد أحفز، فجلت همَّتُه الغُمَّة، وجاءت باليد البيضاء فكذبت القائلين: لا خير في الظلمة، فرأيت منه العطايا في سواد المطالب، وركبت من سرجه المحلَّى بالذهب فما جزت في ليل إهابه إلا اهتديت من تلك الحلى بأنوار الكواكب، وقَرَّت به عيني كأنما حلَّ من سوادي، واستوطأتُ ظهره في السُّرى فنمت لما طرق كأنه رقادي.

أدب حسن

قيل لأعرابي له إبل كثيرة: لمن هذه الإبل؟ فقال: لله، في يدي.

وقيل لأعرابي: أنت راعي هذه الإبل؟ فقال: الله راعيها، وأنا مُراعيها.

فائدة جليلة

قال الأمير علاء الدين الدواداري في بعض مجاميعه: رأيت بخط القاضي شمس الدين ابن خلكان للمَغْل: يكتب على حافر الفرس الأيسر بقلمٍ حديدٍ أو مسمار حديد، وكل حرف من هذه الكلمات وحدة مقطعة، وهي: النيل والفرات ودجلة أودية. وقال لي شخص أنه جرَّبه فوجده نافعًا، والله تعالى أعلم.

ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب من قصيدة:

وصَـــبَّحْتَهُم غُرَّ الــجِيــادِ كــأَنَّمــا عــنـد الـثَّـنِـيَّـةِ عــارِضٌ مُـتَـهـلِّـلُ
مِن كُلِّ مُنــجَرِدٍ أغــرَّ مــحــجَّلٍ يَـرمِـي الـجـيـادَ بـه أغَـرُّ مـحـجَّـلُ
زَجِلُ الــجـنــاحِ إذا أجَدَّ لــغــايــةٍ وإذا تـغـنَّـى بـالصـــَّهيـلِ فَـبُـلـبُـلُ
جِيـدٌ كـمـا الـتـفَّ الـظـلـيـمُ وفـوقَه أُذُنٌ مُـمَشـــَّـقـةٌ وطَـرفٌ أكـحَـلُ
وكـأنَّـمـا هـو صـــورةٌ فـي هـيـكـلٍ مـن لـطـفـه وكـأنـمـا هـو هـيـكـل

من كلام سيدي المقر المجدي رحمه الله، حسبما اقترحه السادة المخاديم بالقاهرة المحروسة: البلاغة، جعل الله تعالى أكفَّ موالينا للمقبل والمؤمل ككرائم الخيل، ظهورها عزًّا، وبطونها كنزًا، وآيات كرمه إذا تُلِيَت تهزُّ أعطاف كل جواد هزًّا، ويتبعه في مجاراتها لزًّا، تعلِّي الهمم، وتغلِّي القيم، ويحوز صاحبها قصب السَّبق بالقلم، غير أنها تُلجِئه في اقتراح الإخوان إلى ركوب الأهوال، وتمطيه في اتِّباع أوامرهم صهوات الخطر إذ كان لا خيل عنده يهديها ولا مال، فإنهم — أبقاهم الله تعالى — رمَوا العبد من اقتراحهم بما لا يُطاق، ودفعوه من أوصاف الخيل إلى حلبةٍ سبق إليها جماعة فكيف للمملوك بعدهم باللحاق، نعم، كيف بلحاق تلك الفحول، وأنَّى يمكنه مجاراتهم في هذه الليالي العواطل وقد كانت أيامهم لها غرر معلومة وحجول، فاستقلتُ من هذا الامتحان، واعتذرت: إني لستُ في أمر الخيل من الفرسان، فقالوا: بل أمطَينا الطِّرفَ راكبه، وأعطينا المال واهبه، فإنك ربيب متونها، ومهذب سائسها وحرونها، فجُلْتُ في ميدان الفِكر، وجذبت أعنَّة الحفظ والذكر، إلى أن أنتجا لي ما لو وُقِّفتُ لسترته، ولو تُرِكْتُ لتركته، فابتدأت بوصف أخضر مليح الشيات، كامل الأدوات، يحمل الراكب، ويزيِّن المواكب، ويرضي الشهم الشديد، ويسبق السهم السديد، لا يخرج عن طوع فارسه، ولا يعدو اختيار ممارسه، وكأنَّ أديمه تجعَّد من نور خلاف، أو لُفَّ من جناتٍ ألفاف. وكميتٍ أصمِّ اللون، مليح الكون، بديع الصفات، سريع الالتفات، تثنى على همته الركبان، وتظنه تحت العجاجة نارًا علاها دخان، فسيح الخطوة، شديد القوة، سبط الأديم، معظَّمٌ لدى الكرام ولا عجب إذا عظَّمَ الجوادَ كريم، كأنما صُبِغ بعقار، أو ألبس جلَّنار، كلون الحرباء، أو خيال أزاهر على صفحات الماء، ووجنة حب تكللت بالعرق، ونهر صافٍ طفا بوجهه علق، وبهجة حباب على كؤوس مُدامه، وأشعة تألفت في طوق حمامه، لا تثبت العين معرفته، ولا يوفي البليغ وإن أطنب صفته، ولا يدركه الطير إذا طار، ولا تلحق الريح إذا اشتدت منه غير الغبار، لا يَملُّ للسباق، ولا يزعج راكبه إن قام على قدمٍ وساق. وأبلقَ كريمِ الأصل، محمود الخصل، مجتمع من ظُلمة الهجر، وضياء الوصل، يرى الناظر من لونيه بياض العطايا في سواد

المطالب، وتحقق للمتعجب من تضاددهما أن في الليل والنهار عجائب، لا يجليه البصر إذا سار، ولا ينجو من راكبه عدوٌّ وكيف ينجو مَن خلفه الليلُ والنهار، تفرَّد في جنسه، وكاد يدرك المعقولات بضياء حسه، عظم خبره وخُبره، واشتهر بين الأنام قدره، وعزَّ على مَن رامه وطال وكيف لا وهو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره. وأدهم بهيِّ المنظر، جميل المخبر، تخاله خالًا على وجنة الزمان، وتظنه بين جفني السماء والأرض إنسان، أسرع من السهم، وأنفذ من الوهم، يطوي شقة الفَلا بيديه، ويجتذب سُوَيداوات القلوب إلى حبِّه وشبه الشيء منجذب إليه، تنبئك بالظفر مخايله، وينشدك لونه: لا تلقَ إلَّا بليلٍ مَن تواصله. وبالجملة فكأنما خُلِقَت على اقتراح الرياضة، واختيار الأنفس المرتاضة، فكلها حسن، وكلٌّ منها جاء من الصفات الغريبة بِفَن، يأتي من المشي بما لم يكن في حساب، ويتلو لسان السرعة على مستعظم أشكالها ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾، فالله تعالى يبقي المخدوم ما أنتجت القرائح، وسيرت الخيول بين غاد ورائح، ويكفيه ما يتعنَّى لأجله، ويجعل بابه جنة لأوليائه إذا زحف عليهم الدهر بخيله ورَجِله، بمحمد وآله.

المولى الفاضل شمس الدين ابن الصاحب موفق الدين علي بن الآمدي:

وكُمَيت يَلقى الصخور إذا اشتدْ ... دَ جَريًا بأربعٍ من حديدِ
رقَّ جِلدًا واحمرَّ حتَّى حسبنا ... أنَّه اختال في رداءِ الخُدودِ

وله في فرس أدهم أغر محجَّل:

وأدهم خُصَّ بأوضاحه ... أعلاه بالغرَّة أو أسفلُه
كالليل في أوَّله آخر الـ ... ـيوم وفي آخره أوَّلُه

وله:

بكلِّ جوادٍ سرى السَّهم كأنما ... له السيف خدٌّ والسنان له أذن

ولبعضهم:

قم بنا نركب طِرف اللهو ... سَبقًا للمُدامِ
واثنِ يا صاح عِناني ... لكُمَيتٍ ولِجامي

ولآخر:

ويــومٍ كَسَــتْهُ غُرَّةُ الشَّــمسِ بَهجَةً ... كمـا ذهَّبتـه بـالـعشـــيِّ تـخـيُّـلـي
ركضــــتُ بـه في حلبـةِ اللهو ســـابقًا ... فــيـا لــكَ مــن يــومٍ أغـرَّ مــحــجَّــلِ

ابن المعتز في وصف مطلق الواحدة محجل الثلاث:

ومــحــجَّلٍ غِرِّ الــيــمــين كــأنــه ... مُتَبخْتِرٌ يمشـــي بكُمٍّ مُســـبَــلِ

فخر الدين بن مكانس:

يــا عصــبــة الجود الــذي يرضـــيهم ... فرســـي العتيق ومُهريَ الســـبَّــاقُ
أمــا الــعــتــيــقُ فــلا تُرَجُّوا مِــلــكــه ... وإلــيــكــمُ هــذا الــحــديــث يُســــاقُ

وضمَّن هذا الغزل شيخنا عز الدين الموصلي:

لــحــدِيــثِ بــنــتِ الــعــارضـــينَ طَراوةٌ ... وطَــلاوةٌ هــامــتْ بــهــا الــعُشّـــاقُ
فــإذا نــهــانــي المُردُ قــلــتُ: تَمــهَّــلــوا ... فــإلــيــكــمُ هــذا الــحــديــثُ يُســـــاق

قلت: وفي مقطوعة الشيخ فخر الدين زيادةٌ حسنة على الشيخ عز الدين، وهو قوله: يساق. واستعمل الشيخ عز الدين لفظة حديث في عدة أماكن من مقاطيعه، ولَعَمري أجاد في جميعها! فمنها قوله:

حــديــث عِذار الحــبِّ بــادٍ وســـــاقــه ... لــه أوجــه تبــدي لقلبي اشـــتـيــاقــه
درى أنــنــا نشـــتــاق لطفَ حــديثــه ... فــأبــدى لنــا ذاك الحــديــث وســــاقــه

وقوله:

حــديــث عــذار الحــب في خــدِّه جرى ... كمِســـكٍ على الوردِ الجَنِيِّ تَســـطَّرا
فــقــبَّــلــتــه حــتــى مَحــوتُ رُســـومَه ... كــأنْ لم يكن ذاك الحــديــث ولا جرَى

ولغيره، وليس مما تقدم لكن ذكرناه استطرادًا لموافقة المعنى:

ولمــا اجتمعنــا والســـلوُّ جليسُـــنــا ... علــى أنــنــا نشـــكو الــهوى ونــمــيــلُ
وخَيــل غــرامٍ قــد أتــتــنــا مــغــيــرة ... فــلــم نَــدرِ إلَّــا والســــلــوُّ قــتــيــلُ

ومنه:

وحـيـاةِ مَن أمســـتْ لـديَّ حـيـاتُه   أشـــهى إليَّ مِن اتصـــال حيـاتي
مـا ســـافَرَتْ لحظـاتُ طَرفي بعـدكم   إلَّـا عـلـى خـيـلٍ مـن الـعَـبَـراتِ

ومنه قول عز الدين الموصلي رحمه الله تعالى:

يســـتطرفُ الشَّـــوقُ خيلَ الدَّمعِ ســـابقةً   فتفضِّــل الســـحْبَ فَضــلَ العُربِ للعَجَمِ

وما ألطف قول بدر الدين ابن الصاحب:

بـــاللهِ يـــا بَدرُ زُرنـــي   وعُـدْ مُـحـبًّـا سـقـيـمـا
واكـتـمْ مـجـيـئـك واركـبْ   مِـن الـظـلامِ بَـهـيـمـا

وأنشدني شيخنا العلامة زين الدين أبو بكر بن العجمي لنفسه:

لـمـظـلـمـات الـلـيـالـي   أشـكـو شـجـونـيَ الألـيـمـةْ
وكـيـف تـفـهـم مـعـنـى   شـكـواي وهْـي بـهـيـمـةْ

فخر الدين بن مكانس:

لله أشـكـو مـا جـرى   وهـو بشـكـواي عـلـيـمْ
أنَّ بـهـيـمًا كـان لـي   فضـاع فـي الـلـيـل الـبـهـيـمْ

ولمؤلف الكتاب:

ولَرُبَّ لـيـلٍ طـال مِن تَذكـارهـم   أرعـى الـدُّجـى فـيـه ولـيـس ببـارح
قرح السُّـهـادُ الجفن في ظلمـاتـه   فـلـذاك يُـدعَـى بـالـبـهـيـم الـقـارح

وعلى ذكر البهيم فما أحسن ما أنشدني لنفسه سيدي وأخي القاضي مجد الدين بن مكانس:

لله عصـبـة عشـق   طِـيـبَ الـكَـرى حَـرَمُـوه
عـذولـهـم كـحـمـارٍ   لا بـدع أن صـرمـوه

وأنشدني صدر الدين بن الأدمي لنفسه:

قـلـتُ ولـيـلِي لـونُه حـالـكٌ وجـنـحـه فـي لـيـلـه كـالـسـقـيـم:
وا عـجـبًا لـلصـبـحِ مِن أشـقـرٍ مـا آن يـلـحـق لـيـلًـا بـالـبـهـيـم

الصفدي في أدهم بغرَّة:

تـردَّى أديـم الـلـيـل تـيـهًـا بـنـفـسـه وأطـمـع حـتـى فـي مـنـالِ الـكـواكـبِ
وأبـدى لـرائـيـه بـغـرَّة وجـهـه بيـاضَ العطـايـا في سـواد المطـالـبِ

وأنشدني فخر الدين بن مكانس:

لـنـا فـرس نـلاقـي مـنـه رفـقًا كـرفـق الـوالـديـن إذا ثـمـلـنـا
تـرانـا حـين نـركـبـه سُـكـارى نـمـيـل عـلـى جـوانـبـه كـأنَّا

حدَّث أحمد بن أبي خالد قال: خرج الفيض أحمد بن أبي صالح وأحمد بن الجنيد وجماعة من وجوه الكتَّاب يومًا من دار المأمون منصرفين إلى منازلهم، وكان يومًا مطيرًا، فتقدم الفيض بن أبي صالح وتلاه أحمد بن الجنيد، فنضخت دابة الفيض على ثياب أحمد بن الجنيد برجلها من المطر فتأفَّف أحمد بن الجنيد وقال للفيض: هذه — والله — مسايرة بغيضة! وما أدري حقًّا أوجبَ لك التقدم علينا. فأمسك الفيض حتى صار إلى منزله، ثم دعا بوكيله فأمره بإحضار مائة تخت، في كل تخت قميص وسراويل، ومبطنة وعمامة، وطيلسان، ففعل ذلك فقال: احمل هذه التخوت على مائة حمَّال، وسر بها إلى دار أحمد بن الجنيد، وقل له: أوجب لنا التقدم عليك أنَّ لنا مثل هذا نهديه إليك إذا أفسدنا ثيابك، فإنْ أهديت لنا مثلها قدَّمناك علينا.

قال مؤلف الكتاب رحمه الله تعالى: ختمنا مجلس أُنسٍ بزريبة قوصون بمنزل المرحوم فخر الدين بن مكانس، وكان فيه إذ ذاك جماعة من أعيان متأدِّبي الديار المصرية، فأطلقنا عِنان المذاكرة، وتجارينا في ميدان المحاضرة، إلى أن استطردنا إلى ذكر الخيول، وما قيل فيها من منظوم أزهى من المنثور المطلول، فقال المرحوم فخر الدين: سدُّوا عنا المقاطيع، وأطربونا بالمواصيل! إشارةً إلى ذكر ما قيل فيها من الرسائل التي أذرت بزهر الخمائل، فذكر بعض الحاضرين رسالة القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر التي أولها: وسير من الخيول الرهاوين كلُّ ما هو على الحسن مشتمل. وذكر المرحوم فخر

الدين رسالة الشيخ شهاب الدين محمود التي أولها: وينهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وُجِد الخير في نواصيها. وذكر المملوك رسالة الشيخ جمال الدين بن نباتة التي أولها: وأمَّا الخيل المسيرة. وذكر الشيخ بدر الدين البشتكي رسالة العلامة لسان الدين بن الخطيب التي أولها: ... وذكر القاضي مجد الدين بن مكانس حسب سؤال الجماعة رسالته التي أولها: البلاغة جعل الله أكف مولانا ككرام الخيل ظهورها عزًّا وبطونها كنزًا. فما من الجماعة إلا مَن استحسنها وبالغ في شكرها، فقال المرحوم فخر الدين: ينبغي أن تجمع هذه المقاطيع والرسائل في كراريس بمفردها، ونسميها مجرى السوابق. انتهى المجلس وما ذكر فيه.

الباب الثالث والأربعون

في مصائد الملوك

وما فيها من نظم السلوك

قال بعضهم في الفهد:

وأهرت الشِّدق في فيه وفي يده   ما في الصَّوارمِ والعسَّالة الذُّبُّلِ
تَنافسَ الليلُ فيه والنهارُ معًا   فقصَّماه بجلبابٍ من المُقَلِ
فالشمس مُذ لقَّبوها بالغزالة لم   تطلعْ على وجهه إلا على وَجَل

وقال ابن المعتز فيه:

وعابسِ الوجه لا لقادحةٍ   تحسبه من قبائل التُّركِ
تَخالُ أثوابَه مُصَندَلةً   نقَّطها الغانياتُ بالمِسك

وقال الأَرَّجاني فيه:

وأهرت أُدْمُ الفلا كاسمها   به الدهر أُدْمٌ لها يؤتدم
من النمر خيط على جسمه   أديم تعيَّن لا عن حلم
به علقت شرر لوَّحته   من نار خدٍّ له تضطرم
ففي كل عضو له أعين   تراصد إن هو بالصيد هَم
تراه رديفًا وراء الغلام   وبالشمس الوجه منه التثم

شـــبـيـه ســـريَّةٍ جـيـش غـدت … تُـذيـق الـعِـدى مـقـلـةً لـم تـنـم
جرى الـدَّمـعُ بـالـكحـل من عينـهـا … فـنـمـنـم جـلـبـابـهـا إذ ســـجـم
وقــد كــاد يــخــرج مــن جــلــده … وراءَ الــطــريــدةِ لمَّــا اقــتــحــم
فــقــد نــمَّر الــجــلــد خــوفًــا عــلــيـ … ـــــــه أول مــا الخلق منـه اســـتتم

ابن الأثير الجزري في الفهود: فخرجنا والشمس قد نقص مشرقها عن مغربها، وأمنت حمَّة حرها وإن صارت إلى برج عقربها، بكل فهدٍ قد حيك إهابه من ضدين بياض وسواد، وصوِّر على أشكال العيون فتطلعت إلى انتزاع الأرواح من لأجساد، يبلغ الأمد الأقصى في أدنى وثباته، ويسبق الفريسة ولا يقصها إلى عن التفاته.

القول في طبائعه

زعم أرسطو أنه متولد بين أسد ونمرة، أو بين لبوة ونمر. في طبعه مشابهة لطبع الكلب في أدواته وذواته والنوم الذي يعتريه، ويقال: إن الفهدة إذا حملت وثقل حملها حنا عليها كل ذكر يراها من الفهود، ويواسيها من صيده، فإذا أرادت الولادة هربت إلى موضع أعدَّته، حتى إذا علَّمت أولادها الصيد تركتها، وبهذا الحيوان يُضرب المثل في شدة النوم فيقال: أنوَمُ من فهد.

قال الشاعر وقد عُيِّر بكثرة النوم:

رقــدتْ مــقــلــتــي وقــلــبــي يــقــظــا … نُ يـحـسُّ الأمـور حســـًّـا شـــديـدا
يُحـمَد الـنـوم فـي الـجـواد كـمـا لا … يـمـنـع الـفـهـدَ نـومُـه أن يصـــيـدا

وليس شيء في جرم الفهد من الحيوان إلا والفهد أثقل منه، وأحطم لظهر الدابة، والإناث أصعب أخلاقًا وأكثر جراءة وإقدامًا. وفي أخلاقه الحياء، وذلك أن الرجل يمر بيده على سائر جسده فيسكن لذلك، حتى تصيب يده مكان الثفر فيقلق حينئذ ويغضب. ومن خلقه الغضب، وذلك أنه إذا وثب على طريدة لا يتنفس حتى ينالها، فيحمى لذلك، وتمتلئ رئته من الهواء الذي حبسه، وسبيله أن يُرَاح ريثما يخرج النفس وتبرد تلك الغلة، ويشقُّ عن قلب الطريدة ويشمم إياه ثم يطعمه منه ويسقي ريَّه ماءً إن كان الزمان قيظًا، ودون الري إن كان الزمان بردًا، ولإنْ لم يروِّح لم يفلح بعد ذلك، وإذا أخطأ صيده رجع مغضبًا وربما قتل صائده وفسد.

ومن أخلاقه أنه يأنس بمن يُحسن إليه، ويقال: إنه لص من لصوص السباع، وهو — وإن كان وحشيًّا — فإنه يقبل الأدب، إلا أن كبارها أقبل، وإن تقادمت في التوحُّش. وإناثها أصيد من ذكورها.

وفي طبعه أنه يحب الصوت الحسن ويصغي إليه، وربما كان سببًا لصيده.

ومما ركِّب فيه أن ما عجز عن التكليب منها لهرم يجتمع فيه على فهد يصيد لها في كل يوم شبعها.

وقال أرسطو: والسباع تستنشق رائحة الفهد، وتستدلُّ بها على مكانه، وتعجب بلحمه أشد التعجب، فهو يتغيَّب عنها لذلك، وربما قرب بعضها من بعض فيطمع في نفسه، فإذا أحس السبع منه ذلك وثب عليه فأكله، وهو ألطف شمًّا لأراييح السباع القوية من شمِّ السباع لرائحته الشهية، ولا يكاد يكون على علاوة الريح أبدًا، وهو يستخفي في الشجرة فإذا مر به أيل ففاجأه وثب عليه، وأنشب مخالبه في أكتافه، ومص دمه حتى يضعف الأيل ويسقط، فتجتمع عليه الفهود فتأكله، فإن اجتاز به أسد نهض وترك الفريسة له تقربًا إليه.

والفهد يعتريه داء يسمَّى خناقة الفهود، وقد أُلهِم أنه إذا اعتراه ذلك يأكل العذرة فيبرأ، وينبغي إذا صيد أن يغطى رأسه ويُدخل في جوالق، ويُجعل في بيتٍ قد وضع فيه سراج، ويلازمه سائسه ليلًا ونهارًا، ولا يدخل عليه غيره، فإذا آنس أركبه ظهر دابة وأطعمه على يده.

وأول من صاد به كليب بن وائل، ويقال: همام بن وبرة. وكان صاحبَ لهو وطرب. وأول من حملها على الخيل يزيد بن معاوية وأكثر من اشتهر باللعب بها أبو مسلم الخراساني. وأول من استسنَّ الحلقة في الصيد وأولع بها كثيرًا المعتضد.

والمواضع التي يوجد فيها هذا الحيوان مما يلي بلاد الحجاز إلى اليمن، وما يليها إلى بلاد العراق، ومما يلي بلاد الهند إلى تنبت، والله تعالى أعلم.

القول في طبائع الكلب

قال المتكلمون في طباع الحيوان: الكلب لا سبع تامٌّ ولا بهيمة تامة، حتى كأنه من الخلق المركب، لأنه لو تمَّ له طباع السبعية ما ألف الناسَ، واستوحش من البراري وجانَب القفار، ولو تم له معنى البهيمية في الطبع ما أكل لحم الحيوان، وكَلَبَ على الناس، وإنما جعلناه تبعًا للفهد وهذه حالُه لمشاركته له في حرفة الصيد، واعتناء الناس بتربيته وتعليمه كما اعتنوا بالفهد في ذلك.

وهو نوعان: أهلي وسلوقي. ومما يختص به الكلب السلوقي من الطباع سبب نتاج السلوقي ما حكاه أهل الكلام في الكلبزة: الكلاب تسفد الذئاب، مولعة بتناول ما ترسله عليه وتطلبه بالإحضار خلفه حتى تدركه، فيأخذه لهم، لأن حرصه على الصيد وغضبه ليس من أجل نفسه كما يغضب الفهد، لأن الجوارح تعمل لأنفسها إلا الكلاب، فإنها تكتسب لأصحابها، وهي إذا كثرت عليها الآثار واختلطت تكتئب لذلك، وتذهب في كل جهة حتى تستثبت الأثر وتتحقق جهته، وذلك من حرصها على مطاوعة ربها، واستعدادها لنكاية أعدائه، ومسارعتها لتحصيل غرضه الذي أشلاها بسببه.

ومن أعجب الأحوال فيه أنه إذا عاين الظباء — قريبة منه كانت أو بعيدة — عرف المُقبِل منها والمدبر، وعرف العنز من التيس، وإذا أبصر القطيع لم يقصد غير التيس لعلمه أنه إذا عدا شوطين لم يستطع البول مع شدة الحصر ورفع القوائم، فيقصر مدى خطاه ويعتريه البهر، فيلحقه الكلب. والعنز إذا اعتراها البول في العدو لم تمسكه وقذفت به لسعة السبيل، فلأجل ذلك لا يطلبها.

ومن عجيب أمره أنه يعرف الميت من المتماوت، حتى يقال: إن الروم لا يدفنون ميتًا حتى يعرضونه على الكلاب، فيُظهر من شمِّه إياه علامةً يستدلون بها على حياته أو موته، ويقال: إن هذا الحذق لا يوجد إلا في كلب يسمى القلطي، وهو صغير الجرم، قصير القوائم جدًّا، ويسمى الصبي، وهو مع هذا لا يبلغ رتبة الذئب في الشم والاسترواح. وإناث الكلاب السلوقية أسرع تعلمًا من الذكور، والفهد بالعكس، وهذا النوع يعيش عشرين سنة على ما زعم أرسطو وربما لم يبلغ الإناث هذا السن.

دلائلُ النَّجابة والفراهة في الكلاب السَّلُوقيَّة

أمَّا في الخِلقة، فطول ما بين الرجلين واليدين، وقصر الظهر، وصغر الرأس، وطول العنق، وغضف الأذنين وبُعد ما بينهما، وزرقة العينين، ونتوء الجبهة وعرضها، وقصر اليدين. وأما الألوان فيقال: السود أقل صبرًا على الحر والبرد، والبيض أفره إذا كنَّ سُودَ العيون. وقد قال قوم: إن السود أصبر على البرد وأقوى، وكذلك كلُّ أسوَد من الحيوان.

دلائل الفراهة في الجراء

إذا ولدت الكلبة واحدًا كان أفره من أبويه، وان ولدت ذكرًا وأنثى كان الذكر أفره، وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى في شبه الأم كانت أفره من الثلاثة، فإن كان في الثلاثة ذكرٌ واحد فهو أفرهها.

وقال ابن خفاجة يصفه:

ومُوَرَّسِ السِّـــربـــالِ يُخـــلَع قدُّه ... عـن نَجْـم رَجْـمٍ فـي ســـمـاءِ غُبـارِ
يَســـتنُّ في ســـطرِ الطَّريقِ وقـد عَفـا ... قِـدمًــا فــيــقــرأ أحــرفَ الآثــارِ
عَطَف الضــــمـورُ ســـــراءه فـكـأنَّه ... والـنَّـقـعُ يَـحـجـبُـه هـلالُ ســـرارِ
يَفـتـرُّ عـن مـثـل الـنِّصـــال وإنَّمـا ... يمشـــى على مثـل القنـا الخطَّـارِ

الأرجاني:

وغصـــف يُســـابِقُ عصـــف الريـا ... ح فيســبقـه حصـــرهـا إن نَســـَمْ
ريـــاح مــجســــمــة لــلــعــيــون ... مــقـــلـــدة فـــي طـــلاهـــا رَمَم
لــهــن مــن الــبـيـضِ مصـــقـولـة ... تُســـَلُّ وتُــغـمَـد مـن كـلِّ فـم
فــمــن أبــيــض مــثــل لــون الــدِّمَقْـ ... ـــسِ ومن أصـــفر أملس كـالزُّلَم
فـــاخـــرٍ ذي لمـــعٍ فـــي الســـــوا ... د حـكـى لـونـه نـفـحـةً فـي فـحـم
يـــقـــرط مـــخـــلـــبـــه أذنـــه ... ويســـــبـــق نـــاظـــره حـــيـــث أم

القول في طبائع العُقاب

وهذا الصنف يؤنَّث ولا يذكر، ويسمى العنقاء، على ما ذهب إليه أهل اللغة، وبهذا القول فُسِّر قول أبي العلاء المعرِّي:

أرى الـعَـنـقـاء تَكـبُرُ أنْ تُصـــادا ... فـعـانِـدْ مَـن تُـطـيـقُ لـه عِـنـادَا

ولا خلاف عند أهل اللغة في ذلك.

وهو ينقسم إلى صنفين: عُقاب ورمح. فأما العقاب، فمنها في اللون السود، والخوخيَّة، والصقع، والسقع، والبيض، والشقر، ومنها ما يأوي الجبال، ومنها ما يأوي الصحاري، ومنها ما يأوي القفاص، ومنها ما يأوي حول المدن. ويقال: إن ذكورها من طير آخر لطيف الجرم لا يساوي شيئًا.

والعقاب يبيض في الغالب ثلاث بيضات، ويحضنها ثلاثين يومًا، وما عداها من الجوارح يبيض بيضتين في كل سنة ويحضن عشرين يومًا.

وفي طبع الذكر أنه يمتحن أنثاه، هل هي محافظة له أو مواتية لغيره من جنسه، بأن يصوب بصر فرخيه إلى شعاع الشمس، فإن ثبت عليه تحقق أنهما فرخاه فأمسكهما، وإن لم يصبر عليه ونبا عنه ضرب الأنثى كما يضرب الرجل المرأة الزانية، وطردها من وكره، ورمى بالفرخين.

وهي تربي فراخها إلى أن تقوى على الطيران، فتخرجها وتنفيها عن جميع مواضعها.

ومن حقوقها لفراخها أنها لا تحمل على نفسها في الكسب عليها، ومتى كان الذكر والأنثى في مكان مجتمعين لا يدعان غيرهما من جنسهما ويأوي قريبًا منهما ولا يصيد فيهما، وهي إذا صادت شيئًا لا تحمله على الفور إلى مكانها بل تنقله من موضع إلى موضع، ولا تجلس فيه إلا على الأماكن المرتفعة، لأنها لا تستقل من الأرض إلا ببطء وعُسر.

وإذا صادت الأرانب تبدأ بصيد الصغار، ثم الكبار، وهي أشد جراءة من سائر الجوارح، وأقواها حركة إلى الغضب، وأسرعها إقدامًا، وأيبسها مزاجًا، ولذلك هي أحدُّها، وهي خفيفة الجناح، سريعة الطيران، فهي إن شاءت كانت فوق كل شيء، وإن شاءت كانت بقرب كل شيء، تتغدَّى بالعراق وتتعشى باليمن.

وريشها الذي عليها فروتها في الشتاء وحيسها في الصيف. وربما صادت حمر الوحش، وذلك أنها إذا أبصرت الحمار رمت بنفسها في الماء حتى يبتل جناحاها، ثم تتمرغ في التراب، ثم تطير حتى تقع على هامة الحمار، ثم تصفق على عينيه بأجنحتها فتملأهما ترابًا، فلا يبصر حيث يذهب فيؤخذ.

وهي مولعة بصيد الحيَّات، ووَلوعها بها كوَلوع الحيات بالفأر. وفي طبعها قبل أن تدرب أن تراوغ صيدًا وهي لا تتعب في طلبه، ولا تزال موفية على شرف عالٍ، فإذا رأت سباع الطير قد صادت شيئًا انقضَّت عليه، فيتركه لها وينجو بنفسه، ومتى جاعت لم يمتنع عنها الذئب.

وهي شديدة الخوف من الإنسان، تنظر إليه بقرب منها، ويقال: إنها إذا شاخت وهرمت وثقل جناحها وأظلم بصرها التمست غديرًا، فإذا وجدته حلَّقت طائرةً في الهواء، ثم تقع من حالق في ذلك الغدير وتنغمس فيه مرارًا، فيصحُّ جسمها، ويقوى بصرها، ويعود ريشها ناشئًا إلى حالته الأولى.

ومتى ثقلت عن النهوض وعميت، حملتها الفراخ على ظهورها ونقلتها من مكانٍ إلى مكان لطلب الصيد، وتعولها إلى أن تموت. ومن عجيب ما أُلهِمت أنها إذا اشتكت كبدها من رفع الأرانب والثعالب في الهواء أكلت أكبادها فتبرأ.

وهي تأكل الحيات إلا رؤوسَها، والطير إلا قلوبها، ويدل على هذا قول امرئ القيس:

كـأنَّ قُلـوبَ الـطَّيـرِ رطـبًا يـابسًــا لـدى وَكرِهـا العُنَّاب والحَشَــف البالي

ومنقارها الأعلى يعظم ويتعقف حتى يكون سبب هلاكها، لأنها لا تنال به الطعم حينئذ.

وأول من صاد بها أهلُ المغرب، وإنما رغَّبهم ما رأوا من شدة شرها وعظم سلاحها. وصفة المحمود منها وثاقة الخلق، وثبوت الأركان، وحمرة اللون، وغؤور الحماليق، وأن تكون صقعاء عجزاء، وهي التي تكون على علوتها بياض، وأجودها ما جُلِب من سرب وجبال المغرب.

ابن نباتة:

أتـيـت إلـيـهـا وهـو كـالـفـرخ راقـد فـيـا خـجـلـي لمـا دنـوت وإذلالـي

فقلـتُ: امرســيـه بـالأصـــابع فـالتقى لـدى وكرهـا العُنَّاب والحَشَــف البالي

القول في طبائع البازي

وتنقسم إلى خمسة أصناف: البازي، والزرق، والباشق، والعفصي، والبيدق. والبازي أحرها مزاجًا لأنه قليل الصبر على العطش، ومأواه مساقط الشجر العارية الملتفَّة، والظل الظليل، ومطرد المياه. وهو لا يتَّخذ وكرًا إلا في شجرة لها شوك مختلفة الحجور يطلب بذلك الكِنَّ، ولا يقع في شتاء ولا صيف على أغصانها ولا أطرافها، وإذا أراد أن يفرخ بنى لنفسه بيتًا وسقفه تسقيفًا لا يصل إليه منه مطر ولا ثلج إشفاقًا على نفسه من البرد والحر، ولهذا إذا أخطأ صائده وكان في برية لا شجرَ فيها طار فيها يتعنَّى حتى يلج كهفًا من جبل أو جدار من الأرض ليسكن فيه، ولذلك علق عليه الجرسُ كيما يدل على موضعه إن خفي.

وهو لا يطيق البرد ولا الحر لرقة جوانحه، فسبيله في البرد أن يُقرَّب منه النار ليدفأ ويجعل تحت كفيه في الشتاء وبر الثعلب واللبود. وسبيله في الحر أن يُجعَل في كنٍّ كنين من السَّموم بارد النسيم، ويفرش له الريحان والخِلاف.

وهو خفيف الجناح، سريع الطيران، يلف طيرانه كالتفاف الفاختة، ويسهل عليه أن يزج نفسه صاعدًا وهابطًا، وينقلب على ظهره حتى يلتقم فريسته. وسبيله أن يضرَّى على الدرَّاج والنبح إن كان طويل المِنسَر، وإن كان قصير المنسر فسبيله أن يضرى على طير الماء والحبرج.

والإناث من هذا الصنف أجرأ على عظام الطير من ذكورها.

قال أصحاب البيزرة في الكلام على الإناث من البزاة: إذا كان وقت سفادها وهياجها يغشاها جميع أجناس الحيوان الضواري كلها: الزرق، والشاهين، والصقر. وإنما تبيض من كل طير يغشاها، ولهذا تجيء مختلفة الأخلاق من الحِسِّ، والجراءة، والخبث، والغدر، والذكاء، والقوة، والضعف، والحسن، والقبح، والشراهة، ولهذا البازي لا يترك ما بين العصفور إلى الدراج والكركي.

وصفة الفاخر منه أن يكون قليل الريش، أحمر العينين حادَّهما، وأن يكونا مقبلتين على منسره، وحاجبهما يطلان عليهما لا يكون وضعهما في جنبي رأسه كوضع عين الحمام، والأزرق دون الأحمر العين، والأصفر دونهما، وسعة الأشداق دليل على قوة الافتراس.

ومن صفاته المحمودة أن يكون طويلًا، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، شديد الانخراط إلى ذنبه، وأن تكون فخذاه طويلتين مُسَروَلَين بريش، وذراعاه قصيرين غليظين، وأشاجيع كفيه عارية، وأصابعه متفرقة لا تكون مجتمعة ككف الغراب، ومخلبه أسود، ومنسره رقيقًا. وأفخر الألوان البيض، ثم الشهب، وهما لونان يدلان على الفراهة والكرم، وأما الأسود الظهر، المنَتَّش الصدر بالسواد والبياض، فهو يدل على الشدة والصلابة، فإنِ اتفق أن يكون أحمر العينين — وكثيرًا ما يتفق — كان النهاية. وهذا اللون في البزاة كالكميت من الخيل، لأنه يدل على الشدة.

والأحمر من هذا الصنف أحسن البزاة، لأنه فيها كالسوسي من الخيل، بعيد من الصلاح.

وأول من صاد بهذا الجارح لُذريق أحد ملوك الروم الأُوَل، وذلك أنه رأى بازيًا إذا علا كثف، وإذا أسفل خفق، وإذا أراد أن يسمو ذرق، فاتبعه حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الدغل، فأعجبته صورته فقال: هذا طائر له سلاح تتزيَّن بمثله الملوك! فأمر بجمع عدة من البزاة فجمعت وحصلت في مجلسه، فعرض لبعضها إيم فوثب عليه فقتله، فقال: ملك يغضب كما تغضب الملوك. ثم أمر به فنُصب على كندرة بين يديه، وكان هناك ثعلب فمر به مجتازًا فوثب عليه، فما أفلت منه إلا جريحًا، فقال: هذا جبَّار يمنع حماه. ثم أمر به فضرِّي على الصيد واتخذته الملوك بعد ذلك.

ابن الأثير في البُزاة: وأطلقت لك البزاة بعد أن ذكر اسم الله على إطلاقها، وتعلقت بما فوقها من الطيور حتى كأنما هي أطواق في أعناقها.

ومن رسالة لأبي إسحاق إبراهيم بن خفاجة يصف بازيًا: طائر يُستَدلُّ بظاهر صفاته على كرم ذاته، طَورًا ينظر نظر الخُيَلاء في عطفيه كأنما يزهى به جبار، وتارة يرمي نحو السماء بطرفه كأنما له هناك اعتبار، وأخلق به أن ينقض على قنيصةٍ شهابًا، ويلوي ذهابًا، ويحرقه موقدًا والتهابًا، حميد

العين والأثر، حديد السمع والبصر، يكاد يحس ما يجري ببال، ويسري في خيال، قد جمع بين عزة مليك وطاعة مملوك، فهو بما يشتمل عليه من علو الهمة، ويُرجع إليه بمقتضى الخدمة، مؤهل لإبراز ما تقتضيه شمائله، وإيجاب ما تعد به مخايله، وخليق بمحكم تأديبه، وجودة تركيبه، أنْ لو مثل له النجم قنصًا، أو جرى للبرق فصصًا، لاختطفه أسرع من لحظه، وأطوع من لفظه، وانتشبه أمضى من سهم، وأجرى من وهم، وقد أقسم بشرف جوهره وكرم عنصره، لا توجَّه مسفرًا إلا وعاد قنيصه معفرًا، وآب إلى يد من أرسله مظفرًا، مورد المخلب والمنقار، كأنما اختضب نحبًا أو كرع في عُقَار.

وصفاته المحمودة أن يكون صغيرًا في النظر، ثقيلًا في الميزان، طويل الساقين، قصير الفخذين، عظيم السلاح بالنسبة إلى جسمه.

القول على الصقر

وهو من الجوارح بمنزلة البغال من الدواب، لأنه أصبر على الشدة، وأحمل لغليظ الغداء، وأحسن إلفًا، وأشد إقدامًا على جملة الطير من الكراكي والجوارح، ومزاجه أبرد من سائر ما تقدم وأرطب، وذلك معروف من ركوده وقلة حركته وعدم التفاف ريشه، وبهذا السبب يضرَّى على الغزال والأرنب، ولا يضرى على الطير لأنها تفوته.

وفعله في صيده الانقضاض والصرم، وهو غير صافٍ بجناحه ولا خافق به، ومتى خفق بجناحيه كانت حركته بطيئة بخلاف البازي، ويقول أصحاب البيزرة: إنه أهدى نفسًا من البازي، وأسرع أُنسًا بالناس، وأكثرها رضا وقناعة، وهو يغتذي بلحوم ذوات الأربع، ولبرد مزاجه لا يقرب المياه ويعافها، ولو لم يجدها الدهرَ لما أرادها، ولأجل ذلك يوصف بالبَخْر ونتن الفم.

وفي طبعه أنه لا يركب الشجر ولا شوامخ الجبال، ولا يأوي إلى المقابر والكهوف وصدوع الجبال، وفيه جبن، ونفسه دون شدته، ولذلك يضرب الغزال والأرنب ويهرب منه، ولا يكاد يعلق بفريسة، فإذا فارقها عاد إليها منقضًّا فيضربها ويرقى هاربًا، وكلما تقدم ذكره ينقى بالماء ويغتسل، وهو ينقى بالتمعُّك في الرمل والتراب.

وصفاته المحمودة أن يكون أحمر اللون، عظيم الهامة، واسع العينين، تامَّ المِنسر، طويل العنق والجناحين، رحب الصدر، ممتلئ الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير الساقين والذنب، قريب الفقرة، سبط الكف، غليظ الأصابع فيروزجيها، أسود اللسان.

وأول من صاد به وضرَّاه الحارث بن معاوية بن ثور بن كندة، فإنه وقف يومًا على صياد قد نصب للعصافير شبكةً، فانقضَّ صقر على عصفور قد علق فجعل يأكله، والحارث يعجب، فأمر فأُتِي به وقد اندقَّ جناحاه، فرمى به في كسر بيت ووكل به من يطعمه قدرته، حتى صار إذا أتى إليه باللحم ودعاه أجاب، ثم صار يطعمه على اليد، ثم صار يحمله لا يسيبه. فبينما هو يومًا يحمله إذ رأى حمامةً فطار عن يده إليها فأخذها وأكلها، فأمر الحارث باتخاذها والتصيد بها، فبينما هو يومًا يسير إذ لاحت له أرنب فطار إليها وأخذها. فلما رآه يعاقب بين الطيور وبين الأرانب ازداد الحارث فيه محبة واغتباطًا، واتخذته العرب بعده.

وقال كشاجم فيه:

غدونا وطرف النجم وسنان غائر ... وقد نزل الإصباح والليل سائرُ
بأجدلَ من حُمْر الصقور مؤدَّبٍ ... وأكرمُ ما قرَّبتَ منه الأحامر
جرى على قتل الظباء وإنني ... ليعجبني أن يكسر الوحشَ طائر
قصير الذُّنابى والقدامى كأنها ... قوادم نسرٍ أو سيوفٌ بَواتر
ونقش منه جؤجؤ فكأنَّه ... أعارته أعجامَ الحروفِ الدفاترُ
فما زلتُ بالإضمار حتى صنعته ... وليس يحوز السَّبقَ إلَّا الضوامر
وتحمله منَّا أكفٌّ كريمةٌ ... كما زهيت بالخاطبين المنابر
وعنَّ لنا من جانب السَّفحُ رَبرَب ... على سننٍ تستنُّ منه الجآذِر
تجلى وحُلَّت عقدةُ السير فانتحى ... لأوَّلها إذ أمكنته الأواخرُ
يَحثُّ جناحيه على حرِّ وجهه ... كما فُصِّلت فوق الخدود المعاجر
وما تمَّ رجعُ الطَّرفِ حتى رأيتُها ... مصرَّعةً تهوي إليها الخناجر

القول على الشاهين

تقول أصحاب البيزرة: الشاهين من جنس الصقر إلا أنه أبرد منه وأيبس، ولأجل ذلك تكون حركته من العلو إلى السفل شديدة، وليس يحلِّق في طلب الصيد على خط مستقيم، وإنما يحوم لثقل جناحيه حتى إذا سامت فريسته انقض على فريسته هاويًا من علو إلى سفل، فضربها وقرنها بطلب الصعود،

فإن سقطت على الأرض أخذها، وإن لم تسقط عاد وضربها لتسقط، وذلك دليل على جبنه، وفتور نفسه، وبرد مزاج قلبه. وعلى كلٍّ حال، فالشاهين أسرعها وأخفها، وأشدها ضراوة على الصيد، إلا أنهم عابوه بالإباق، وربما يعتريه الحرص حتى إنه ربما ضرب بنفسه الأرض فمات.

ويقولون: إن عظامه أصلب من عظام سائر الجوارح، ولذلك هو يضرب بصدره، ويعلق بكفه.

وقال بعض حذاق هذا الفن: الشاهين كاسمه يعني الميزان، لأنه يحتمل أدنى حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع.

والمحمود من صفاته أن يكون عظيم الهامة، واسع العينين حادَّهما، تام المنسر، طويل العنق، رحب الصدر، ممتلئ الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير الساقين، قريب الفِقرة من الظهر، قليل الريش، تام الخوافي، رقيق الذنَب، إذا صلبت عليه جناحاه لم يفضل عنهما شيء منه، فإن كان كذلك فهو يقتل الكراكي ولا يفوته صيد كبير.

وزعم أهل الإسكندرية أن السود منها هي المحمودة، وأن السواد أصل لونها، وإنما قلبته التربة فحال، ويكون فيها اللمع.

ويقال: إن أول من صاد بها قسطنطين ملك عمورية، حُكِي أنه خرج يومًا يتصيد بالبُزاة حتى انتهى إلى خليج القسطنطينية، وهو المسمى بحر نيطش، فعبر إلى مرجٍ بين الخليج والبحر، فنظر إلى شاهين يلقي نفسه على طير الماء، فأعجبه ما رأى من سرعته وضراوته ولجاجه على الصيد، فأمر أن يُنصَب له حتى صِيد، فأخذه وضرَّاه، ثم رُيِّضت له بعد ذلك الشواهين، وعلِّمت أن تحوم على رأسه إذا ركب فتظله من الشمس، فكانت تنحدر مرةً وترتفع أخرى، فإذا نزل وقفت حوله.

الوصف والتشبيه

قال صلاح الدين الصفدي ملغزًا في بجع:

ما طائر في قلبه يلوح للناس عجب
منقاره كبطنه والرأس منه في الذنَب

محيي الدين بن عبد الظاهر:

بي من أميرِ شِكارٍ هوًى يُذيب الجوانح

لمَّا حكى الظبيَ حُسنًا حَنَّتْ إليه الجوارح

نقلت من كتاب المصايد والمطارد لأبي الفتح كشاجم: قيل لمن كان مدمنًا للصيد من حكماء الملوك: إنك قد أدمنت هذا وهو من خير الملاهي، وفيه مشغلة عن مهم الأمور ومراعاة الملك. فقال: إن للملك في مداومة الصيد حظوظًا كثيرة، أقلُّها تنبئه في أصحاره مواقع العمارة من بلاده في النقصان والزيادة، فإن رأى من ذلك ما يسره بعثه الاغتباط به على الزيادة فيه، وإن رأى أمرًا ينكره جرَّد عنايته له ووفرها على تلافيه، فلم يستتر عنه حال، ورأس المُلك العمارة، ولم يخرج ملك إلى الصيد فيرجع بغير فائدة، إمَّا حداثة خيله فيمرنها ويكفُّ من عرب جماحها، وإما شهوته فيفشُّها، وإما فضول بدنة فيذيبها، وإما مراودة ومفاضلة فيسلسها، وإما أن يكون قد طويت عنه حالُ مظلوم فيتمكن من لقائه ويرفع إليه ظلامته، فيسلم من مأثمه، وإما أن ينكفئ بصيدٍ يتفاءل بالظفر به، إلى خلال كثيرةٍ لا يُجهل ما فيها من الربح.

ومنه ومن فضل العلم بالصيد والعادة وهو ما حكاه لي أبي عن أبي إسحاق إبراهيم بن السُّدي، عن عبد الملك بن صالح الهاشمي، عن خالد بن برمك، أنه كان نظر وهو مع صالحٍ صاحب المعلى وغيره من رجال الدعوة، وهو على سطح قرية نازل مع قحطبة حين قفلوا من خراسان، وبينهم وبين عدوهم مسيرة ليالٍ وأيام إلى مقاطيع ظباء مقبلةٍ من البر، حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة: نادِ في الناس بالإسراج والإلجام، وخذ الأهبة. فتشوَّف قحطبة فلم يجد شيئًا يروعه، فقال لخالد: ما هذا الرأي؟ فقال: أما ترى هذه الوحوش قد أقبلت؟ إنَّ وراءها تجمعًا يكشفها! فما تمالك الناس أن تأهبوا حتى رأوا طليعة، ولولا علم خالد بالصيد لكان الجيش قد اصطلم.

ووقف بعض الملوك بصومعة حكيمٍ من الرهبان، فناداه فاستجاب له، فقال له: ما اللذة؟ فقال: كبائر اللذات أربع، فعن أيهنَّ تسأل؟ قال: صفهن لي. قال: هل تصيَّدت قطُّ؟ قال: لا. قال: ألك حظ من السماع والشراب؟ قال: لا. قال: فهل فاخرت ففخرت، أو كاثرت فكثرت؟ قال: لا. قال: وما بقي من اللذات!

الجوارح أربعة: البازي، والشاهين، والصقر، والعُقاب، وما يضاف إليها فنقتصر على ذكر هذه الأربعة إذ كانت أركان الجوارح ومعتمد الملوك عليها.

فالمبدأُ به منها البازي: يقال: بازٍ وبُزاة، مثل: قاضٍ وقضاة. وبيزان كغارٍ وغيران. وبازي وبوازي. قال لبيد بن ربيعة:

لقيت لنا بَوازِيَ صائداتٍ   وطيرُك في مكامنها لبود

وأول من تهدى إلى الصيد به تقدم ذكره.

ولا يُعرف كحرصه حرصًا، ولا كجده جدًّا.

وفي أخبار نصر بن سيار أن بعض كبراء الدهاقين غدا عليه بطَبَرِستَان ومعه منديل فيه شيء ملفَّف، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه هيئة شِلوِ بازٍ ودُرَّاجة محترقين، فقال نصر: ما هذا؟ فقال الرجل: خرجت ومعي هذا البازي، وثارت درَّاجة فاضطرب عليها وأحست به، وقد كنت مررت بقصبة أفسدت أرضًا لي، فأمرت بإحراقها فأضرمت، فتحاملت الدراجة حتى اقتحمت النار هاربة، واشتدَّ قربه إليها فلم تثنه النار عنها، واقتحم في أثرها، فأسرعت فيهما فأدركهما البازبار وقد احترقا، فأحضرتهما للأمير ليرى بهما ثمرة إفراط الحرص وإفراط الجبن.

وما أحسن صورةً اجتمع فيها ثلاث بزاة على ظهر فرس في كف رجل.

واختلف رأي الملوك فيما مثَّلته في تيجانها ولباسها، فكانت أمثلة تاج ملك جيلان ولباسه صورة بزاة، فقيل له في ذلك فقال: وجدت الإنسان تحمله الفرس، ووجدت البازي يحمله الإنسان، لينال عليه لذته وبغيته وطرده، ووجدته أيضًا ملك نوعه، وإذا كنت أحمله جسمًا في الحقيقة فلا أعار به، فإن في تمثيله وحمله مثالًا في لباسي وحُليتي أُعذَر.

ومن فضائله أن الصيد فيه طبعٌ، لأنه يؤخذ فرخًا من وكره من غير أن يكون حذق ولا تصيد مع أبويه، فيصيد ابتداء من غير تضرية ولا استجابة، وليس ذلك في الصقر، والصقر بعكسه.

ومن ملح أخباره وأمثاله أن خالد بن برمك قال: بَينا أبو أيوب الكاتب جالس في أمره ونهيه إذ أتاه رسول المنصور، فامتقع لونه، فلما رجع تعجَّبنا من حاله، فقال: أنا أضرب لكم مثلًا: زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض حيوان أقلُّ وفاءً منك! قال: وكيف ذلك؟ قال: أخذوك أهلُك بيضةً فحضنوك، ثم خرجت على أيديهم وأطعموك في أكفِّهم، ونشأت بينهم، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو إليك أحد إلا طِرت مرة كذا ومرةً كذا وصوَّتَّ، وأُخِذتُ أنا من مستَأمَن الجبال، فعلموني وألقوني في الهواء، فآخذ صيدي فأجيء به إلى صاحبي. فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفادهم مثل الذي رأيت من الديوك كنتَ أنفر مني، ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم ما تعجبتم من خوفي مع ما ترون من تمكن حالي.

وأقول: إن هذا المثل يتصل به معنى حسن لكفاءة السلطان وأعوانه، وهو أنه ينبغي لتابع السلطان أن يجتهد في توفير الحظ واجتلاب المنافع إليه، حتى يكون كالبازي الذي دفع عن نفسه ما وقع الديك

فيه برغبة صاحبه في كسبه ورده، ولم يقنع له بالسلامة حتى أكرمه بالدستيان، وأركبه يده، وحلاه الجلجل، وأطعمه من خالص كسبه ومن غير كسبه، وعجز الديك عن هذه الفضائل والمكاسب، واقتصر على شهوة السفاد والترفه واللقط، فحل به ما حل.

أمارات الجُرأة فيه

يُمتَحن ذلك بأن يُنصَب في بيت مضيء ثم يقطع عنه الضوء بأن يسد ما يدخل إليه من النور، فإذا أظلم البيت دنوتَ من البازي فلمسته مسرعًا، فإن وثب على يدك وقبضها فهو جريء يصيد عظام الطير، وإن لم يقبض وسكن فليس كذلك.

ومن أمارات القوة أن يشد في زاوية البيت وينظر أين يبلغ بذرقه من الحائط، فأرفعها ذرقًا أشدها قوة وتدلُّ قوته على طيرانه وصيده.

ومن ملح ما ورد في التعريض باسمه ما قاله بعض التميميِّين لرجل من نمير: ما أحسن صيد البازي! فقال له النميري: لا سيِّما إذا أُرسِل على القطا.

أراد التميمي قول القائل:

أنا البازي المطلُّ على نمير　　　أُتِيحَ مِن السماءِ لها انصبابا

وأراد النميري قول الآخر:

تميمٌ بطُرقِ اللُّؤمِ أهدَى مِن القَطا　　　ولو سَلَكتْ سُبلَ المَكارِمِ ضَلَّتِ

قلت: وما أحسن جواب بعض الشعراء وقد حضر بين يدي أمير يمدحه فقال له الأمير: ممَّن الرجل؟ فقال: تميم. فقال: من الذين يقول فيهم القائل:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا

فقال: بتلك الهداية جئتك. فخجل الأمير وسأله كتمانها بعد الإجازة.

الأوقات المحمودة للصيد

يوم الغيم الذي لا مطر فيه ويوم المطر للقصف، ويوم الصحو للقاء الناس، والملوك تغلس للطرد لأن الطرائد في ذلك الوقت تكون رابضة فتستثار وفيها أثر النوم، وأما يوم الصيد فالسبت. وقد قيل في ذلك:

لَنعمَ اليومُ يَومُ السَّبتِ حقًّا لصيدٍ إنْ أردتَ بِلا امْتراءِ

والاختيار في باب النجوم فهو اختيار الحرب، والوجه أن يكون صاحب السابع في الطالع، فيكون المتبوع مأسورًا، ويكون القمر مناظرًا لأحد السعدين أو متصلًا به في برج ذوات أربع قوائم.

قال أبو سهل النوبختي: وصاحب الطالع فيه الزُّهَرة والمشتري بسعدها بنظره، وهذا معدن من معادن علم النجوم.

الشيخ جمال الدين بن نباتة يقرض رسالة بندقية: ومن بندقيةٍ لها الشرف الرفيع على كل قول، والطرف البعيد على كل ذي صوغ من اللفظ وصَول، وصف فيها الرياض فكأنما وصف كلامه، وذكر فيها الواجب فكأنما ذكر بحقوق هذه الصناعة قيامه، فما قوس السماء بدا في مصبغات غلائله، ورمى ببندق بردة الحدب في مقاتله، بأبهج من وصفه لتلك القسي المذبحة الجافية، المتعطفة الجانية إلا على الطير الممتنع، الصائبة بعيون أوتارها شمله المجتمع قسي قاسية الجوانح، لينة إلا على الجوارح، طالعة أهلَّتها بفناء السوانح والبوارح، ومبتذلة مكرَّمة صامتة، إلا أنها لذوات الجوارح مكملة، قادرة على العطاء والعطب، باهرة الفضائل التي لولا بدائع الصنع لما تبدت منها في عصب، قد ألفت الرياض فلبست بعض برودها، وطلبت شأو السماء فنثرت مثل عقودها، تقوم بالواجب، وتعين بعينٍ وحاجب، وتأخذ على الطير المطار، وتذكر قيامها تحته وهي غصن فتطالبه بالثأر، كأنَّ كل قوس منها حاجبان وقبضته البلج، وكأن بيدقها طالب ما فتح باب نجاح وجناح إلا ولج، ومن غزالية غزلية يراعية أسلية، تقنص فيها شوارد الحِكَم، وتبدو به المعاني بجناح القرطاس ومخلب القلم، وتصرف من قريض مواطن الصيد في باب المنايا والمنائح، وتلطف في الأقوال التي لو شاء لعطفت عليها الظباء السوانح، وأتى بعيون الدر التي نظمت، وفنون الحلل التي رقمت، لا بالجزع الذي لم يثقب من عيون الوحش، ولا بمناديل أعراف الجياد التي غيرها المَشُّ، حتى عرف البلغاء أنه أقوى على دفع الخَطْب وسجع الخُطَب، وأن أقلامهم إذا شاركت قلمه في المعاني كان منه الصيد ومنها الحطب، وأن غزالًا وصفه قد شرف على الغزالة وزها بما حشد من التقريض وغزاله، فلو استطاع لشكرَ منه كرمًا، لسطَّرَ مدحه

فكان اللحظ دواة والقرن قلمًا، على أن عدل قلمه لو شاء لم ترع ظبيةً في مداها، ولم تخف من مناسر البزاة حد مداها، ولم تبلغ يد منهم من ريمٍ مُرامًا، ولكانت عينه — بل كل عين في جسده — من أعين الظباء حرامًا.

وله فيها:

أســـــعِدْ بِهـــا يـــا قَمـــري بَرزةً ســــعـــيـدةَ الــطــالِــع والــغــارِبِ
صَـــرَعْتَ طيرًا وســـكنـتَ الحشـــا فــمـــا تــعــدَّيــتَ عــن الــواجــبِ

وله أيضًا من رسالة طردية: حاملين قسيًا كالأهلة لا جرم أنها تقصر لذوات الجناح عمرًا، متأبطين لجراوات يقول الطير عن حاملها: هذا الذي تسمِّيه العرب تأبط شرًّا.

ومن إنشاء القاضي شهاب الدين محمود الحلبي: وبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتسير من الأفق الغربي إلى موضع رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمد، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريضِ إلى وجوه العُوَّد فكأنها كثيب أمسى من الفراق على فَرَق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدة الرمق، وقد اخضلَّت عيون النور لوداعها، وهم الروض بخلع حلته المموَّهة بذهب شعاعها.

والــطَّلُّ فــي أعــين الــنُّوَّار تــحســـــبــه دمــعًــا تــحــيَّــر لــم يــرقــأ ولــم يــكــفِ
كلؤلؤٍ ظــلَّ عطفُ الغصـــــن متَّشـــحًا بــعــقــده وتــبــدَّى مــنــه فــي شـــــنــفِ
يُضَـــمُّ من ســـندسِ الأوراق في صـــررٍ خُضـــرٍ ويجبي من الأزهار في صـــدف
والشـــمس في طفل الإمســـاء تنظر مِن طَرف غــدا وهو من خوف الفراق خفي
كعــاشـــقٍ ســـــار عن أحبــابــه وهفــا بــه الــهــوى فــتــراءاهــم عــلــى شـــــرف

إلى أن نضا المغرب عن الأفق ذهب قلائدها، وعوضه عنها من النجوم بخدمها وولائدها، فلبثنا بعد أداء الفرض لبثَ الأهلة، ومنعنا جفوننا أن ترد النوم إلا تحلَّة، ونهضنا وبرد الليل موشَّع، وعقده مرصَّع، وإكليله مجوهر، وأديمه معنبر، وبدره في خدر سراره مستكن، وفجره في حشا مطالعه مستجن، كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليطا مسك وصندل، وكأن ثرياه لامتداده معلقة بأمراس كتان إلى صُمِّ جَندَل.

ولاحــتْ نــجــومُ الــلــيــل زُهــرًا كــأنــهــا عــقــودٌ عــلــى خُــودٍ مــن الــزِّنــج تُــنــظَــمُ

مـحـلَّقـةً فـي الـجـوِّ تـحسَـبُ أنَّهـا	طـيـورٌ عـلـى نـهـر الـمـجـرَّة حُـوَّم
إذا لاح بـازي الصـبـح ولَّت يـؤمُّهـا	إلى الغرب خوفًـا منـه نسـرٌ ومِرزَمُ

إلى حدائق ملتفة، وجداول محتفَّة، إذا جمَش النسيم غصونها اعتنقت عناق الأحباب، وإذا فرك من المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحيَّات ورقصت في المناهل رقص الحَبَاب، وإن لثم ثغور نورها حَبَته بأنفاس المعشوق، وإن أيقظ نواعس ورقها غنَّته بألحان المشوق، فنسيمها وانٍ، وشميمها بعرف الجنان عنوان، ووردها من سهر نرجسها غيران، وطلها في خدود الورد مهتدٍ وفي طور الريحان حيران، وطائرها غَرِد، وماؤها مطَّرِد، وغصنها تارةً يعطفه النسيم إليه فينعطف، وتارة يعتدل تحت ورقائه فيظنها قومٌ همزةً على ألف، مع ما في تلك الرياض من توافق المحاسن وتباين الترتيب، إذ كلما اعتلَّ النسيم صحَّ نشر الروض، وكلما خر الماء شمخ القضيب.

وكـأنَّمـا تلـك الغصـون وقـد ثنـت	أعطـافهـا رُسـُلُ الصَّـبـا أحبـابُ
فلهـا إذا افترقـتْ من اسـتعطـافهـا	صُـلحٌ ومن سـَجعِ الحمـامِ عِتـابُ
وكـأنَّهـا حَولَ الـعـيـونِ مـوائسًـا	شـرب وهـاتِـيـكَ الميـاه شَـرابُ
فـغـديـرهـا كـأسٌ وعـذبُ نـظـامِهـا	راحٌ وأضـواء الـنـجـوم حَـبـابُ

تحيط بمَلَقٍ ماؤها صافٍ، وظلالٍ دوحها ضافٍ، وحصباؤها بصفاء مائها في نفس الأمر راكد في رأى العين طافٍ، إذا دغدغها النسيم العليل حسبتَ ماءها بتمايل الظلال فيه يتبرَّج ويميل، وإذا اطَّردتْ عليه أنفاسُ نسيم الصبا ظننتَ أفياء تلك الغصون فيه تارةً تتموَّج وتارة تسيل، فكأنه محبٌّ هام بالغصون هوًى فمثلها في قلبه، وكأن النسيم أيضًا كَلِف بها يحار من دنوِّها إليه فميَّلها عن قربه.

والسـرو مـثـلُ عـرائـس	لُـفَّـت عـلـيـهـا المُـلاءُ
شَـمَّرنَ فَضـلَ الأزْرِ عـن	سـُوقٍ خَـلاخِـلُـهُـنَّ مـاءُ
والـنـهـرُ كـالمـرآة تُبـ	ـصـر وجهَهـا فيـهِ السـَّمـاءُ

وكأنَّ صوافَّ الطير المبيضة بتلك الملق خيام، أو ظباء على الرَّقمتين قيام، أو أباريق من فضة رؤوسها لها فدام، ومناقرها المحمرَّة أول ما سُكِب من المدام، وكأن رقابها رماح أسنَّتُها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما انطفأ وأحمرُه ما التهب، وكنا كالطير الجليل عَدِّه، وكطراز العمر الأول جدِّه:

مِن كـلٍّ أبلـجَ كـالـنســـيـمِ لـطـافـةً   عَـفٍّ الضـــمـيـرِ مُـهـذَّبِ الأخـلاقِ
مِثـل الـبـدورِ مَلاحـةً وكـعُمـرِهـا   عَـدَدًا ومثـل الشـمسِ في الإشـــراقِ

ومعهم قسيٌّ كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلة في نحافتها وتكوينها، والأزهار في ترافتها وتلوينها، بطونها مدبَّجة، ومتونها مدرَّجة، كأنها كواكب الشولة في انعطافها، أو أوراق الظباء في التفافها، لأوتارها عند القوم أوتار، ولبنادقها في الحواصل أوكار، إذا انتصبت لطيرٍ ذهب من الحياة نصيبه، وإذا انتضت لري بدت لها أنه أحق بها من نصيبه، ولعل ذلك الصوت زجر لبندقها أن يبطئ في سيره، أو يخطئ الغرض إلى غيره، أو وحشة لمفارقة أفلاذ كبدها، أو أسف على خروج بنيها عن يدها، على أنها طال ما نبذت بنيها بالعراء، وشفعت لخصمها التحذير بالإغراء.

مـثـل الـعـقـاربِ أذنـابًا مـعـقَّدةً   لَـن تـأمَّـلـهـا أو حـقَّـقَ الـنَّـظـرا
إنْ مـدَّهـا قـمـرٌ مـنـهـمْ وعـايَنـه   مُســـافِرُ الطيرِ فيها وانبرى ســفرا
فهو المســـيءُ اختيـارًا إذْ نوى ســفرًا   وقـد رأى طـالعًـا في العقرب القَمَرا

ومن البنادق كُراتٌ متَّفقة السَّرد، متحدة العكس والطَّرد، كأنما خرطت من المندل الرَّطب أو عُجِنت من العنبر والورد، تسري كالشهب في الظلام، وتسبق إلى مقاتل الطير مُسدَّدات السِّهام.

مثـل النجوم إذا مـا سِـرنَ في أُفُقٍ   عـن الأهِـلَّـة لـكـن نـونـهـا راءُ
مـا فـاتهـا من نجوم الليـل إن رَمَقَتْ   إلا ثـبـاتٌ يُـرى فـيـهـا وأضــواء
تســري ولا يشـعرُ الليـلُ البهيم بهـا   كـأنَّـهـا فـي جـفـونِ الـلَّـيـلِ إغـفـاء
وتســمـع الـطـيـر إذ تـهـفـو قـوادِمُه   خَوافِقًـا في الـدَّيـاجي وهي صـمَّـاء

تصونها جراؤه كأنها درج درر، أو درج غرر، أو كمامة ثمر، أو كنانة نبل، أو غمامة وبل، حالكة الأديم، كأنما رُقِمت بالشَّفَق حلَّة ليلها البهيم.

كـأنَّهـا فـي وصـــفـهـا مشـــرقٌ   تَـنـبَـثُّ مـنـه فـي الـدُّجـى الأنـجـمُ
أو دِيـمـةٌ قـد أطـلـعَتْ قـوسَـــهـا   مُـلـوَّنًـا وانـبـعـثـتْ تَســجِـمُ

فاتخذ له كلٌّ مركزًا، وتقاضى من الإصابة وعدًا منجزًا، وضمن له السعد أن يصبح لمراده محرزًا.

كـأنَّهـمْ فـي يُمـنِ أفـعـالـهـم   فـي نـظـرِ المُـنصـفِ والـجـاحـدِ
قَد وُلِدوا فـي طـالـعٍ واحـد   وأشـرقـوا مـن مَـطـلَـعٍ واحِـدِ

فسَرَتْ علينا من الطير عصابة، أظَّلتنا من أجنحتها سحابة، من كل طائر أقلع يرتاد مرتَعًا، فوجد ولكن مصرعًا، وأشفَّ يبغي ماء جمامًا فورد ولكن السم منقَّعًا، وحلَّق في الفضاء يبغي ملعبًا، فبات هو وأشياعه للقسيِّ سُجَّدًا رُكَّعًا، فتبركنا بذلك الوجه الجميل، وتداركنا أوائل ذلك القبيل، فاستقبلناه تِمٌّ تَمَّ بدره، وعَظُمَ في نوعه قَدْرُه، كأنه برق كرع في غسق، أو صبح عطف على بقية الدجى عطف النسق، تحسبه في أسداف المنى غرَّة نحج، وتخاله تحت أذيال الدجى طرَّة صبح، عليه من البياض حلةٌ وقار، وله كرة من عنبر فوق منقارٍ من قار، له عنق ظليم والتفاتة ريم، وسُرَى غَيمٍ يصرفه نسيم.

كلون المشـيـب وعصـر الشـبـاب   ووقـتِ الـوِصـالِ ويـومِ الـظَّـفَر
كـأنَّ الـدُّجـى غـار مـن ثـوبـه   فـأمسـك مـنـقـاره ثـمَّ فـر

فأرسل إليه عن الهلال نجمًا، فأسقط منه ما كَبُر بما صَغُرَ حجمًا، فاستبشر بنجاحه، وكبَّر عند صباحه، وحصله من وسط الماء بجناحه، وتلاه كي نقيُّ اللباس، مشتعل شيب الرأس، كأنه في عرانين شبيه لأوائله كبير أناس، إن أسفَّ في طيرانه فغمام، وإن خفق بجناحه فقِلع له بيد النسيم زمام، ذو عيبة كالجراب، ومنقاره كالحراب، ولون يغرُّ في الدجى كالنجم، ويخدع في الضحى كالسراب، ظاهر الهرم، كأنما يخبر عن عاد ويحدِّث عن إرَم:

إنْ عـامَ فـي زرقِ الـغَديـرِ حَسِـبْتَهُ   مـبـيـض غَـيـمٍ فـي أديـمِ سـمـاءِ
أو طـارَ فـي أُفْقِ السَّـمـاءِ ظَنـنـتَهُ   في الجوِّ شـيـخًـا عـائمًـا في مـاء
متـنـاقـض الأوصـافِ فيـه خِفَّة الـ   ـجُـهَّـال تـحـتَ رَزانـةِ الـعُـلمـاء

فثنى الثاني إليه عنان بندقه، وتوخاه فيما بين أصل رأسه وعنقه، فخرَّ كمارد انقضَّ عليه نجم من أفقه، فتلقَّاه الكبير بالتكبير، واختطفه قبل مصافحة الماء من وجه الغدير، وقارنته إوزَّة حلتها دكناء، وحليتها حسناء، لها في الفضاء مجال، وعلى طيرانها خفة ذوات السرج وخفر ربَّات الحجال، كأنما غبَّت في ذهب، أو خاضت في لهب، تختال في مشيتها كالكاعب، وتتأنَّى في خطوها كاللاعب، وتعطو بجيدها كالظبي البهير، وتتدافع في سيرها مشي القطاة إلى الغدير:

إذا أقبلت تمشي فخطرةُ كاعب رَداحٍ وإن صاحت فصولةُ خادمِ
وإن أقلعت قالت لها الريحُ: ليتَ لي خَفا ذي الخوافي أو قوى ذي القوادم
فأنعِمْ بها في البُعد زادَ مُسافرٍ وأكرم بها في القربِ تُحفةَ قادم

فلوى الثالث جِيده إليها، وعطف بوجهِ قوسه عليها، فلجَّت في ترفُّعها ممعنة، ثم نزلت على حكمه مُذعِنة، فأعجلها عن استكمالها الهبوط، ورفعها قبل استقرارها السقوط، واستولى عليها بعد استمرارها القنوط، وحاذتها لغلغة تحكي لون شيتها، وتصف حسن مشيتها، وتُربي عليها بغُرَّتها، وتُنافِسُها في المجالس كضرَّتها، كأنها مدامةٌ قُطِبَتْ بمائها، أو غمامة شفَّت عن بعض نجوم سمائها.

بغُرَّةٍ بيضاءَ مَيمونة تُشرِق في الليلِ كبدرِ التَّمام
وإنْ تبدَّت في الضُّحى خِلتها في الحُلَّة الدَّكناء بَرقَ الغمام

فنهض الرابع لاستقبالها، ورماها عن فلك سعده بنجم وبالها، فجدَّت في العلو مدَّة، وتطاردت أمام بندقه ولولا طراد الصيد لم تكن لذة، وانقضَّ عليها من يده شهاب حتفها، وأدركها الأجل لخفة طيرانها من خلفها، فوقعت من الأفق في كفه، وفر من بقي في صفِّها عن صفِّه.

وأتت في إثرها أنيسة آنسة، كأنها العذراء العانسة، أو الأدماء الكانسة، وعليها خفر الأبكار، وخفة ذوات الأوكار، وحلاوة المعاني التي تجلَّى على الأفكار، ولها أنس الربيب، وإذلال الحبيب، وتلُّت الزائر المريب، من خوف الرقيب، ذات عنق كالإبريق، أو الغصن الوريق، قد جمع صفرة النهار إلى حمرة الشقيق، وصَدرٍ بهيِّ الملبوس، شهيٍّ إلى النفوس، كأنما رُقِمَ فيه النهار بالليل أو نُقش العاج بالأبنوس، وجناح ينجيها من العطب، يحكي لونه المندلَ الرطب، لولا أنه من حطب.

مُدَبَّجةُ الصدرِ تَفويفهُ أضاف إلى الليل ضوءَ النهارِ
لها عُنُقٌ خالَهُ مَن رآهُ شقائقَ قد سُيِّجت بالبهار

فوثب الخامس منها إلى الغنيمة، ونظم في سلكه تلك الدُّرَّة اليتيمة، وحصل بتحصيلها بين الرماة على الرتبة الجسيمة، وأتى على صياحها حُبْرَجٌ تسبق همَّتُه جناحَه، ويغلب خفق قوادمه صياحه، مُدَبَّج المطا، كأنه خَلَعَ حُلَّةَ منكبيه على القطا، ينظر من ذهب، ويخطو على عود من لهب.

يزورُ الرياض ويجفو الحياض ويُشبِه في اللونِ كُدْرَ القَطا

ويــهــوى الــزُّروع ويــلــهــو بــهــا ولا يــــرد المــــاء إلَّـــا خــــطـــا

فبدره السادس قبل ارتفاعه، وأعاد قوسه بامتداد باعه، فخر على اللَّألاءة كبسطام بن قيس، وانقض عليه راميه فحصله بحِذق وحمله بكَيْس.

وتعذر على السابع مُرامُه، ونبا به عن بلوغ الأَرَب مقامه، فصَعِد هو وتِرْبٌ له إلى جبل، وثبت في موقفه من لم يكن له بمرافقتهما قِبَل.

فعنَّ له نسرٌ ذو قوادمَ شِداد، ومناسر حداد، وخوافي مداد، كأنه من نسور لقمان بن عاد، تحسبه في السماء ثالثَ أخوَيه، وتخاله في الفضاء قبته المنسوبة إليه، قد حَلَقَ كالفقراء رأسه، وجعل ممَّا قَصُرَ من الدلوق الدُّكْن لباسه، واشتمل من الريش العسليِّ إزارًا، واختار العزلة ولا تجد له إلا في قنن الجبال الشواهق مزارًا، قد شابت نواصي الليالي وهو لم يشب، ومضت الدهور وهو من الحوادث في معقل أشب.

مليـك طيورِ الأرض شــــرقًـا ومغربًا وفـــي الـفـلـك الأعـلــى لــه أَخَــوانِ

لـــه حـــالُ فــتــاكٍ وحِلـيــةُ نــاسِــكٍ وإســــــراعُ مِــقــدامٍ وفــتـــرة وانِ

فدنا من مطاره، وتوخَّى ببندقة عنقه فوق منقاره، فكأنما قد قدَّ منه صخرًا، أو هدم به بناء مشمخرًا، ونظر إلى رفيقه مبشرًا بما امتاز به عن فريقه وإذا به قد أظلَّته عقاب كاسر، كأنما قد أضلت صيدًا قد أفلت من المناسر، إن حطَّت فسحابٌ انكشف، وإن أقامت فكأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكَرِها العُنَّاب والحَشَف، بعيدةُ ما بين المناكب، إذا أقلعت لجَّت في علوٍّ كأنما تحاول ثأرًا عند بعض الكواكب.

تــرى الــطــيـر والــوحــشَ فــي كـفِّـهــا ومــنــقـــارَهـــا ذا عــظـــام مُـــزالـــةْ

فـلـو أمـكـن الشـــمـسَ مـن خـوفـهـا إذا طــلــعــت مـــا تســـمَّـت غَــزالــةْ

فوثب إليها الثامن وثبةَ ليثٍ وثِق من حركاتها بنجاحها، ورماها بأول بندقه فما أخطأ قادمة جناحها، فأهوت كعودٍ صُرِع، أو طَود صُدِع، قد ذهب بأسها، وتذهَّب بدمها لباسُها، ولذلك القدر يخادع الجو عن عُقابه، ويستنزل الأعصم من عقابه، فحملها بجناحها المهيض، ورفعها بعد الترفع في أوج جوِّها عن الحضيض، ونزلا إلى الرفقة جَذِلَين بربح الصفقة، فوجد التاسع قد مر به كُرْكِيٌّ طويل السِّفار، سريع النفار، شهي العُراق، كثير الاغتراب يشتو بمصرَ ويصيف بالعراق، لقوادمه في الجو

هفيف، ولأديمه لون سماء طرأ عليها غيم خفيف، تحنُّ إلى صوته الجوارح، وتعجب من قوته الرياح البوارح، له شية حمراء في رأسه كوميض جمر تحت رماد، أو بقية جرح تحت ضماد، أو فص عقيق شفت عنه بقايا ثماد، ذو منقار كسنان، وعنق كعنان، كأنما ينوس على عودين من أبنوس.

إذا بـــدا فـــي أفـــقٍ مُقـــلـــعًا والـــجـــوُّ كـــالمـــاء تـــفـــاويـــفُـــهُ
حســـــبـــتُه فـــي لُجَّةٍ مَركَبًا رِجـــلاهُ فـــي الأفـــقِ مـــقـــاذيـــفـــه

فصبر عليه حتى جازه مُجَلِّيًا، وعطف عليه مصلِّيًا، فخرَّ مضرَّجًا بدمه، وسقط مشرفًا على عدمه، ولطال ما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون، وأصابه القدر تحته من حَمَأٍ مسنون، فكثر التكبير من أجله، وحمله راميه على وجه الأرض برجله.

وحاذاه غُرْنُوق حكاه في زيه وقدره، وامتاز عنه بسواد رأسه وصدره، له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى حلقه، معقودتان من أذنه إلى مكان نشفه.

لـــهُ مِنَ الـــكُركِيِّ أوصـــــافُه ســـوى ســـوادِ الصـــَّدر والـرأسِ
إنْ شــــال رِجـلًا وانـبـرى قـائـمًا ألـــفـــيـــتَـــهُ هَـــيـــئـــةَ بُـــرْجـــاسِ

فأصغى العاشر له منصتًا، ورماه ملتفتًا، فخرَّ كأنه صريع الألحان، أو نزيف بنت الحان، فأهوى إلى رجله بيده وأيْدِه، وانقض عليه انقضاض الكاسر على صيده. وتبعه على المطار صوغ، كأنه من النضار مصوغ، تحسبه عاشقًا قد مد صفحته، أو بارقًا قد بث لفحته.

طـــويـــلـــةٌ رِجـــلاه مُســـــودَّةٌ كـــأنَّـــمـــا مـــنـــقـــارُهُ خـــنـــجَـــرُ
مثِـل عـــجـــوزٍ رأسُـــهـــا أشـــــمَطُ جـــاءت وفـــي رقـــبـــتـــهـــا مِـــعـــجَـــرُ

فاستقبله الحادي عشر ووثب، ورماه حين حاذاه من كثب، فسقط كفارس مقنطر عن جواده، أو وامق أصيبت حبَّةُ فؤاده، فحمله بساقه، وعدل به إلى رفاقه. واقترن به مرْزَم له في السماء سميٌّ معروف، ذو منقار كصدغ معطوف، كأن رياشه فلق اتصل بفلق، أو ماء صافٍ علق بأطرافه علق.

لـــه جســـــم مـــن الـــثـــلـــج عـــلـــى رجـــلـــين مـــن نـــارِ
إذا أقـــلـــع لـــيـــلًا قُلــتُ: صـــــبـــح فـــي الـــدجـــى ســـارِ

فانتحاه الثاني عشر ميممًا، ورماه مصممًا، فأصابه في ذروه، وحصله من فوره، وحصل له من السرور ما خرج به عن طوره، والتحق به شُبَيطَر، كأنه مدية مُبَيطر، ينحطُّ كالسيل، ويكرُّ على الكواسر كالخيل، ويجمع من لونه بين ضدين يُقبِل منهما بالنهار ويدبر بالليل، يتلوَّى في منقاره الأيمُ، كتلوِّي التنين في الغيم.

تراه في الجوِّ ممتدًّا وفي فمه — من الأفاعي شُجاعٌ أرقَمٌ ذَكَرُ
كأنه قوس رامٍ عُنْقُه يدُها — ورأسه رأسها والحيَّة الوتَرُ

فصوَّب الثالث عشر إليه بندقه، فقطع لحيه ودقَّ عنقه، فوقع كالصرح الممرَّد، أو الطراف الممرَّد، واتبعه عناز أصبح في اللون ضدَّه، وفي الشكل نِدَّه، كأنه ليل ضمَّ الصبح إلى صدره، أو انطوى على هالة بدره.

تراه في الجوِّ عند الصبح حين بدا — مُسودَّ أجنحةٍ مبيضَّ حَيزومِ
كأسودٍ حبشيٍّ عامَ في نهر — وضمَّ في صدره طفلًا من الرُّوم

فنهض تمام القوم إلى التتمَّة، وأسفرت عن نجح الجماعة تلك الليلة المدلهمَّة، وغدا ذلك الطير الواجب واجبًا، وكمُل العدد به قبل أن تطلع الشمس عينًا أو تبرز حاجبًا، فيا لها برزة حصرنا بها الصوادح في الفضاء المتَّسع، ولقيت فيها الطير ما طارت به من قبل على كل شمل مجتمع، وأضحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها النظام، أو سرب كأن رقابهم من اللين لم يخلق لهنَّ عظام، وأصبحنا مُثنين على قوامنا، منثنين إلى مقرِّنا ومقامنا.

كتب القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري، وهو بين يدي السلطان، إلى نائب الشام المحروس: صحبة طيور أرسلها إليه من رأس قلمه، ولا زالت مواهبنا تخصُّه بالمزيد، وتتحفه بما يريد، وتجعل له من الجوارح ما تعترف له السهام بأنها بغير جناحه لا تصيب ولا تصيد، صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي بسلام جميل الافتتاح بما بقي من رسمه، وجرت عادة صدقاتنا الشريفة أن تحسب في قسمه، وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مطار، ولا يُوقَد للقِرى في غير حماليقها جذوة نار، ولا تؤم صيدًا إلا وترش بدمه الأرض ولا يلحق له بغبار، وهي طائران كم لها من فتك أخذ الطير من مأمنه، وسلب ما تحلَّى به من رياش الرياش ثم تزيَّا بأحسنه، ومنها شاهين كم قيل له عن عزيز من الطير، فقال: شاهين، قد أبدعت قوائمه في وسمها، ورسمت في أجنحته معاني النصر فبكت عيون

الوحش دماءً على رَمسها، فالجناب يتسلمها من الواصل بها، ويتوصل إلى الطيور المحلقة في السماء بسببها، وليشكر نعمنا التي وفَّرت النعم لديه، وبسطت في الأرض بالتمكين يديه، ونوَّعت له من كرمنا من الخير، وخولته في ما تقلَّدناه من المُلك عن سليمان حتى تفقَّد الطير، والله تعالى يجعل سعوده في سُطور الصدور تقرأ، وجوده بها يقرأ، وعهوده في البطش تارة تريش سهمًا، وتارة تجرد صقرًا، إن شاء الله تعالى.

نظر رجل إلى رامٍ قصير اليد في صنعته فقعد في موضع الهدف، فقال له: ما هذا؟ فقال له: لم أرَ منك مكانًا سالمًا إلَّا هذا!

نادرة

خرج الحيص بيص الشاعر ليلةً من دار الوزير شرف الدين أبي الحسن علي بن طِراد الزينبي، فنبح عليه جرو كلب وكان متقلِّدًا سيفًا فوكزه بعقب السيف فمات، وكان هبة الله بن الفضل القطان بينه وبين الحيص بيص وقائع، فكتب رقعةً وعلقها في عنق كلبة لها جرو ورتب معها من طردها وأولادِها إلى باب الوزير كالمستغيثة به، فأُخذَت الورقة وقرئت على الوزير فإذا فيها مكتوب:

يا أهلَ بغداد إنَّ الحَيصَ بَيصَ أتى ... بفعلةٍ أكسبته الخزي في البلدِ
هو الجبانُ الذي أبدى تشاجُعَهُ ... على جروٍ ضعيفِ البطش والجَلَد
وليس في يده مالٌ يَديهُ به ... ولم يكن بسواءٍ عنه في القود
فأنشدت جعدة من بعد ما احتسبت ... دم الأُبَيلِق عند الواحد الصمد
تقول للنفس تأساءً وتعزيةً: ... إحدى يديَّ أصابتني ولم تكد
كلاهما خَلَف من بعد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

قلت: ومن ملح المداعبات ما كتب به الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى الشيخ بدر الدين حسن الغزِّيِّ الشهير بالزغاري صورة إجازة: أما بعدَ حَمدِ الله الذي جعلنا ممن كرَّم من البشر، والصلاةِ والسلام على سيدنا محمد خاسئ من فجر، وعلى آله وصحبه ما نبح الكلب ضوء القمر. وبعد؛ فقد قرأ عليَّ لا زال صائدًا للحمد من مكمنه، صائلًا على القرن من مأمنه، نازلًا منازل العوافي في أحسن أفق وأحصنه، هذه الفلذة من شعري قراءة أتبع بها الإحسانَ أثرًا، ودل على جودة القراءة وطال ما دل على وجوده

القرى، ووجدته قد فاق جرولًا خِطابًا، وافتخر على الكلبي وأبيه نسبًا وآدابًا، وتبلَّغ مفاخر قومه على رغم القائل: ولا عمرًا أبلغت ولا كلابًا، وعلا ذروة لو سامها ابن كِلاب لما قرعها، بل ولو نبحها كوكب الكلب المقدم لما بلغها صوته ولا سمعها، واقتفى بيوت الآداب منه غادٍ ورائح، وامتزج عليها بجوارحه فحبذا ما علم من الجوارح، وسعى على ظفر سعيه السريع المديد، وأنام على المجاراة قرناؤه منام أهل الكهف ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾، وعلمت أن مكاسب آدابه عظام، وأكثر فوائده لباب إذا اختلفت فوائد أهل النِّثار والنظام، وأن جُلَّ ملابسه من حمده، وكلَّ عزائمه زائدة عن طوقه وجهده، وكل مانع طوع طلبه، وكل خير صحبه من عنده، لو قارب كلاب بن ربيعة لسلَّم إليه زمام المكارم، ولو جاور جريرًا لما قال للأخطل: هجوت كليبًا إذ هجوا آل دارم، ولو دعا الوحش بلفظه لعطف عليه ذوو النفار، ولو سابق البرق لما لحق من بديهته غبار، ولو فاخر الدرر وحاكمها إلى النحور لأقامته وأقعدتها عن الفخار، ولو ميز حال أضداده لكان الكلب خيرًا منها عند ذوي البصائر والأبصار، تكاد الحمائم تقول: أين ضعف سجعنا من قوة هذا النطق الضاري؟ والتبر في غار معدنه ينادي: أين جواز هذه الطرق من جواز غاري؟ فأجزت له رواية هذه الأبيات وحمايتها، وحفظها ورعايتها، اتباعًا لإشارته، وإعجابًا بما امتاز به على أشباهه من زي النطق وشارته، وتمسكًا بوفاء بيته الجلية أنسابُه، المغشية أنديته حتى ما تهر كلابه، عالمًا أنه المقيس على خبايا الفضائل، الحامي لمرعى القول حتى ما يذكر الحمى وكليب وائل، المتسرع في تصيد شوارد الآداب، الناهض بنصرتها وقد قطع بها الدهر لديه أذناب الكلاب، السابق حين يفتر سواه ويلبث، المتحمل لأعبائها لا كالقرين الذي ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾، وذلك عند سفره الحافز، وبكور عزمه الذي هو عن استيفاء القول حاجز، وحركته في أوقات الشتاء الجامدة، ورجليه في ليلةٍ من جُمادَى لا ينبح الكلب فيها غير واحدة، والله تعالى يجمع له بين الغنيمة والإياب، ويفيض على القلوب ثياب مودَّته الثابتِ فضلُها على كثير ممَّن لبس الثياب.

ذكر ديسم بن إبراهيم صاحب أذربيجان قال: كنت مجتازًا على قنطرة الري في عسكري، فلما صرت في وسط القنطرة رأيت امرأة تمشي وقد حملت طفلًا لها في قماطة، فصدمها بغل محمَّل فطرحت نفسها فزعًا على القنطرة، ووقع الطفل من يدها في الماء، فلما وصل إلى الماء غاص زمانًا لبُعد ما بين القنطرة والماء، ثم طفا وسلم من الحجارة والماء يجري به، وأجراف النهر بعيدة عن الماء وفيها أوكار عقبان، فحين طفا الطفل رأته عقاب هناك فانقضَّت عليه ومسكت بمخالبها في قِماطه فخرجت إلى الصحراء، فأمرت جماعةً أن يركضوا خلف العقاب ففعلوا، ومشيت أنا فإذا بالعقاب قد وصلت إلى

الأرض واشتغلت بخرق القماط، فأدركه القوم وركضوا خلفها حتى شغلوها عن خرق القماط، فطارت وتركت الطفل على الأرض، فإذا هو سالم يبكي فرددناه إلى أمه.

قال جالينوس: مَن أصابه قولنج فليأتِ كلبًا نائمًا فليثره عن موضعه وليَبُلْ فيه.

من إنشاء المجيد أبي علي بن أبي الشخباء العسقلاني، رسالة طردية نقلتها من خط الوداعي رحمه الله: مَن أصبحت نعمه سوارح، واستعبدت مِنَنُه القلوب والجوارح، فأصبح لبهاء المجد مَقرًّا، ولغرائب السُّؤدد والثناء مُستقرًّا، مثل حضرة مولاي أطال الله بقاءه، وأدام إلى المجد ارتقاءه، تطلبت له الأنفس السار، وتقصَّفت له الملاذَّ والمسارَّ، ومما يطرف به العبد مولاه، أسنى الله قدره وأعلاه، أنه خرج يومًا مع أناس، قد وصلوا بِرَّهم بإيناس، كل منهم يهتز للأكرومة، ويأوي إلى شرف الأرومة، على خيل مسوَّمة، متقنة متقومة، من بين جَونٍ أدهم، أذكى من فارسه وأفهم، أغرَّ محجَّل، وعدُه معجَّل، كأنَّ أسوَدَ إهابه ليلٌ رمت البلاد شهبه، تنهبه العين والأرض تنهبه، إذا زاغ عن سنان، أو انعطف لعيان، ظننته صُدَّ عن مواصله، أو انفصل عن مفاصله.

وأشقر كالطراف، عبل الأطراف، نِهد كريم، له سالفة ريم، كأنما خُرِط من عقيق، أو تردَّى بِرِداءٍ من شقيق، يجري كوهم، ويعلو كموج، وينزل كوابل، إن مرعتَ عُرفه، سابق طرفه، وإن أوردته الطراد، أوردك المراد.

وكميت كالطود، ذي وظيفٍ كذراع العود، يلطم الأرض بزبر، وينزل من السماء بخبر.

وهملاج أشهب، إن زجرته ألهب، أديمه روضة بهار، ينظر من ليل في نهار، ينساب انسياب الأيم، ويمر مرور الغيم، لا ينبِّه النائم لو عبر به، ولا يحرك الهواء في سربه، أخفى وطئًا من طيف، وأوطأ ظهرًا من مهاد ضيف، فلم يزل بنا المسير، وكلٌّ في طاعة صاحبه أسير، إلى أن صادفْنا واديًا، كان لعيوننا باديًا، فما قطعناه عرضًا، حتى أتينا أرضًا، كأنما فُرِشَ قرارها بزبرجد، وصنعت أنوارها من لجين وعَسجَد، قد رقرقت فيها السحاب دمعها، وأحسنت قيعانها جمعها، نسيمها سقيم، وظلها مقيم، وماؤها جودي، وتربها شجري، فهي تهدي للناشق، بأنفاس المعشوق إلى العاشق، كأنما غدرانها في اخضرار رياضها، وجداولها في اسوداد بياضها، بدورُ سماءٍ كملت، وبروقٌ في متون غمام تسلسلت، طائرها مِكسال، وظباؤها أرسال، ذات قرون معقفة كأذناب العقارب، وبطون مبيضَّة كالنهار السارب، مضمَّخة الأجساد بخليط صندل وجساد، قد اكتست أطيارها وأغربت، وتفننت بلغاتها فأطربت، كأن الأماني فتحت لها أبوابًا، والرياض خلعت عليها أثوابًا، إذا اتشحت للبكاء، وأعلنت

بالمُكاء، نأت الطباع عن نغمات الموصلي، في نفثات البابلي، ومجَّت الأسماع شدوَ الفريض، بمُرقَّق القريض.

فعند ذلك يممنا ظل شجرة هنالك ذات جدول متكسِّر، في مسلك متيسر، وكان أعلاه حان، وقرارته مساقط در ومرجان، فلما وردنا عليها، وانضفنا إليها، حنت علينا أغصانها حنو الوالد، وألحفتنا أوراقها بظلٍّ خالد، وأتحفتنا من ثمارها بطريف وتالد، فأصبنا من ثمرها قليلًا، ونفضنا بماء جدولها غليلًا، ثم نهضنا نطلب الأوابد، نستثير كوامنها واللوابد، وقد نشرنا مقاود الكلاب، وشركتنا في البحث والطلاب، كل كلب منها غَلوب، ولأرواح الطرائد كسوب، ذو خطم مخطوف، ومخلب كصدغ معطوف، بقوائم كالذوابل، ومتن كالغصن الذابل، غائب الخصر، حاضر النصر، كأنما لُمْلِمَت هامته من وبر، وخُرِط ما بين عينيه بجهر، له طاعة تهذيب واختلاس ذيب، وتلفت مريب وحذاقة تذريب، له من الطِّرف أوراكه، ومن الطَّرف إدراكه، ومن الأسد صوله وعراكه، إذا طلب فهو منون، وإذا انطوى فهو نون، وإذا استرسل فهو خط على الأرض مظنون. فسنح لأحدها غزال، والمقود عنه مزال، فاسترسل عليها وهرب، وجدَّ في طلبه وانسرب، فَانْبَرَيا في أسلوب، ما بين سالب ومسلوب، إذا مرق الأول كالسهم، تبعه الثاني كالوهم، فللظبي حد عمل على جناح وجل، وللكلب انبساط أمل في سرعة أجل، إلى أن جعجعه، وبنفسه فجعه، دامي الجروح بادي القروح، مستسلمًا لسلب الرُّوح، فعاجلناه بالذكاة، وأيقنا بحلول البركات.

ثم انتحى بعضنا بفهد، ذي صدر رحب نهد، كأن قرار نمرته، في اختلاط بياضه بسُمرته، ثوب مصمت معتق، من العيون مطلق، فد فُرِشَت فوقه أقراص عبير، صنَّفتها يد صانع خبير، فنبهه ففج فجيج ثعبان، وأطلقه على ظبية تدبُّ دَبيب عقربان، فلما أدركه ناظر الظبية، ومرَّت به مرور غبية، فات أبصارنا بنفرته، وسبق أفكارنا بظفرته، ولطمها عند الإدراك، من الكتف إلى فرجة الأوراك، فشقها شق المزاد، ضاقت أفواهها عن خروج الزاد، وصرعها تضطرب، كأن قوائمها تحترب، فبادرنا مهلِّلين، وركبناها محلِّلين، ثم ملنا إلى الطيور، وجوارحنا مطلقة السيور، فقال رجل من أصحابنا، اتَّبعَنا عند اصطحابنا: ذلك الغدير، فيه طير يستدير، ينظر من خروت إبره، ويختال في برود حبره، فاستدللنا عليه بالبراهين، إلى أن ارتكض قوم من الشواهين، أطلقه حامله، وأفرجت عن شباقته أنامله، فمر في الهواء، يتصرف في الأهواء، يذكي جدًّا وإعمالًا، ويطعن يمينًا وشِمالًا، كأنما أضلَّ فريقًا، أو جهل طريقًا، حتى إذا دانى أفق السماء، مسامتًا للماء، كأنه يمسح الفلك، أو يطلب شيئًا هلك، طرن من خوفه

فانحدر، وهو سابق القدر، كأنه صخرة منجنيق، أو حجر أرسل من رأس نيق، له دويٌّ كدويِّ الرعد، نطق عن الغيب بوعد، فانتحى إحداهن، وقد قرب مداهن، فقنعها بيسراه، وقد أضحت من أسراه، وشفعها يمناه، وقد بلغ منها مُناه، فدحاها كأنها كرة، طوحت بها ضربة منكرة، فذكيناها تحليلًا، وأنقذناه منها تعليلًا، ثم ملنا إلى قسي البنادق، من كل ناطقة بالوعد الصادق، تعطيك المراد لكرم أعراقها، وتمنعك القياد عن استغراقها، ذات بطن كالحاجب المقرون، وظهر قد أثرت فيه الجنادب بالقرون، قد تعصفر أعلاها فرحًا باستعلائه، وأخذ أدناها أسفًا على استيلائه، ترن عند الرشق رنين مصابها، وتتشكَّى أليم أوصابها، بل تسجع للنبض سجع الحمامة، وتنظر عند النفض نظر زرقاء اليَمامة، ألوان أوعيتها مختلفة، وأكوان تسييرها مؤتلفة، كأنها مجاري أنهار، بين طرائق أزهار، فسرنا صفوفًا، فوافينا الطيور رفوفًا، فما قطعت في أعراضنا، وصارت منا كأغراضنا، فثنت نحوها القسي أبصارًا، واتخذت من البندق رسلًا وأنصارًا، فرشقناها مستلمِّين، ولصرع أكثرها مؤمِّلين، فجرت تتهافت، وأجنحتها تنقبض وتتكافت، كأنها استبقت إلى أقواتها، واستنزلتها الفراخ بحسن أصواتها، فبادرناها مبكِّرين، ولنعم الله عليها مكبِّرين، وأوجرناها غصص المنايا، تمدَّى معوجةٍ كالحنايا، وأصليناها نارًا تلظَّى، تشقى بحميمها وتحظى، كأنها عبدة أوثان، أو متخذة إلهٍ ثان، فسبحان من أحلَّ سفك دمائها، وأحل للبشر سبك ذمائها؛ والسلام.

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين ابن الآمدي في الفهد:

إذا طَلَبَ الغُزْلانَ فهو منون وإنْ دار في طِرسِ الفَلاةِ فنونُ

وكيفَ يَضِلُّ الوَحشُ عنه وجِلدُه بِمُسودِّ ذاكَ النَّقطِ فيهِ عُيونُ

وله في الصقور:

وكأنها فوقَ الأكفِّ فَوارسٌ في الخافقين يَجُلْنَ بَينَ خَوافقِ

أكثرن لِبسَ السَّابغاتِ أما ترى صدأ الحديد لهنَّ فوق عواتق

من الكلام الفاضلي: إنِّي رغبت إلى مولانا، لا زالت المرغبات إليه مرفوعة، وثمراتها كثمرات الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، في الإحسان بشاهين يجعل وكيل مطبخي لكثرة ما يجلب إليه من الخير، وأستنيبه عن صاحبٍ صالحٍ فهو قذار الطير، لا تعتصم منه بعرفجها، ولا تلوذ الحمامة بعوسجها، قد رقمت يد القدرة على جؤجئه ديباج أسطره، وعرقت أقلامها نون مِنسره، فكأنما عقد ليحسب ما صاد

لمرسله، ويوفيه حساب عمله، وكأنه منجل أرسل على الطير لحصاد أجله، يؤتى بالرزق رَغَدًا، ويأخذ عند كل فم يدًا، إن عاش فأجنحته للطيور كالقيود، وإن ثوى ورث السهام ريشه فهي ولية عهده في الصيود، وما أجدر الطير بأن تقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، ومن لا يقنع برزقه في الأرض حتى يطالب به في السماء.

طردية الشيخ جمال الدين بن نباتة التي سماها فرائد السلوك في مصائد الملوك: أثنى شذا الروض على فضل السحب، واستملت بالوشي أرداف الكثب، ما بين نور مسفر اللثام، وزهر يضحك في الأكمام، إن كانت الأرض لها ذخائر، فهي — لَعَمرِي — هذه الأزاهر، قد بسطتها راحة الغمائم، بَسْطَ الدنانير على الدراهم، أحسن بوجه الزمن الوسيم، تعرف فيه نضرة النعيم، وحبَّذا وادي حماة الرحب، حيث زها العيش به والعشب، أرض السناء والهناء والمرح، والأمن واليُمن ورايات الفرح، ذات النواعير سقاة الترب، وأمهات عصفه والأب، تعلمت نوح الحمام الهيَّف، أيام كانت ذات فرع أهيف، فكلها من الحنين قلب، وكيف لا والماء فيها صب، لله ذاك السفح والوادي الغرد، والماء معسول الرياض مطَّرد، يصبو بها الرائي فكيف السامع، ويحمد العاصي فكيف الطائع، إذا نظرت للرُّبى والنَّهَر، فاروِ عن الربيع أو عن جعفر، محاسن تُلهِي العيون والفِكر، ربيع روضاتٍ وشحرور صفر، أمام كل منزل بستان، وبين كل قرية ميدان، أما رأيت الوُرق في الأوراق، جاذبة القلوب بالأطواق، فبادر اللذة يا فلان، واغْنَم متى أمكنك الزمان، ولا تقل: مشتى ولا مصيف، فكل أوقات الهناء شريف، كل زمان ينقضي بالجدل، زمان عيشٍ كلما دار اعتدل، أحسن ما أذكر من أوقاته، وخير ما أنعت من لذاته، بروزنا للصيد فيه والقنص، وحوزنا من مُرِّه أحلى الفرص، وأخذ الوحش من المسارب، وفِعلنا في الطير فوق الواجب، لما دنا زمانُ رَمْي البندق، سرنا على وجه السرور المشرق، في عصبة عادلة في الحكم، وغلمة مثل بدور التم، من كل مبعوث إلى الأطيار، تظله غمامة الغبار، وكل معسول الرضاب أغيَد، منعطف عطف القضيب الأملد، قد حمِد القومُ به عقبى السفر، عند اقتران القوس منه بالقمر، لولا حذار القوس من يديه، لغنَّت الطير على عطفيه، في كفه محنية الأوصال، قاطعة الأعمار كالهلال، زهراء خضراء الإهاب معجبة، مما ثوت بين الرياض المعشبة، فاغرة الأفواه للأطيار، طالبة لهن بالأوتار، كأنها حول المنون نون، أو حاجب بما تشاء مقرون، لها بنات بالمنيِّ معذوقة، من طينة واحدة مخلوقة، سامعة لما تشير الأم، مع أنها مثل الحجار صم، كأنها والطير منها هارب، خلف الشياطين شهاب ثاقب، وأهالها شُهُب كرات تخطف، شاهدة بالعزم وهي تقذف، حتى نزلنا بمكان مرفق، إخوان صدق أحدقوا بالملق، فيا له في الحسن من

محل، مراد جد ومراد هزل، للطير في أملاقه مواقع، كأنها لمائه فواقع، فلم نزل في منزل كريم، نروي حديث الرمي عن قديم، حتى طوى الأفق رداء الورس، والتقم المغرب قرص الشمس، وابتدر القوم إلى المراصد، من ساهر ليل التمام شاهد، كالليث يسطو كفه بأرقم، والبدر يرمي في الدجى بأنجم، بينا الطيور في مداها سائرة، إذا هم من عينه بالساهرة، فأقبلت مواكب الطيور، على طروس الجو كالسطور، فحبَّذا الطيور في المهارق، منقوطة الأحرف بالبنادق، من كل تم حق أن نسمِّي، ضياءه المشرق بدر التمِّ، تخاله من تحت عنق قد سجا، طرة صبحٍ تحت أذيال الدجى، وكل كي حسن الوسامة، تخاله في أفقه غمامة، كي يتبعه إوزَّة دكناء، من دونها لغلغة غرَّاء، تقدمها أنيسة ملونة، تابعة من كل وصف أحسنه، وربما مر عليها حُبْرج، كأنه على نضار يَدرُج، وانقض من بعض الجبال نسر، له بأبراج النجوم وكر، مغبر الخلق شديد الأيد، يبني على الكسر حروف الصيد، يحث مسراه عُقاب كاسبة، خافضة لحظ الصيود ناصبة، إذا مضت جملتها المعترضة، تواصلت حظوظها المنقرضة، بكل كُرْكيٍّ عجيب السير، كأنه طيف خيال الطير، يحث غُرنوقًا شهي المجتلى، مقدمًا على الغرانيق العُلَا، وأبيض الغيم يسمَّى مرزمًا، كم بات مثل نوئه منسجمًا، يحفه شُبَيطر قوي، معجزة في الطير مُوسَوي، كم حاش ثعبانًا وكم حواه، كأنه في يده عصاة، هذا وكم ذي نظر ممتاز، ينعت في الواجب بالعناز، أسود إلا لمعة في الصدر، كأنه نور الهدى في الكفر، فلم تزل قسينا الضواري، تصيبها بأعين الأوتار، حتى غدت دامية النحور، ساقطة منا على الخبير، كأنها وهي لدينا وُقَّع، لدى محاريب القسي رُكَّع، وأصبحت أطيارنا قد حصلَت، ولم تُسَل بأي ذنبٍ قُتِلَت، مستتبعًا وجه العشاء وقت السحر، وكل وجه منهما وجه أغر، يا لك من صيدٍ مقرِّ العين، مُرضِي الصحاب وهو ذو وجهين، لم يرضَ ما وفى من الأماني، حتى شفعناه بوجه ثانِ، صيد الملوك الصيد بالكواسر، والخيل في وجه الصباح السافر، ذاك الذي تصبو له الجوارح، فهي إلى طلابه طوامح، واثقة بالرزق حيث كانَ، تغدو خماصًا وتجيء بطانًا، سرنا على اسم الله والمناجح، نعوم في الأقطار بالسوابح، خيل تحاذي الصيد حيث مال، كأنها أضحت له ظلالًا، تسعى بها قوائم لا تتبع، وكيف لا وهي الرياح الأربع، تحفُّنا من فوقها غلمان، كأنهم لدَوحها أغصان، ترك تريك في سماء الملبس، كواكبًا طالعة في الأطلس، منظومة الأوساط بالسلاح، من كل شهم رجل الجناح، وكل عضب درب المقاطع، يحرف الهام عن المواضع، على يد السائر منهم زاده، من كل بازٍ قرم فؤاده، قد كُتبت في صدره حروف، تقرأ بما تُقرَى به الضيوف، وكل شاهين شهي المُرتَمى، كبارقٍ طار وصوبٍ قد همى، بينا تراه ذاهبًا بصيده، معتصمًا بأيده وكيده، حتى تراه عائدًا من أفقه، ملتزمًا

طائره في عنقه، أفلح من كان على يُسراه، حتى غدت حاسدة يمناه، وكل صقر مسبَّل الجناح، مواصل الغدوِّ والرواح، ومقلة لها ضرام واقد، تكاد تشوي ما يصيد الصائد، كأنما المخلب منه منجل، بحصد أعمار الطيور مرسل، يا حبَّذا طيور جدٍّ ولعب، تهوي إلى الأرض وللأفق تَثِب، تصعد خلف الرزق ليس تمهله، كأنها من السماء تستعجله، من سنقر عالي المدى والشأن، معظَّم الأخبار والأعيان، كأنه خليفة قد أقدمَ، يفسد في الأرض ويسفك الدمَ، ومن عقاب بأسها مروَّع، كأنها للطير حين تُصرَع، كم جلبت لطائرٍ من وهن، وكم وكم قد أهلكت من قرن، وحبذا كواسر الكواهي، عديمة الأنظار والأشباه، مخصوصة بالطرد القويم، حدباء ظهر الذنب الرقيم، ذاك — لَعَمري — حدب للرائي، يعدل مُلك القلعة الحدباء، هذا وقد تجهزت أعداد، تجمعها الكلاب والفهاد، من كل فهد عنتري الحملة، إذا رأى شخص مهاة عبلة، مبارك الإقبال والإعراض، مستقبل الحال بنابٍ ماض، كأنه من حدة اكتسابه، قد أحرق الأنجم في إهابه، له على مسائل الجفون، خط كخط الألفات الجون، ما أبصر الناظر خطًّا مثله، وكيف لا والخط لابن مقلة، وكل منسوبٍ إلى سلوق، أهرتَ وثَّابِ الخطى ممشوق، طاوي الفؤاد ناشر الأظافر، يا عجبًا منه لطاوٍ وناشر، يعضُّ بالبيض ويخطو بالقَنا، ويسبق الوهم لإدراك المنى، كالقوس إلا أنه كالسهم، والغيم يجلو عن شهاب رجم، إذا تراءى بقر الوحش اندفع، كأنه المريخ في الثور طلع، قاصرة عن يده عيناه، مشروطة برجله أذناه، لو أمكن الشمس التي تخالَهُ، ما سميت من خوفه غزالَهُ، يشفعه عن كل غور غار، مغالب الصيد على الأوكار، واهًا لها من أكلُبٍ طوارد، مُعرِبة عن مضم المصائد، قد بالغت من طمع في كسبها، ففتَّشت عن أنفس لم تخبها، حتى إذا تمت به الأمور، حفت بنا لصيدها الطيور، ما بين روضات صمدنا نحوها، وحول آفاق ملكنا جوها، واستقبلت أطيارها البزاة، معلمة كأنها غزاة، فلم تزل تسطو سطا الحجَّاج، على الكراكي إلى الدرَّاج، حتى غدت تلك السراة صرعى، مجموعة على التراب جمعًا، على الربى من دمها خلوق، كأن كل نبتتها شقيق، ثم عطفنا للوحوش السانحة، فاستقبلت تلك الضواري الطامحة، كلاب صيد بينها سناقر، يُفعَل في الوحش بها الفواقر، يخشى بها العقر على نفوسها، فالطير لا شك على رؤوسها، وللكلاب حولها مغار، يكاد أن تقدح منها النار، من نهم لسانه يلوب، تقول: هذا كوسج مخضوب، يعانق الظبي عناق الوامق، ما كان أغنى الظبي عن معانق، والفهد يشتد على الآجال، شدَّ وصيٍّ السوء في الأموال، لا يهمل القصد ولا يخون، كأن كل جسمه عيون، وللزعاريات خلف الأرنب، حقائق تبطل كيد الثعلب، كم برَّحت بالهارب المكدود، وطوَّحت بصاحب الأخدود، وربما مرت ظباء ومها، للنبل أكل في حشاها مشتهى، قد نسجت ملاءة من

عنبر، تخاط من فروتها بالإبر، فابتدرت أجنحة السهام، صائبة الأعراض والمرامي، تجرح كل سانح نفُّور، كأنه بعض شهود الزور، كأن أقطار الفلاة مجزرة، أو روضة من الدماء مزمهرة، كأن صرعى وحشها كفَّار، الموت عقبى أمرها والنار، للمرء فيها منظر أحبَّه، يملأ من شحم ولحم قلبه، لله ذاك المنظر المهنَّى، إلى معادٍ عن ذراه عدنا، قد ملئت من ظفرٍ أيدينا، وقد شكرنا فضل ما حيينا، نسير حول الملك المنصور، كالشهب حول القمر المنير.

من كلام القاضي زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى: وينهي وصول الصقرين، فسُرَّ العبد بهذين الجزئين، اللذين تحن الجوارح إليهما من وجهين، ويعز على ابن المعتز أن يذكر لهما في تشبيهاته شبهين، فوقع الصقران من الملوك بموقع يفوق النسر، وتأمل نحوهما فإذا هما منصوبان لبناء ما ارتفع وانخفض من الصيد على الكسر، مقلهما حمر كسيوفه، وأجنحتهما مسبلة كغمائم بره على رعاياه وضيوفه، مخالبهما كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعداء الطير، ومناقيرهما كالأهلَّة المبشرة له ولأوليائه بكل خير، فلسان حال كلٍّ منهما يقول لمرسليه: تفرَّقوا فبكسبي أجمعكم، ويخطف لهم الخطفة ويعود بسرعة فبينا هم ينظرون لغيبته قالوا: طائركم معكم، فما أحسن ما يعود ويرجع كل واحد منهما من أفقه، وقد التزم طائره في عنقه، كم ذلَّلا في الطير من حرون، وكم أهلكا في الوحش من قرون، فما أحق هذا الخبر بمقابلة الثناء عليه، وأن يمد المملوك لهاتين اليدين كلتا يديه، ومن كرامات مولانا أنه أصبح جابرًا بكاسرين، فمُذ جاء برسوله الذي إن قدم رسول بأيمن طائر فقد قدم هو بأيمن طائرين؛ والسلام.

منقول من كتاب الفوائد الجليَّة في الفرائد الناصرية، وهو ما جمعه الملك الأمجد من شعر والده الملك الناصر صلاح الدين داوود ابن مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدين أبي المظفر عيسى ابن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد ابن الملك الأفضل نجم الدين أيوب رحمهم الله تعالى:

وظِباءٍ كأمثالِ العُذارى سنح ... تأوي إلى حزن اللوى وسهوبه
فأجاءتها وهنًا وهنَّ رواتع ... ما بين واديه وبين كثيبه
والروض كهل قد تضوَّح نبتُه ... فشبابه متلفع بمشيبه
يبكي تداويه الغمائم رحمةً ... والبرق يضحك فرحة بقشيبه
بمستبق صحب الجلاجل أجدل ... يرتاح رائيه إلى تقليبه

تغني شـــمـائلـه وحســـن صـــفـاتـه   عـن نـعـت مـطـربـه وعـن تـجـريـبـه

ومخصَّـــر الخصـــر اعتـدى في غدوه   بـرقًـا فـخِـيـفَ ضـــبـابـه بـوثـوبـه

عــانــاه فــي تــهـذيـبـه ذو فـطـنـةٍ   وبصـــــارة فـأجـاد فــي تــهـذيـبـه

فقنصــــتُ منهـا ظبيـة كـانـت إلى   قـلـبـي ألـذّ مـن المُـدام وطِـيـبـه

أو قـبـلـة مـمّن بـرانـي صـــــدُّه   خـالســــتـهـا مـنـه بـرغـم رقـيـبـه

الباب الرابع والأربعون

في حظائر الوحوش الجليلة المقدار المتخذة لنزهة الأبصار

القول على بقر الوحش

قال ابن أبي الأشعث في كتابه الذي وضعه في طبائع الحيوان: البقر، والأراويُّ، واليحامير، والظباء، وجميع هذه النوع ليس بأرضي خالص. وينبغي أن يسمَّى بالحيوان الهوائي الأرضي، لأنه خفيف الحركة، متململ، شديد العدو على الأرض، لأن حرارة الهواء ليست فيه ذاتية ولا برودة الأرض كذلك، إلا أن برودتها غالبة لحر الهواء لأنها فيه أكثر. ولمَّا كان كذلك، صار بينه وبين الطائر ممازجة ومناسبة ما، وذلك أنه إذا أراد العدو انتصب في وقفته، وطلب مهبَّ الريح، ثم استنشقها استنشاقًا حالَ طيرانه، ثم زجَّ نفسه مستقبلًا الريح، وربما أخافه مخيف وكان الريح من جهته فيحمل نفسه على الجهة التي فيها المخيف، وأيضًا فإنه يوفر الهواء صيفًا وشتاء، ولا يستتر منه ميلًا إليه ومحبةً فيه.

وأمَّا المها

فيقال: إن من طباعها الشبق والشهوة، وإذا حملت الأنثى هربت من الذكر خوفًا من عبثه بها وهي حامل. والذكر لفرط شهوته يركب ذكرًا آخر، وإذا ركب واحد منها شمَّ الباقي روائح المائية فيَثني عليه ولا يمنع من يثب عليه.

والبقر الوحشية أشبه شيء بالمعز الأهلية، ولذلك تسمَّى نعاجًا، وقرونها صلاب جدًّا، وتمنع بها عن أنفسها وأولادها كلاب الصيد والسباع التي تطيف بها.

ويقال: إن أول من طرد البقر الوحشية ربيعة بن نزار بن معد وإنه لما كدَّها لجأت منه إلى ضالةٍ فاستترت منه بها فرقَّ لها ورجع عنها.

الوصف: كاتب أندلسي يصف بقرًا وحشية: عنَّ لنا سرب يمشين زهوًا كمشي العُذارى، وينثنين تثنِّي السُّكارى، كأنما تختلج بالكافور جلودها، وضمخت بالمسك قوائمها وخدودها، وكأنما لبسن الدِّمَقس سِربالًا، واتخَّذن السندس سروالًا:

من كُلِّ مُهضَمةِ الحَشا وحشيَّة ... تحمي مَدارِيها دماء جلودها
وكأنما أقلام حبر كتبت ... بمداد عينيها طروس خدودها

والوصف البديع في سرعة عدوه قول الطِّرِمَّاح:

يَبدُو وتُضمِرُه البِلادُ كأنَّهُ ... سَيفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغمَدُ

وأما الأيِّل

فإنَّ أصحاب البحث عن طبائع الحيوان يقولون: إن ذَكَرَه من عصب، لا لحم ولا غضروف ولا عظم، وإن قرنه مُصمَتٌ لا تجويف فيه، والأنثى تقلق لنزو الذكر قلقًا شديدًا، ولهذا لا تثبت لنَزْوِه إلا في الفرط مرة واحدة، وإذا حملت لا تضع إلا على الشُّيَّل والطرق لهرب السباع من الجادة المسلوكة، وإذا وضعت أكلت الجعدة لإصلاح لبنها، وهي تحب الكينونة في القمر، وتأتي بولدها إلى أماكن الماء، وتعرِّفه المواضع التي تهرب إليها إذا احتاجت إلى الهرب، وهي صخور فيها صدوع وتجويفات، ليس لها مدخل إلا من مكان واحد، وتقف على ذلك المكان وتقاتل بجهدها كلَّ حيوان يطلب ضرر ولدها.

والأيل يسمن جدًّا، فإذا سمن اختفى في موضع لا يُعرَف خوفًا من أن يصاد لسمنه. وهو مولع بالحيات وأكلها، يطلبها من كل موضع، فإذا انحجرت عنه أخذ في فمه ماءً ومجَّه في الجحر، فتخرج له ذنبها فيأكلها، حتى ينتهي إلى رأسها فيتركها خوفًا من السم، وربما لسعته فتسيل دموعه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه يدخل الإصبع فيهما، فتجمد تلك الدموع وتصير كالشمع تتَّخذه درياقًا لسم الحيات، وهو البازهر الحيواني، وإذا لسعته أكل السرطانات فيبرأ، وكذلك يأكل التفاح الحامض إن كان زمانُه، أو ورقه إن لم يكن زمانه فيبرأ.

ولا ينبت له قرن إلا بعد أن يمضي عليه سنتان من عمره، وإذا نبت قرناه نبتا مستقيمين كالوتدين، وفي الثالثة يتشعَّب، ولا تزال الشعب في زيادة إلى تمام سنة وسنتين، وحينئذ يكونان كالشجرتين على رأسه، ثم بعد ذلك يُلقي قرونه في كل سنة مرة ثم تنبت، وإذا نبتا له تعرَّض للشمس فتصلب، فإذا صارا كالشجرتين منعا الإحصار. ولا يكاد يغلب إذا طردته الخيل، وهو إذا ألقاهما انحجر حتى ينبت خلافهما لأنهما آلته، وليس له سلاح غيرهما يدافع بهما عن نفسه، كالترس للجبان، لأنه لا ينطح بهما إلا إذا صلحا لذلك.

وزعم أرسطو أن هذا النوع يصاد بالصفير والغناء، وهو لا ينام ما دام يسمع ذلك. والصيادون يشغلونه بالتطريب ويأتون إليه من خلفه، فإذا رأوه مسترخيةً أذناه وثبوا عليه، وإن لم يكن كذلك فليس لهم عليه سبيل، وإذا اشتد عليه العطش من أكل الحيات أتى غدير الماء فاشتمَّه وانصرف عنه، يفعل ذلك أربعة أيام، ثم يشرب الماء في اليوم الخامس، وإنما يمتنع من شربه لخوفه على نفسه من سريان السم في الجسد مع الماء.

قال الشاعر يصفه بصده عن الماء مع حاجته إليه ويذكر محبوبته:

هَجَرتُكِ لا قِلًى مِنِّي ولكنْ ... رأيتُ بَقاءِ وُدِّكِ في الصُّدودِ
كهجرِ الظامِئاتِ الماءَ لمَّا ... تَيقَّنَّ المَنايا في الوُرودِ
تَذوبُ نُفوسُها ظَمأً وتَخشى ... هلاكًا فهي تنظر من بعيدِ

القول في الحمار الوحشي

ويسمى العَيْر والفرأ، وهو لا ينزو إلا إذا بلغ ثلاثين شهرًا، ويوصف بشدة الغيرة، فهو يحمي عانته الدهر كله، ويضرب فيها كضربه لو أصاب إناثًا من غيرها.

ويقال: إن الأنثى إذا ولدت جحشًا كَدَمَ الذَّكرُ قضيبَه، فالإناث تُعمِل الحيلة في الهرب حتى يسلم، وهذا حتى لا يكون في العانة غيره ذكر.

وحكى الجاحظ أن أبا الأخضر ذكر عن فحل العانة أنه يستبهم مواضع الذرو ويجهلها، وأن الولد لم يجئ منه، ولكن النطفة البريئة من الأسقام أنتجت، وذلك أن نزوه على قدر ما يَحضُره من الشبق، لأنه لا يلتفت إلى دبر من قُبُل، ولا إلى ما يلقح مما لا يلقح، فهو لا يريد الولد ولا يعزل.

ويقال: إن الحمار الوحشي يُعمَّر مائتي سنة وأكثر، وكلما بلغ مائة صار له مبولة ثانية، وشوهد منها ما له ثلاث مباول وأربع، وهو كشكل المصبر المحشو بين المبولة والمبولة، حتى كأن بينهما حاجزًا مسدودًا، ومعادنه بلاد النوبة، ويوجد منه ما يكون شيته مغمدة ببياض وسواد، يستطيلان فيما استطال من أعضائه، ويستديران فيما استدار بأصحِّ قسمة وأحسن ترتيب.

ومن الحمير الوحشية صنف يقال له الأخدري، وهو أطول الحمير عمرًا، ويقال: إنه نتاج الأخدري، وهو فرس كان لأزدشير بن بابك، أفلت من خيله فصار وحشيًّا، فحمى عدة عانات، فضرب فجاءت أولاده منها أعظم من سائر الحمير وأحسن، وخرجت أعمارها من أعمار الخيل، وفي هذه الحكاية نظر لذوي الفكر، لأنه لا يكون غير نوعين مختلفين من الحيوان حيوان يشبه أحدهما، وإنما يكون ممتزجًا، كالبغل بين الحمار والفرس، والسبع بين الضبع والذئب. وحكى القولَيْن أبو الحسن علي بن رشيق في كتاب العمدة.

ومن رسالة كتبها أبو الفرج الببغاء يصف فيها أتانًا مغمدة ببياض وسواد كان لصاحب لبختيار: وأما الأتان الناطقة في كمال الصنعة بأفصح لسان، فإنَّ الزمان لاطفَ مولانا — أيده الله — منها بأنفَسِ مذخور، وأحسنِ منظور، وأعجب مرأى، وأغرب مرسى، وأفخر مركوب، وأشرف محبوب، وأعز موجود، وأبهر محدود، وكأنما وسمها الكمال بنهايته، أو لحظها الفلك بعنايته، فصاغها من ليله ونهاره، وحلاها بنجومه وإضماره، ونقشها ببدائع آثاره، ورمقها بنواظر سعوده، وجعلها أجلَّ حدوده، ذات إهاب منيَّر، وقوي محبَّر وذنب مشجر، وشَوًى مُسوَّر، ووجه مزجج، ورأس متوج، يكتنفه أذنان، كأنهما زُجَّان، سبجية الأنصاف، بلورية الأطراف، جامعة سنها بالتربيب، بين زمني الشبيبة والمشيب، فهي قيد الإبصار، وأمد الأفكار، ونهاية الاعتبار، غني عن الحليِّ عطلها، مزرية بالزهر حللها، واحدة جنسها، وعالم نفسها، صنعة المنشئ الحكيم، وتقدير العزيز العليم.

القول في طباع الظِّباء

من المباهج: وهي ألوان، تختلف بحسب موضعها: فصنفٌ منها تسمَّى الآرام وألوانها بيض، ومساكنها الرمل، وهي أشد حضرًا؛ وصنف تسمى العفر وألوانها حمر، وصنف تسمى الأدم وهي تسكن الجبال، وفي هذا النوع من أسرار الطبيعة أنه ما رأى ذا روح إلا ويعلم ما يريده منه من خير وشر، وإذا فقد الماء استنشق النسيم فاعتاض به عنه، وإذا طلب لم يجهد نفسه في حضره من أول وهلة، فإذا رأى

طالبه وقد قرب منه زاد في الحضر حتى يفوت الطالب، وهو يخضم الحنظل حتى يُرى ماؤه يسيل من شدقيه، ويَرِد البحر فيشرب من الماء الأُجاج، كما تغمس الشاة لحيها في الماء العذب لطلب النوى المنقع فيه، وهو لا يدخل كِناسه إلا مستدبرًا يستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه، وله نومتان في مكنسيْن، مكنس الضحى ومكنس العشاء، وإذا أسنَّ الظبي ونبتت لقرونه شعب نتج، وإذا هزل ابيضَّ، وهو شنج النَّسا لا يسمح بالمشي، فإذا أراده العدو فإنما هو النقز والوثب ورفع القوائم معًا كما يفعل الغراب، فهو أبدًا يحجل كما يحجل المقيد، وله حضير في الجبال، ويصاد بنار تُوقَد له فيذهل لها، لا سيَّما إذا أُضيف إلى ذلك تحريك أجراس، فإنه يتخدل ويرقد، ويصاد بالعطش الشديد بأن يَحُولوا بينه وبين الماء فينخدل ولا يبقى به حراك البتَّة، وبين الظباء والحجل أُلْفة ومحبة، والحذَّاق في الصيد يصيدون ببعضها البعض، ويوصف بحدة البصر، ويسمى باليونانية اسمًا معناه: النظارة والمبصرة.

ويلحق بهذا النوع غزال المسك، وهو أسود ولونه أسود، ويشبه ما تقدم في القَدِّ، ودقَّةِ القوائم، وافتراق الأظلاف، وانتصاب القرون وانعطافها. غير أن لكل واحد منهما نابين خفيفين أبيضين خارجين من فيه في فكه الأسفل، قائمين في وجهه كنابَي الخنزير، كل واحد منهما دون الفتر على هيئة ناب الفيل، ويكون بالتنبت والهند.

ويقال: إن الغزال يسافر من التنبت إلى الهند بعد أن يرعى من حشيش التنبت وهو غير طيب، فيُلقي ذلك المسك بالهند فيكون رديئًا، ثم يرعى حشيش الهند الطيب ويعقد منه مسكًا ويأتي بلاد التنبت فيلقيه، فيكون جيدًا، والمسك فَضْلٌ دمويٌّ يجتمع من جسدها إلى سُرَرها في وقتٍ من السنة معروف بمنزلة المواد التي تنصب إلى الأعضاء، وهذه السرر جعلها الله تعالى معدنًا للمسك، فهي تثمره في كل سنة بمنزلة الشجرة التي تؤتي أُكُلَها كلَّ حين، فإذا حصل هذا الدم في السرر وَرِمَت وعظمت، فتمرض لها الظباء وتألم حتى تتكامل، فإذا بلغ وتناهى حكَّته بأظلافها وتمرَّغت في التراب فتسقطه في تلك المفاوز والبراري، فيخرج الجلابون ويأخذونه.

ويقال: إن أهل التنبت يضربون لها أوتادًا في البر تحتك بها إذا آلمتها السرر فتنقطع وتسقط، فإذا سقطت عن الظبي كان في ذلك إفاقته وصحته، فانتشر حينئذٍ في المرعى ووردَ الماء.

الوصف: ينبغي أن يُعلَم أن هذا قليل جدًّا، لأن الشعراء نقلوا محاسن الغزال إلى الغزل، وشرحوا بها حال من جد به الحب وهَزُل، والصفة التي يصفون بها الظبي وصفوا بها الجارية والغلام، وصرفوا الحقيقة إلى المجاز فيما أرادوه من الكلام.

قال بعضهم:

فما منزل يعطو بجيدٍ كأنَّهُ يمانٌ بأيدي الناظرين صَقيلُ
هضيم الحشا مغضوضة الطَّرف غالها بذات الأراك مُرتَع ومُقِيلُ
إذا نظرت من نحوه أو تفرَّست دعاها أجمُّ المُقلتَين كَحِيلُ
بأحسن منها حين قالت: صرمتنا وأنت صَروم للحبال وَصول

وقال آخر:

وحالية بالحسن والجيد عاطل ومكحولة العينين لم تكتحل قَطُّ
على رأسها من قرينها الجعد وفرةٌ وفي خدها من صُدغها شاهد يسطو
يخللها من غيرة الجلد وفرة ويجمعها من بيض آباطها مرط
وقد أدمجت بالشحم حتى كأنما ملاءتها من فرط ما اندمجت قمط

خواص الأيل ومنافعه

من المصايد والمطارد: فمنه أنَّ ذَكَرَه من عصبٍ لا لحم فيه، وأن دم كل حيوان يجمد إلا دمه، ولحمه غليظ مائل إلى كَيْمُوسة السوداء، وليس للأنثى قرن، وإذا بخر بقرنه مع كبريت أحمر ذهبت الحيات، وكذلك دمه بطحين الكرسنة، وقرنه تُبخَّر به الحامل فتتيسَّر ولادتها.

خواص حمار الوحش

الجحش البري أحمدها لحمًا، ولحم الهرم يولد دمًا رديئًا، ومن شجج عن أكله لم يكد يبرأ، وسرَّته أطيب ما فيه، وكثير من الناس يأكلون الحمار مسموطًا، ويستطيبون جلده مشويًّا، ويجدون فيه طعم لحم الدرَّاج، وشحمه نافع من الكلف في الوجه إذا طُليَ به، ومن وجع الظهر والكلى العارض من البلغم، فإذا أحرق حافره وسحق في الكحل ينفع من الغشاوة ودفع وجع العين، وزبله إذا خُلِط بمُحٍّ وطلي به الجبين قطع الرعاف، ويقال: إن الخاتم إذا خرط من حافره وعلِّق على من يعتريه الصرع نفع منه، ودماغه يُذاف بماء الكرفس والعسل ويغلى ويسقى مَن به السلُّ في الحمام بماء حار على الريق فيبرأ؛ والله أعلم.

خواص بقر الوحش

لحمها غليظ يولد دمًا رديئًا قريبًا من السواد، وبطنها أطيب ما فيها، ودمها أسرع إلى الجمود من دم سائر الحيوان، ويطبخ لحمها بخلٍّ، فإذا غُلِي جُدِّد خل آخر.

وإناثها المها والعين والنعاج. وأولادها البراغز (والواحد: بُرْغُز) والجآذر (جمع جُؤذُر) والذِّرعان (جمع ذَرَع) والبحازج (جمع بَحزَج) والفرافر (جمع فرفر) والفرائر (جمع فرير)، وهو ساعةَ يولد طَلَى، وأقاطيعها الإجْل والرَّبرب والسرب والصُّوار.

خواص الظبي

والظبي أول ما يولد طَلى، ثم خشف، ثم شادن إذا طلع قرنه، فإذا تمت قوته فهو شصر، ثم جذع، ثم ثني، ولا يزال كذلك إلى أن يموت لا يزيد على هذا.

وسأل محمد بن النعمان بن ثابت أبا حنيفة فقال له: ما على محرم كسر رُباعية ظبي؟ فقال: يا بن رسول الله، ما أعلم ما فيه! فقال له: أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية؟! هو ثني أبدًا!

ولحمه يولد دمًا قريبًا إلى السوداء، وهو أقل ضررًا من لحم البقر، وطبخه بالماء والملح أحمد، والقديد منه أكثر ضررًا، وأكثر لتحريك السوداء، لأنه يزداد يبسًا ويجود فعله ويقوى، وأطيب ما يؤكل فيه كبده مشوية، وشحوم الظباء تغذو غذاء كثيرًا.

وزعمت الحكماء أن دم التيس منها عن كل ما عز من السموم، وأنه إذا صب حارًّا على الحجر الذي يضرب عليه النحاس فتَّته، وإذا خلط مع الزِّنْجَفْر صبغ الياقوت، ويخلط معه وهو يابس قرطاس محرق ويعجن بشيرج ويضمد به البواسير فينفع، ومرارته تنفع من العشا في العين، وكبده إذا شويت واكتحل بها وجميع كبد الماعز نفعت، إذا دهن الرجل مذاكيره بشحم خُصَى التيس مع شيء من عسل عند الجماع وجد له لذةً، ويعجن بعر التيس بخلٍّ ودقيق شعير ويضمد به الطحال فينفع، وإذا أحرق وسحق بالخل نفع داء الثعلب، وإن شُرِب مع الخل نفع من لدغ الهوامِّ، ويخلط دمه يابسًا بلاذن ويدهن به الشعر فيغلظه ويطوله.

القول على طبائع الأرنب

من المباهج: يقول أصحاب الكلام: إن قضيب الذكر من هذا النوع كذكر الثعلب، أحد شطريه عظم والآخر عصب، وربما ركبت الأنثى الذكر حين السِّفاد لما فيها من الشبق، وتسفد وهي حبلى، وهي قليلة الدرور على ولدها. ويزعمون أنه يكون شهرين ذكرًا وشهرين أنثى، وكنت استبعد هذا وأقول: إنه من الخرافات، حتى وقفت عند مطالعتي للكتاب الذي وضعه ابن الأثير في التاريخ وسماه الكامل، على حكايةٍ أوقفتني على الاعتراف بعد الإنكار: ذكر في حوادث سنة ثلاث وعشرين وستمائة فقال: وفيها اصطاد صديقٌ لنا أرنبًا فرآه وله أنثيان وذكر وفرج أنثى، فلما شقوا بطنه رأوا فيه حريفين، فإن كان كما زعموا من أن يكون تارة ذكرًا وتارة أنثى فيكون كذلك، وإلا فيكون في الأرانب كالخنثى في بني آدم، يكون في أحدهما فرج الرجل وفرج الأنثى.

ثم أعقب هذه بما هو أعجب منه فقال: كنت بالجزيرة، ولنا جار له بنت اسمها صفيَّة، فبقيت لذلك نحو خمس عشرة سنة، فإذا قد طلع لها ذَكَرُ رجل، ونبتت لها لحية، فكان لها فرج امرأة وذكر رجل.

والأرانب تنام مفتوحة العين، وربما جاء القناص إليها حتى يأخذها من جهة وجهها وهي لا تبصر، وسبب ذلك أن حاجبي عينيها لا يلتقيان فهي فاتحة لهما في النوم واليقظة.

قلت: ما أحسن ما أنشدني الشيخ بدر الدين البَشتكي أحد شعراء العصر بالديار المصرية للشيخ العلامة شهاب الدين بن أبي حجلة مضمنًا قول المتنبي:

وقوم بالحشيشةِ ذابَ مِنهُم فُؤادٌ ما يُسَلِّيه المُدامُ
أرانب غير أنَّهمُ ملوكٌ مُفتَّحةٌ عيونهمُ نِيامُ

قلت: هذا التضمين ما سُمِعَ مثله لشاعر! فإنه ضمن عجز البيت الأول والبيت الثاني بكماله، ولم يكن للشيخ شهاب الدين فيها غير صدر البيت الأول؛ فتأمله.

ويقال: إن الأرانب إذا رأت البحر ماتت، ولذلك لا توجد في الساحل، وتزعم العرب أن الجن تهرب منها لموضع حيضها. قالوا: وهي كالمرأة. وتأكل اللحم وغيره، وتجتر وتبعر، وفي باطن أشداقها شعر، وكذلك تحت رجليها، وليس شيء قصير اليدين أسرع منها حضرًا، ولقصرهما يخف عليها الصعود والرقل، وهي تطأ الأرض على زمعانها — وهي مآخر قوائمها — مغالطة للطالب حتى لا يعرف أثرها، إلا أن الكلب الفاره والقانص الحاذق لا يخفى عليهما ذلك، لأنها لا تفعل ذلك إلا في السهل الذي

يثبت فيه الأثر، وربما مشت في الجبل فتعفر أثرها بكثرة التراداد فيه إذا قربت إلى الموضع الذي تريد أن تجثم فيه وتثب إليه.

خواصه من المصايد: وأطيب ما يؤكل بنارباج، والنارباج هو الرُّمَّان، ولحمها من أخف اللحم، وله خاصية في الماليخوليا والصرع، وإن طليَ بدمها الكلف أذهبه، وإن طحن وشوي في جوف قرن نفع من القرح في الأمعاء، ويحرق رأسها فيكون سنونًا جيدًا للجلاء، ووبرها يشد به الشريان إذا انقطع، وتعلِّق الأعراب كعبها على الصبيان للعين، وأنفحتها تدفع السم إذا شربت بماء السلق وسذاب، وإذا أخذتها المرأة حملت، ومخها ودماغها يمنع الشعر المنتوف من النبات، وبعرها يذاف بالخل للقوباء، ومرارتها تُطرح في الشراب فتنوِّم.

الوصف لبعض الأندلسيين من المباهج: أفراد حران، كأنهن أولاد غزلان، بين رواغ ينعطف انعطاف البُرَة، ووثاب يجتمع اجتماع الكرة، حال العصب إزاره، وصاغ التبر طوقه وسواره، قد غلل بالعنبر بطنه، وجلل بالكافور متنه، كأنما نضخ بعبير، وتلفع في حرير، ينام بعينَي ساهر، ويفوت بجناحي طائر، قصير اليدين، طويل الساقين، هاتان في الصعود تنجده، وتانك عند الوثوب تؤيده.

القول في النعام

من المباهج: وإنما ذكرناه مع ذوات الأربع من الوحوش، وإن كان ذا جناح، لأنه عند المتكلمين في طبائع الحيوان ليس بطائر، وإن كان يبيض وله جناح وريش، ويعدُّون الخفاش طائرًا وإن كان يحبل ويلد وله أذنان بارزان وليس له ريش، لوجود الطيران فيه ومراعاة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾، وهم يسمون الدجاجة طيرًا وإن كانت لا تطير.

والنعامة تسمى بالفارسية أُشْتُرمُوك، وتأويل أشتر: جمل، وموك: طائر، فكأنهم قالوا: جمل طائر. ولما وجد هذا الاسم ظن الناس أنها نتاج ما بين الإبل والطير، وبهذا أُجريَ عليها المثل في قولهم: قيل للظليم: احمل. قال: أنا طائر! قيل: فَطِرْ. فقال: أنا جمل!

وربما أكد عندهم القول بالتوليد أنهم رأوا فيه من الجمل: المنسم، والوظيف، والعنقَ، والكرش، والخف، والخِزامة. ومن الطير: الريش، والجناح، والمنقار، والبيض. ويشبَّه النعام بالإبل فتسمى الأنثى منها قلوصًا.

وفي طبعها أنها تحضن أربعين بيضة وثلاثين، ومن أعاجيبها أنها تضع بيضها طُولًا، حتى لو مُدَّ عليها خطٌّ لما وجد لشيء منها خروج عن الآخر، ثم تعطي كل بيضة منها نصيبها من الحضن إذ كان بدنها لا يشتمل على عدد بيضها، وهي تخرج لطلب الطعام فتمر ببيض نعام أخرى فتحضنه وتنسى بيضها، ولعلها تُصاد فلا ترجع إليه فيهلِك، ولهذا توصف بالمُوق والحُمق، ويضرب بها المثل في ذلك. وعلى هذا يُنشَد قول ابن هرمة:

فــإنِّي وتَــرْكِــي نَدَى الأكــرمــيـ ـــــن وقَدحِي بِكَفِّيَ زَندًا شَــحـاحـا
كــتــاركــةٍ بَيضَــهــا بــالــعَرا ءِ ومُـلـحِـفـةً بَـيـضَ أخـرى جـنـاحـا

ويقال: إنها تقسم بيضها أثلاثًا: منه ما تحضنه، ومنه ما تجعل صفاره غذاء، ومنه ما تفتحه وتتركه للهواء حتى يعفن ويتولد من عفنه دواب فتغذِّي بها فراخُها إذا خرجت.

وهو من الحيوان الذي يزاوج ويعاقب الذكر في الحضن، ولا تأنس بالإبل ولا بالطير مع مشاركته لهما، وكل ذي رجلين إذا انكسرت له أحداهما استعان بالأخرى ما خلا النعامة، فإنها تبقى في مكانها جاثمة حتى تهلِك جوعًا.

ويقال: إن الحيوان الوحشي ما لم يعرف الإنسان لا ينفر منه إذا رآه ما خلا النعام، فإنه شارد أبدًا، وبه يضرب المثل في الشرود.

وعظامه، وإن كانت عظيمة وشديد العدو بها، لا مخ فيها ولا مجرى لها. وتزعم العرب أن الظليم أصلم، وأنه لما كان كذلك عُوِّض عن السمع بالشم، فإنه يعرف بأنفه ما لا يحتاج معه إلى السمع، فربما كان على بعدٍ فشم رائحة القنَّاص على أكثر من غلوة، والعرب تضرب به المثل في حاسة الشم.

وفسر بعض المعتنين بتفسير أمثال العرب قولهم: أحمق من نعامة، أنَّ من حُمقها إذا أدركت القناص أدخلت رأسها في الرمل، تقدِّر أنها استخفت منه.

وهو قوي الصبر عن الماء، شديد العدو. وأشد ما يكون عدوًا إذا استقبل الريح، وكلما كان أشد لعصوفها كان أشد حضرًا. وهو في عدوه يضع عنقه على ظهره ثم يخرق الريح. وهو يبتلع العظم الصُّلب والحجر والمدر والحديد، فيميِّعه بحرٍّ قانصته حتى يصير كالماء، ويبتلع الجمر حتى ينفذه إلى جوفه فيكون جوفه هو العامل على إطفائه، ويكون الجمر هو العامل على إحراقه، وفي ذلك أعجوبتان: إحداهما التغذي بما لا يغذو، والأخرى الاستمراء والهضم.

وهذا غير منكر لأن السمندل — وهو كما زعم بعضهم: دابة توجد ببلاد الهند وبلاد السند، دون الثعلب، خلنجيَّة اللون، حمراء العين، ذات ذنب طويل، يُنسج من وبرها مناديل — إذا اتسخت أُلقِيَت في النار المتأججة فيزول منها الزهم ولا تحترق.

وببلاد الترك جرذان تُسلخ جلودها ويتخذ من وبرها مناديل إذا اتسخت غُسِلت بالنار بأن تلقى فيها ولا تحترق. وزعم آخرون أن السمندل طائر ببلاد الهند يبيض ويفرخ، وفيه من الخاصية أنه يدخل بالنار ويخرج منها ولا يحترق ريشه، ويُعمل من جلده مناديل الغمر. فكما أن خاصية هذا الحيوان في ظاهره كانت خاصية النعام في باطنه، والباطن في الحيوان كله أنعم من الظاهر.

وقد حكى أبو عبيد البكري في كتاب المسالك والممالك لما ذكر قابس أن بعض أهل البادية دخل على أميرها بطائر على قدر الحمامة، إلا أنهم لم يروه قبل وما عهدوه، وكان فيه من كل لون، وهو أحمر المنقار، فأمر بقصِّ جناحيه وأن يُرسَل في قصره، فلما كان الليل أُوقِد بين يدي الأمير مشعل، فلما رآه الطائر قصده وأراد الصعود إليه، فلم يستطيع النهوض، فلم يزل يجهد نفسه حتى صعد إليه وجلس في وسطه، وجعل يتفلَّى فيه كما يتفلى الطائر في الشمس، فلما قضى وطره منه نزل.

والنعام تصاد بالنار كما تصاد سائر الوحوش، فإنه إذا رآها دهش لها واعتراه فكر فيها، فيقف وقوف حيرة فيتمكن منها الصائد.

خواصه من المصائد: لم يذكر منها شيئًا.

الوصف: أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة:

وَلَرُبَّ طـيَّارٍ خـفـيـفٍ قـد جَرى   فَشَــلا يُـجـاري خـلـفـه الـطـيَّـار
مِن كـلِّ قـاصــرة الـخطى مختـالـة   مشـــيَ الـفـتـاة تَـجـرُّ فضـــل إزارِ
مخضـــوبـة المنقـار تحســـبُ أنَّهـا   كـرعـت عـلـى ظـمـأٍ بـكـأسِ عـقـار
لا تســـتقر بهـا الأداجي خشـــيةً   مِـن لـيـلِ وَيـلٍ أو نـهـارِ بَـوار

قال الزمخشري:

يـا ســـائلي إنَّني أصـــبحتُ في بلـدٍ   لا عـطـلـة تُـتَـرجَّـى لـي ولا عَـمَـلُ
ولا غـريـب ولا لـي فـيـه مـن أحـدٍ   مـثـل الـنـعـامـة لا طَـيرٌ ولا جَـمَـلُ

الطاووس

قال أصحاب البحث عن طبائع الحيوان: إن الطاووس في الطير كالفرس في الدواب، عزًّا وحسنًا، غير أن الناس لا يتبرَّكون به ويكرهون كونه في دورهم. وفي طبعه العفَّة، وحب الزهو بنفسه، والخيلاء، والإعجاب بريشه، وعقده لذنبه كالطاق، لا سيَّما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه.

والأنثى تبيض بعد أن يمضي لها من العمر ثلاث سنين، وكذلك لا يحصل التلوين في ريش الذكر إلا بعد هذه المدة، وهي نهاية البلوغ. والأنثى تبيض مرة واحدة في السنة اثني عشرة بيضة وأكثر، ولا تبيض متتابعًا.

وتسفد في أوان الربيع، وتلقي ريشها في أوان الخريف، كما تلقي الشجر ورقها فيه.

وهي كثيرة العبث بالأنثى إذا حضنت، وربما كسر البيض، ولهذا تحضن بيضه تحت الدجاج.

والدجاجة لا تقوى على حضن أكثر من بيضتين منها، وينبغي أن يتعاهد الدجاجة بجميع ما تحتاج إليه مخافة أن تقوم عنه، فيفسده الهواء. والفرخ يخرج من حضن الدجاجة قليل الحسن، ناقص الخلق، صغير الجثة. ومدة الحضن ثلاثون يومًا، سواء كان البيض تحت الدجاجة أو تحت أمه.

والفرخ يخرج من البيضة كما تخرج الفروخ كاسيًا.

والطاووس من الطير الذي يبيض بيض الريح.

ويقال: إن عبث الطاووس بأنثاه أو إن حضنها غيرة منه أن يخرج من البيض ما يشبهه في حسن ريشه وبهاء خلقته.

وزعم أرسطو أن الطاووس يعيش خمسًا وعشرين سنة، وهذا منه تحكم إلا أن يعينه استقراء.

الوصف: أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي:

أهلًا به لما بدا في مشيه ... يختال في حلل من الخُيَلاءِ
كالرَّوضةِ الغَنَّاءِ أشرقَ فوقَهُ ... ذنبٌ له كالروضة الغناء
ناديته لو كان يفهم منطقي ... أو يستطيع إجابةً لندائي:
يا رافعًا قوسَ السماء ولابسًا ... للحُسن روضَ الحزن غبَّ سماء
أيقنتُ أنَّك في الطيور مملكًا ... لمَّا رأيتُكَ منه تحتَ لواء

وله:

أبـدى لـنـا الـطـاووس عـن مـنـظـرٍ   لـم تـرَ عـيـنـيَّ مـثـلـه مـنـظـرَا
مُتَوَّجَ المـــفـــرق إن لــــم يَكُن   كِســـرى بنَ ســـاســـانَ يَكُنْ قَيصَـــرا
فــــي عُضـــــــوٍ ذهـــبٌ مُفـــرَغٌ   في سُـــنـدسٍ مِن ريشـــــه أخضـــرا
نــزهـــة مَن أبصــــــرَ فــي طـيِّهــا   عـبـرة مَـن فَـكَّـرَ واســـْـتَـبصـــَـرا
تَبـــاركَ الــخـــالـــقُ فـــي كــلِّ مـــا   أبـــدعـــه مِـنـــه ومـــا صــــَـــوَّرا

وقلت:

مــذ تبـدَّى الطـاووس فـي ســـُنـدسٍ   رقـمــه أعـجـز الـورى عـن شـــَـبِـيـهْ
زَركَشَـــتْه شَـــمسُ الضُّـــحى بنُضـــارٍ   ثـــمَّ قـــالــت: واللهِ عـــيـنـــي فِـيـهْ

الباب الخامس والأربعون

في الأسد النبيل والزرافة والفيل

وإنما بدأنا به أولًا لأنه أشرف هذا النوع، لأن منزلته فيه منزلة الملك المهيب، لقوة شجاعته، وقساوته، وجهامة خلقه، وشراسة خلقه.

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إن اللبوة لا تضع إلا جروًا واحدًا، وتضعه بضعة لحم ليس فيها حسن ولا حركة، فتحرسه من غير حضان ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه بعد ذلك فينفخ في تلك البضعة المرة بعد المرة حتى يتحرك ويتنفس، وتتفرج الأعضاء وتتشكل الصورة، ثم تأتي أمه فترضعه، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام من تخليقه، وهي ما دامت ترضع لا يقربها الذكر البتة، فإذا مضت على الجرو ستة أشهر كُلِّف الاكتساب لنفسه بالتعليم والتدريب، وطارد الذكر الأنثى، فإذا كانت صارفة أمكنته من نفسها، وإن لم تكن دفعته ومنعته ونفته مع شبلها بقية الحول وستة أشهر من الثاني، وحينئذ تألف الذكر وتمكنه من نفسها.

وللأسد من بُعدِ الوثبة، واللصوق بالأرض، والإسراع في الحضر إذا هرب، والصبر على الجوع، وقلة الحاجة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع. وربما سار في طلب القوت ثلاثين فرسخًا، ولا يأكل فريسة غيره من السباع، وهو إذا شبع من فريسته تركها ولم يعد إليها ولو جهده الجوع ولا يأكلها، وإذا أكل يقيم يومين وليلتين بالطعام لكثرة امتلائه، ويلقي بعد ذلك شيئًا يابسًا مثل جعر الكلب، وإذا بال رفع إحدى رجليه كالكلب، وإذا فقد أكله صَعُب خُلقه، وإذا امتلأ بالطعام فهو وادع، وأكل الجيف أحبُّ إليه من اللحم الغض.

ولا يثب على الإنسان للعداوة ولكن للطعم، فإنه لو مر به وهو شبعان لم يتعرَّض له وهو مع ذلك حريص نهم، واسع النحر، ينهش ولا يمضغ، قليل الريق، ولهذا يوصف بالبَخر. ولحم الكلب أحب اللحوم إليه، ويقال: إنما ذلك لحنقه عليه، فإنه إذا أراد التطواف في جنبات الحي ألح الكلب بالنباح عليه والإنذار به، فيرجع خائبًا لنهوض الناس إليه، فإذا أراد ذلك بدأ بالكلب حتى يأمن إنذاره.

ومن شأنه إذا أكثر من حسو الدم وأكل اللحم وَحَلَتْ نفسه منها طلبَ الملح، ويجعله كالحَمض بعد الخُلَّة، فهو يطلبه ولو كان بينه وبين عرينه خمسون فرسخًا.

وهو يوصف بالجبن والجراءة، فمن جبنه أنه يذعر بصوت الديك، ونقر الطست، وضرب الطنبور والحبل الأسود، والديك الأبيض، والسنور والفأرة، وقد تكون النار من أسباب اغتراره واغتياله، لأنه يعتريه ما يعتري الظباء والوحوش عند رؤية النار من الحيرة والعجب بها وإدمان النظر إليها والفكر فيها، حتى تشغله عن التحفظ والتيقظ.

ومن جراءته أنه يُقدِم على المِقنَب الكبير والجمع الكثير، ويقابل ولا يرجع من الضرب والجراح، ولا يذلُّه شيءٌ يصيبه من ذلك بل يقاتل بغضبه حتى يموت، وهو إذا كرَّ لا يفر إلا فرارًا خفيًّا مخالسًا. والأسد الأسود أكثر جراءة وجهالة وكَلَبًا. ويقال: إن الأنثى أجرأ من الذكر، والجاحظ لا يعجبه هذا القول ويقول: إنما هي أنزق.

ومن عادته أنه إذا عاين أحدًا لا يفزع ولا ينهزم، فإن ألجئ إلى ذلك وأحس بالصيادين يولِّي وهو يمشي مشيًا رفيقًا، وهو مع ذلك ملتفت ويضمر الخوف ويظهر عدم الاكتراث، وإن تمكن منه الخوف هرب عجلًا حتى يبلغ مكانًا يأمن فيه، فإذا علم أنه أمن مشى مُتَّئِدًا. وإن كان في سهل وأُلجِئَ إلى الهرب جرى جريًا شديدًا كالكلب، وإن رماه أحد ولم يصبه شد عليه، فإن أخذه لم يضره، وإنما يخدشه ثم يخلِّيه كأنه منَّ عليه بعد الظفر به، وإذا شم رائحة الصيادين عفر أثره بذنَبه.

وفيه من شدة البطش ما أنه يأتي الجمل الهائج البازل فيضربه بيده فيثني الجمل عنقه إليه كأنه يريد عضه فيضرب بيساره إلى مشفره فيجذبه جذبة يفصل بها بين رايات عنقه، وإن ألفاه قائمًا وثب عليه فإذا هو ذروة سنامه، فعند ذلك يضرب كيف شاء ويتلعَّب به كيف أحب.

ومن عجيب أمره أنه لا يألف شيئًا من السباع، لأنه لا يرى فيها ما هو كُفُؤ له فيصحبه، ولا يطأ على أثَره شيءٌ منها، ومتى وضع جلده على سائر جلودها تساقطت شعورها. ولا يدنو من المرأة الطامث، ومتى مسَّت قوائمه لحاء شجرة البلوط خدر ولم يتحرك من مكانه، وإذا غمره الماء جاء

الصبي حتى يركب على ظهره ويقبض على أذنه. على أنه لا تفارقه الحمى، ولذلك الأطباء يسمون الحمى داء الأسد، وعظامه عاسية جدًّا، وإذا دُلِّكت عظامه بعضها ببعض خرج منها كما يخرج من الحجارة، وكذلك في جلده من القوة والصلابة ما لا يعمل فيه السلاح إلا من مراق بطنه، وقد يطول مثوى الواحد منها مع الناس حتى يهرم، وهو في جميع حالاته صعب شديد العزم، لا تُؤمَن شرورُه إنِ انفردَ مع سُوامه وأبصر غيضة بين يديها صحراء، ويبلغ من العمر كثيرًا، وعلامة ذلك أنه يصاد فيوجد مهتوم الأسنان، وليس ذلك إلا من الكبر.

خواصه: يقال: إن خصيته إذا مُلِّحت ببَورق أحمر ومصطكى، وجفِّفت وقليت بزئبق، نفعت من البواسير والزَّحير ووجع الأرحام. ويقال: إن من تمسَّح بشحم كليتيه يُؤمَن من أكل السباع، ومرارته بعسل تنفع الخنازير، ودمه يُطلى به السرطان.

وصيده بأنواع من الحيل. فمنها أن تصنع له العرب الزُّبَى — وهي الحفائر — في نشر من الأرض تغطَّى وفي وسطها جرو كلب، فيأتي الأسد ليأخذ الجرو فيسقط فيها.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: بلغ الماء الزبى. أي: أعظمها.

الوصف والتشبيه: وصفه أبو زُبَيد الطائي في حكاية حكاها لعثمان بن عفان رضي الله عنه وقد لقيه فقال: أقبل يتظالع من بغيه، ولصدره نحيط، ولبَلاعيمه غطيط، ولطرفه وميض، ولأسارغه نقيض، كأنما يقبض هشيمًا، أو يطأ صريمًا، ذا هامةٍ كالمِجَنِّ، وخدٍّ كالمِسَنِّ، وعينان سجراوان، كأنهما سراجان، وقَصَرة وَبِلة، وهَرمة وهلة، وساعد مجدول، وعضد مفتول، وكف شَثْنة البراثن، ومخالب كالمحاجن، وفم أشدق كالغار الأخرق، يفتر عن معاول مصقولة غير مغلولة، فَهَجْهَجْنا به فرفر وبربر، ثم زأر فجرجر، ثم لحظ فخِلتُ البرق يتطاير من جفونه، عن شماله ويمينه، فأُرعِشَت الأيدي واصطكَّت الأرجل، وجَحَظَت العيون وساءت الظنون، ولحقت الظهور بالبطون.

عَبوسٌ شَمُوسٌ مُصْلَخِدٌّ مُكابِرٌ ... جريء على الإقدام للقِرن قاهرُ
بُراثنُه شُثْنٌ وعيناه في الدُّجى ... كجمرِ الغَضى في وجهه الشَّرُّ طائر
يُدِلُّ بأنيابٍ حِدادٍ كأنَّها ... إذا قَلَّص الأشداقَ عنها خناجر

وقال أبو الطيب يصفه من أبيات:

وَرْدٌ إذا وَرَدَ البُحَيرةَ واردِ ... وَرَدَ الفُراتَ زئيرُه والنِّيلَا

مُتَخَضِّبٌ بِدمٍ الفَوارِسِ لابِسٌ	في غِيلةٍ مِن لِبْدَتَيْهِ غِيلا
في وُحدةِ الرُّهبان إلَّا أنَّه	لا يعرف التحريمَ والتَّحليلا
ما قوبلت عيناه إلا ظُنَّتا	تحتَ الدُّجى نارَ الفريق حَلولا
يطأ الثرى مُتَرفِّقًا مِن تِيهِهِ	فكأنَّه آسٍ يَجُسُّ عَليلا
ويردُّ غُفْرَتَهُ إلى يافُوخِهِ	حتَّى تَصير لرأسِهِ إكْليلا
وتَظنُّه ممَّا يزمجر نفسَه	عنها لشدَّةِ غَيظِهِ مَشغولا
قَصَرتْ مَخافَتُه الخُطى فكأنَّما	رَكِبَ الكَمِيُّ جواده مَشكولا

ولمؤلفه عفا الله عنه:

سألتك يا جميلَ الستر سترًا	أغيب به عن الخصم الظلومِ
وذاك الستر ستر معنويٌّ	يراني منه كالأسد العظيمِ

ثم خرج أبو الطيب المتنبي بعد أبياته تلك إلى ذكر الممدوح الحسين بن عبد الله بن طُغْج أمير مصر، كان قد خرج متصيِّدًا فرأى أسدًا على فريسته فهاجه فوثب الأسد على كفَل فرسه فأعجله عن استلال السيف، فضربه بالسوط فألقاه عن كفل الفرس، فقال المتنبي القصيدة التي أولها:

في الخَدِّ أَن عَزَمَ الخَليطُ رَحيلًا	مَطَرٌ يَزيدُ بِهِ الجُدُودُ مُحولا
أَمُعَفِّرَ اللَّيثِ الهِزَبْرِ بِسَوطِهِ	لِمَنِ ادَّخَرتَ الصارِمَ المَسلولا

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلي:

وليثٍ مُقِيمٍ في غياضٍ مَنيعةٍ	أميرٍ على الوَحشِ المُقيمةِ في القَفْرِ
يوسِّد شِبلَيْهِ لحومَ فوارسٍ	ويقطع كاللِّصِّ السبيلَ على السَّفْرِ
هِزَبْرٍ له في فيه نارٌ وشَفْرةٌ	فما يَستوِي لحمَ القَتيلِ على الجَمرِ
سراجاه عيناه إذا أظلم الدُّجَى	فإنْ باتَ يَسري باتتِ الوحشُ لا تسري
لَهُ جَبهةٌ مثل المِجَنِّ ومَغطِسٌ	كأنَّ على أرجائه صِبغةَ الحِبرِ
يُصَلصِلُ رعدٌ من عظيم زئيرِه	ويَلمَعُ بَرقٌ مِن حَمالِيقِهِ الحُمرِ

لـه ذَنَبٌ مُسْتَنبَطٌ منه سَوطُهُ   ترى الأرضَ منه وهي مضروبةُ الظَّهرِ
ويَضرِب جَنْبَيهِ به فكأنَّما   له فيها طبل يحضُّ على الكسر
ويُضحِكُ في التعبيس فكَّيْهِ عن مُدَى   بنوبٍ صِلابٍ ليسَ يهتم بالفِهْر
يَصول بكفٍّ عَرضُ شِبرَيْنِ عَرضُها   خناجِرُها أمْضى من القُضُب البُتر
يُجرِّدُ منها كلَّ ظُفرٍ كأنَّه   هِلالٌ بدا للعين في أوَّل الشَّهرِ

وأحسن ما ورد في قتل الأسد قول بشر بن عوانة الفَقْعَسي يصف ملاقاته للأسد وما اتفق له معه، وحكايته أنه تزوج ابنة عمه وخرج يبغي مهرها فلما كان في بعض الطريق عارَضَه أسدٌ فكرَّ بمُهره عليه فتقاعس ولم يُقدِم عليه، فنزل عنه وأقبل نحو الأسد مصلتًا سيفه فقتله، وقال:

أَفاطِمُ لَو شَهِدْتِ بِبَطنِ خَبتٍ   وقد لاقى الهِزَبْرُ أخاكِ بِشرا
إذًا لرأيتِ لَيثًا رام ليثًا   هِزَبْرًا أغلبًا يَبغِي هزبرا
يهُشُّ إذ تقاعَسَ عنه مُهري   مُحاذَرةً فقلتُ: عُقِرتَ مُهرا
أَنِلْ قدميَّ ظهرَ الأرضِ إنِّي   وَجَدتُ الأرضَ أثْبَتَ مِنكَ ظَهرَا
وقلت له وقد أبدى نِصالًا   مذرَّبةً ووجهًا مُكْفَهِرًّا
يُدِلُّ بمِخلَبٍ وبحدِّ نابٍ   وباللَّحَظات تحسبهنَّ جمرا
وفي يُمناي ماضي الحَدِّ أَبقى   لمضربه غداةَ الرَّوعِ أُثْرَا:
أَلَمْ يَبلُغكَ ما فعلَتْ ظُباهُ   بِكاظمةٍ غداةَ لقيتُ عَمرا
وقلبي مِثلُ قَلبكَ لستُ أَخْشَى   محاذرةً ولستُ أخاف ذُعرا
وأنتَ تَرُومُ للأشْبالِ قُوتًا   وأبغي لابنةِ الأعمامِ مَهرا
ففِيمَ تَرومُ مِثليَ أن يولِّي   ويترك في يديكَ النَّفسَ قَسرا
نَصَحتُكَ فالتمس يا ليثُ غيري   طعامًا إنَّ لحمي كان مُرًّا
ولمَّا ظَنَّ أنَّ الغِشَّ نُصحي   وخالفني كأنِّي قلتُ هُجرا
دنا ودنوتُ من أسَدَيْن راما   مُرامًا كان إذ طلباه وَعْرا

يـكـفُّـك غيلـةً إحـدى يـديـه ... ويَـبسـطـه الـوثـوبُ عـلـيَّ أخـرى
هَزَزتُ لـه الـحُسـامَ فَخِلـتُ أنِّي ... هـززت لـه لـدى الـظـلـمـاء فـجـرا
حُسـامًا لـو رَمَيـتُ بـه المـنـايـا ... لـجـاءت نـحـوَه تُـعـطـيـه عـذرا
وجـدتُ لـه بـخـافـقـةٍ رآهـا ... كـمـن لـديـه مـا مـنـه قـدرا
بضـربـةِ فَيصَـلٍ تَرَكَتْهُ شَـفـعًا ... وكـان كـأنَّـه الـجُـلـمُـودُ وَتـرا
فـخـرَّ مُضَـرَّجًـا بـدمٍ كـأنِّي ... هـدمـتُ بـه بـنـاءً مُشْـمَـخِـرًّا
وقـلـتُ لـه: يَعـزُّ عـلـيَّ أنِّي ... قَـتـلـتُ مـنـاسـبـي جَـلـدًا وقَـهـرا
ولـكـن رُمـتَ شـيـئًـا لـم يَرُمْهُ ... سـوِاك فلم أُطِقْ يـا لَيـثُ صـَبرا
تُحـاوِلُ أنْ تُعَلِّمُنـي فِرارًا ... لَـعَـمْـرِ أبـي لـقـدْ حـاولـتَ نُـكـرا
فـلا تَبـعَدْ فـقـدْ لاقـاكَ حـرٌّ ... يُـحـاذر أن يُـعـابَ فـمِـتَّ حُـرًّا

قيل: تعرَّض أسد لقافلةٍ وصال على رجل منها، فتبادروا حتى حالوا بينهما، وقالوا للرجل: كيف حالك؟ قال: صالحة، ولكن الأسد قد خري في سراويلي.

ولمؤلِّفه عند قدوم الفيل المجهر من السلطان المفسد المهلك تيمور كركيان إلى سلطان مصر فرج بن برقوق وقد كثرت أقوال الناس فيه:

الـفِـيـل جـاء هـديَّـةً ... والـخَـلـقُ مِـنـهُ فـي مِـرا
إنْ كـانَ ذاك مـكـيـدةٌ ... فـاقـرأ عـلـيـه: ﴿أَلَـمْ تَـرَ﴾

القول في الفيل

زعم بعض الباحثين عن طبائع الحيوان أن الفيلة مائية الطباع بالجاموسية والخنزيرية التي فيها، وبعضها يسكن الماء وبعضها لا يسكنه. وزعم آخرون أن الفيلة ضربان: فيل وزندفيل، وهما كالبخت والغراب، والبقر والجواميس، والبراذين والخيل، والفأر والجرذان، والنمل والذر، وبعضهم يقول: الفيل الذكر، والزندفيل الأنثى. وهذا النوع لا يتلاقح إلا في بلاده ومعادنه ومغارس أعراقه وإن صار

أهليًّا. وهي تتوالد بأرض السند والهند والزنج، وهي أعظمها خلقًا، وبجزيرة في سرنديب. وينتهي في عظمة الخلق إلى أن يبلغ في الارتفاع عشرة أذرع.

وفي ألوانها الأسود، والأبيض، والأزرق، والأبلق. وهو إذا اغتلم أشبه الجمل في ترك الماء والعلف، حتى ينضم إبطاه ويتورم رأسه، ولم يكن لسواسه غير الهرب منه.

وربما صار وحشيًّا وحمل حملًا شديدًا، والفيل ينزو إذا مضى له من العمر خمس سنين وما قارب وأقل من ذلك قليلًا، وزمان نزوه الربيع، والأنثى تحمل سنتين، وإذا حملت لا يقربها الذكر ولا يمسها، ولا ينزو الذكر علها إذا وضعت إلا بعد سنتين، ولا ينزو إلا على فيلة واحدة، وله عليها غَيرة شديدة، وإذا تمَّ حملُها وأرادت الوضعَ دخلت النهر حتى تضع ولدها بالماء، لأنها تلد قائمة إذ لا فواصل لقوائمها فتَبْرَك، والذكر بعد ذلك يحرسها وولدَها من الحيات، وذلك لعداوة أصلية بينهما.

ووَضعُ ذكر الفيل شبيه بوضعه في الفرس، لكنه صغير عند جثته، وهو في الفرس العتيق صغير أيضًا، وأُنْثَيا الفيل داخلة ببدنه قريبًا من كليتيه، ولذلك يسفد سريعًا كالطير، لأن كونهما داخلين قريبًا من القلب ينضج المنيَّ بسرعة.

ويقال: إن الفيل يحقد كما يحقد الجمل، ويحفظ الشيء الذي يكرهه القيِّم عليه حتى يقابله عند تمكنه منه، وربما قتله.

وزعم أهل الهند أن لسان الفيل مقلوب، ولولا ذلك لتكلم وهو صغير جدًّا، ويجعلون نابيه قرنيه يخرجان مُستَبطِنَين حتى يخرقا الحنك، وعُلم ذلك من تشريحه، ويوجد فيه الأعقف والمستقيم.

قال المسعودي: وربما بلغ الناب منه مائة وخمسين منًّا وأكثر من ذلك، والفيل يحمل بهما على الجدار الوثيق البنيان فيقلبه على الأرض. وقد فتح به محمود بن سبكتكين مدينة الطاق، وهي من أعظم الحصون التي ببلاد سجستان، فإنه جعل نابيه تحت بابها فاقتلعه، وهو من أسرع الحيوان الوحشي أنسًا بالناس، وسرعة الأنس دليل على حسن الطباع ودماثة الأخلاق.

وخرطومه من غضروف، وهو أنفه ويده التي يُوصِلُ بها الطعام إلى فيه، ويقاتل بها، وبها يصيح، وليس صياحه على مقدار جثَّته لأنه كصياح الصبي، يتنزل منه منزلة عنقه، وله فيه من القوة بحيث يقتلع به الشجرة من منابتها، وفي طبعه أنه إذا سمع صوت الخنزير ارتاع ونفر واعتراه الفزع والجزع، وإذا ورد الغُدران والأنهار للشرب، وكان الماء صافيًا، فهو أبدًا يثيره ويكدره كالخيل، لأنها ترى صورها على سطح الماء فتتوهم أنه غيرها فتنفر منه.

وهو قليل الاحتمال للشتاء والبرد، ويقوم ويستتر في الماء منغمسًا ما عدا خرطومه لأنه منه يتنفس، ولا يقدر على السباحة لثقل جثته، وفيه من الفهم ما أنه يقبل التأديب ويفعل ما يأمره به سائسه من السجود للملوك، وغير ذلك من الخير والشر في حالتي السلم والحرب. وفيه من الأخلاق أنه يقاتل بعضه بعضًا قتالًا شديدًا، والمقهور منها يخضع ويتعبد للقاهر ويخاف سطوته.

ويقال: إنه يصاد باللهو والطرب، واللعب والزينة، وريح الطيب والنساء، يصيدونه بذلك. وربما احتيل على صيده بأن يترقَّب حالُ سكونه وهدوِّه، وذلك أنه لا ينام إلا معتمدًا على ساق شجرة، إذ لا يمكنه الاضطجاع لكون قوائمه لا فواصل لها لكنها كالأساطين المصمتة والسواري الوثيقة، والصيادون يأتون الشجرة التي غالب أوقاته يعتمد عليها فيضعفون أصلها، فإذا أتى على عاداته إليها ليعتمد عليها انكسرت فسقط وبقي عاجزًا لا يقدر بنفسه لشيء فيصيدونه كما شاؤوا.

والهند تعظِّم الفيل وتشرِّفه لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة، من علوِّ سَمكه، وعظم صورته، وبديع منظره، وطول خرطومه، وسَعة أذنه، وطول عموده، وثقل حمله، وخفة وطئه، فإنه ربما مر بالإنسان وهو لا يشعر به لحسن خطوِه واستقامته، وللهند طيب يجمعونه من جباه الفِيَلة ورؤوسها فإنه إذا اغتلمت عرقت هذه الأماكن عرقًا كأنه المسك، ويستعملونه لظهور الشبق في الرجال والنساء، ويزعمون أنه يشجع القلب ويقوي النفْس ويبعثها على الإقدام.

والفيل يشب إلى تمام ستين سنة، ويعمَّر مائتي سنة وأكثر، وحكى أرسطو أن فيلًا ظهر عمره أربعمائة سنة.

وحكى بعض المؤرخين أن فيلًا سجد لأبروَيْز، ثم سجد للمعتضد، وبينها الزمان الذي ذكره أرسطو، واعتبر ذلك بالوسم.

وهذا الحيوان يعتريه داء وجع المفاصل لطول قيامه وثقل جثته لأنه لا يضطجع، والله أعلم.

الوصف والتشبيه: قال عبد الكريم النهشلي فيه:

وأضــــخــم هِنــدي الــنِّجــادِ تُعِدُّه	مُلوكُ بني ســـــاســـانَ إنْ نـابها دَهرُ
يَجــيء كــطَودٍ زائــلٍ فــوقَ أربَعٍ	مصـــبَّرةٍ لُمَّـت كمـا لُمَّـت الصــَّخرُ
لــهُ فَخذانِ كــالــكــثــيــبــين لُبِّدا	وصــدرٌ كما أوفى من الهضــبة الصــدر
ووجــه بــه أنــفٌ كــراووقِ خَمــرةٍ	ينــال بــه مــا تُـدرِكُ الأَنْمُـلُ العَشــرُ

وجبتـان لا يروي القليـبُ صـــداهمـا ولـو أنَّـه بـالـقـاع مُـنـهَـرِتٌ حَـفْـرُ
وأُذْنٌ كنِصـــفِ البُردِ يُســمِعـه النِّدا خـفـيًّـا وطَـرفٌ ينفض الـعـيـبَ مُـزوَرُّ
ونـابـان شُــقًّا لا يُريـد ســواهـمـا قـنـاتَـين ســمـراوين لمـعـهـمـا تِـبـرُ
لـه لـون مـا بـين الصـــبـاح وليـلـةٍ إذا نطق العصــفورُ أو صــوَّت الصــقرُ

صلاح الدين الصفدي رحمه الله ملغِّزًا فيه:

أيَّمـا اســـمٌ تـركـيـبُه مـن ثـلاثٍ وَهْــوَ ذو أربـــعٍ تــعـــالــى الإلــهُ
حــيــوانٌ والــقــلــبُ مِنــهُ نــبــاتٌ لَــمْ يَــكُــنْ عــنـدَ جـوعـه يـرعـاهُ
فـيـكَ تصــــحـيـفـه ولـكـنْ إذا مـا رُمْـتَ عَـكسًـا تـكـون لـي ثُـلُـثـاهُ

وقد جعل الله في طبع الفيل الهربَ والوحشة من السِّنَّور.

وإذا احتملت المرأة من نجوها مع العسل لم تحمل أبدًا، وكذلك إذا علِّق على شجرة لم تحمل تلك السنة.

القول على طبائع الكَرْكَدَّن

وتسميه الهند النوسان، ويسمى أيضًا الحمار الهندي، وهو عدو الزِّبرقان والفيل، ومعادنه ببلاد الهند والنوبة والبجَة، وهو دون الجاموس.

ويقال: إنه متولد بين الفرَس والفيلة، وله ظلف واحد غير مشقوق، وقرن واحد عظيم على أنفه بارز، ولا يستطيع لثقله أن يرفع رأسه، وهذا القرن مُصمَت قويُّ الأصل، حاد الرأس مرهفه، يقاتل به الفيلَ فلا يفيده معه ناباه.

ويقال: إنه إذا نُشِر رُؤِيَ في داخله صورة بياض في سواد، صفة إنسان ودابة وسمكة وما يشاكل كل ذلك، وأهل الصين يتخذون منه المناطق، ويغالون في ثمنه.

ويقال: إن حمل الأنثى من هذا النوع كأيام حمل الأنثى من الفيلة، والأنثى تأكل ولدها ولا يسلم منها إلا القليل، والولد يخرج قويًّا، نابتَ الأسنان والقرن، قويَّ الحافر. وقد زُعِمَ أنه إذا كان في بطن

أمه وقارب الوضع يُخرج رأسه من فرجها ويرعى من أطراف الأشجار ما يقوِّيه ثم يرجع به، وقد أنكر الجاحظ هذا القول، وجعله ضربًا من الخرافات.

وتزعم الهند أنه إذا كان في ناحية من البلاد لا يقربها حيوان أصلًا، ويكون بينه وبينها من البعد مائة فرسخ من أربع جهاته هيبة له وهربًا منه.

وليس في ذي القرن ما هو مشقوق الظلف، وهو يجتر كما يجتر البقر والغنم والإبل، ويأكل الحشيش. والهند تأكل لحمه، وكذلك في بلادها من المسلمين، لأنه نوع من البقر والجواميس.

ويقال: إنه شديد العداوة للإنسان، حتى إذا شم رائحته أو سمع صوته جدَّ في طلبه، فإذا أدركه قتله، وإن لم ينتفع به لأنه لا يأكل اللحم.

وهذا الحيوان لا يبرك ولا ينام، إذ ليس له مفصل في ركبتيه ولا في يديه، بل هو من ظلفه إلى إبطه قطعة واحدة.

القول على الزَّرافة

والزرافة في كلام العرب الجماعة، لأنها اجتمع فيها صفاتٌ لكثير من الحيوان، وهي: عنق الجمل، وجلد النمر، وقرن الظبي، وأسنان البقر، ورأس الإبل. ولهذا زعم بعض المتكلمين في طبائع الحيوانات أنها متولدة من حيوانات. وقال: إن السبب في ذلك اجتماع الوحوش في حَمارَّة القَيظ على شرائع المياه، فتتسافد فيلقح منها ما يلقح، ويمتنع منها ما يمتنع، فربما سفد الأنثى من الحيوانات ذكور كثيرة فتختلط مياهها فيجيء خلق مختلف الصورة والألوان والأشكال.

والفُرس تسمِّي الزرافة أُشْتُرْگَاوْپَلَنْگ، فتأويل أشتر: بعير، وگاو: بقرة، وپلنگ: الضبع، وهذا كما رأيت موافق لكلام العرب من كونها مركبة الخلق من حيوانات شتَّى.

والجاحظ لا يعجبه هذا القول، ويقول: إنه جهلٌ شديد لا يصدر عن من لديه تحصيل، لأن الله تعالى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، وهو نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمير، ومما يحقق ذلك أنه يلد مثله، وقد شوهد.

وهي طويلة اليدين والعنق جدًّا حتى يكون مجموعها عشرة أذرع وأكثر، قصيرة الرجلين جدًّا، وليس لها ركب، وإنما الركب ليديها كسائر البهائم، وإذا أكلت مما على الأرض تفحجت لقصر عنقها عن يديها.

ومن عادتها أن تقدم عند المشي اليد اليمنى والرجل اليسرى بخلاف ذوات الأربع، فإنها كلها تقدم اليد اليمنى والرجل اليمنى، وفي طبعها تآلف وتودُّد وتآنس، وهي تجتر وتبعر.

الوصف: ابن حمديس:

ونـوبيَّةٍ فـي الـخَلـقِ مـنـهـا خَلائـق ... مَتى مـا تَرِقُّ العينُ فيهـا تَسـهـلِ
إذا ما اسـمُها ألقاه في السَّـمعِ فاخرٌ ... رأى الطرفُ مـا عنى عنـاه بمِقْوَلِ
لـهـا فـخـذا قَرمٍ وأظـلافُ فـرهـب ... ونـاظـرتـا ريـمٍ وهـامـة أُيَّـلِ
كأنَّ الخطوط البيض والصُّـفر أشـبهتْ ... على جسـمها تَرصِيـعَ عاجٍ بَصَنْدَلِ
ودائمـة الإقْعـاءِ في أصـلِ خَلقِها ... إذا قـابلـتْ أدبـارُهـا عـنـد مُقبـلِ
تـلـفَّتُ أحـيـانًا بـعـينٍ كـحـيلـةٍ ... وجِيـدٍ عـلـى طـول الـلـواء المُـمـطَّـلِ
وتَنفُضُ رأسـًا في الزِّمـام كـأنَّمـا ... تريـك لـه هـادٍ على السُّـحـب مُعْتَـلِ
وعُرفٍ رقيقِ الشَّـعرِ تحسـبُ نَبتَهُ ... إذا الـريـح هـزَّتْـهُ ذوائـبَ سـُنـبُـلِ
وتحسـبها من نفسـها إن تبخترت ... تُزَفُّ إلـى بَعـلٍ عَروسـًا وتَنجلي
فكم منشـدٍ قولَ امرئ القيس عندهـا: ... أَفـاطِمُ مَـهلًـا بـعـضَ هـذا الـتَّـدَلُّـلِ

ومن أبيات الفقيه عمارة اليمني في ذلك:

وبـهـا زرافـاتٌ كـأنَّ رقِـابَهـا ... فـي الطُّولِ ألـويـةٌ تَـؤمُّ الـعَسـكَرا
نـوبـيـةُ المـنشـأ تُريـكَ مِن المَهـا ... روقًـا ومـن بُـزل المـهـارى مِشـفَـرا
جُبِلـتْ علـى الإقعـاءِ من إعجـابها ... فتخـالـهـا للتِّيـه تمشـي القَهقرَى

وقال محي الدين بن عبد الظاهر في وصف الفيل: كأنه ليل قد تبلج من أنيابه أوائل الصباح، أو غمامة سوداء فُوَيق الأرض هنديها يكاد يمسكها من قام بالراح.

هذا آخر هذا الباب، والله أعلم بالصواب.

الباب السادس والأربعون

في الحَمَامِ

وما قيل في وصفهنَّ من بديع النظام

قد جرت عادة الكبراء والعظماء اتخاذ الحمام في منازلهم، ولا سيَّما في أيام الخلفاء، وأكثر من ذلك في أيام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام المستضيء، فإنه اهتم بأمرها وبأمر إنشائها. وما زالت الخلفاء والملوك يطيِّرون الحمام ويسابقون به، ولا يختص بذلك بنو العباس.

قال صاحب روض الأزهار: كان الوزير أبو الفتوح يعقوب وزير المعز أجل الخلفاء المصريين وأفخمهم، وكان له حمام يسابق به، فاتفق أنه سابق بها طيور الخليفة العزيز فسبق حمامه، فعظم ذلك على الخليفة، ووجد أعداء الوزير الطعن عليه من أن هذا الوزير يختار الجيد لنفسه من كل شيء، ويختار للخليفة الأدنى، فبلغ ذلك الوزير فكتب إلى الخليفة يقول:

قُلْ لأميرِ المُؤمنين الذي ... لهُ العُلا والكوكب الثاقب:
طائرك السابقُ لكنَّه ... جاء وفي خدمته حاجب

فسكن جرح الخليفة عنه. ولما مات هذا الوزير خلف أربعة آلاف مملوك، وحارة الوزيرية في القاهرة وتُعرَف به، وبساتين الوزير بالقرب من بركة الحبش، ولما مات نزل الخليفة وألحده في قبره، وبلغ كفنه وما يدخل في قبره عشرة آلاف دينار.

قال الجاحظ: وقد تباع الحمامة بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك شيء من الطير. ومن دخل بغداد والبصرة عرف ذلك. وتباع البيضة بخمسة دنانير، والفرخ بعشرين دينارًا.

رويَ عن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — أنه اشتكى إلى رسول الله ﷺ الوحشة فقال: «اتَّخِذْ حَمَامًا تُؤنِسُكَ، وتُصِيبُ من فِراخها، وتوقظك للصلاة بتغريدها».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رسول الله ﷺ يعجبه النظر إلى الحمام والأُتْرُجِّ.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّخِذوا الحمام فإنها تلهي الجن عن صبيانكم».

روى جابر عنه أنه ﷺ كان له حمام أحمر اسمه وردان.

وكان إبراهيم بن بشار معجبًا بالحمام، وكان إذا ذكرها يقول: إن الله جمع فيها حسن المنظر، وكرم المخبر، تكفيك مؤنتها فهي للطارق عُدَّة، وللمستوطنين لذة، تطعم في الصحراء، وتعود إليك في السراء، يأنس الوحيد بحركاتها، وتغنيه عن الأوتار بنغماتها، وغيرها من الطير يستعجم وهي ناطقة، وتنفر عنك وهي داجنة.

وفي طباعها السكون إلى الناس والاستئناس بهم، وهي طير عفيف يبقى الذكر بعد الأنثى منفردًا، والأنثى مثل ذلك، مع شدة اتفاقهما على المحبة، إن طارا طارا معًا، وإن وقعا وقعا معًا، لها سرعة الطيران لا تكاد سباع الطير تصيدها إلا بحيلة.

ولم تزل العرب تستحسن سجع الحمام وتغريد البلبل والوَرَشان، وأعراب وادي القرى إذا ظفروا بشراب الطائف أتوا حوائط من النخل عند استواء الظهيرة إذا صارت الوراشين والفَواخِتُ إلى تلك الظلال، فيشربون ويأنسون بتغريدهن، ويقيمون أصواتهن مقام المزامير والأوتار، وفي ذلك يقول بعضهم:

أحــنُّ إلـى حـوائـط ذات عِرقٍ ... لـتـغـريـدِ الـفَـواخِـتِ والـحَـمـامِ
ألـمُّ بـهـا وكـلُّ فـتًى كَريـمٍ ... مِـن الـفِـتـيـانِ مَـخـلـوعِ الـزِّمـامِ

وقد ألف القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كتابًا أسماه تمائم الحمائم، ذكر فيه أنسابها وأنواعها وغير ذلك.

وفيه قول القاضي الفاضل: لا زالت أجنحتها تحمل من البطائق أجنحة، وتجهِّز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة، وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر، وتُطوَى الأرض إذا نشر الجناح الطائر، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل إذا نيطت بالرقاع، طارت أولي أجنحة مَثنَى وثُلاث ورُباع، وقد باعد الله بين أسفارها وقربها، وجعلها طيف اليقظة الذي صدق العين وما كذبها، وقد أخذتْ عهود أداء الأمانة في

رقابها أطواقًا، وأدت من أذنابها أوراقًا، فصارت خوافي وراء الخوافي، وغطت سرها بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الصوافي، ترغم النوى بتقريب العهود، وتكاد العيون تلاحظها تلاحظ أنجم السعود، وهي أنبياء الطير لكثرة ما تأتي به من الأنباء، وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان قيام الخطباء.

وسماها القاضي الفاضل في مكان آخر ملائكة الملوك، فرحمه الله ما كان أقدره على الكلام، وما أحسن ما وصف الحمام، وتسميته إياها أنبياء الطير!

قال الشيخ تاج الدين بن الأثير من فصل: طالما جارتها الرياح فأصبحت محلقة وراءها تبكي عليها السحب، وصدق من سماها أنبياء الطير لأنها مُرسَلة بالكتب.

وقال الشيخ السديد علمُ الرؤساء من رسالة: في تقدُّمه من البشائر، يكون المعني بقولهم: أيمنُ الطائر. ولا غرو أن فارق رسل الأرض وفاتهم، وهو مرسل والعَنان عِنانه، والجو ميدانه، والجناح مركبه، والرياح موكبه، وابتداء الغاية شوطه، والتشوق إلى أهله سوطه.

وقال الأسعد بن مَمَّاتي من صدر رسالة:

عوامل بالقلاب مما يدلنا ... على أن معنى القلب من عادة القلب
ومَن لم يجد شخصًا من الإنس كاملًا ... يَبثُّ له الشَّكوى تَشاغَلَ باللعب

يعني أنَّ الحضرة قد أطاعت سلطان نفسها، واسترجعت شيطان أمسها، وعزمت على إنفاق كيِّس الأيام بالاشتغال بالحمام.

وللشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة: وفرضنا — أعزَّك الله — أن ذلك الواشي في كلامه مصيب، فالملوك أولى بالتقاط فوائد مولانا لأني ابن أبي حجلة وللطير في زاد الكرام نصيب.

صلاح الدين الصفدي وكتبها إلى بعض أصحابه:

هذي بِطاقةُ قادمٍ ... قد جاء يَلْهَجُ بالمدح
حمَّلتُها قلبي الذي ... قد طارَ نَحوَكَ بالفَرَح

وقلت: ما ألطف قول الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة:

شكرتُ اقتراحي في البديع فلمتني ... وقبلي أناس كان يشكر ما اقترح
ولو كان من شعري المحجَّل ريشةٌ ... لكلِّ بني الآدابِ طاروا من الفرح

القاضي الفاضل:

لـيَهـنـكَ طـائـر الـفـتـح المـبـين   ومـا أدَّى مـن الـخـبـر الـيـقـينِ
وأشــرفَ في الـخيـام على رِيـاضٍ   وحطَّ من الرمـاح على الغصـونِ
وأطـربَ بـالـكـتـابِ وزادَ حـتَّى   ظـنَـنـاه يُـغـنِّـي بـالـلُّـحـونِ
وسـرك بـالـيـقـين بـغـيـر وعـدٍ   تُـرجِّـيـه الـظُّـنـونُ بـقـدُّوسَـين
بمـا أسـهرتَ جفن السـيف حتى   جـعـلـت الـنـوم غـمـدًا لـلـجـفـون

وله تغمده الله برحمته:

وقـد ألِفَ الـتـحـليـقَ ريشُ جنـاحـهـا   فـجـاءت إلـيـنـا في رداء الـعـرائـس
ومـا خُلِّقـت بـالـزعـفـران وإنَّمـا   نضـخن دمًا من أكـل قتلى الفوارس
مـلائـكـة الـرحـمـن يُزجـى كـتـابـهـا   إلـيـهـم ببشـراهـم بـقـتـلى الأبـالـس

وله رحمه الله:

نسـائـر نـائـي الطَّيـر حَامِلِ كُتْبِهـا   فـأيُّ سـُرورٍ لـم يَـدَعْـهُ ويُـفْشـِـهِ
غَدَوْتُ ولا سـيـفٌ يـقـرُّ بـغـمـده   وبـتُّ ولا طَـيـر يـقـرُّ بـعُـشـِّـهِ

وذكر ابن مُسَدِي في معجمه قال: سمعت أبا الحسن محمد بن نصر الله بن عنين يقول: كنت بخُرَاسان في مجلس الفخر الرازي إذ أقبلت حمامةٌ يتبعها جارح فسقطت في حِجر الفخر الرازي وعاذت به وهو على منبره، فقمت وأنشدت بديهًا:

يـا بـن الـكِـرام المُطـعـين إذا شَـتَوا   في كـلِّ مَسـغـبـةٍ وثـلـجٍ خـاسـف
والـعـاصـمين إذا النفوس تطـايرتْ   بـين الصـوارم والـوشـيـج الـراعف
مَن نـبَّأ الـوَرقـاءَ أنَّ مـحـلَّكـم   حَـرَمٌ وأنَّـك مـلـجـأ لـلـخـائـف
وافَتْ إلـيـكَ وقـد تـدانـى حَـتـفُهـا   فـجـبرتـهـا ببـقـائـهـا المُسـتـأنف
ولـو أنـهـا تُـجـبَى بـمـال لانْثَنَتْ   مِن راحـتَـيـكَ بـنـائـلٍ متضـاعـف
جـاءت سُـلـيمـانَ الزَّمـانِ حمـامـةٌ   والموتُ يـلـمـع من جنـاحَـيْ خـاطف

فخلع عليه جبة كانت عليه.

وهذا كان سببًا لإقبال السعود عليَّ، وتَسنِّي الآمال لديَّ، والله أعلم.

ومن إنشاء الشيخ زين الدين بن الوردي: فبينما الباز سكران بما بان من البان، وإذا الحمامة، قد أوقعت أمامه، وقالت: كم تفتخر، وأنت عظم نَخِر! أنت من آلة اللعب والصيد، وأنا من آلة الجد والكيد، أنا مع الطوق والخضاب، من جُملة حَمَلَة الكتاب، ومع خوفي من شَرَكِ الشِّرك، وحذري من فخِّ الإفك، حملت الأمانة التي أبت الجبال عن حملها، وامتثلتُ مرسوم ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، فلما وَصلتُ الحقوق، أمنتُ من العقوق، وتزينتُ بالستائر والخلوق، ومما أعجب العالمين أني مخضوبة البنان، ولي يمين أقول للملك: دع الاهتمام، ولا تحزن فإني أنا الحمام، مهما حدث عليك من البعد من أخصامك، أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، كتمت عن الناس سري، وأبهمت في الغناء والنوح أمري:

رَأَوا خضابي وطوقي ... فاستنكفوا من بكائي
ثم ادَّعوا أنَّ نَوحي ... مُناسِبٌ لغنائي
فقُلتُ: كفُّوا فَدَمْعِي ... بادٍ بغير اختفاءِ
الخضبُ مِن فَيضِ دَمعي ... والطوقُ عَقدُ ولائي

قال القاضي علاء الدين الوداعي: كان القاضي الفاضل يسمي الحمام ملائكة الملوك، فسميت أنا البريدية شياطين السلاطين.

ومن كلامه: سكنت البروج فهي أنجم، وأعدت في كنائنها فهي أسهم.

وفيها لابن مماتي:

هي من ملائكة الملوك لأنها ... خُصَّت بوحي دونهم ورسائل

ولبعض البغاددة:

حُمَيمات أراك الدوح ما أنتنَّ ... يا ورق ألا عنائي كلَّما نُحتُن
هذا وأنتنَّ أزواجًا فلو كنتن ... مثلي فرادى وأيم الله ما عشتن

الباب السابع والأربعون

في الحصون والقصور والآثار وما قيل فيها من رائق الأشعار

ما أحسن قول القاضي الفاضل: ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب، وعُقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة.

وقال الشيخ شهاب الدين محمود: حصن قد تقرط بالنجوم، وتقرطق بالغيوم، وسما فَرعه إلى السماء، ورسا أصله إلى التخوم، وتخالُ الشمسَ إذا علت أنها تنتقل في أبراجه، ويظن من سها إلى السها أنها ذبالة في سراجه، لا يعلوه من مسمى الطير غير نسر السماء ومرزمه، ولا يرمق متبرجات بروجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من أنجمه، وحوله كل شامخ مهيب عقاب الجو قطع عقابه، وتقف الريح حسرى إذا توقلت في هضابه، تخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر، وتحيل الفكرة صورة الترقي إليه لا تبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر، وحوله من الأودية خنادق لا تُعلَم منها الشهور إلا بأنصافها، ولا تعرف فيها الأهلَّة إلا بأوصافها.

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة في باب تجربة الخاطر: وإذا هي سماء يتقاعس الفكر عن محاولة شهبها، وحسناء كأنما رامت أن تنظر الحسن فكان قرص الشمس مرآة وجهها، تزاحم بروجها السماء بالمناكب، وتضيء نجومها الثواقب، وتلقى إذا عطشت كواكب الدلو بأرشية البروق في قليب السحائب، لا تُسامي ولا تسام، ولا يحصل منها قادم سفر إلا على معانقة العوالي ومصافحة السهام.

وقال علاء الدين بن غانم: ذات أودية ومحاجر لا تراها العيون لبعد مرامها إلا شزرًا، ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلا نَزْرًا، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر إلا أن هذا عذبٌ فرات وهذا ملح أُجَاج، ولها وادٍ لا يقي لفحة الرمضاء ولا حر الهواجر، وقد توعرت مسالكه فلا يُداس فيها إلا على المحاجر، وتفاوت ما بين مَرآه العليِّ وقراره العميق، ويقتحم راكبه الهول في هبوطه ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

وقال سيدي الأخ العزيز الفاضل تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي سلمه الله تعالى في وصف قلعة دمشق عندما حوصِرتْ في الوقعة المشهورة: ونظرت بعد ذلك إلى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾. وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾. واستجلت عروس الطارمة عند زفتها وقد تجهَّزت للحرب ولم ترضَ بغير الأرواح مهر، وقد أقعدت على رأسها تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الأبيض سوار النهر، وغازلت بحواجب قسيِّها ورمت القلوب من عيون مراميها بالنبال، وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكحالًا كانت السهام لها أميال، وطلبها كلٌّ من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية، وراموا كشفها وهم في رقعة الأرض كأنهم لم يعلموا بأن الطارمة عالية، وتالله لقد حرست بقوم لم يتدرعوا بغير آية الحرس في الأسحار، وقد استيقظوا بحمل قسيهم ولم تنم أعينهم من الأوتار، فأُعِيذُ رواسيها التي هي كالجبال الشامخة بمن أسَّس المحجوج، وأحصِّنها قلعةً بالسماء ذات البروج.

قلت: ويحسن ذكر المنجنيق في هذا الموضع؛ نقلت من خط القاضي صلاح الدين الصفدي قال: نقلت من خط السراج الوراق لنفسه يصف حجارة المنجنيق:

ترقى بمكر المنجنيق إلى السُّها   وتعود تطلبُ مركزًا ربَّاها
وحمت بها الأسرار ثم تكلَّمت   لمَ لا وقد صحَّت بها أقواها
وتولَّتِ السُّمر الطوال سواكها   وثغورها لا تنجلي بسواها

وقال ابن النبيه من قصيدةٍ يمدح بها الأشرف ويصف دارًا بناها بقلعة أخلاط:

سقى الله من أعلامِ أخلاط قلعةً   يحوم بها نسرُ السَّماء على وَكرِ

ودارٍ على خير المطالع أُسِّست فمَن حلَّ فيها في أمانٍ من الدهر
على صدأ الأبصار لَمعُ ضيائها فأحسبها قد أُلبِسَت بهجة الدُّرِّ
وقد أنست أركانها من نقوشها تماثيل روض لم يزل يانع الزهر
يكاد يُشَمُّ المسكُ من نفحاتها ويسقط من أرجائها ورق التبر
تَسرُّ وتُلهي ساكنيها بحسنها فإنْ شئتَ أغنَتْ عن غناءٍ وعن خمر
إذا فتحت أبواب مستشرفاتها جلت لك نونُ البحر والوحش في البر
فإن شئت للأخرى فمحراب ناسكٍ وإنْ شئت للدينا فريحانة العمر
وإنْ جمعًا فالله ما زال جامعًا شتيتَ العُلا للأشرف بن أبي بكر

وللشيخ بن أبي حجلة في مدرسة القاضي بدر الدين بن الخروبي بمصر:

تأمَّل ففضلي سار في البر والبحر ولي خبرٌ في مصر يُغني عن الخبرِ
يقابلني المقياس يوم وفائه بوجه فتاةٍ لاح من خلَلِ الستر
فشبَّاكه يرنو إليَّ بأعينٍ جلبن الهوا من حيث أدري ولا أدري
أهيم بها في مصر حتى كأنها عيون المها بين الرُّصافة والجِسر
فلا عذر عندي للنسيم إذا سرى وكم في الهوى العُذْرِيِّ للصبِّ من عذر
تداوى بشرب الماء عندي جماعةٌ كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
فمائي من عين الحياة لأنَّه من الرَّوض يأتيني على قدم الخضر
وبسطي حكى روض القناديل زهرها وثغر حباب الماء يبسم عن در
ولا تعجبا من زائري إنْ توقدت عليه مصابيح الطلاقة والبِشر
تشاهد مني العين في مصر روضة ترى زهرها في الماء كالأنجم الزهر
وكم وردة أبدى دهاني حسنها يبيت بها قلب الحسود على الجمر

وله فيها:

دارٌ يُصانُ الجارُ في أرجائها ويُذال فيها صَيِّنُ الأموالِ

نســـيت بهــا الأهـرام لمـا أن غـدا بُـنـيـانـهـا هَـولًـا مــن الأهــوال

الشيخ شمس الدين بن الفُوَّيَّه السكندري فيمن له غلام اسمه ريحان:

إنَّ الأمـــيــر حـــبـــاه رب الـ ــعــرش إحســـانًـا ومــنَّــةْ

هــو الـــغـــلامُ ودارُهُ رَوحٌ ورَيـــحـــانٌ وجَـــنَّـــةْ

حكي عن سِنِمَّار أنه كان رجلًا حاذقًا بالعمارة، فأمره النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس اللخمي أن يبني له حصنًا بظاهر الحيرة، وهو الذي يقال له الخَوَرْنَق. فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه وإتقان عمله، فقال له: لو وفَّيتموني أجري لبنيته بناء يدور مع الشمس كيفما دارت. فقال النعمان: أقدرت على أحسن منه ولم تفعل؟! فأمر بقذفه من أعلاه. وقيل: إنما قتله لأنه لمَّا فرغ من بنائه خلا به وقال له: إن هذا البناء كله مردود إلى هذا الحجر فاحتفظ به، فإنه إن نُزِع سقط البناء كله. فقتله لئلا يطَّلع على ذلك غيره، فضربت به العرب المثل وأكثرت فيه فقالوا: جزاه الله جزاء سنمار.

وقال الشاعر، أنشده ابن مالك:

جـزى بـنـوه أبـا الـغـيـلان عـن كـبـرٍ وحُســـنِ فِعـلٍ كمـا يُجزَى سِــنِمَّــارُ

وقال عبد العزيز بن امرئ القيس:

جــزانــي جــزاه الله شـــرَّ جـزائـه جزاءَ ســـِنِمَّـار ومـا كـان ذا ذنـبِ

قال ابن الشجري: يقال: رجل سنمار، إذا كان حسن الوجه أبيضه، ويقال للقمر: سنمار.

ولما أراد المنصور أن يبني بغداد في سنة أربعين ومائة سأل راهبًا كان في صومعةٍ في مكان بغداد، عندما أراد أن يختطَّها: أريد أن أبني هنا مدينة. فقال له الراهب: إنما يبنيها ملك يقال له الدوانيقي. فضحك وقال له المنصور: أنا هو! وشرع في بنائها سنة أربعين ومائة، وتركها سنة ست وأربعين ومائة، وفي سنة تسع وأربعين تمَّ جميع بنائها وهي بغداد القديمة التي بالجانب الغربي على دجلة، وهي بين الفرات ودجلة كما جاء في الحديث، وبغداد الثانية — وهي الجديدة — التي في الجانب الشرقي، وفيها دور الخلفاء، وبغداد عبارة عن سبع محال لا تفتقر منها محلة إلى غيرها على شاطئ دجلة، فالتي في الجانب الشرقي الرصافة، بناها المهدي بن المنصور حين ضاقت بالرعية والجند سنة إحدى وخمسين، وهي مدينة مسوَّرة، والثانية مشهد أبي حنيفة مسورة، والثالثة جامع السلطان غير مسورة، والرابعة

مدينة المنصور في الجانب الغربي وتسمى باب البصرة، وكان بها ثلاثون ألف مسجد وخمسة آلاف حمام، والخامسة مشهد موسى بن جعفر مسورة، والسادسة الكرخ مسورة، والسابعة دار القزِّ مسورة.

قلت: رأيت مكتوبًا على ظاهر المدرسة التي أنشأها الشيخ الإمام العالم أوحد القُرَّاء أبو عبد الله شمس الدين محمد بن الجزري تغمده الله برحمته بعقبة الكتان عمرها الله ببركته وأظن أنها من نظمه:

يـا دارَ عِلـمٍ لـلـمـآثـر تُقصَـدُ ... وبِصَـدرها تُروَى العُلوم وتُسـنَدُ
خلعتْ عليكِ الكائناتُ جمالها ... فلذاك سَعدُكِ دائمًا يتجدَّدُ
أضحَيتِ للرَّاجِينَ كعبةَ قاصدٍ ... لِكمالها تعنو الوجوه وتَسجُدُ
نظرتْكِ شمسٌ للعلوم مُنيرةٌ ... منها لطُلَّابِ الفَضائلِ مُنجدُ
يا باذلًا للمال غير مُذَمَّمٍ ... حاشاك من ذمٍّ وأنت مُحمَّدُ
كم قلَّد الناسُ اجتهادك منَّة ... فحمدت مجتهدًا وأنت مُقلَّدُ
طربتْ بذا المغنى العقولُ فيا له ... مِن دارِ قُرآنٍ وفيه معبدُ
بالأمس كان على الطريق قمامة ... واليومَ فهْو على الحقيقةِ مسجد
ما إن رآه مُشاهِدٌ لجماله ... إلَّا وَيَعجَبُ مِن سَناه ويُنشِدُ
وإذا تأمَّلت البقاعَ وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتَسعَدُ

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب في عمارة السلطان الملك الظاهر برقوق التي بناها بين القصرين عمرها بحياته:

عمارة الظاهر قد أصبحت ... أركانها شاهقةً كالعَلَم
وبشرت أحجارها بالبقاء ... وأنه يبلغ سِنَّ الهَرَم

وله في رباط المعشوق الذي بمصر المحروسة المشرف بالآثار الشريفة:

لَنا رِباطٌ وبالمعشوق شهرته ... آثار خير الورى فيهِ بتحققِ

يصــــــبــو فــؤادي بِـمَرآهُ ولا عَجَب   إنْ هــامَ قـلـبـي فـي آثـار مـعشــــوق

وله أيضًا:

أتيـت إلـى المـعشــــوق مِن بَعـدِ فُرقَةٍ   وهَـجـرٍ وقـلـبـي بـالـنـوى يـتضــــرَّمُ
فـقــابَلَنـي والـثَّغـرُ بـالـزَّهـرِ بـاســـمٌ   وما أحســـن المعشــوق للصـبِّ يَبسَـمُ

قلت: وأنشدني من لفظه لنفسه الشيخ الإمام الفاضل اللغوي جلال الدين أبو المعالي ابن خطيب دارَيَّا:

يــا عــينُ إنْ بَعُدَ الـحَبـيـبُ ودارُهُ   ونَــأَتْ مَــرابِـعُــه وشَــطَّ مَــزارُهُ
فـلـقـد حظيـتِ مـن الـزمـان بطـائـلٍ   إنْ لَــم تَــرَيــهِ فــهــذه آثــاره

وللصلاح الصفدي ونقلتها من خطه:

أكــرِمْ بــآثــار الــنــبــيِّ مُـحَـمَّـدٍ   مَن زارهـا اســـتوفى السُّــعودَ مزاره
يـا عَينُ وَيـحَكِ فـانـظـري وتـمـتَّعـي   إنْ لَــم تَــرَيــهِ فــهــذه آثــاره

وإلى هذا المكان يشير الشيخ شهاب الدين ابن حجلة في مقامته الزعفرانية التي منها قوله:

[بياض في الأصل]

وقال الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي موريًّا به وبغيره من منارة مصر المحروسة:

ولـــيـلـــةٍ مـــرَّت بِنـــا حُلـــوةٍ   إنْ رُمـتَ تَشـــبيهًـا لـهـا عِـبْـتَـهـا
لا يَبـلـغُ الـواصـــفُ فـي وَصـــفِهِ   حـدًّا ولا يـلـقـى لـهـا مُـنـتَـهـى
بِتُّ مـع المـعشـــوق فـي روضـــةٍ   نـلـتُ مـن خـرطـومـه الْمُشــتـهـى

وقرأت في شرح قصيدة بني الأفطس التي شرحها الكاتب أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي رحمه الله، عند ذكر كسرى: هو كسرى أنوشروان بن قباذ، كان ملكه ثمانٍ وأربعين سنة، وقيل: سبعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر، وهو الذي بنى سور الباب والإيوان، وجعل هذا السور من جوف البحر مقدار ميل، وبناه على الزقاق بلبن الحديد والرصاص، وكلما ارتفع البناء نزلت

إلى أن استقرت في قرار البحر، وارتفع السور على الماء فتغاضبت الرجال حينئذٍ بالخناجر والسكاكين إلى تلك الزقاق فنشقتها وتمكن السور على وجه الأرض في قعر البحر.

وذكر المسعودي أن هذا السور كان باقيًا سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ويسمى هذا السور الذي في البحر القيد، وجعل هذا السور في أكر على جبل الفتح أربعين فرسخًا، حتى انتهى إلى طبرستان، وجعل على كلِّ ثلاثة أميال من هذا السور بابًا من حديد، وأسكن من داخله أمةً من الناس تراعي ذلك الباب وما يليها من السور، وذلك لدفع الأمم المتصلة بذلك الجبل، وهم أنواع من الأمم، منهم الخَزَر واللان والتُّرك والبرغز وغيرهم.

وذكر في كتابه هذا عند ذكر المأمون ومن تسمى باسمه: فمنهم يحيى بن ذي النون صاحب طُلَيْطِلَة، يحكى أنه بنى قصر طليطلة وتأنق في بنائه، وأنفق فيه أموالًا كثيرة، وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة، وساق الماء إلى رأس القبة حواليها محيطًا بها، متصلًا بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماءٍ يُسكب ولا يعبر، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل. فبينما هو نائم فيها إذ سمع منشدًا ينشده:

أتبني بناءَ الخالدينَ وإنَّما ... بَقاؤك فيها لو عَقِلتَ قَليلُ

لقد كان في ظِلِّ الأراكِ كِفايةٌ ... لِمَن كلَّ يومٍ يَقتضيه رَحيلُ

فما لبث بعد هذا إلا يسيرًا حتى قضى نحبه.

وأنشدني الشيخ شمس الدين الجرائحي من لفظه لنفسه إجازةً وقد أمره القاضي فتح الدين بن الشهيد أن ينظم شيئًا يكتبه على طراز في صدر إيوانه:

أيا مَن بِطَرْزِ الدُّرِّ أكمامُهم سَمَتْ ... قِفُوا وانظروا دارَ الطِّراز على خصري

وصدري لأسرار الممالك حائط ... من الفضَّة البيضاء والذهبِ المصري

فمَن ذا يضاهيني افتخارًا وقد غَدَتْ ... خزائنُ أسرار الممالك في صدري

نقلت من خط الشيخ بهاء الدين الموصلي، والد شيخنا العلامة عز الدين أبي الخير الموصلي، من مقامة وسمها بسلوة الغريب وخلوة الحبيب، منها في وصف القصر الأبلق بدمشق: وقصرها الأبلق ليس بعقوق، مَن شاهد بديع معانيه لها عن العاشق والمعشوق، قد سام في غمده مشهور غمدان، وأسبل على إيوان كسرى ستر النسيان، يبهر الناظرَ حسنُ معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه مَن رآه، الماء

مرفوع في أقطاره ونواحيه، منتصب في فواراته لتمييز ناظريه، يتكسر جمعه على شاذَرْواناته بإضافته إلى مجاريه، فقد اجتمع لقاطنه لطافة المعنى والحسن الباهر، ولم يكمل ذلك البهاء إلا بكمال جمال الظاهر، أعين شبابيكه إلى ميدانه الأخضر ناظرة، فقد جمع الصادح والباغم، واللاقط والطاعم، به الظباء الأوانس، والمها الكوانس، أقطاره عريضة طويلة، لا ترجع الأبصار من السفر في دمنته إلا كليلة، أخجلت خمائله الأيك والغصون، ولاذ القائف بالسلوان عن اقتفاء أثر السلوك في معانيه التي كلها عيون، وقف الأبلق حين جرى إلى منتهاه، وأدركه الإعياء فسكن بأقصاه، وشاهد الشقراء تمرح في ميدان واديها فأراد الوصول إليه فعاوده الاضطراب، فقطعت على الأنهار الطريق وضرب بينهما بسورٍ له باب.

الإيوان من بغداد

مرحلة بناه كسرى أبرويز في نيِّف وعشرين سنة، مائة ذراع في عرض خمسين في سمك مائة، من الآجُرِّ الكبار والجص، وثخن الجدار الأزج خمس آجرات، وطول الشرف خمسة عشر ذراعًا، ولما بنى المنصور بغداد أحب أن ينقضه ويبني به، فاستشار خالد بن برمك فنهاه وقال: هو آية الإسلام، ومن رآه علم أنَّ مَن هذا بناؤه لا يُزيل أمرَه إلا نبيٌّ، وهو مصلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمؤنة في نقضه أكثر من الارتفاق به. فقال: أبيت إلا ميلًا إلى العجم! فهُدمت ثلمةٌ منه، فبلغت النفقة عليها مالًا كثيرًا، فأمسك فقال خالد: أنا الآن أشير بهدمه لئلا يُتَحدَّث بعجزك عنه. فلم يفعل.

وعلى ذكر الإيوان، فما أحسن ما أنشدني من لفظه لنفسه إجازة شيخنا العلامة عز الدين أبو الخير الموصلي محاجيًا:

يا مَن لهُ الطول في المعالي   وبالمعاني لنا يبصِّرْ
إنِّي كما قلتُ في سؤالي   ما مثل قولي: نعم مُقَصِّر

القاضي فتح الدين بن الشهيد على لسان مجلس داره، وقد بُنِيَ لبعض الأجلاء في داره مجلس عال:

يا مَن ينزِّه في حسني نواظره   اسمَعْ صِفاتٍ بها قد فُقْت أمثالي
إني مقام مقرٌّ عزَّ جانبه   ودون قدر جنابي المجلس العالي

أنشدني من لفظه لنفسه الأديب الفاضل الكامل شمس الدين أبو عبد الله الجرائحي في مجلسٍ بناه سيدنا ومولانا قاضي القضاة، وشيخ الشيوخ، خطيب الخطباء، أبو الحسن علاء الدين بن أبي البقاء السبكي الشافعي، تغمده الله برحمته:

ومجلسٍ قد قال لي: مُنشئي ... ما مثله في الفَضِل قاضي القضاةْ
قد أَسَّس البُنيانَ منِّي على ... تقوى من الله وأرضى الإله
فصرتُ كالكعبة من أجله ... تسعى إلى نحوي الحُفاةُ العُراةْ
فما سعى نحوي أخو شدَّةٍ ... إلَّا ومن ربِّي لاقى رِضاه
فالاسم منِّي في الهجاء مُعرَّب ... وإنَّما للمدح قصدًا بناه
يحظى بِخَفضِ العَيشِ مَن أمَّني ... ورفعه يبقى بقصد النحاة
قاضٍ قضى الحق ولكنَّه ... جارَ على ما مَلكتْه يداه
فما اشتكى الفقرَ إليه امرؤٌ ... إلَّا ونادى المالَ: كُنْ في رضاه

وأنشدني لنفسه — فسَّح الله في أجله — في منزل القاضي فتح الدين بن الشهيد:

يا مَنْزلًا بالبَها والحُسنِ ناظرَني ... طرز الملوك طرازي لستَ من طَرَزي
والناس دون محلِّ الغير تقصدني ... من القَبول لأنَّ السِّرَّ في حَرَزي

ومن المباني العظيمة المذكورة في القرآن العزيز: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾. قال أصحاب الآثار ورواة الأخبار: لما سمع شداد بن عاد بن إرم وصف الجنة سوَّلت له نفسه أن يبني مثلها، فبنى مدينةً بين حضرموت وصنعاء، طولها اثنا عشر فرسخًا، وعرضها مثل ذلك، وأحاط بها سورًا ارتفاعه خمسمائة ذراع، وغشى خارجها فضة مموَّهة بالذهب، وبنى داخلها مائة ألف قصر عدد رؤساء أهل مملكته، بلبن الذهب والفضة، وكذلك جذوع سقوفها وأساطينها، وأجرى في وسطها نهرًا صفَّح أرضه بالذهب، وجعل على حافَّتَيه أنواع الجواهر والياقوت بدلًا من الحصباء، وألقى فيه المسك الغبر عوضًا من الحمأة، وفرَّع منه جداول إلى تلك القصور والمنازل، وغرس على شطوطها من الأشجار ما كان لزهره عرف طيب ورائحة ذكية.

وزعموا أنه أقام في بنائها ثلاثمائة سنة، فلما تم بناؤها زاد في طغيانه ولم يعبأ بربه عزَّ وجلَّ، فبعث الله هودًا عليه السلام يدعوه إلى الله تعالى ويحذره سطوته ويخوفه نقمته، فلم يجبه إلى ما دعاه إليه، وخرج من حضرموت إلى ذات العِماد ليبلغ نفسه مناها بسكناها، فلما أشرف عليها جاءته صيحة من السماء فأهلكته وجنوده، وأفاتته أمله ومقصوده.

ويروى أن عبد الله بن قلابة خرج في طلب إبل له ندَّت، فوقع عليها فحمل منها ما قدر عليه مما ثمَّ، فلبغ خبره معاوية فاستحضره، فقص عليه خبره، فبعث إلى كعب فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وفي عنقه خال، يخرج في طلب إبل له ندَّت. ثم التفت فرأى ابن قلابة فقال: هذا — والله — ذلك الرجل!

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود، ولهذا سمَّيت ذات العماد.

ومن المباني العظيمة سدُّ ذي القرنين الذي بناه على يأجوج ومأجوج، وصفته على ما حكاه ابن خُرْداذُبة أن مكانه جبل أملس مقطوع بوادٍ، عرضه مائة وخمسين ذراعًا، وفي جانبي الوادي عضادتان مبنيان، عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعًا، كل ذلك مبني بلبن الحديد مغيَّب في نحاس، في سمك خمسين ذراعًا، وعلى العضادتين دَرَوَنْد حديد طرفاه في العضادتين، طوله مائة وعشرون ذراعًا، وفوق الدروند بناء بتلك اللبن الحديد المغيبة في النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مدُّ البصر، فوق ذلك شرافات من حديد في طرف كل شرافة قرنان يثني كل واحد منهما إلى صاحبه، وبين العضادتين باب من حديد بمصراعين، وبين كل مصراع خمسون ذراعًا في خمسة أذرع، وعلى الباب قفل طويل طوله سبعة أذرع في غلظ باع في الاستدارة وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعًا، وعتبة الباب عشرة أذرع، بسط مائة ذراع، سوى ما كان تحت العضادتين.

ويقال: إن آلة البناء التي بَنى بها هذا السد موجودة بحصونٍ بناها ذو القرنين، ورتب فيها حراسًا يحرسون هذا السد، وهي معادن. وبقية لبن ذلك كله من حديد، وإن كل لبنة ذراع ونصف في مثل ذلك، في سمك شبر قد ألصق الصدأ بعضها ببعض.

ومن المباني المشهورة قصر غمدان، وكان بصنعاء. قال الجاحظ: أحبت العرب أن تشارك الفرس في البناء وتنفرد بالشعر، فبنوا غمدان، وكعبة نجران، وحصن مارد والأبلق. ويزعم بعض الأخباريين أن بانيه حام بن نوح، ويزعم آخرون أن بيوراسف بناه على اسم الزُّهَرة.

وذكر ابن هشام أن الذي أسسه يَعرُب بن قَحطان، وأكمله بعده واحتلَّه وائل بن حِمْيَر بن سبأ بن يعرب، وخرَّبه عثمان بن عَفَّان رضي الله عنه. وكانت صفته على ما نقلته من الكتب المدونة في العجائب مربَّعًا، أحد أركانه مبني بالرخام الأبيض، والثاني بالرخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرخام الأحمر، فيه سبع سقوف طباقًا، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعًا، وجعل على كل ركن تمثال أسد من النحاس، إذا هبَّت الريح دخلت من دُبُره وخرجت من فِيه، فيُسمَع له صوت كزئير الأسد.

وقال ابن الكلبي: كان على كل ركن من أركان غمدان مكتوب بالحميريَّة: أسلم غمدان، معاديك مقتولٌ بسيف العدوان.

وذكر الجاحظ في كتاب الأمصار أن قصر غمدان كان أربع عشرة غرفة، بعضها فوق بعض.

ويروى أن عمر بن الخطاب قال: لا يستقيم أمر العرب ما دام فيها غمدانها. وهذا القول الذي حضَّ عثمانَ رضي الله عنه على هدمه، وأثره باقٍ على تلٍّ عالٍ مطلٍّ على البلد قرب الجامع.

ومن المباني التي يبلى الزمان ولا تبلى، وتندرس معالمه وأخبارها تدرس وتُتلى، الأهرام التي بأعمال مصر، وهي أهرام كثيرة أعظمها الهرَمان اللذان بجِيزة مصر غربي النيل. يقال: إن بانيها سوندير بن سهلوب بن شرناق قبل الطوفان. ويقال: إن هرمس المثلث، وهو الذي تسميه العبرانيون أخنخ، وهو إدريس عليه السلام، استدرك من أحوال الكواكب على كون الطوفان، فأمر ببناء الأهرام، وإيداعها الأموال وصحائف العلوم وما يُخاف عليه من الذهاب والدثور.

وكل هرم منها مربع القاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعًا، يحيط به أربع سطوح متساويات الأضلاع، كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعًا، ويرتفع إلى أن يكون سطحه ستة أذرع في مثلها.

ويقال: إنه كان على أعلاه حجر يشبه المكبة، فرمته الرياح العواصف، وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة، وإتقان الهندام، وحسن التقدير، بحيث لم يتأثر إلى الآن بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل.

وهذا البناء ليس بين حجارته ملاط يتخلل بينهما الشعر، وطول الحجر خمسة أذرع في سمك ذراعين.

ويقال: إن بانيها جعل لها أبوابًا على أزاج مبنية بالحجارة في الأرض، وطول كل أزج عشرون ذراعًا، كل بابٍ من حجر واحد يدور بلولب، إذا أُطبِق لم يُعلم أنه باب، وأزج الشرقي في ناحية الجنوب، وأزج الغربي في ناحية المغرب، يُدخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت، كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة، وكلها مقفلة بأقفال، وحذاء كل بيت صنم من ذهب مجوَّف، إحدى يديه على فيه، وفي جبهته كتابة بالمسند، إذا قرئت انفتح فوه، فيوجد فيه مفتاح ذلك القفل فيُفتح به.

والقبط تزعم أنها والهرم الصغير الملون قبور، فالهرم الشرقي فيه سوندير الملك، والهرم الغربي فيه أخوه هرخيب، والهرم الملون أفرونين بن هرخيب، والصابئة تزعم أن أحدهما قبر عاثيمون، وهو عندهم شيث، والآخر قبر هرمس، والملون قبر صاب بن هرمس، وإليه يُنسَبون على قول مَن زعم ذلك، وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الدِّيَكة، ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطرابها عند الذبح ما يريدون علمه من الأمور المغيَّبة، ولم تزل همم الملوك قاصرة عن تعرُّف ما في هذين الهرمين، إلى أن ولي المأمون وورد مصرَ، وأمر بفتح واحد منهما، ففتح بعد عناء طويل، واتفق بسعادته المعينة على تحصيل غرضه أن فتح في مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب، وهو زلاقة ضيقة من الحجارة الصوان المانع الذي لا يعمل فيه الحديد، بين حاجزين ملتصقين بالحائط، وقد نقر في الزلاقة لئلا يزلق، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر، ويقال: إن في أسفل البئر إيوانًا يُدخَل منه إلى مواضع كثيرة، وبيوتٍ ومخادِع وعجائب، وانتهى بهم الطريق إلى موضع مربع، في وسطه حوض من رخام مغطى، فلما أزيل عنه غطاؤه لم يوجد فيه إلا رِمَّة بالية قد أتت عليها العصور الخوالي، فأمر المأمون بالكف عما سواه.

رأى بعض الفضلاء هذه الأهرام فقال: كل بناء أخاف عليه من الدهر، إلا هذا البناء، فإني أخاف على الدهر منه.

ومما قيل فيه من الشعر قول الفقيه عمارة اليمني:

خَلِيلَيَّ ما تحتَ السَّماءِ بَنِيَّةٌ ... تُماثِلُ في إتْقانِها هَرَمَيْ مِصرِ
بِناءٌ يَخاف الدَّهرُ مِنه وكلُّ ما ... على ظاهرِ الدُّنيا يخاف مِن الدَّهرِ

وبالقرب من الأهرام صنم على صورة وجه إنسان، تسميه العامة أبو الهَول لعظمه، ويقال إن اسمه بالقبطية بلهويه، ويقال: بلهيب. وتزعم القبط أنه طِلَّسْم للرمل لئلا يغلب على أرض الجيزة، وعنده أحقاف من الرمال كأنها الجبال مما يلي الطين الإبليز.

ومن العجائب منارة إسكندرية، وهي مبنية بحجارة مهندمة مضبَّبة بالرصاص على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر سرطان من نحاس، فيها نحو من ثلاثمائة بيت، تصعد الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها، وللبيوت طاقات ينظر منها إلى البحر، وبين أهل التاريخ خلاف فيمن بناها، فزعم قوم أنها من بناء الإسكندر بن فِيلُبُّس المقدوني، وزعم آخرون أنها من بناء دلوكا ملكة مصر، ويقال: إنه كان على جانبه الشرقي كتابة، وإنها نقلت فوجدت:

بَنَتْ هذه المنظرة فريثا بنت مرسوس اليونانية لترصد الكواكب.

ويقال: إن طولها كان ألف ذراع، وفي أعلاها تماثيل من نحاس، منها تمثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس، أينما كانت من الفلك يدور معها حيثما دارت، ومنها تمثال وجهه إلى البحر، متى صار العدو منهم على نحوٍ من ليلة سُمِعَ له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوَّت صوتًا مطربًا. ويقال: إنه كان بأعلاها مرآة تُرى منها قسطنطينيَّةَ، وبينهما عرض البحر، وكلما جهز الروم جيشًا رُؤِيَ فيها.

وحكى المسعودي أن: هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية، وأنها تعد من بنيان العالم العجيب، بناها بعض البطالمة من ملوك اليونان بعد الإسكندر لما كان بينهم وبين الروم من الحروب في البر والبحر، فجعلوا هذه المنارة مرقبًا، وجعلوا في أعاليها مرآة من الأحجار المشفة، يشاهد منها مراكب العدو إذا أقبلت من رُومْيَةَ، على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها. فاحتال ملك الروم — لما انتفع بها المسلمون في مثل ذلك — على الوليد بن عبد الملك، بأن أنفذ أحد خواصه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب في الإسلام، فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام، وأخرج كنوزًا ودفائن كانت في الشام، ما حمله على أن صدقه أنَّ تحت المنارة أموالًا وأسلحة دفنها الإسكندر، فجهزه مع جماعة إلى الإسكندرية، فهدم ثلث المنارة وأزال المرآة، ثم فطن الناس أنها كانت مكيدة منه، واستشعر ذلك فهرب في مركب كانت له معدَّة، ثم بنى ما هدم بالجص والآجر.

ثم قال المسعودي: وطول هذه المنارة اليوم في هذا الوقت الذي وضع فيه هذا الكتاب (وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة) مائتان وثلاثون ذراعًا، وكان طولها قديمًا نحو من أربعمائة ذراع، وبناؤها في عصرنا ثلاثة أشكال، فقريب من الثلث مربع مبني بحجارة بيض، ثم بعد ذلك مثمَّن الشكل مبني بالآجر والجص نحو نيف وستين ذراعًا، وأعلاها مدوَّر الشكل.

وكان أحمد بن طولون قد بنى في أعلاها قبة من الخشب، ثم هدمت وبني في مكانها مسجد في أيام الملك الكامل صاحب مصر، ثم إن وجهها البحري تداعى وكاد أن ينقض، فرُمِّم وأُصلِح، وكذلك الرصيف، وذلك في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس رحمه الله.

قلت: ذكرت هنا ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ونقلته من خطه المرحوم الوزير فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس في صاحبه الشيخ شهاب الدين القوصي السكندري يداعبه:

يا ذا السِّراجِ اشترِ أيري فأنت به ... أَوْلَى وذلك للأمر الذي وَجَبَا

سَكَنْدَرِيٌّ وتُدعَى بالسراج وذا ... مِثلُ المنارِ إذا ما قام وانتَصَبا

وأنشدني من لفظه لنفسه سيدنا مولانا المقر المجدي فضل الله، ولد المرحوم المشار إليه أولًا، أدام الله نعمته، محاجيًا وكتب إلى سيدنا ومولانا أوحد المتكلمين نادرة الدهر المقر الأشرف الأميني كاتب الأسرار الشريفة بدمشق المحروسة أسبغ الله ظلاله:

يا مَن سَما قَدرُه نحوَ النُّجومِ عُلًا ... فأوقعَ الضِّدَّ قسرًا في مهالكهِ

ما بَلدةٌ إنْ تُحاجِي في اسمِها فَطِنًا ... مصحِّفًا قلتَ: يَشكُو مَكرَ مَالِكِهِ

فكتب إليه الجواب الجناب المجدي المشار إليه:

أحجيةٌ بديعةٌ إن صحَّفوا ... خمسة أجزاء لها على قدر

وعكسوا باقيها وقدَّروا ... فإنَّما هيَ طَلَعْتَ كقمر

قلت: هذه الطريقة غريبة جدًّا، ووجه الحل فيها أن تأتي بالمرادف ثم تصحفه فيكون المقصود. ومثاله في قول المقر المجدي: يشكو مكر مالكه. فإنَّ مرادف يشكو: يبثُّ، ومرادف مكر: كيد، ومرادف مالكه: ربه، فيصير مجموع ذلك: يبثكيدربه، فإذا صحفت هذه الكلمات تجدها: سكندرية، وهي البلدة المعمَّى بها؛ فافهمه.

وأما الثانية، فقوله: فإنما هي طلعة كقمر. فالمراد أن مرادف طلعتَ: بِنْتَ، ومرادف كقمر: كبَدر، فيحصل من ذلك: بنتكبدر، ثم تضيف إلى ذلك معكوس هي وهو: يه، فإذا صحَّفتَ جميعه وجدته: سكندرية، وهذا من المعمَّى الغريب، ولم يحلها أحد من متأدبي دمشق والقاهرة غير سيدنا ومولانا

أقضى القضاة بدر الدين المخزومي المالكي الشهير بابن الدماميني، أعزَّ الله أحكامه، وذلك بتاريخ سنة ست وتسعين وسبعمائة وأنا بالقاهرة المحروسة.

رجع إلى ما كنا بصدده

ومما قيل في المنارة من الشعر قول الوجيه الذروي:

وسامية الأرجاء تُهدِي أخا السرى ... ضياءً إذا ما حِنْدِسُ الليلِ أظْلَما
لبست بها بُردًا من الأُنْسِ ضافيًا ... فكان بتذكار الأحبة معلما
وقد ظلَّلتني من ذراها بقبَّةٍ ... ألاحظُ فيها من صحابي أنْجُما
تخيَّلتُ أنَّ البَحرَ تَحتي غمامةٌ ... وأنِّي قد خيَّمتُ في كَبِدِ السَّما

القاضي الفاضل من وصفه لبناء بيت المقدس: من الرخام الذي يطَّرد ماؤه، ولا تنطرد آلاؤه، قد لطف الحديد في تجريعه، وتفنن في توشيعه، إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض، لها من بياض الترخيم رقراق، وعُمدًا كالأشجار لها من التنبيت أوراق.

وقال أبو عبادة البحتري يصف قصرًا بناه المتوكل بسُرَّ مَن رَأى، وسماه الكامل:

غُرَفٌ من بناءِ دِينٍ ودُنيا ... يوصف اللهُ فيه آخرَ الأيامِ
شوقتنا إلى الجنان فزدنا ... في اجتناب الذنوب والآثام

وله يصف قصرًا آخر بناه المتوكل وسماه الجعفري:

قد تَمَّ حُسنُ الجَعفَرِيِّ ولَم يَكُن ... لِيَتِمَّ إلَّا بالخليفة جَعفَرِ
مَلِكٌ تبوَّأ خيرَ دارٍ أُسِّسَتْ ... في خَيرِ بدوٍ للأنام ومحضر
في رأس مُشرِفةٍ حصاها لؤلؤٌ ... وتُرابها مِسكٌ يُشابُ بعَنبر
مُخضرَّةٌ والغيثُ ليس بساكبٍ ... مُبيضَّةٌ والليلُ ليس بمُقمِرِ
وقعت بمنحرف الرياح وجاوزت ... ظلل الغمام الصيِّب المستعبر

وهذان القصران من جملة قصورٍ بناها المتوكل، وهي: بركوانا، والعروس، والبركة، والجوسق، والمختار، والغريب، والبديع، والصبيح، والمليح، والقصر، والبرج، والمتوكِّليَّة، والقلايا.

حكى المؤرخون أنه أنفق في بنائها مائتي ألف ألف وأربعة وسبعين ألف ألف درهم، منها ذهب بصرف الوقت مع ما فيه من العين ثلاثة عشر ألف ألف وخمسمائة ألف وخمسة وعشرين ألف دينار، وكان البرج من أحسنها، كان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة، وبركة عظيمة غشي ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة، وجعل عليها شجرة ذهب، فيها كل طائر يصوِّت ويصفر سمَّاها طُوبَى، بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف وستمائة ألف دينار.

ومن المباني العظيمة جامع دمشق، ذكر الشيخ عماد الدين بن كثير في تاريخه البداية والنهاية: وفي سنة ست وتسعين من الهجرة، تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق المحروسة، على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، جزاه الله عن المسلمين خيرًا، وكان أصل موضع الجامع قديمًا معبدًا بنته اليونان والكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق، وهم وضعوها أول ما بنيت، كانوا يعبدون الكواكب السبعة المنجزة، وهي القمر الذي في سماء الدنيا، وعطارد في السماء الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة. وكانوا قد صوَّروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلًا لكوكب من هذه الكواكب السبعة، وكانت أبواب دمشق سبعة، وضعوها قصدًا لذلك، وكان لهم عند كل باب عيد في السنة، وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد، وتكلَّموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارناتها، وبنوا دمشق، واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد بين هذين الجبلين، وصرَّفوه أنهارًا تجري إلى الأماكن المرتفعة والمنخفضة، وسلكوا الماء إليها في أبنية الدور بها، وبنوا هذا المعبد، وكانوا يصلُّون إلى القطب الشمالي، فكانت محاريبه تجاه الشمال، وبابه يفتح إلى جهة القبلة خلف المحراب اليوم كما شاهدنا ذلك عِيانًا، وهو باب حسن من الحجارة المنحوتة، وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه، وكان غربي المعبد قصر منيف جدًّا تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد، وشرقيه قصر جيرون، داران يكونان لمن يتملك دمشق قديمًا، ويقال: إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة، يحيط بالجميع سور واحد، وهي دار المضيف، ودار الخيل، ودار كانت تكون مكان الخضر التي بناها معاوية.

قال الحافظ ابن عساكر فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل أنهم: مكثوا يأخذون الطالع لبناء هذه الأماكن ثماني عشرة سنة، وقد حفروا أساس الجدران، حتى أتاهم الوقت الذي طلع فيه الكوكبان،

أرادوا أن المسجد لا يخرب أبدًا ولا يخلو من العبادة. قال كعب الأحبار: وإن هذه الدار إذا بنيت لا تخلو من أن تكون دار التملك والسلطنة. قال الشيخ: أما المعبد فلم يخلُ من العبادة. قال كعب الأحبار: ولا يخلو حتى تقوم الساعة.

والمقصود أن اليونان استمروا على هذه الصفة التي ذكرنا بدمشق مددًا طويلة، تزيد على أربعة آلاف سنة، حتى يقال: إن أول من بنى جدران هذا الجامع الأربعة هود عليه السلام. وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدة طويلة، وقد ورد إبراهيم عليه السلام شمالي دمشق عند برزة، وقاتل هناك قومًا من أعدائه فظفر بهم، وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة، وهذا المكان المنسوب إليه بها منصوص عليه في الكتب المتقدمة. وكانت دمشق إذ ذاك عامرة آهلة بمن فيها من اليونان، وهم خصماء الخليل عليه السلام، وقد ناظرهم الخليل في غير ما موضع في عبادتهم الكواكب كما قررنا ذلك في التفسير وفي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام.

والمقصود أن اليونان لم يزالوا يعمِّرون دمشق، ويبنون فيها وفي معاملاتها من حوران وغيرها البنايات الغريبة العجيبة، حتى كان بعد المسيح عليه السلام بمدة نحو من ثلاثمائة سنة، فتنصر أهل الشام على يد قسطنطين بن قسطين، الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم، وهو الذي وضع لهم القوانين، ووضعت بتاركة النصارى له دينًا مخترعًا ركَّبته من أصل دين النصرانية، ممزوجًا بشيء من عبادة الأوثان، وصلَّوا إلى المشرق وزادوا في الصيام، وأحلُّوا الخنزير، وعلَّموا أولادهم الأمانة الكبيرة فيما يزعمون، وهي في الحقيقة خيانة كبيرة، وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبيناه، وبنى لهم هذا الملك الذي نسبت إليه الطائفة الملكية منهم كنائس كثيرة في دمشق وغيرها، حتى يقال: إنه بنى في زمانه اثنتي عشرة ألف كنيسة، من ذلك كنيسة بيت لحم، ومن ذلك قمامة بنته أمه هيلانة الفندقانيَّة، والمقصود أنهم حوَّلوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظمًا عند اليونان فجعلوه كنيسة، وبنوا له المذابح في شرقيه وسموها كنيسة مَريُحَنَّا، ومنهم من يقول: كنيسة يُوحَنَّا، وبنوا بدمشق كنائس غيرها مستأنفة.

واستمر النصارى على دينهم هذا بدمشق وغيرها نحوًا من ثلاثمائة سنة، حتى بعث الله محمدًا ﷺ، وكان من شأنه — صلوات الله عليه — ما ذكرنا بعضه في كتاب السيرة، وقد بعث — صلوات الله عليه وسلامه — إلى ملك الروم في زمانه، وهو قيصر ذلك الوقت واسمه هِرَقْل، يدعوه إلى الله عز وجل، فكان من مراجعته ومخاطبته لأبي سفيان صخرِ بن حَرب ما تقدم، ثم بعث ﷺ أمراءه الثلاثة:

زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة — رضي الله عنهم — إلى البلقاء من نحو الشام، فبعثت الروم إليهم جيشًا كبيرًا، فقتلوا هؤلاء الثلاثة وجماعة ممن معهم من الجيش، فعزم ﷺ إلى قتال الروم ودخول الشام عام تبوك، ثم رجع ﷺ عامَهُ ذلك لشدة الحرِّ وضعف الحال وضيقه على الناس.

ثم لما توفِّي ﷺ بعث الصِّدِّيق الجيوش إلى الشام، وإلى العراق كما تقدم في كتابنا هذا ولله الحمد والمنة، ففتح الله على المسلمين الشام بكمالها، ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها، وكتب أمير الجيوش إذ ذاك — وهو أبو عبيدة وقيل: خالد بن الوليد — لهم كتاب أمان، وأقروا أيدي النصارى على أربع عشرة كنيسة كما ذكرنا، وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة مريحنًّا، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقي بالسيف، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة وهو على باب الجابية بالصلح، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف المسجد صلحًا ونصفه الآخر عنوة، وأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقي فجعله أبو عبيدة مسجدًا، وكان قد صارت إليه إمرة الشام، فكان أول من صلى في هذا المسجد أبو عبيدة رضي الله عنه، ثم الصحابة من بعده في البقعة التي يقال لها محراب الصحابة، ولكن لم يكن الجدار مفتوقًا بمحراب محني وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة، والظاهر أن الوليد هو الذي فتح المحاريب في الجدار القبلي، وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد، وهو باب المعبد الأعلى الذي كان من جهة القبلة، مكان المحراب الكبير اليوم، فينصرف النصارى إلى جهة المغرب إلى كنيستهم ويأخذ المسلمون يمينه إلى مسجدهم، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم، ولا يضربوا بناقوسهم إجلالًا للصحابة رضي الله عنهم وخوفًا منهم.

وقد بنى معاوية رضي الله عنه في أيامه على الشام دار الإمارة قبلي المسجد الذي كان للصحابة، وبنى فيها قبة خضراء فعُرِفت الدار بكمالها بها، فسكنها معاوية أربعين سنة كما قدمنا.

ثم لم يزل الأمر كما ذكرنا من سنة أربع عشرة إلى سنة ست وثمانين في ذي القعدة منها، وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك في شوال منها، فعزم على أخذ بقية هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين منها، وجعل الجميع مسجدًا واحدًا، وذلك لتأذي بعض المسلمين بسماع قراءة النصارى الإنجيل ورفع أصواتهم في صلواتهم، فأحبَّ أن يبعدهم عن المسلمين، ويضيف ذلك المكان إلى هذا فيكبر به المسجد الجامع، فطلب النصارى وسألهم أن يخرجوا عن هذا المكان ويعوضهم منه إقطاعات كثيرة عرضها عليهم، وأن يقرَّ لهم أربع كنائس لم تدخل في العهد، وهي كنيسة مريم،

وكنيسة المصلبة داخل باب شرقي، وكنيسة تل الجبن، وكنيسة حميد بن درة التي بدرب الصيقل، فأبوا ذلك أشد الإباء، فقال: ائتوني بعهدكم الذي في أيديكم! فأتوا بعهدهم الذي بأيديهم من زمن الصحابة فقرئ بحضرة الوليد، فإذا كنيسة توما التي خارج باب توما عند النهر لم تدخل في العهد، وكانت — فيما يقال — أكبر من كنيسة مريحنا، فقال: أنا أهدمها وأجعلها مسجدًا. فقالوا: بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس، ونحن نرضى بأخذه بقية هذه الكنيسة. فأقرهم على تلك الكنائس وأخذ بقية هذه الكنيسة، ويقال غير ذلك، والله أعلم.

ثم أمر أمير المؤمنين بإحضار آلات الهدم، واجتمع إليه الأمراء والكبراء من رؤوس الناس، وجاءت أساقفة النصارى وقَساقِسَتهم فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنَّا نجد في كتبنا أنَّ من يهدم هذه الكنيسة يجن. فقال: أنا أحب أن أجنَّ في الله! والله، لا يهدم فيها أحد قبلي! ثم صعد المنارة الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات، وكانت صومعة، فإذا فيها راهب فأمره بالنزول منها، فأكبر الراهب ذلك، فأخذ الوليد بقفاه فلم يزل يدفعه حتى أحدره منها، ثم صعِد الوليد على أعلى مكان في الكنيسة فوق المذبح الأكبر منها الذي يسمونه الشاهد، وأخذ أذيال قبائه وكان لونه أصفر سفرجليًّا، فغرزها في المنطقة، ثم أخذ فأسًا في يده فضرب في أعلى الحجر فألقاه، فتبادر الأمراء إلى الهدم وكبَّر المسلمون ثلاث تكبيرات، وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون هناك، وقد اجتمعوا هناك، فأمر الوليد أمير الشُّرَطة، وهو أبو نائل رباح الغساني أن يضربهم حتى يذهبوا من هنالك ففعل ذلك، وأمر نائبه على الخراج يزيد بن تميم بن حجر السلمي بإحضار اليهود، ليساعدوا في هدم الكنيسة النصرانية، فجاؤوا فكانوا كالقعول. ذكره الحافظ ابن عساكر في ترجمة يزيد بن تميم هذا، فهدم المسلمون والوليد واليهود جميع ما جدد النصارى في تربيع هذا المكان من المذابح والأبنية والخبايا، حتى بقي صرحة مربعة، ثم شرع في بنائه بفكرة جيدة على الصفة الحسنة الأنيقة، التي لم يشتهر قبلها مثلها على ما سنذكره ونشير إليه.

وقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقًا كثيرًا من الصناع والمهندسين والفعلة، وكان المستحث على عمارته أخوه وولي عهده من بعده سليمان بن عبد الملك.

ويقال: إن الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صنَّاعًا في الرخام وغير ذلك ليعمروا هذا المسجد على ما يريد، وأرسل يتوعده لئن لم يفعل ليغزونَّ بلاده بالجيوش، وليخربن كل كنيسة في بلاده، حتى كنيسة القدس وكنيسة الرها وسائر آثار الروم، فبعث الملك صناعًا كثيرة جدًّا وكتب إليه يقول له: إن

كان أبوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك، وإن لم يكن فهمه وفهمته أنت فإنه لوصمة عليه. فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك واجتمع الناس عنده، وكان فيهم الفرزدق الشاعر فقال: أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله. قال: وما هو، ويحك؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جوابًا لملك الروم.

ولما أراد الوليد بناء القبة التي في وسط الرواقات، التي يقال لها قبة النسر، وهو اسم حادث لها وكأنهم شبهوها بالنسر في شكله، لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها، حفروا لأركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منها عذبًا زُلالًا، ثم إنهم وضعوا فيه جَرار الكرم، وبنوا من فوقه بالحجارة، فلما ارتفعت الأركان بنوا عليها القبة فسقطت، فقال الوليد لبعض المهندسين: آمرك أن تبني لي هذه القبة. فقال: على أن تعطيني عهد الله وميثاقه أن لا يبنيها أحد غيري. ففعل، فبنى الأركان ثم غلفها بالبواري، وغاب سنة كاملة لا يدري الوليد أين ذهب، فلما كان بعد السنة حضر، فهمَّ الوليد به، فأخذه ومعه رؤوس الناس فكشف البواري عن الأركان فإذا هي قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض، فقال له: من هذا أتيت. ثم بناها فانعقدت.

وقال بعضهم: أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص، ليعظم بذلك شأن المسجد، فقال له المعمار: إنك لا تقدر على ذلك. فضربه خمسين سوطًا وقال: ويلك، أنا أعجز عن ذلك؟ قال: نعم. قال: فبيِّن ذلك. فأحضر من الذهب ما سبك منه لبنة، فإذا هي قد دخلها ألوف من الذهب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّا نريد من هذا كذا وكذا ألف لبنة، فإن كان عندك ما يكفي ذلك عملناه. فلما تحقَّق الوليد صحة قوله أطلق له خمسين دينارًا.

ولما سقف الوليد الجامع، جعل سقفه جملونات، وباطنها مسطح مقرنص بالذهب، فقال له بعض أهله: أتعبتَ الناس بعدك في تطيين أسطحة هذا المسجد كل عام، فأمر الوليد أن يُجمع ما في بلاده من الرصاص ليجعل عوض الطين ويكون أخف على السقف، فجمع من كل ناحية من الشام وغيره من الأقاليم، فعازوا فإذا عند امرأة منه قناطير مقنطرة، فساوموها فيه فأبت أن تبيعه إلا بوزنه فضة، فكتبوا إلى أمير المؤمنين بذلك، فقال: اشتروه منها ولو بزنته فضة. فلما بذلوا لها ذلك قالت: أما إذا قلتم ذلك فهو صدقة لله تعالى، يكون في سقف هذا المسجد. فكتبوا على ألواحها بطابع: لله. ويقال: إنها كانت إسرائيلية، وإنه كتب على الألواح التي أخذت منها: التي أعطتهم الإسرائيلية.

وقال محمد بن عائذ: سمعت المشايخ يقولون: ما تم المسجد بدمشق إلا بأداء الأمانة، لقد كان يفضل عند الرجل من القومة (يعنون الفعلة) الفلس ورأس المسمار فيجيء به حتى يضعه في الخزانة.

وقال بعض المشايخ بدمشق: ليس في الجامع من الرخام شيء إلا الرخامتان اللتان في المقام من عرش بلقيس، والباقي كله مَرمَر. وقال بعضهم: اشترى الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين العمودين الأخضرين اللذين تحت النسر من حرب بن خالد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار. وقال دحيم عن الوليد بن مسلم: حدثنا مروان ابن جناح عن أبيه قال: كان في مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم.

وقال دحيم عن الوليد بن مسلم عن عمرو بن مهاجر الأنصاري: إنهم حسبوا ما أنفق على الكرمة التي في قبة المسجد فإذا هو سبعون ألف دينار.

وقال أبو قصي: أُنفِق في مسجد دمشق أربعمائة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار. قلت: وذلك خمسة آلاف ألف دينار وستمائة ألف دينار. وفي رواية: في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار.

قلت: فعلى هذا يكون المصروف في عمارة الجامع الأموي أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار، والله أعلم.

قال أبو قصي: وأتى الحرس إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن الناس يقولون: أنفق الوليد أموال بيت المال في غير حقها. فنودي في الناس: الصلاة جامعة! فصعد المنبر وقال: إنه بلغني عنكم كذا وكذا. ثم قال: يا عمرو بن مهاجر، قم فأحضر أموال بيت المال! فحُملت على البغال، وبسطت الأنطاع تحت القبة، وفرغ عليها المال ذهبًا وفضة حتى كان الرجل لا يرى الآخر من الجانب الآخر، وجيء بالقبانيين فوزنت الأموال فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، وفي رواية: ست عشرة سنة مستقبلة، لو لم يدخل للناس فيه شيء بالكلية، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك. ثم قال: يا أهل دمشق، إنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع. فحمدوا الله تعالى وانصرفوا شاكرين داعين.

وذكروا أن أرضه كانت مفضَّضة كلها، وأن الرخام كان في جدرانه إلى قامات، وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب، وفوقها الفصوص المذهبة، والخضر، والحمر، والزرق، والبيض، قد صُوِّر بها سائر البلدان المشهورة: الكعبة فوق المحراب، وسائر الأقاليم يمنة ويسرة، وما في البلدان من الأشجار الحسنة

المثمرة والمزهرة، وغير ذلك. وسقفه مقرنص بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة وأنوار الشمع في أماكنة متفرقة.

قالوا: وكان في محراب الصحابة منه حجر من بلَّور. ويقال: حجر من جوهر وهي الدرة. وكانت تسمى الفتيلة، وكان إذا طفئت القناديل تضيء لمن هناك بنورها، فلما كان زمان الأمين بن الرشيد، وكان يحب البلور، بعث إلى سليمان وإلى شرطة دمشق أن يبعث بها إليه فسرقها وسيَّرها إلى الأمين، فلما ولي المأمون أرسل بها إلى دمشق ليشنِّع بذلك على الأمين.

قال الحافظ ابن عساكر: ثم ذهبت بعد ذلك، فجعل مكانها بَرنيَّة من زجاج، وقد رأيت تلك البرنية، ثم انكسرت بعد ذلك فلم يجعل مكانها شيء. وكانت الأبواب الشارعة من الداخل إلى الصحن ليس عليها أغلاق وإنما عليها الستور مرخاة، وكذلك الستور على سائر جدرانه إلى حد الكرمة التي فوقها الفصوص المذهبة. ورؤوس الأعمدة مطلية بالذهب الكثير. وعملوا له شرفات تحيط به.

وبنى الوليد المنارة الشمالية فيه التي يقال لها مئذنة العروس، فأما الشرقية والغربية فكانتا قبل ذلك بدهور متطاولة، وقد كان في كل زاوية من هذا المعبد صومعة شاهقة جدًّا، بنتها اليونان للرصد، فسقطت الشماليتان وبقيت القبليَّتان إلى الآن.

وقد احترق بعض الشرقية بعد الأربعين وسبعمائة، ونُقضِت وجُدِّد بناؤها من أموال النصارى، حيث اتهموا بحريقها، فقامت على أحسن الأشكال بنضارتها. وهي — والله أعلم — الشرقية التي ينزل عليها عيسى بن مريم — عليه السلام — في آخر الزمان بعد خروج الدجال، كما ثبت في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان.

والمقصود أن الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن في الدنيا على وجه الأرض أحسن بناءً منه، ولا أبهى ولا أجلَّ منه، بحيث إذا نظر الناظر في أي جهة منه وإلى أي بقعة أو مكان منه تحيَّر في ما ينظر إليه لحسنه جميعه.

وكانت فيه طِلَّسْمات من أيام اليونان. ولا يدخل هذه البقعة شيء من الحشرات بالكلية لا من الحيات ولا من العقارب ولا الخنافس ولا العناكب، ويقال: إن العصافير أيضًا لا تعشعش فيه ولا الحمام، ولا شيء مما يتأذى الناس به. وأكثر هذه الطلسمات أو كلها كانت مودعة في سقف الجامع مما يلي السبع، فاحترقت تمامًا لما وقع الحريق فيه، وكان ذلك ليلة النصف من شعبان بعد العصر من سنة إحدى وستين وأربعمائة. ثم ما زال سليمان بن عبد الملك في تكملة الجامع وزيادته مدة ولايته،

وجددت له فيه المقصورة رحمه الله، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عزم على أن يجرد ما فيه من الذهب، ويقلع السلاسل والرخام والسقوف ما خلا الضروري، ويرد ذلك كله إلى بيت المال، ويطين مكان ذلك كله، فشقَّ ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم إليه واتفقوا على نهيه عن ذلك، وقال خالد بن عبد الله القشري: أنا أكلمه لكم. فلما اجتمعوا قال خالد: يا أمير المؤمنين، بلغنا أنك تريد أن تصنع كذا وكذا. قال: نعم. قال خالد: ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين. قال: ولِمَ يا بن الكافرة؟! وكانت أمه نصرانية رومية، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كانت كافرة فقد ولدت رجلًا مؤمنًا. قال: صدقت. واستحيا عمر وقال: فلم قلت ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لأن غالب ما فيه من الرخام إنما هو حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم، وليس هو من بيت المال. فأطرق عمر رحمه الله.

قالوا: واتفق في ذلك الزمان قدوم جماعة من الروم رسلًا من عند ملكهم، فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذي تحت النسر ورأوا ذلك النور الباهر والزخرفة التي لم يُسمَع بمثلها صعق كبيرهم مغشيًّا عليه، فحملوه إلى منزلهم فبقي أيامًا مدنفًا، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال: ما كنت أظن أن يبني المسلمون مثل هذا البناء، وكنت أعتقد أن مدتهم تكون أقصر من هذا! فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال: وإن هذا ليغيظ الكفار، دعوه.

والمقصود أن الجامع الأموي كان حين تكامل بناؤه ليس له في الدنيا نظير في حسنه وبهجته.

قال الفرزدق: أهل دمشق في بلدهم قصر من قصور الجنة. يعني به الجامع الأموي.

وقال أحمد بن أبي الحواري عن الوليد بن أبي المسلم عن ابن ثوبان: ما ينبغي أن يكون أحد أشد تشوقًا إلى الجنة من أهل دمشق لما يرون من حسن مسجدها.

ولما دخل المهدي أمير المؤمنين العباسي دمشق يريد زيارة بيت المقدس، فنظر إلى جامع دمشق فقال لكاتبه عبد الله الأشعري: سبقنا بنو أمية بثلاث: بهذا المسجد، ما أعلم على ظهر الأرض مثله، وبنبيل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز، لا يكون فينا — والله — مثله أبدًا! ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة وكان الوليد بن عبد الملك بناها قال لكاتبه: وهذا رابعة أيضًا.

ولما دخل المأمون دمشق نظر إلى جامعها، وكان معه أخوه المعتصم وقاضيه يحيى بن أكثم، قال: ما أعجب ما فيه؟ فقال أخوه: هذه الأذهاب التي فيه. وقال ابن أكثم: الرخام وهذه العقد. فقال المأمون: إنما أعجب من بنائه على غير مثال متقدم.

وقال المأمون لقاسم التمار: أخبرني اسمًا حسنًا أسمي به جاريتي هذه. فقال: سمِّها مسجد دمشق، فإنه أحسن من كل شيء.

وقال عبد الرحمن بن الحكم عن الشافعي: عجائب الدنيا خمسة: أحدها منارتكم هذه (يعني منارة ذي القرنين التي بالإسكندرية)، والثاني أصحاب الرقيم، وهي بالروم اثنا عشر رجلًا أو ثلاثة عشر رجلًا؛ والثالث مرآة بباب الأندلس على باب مدينتها يجلس الرجل فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ، والرابع مسجد دمشق وما يوصف به من الإنفاق عليه، والخامس الرخام والفسيفساء فإنه لا يدرى له موضع. ويقال: إن الرخام معجون والدليل على ذلك أنه يذوب على النار.

قال الحافظ ابن عساكر: وذكر إبراهيم بن أبي الليث الكاتب — وكان قدم دمشق سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة — في رسالة قال: ثم أمرنا بالانتقال إلى البلد، فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه، ووافق ظاهره باطنه، أزقته أرجة، وشوارعه فرجة، فحيثما مشيت شِممت طيبًا، وأين سعيت رأيت منظرًا عجيبًا، وأفضيت إلى جامعه فشاهدت منه ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه، ولا الرائي أن يعرِّفه، وجملته أنه بكر الدهر، ونادرة الوقت، وأعجوبة الزمان، وغريب الأوقات، ولقد أبقت به ذكرًا يدرس، وخلفت به أمرًا لا يخفى ولا يدرس.

ومما قيل في الساعات، قال القاضي عبد الله بن أحمد بن زبر: إنما سمي باب الجامع القبلي باب الساعات لأنه كان عمل هناك تذكار الساعات، يعلم بها كل ساعة تمضي من النهار عليها عصافير من نحاس وحيَّة من نحاس وغراب، فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة في الطست.

قلت: هذا الكلام يدل على أحد شيئين: إما أن الساعات كانت في الباب القبلي من الجامع وهو باب يسمى بباب الزيادة اليوم، وقد قيل: إنه محدث بعد الجامع، وهو لا ينفي أن الساعات كانت عنده في زمن القاضي ابن زبر؛ وإما أنه قد كان في الجانب الشرقي من الجامع في حائطه القبلي باب آخر في محاذاة باب الزيادة وعنده الساعات، ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم، وهو باب الجامع من الشرق، والله أعلم.

وأما القبة التي في وسط الجامع التي فيها الماء الجاري، ويقال لها: قبة أبي نواس، فكان بناؤها في سنة تسع وستين وثلاثمائة، أرَّخه الحافظ ابن عساكر عن خط بعض الدَّماشقة.

وأما القبة الغربية التي في وسط الجامع التي يقال لها قبة عائشة، فسمعتُ شيخنا الحافظ أبا عبد الله الذهبي يقول: إنها بنيت في حدود سنة ستين ومائة في أيام المهدي بن المنصور العباسي، وجعلوها لحواصل الجامع وكتب أوقافه.

وأما القبة الشرقية التي على باب مشهد علي يقال: بنيت في زمن الحاكم العبيدي في حدود سنة أربعمائة.

وأما الفوارة التي تحت درج جيرون فعملها الشريف فخر الدولة أبو يَعلى حمزة بن الحسين العباسي الحسيني، وكأنه كان ناظر الجامع، وجر إليها قطعة من حجر كبيرة من قصر حجاج، وأجرى فيها الماء ليلة الجمعة لسَبعٍ خَلَوْنَ من ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة، وعملت حواليها قناطر، وعقد عليها قبة، ثم سقطت القبة بسبب جمال احتاكت عندها، وذلك في صَفَر من سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فأعيدت ثم سقطت عمدها وما عليها في حرق اللبادين ودار الحجارة في شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، ذكر ذلك كله الحافظ ابن عساكر.

قلت: وأما القصعة التي كانت في الفوارة فما زالت وسطها، وقد أدركتها كذلك، ثم وقعت بعد ذلك. وكان بطهارة جيرون قصعة أخرى مثلها، فلم تزل بها ثم انهدمت اللبادين بسبب حريق النصارى، في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، استؤنف بناء الطهارة على أحسن ما كانت وذهبت تلك القصعة فلم يبقَ لها أثر، وعمل الشاذروان الذي هو في شرقي الفوارة بعد الخمسمائة، أظنه سنة أربع عشرة وخمسمائة.

فصل

وكان ابتداء عمارته في أواخر سنة ست وثمانين، وهدمت الكنيسة في ذي القعدة منها، فلما فرغوا من الهدم شرعوا في البناء وتكامل في عشر سنين، وكان الفراغ منه في هذه السنة، أعني سنة ست وتسعين، ووضع العمودان اللذان في صحن الجامع لأجل التنوير في ليالي الجمع في شهر رمضان، سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، بأمر قاضي البلد أبي محمد. فيما ذكره بنو عساكر في بعض تواريخهم.

نقلت هذه الترجمة التي في بناء جامع دمشق من تاريخ الحافظ عماد الدين بن كثير الذي أسماه البداية والنهاية.

ومن المستحسن مما قيل فيه قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

يـا حُســـــنَ تَرخـيـمٍ بِجـامِعِ جُلَّق | متنـاســـبِ التَّركِيـبِ والتَّقسـيِمِ
بزيـادةِ التَّحســـينِ خـالف قولَ مَن | قـد قـال: إنَّ النَّقصَ فـي الـترخيـم

وله أيضًا:

أرى الحُســـنَ مَجموعًـا بجـامع جُلَّق | وفي صـــدره معنى الملاحـة مشـــروحُ
فـإن يتغـالى في الفضـــائـل معشـــرٌ | فـقـل لـهـم: بـاب الـزيـادة مـفـتـوحُ

وقال بعضهم:

دمشـــــق لـــهـــا مَـنـظـــرٌ رائِقٌ | وكُـــلٌّ إلـــى حُســـنِــهـــا تـــائِــقُ
وكــيـــف يُقـــاس بـــهـــا بـــلـــدة | أبـــى الله والـــجـــامـــع الـــفـــارق

قلت: أحسن منه قول من قال:

إنِّي أدلُّ عـلـى دمشـــق وطِيـبِهـا | مِن حُســنِ وَصـــفي بـالدليلِ القـاطعِ
جمعَتْ جميع محـاســـنٍ في غيرهـا | والـفـرق بَـيـنـهـمـا بـنـفـسِ الـجـامـع

وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي:

دمشـــق في الحســـن لها منصـــب | عـالٍ وقَـدرٌ فـي الـورى شــــائـع
فـخـذ مـن قـاس بـهـا غـيـرهـا | وقـل لـهـم: ذا الـجـامـع المـانـع

وذكر أبو الفرج الأصفهاني قال: حدثني بذلك جماعة منهم أبو عثمان يحيى بن عمر قال: قرأت في بعض الدواوين أن المتوكل أنفق على أبنيته وقصوره والمسجد الجامع ومنتزهاته في خلافته بسُرَّ مَن رأى وأعمالها من الأموال ما لا يُعلَم أن أحدًا أنفق على بناءٍ مثله، ومبلغ ذلك من العين مائة ألف خمسون ألف دينار، ومن الدراهم مائتا ألف ألف وثلاثة وتسعون ألف ألف وخمسون ألف ألف درهم، من ذلك:

- **القلايا:** مائة ألف وخمسون ألف دينار.
- **العروس:** ثلاثون ألف ألف درهم.
- **الشاه:** عشرون ألف درهم.

- **البرج:** ثلاثون ألف ألف درهم.
- **البركة:** ألفا ألف درهم
- الجوسق الإبراهيمي: ألفا ألف.
- **المختار:** خمسة آلاف ألف.
- **الجعفري المحدث:** ثلاثة وعشرون ألف ألف.
- **سدار:** عشرون ألف ألف.
- **البديع:** عشرة آلاف ألف.
- **المليح:** خمسة آلاف ألف.
- **الصبيح:** خمسة آلاف ألف.
- **التل:** خمسة آلاف ألف.
- الجوسق في الميدان: خمسمائة ألف.
- **بركوازا:** عشرون ألف ألف.
- **المسجد الجامع:** خمسة عشر ألف ألف.
- الغراء بدجلة: ألف ألف.
- **القصر بالمتوكلية:** خمسة عشر ألف ألف.
- **لؤلؤة:** خمسة آلاف ألف.
- **النهر بالمتوكلية:** خمسة عشر ألف ألف.

وبنى المعتز بعد ذلك البيت المعروف بالكامل، ولم أعرف مبلغ النفقة عليه، وبنى المعتمد المعشوق والبيتين المعروفين بالغنج والبهج؛ والله أعلم.

كتب الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى الجناب القطبي بن شيخ السلامية يصف بستانه: يقبِّل الأرض ويسأل الله تعالى أن يديم أيام مولانا التي غفرت ذنوب الأيام والليالي، وعمَّرت الوجود بما سمع عن أهل العصور الخوالي، وينهي أنه سطر هذه الخدمة وقد ترادفت عليه معاني الشكر، فلم يجد ما يذكره، ولا ما يحصيه ويحضره، إلى أن ألقى السلاح وعصى الجماح. وأنشد:

تعالى عن المداح قدرك رتبةً ... فإقصارهم عن مدحه غاية المدح

هذا على أنه الآن في نشو سكره، وذهول فكره، باستجلاء هذه المنازل كل شمال فيها شمول، لا بل الرياح الأربع على أرجائها قبول، فهي الجنة وثناء مولانا مسكها الأرج، والهالة وأوصافه بدرها المبتلج، والدنيا إلا أنها المحسوبة من العيش النضر، ومحلة موسى وكل غصن من أغصانها الخضر، ما شئت من صدحات مسجوعة، وبيوت معمورة، وسُقُف مرفوعة، وثمرات كثمرات الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة، وعقود على أجيال القضب من الأزاهير، وسوق أشجار على نهر كأنه صَرح مُمَرَّد من قوارير، وكل دوحة تنخفر كما تنخفر العذراء، ومرجة هي نفس اللذة بدليل أن النفس خضراء، وجداول تتلوى في الروض تلوي الأراقم في الصعيد، وأبكار ورودٍ كما أشارت أفواه الملاح بالقُبَل من بعيد، وأواوين كأنما طارت إلى الأفق بأجنحتها، وشبابيك كأنما أصابت القلوب من فتكات الهم بحديد أسلحتها، وشرفات دلَّت على همة الأمر بمبانيها، وعلت حتى كأن الثريا عقدٌ على تراقيها، ومجرى ماءٍ ترقُّ بمجاورتها القلوبُ الجافية، ولا عيب فيها إلا النسيم الواشي والعين الصافية، وقد مرج الله تعالى بهما البحرين يلتقيان، وأخرج منهما في أعطاف الغصون اللؤلؤ والمرجان، ولو أخذ المملوك في وصف المحاسن المبدعة، والأصول المتفرعة، لكاثر غصونها بأقلامه، وأزهارها بنثاره ونظامه، ولا بلغ معشارها، ولا حدَّث بأخبارها، ولكن:

لــيــسَ فِيــهــا مــا يُقــال لَــهُ: كَــمُــلْــتَ لَــو أنَّ ذا كَــمُــلَا

فجعلها الله أول منازل نعيم مولانا المستمر، وعمر ببقائه أرجاها التي ينعم الأمل ويعتمر، بمنه وكرمه.

صلاح الدين الصفدي مضمنًا:

تَقـول دمشـــقُ إذ تـفـاخـر غـيـرهـا بجـامعهـا الزاهِي البـديعِ المشـيَّـدِ:
جـرى لـيبـاهـي حُســـنَه كـلُّ جـامـعٍ ومـا قصـــبـاتُ الســَّبقِ إلَّـا لَمعبَـدِ

ابن سناء الملك من قصيدة صلاحية:

كلُّ القلاع تَرُومُ السُّــحب في صَــعَدٍ إلَّا العواصــم تبغي الســحب في صَـبَبِ
لـو رامـهـا الـنَّجـم لـم يـظـفـر بـبُغْيَتِهِ ولو رمـاهـا بقوسِ الأُفْقِ لَم يُصـــبِ
تلقى إذا عطشـــت والبرق أرشـــية كواكـب الـدلو في بئر من الســـحـب

جليســـة النجم في أعلى مراتبه وطالما غاب عنها وهي لم تغِبِ

شهاب الدين بن حجر:

أهْوَى الجلوسَ بمَقعَدِ الصِّــدقِ الَّذِي فُرِشَـــتْ به بُسُـــطُ السُّـــرورِ وزخْرفا
حفَّت به أيدي السـعود وأبصَـرَتْ عيـني به طيرَ المسـرَّة رفرفا

ذكر أبو عبد الله بكر بن عياش كاتب المنصور أبي يوسف يعقوب قال: كان لأبي بكر محمد بن مجير وفادة على المنصور في كل سنة، فصادف المنصور في إحدى وفاداته فراغه من أحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره في حضرة مراكش، وكانت قد وضعت على حركات هندسية، ترفع لخروجه وتخفض لدخوله، وكان جميع مَن بباب المنصور يومئذٍ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعارًا أنشدوه إياها في ذلك، فلم يزيدوا على شكره وتجزئته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره، ولم يكن فيهم من تصدى إلى وصف الحال حتى قام أبو بكر بن مجير، فأنشد قصيدته التي أولها:

أَعلَمْتَنِي أُلقِي عصـا التَّسـيارِ في بلدةٍ ليسَـتْ بِدارِ قَرارِ

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طَورًا تكون بمَن حَوَتْهُ مُحيطةً فكأنَّها سُورٌ من الأسـوارِ
وتكون طورًا عنهمُ مخفيَّة فكأنَّها سِرٌّ من الأسرار
وكأنما عَلِمتْ مقادير الورى فتصرَّفت لهمُ على مقدار
فإذا أحسَّت بالإمامِ يَزُورها في قومه قامت إلى الزُّوَّار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده كتلوُّنِ الهالاتِ بالأقمار

فطرب المنصور لاستماعها وارتاح لاختراعها، والتفتَ إلى الجراوي وكان يعلم قلة تسليمه لأبي بكر وكثرة غضبه منه، فقال: سلِّم له يا أحمد. ثم أنشده:

إذا لَم تَسْتَطِع شَيئًا فَدَعْهُ

قال أبو عبد الله بن عياش: فخرج أبو بكر بن مجير والشعراء يومئذ يلومونه إن لم يكن أول منشد حتى يخفوا أشعارهم ويستروا عوارهم.

أنشد السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين علي الآمدي:

وحصـــنٌ قـد أنـاف برأسِ هضــــبٍ　　مـنـيـفٌ ذاهـب فـي الـجـو سـامِ
تـنـفَّس فـي مـرآة الأفْق حـتـى　　كسـا فـولاذهـا صـدأ الـغـمـام

محيي الدين بن عبد الظاهر يصف الجامع الأموي في ليلة النصف من شعبان: وإيقاده حيث لا تلمح الأعين مصباحًا، وتود أنها لا ترى لتلك الليلة صباحًا، إذ تمنطقت أركانه من اللهب، بمناطق الذهب وبدت أشعتها في صفائه كما يبدو في الكأس وحاشاه الحبب، لا سيِّما في ليلة النصف التي كم رفرف عليها النعيم، وكم خدمها إلا من المقيم:

وكـم لـلـنـاس فـيـهـا لاحَ بَدرٌ　　يَـروق الـعَـينَ مَـنـظَـرُهُ الـوَسـيـمُ
بـدا وبـدا الـوَقـود فـقـيـل: بـدرٌ　　لـخـدمـتـه تـرجَّـلـتِ الـنُّـجـومُ

كم أضاء بوجهه ديجور، وكم انعكست أشعة تلك الأضواء على وجهه المنير فكانت نورًا على نور:

فـي خَدِّه لـلـورى رَبـيـعٌ　　ونِصـفُ شـَعـبـانَ فـي فـؤادي

أو كما قال الآخر:

وحـلـت مـنـاطـق خصـره فـكـأنَّه　　شـَعبـانُ كـلُّ حلاوةٍ في نِصـفـهِ

من كلام الأخ الحبيب أبي بكر بن حجة: وأتيت بعد ذلك إلى الجامع الأموي فإذا هو لأشتات المحاسن جامع، وأتيته طالبًا لبديع حسنه فظفرت بالاستضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع، وتمسكتُ بأذيال حسنه لما نشقت تلك النفحات السحرية، وتشوقت إلى النظم والنثر لما نظرت إلى تلك الشذور الذهبية، وآنست من جانب طوره نارًا فرجع إليَّ ضياء حسي، واندهشت لذلك المكان السليماني وقد زها بالبساط والكرسي، وقلت: هذا مَلِكٌ فازَ مَن وقفَ في خدمته خاشعًا، وشقي من لم يدسَّ بساطه ويأتيه طائعًا.

ومن الكلام الفاضلي: قلعة تقصر العيون أن تتقاصاها، وتتوعر الإبل أن تترقَّاها، قد ضربت فوق الجبل جرانها، ولبست نقية النجوم وبحقٍّ فإنها ما برحت جيرانها، وتطلعت للناظرين سحابة إلا أنها عزَّت أن يكون السماك عنانها.

الباب الثامن والأربعون

في الحنين إلى الأوطان وتذكر من بها من القُطّان

رُوِيَ أن النبي ﷺ سمع صوتًا فارتاع، فقيل له في ذلك فقال: ظننت أن ساكنا أُزعِجَ من منزله.

وجاء أيضًا: حب الوطن من الإيمان.

وقال ابن عباس: لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى أحد الرزق.

وكانت العرب إذا سافرت أخذت معها من تربة بلدها تستنشق ريحها وتطرحه في الماء إذا شربته، وهكذا كان المتفلسف من البرامكة إذا سافر أخذ معه من تربة مولده في جراب يتداوى به.

ولما غزا إسفنديار بلاد الخزر اعتل بها فقيل له: ما تشتهي؟ قال: شربة من دجلة، وشميمًا من تراب إصطخر، فأُتيَ بعد أيام بماءٍ وقبضةٍ من تراب وقيل له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك. فشرب واشتم على الوهم، فنقه من علَّته.

القاضي الفاضل:

بالله قلْ للنِّيلِ عنِّي أنَّني ... لم أشفِ من ماءِ الفُرات غَليلا

وسَلِ الفؤادَ فإنَّه لي شاهدٌ ... إنْ كان طَرفي بالبكاء بخيلا

يا قَلبُ كَم خلَّفتَ ثمَّ بُثَينةً ... وأظنُّ صبرَك أن يكون جميلا

وقال رجل من بني ضبَّة:

نَســـِيرُ على عِلمٍ بكُنـهِ مَســـيرنـا   وعُـدَّة زادٍ فـي بـقـايـا المـزاود
ونحمـل في الأســـفـار منـا قُبَيضـــةً   مـن المُـنْـتـأى الـنـائـي لـحُـبِّ الموالدِ

وقالت الحكماء: أرض الرجل ظئره، وداره مهده، والغريب كالفرس الذي يزايل أرضه فهو داوٍ لا ينمى، وذابل لا ينضر.

ولبعضهم:

مـا مِـن غَـريـبٍ وإنْ أبـدَى تَـجَـلُّـدَهُ   إلَّـا تـذكَّـر بـعـدَ الـغُـربَـةِ الـوَطَـنـا
ومـا يَـزال حَـمَـامٌ بـالـلـوى غَـرِدٌ   يَـهِـيـجُ مـنِّـي فُـؤادًا طـالمـا ســكـنـا

وقال آخر:

يَـقَـرُّ لـعَـيـنـي أن تـرى فـي مـكـانـه   ذُرَى عـطـفـات الأجـرع المُـتَـفـاودِ
وأنْ أرِدَ المـاءَ الـذي عـن شـــمـالـه   طروقًا وقد ســل الســرى كل واحد
وأُلصـــقَ أحشـــائـي بِـبَـردِ تُـرابـه   وإن كـان ممزوجًـا بســمِّ الأســاود

وقال آخر:

وكم مـنـزلٍ فـي الأرض يـألـفـه الـفـتـى   وحَـنـيـنُـه أبـدًا لأوَّلِ مَـنـزلِ

الشريف الرضي:

وأســتشــرفُ الأحلام حتَّى تـدلَّـني   على طِيبهـا مَرُّ الريـاح النواســمِ
ومـا أنســم الأرواح إلَّـا لأنـهـا   تـمـرُّ عـلـى تـلـك الـرُّبـى والمـعـالـم

وقال الأصمعي: دخلت البادية فنزلت على بعض الأعراب، فقلت: أفدني. فقال: إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، وكرم أخلاقه، وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وشوقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه.

ولما أشرف الإسكندر على الموت أوصى أن يُحمَل في تابوت ذهب إلى بلد الروم حبًّا في وطنه.

ولما أدركت يوسف عليه السلام الوفاةُ أوصى أن يحمل إلى مقابر آبائه، فمنع أهل مصر أولياءه، فلما بعث الله موسى عليه السلام وأهلِكَ فرعونُ حمله إلى مقابرهم، فقبره عليه السلام بأرض بيت المقدس.

وروي أن أبان قدم على رسول الله ﷺ المدينة فقال له: يا أبان، كيف تركت مكة؟ قال: تركتهم وقد جيدوا، وتركت الإذخر وقد أعذق، وتركت النمام وقد خاص. فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ.

وقيل لأعرابي: أتشتاق إلى وطنك؟ قال: كيف لا أشتاق إلى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها؟

شاعر:

وكنَّا ألفناها ولم تكُ مألفًا   وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحَسَن
كما تؤلف الأرض التي لم يَطبْ بِها   هواءٌ ولا ماءٌ ولكنَّها وطن

آخر:

طِيبُ الهواءِ ببغدادَ يؤرِّقنِي   شوقًا إليها وإن عاقت مقادير
فكيف أصبر عنها اليومَ إذ جمعت   طيب الهوائين ممدود ومقصور

ذكرت بهذين البيتين ما أنشدنيه من لفظه لنفسه الوزير العلامة فخر الدين بن مكانس وهو من مخترعاته:

إن الهوائين يا معشوق قد عبثا   بالروح والجسم في سرٍّ وفي علن
فالروح تفديك بالممدود قد تلفت   والجسم حوشيت بالمقصور في كفن

وأنشدني في هذه المادة حسب ما اقترحته عليَّ السادة المخاديم بالقاهرة المحروسة عند ارتحالي إليها في سنة خمس وتسعين وسبعمائة، شيخنا العلامة أقضى القضاة بدر الدين بن الدماميني:

أقول لمهجتي كم ذا ألاقي   من البلوى بظبيٍ فيكِ قاسِ
أذكِّره بأشجاني فينسى   فأفديه غزالًا فيك ناسِ

أعرابي:

وتشكو إليَّ الدارُ فُرقةَ أهلِها   وبي مِثلُ ما بالدار مِن فرقة الأهل

سليمان المحاربي:

إذا لَمْ تَكُنْ لَيلَى بِنَجدٍ تَغيَّرتْ بَشاشةُ دُنيا أهلِ نَجدٍ وطِيبُها

آخر:

فما أحسن الدنيا وفي الدار خالد وأقبحها لما تجهَّز غازيا

ذو الرمة:

وقفتْ على رَبع لميَّةَ ناقَتي فما زلتُ أبكي عنده وأخاطبُهْ
وأسقيه حتى كاد ممَّا أبثُّه تكلِّمني أحجاره وملاعبه

بشار بن برد:

وقفتُ بها صَحبي فظلَّت عراصها بدمعي وأنفاسي تُراحُ وتُمطَرُ

آخر:

مَنازِل لم تَنظُرْ بها العينُ نَظرةً فتُقلعَ إلَّا عن دموعٍ سواكب

البحتري:

أرى بين ملتفِّ الأراكِ مَنازلًا مَواثِلَ لو كانت مهاها مواثلا
فكن مسعدًا فيهنَّ إنْ كنتَ عاذرًا وسر مبعدًا عنهن إن كنت عاذلا

الوائلي وهو أحسن ما قيل فيه:

سقيت ربوع الظاعنين فإنها غنًى لك عن ماء العيون الهواطل

ولمؤلفه عفا الله عنه بمنِّه وكرمه:

وقفنا بربع الحب والحب راحلٌ نحاول رُجعاه لنا ونحاولُ
وألفت دموع العين فيه مسائلًا لها من عبارات الغرام دلائل
وبالسفح منها كم سقيتُ لبانها فميَّلته وألبان بالسفح مائل

إذا نسـمـة الأحباب منها تنسَّـمت تطيب بها أسـحـارنا والأصـائل
تثير غرامي سـاجعـات غصـونها فمنها على الحـالين هـاجـت بلابل
مـرابـع إلا فـي مـراتـع لـذَّتـي مـطـالـع أقـمـاري بـهـا والمـنـازل

عود إلى ما كنا بصدده

قال ابن حمديس الصقلي:

ذَكَرتُ صِـقِلِّيَّةَ والأسَـى يـهـيـج لـلـقـلـبِ تـذكـارَهـا
فـإنْ كـنـتُ أُخـرِجـتُ مِن جـنَّةٍ فـإنِّـي أحـدِّثُ أخـبـارهـا
ولـولا مُلـوحـةُ مـاء الـبُكـا حسـبـتُ دمـوعـيَ أنـهـارهـا

الفكيك لما فارق بغداد:

لـهـفـي عـلـى بـغـدادَ مـن بـلـدةٍ كـانـتْ مـن الأسـقـام لـي جُـنَّـةْ
كـأنَّنـي عـنـد فـراقـي لـهـا آدمُ لَمَّـا فـارق الـجـنَّـةْ

وللقاضي عبد الوهاب المالكي:

سـلامٌ عـلـى بـغـداد مـنِّي تـحـيَّة وحقٌّ لهـا منِّي السـلام المضـاعفُ
لَعَمْرُكَ مـا فـارقـتُهـا قـاليًا لـهـا وإني بشـطَّي جـانبَيـهـا العـارفُ
ولـكـنـهـا ضـاقـت عـلـيَّ بـرَحْبِهـا ولـم تـكـنِ الأقـدارُ ممَّن يسـاعـف
فـكـانـت كـخِلٍّ كـنـت أهـوى دنـوَّه وتـأبـى بـه أخـلاقـه فـيـخـالـف

وللعلامة ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب عند فراقه الأندلس في واقعته المشهورة:

أمَوطِنِي الـذي أُزعِجْتُ عـنـه ولـم أرزأ بـه مـالًا ولا دمْ
لـئـن أزعِجْتُ عـنـك بـغـيـرِ قَصـدٍ فـقـبـلـي فـارق الـفـردوسَ آدم

وقال ابن الرومي:

بَلَدٌ صَحِبتُ بها الشَّبيبةَ والصِّبا ... ولبستُ ثَوبَ العَيشِ وَهْوَ جَديدُ
فإذا تمثَّل في الضمير رأيتُه ... وعليه أغصان الشبابِ تَميدُ

وقال علي بن عبد الكريم النصيبي: أتاني ابن الرومي بقصيدته التي مدح بها سليمان بن عبد الله بن طاهر وقال: أنصفني وقل الحق أيما أحسن، قولي في الوطن:

ولي مَوطنٌ آليتُ أن لا أبِيعَهُ ... وأنْ لا أرى غيري له الدهرَ مالِكا
عهدتُ به شرخَ الشباب ونعمةً ... كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظِلالكا
وحبَّب أوطانَ الرجالِ إليهمُ ... مآربُ قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانَهم ذكرت لهم ... عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا

أو قول الأعرابي:

أحبُّ بِلادَ اللهِ ما بين مَنْعجٍ ... إليَّ وسَلْمَى أنْ يَصوبَ غَمامُها
بلادٌ بها عقَّ الشَّبابُ تمائمي ... وأوَّلُ أرضٍ مَسَّ جِلدي رُكامُها

فقلت له: بل قولك، لأنه ذكر الموطن ومحبَّته، وأنت ذكرت العلة في ذلك.

وللشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة من رسالةٍ كتبها إلى السيد زين الدين عمر الجعفري خطيب جامع التوبة بدمشق المحروسة: ويُنهي بُعده الذي أضرمَ مِن شَوقه الشِّهابي نارَه، وأخلى من وُكناته الحجليَّة مطاره، وتركه ملقًى في الصِّهريج كأنه في غَيابة الجُبِّ يلتقطه بعضُ السيَّارة، ولا بد والحالة هذه من آهٍ على دمشق التي هي جنة من تاه وباهى، وجيران جيرونها التي أغار إذا لسان الحب سمَّاها، فما قلت: إيهٍ، بعدها لما مرَّ من الناس إلا قال قلبي: آهًا:

فيا وطني إنْ فاتَني بكَ سالفٌ ... من الدهر فلينعم لساكنك البالُ

إي والله، طالما حنَّ المملوك إليها، وأنشد ودمعه كالمطر: سَلامُ اللهِ يا مَطَرُ عَلَيْها.

مَطَرٌ مِن العَبَرات خَدَّيَّ أرضُه ... حتَّى الصَّباحِ ومُقلتايَ سَمَاؤهُ

وقال الشيخ جلال الدين بن خطيب داريا — فسَّح الله في أجله — ونقلتهما من خطه:

خليليَّ إنْ وافيتُما الشَّامَ ضَحوةً — وعاينتما الشقراءَ والغوطةَ الخَضْرا
قِفا واقرآ عنِّي سلامًا كتبتُهُ — بدمعي على مُقرَى ولا تَنسَيا سَطرا

يكتب أبياتي الرائية:

يا صاحبَيَّ إذا الثنايا أشرقتْ — ولمحتُما منها ثغور أزاهر
استنشقا ذاك النسيم فإنه — مما تحمل من شمائل هاجر

وقال الشيخ شرف الدين بن عنين:

أَلَا لَيتَ شِعرِي هل أبيتنَّ لَيلةً — وظِلُّكِ يا مُقرى عليَّ ظَليلُ
وهل أرَيَنِّي بعدما شطَّت النوى — ولي في ذرى روضٍ هناك مَقيلُ
دمشق فَبِي شوقٌ إليها مُبرِّحٌ — وإنْ لجَّ واشٍ أو ألحَّ عَذول
بلادٌ بها الحصباء دُرٌّ وتُربها — عبيرٌ وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلقٌ — وصحَّ نسيمُ الروض وهو عليل

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عمَّر الله البلدان بحب الأوطان، كما أن لحاضنتك حق لبنها فلأرضك حق وطنها.

الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك، إذا كان غذاؤك منهما وغذاؤهما منه.

الفرس: تربةُ الصِّبا تغرس في القلب حُرمةً كما تغرس الولادة في الكبد رقة. ميلك إلى مولدك من كَرَم مَحتِدِك.

جالينوس: إن العليل يتروَّح نسيم أرضه كما تتروح الأرض المُجدِبة ببلِّ المطر.

ولما خرج الرشيد إلى الرَّيِّ أخذ أخته عليَّة معه، فلما صارت بالمرج عملت شِعرًا وصاغت فيه لحنًا من الرَّمَل، وكتبت الأبيات ليلًا على بعض الفساطيط في طريق الرشيد، فلما دخل مضرب الحرم بصر به فقرأه، فإذا هو:

ومُغتَربٍ بالمَرجِ يَشكُو بِشَجوِهِ — وقد غاب عنه المُسْعِدونَ على الحب
إذا ما أتاه الرَّكْبُ من نحوِ أرضِهِ — تنشَّق يستشفي برائحة القرب

فلما قرأه علم أنه من فعل علية وأنها قد اشتاقت إلى العراق وإلى أهلها، فأمر بردِّها.

وقال آخر:

ذكــرت أحــبَّــتــي بــالمَــرجِ يَــومًا   فــقــوَّتْ أدمُــعــي نــيــران وَهْــجِي

وصـــــِرتُ أكـابـدُ الأحـزانَ وَحـدِي   وكــلُّ الــنــاسِ فــي هَــرجٍ ومَــرجِ

أبو الوليد بن زيدون يتشوق إلى مكان يدعى بالزهراء، إذ كان اجتماعه وولادة محبوبته به:

إنِّي ذَكَرْتُكِ بـالـزهـراءِ مُشــــتـاقًا   والأُفْقُ طَلقٌ ومرأى الأرضِ قـد راقـا

ولـلـنَّســيـمِ اعْتـلالٌ فـي أصـــائلـه   كـأنَّـه رقَّ لـي فـاعـتـلَّ إشـــفـاقـا

والروض عن مـائـه الفِضِّــيِّ مُبتَسِـمٌ   كـمـا حـلـلـت عـن الـلـبـاتِ أطـواقـا

لا ســـكَّن اللهُ قـلـبًا عـن تـذكُّركُم   فلـم يَطِرْ بجنـاحِ الشـــوق خفَّـاقـا

لو شــاءَ حَمْلِي نسـيم الرِّيحِ حينَ سَـرَى   وافـاكـمُ بِفَـتًـى أضـْـنـاهُ مـا لاقـى

الآنَ أحـمَدُ مـا كـنَّا بـعـهـدكـمُ   ســَلَوتُم وبقينـا نحن عُشـَّـاقـا

وقال الشيخ مهذب الدين أبو الفرج عبد الله بن أسعد الموصلي الشهير بابن الدهان — رحمه الله تعالى — يتشوق إلى دمشق المحروسة صانها الله من الحوادث والآفات:

ســـقى دمشـــقَ وأيامًا مَضَـــتْ فيها   مُواطِرُ السُّــحْبِ ســـاريها وغـاديهـا

مِن كُلِّ أدهـمَ صَـــهَّالٍ لـه شِــيـةٌ   صـــفراءُ يســـترهـا طَورًا ويُبـديهـا

ولا يَزالُ جَنـينُ الـنَّبـتِ تُرضـــعـه   حَوامـلُ المُزْنِ في أحشـــاءِ أرضــيهـا

فمـا قضـــى حُبَّه قـلـبي لـنَـيرَبـهـا   ولا قضـــى نـحـبـه ودِّي لـواديـهـا

ولا تســلَّيتُ عن ســلســال رَبوتها   ولا نَســـيتُ مَبيتي جـارَ جـاريـهـا

كـأنَّ أنهـارهـا مـاضـــي ظُبًى حُشِـيَتْ   خَنـاجرًا مِن لُجَينٍ في حواشـــيهـا

واهًا لهـا حين حلَّى الغيـث عـاطلهـا   مكللًـا واكتســـى الأوراق عـاريهـا

وحاك في الأرض صَـوبُ المُزنِ مخملة   تُـنـيـرهـا بـغـواديـه وتســـديـهـا

ديبـاجـة لـم تَدَعْ حُسـنًا يـفـوِّفـهـا   إلَّـا أتـاه ومـا أبـقـى مـواشـــيـهـا

ترنو إليَّ بعين النور ضاحكةً ... إذ بات عينٌ من الوسميِّ يبكيها
والدوح رَيَّى لها ريًّا قد اكتملت ... شبابها حين ما شابت نواصيها
نَشوَى تغنِّي لها وُرقُ الحمام على ... أوراقها ويدُ الأنواء تسقيها
صَفا لها الشرب فاخضرَّت أسافلها ... حتى ضفا الظل فابيضَّت أعاليها
وصفَّق النهر والأغصانُ راقصةٌ ... فنقَّطتْه بِدُرٍّ من تَراقيها
كأنَّما رقصها أوهى قلائدها ... وخالها النَّظمُ فانثالت لَآليها
وأعين الماء قد أجرَتْ سواقيها ... والأعين النجل قد جازت سواقيها
وقابل الغصنَ غُصنٌ مثله وشَدَتْ ... أقمارها فأجابتها قماريها
فللواحظ والأسماعِ ما اقترحت ... من وجه شادنها أو صوت شاديها
إذا العزيمة عن فرط الغرام ثنت ... قلبًا تثنَّى له غصنٌ فيَثنيها
ريمٌ إذا جليت حينًا لواحظه ... للنفس حيًّا بخدَّيه فيحييها
جنايةٌ طرفها المخمور جانيها ... وآس عارضه المخضرُّ آسيها
تقبل الكأس خجلى كلَّما شرعت ... في ماء فِيهِ فقاسَتْه بما فيها
أشتاق عيشي بها قِدَمًا فتُذكرني ... أيامَي السودَ بِيضًا من لياليها
ونحن في جنَّةٍ لا ذاقَ ساكنُها ... بُؤسًا ولا عرفتْ بأسًا مغانياها
سماء دوح تردُّ الشمسَ صاغرةً ... عنَّا وتُبدي نجومًا من نواحيها
تَرى البدورَ بها من كلِّ ناحيةٍ ... ممدودةً للنُّجوم الزُّهرِ أيديها
إذا الغصونُ هَزَزْناها لنَيلِ جَنًى ... صارت كواكبُها حصباء أرضيها
من كل صفراء مثل الماء يانعةٍ ... تخالها جمر نارٍ في تلظِّيها
شهيَّةُ الطعم تحلو عند آكلِها ... بَهيَّةُ اللون تجلى عند رائيها
يا ليتَ شِعري على بعدٍ أذاكرتي ... عصابة لستُ طولَ الدهر ناسيها
عندي أحاديثُ وَجدٍ بَعدَ بُعدِهم ... أظلُّ أجحدُها والعَينُ تَرويها

كم لي بها صـــاحب عندي لـه نِعَم / كــثــيــرةٌ وأيــادٍ مــا أؤدِّيـــهــا
صـــاحَبْتُه غير مختـارٍ فصـــاحَبَنِي / صـــبـابـةً منـه تُخفيني وأخفيهـا
رضـــيت بـالكُتبِ بَعدَ البُعدِ فـانقطعتْ / حتَّى رضـــيتُ ســـلامًا في حواشـــيها
إنْ يَعلُنِي غيرُ ذي فَضـــلٍ فلا عَجَبٌ / يَســـمو على ســـابحات الخيل هاديها
والمــاء تــعــلـوه أقــذاؤهــا زُحــلٌ / أخفى الكواكـب نورًا وهْو عـاليـهـا
لــو كــان جَدَّ بِجـدٍّ مـا تَقـدَّمـنـي / عصـــابةٌ قصُـــرتْ عنِّي مَســـاعيها
مـا في خمولي من عـارٍ على أدبي / بـل ذاك عـارٌ على الـدنيـا ومـا فيهـا

الأديب الفاضل الكامل صفوان بن إدريس المرسي يتشوَّق إلى وطنه مُرْسِيَةَ:

لـعـلَّ رســـولَ الـبَرقِ يغـتـنـم الأجْرَا / فـيَـنـثُـر عـنِّـي مـاءَ عَـبْـرَتِـه نَـثـرا
مـعـامـلـةً أربـو بـهـا غـيـرَ مُذنِبٍ / فـأُقضِـــيـه دمعَ العينِ عن نقطـةٍ بحرا
لـيَســـقـيَ مِن تُدمـيـرَ قَطـرًا مُحـبَّبًا / يَقَرُّ بعينِ القطر أن يشـــرب القطرا
ويَقــرِضـــــه دون الـــلُّجَينِ وإنَّمـــا / تُوفِّـيـه عـيـنـي مـن مـدامـعـهـا تِبـرا
ومــا ذاك تـقصـــيـرًا بـهـا غـيـر أنـه / ســـجيَّـةُ مـاءِ البحر أن يُـذْوِيَ الزَّهرا
خَليليَّ قُومَا فـاحسـِــبا طُرُقَ الصَّـــبـا / مَـخـافـةَ أنْ تـحـمـى بـزَفْـرتـي الـحَـرَّا
فـإنَّ الصــــبـا ريـحٌ عـلـيَّ كـريـمـةٌ / بـآيةِ مـا تســـري من الجنَّة الصُّـــغرى
خـلـيـلـيَّ أعـنـي أرضَ مُرسِـــيَةِ المُنى / ولولا توخِّي الصـــِّدق ســـمَّيتها الكبرى
ووكْري الـذي مِنـه دَرَجـتُ فـلـيـتَني / فُجِعْـتُ بِرِيشِ العَزم كيْ ألزم الوَكرا
وما روضـــةُ الخضـــراء قد مَثَلتْ بها / مَـجـرَّتُـهـا نـهـرًا وأنـجـمـهـا زُهـرا
بـأبـهـجَ مـنـهـا والـخـلـيـجُ مـجـرَّةٌ / وقد فضَـــحتْ أزهار ســـاحتها الزَّهرا
هنـالك بين الغصـــن والقطر والصَّـــبـا / وزهــر الــرُّبــى ولَّــدتُ آدابــيَ الـغَـرَّا
إذا نَظَمَ الغُصـــنُ الحيا قـال خـاطري: / تعلَّمْ نظـامَ النَّثر من هَـا هُنـا شِـــعرا
وإن نـثـرت ريح الصَّـــبـا زَهَرَ الـرُّبى / تعلَّمـتُ حَـلَّ الشـــِّعر أســـكُبُـه نَثرا

فرائد أشجارٍ هناك اقتَبستُها ... ولم أرَ روضًا غيره يُقرِئ السِّحرا

كأنَّ هزيز الريحِ يَمدَحُ رَوضَها ... فيَملأُ فاها من أزاهِرهِ دُرًّا

أيا رَيعاتِ الحسن هل فيك نظرة ... من الجُرُف الأعلى إلى السكة الخضرا

فأنظُرَ مِن هَذِي لتلكَ كأنَّني ... أغيِّرُ إذا غازلتُها أختَها الأخرى

هي الكاعبُ الحسناء تُمِّمَ حُسنُها ... وقدَّت لها أوراقُها حُلَلًا خُضرا

إذا خُطِبَتْ أعطَتْ دراهم زَهرِها ... وما عادةُ الحسناء أن تَنقُدَ المَهرا

وقامت بعرس الأنس قَينةُ أيكها ... أغاريدها تسترقص الغصن النَّضِرا

وقلْ في خليجٍ يلبس الحوتُ دِرعَهُ ... ولكنَّه لا يستطيعُ بها نصرا

إذا ما بدا فيها الهلالُ رأيته ... كصفحةِ سيفٍ وَسْمُها نبعة صَفرا

وإن لاح فيها البدرُ شبَّهتَ مَتنَه ... بِسَطرِ لُجَينٍ ضمَّ من ذهبٍ عشرا

وفي جُرُفَيْ روضٍ هناك تجافيا ... لنهرٍ يودُّ الأُفقُ لو زاره فَجرا

كأنَّهما خِلَّا صفاءٍ تَعاتبا ... وقد بَكَيَا من رقَّةٍ ذلك النَّهرا

وكم لي بأبيات الحديد عشيَّةٌ ... من الأُنسِ ما فيه سوى أنه مَرَّا

عشايا كأنَّ الدَّهرَ عُضَّ بحُبِّها ... فأحلت بساط البرق أفراشها الشعرى

عليهنَّ أُجري خَيل دمعي بوجنَتي ... إذا ركبتْ حُمرًا ميادينها الصُّفرا

أعهدي بالعرش المنعَّم دوحُه ... سقتك دموعي إنها مُزنة سكرى

فكم فيك من يوم أغرَّ مُحَجَّلٍ ... تقضَّت أمانيها فخلَّدتُها ذِكرى

على مُذنَّبٍ كالبحر من فَرطِ حسنه ... تودُّ الثُّريَّا أن يكون لها نَحرا

سقت أدمعي والقطرُ أيهما انبرى ... نقا الرملة البيضاء فالرمل فالجِسرا

وإخوان صدق لو قضيت حقوقهم ... لما فارقتْ عيني وجوههم الزهرا

ولو كنت أقضي حقَّ نفسي ولم أكن ... لما بِتُّ استحلي فراقهم المُرَّا

وما اخترت هذا البعد إلَّا ضرورةً ... وهل تستخير العين أن تفقد الشفرا

قضـــى الله أن تنـأى بيَ الـدارُ عنهمُ   أراد بـذاك اللهُ أن أُعْـتِـبَ الـدَّهـرا
ووالله لـو نـلـتُ المُنـى مـا حَمِدتُهـا   ومـا عـادةُ المَشـــغوفِ أن يَحمَدَ الهَجرا
أيـأنـس بـالـلـذَّات قـلـبـي ودونـهـمْ   مَرامٌ يجـدُّ الركـبُ في طيِّهـا شـــهرا
فـديتـهـم بـانـوا وضـــنُّوا بكـتـبـهـم   ولا خـبـرًا مـنـهـم لـقـيـتُ ولا خُـبـرا
ولـولا عُلا هِمَّاتــهـم لـعـنـيـتـهـم   ولكنْ عِرابُ الخيـلِ لا تحمـل الزَّجرا
ضـــربت غبار البيد في مَهرق السُّـــرى   بحيثُ جعلتُ الليل في ضـــربه خَبْرا
وخـفَّـفـت ذاك الضـــرب جَمعًـا وعِدَّةً   وطرحًـا وتجميلًـا فـأخرج لي صـــفرا
كـأنَّ زمـانـي حـاســـب مـتـعسِّـــف   يطارحني كســـرًا أما يُحسِـــنُ الجَبرا؟
ولســـتُ وإنْ طاشَـــتْ سِـــهامي يائسٌ   فـإنَّ مع العُسْـــرِ الـذي يُتَّقى يســـرا

ولمؤلفه عفا الله عنه:

تـذكَّرتُ أوطـانـي ويـا حبَّذا الـذِّكرى   لتلك القصـــورِ البيض والرَّبوة الخضـــرا
وأشـــجـار واديهـا وبَهجـةِ جُنكهـا   وقـد نَقَرَ الشـــُّحْرُورُ في دفِّـه نقرا
وتـجـعـيـد ذاك المَا ومَيـلِ غُصـــونـه   فهـذا بـه كســـرٌ وهـذا بـه سَـــكرى
ومـا أحســـن الميـعـاد ممَّن تـحـبُّه   بمَقْســـَمِـه الأســـْنى وليلتـه القَمْرا
إذِ الـنَّاسُ فـي هَرجٍ ومَرجٍ بِلَهـوِهُمْ   وقـلـبـي بمَن أهـواهُ في بلـدةٍ أخـرى
تَرى كـل حِزب لاهـيًا بسُـــروره   وكُـلٌّ لـه شـــغـلٌ بـه قـد غـدا مُغرى
إذا أصـــبحوا هزُّوا الشـــمائل بالنَّدى   فـيـنـظـر مـنـه فـوق أعـطـافـهـم دُرًّا
كـــرامٌ إذا ولَّوا طـــارَ نـــداهـــم   وللبـائـس المســـكين يبغي بـه الأجرا
فـآهٍ على تلك العشـــايا وطِيبهـا   وآهٍ عـلـى حُـلـوِ الـزمـانِ الـذي مَـرًّا
فيا عاشـــقَ المعشـــوقِ لا تُبدِ سَـــلوةً   عن المِزَّة الـفـيحـاءِ والـجـبـهـةِ الـغَرَّا
إذا زُرِعَ الـلـوَّان واخضـــرَّ أرضـــه   فلا تـذكروا مصـــر ولا تـذكروا الأهرا
ويـا من يجـاري أو يضـــاهي بغيرهـا   تـأمَّـل فـذا الميـدان دونـك والشـــقرا

خليليَّ أحيا مَن ذكرتُ ومنزلي بعيشكما قولا: قِفا نَبكِ مِن ذِكرى

ولمؤلفه أيضًا يرثي دمشق المظلومة ويصف ما حلَّ بها من التتار في سنة ثلاث وثمانمائة:

أجريتُ جَمرَ الدَّمعِ من أجفاني حُزنًا على الشَّقراءِ والميدانِ
وتلاعبتْ أهدابها بمدامعي لعبَ الكُماة بأَرؤُسِ الفُرْسان
وتوقَّدت نِيرانُ حُزنيَ إذْ رأتْ تلكَ الرُّبوعُ مواقدَ النيران
لَهفي على تلك البروج وحُسنِها حَفَّت بهنَّ طوارقُ الحُدثان
لهفي على وادي دِمشقَ ولطفه وتبدُّل الغُزلان بالثِّيران
نزلوا ظلالَ الدَّوح [...] فلا تسل ما حلَّ بالأغصان والكثبان
سقطت غصون البان من قاماتها لَمَّا سمعنَ نَواعِقَ الغُربان
وشكا الحريقَ فؤادُها لمَّا رأت نورَ المنازل أُبدِلَت بدُخان
جنَّاتها في الماء منها أُضرِمَت فعجبتُ للجنَّات في النيران
كانت معاصم نهرها فضِّيَّةً والآن صِرنَ كذائب العِقْيان
ما ذاك إلَّا تُركهم ولَجَتْ بِها فتخضَّبت منها بأحمرَ قانِ
كرهت جداولُها حوافرَ خَيلِهم فتسابقتْ هربًا كخيلِ رهان
خافت خدودُ الأرضِ مِن أفعالهم فتلثَّمت بعوارضِ الرَّيحان
أذكيتِ نارَ الصَّدرِ يا ورقاءها وتأثَّرتْ بلواعج الأشجان
تبكي على غصنٍ وأندبُ قامةً فجميعنا نبكي على الأغصان
وا حسرتاه على دمشقَ وقَولِها: سُبحانَ مَن بالمُغل قد أبلاني
عاداني الدهرُ الخَؤونُ بمُغله والعُجم منه وقبلَهم غازاني
فعساك تأخذ ثأرها من مغلهم بالحل ثالث سبعة وثمان
لو عاينتْ عيناك جامعَ تَنْكِزٍ والبِرْكَتَينِ بحُسنها الفَتَّان
وتعطُّش المَرجين من أورادها وتهدُّم المحراب والإيوان

لأتـتْ جـفـونُكَ بـالـدمـوع مـلـوَّنًا ... دمعًـا حكى اللُّولُو على المرجـان

قـطـرات جـفـنٍ تَرجَمـت عـن حُرقـتـي ... فـكـأنـهـنَّ قـلائـد الـعِـقـيـان

أَبـنِـي أمـيَّةَ أيـنَ عـينُ ولـيـدكـم ... والمـغـل تـفـتـل فـي ذرى الأركـان؟

شـربوا الخمور بمحنةٍ حتى انتشـوا ... ألـقـوا عـرابـدهـم عـلـى الـنسـوان

لـم يـرحـمـوا طفلًـا بكـى فـقـلـوبـهـم ... في الفَتـكِ صـخرٌ لا أبو سـفيـان

قصُّـوا جَناحَ النَّسـرِ بَعدَ نُهوضِـهِ ... يـا لـيـتَـهُ لـو فـاز بـالـطـيـرانِ

ألـواحـه أجـرت دمـوعـيَ أسـطـرًا ... كتبـت عـلـى اللَّوحَينِ من أجفـانـي

إنْ أنكروا يومَ الحسـاب فعـالـهم ... فشـهـيـدنـا عـثـمـان ذو الـقـرآن

لـهفي على كتـب العلوم ودرسـهـا ... صـارتْ مـعـانـيـهـا بـغـيـرِ بَـيـان

أعـروسـنـا لـك أُسـوةٌ بحَمـاتـنـا ... فـي ذا المُصـابِ فـأنـتُـمـا أُخْـتـان

غـابـتْ بُدورُ الحُسـنِ عن هـالاتهـا ... فـاسـتـبـدلـت مـن غـرِّهـا بـهـوان

نـاحـتْ نـواعـيـرُ الـرِّيـاضِ لـفَقْـدِهـم ... فـكـأنَّـهـا الأفـلاك فـي الـدَّوَران

شـتَّتـهـمُ أيـدي سـبـايـا دهـرنـا ... وتـلـوتُ آيَ الـجـمـع بـالـفـرقـان

حزني على الشَّـهبـاءِ قبـل حمـاتنـا ... هـو أوَّلُ وهـي المـحـلُّ الـثـانـي

لا تـدَّعـي الأحـزان يـا شـقـراءنـا ... السـَّبق لـلشـهـبـاء فـي الأحـزان

رتـعـتْ كـلاب المـغـل فـي غُزلانـهـا ... وتـحـكَّـمـت فـي الـحُـورِ والـوِلـدان

لـهفي على تلـك الشـعور وطولـهـا ... جُـرَّت بـهـا الأعـنـاق كـالأرسـان

لـهفي عليـك محـاسـنًـا لـهفي عليـ ... ـك عرائسًـا لهفي عليك مغاني

لـهـفـي عـلـيـك مـنـازلًـا ومـنـازهًا ... ومـقـامَ فـردوس وبـابَ جِـنـان

إنْ قـال لحظي قـال سـيفي ضـارب ... أو قـال طـرفـي قـال حـدُّ سـنـان

أدمشـقُ آهـاتـي عـلـيـكِ كـثـيـرةٌ ... كـالـدمعِ في جَفنِ الكئيـبِ العـاني

حسـراتهـا لا تنقضـي من خـاطري ... هي شُـغـلُ أفكاري ونَصـبِ عِياني

لي أنَّةٌ لي حُرقةٌ لي لَهفةٌ   لي حسرةٌ لي لَوعةٌ وكفاني
أمنازلَ الأحباب كيف تبدَّلت   تلكَ الرُّبى بمقاتل الفرسان
إنْ لم أُسِلْ ماءَ العيون مَجاريًا   ماء الغمام بها فما أجفاني
لا تنهَ جَفنَ الصبِّ في جريانه   دعني وشأنك يا غمامُ وشاني
العين والإنسان قد فُقِدَا معًا   أبكيك يا عيني ويا إنساني
لم أدرِ مَن أبكي وأندبُ حسرةً   للقصرِ للشرفينِ للميدان
للجبهة الغرَّاء أم خلخالها   للمِزَّة الفيحا أم اللوَّان
لا يُحجَرُ المشتاق عن تذكارها   يا حاجري بالظلم والعدوان
شوِّقْ بها قلبي أقلْ لك منشدًا: لك أن تشوِّقني إلى الأوطان
وإذا أتيتَ بما جرى في ربعها   فعليَّ أن أبكي بدمعٍ قان
ما كان أهنا العيشَ في ساحاتها   والدارُ داري والزمانُ زماني
أسفي على أيامها لا تنقضي   ما كان أهناها وما أهناني
أيام لا ماء السرور مكدَّر   أرعى نضير العيش بل يرعاني
ولقد وقفتُ على ربوع حَبائبي   فندبتهنَّ نوادب الأحزان
ولقد وقفت على الدِّيار مُناديًا   بلسانِ مغتربٍ وعَبرةِ عان
يا دارُ أين حبائبي فأجابني   عنها الحريقُ بألسنِ النيران
حكم القضا فيهم ونُفِّذ حُكمُه   فتشتَّتوا فِرَقًا بكلِّ مكان
يا ربِّ لُمَّ شَتاتهم بمُحَمَّدٍ   سرِّ الوجودِ وبَهجةِ الأكوان
إنْ لم نَلُذْ في أمرنا بجنابه   فبمَن يَلوذُ ويَستجيرُ الجاني
أترى الإله مؤيِّدًا سلطاننا   حتى أقول: وعشت بالسلطان
يا رَبُّ فعلُ الذنب أصلُ بلائنا   فاصفحْ وجُدْ للذنب بالغُفران
واغسلْ بماءِ الأمن وجهَ رجائنا   واصرفْ بفضلك حاصر الطغيان

واجمَعْ على جسمانِنا أرواحها ... يا جامعَ الأرواح بالجسمان

تقي الدين السروجي يقول:

فسقى رضيعَ النَّبتِ من ذاك الحمى ... بِحَيًا تدور على الرُّبى كاساتُهُ

سَفحٌ سَفَحتُ عليه دمعي في ثرًى ... كالمسكِ ضاع من الفتاة فُتاته

وفي المثل: لولا حُبُّ الوطن لَخَرِبَ بَلَدُ السُّوء.

الكريم يحنُّ إلى جنابه كما يحن الأسد إلى غابه.

وما أرقَّ قول مرار بن هبَّاش الطائي:

سقى الله أطلالًا بأخليةِ الحِمى ... وإنْ كنَّ قد أبدين للناس ما بِيا

منازل لو مرَّتْ بهن جنازتي ... لقال صداها: حاملايَ انزلا بِيا

لسان الدين بن الخطيب:

يا جنَّةً فارقتُ مِن غُرُفاتِها ... دارَ القَرارِ بما اقتضته ذنوبي

أسفي على ما فات من حظِّي بها ... لا تنقضي زفراته ونحيبي

إن أشرقت شمسٌ شَرِقْتُ بعَبرتي ... وتفيض في وقت الغروب غروبي

حتى لقد علَّمت ساجعة الضحى ... شجوي وجانحة الأصيل شحوبي

وشهادة الإخلاص توجب رجعتي ... لنعيمها من غير مسِّ لُغوب

وله:

سلامٌ على تلك المعاهد إنَّها ... مراتعُ أُلَّافي وعهدُ صحابي

ويا آسة العهد أنعمي فلطال ما ... سكبت على مثواك ماء شبابي

أنشدني صاحبنا الأعز الشيخ محمد الأندلسي الخياط رحمه الله تعالى قال: أنشدني الشيخ الأعز شمس الدين أبو عبد الله الشرفي رحمه الله:

أشتاق للغرب وأصبو إلى ... معاهد فيها وعصرِ الصِّبا

يا صاحبَيْ نجوايَ والليلُ قد أرخى جلابيب الدُّجى واختبا
لا تعجبا من ناظرٍ ساهرٍ باتَ يُراعي أنجمًا غُيَّبا
القلب في آثارها طائرٌ لمَّا رآها تقصدُ المغربا

ورد عليَّ من سيدي وأخي الجناب الشهابي ابن حجر أعزه الله تعالى كتابٌ من مكة المشرفة إلى دمشق المحروسة، وفي أثنائه من متجدداته:

أسِرُّ غرامي من عَذولٍ وحاسدٍ فإعلان صبري لا يشابه إسراري
بُليتُ بمَن لم يدرِ مِقدار صَبوتي فوا لهفي بعد الرحيل على الدارِ

نقلت من كتاب فوات الوفيات، تأليف صلاح الدين الكتبي، في ترجمة طراد بن عبد العزيز أبي فراسٍ السلمي الدمشقي الكاتب المعروف بالبديع، مات متوليًّا مصر سنة أربع وعشرين وخمسمائة:

يا نسيمًا هبَّ مِسكًا عَبِقًا هذهِ أنفاس ريًّا جلَّقا
كُفَّ عني والهوى ما زادني بردُ أنفاسِكَ إلَّا حرقا
لَيتَ شِعري نقضوا أحبابنا يا حبيبَ النفس ذاك المَوثقا
يا رياحَ الشوقِ سُوقي نَحوَهم عارضًا من سحب عيني غدقا
وانثري عقد دموعي طالما كان منظومًا بأيام اللقا

واشتهرت هذه الأبيات وغنى بها المغنون.

قال بعضهم: مررت يومًا بشوارع القاهرة وقد ظهرت جمال كثيرة حمولها تفاح من الشام، فعبقت روائح تلك الحمول فأكثرتُ التلفُّت، وكانت أمامي امرأة سائرة ففطنتْ لِما داخلني من الإعجاب بتلك الرائحة فأومأتْ إليَّ وقالت: هذه أنفاس ريًّا جلَّقا.

ونقلت من مجموعة بخط العلامة المؤرخ قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان تغمده الله برحمته: قال النبي ﷺ لأصيل الخزاعي: يا أصيل، كيف تركت مكة؟ قال: تركتها وقد أحجن ثُمامها، وأثر سَلَمها، وأغدق إِذْخِرها. فقال النبي ﷺ: دعِ القلوب تقر في أماكنها.

تفسير ما فيه من الألفاظ الغريبة: أحجن الثُّمام: إذا أخرجت حجنته، وهي خوصه، والثمام: نبت ضعيف له خوص. وأثر السَّلَم: إذا خرج، والسلم: شجر من العِضاه، الواحدة: سَلَمة. وأغدق الإذخر: إذا ظهرت ثمرته، والإذخر: نبت.

ونقلت من خط الحافظ اليغموري: كانت الأمتعة الثمينة والذخائر النفيسة تأتي إلى مصر وتباع ولا ينظر إليها يوسف عليه السلام، وإذا جاءت أحمال صوف من كنعان لا تحلُّ إلا بين يديه.

مرض عمار بن عباد حين ولي الرقَّة، فما كان ينجع فيه دواء، فقال له طبيبه: سببه الهواء. فبعث إلى بغداد فحمل الهواء في جرب، فكان يُفتح كل يوم في وجهه جراب إلى أن برئ. والله أعلم بالصواب.

الباب التاسع والأربعون

في دارٍ سُكِنَت كثيرةِ الحشراتِ قليلةِ الخيرِ عَديمةِ النبات

أبلغ ما سُمع فيها قول كمال الدين بن الأعمى رحمه الله تعالى حيث قال:

دار سَــكَنــتُ بِهــا أقــلُّ صِــفــاتهــا ... أن تكثر الحشــراتُ من حشــراتهــا
الــخــيــرُ عــنــهــا نــازحٌ مــتــبــاعــدٌ ... والشــرُّ دانٍ مــن جــمــيــع جــهــاتــهــا
من بعض مــا فيهــا البعوضُ عــدمتــه ... كم أعــدم الأجفــانَ طِيــب ســنِــاتهــا
وتــبــيــتُ تُســعِــدهــا بَراغــيــثٌ مــتــى ... غنَّت لهــا رقصــت على نَغَمــاتهــا
رقــصٌ بــتــنــقــيــطٍ ولــكــن قــافُه ... قــد قُــدِّمــت فــيــه عــلــى أخــواتــهــا
وبهــا ذبــابٌ كــالضــبــاب يســدُّ عَيـ ... ـنَ الشَّـمسَ ما طربي ســوى غناتها
أيــنَ الصــوارمُ والــقَنــا مِن فَتكــهــا ... فــيــنــا وأيــن الأُســـْدُ مِن وَثَبــاتــهــا
وبــهــا مــن الــخــطَّاف مــا هــو مــعــجــزٌ ... أبصــارَنــا عن حَصــرِ كيفيَّــاتهــا
تــغشــى العيون بمرِّهــا ومجيئــهــا ... ويصــمُّ ســمع الخلد من أصــواتها
وبــهــا خــفــافــيــش تــطــيــر نــهــارهــا ... مع ليلهــا ليســتْ على عــاداتهــا
شــبَّهــتــهــا بــقــنــافــذٍ مــطــبــوخــةٍ ... نَزَعَ الطُّهــاة بنضــجهــا شــوكــاتهــا
شــوكــاتهــا فــاقــت على سُــمْر القنــا ... فــي لــونــهــا وتــمــامــهــا وشــيــاتــهــا

وبـهـا من الـجِرْذان مـا قـد قصَّـــرت ... عنـه الـعتـاقُ الـجُـرْدُ فـي حـمـلاتـهـا
وتـرى أبـا غـزوان مـنـهـا هـاربًا ... وأبـا الـحُصـــيَن يروغ عن طُرُقـاتـهـا
وبهـا خنـافس كـالطنـافس أفرشـــت ... في أرضـــهـا وعلـت على شـــرفـاتـهـا
لو شـــمَّ أهـل الحرب مُنْتِنَ فَسْــوِهـا ... أردى الكُمـاةَ الصـِّــيدَ عن صـــهواتها
وبـنـات وردانٍ وأشـــكـالٌ لـهـا ... مـمَّـا يـفـوت الـعـينَ كُـنْـهُ ذَواتـهـا
مـتـزاحـمٌ مـتـراكـب مـتـجـارب ... مـتـراكـم فـي الأرض مـثـل نـبـاتـهـا
وبـهـا قـرادٌ لا انـدمـالَ لـجُرحـهـا ... لا يـفـعـل المِشـــراطُ مـثـلَ أداتـهـا
أبـدًا تـمـصُّ دمـاءنـا فـكـأنَّهـا ... حجَّـامـةٌ لبـدت علـى كـاســـاتـهـا
وبهـا من النمـل السـلـيمـانيِّ مـا ... قـد قـلَّ ذَرُّ الشـــمـس عـن ذَرَّاتـهـا
لا يـدخلون مســـاكنًا بـل يحطمو ... نَ جلودنـا فـالعفو من ســطواتهـا
مـا راعني شـــيءٌ ســوى وزغـاتهـا ... فـأعـوذ بـالـرحـمـن مـن نـزغـاتـهـا
ســـجعـتْ على أوكـارهـا فظننتهـا ... وُرْقَ الحَمـامِ ســجعن في شـــجراتها
وبـــهـا زنـابـيـر تُظَنُّ عَقـاربًا ... لا بـرد لـلـمســـمـوم مـن لـدغـاتـهـا
وبـــهـا عـقـاربُ كـالأقـارب رُتَّعًا ... فـيـهـا حـمـانـا الله لـدغ حـمـاتـهـا
فـكـأنَّمـا حـيـطـانـهـا كـغـرابـلٍ ... أطلـعـنَ أرْؤسَـــهُنَّ مـن طـاقـاتـهـا
كيفَ الســبيـل إلى النجـاة ولا نجـا ... ةَ ولا حـيـاة لَمـن رأى حـيَّـاتـهـا
الســـمُّ فـي نـفـثـاتـهـا والمكـر فـي ... لَفتـاتِهـا والموتُ فـي لســـعـاتـهـا
منســـوجـةٌ بـالعنكبوت ســـمـاؤهـا ... والأرض قـد نُســـجَـت ببـزَّاقـاتـهـا
ولقـد رأينـا في الشِّـتـاء ســمـاءهـا ... والصَّـــيفُ لا ينفـكُّ عن صـــعقـاتـهـا
فضـــجيجهـا كـالرعـد في جنبـاتهـا ... وترابـهـا كـالـوَبْـل من خشـــبـاتـهـا
والـبـوم عـاكـفـةٌ عـلـى أرجـائـهـا ... والآل يـلـمـع فـي ثـرى عرصـــاتـهـا
والـنـار جـزءٌ مـن تـلـهُّب حـرِّهـا ... وجـهـنـم تـعـزى إلـى لـفـحـاتـهـا

قد رُمِّمت من قبل أن تلقى لآ دمَ أمُّنا حوَّاءُ في عرفاتها
شاهدت مكتوبًا على أرجائها ورأيت مسطورًا على عتباتها:
لا تقربوا منها وخافوها ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى هلكاتها
أبدًا يقول الداخلون ببابها: يا ربِّ نجِّ الناس من آفاتها
قالوا: إذا ندب الغراب منازلًا تتفرق السكَّانُ من ساحاتها
وبدارنا ألفا غرابٍ ناعقٍ كذب الرواةُ فأين صدق رواتها
صبرًا لعلَّ الله يُعقِبُ راحةً للنفس إذ غلبت على شهواتها
دارٌ تبيت الجنُّ تحرس نفسها فيها وتنذر باختلاف لغاتها
كم بتُّ فيها مفردًا والعين شَوْ قًا للصباح تسحُّ من عبراتها
وأقول: يا ربَّ السماوات العلا يا رازقًا للوحش في فلواتها
أسكنتَني بجهنَّمِ الدنيا ففي أُخْرايَ هبْ لي الخلد في جنَّاتها
واجمَعْ بمَن أهواهُ شملي عاجلًا يا جامعَ الأرواحِ بعدَ شَتَاتها

حكى الزمخشري في ربيع الأبرار أن رجلًا من أهل الشام اطلع على جُرَذ أَخرَجَ من جحره دنانير كثيرة وجعل يلعب بها، ثم أدخلها مكانها، فقام الرجل وأخذ الدنانير، فأقبل الجرذ يثبُّ ويضرب بنفسه الأرض حتى مات.

وحكى الشريشي في شرح المقامات عن أبي محمد الحسن بن إسماعيل الضراب قال: كنت قاعدًا أنسخ في ضوء السراج وبين يديَّ قدحٌ فيه ماء وظرف فيه كعك وزبيب ولوز، فجاءت فأرة وأخذت لوزة، ومضت ثم عادت أخرى فبددت الماء الذي في القدح، فعادت الفأرة فكبيت القدح عليها واشتغلت بشغلي ساعة، فإذا قد جاءت فأرة أخرى فدارت حول القدح، فسفسفتْ وبقيت ساعةً على ذلك، والفأرة الأخرى تسفسف من داخل، فلم تجد حيلة في خلاصها، فمضت وأتت بدينار فوضعته ووقفت، فلم أرفع القدح ففعلت مثل ذلك إلى أن أتت بسبع دنانير ووقفت ساعة، فلم أخل عن الفأرة، فمضت وأتت بقرطاس فارغ، فعلمت أنه لم يبقَ عندها شيء فخلَّيت عنها.

قال الفندجيهي: رويت هذه الحكاية عن أشياخ ثِقات.

قيل: إن الخصيَّ من كل شيء أضعف من الفحل إلا الجرذان، فإن الخصي يحدث فيه شجاعةٌ وجراءة لا بدع في ذلك، فإن الجرذان الكبار لا تدع الهر وابن عرس إلا قتلتها، فينبغي لمن في منزله شيء منه أنه يصطاد منه ذكرًا ويخصه ويتركه في البيت، فإنه يأتي على بقية الجرذان بأسرها.

وذكر الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة قال: أخبرني الشيخ شمس الدين محمد بن خضر الدمشقي، أحد كتَّاب المنسوب، بدمشق المحروسة سنة اثتنين وخمسين وسبعمائة، قال: حللت مثقال ذهب لأجل الكتابة، فاتفق أني نزلت من البيت وتركته في الدواة بغير غطاء، ثم رجعت إلى البيت ونظرت فلم أر شيئًا من الذهب في الدواة، فعجبت غاية العجب، فنظرت فإذا فأر في جنب البيت وعلى خرطومه أثر الذهب يلمع، فعلمت أنه شربه، فنصبت المصيدة وخرجت من البيت، فما لبث أن وقع فيها، فأخذت طاسة وجعلت فيها ماء، وأمسكت بذنبه وجعلته يعوم في الطاسة، وكلما أراد الخروج رددته بذنبه إلى أن شرب ماء كثيرًا وكاد يموت، فقبضت بذنبه ودلَّيت رأسه إلى أسفل فجعل يستقي من حلقه الذهب مختلطًا بالماء الذي شربه، إلى أن لم يبقَ منه شيء، فغسلت الذهب مرة ثانية ووزنته فلم ينقص غير قِيراطين. هكذا أخبرني أو كما قال.

وحكى الكواشي في تفسيره أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما أُلقيَ في النار جعل كل حيوان يطفئ عنه النار إلا الوزغ، فإنه كان ينفخ في النار.

وعن النبي ﷺ أنه أمر بقتل الوزغ، وقال: كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام.

وذكر الزمخشري عن ابن عباس أنه قال: الوزغ بريد الشيطان، يرسله ليفسد على الناس مِلْحهم.

ومن العجب أن الأفعى لا ترد الماء ولا تريده، فإذا وجدت الخمر شربت منه حتى تسكر. وكنية الأفعوان: أبو حيَّان وأبو يحيى. لأنه يعيش ألف سنة.

وأرض حمص لا تعيش فيها العقارب، وإذا طرحت فيها عقرب ماتت لساعتها.

سمع غلام رجلًا يقول: أنا مثل العقرب، أضرُّ ولا أنفع! فقال: ما أقلَّ عِملك! بل — لَعَمري — إنها لتنفع، إذا شقَّ بطنها ثم شدت على موضع اللسعة، وتجعل في جوف إناء فخار ويسد رأسه وتطيَّن جوانبه، ثم يوضع في التنور، فإذا صار رمادًا يُسقى به مَن به الحصاة مقدار نصف دانق فيفتت الحصاة؛ ويلسع الأفعى فتموت.

حكيَ أن عقربًا لسعت مفلوجًا فذهب عنه الفالج.

وشتم رجل الأَرَضة فقال له بكر بن عبد الله المزني: مه! فهي التي أكلت الصحيفة التي تعاقد المشركون فيها على رسول الله ﷺ، وبها ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

وقيل لها: لأي شيء تأكلين كتب المشتغلين؟ فقالت: لا آكل إلا كتب الذين لا يشتغلون.

وقال لقمان لابنه: لا تكن الذَّرَّة أكيسَ منك، تجمع في صيفها لشتائها.

النملة تفلق الحب أنصافًا لئلا تنبت فتفسد، والكزبرة تفلقها أرباعًا لأنها من بين الحب ينبت نصفها.

إذا اقتربت العقرب من الولادة أكلت أولادُها جلدها وخرقوه حتى يخرج وقد ماتت الأم.

وقال الشاعر في ذلك:

وحاملةٍ لا يَكمُلُ الدَّهرَ حَملُها ... تَموتُ وينمو حملُها حين تعطبُ

لعاب الجراد سم لا يقع على شيء إلا أحرقه.

خطب المؤمن يومًا فوقع الذباب على عينيه فطرده، فعاد مرارًا حتى قطع عليه الخطبة، فلما صلى الظهر أحضر أبا الهذيل فقال له: لم خلق الله الذباب؟ فقال: ليذلَّ به الجبابرة. فقال: صدقت. وأجازه بمال.

وقال الجاحظ في منافع الذباب: إنه يُحرق ويُخلط بالكحل، فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون، ولذا ترى المواشط يستعملنه ويأمرن به العرائس.

وما أحسن قول عنترة:

وخلا الذبابُ بها فليسَ بنازحٍ ... غَردًا كفعلِ الشاربِ المترنِّمِ
هزِجًا يحكُّ ذراعه بذراعه ... قَدحَ المُكِبِّ على الزناد الأخذم

قيل: هذا من التشبيهات العقم.

وقال الجاحظ: وجدنا المعاني نقلت ويؤخذ بعضها من بعض إلا قول عنترة: وخلا الذباب... البيتين.

وزعموا أن رجلًا من ولد حليمة ظِئْرِ رسولِ الله ﷺ كان أصيد خلق الله وأحذقهم بالتدريب، وبلغ من حذقه أنه ربى ذئبًا يصطاد به الظباء والثعالب، وسُرِق منه فرجع إليه من ثلاثين فرسخًا، وضرَّى

أسدًا حتى صار أهليًّا، واصطاد به الحمر والبقر وعظام الوحش، وضرى الزنابير حتى اصطاد بها الذئاب.

قال الجاحظ: من علَّم البعوضة أن وراء جلد الجاموس دمًا، وأن ذلك الدم غذاؤها، وأنها متى طعنت في ذلك الجلد الغليظ الصلب نفذ خرطومها — مع ضعفه — على غير معاناة، ولو أنك طعنت بمسلة شديدة المتن لانكسرت؟

وقال التيفاشي: ومما جربه الناس كافَّةً لأجل البقِّ الصابونَ، فإنه إذا طلي به المواضعُ التي بها البق، أي موضعٍ كان من جدار أو سرير، قتله ولم يعد إليه ما دام أثر الصابون فيه.

قال صاحب الفلاحة النبطية: اعلم أن القطران أعظم شيء يكرهه النمل، فمتى أردت أن لا يقرب النمل شيئًا فخطَّ حول ذلك خطًّا من القطران مدوَّرًا، فإن النمل لا يقربه، وإن طليت به حول حجرة النمل هربن.

صدف الحلزون إذا أحرق حتى يصير كلسًا أبيض وذرَّ على بيوت النمل هربن، فإن أقمن به متن جميعًا.

وقال صاحب الفلاحة النبطية أيضًا: حجر المغناطيس الجاذب للحديد إذا وُضِع على باب أجحرة النمل لم يخرجن، ويهربن إلى تخوم الأرض. قال: وأهل بلادنا يجعلون في وسط الكدس من الحنطة وغيرها من الحبوب من حجر المغناطيس وغيرها لئلا يدنو منه النمل. قال: وإذا غطيت إناءً فيه عسل أو غيره بصوف أبيض من كبش وليكن منفوشًا، لم يقربه النمل. وكذلك إذا أدرت الصوف حول الإناء من أسفله لم يقربه النمل.

القمح المسوِّس إذا وضع في بيت فيه بق فإن السوس يأتي عليه مجموعة، ولا يدع منه بقة واحدة؛ وهذا صحيح مجرب.

والبنفسج إذا قطع قطعًا صغارًا وجعل عليه قليل عجين فإن الفأر يأكله ولا تستطيع معدته أن تهضمه فيموت عن آخره، وهذا مما جُرِّب وصحَّ عند معاشر الناس كافة.

قال الشيخ شهاب الدين بن فضل الله:

وناموس له قَرْصٌ أليمٌ نَضُوجٌ له ومنه لنا نضوج
ومن عجبٍ تراه العينُ أنَّا مع الناموس يرتفع الضجيج

وقال الشيخ إبراهيم المعمار في البراغيث:

إن البراغيث اللئام قسوا عليَّ فقلت: ما لي
إلَّا الخمور إذا اختمر تُ وقرَّصوني ما أُبالي

ومن العجائب ما ذكره ابن بدرون في شرح قصيدة بني الأفطس عند ذكر الواثق وجلالته وهيبته، فإنه يحكي من هيبتهم له أنه لما ثقل في علته التي مات فيها خُيِّل إليهم في بعض الأوقات وقد أغمي عليه أنه قضى، فدنا منه تركيٌّ يقال له إيتاخ ليعلم هل مات أم لا، فلما دنا منه فتح عينيه ونظر إلى إيتاخ فرجع القهقرى، فانتشب طرفُ سيفه بالباب فاندق وسقط إيتاخ على قفاه، فلما نظره هيبة له ورعبًا داخله من نظره إليه، فمن العجائب أنه لم تمر له ساعة من نظره إلى إيتاخ إلا وقد مات، فأخذ وجُعِل في بيت، فما أقام به إلا يسيرًا، فوجد قد أخرجت الفأرة عينيه، فسبحان من لا يزول ملكه المنفرد بالبقاء، لا إله إلا هو العلي العظيم.

وعلى ذكر ابن بدرون فما أحسن قول الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح:

لك يا بدرون وجهٌ حاز عنوانَ السعادةْ
لا تخف نقصًا ومَحْقًا أنتَ بدرٌ وزيادةْ

ومن خواصه أنه إذا علِّق ذنب الفأر على مَن به صداع برئ بإذن الله.

وقريب من هذه الواقعة ما ذكره الثعالبي في لطائف المعارف، أنه لما جيء برأس مروان بن محمد إلى عبد الله بن علي أمر بعزله، فجاءت هرة فقلعت لسانه وجعلت تمضغه، فقال عبد الله أو غيره: لو لم يُرِنَا الدهرُ من عجائبه إلا لسان مروان في فم هذه لكفانا.

وكان مروان قد عرض له بظهر الحيرة سبعون ألف عربي على سبعين ألف عربي، ثم قال: إذا انقضت المدة لم تنفع العدة.

نقلت من الطالع السعيد في فضلاء الصعيد، تأليف العلامة المحدث البارع كمال الدين جعفر الأدفوي، في ترجمة تاج الدين الرشتاوي قال: هو محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الكندي تاج الدين بن الشيخ جلال الدين الرشتاوي محتدًا، القوصي مولدًا ودارًا ووفاةً، نخبة الدهر، وفقيه العصر، فريد فاضل، مقرئ محدث، أديب شاعر، كريم الأخلاق، طيب الأصول والأعراق. ومن نظمه ملغزًا في نملة:

يا من إذا ما قاصدًا أمَّ له تمَّ له منه الذي أمَّله

ومن حوى الفضلين: فضل الندى وفضل علمٍ للهدى حصّله
ما اسمُ رشيق القدِّ حلو الجنى ذي فطنةٍ ممزوجة بالبله
ألمى دقيق الخصر قد زانه ردفٌ له يهتزُّ ما أثقله
إذا انتمى يعزى لواد كما وارده مستعذبًا منهله
حلَّ به أسنى ملوك الورى ومن أتى بالفضل والمعدلةْ
إن قلتَ: صف لي حسنه واقتصد قلت مجيبًا لكَ: ما أجمله
أو قلت: صف لي ملكه واقتصر قلت: أجل جل الذي بجّله
أو قلت: هل منَّ لمسترفدٍ قلت: وللمسكين والأرملةْ
تصحيف ما ألغزتُه مودعٌ في النظم فافتح بالذكاء مقفَّله
وعكسه أيضًا بلغتَ المنى مستودع فيه فما المسألة

القول في طبائع الحيَّات

وإنما سميت حية لأنها تحوَّت، أي: اجتمعت. ويطلق على الذكر والأنثى، يقال: حية ذكر، وحية أنثى. وهي أصناف كثيرة لا تحصى كما لا تحصى أصناف السمك.

ذكرت بقوله: حية، ما أنشدني لنفسه من لفظه المقر المجدي فضل الله بن مكانس عفا الله عنه:

عاذلتي بعد أن توفَّت في النوم أبصرتها الشقيَّةْ
تلسعني بالملام فيكم كأنها في الوجود حيَّةْ

رجع: وشرها الأفاعي، ومسكنها الرمال والجبال، ويضرب المثل بها بأفاعي سجستان. ومن التهويل في أمرها ما حكاه ابن شرمة أن أفعى منها نهشت غلامًا في رجله فانصدعت جبهته.

ويحكى أن شبيب بن شبة دخل على المنصور فقال: يا شبيب، أدخلت سجستان فإنه بلغني أنها محواة (أي: كثيرة الحيات)؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قد دخلتها. قال: فصف لي أفاعيها. فقال: هي دقاق الأعناق، صغار الأذناب، مفلطحة الرؤوس، رقش برش كأنما كُسِينَ أعلام الحبرات، كبارهن حتوف، وصغارهن سيوف.

قال أرسطو: وليست الأفعى من الحيوان الذي يلد حيوانًا مثله، وإن خرج من بطنها أولاد، وإنما ذلك لتكسُّر البَيض بتلوِّيها وتجمُّعها في بطنها، فيتوهم من رأى ذلك أنها تلد، وليس الأمر كذلك.

ومن الأفاعي ما تتسافد بأفواهها، فإذا أعطى الذكر الأنثى وقع كالمغشي عليه، فتعمد الأنثى إلى موضع مذاكيره فتقطعها نهشًا فيموت من ساعته، فإذا بلغ بعضها لم يكن له مخرج لضيق مكان الولادة، فيبقى في بطنها حتى يخرج فيشقه ويخرج وتموت الأم من ساعتها، فيكون طلبها للولد هلاكًا.

وذكرها يسمى الأفعوان، يأتيها أيام الضراب فيصوِّت بها فتأتيه.

وبَيض الحيات مستطيل أكدر اللون، وأخضر وأسود وأبيض وأرقط، وفي بعضها نمش، وتخرج كل بيضة ثعبانًا على لونها، ولم نعرف السبب في اختلاف ذلك، وأما داخله فشيء أسمج من الصديد وأقذر، وهو في جوفها منضد طولًا على خيط واحد.

وليس للحيات سفاد معروف ينتهي إليَّ علمه، وليس عند الناس في ذلك إلا الذي يرون من ملاقاة الحيات والتواء كلٍّ منهما على صاحبه، حتى كأنهما زوج خيزران ملفوف.

والحية مشقوقة اللسان، ولذلك يظنُّ بعض الناس أن لها لسانين، وهي واسعة الشَّجْر ولها خطم، ولذلك يبعد نابها، ولو كان لرأس الحية عظم لكان أشد لعضِّها، ولكن جلدًا يطبق على عظمين مستطيلين.

وتوصف بالنهم والشره لأنها تبلع الفراخ من غير مضغ، كما يفعل الأسد، ومن شأنها أنها متى ابتلعت شيئًا فيه عظم أتت شجرةً أو حجرًا شاخصًا فتنطوي عليه انطواءً شديدًا، فيحطم ذلك العظم حتى يصير رفاتًا، ومن عادتها أنها إذا نهشت انقلبت، فيتوهم أنها فعلت ذلك لتفرغ سمها وليس الأمر كذلك، وإنما في نابها عضل فإذا عضت استغرق إدخال الناب كله، وهو أحجن شبيه بالبيض، فإذا انقلبت كان أسهل لخروجه وأسلس لنزعه، وفي طبعها أنها إذا لم تجد طعمًا تعيش بالنشم وتقتات به الزمن الطويل، وتبلغ الجهد من الجوع ولا تأكل لحم الشيء الحي، وربما بقيت أربعة أشهر في الشتاء صابرة على الجوع لا تغتذى بشيء البتَّة، وهي إذا هرمت صغرت في بدنها وأقنعها النشم، ولم تشته الطعام.

ومن عجيب أمرها أنها لا تطلب الماء ولا تريده، لغلبة الأرضية عليها، ولهذا تصبر عن الغذاء المدة الطويلة لأن حرارتها لا تسرع بتحليل مادتها لغلبة الحرارة وغلظ المادة، وهي لا تضبط نفسها على

الشراب إذا شمته لما في طبعها من الشوق إليه، فهي إذا وجدته شربت منه حتى تسكر، وربما كان السكر سبب حتفها، لأنها إذا سكرت خدرت.

والذكر من الحيات لا يقيم في الموضع الواحد، وربما تقيم الأنثى على بيضها بقدر ما تخرج فراخها وتقوى على الكسب، ثم تخرج سائرة فمتى وجدت جحرًا دخلته واثقة بأن ذلك الساكن فيه بين أمرين: إما أن يقيم فيصير طعامًا لها، وإنما أن يهرب فيصير الجحر لها، ولهذا يضرب المثل بها في الظلم فيقال: أظلم من الحية.

وعين الحية لا تدور في رأسها، وكذلك عين الجراد، كأنها مسمار مضروب، وعينها لا تنطبق، وإن قلعت عادت، وكذلك نابها إن قلع عاد بعد ثلاثة أيام، وكذلك ذنبها إن قطع عاد.

وفي طبعها أنها تهرب من الرجل العريان، وتفرح بالنار وتطلبها وتعجب بها، وباللبن، ومتى ضُرِبت بالقصب الفارسي ماتت، وإن ضربت بسوط قد مسَّه عرق الخيل ماتت.

وهي طويلة الذماء، والذماء: بطءُ خروج الروح بعد القتل. وذلك أنها تذبح حتى تفرى أوداجها فتبقى أيامًا لا تموت، ويقال: إنها لا تموت حتف أنفها إلا أن تقتل أو تصاد، وتبقى في جُوَن الحوائين تدلكها الأيدي، وتُكرَه على الطعم في غير أرضها إلى أن تموت أو تحملها السيول في الشتاء والزمهرير فتموت إذا بردت.

والحية تسلخ في كل عام قشرًا عن جلدها في أوان الربيع والخريف، وتبتدئ بالسلخ من عيونها ثم من رؤوسها، ويتم سلخها في يوم وليلة، وإذا هرمت وارتخى جسمها وعجزت عن سلخه أدخلت نفسها بين عودين أو في صدغ ضيق حتى ينسلخ، ثم تأتي إلى عين ماء فتنغمس فيه، فيشتد بذلك لحمها ويعود إلى قوته وشدته.

وليس في الأرض شيء مثل جسم الحية إلا والحية أقوى منه بدنًا أضعافًا، ومن قوتها أنها إذا أدخلت صدرها في جحر أو صدع لم يستطع أقوى الناس وقد قبض على ذنبها بكلتا يديه على ذنبها أن يخرجها، لشدة اعتمادها وتعاون أجزائها، وليست بذات قوائم لها أظفار ومخالب أو أظلاف لتتشبث بها وتعتمد عليها. وربما انقطعت في يد الجاذب لها، وإنما لشدة فِقَر ظهرها، فإن لها ثلاثين ضلعًا، وذلك مشاهد في صعودها وسعيها خلف الرجل الشديد الحضر، وعند هربها منه.

وهي برية، تعيش في البر بعد أن يطول مكثها في الماء وصارت مائية، وأصنافها كثيرة جدًّا، وهذا القدر كاف في وصفها.

القول على طبائع الفأر

يقولون: جميع ما يقع عليه اسم الفأر فأر، وهي أنواع: فأر البيت، والزَّبَّاب، والخُلْد، والَيربُوع، وفأرة البِيش، وفأرة المسك. فأما فأرة البيت فصنفان: جرذان وفأر، وهما كالجواميس والبقر، والبخت والغراب.

والفأر من الحيوان الذي جمع حاسَّتي الشم والبصر، وليس في الحيوان أفسد منه، لا يبقى على شيء جليل ولا حقير إلا أهلكه وأتلفه، ولا يقصر فعله عما فعلته ريح عاد، ويكفيه ما حُكِيَ عن سد مأرب، ومن تدبيره في الشيء يأكله ويحسوه أن يأتي القارورة الضيقة الرأس فيحتال حتى يدخل طرف ذنبه في عنقها، وكلما ابتل بالدهن أخرجه وامتصه حتى لا يدع في القارورة شيئًا.

ولقد حكيَ أن رجلًا كان عنده جرة زيت، فغاب عنها مدة ثم افتقدها فوجدها مملوءة حجارة وليس فيها من الزيت شيء، فأدار فِكره في ذلك إلى أنَّ الفئران كشفوها وشربوا منها إلى أن لم يبق أن تصل أفواهها إلى الشرب، فدلَّت أذنابها حتى لم تصل إلى الزيت، فألقوا الحجارة شيئًا بعد شيء فكان الحجر إذا وقع في الجرة طفا الزيت، حتى فني.

ولقد أراني بعض الأصحاب ظرفًا من زجاج كان فيه فستق مقشور قد نقَّبتْه وأكلت ما فيه. وكل البزور تأكل قلوبها وتترك قشورها.

وما أعجب من شيء كعجبي من نوى الخرنوب الذي لا تقدر الأضراس على كسره، وهي تنقبه وتأكل ما فيه، وكذلك تفعل بالقرطم مع ملاسته.

وفي طبعه النسيان، فربما صيد مراتٍ ويفلت فيعود، وبه يضرب المثل في السرقة والنسيان والحذر. ويبلغ الفأر من تحرزه واحتياطه أنه يسكن السقوف، فربما فاجأه السِّنَّور وهو يريد أن يعبر إلى بيته والسنور في الأرض وهو في السقف، ولو شاء أن يدخل بيته لم يكن للسنور عليه سبيل، ويشير إليه السنور في الأرض بيساره كالقائل له: ارجعْ. فإذا رجع أومأ إليه بيمينه كالقائل له: عد. فيعود، وإنما يطلب بذلك أن يعيى أو يزلق، ولا يفعل به ذلك ثلاث مرات إلا يسقط فيثب عليه.

وحكى الجاحظ أن ناسًا أنكروا أن يخلق الفأر في أرحام إناثها من أصلاب ذكورها، ولكن من بعض الأرض كطينة الفاطول، فإن أهلها يزعمون أنهم رأوا الفأر ولم يتم خلقه بعد، وأن عينيه لتبصان ثم لا يريمون حتى يتم خلقها وتشتد حركتها، ذكر الجاحظ ذلك على طريق الاستبعاد.

قال صاحب المباهج: وإنما رأيت ذلك عِيانًا، اتفق أني سافرت من الفيُّوم فمررت بقرية تسمى سفط، وإذا الفئران قد خرجوا من شقوق الأرض كجراد منتشر، كل واحد منها نصفه حيوان ونصفه الآخر طين لم يكمل تخليقه، وكذلك يتولد بمصر إذا انكشف ماء النيل عنها.

القول على طبائع العقرب

وهذا الحيوان منه أصناف، منه: الجرارة، والطيارة، وما له ذنب كالحربة، وما له ذنب معقف، وفيها السود، والخضر، والحمر، والصفر، والكمدة، وما له لون الرماد، وما له لون اللهب، وما له حُمَتان.

وأصحاب الكلام في طبائع الحيوان يقولون: العقرب مائية الطبائع، ومن ذوات الذر وكثرة الولد، تشبه السمك والضب، وعامة هذا النوع إذا حملت الأنثى منه يكون حتفها في ولادتها، لأن أولادها إذا استوى خلقها أكلت بطنها وخرجت، فتموت. والجاحظ لا يعجبه هذا القول ويقول: قد أخبرني من أثق به أنه رأى العقرب تلد من فيها مرتين وتحمل أولادها على ظهرها، وهي في قدر القمَّل، كثيرة العدد.

والعقرب شر ما تكون إذا كانت حبلى. ولها ثمانية أرجل، ولها أظلاف مثل أظلاف الثور، عيناها في ظهرها، وهي من الحيوانات التي لا تسبح، ومن عجيب أمرها أنها لا تلسع الميت ولا المغشي عليه ولا النائم، إلا أن يتحرك شيء من بدنه فإنها عند ذلك تضربه، وضربها له إنما هو خوفًا فهي تدفع عن نفسها بضربها. وهي تأوي إلى الخنافس وتسالمها، وتصادق من الحيات كل أسود سالخ، وربما لسعت الأفعى فتموت، وفيها من يلسع بعضه بعضًا فيموت الملسوع، ومن شأنها إذا لسعت الإنسان فرت فرار مُسيءٍ يخاف العقاب.

وقال الجاحظ: والعقارب تستخرج من بيوتها بالجراد، لأنها حريصة على أكله، تمسك الجرادة في عود ثم تَدخُل بها في مكانها، فإذا عاينتْها العقرب تعلَّقت، ومتى أدخل الكرَّاثُ إليها وأخرج تبعته وما معها من جنسها ونوعها، وهي إذا خرجت من بخشها في طلب الطعم يكون لها نشاط وعزم تضرب كل ما لقيته من حيوان أو نبات أو جماد، وربما ضربت الطست والقمقم فتخرقه وتسيل ماؤه، وربما نشبت فيه إبرتها، وهذه الإبرة مثقوبة فيها السم.

والعقارب القاتلة تكون في موضعين: بشَهْرَزُور وعَسْكَر مُكْرَم، وهي جرارات. وهذه العقارب تلسع فتقتل، وربما تناثر لحم مَن لسعته أو تعفن لحمه وأنتن حتى لا يدنو منه أحد إلا وهو يمسك أنفه

مخافة أعدائه. وهي في غاية الصغر، فإن أكبر ما يوجد منها يكون قدر زنته دانقًا واحدًا، والذي يوجد منها كبيرًا يكون زنته ثلاث حبات، وقد وزنت بشعيرة فرجحت الشعيرة عنها. ذكر هذا صاحب كتاب النشوان.

ومن ظريف أمرها أنها مع صغرها وقلَّتها ونزارتها تقتل الفيل والبعير بلسعها، وبنَصِيبِينَ عقارب قتَّالة يقال: إن أصلها من شهرزور، وإن بعض الملوك حاصر بها فأتى بالعقارب من شهرزور ووضعها في كيزان، ورمى بها بالمجانيق إلى البلد، فأعطوا القوم الأمان بأيديهم.

وما أظرف قول من قال، وقد واعد امرأة ليأتيها ليلًا، فلما خرج من عندها ضربته عقرب في طريقه، فقال:

ولقد سَرَيتُ مع الظلامِ لَموعِدٍ ... حصَّلته مِن غادرٍ كذَّابِ
فإذا على ظَهرِ الطَّريقِ معدَّةٌ ... سوداءُ قد علمتْ أوانَ ذهابي
لا بارك الرحمن فيها عقربًا ... دبَّابةٌ دبَّت إلى دَبَّاب

وسمع خبره صاحب الدار فقال:

ودار إذا نام سُكَّانُها ... تقيم الحدودَ بها العقربُ
إذا غفل الناسُ عن ذنبهم ... فإن عقاربنا تضرب

القول في طبائع النمل

ذهب ابن أبي الأشعث إلى أنه لا يتزاوج ولا يتوالد ولا يتلاقح، وإنما يسقط منه شيء حقير في الأرض فينمو حتى يصير بيضًا، ثم يتكون فيه.

وهو من الحيوان المحتال، يتفرق في طلب المعاش، فإذا وجد شيئًا أنذر الباقين فيجئن ويحملن، وكل واحد يجتهد في إصلاح العامة غير مختلس لشيءٍ من الرزق دون صحبه، ويقال: إنما يفعل ذلك رؤساؤها.

ومن تحليه في الرزق أنه ربما وضع بينه وبين ما يخاف منه ما يحجزه عنه من ماء أو شعير، فيتسلق في الحائط ويمشي على جذع من السقف مسامتًا لما حفظ، ثم يلقي نفسه عليه.

وفي طبعه أن يحتكر زمن الصيف لزمن الشتاء، وله في الاحتكار من الحيل ما إنه ما إذا احتكر ما يخاف نباته قسمه نصفين ما خلا الكسفرة، فإنه يقسمها أربعًا لِما أُلهِم أن كل نصف منها ينبت، وإذا خاف العفن على الحب أخرجه إلى ظاهر الأرض ونشره. وأكثر ما يفعل ذلك في القمر.

ويقال: إن حياته ليست من قبل مأكله ولا قوامه، وذلك أنه ليس له جوف ينفذ فيه الغذاء، ولكنه مقطوع نصفين، وإنما قُوته إذا قطع الحَب من استنشاق ريحه لا غير، وذلك يغذوه ويكفيه، وهو يشتمُّ ما ليس له ريح مما لو وضعه الإنسان على أنفه لما وجد له ريحًا، والكلام عليها طويل وهذا القدر كاف.

لبعض الشعراء في البراغيث والبعوض والبق:

نَومِي عــلــى ظَهــرِ الــفِراشِ مُنَغَّصُ	والــلــيــلُ فــيــهِ زيــادةٌ لا تــنــقــص
مــن عــاديــاتٍ كــالــذئــاب تــذاءبــت	وســـــرت علــى عَـجَـلٍ فــلا تــتــربَّص
وجعلــت دمي خمرًا تُداوم شُـــربهــا	مُســـتَرخِصـــاتٍ منــه مــا لا يرخصُ
فــتــرى الــبــعــوض مــغــنِّيًــا بــرَبــابــة	والــبــقُّ يشـــــرب والــبــراغــث تــرقــص

أبو عامر بن شهيد يصفه: أسود زنجي، وأهلي وحشي، ليس بوانٍ ولا ذميل، وكأنه جن لا يتحرى من ليل، وشونيزة، أو بفيها عزيزة، نقطة مداد، أو سويداء قلب قراد، شربه عب، ومشيه وثب، يسري ليلَه، ويكمن نهاره، ولا يمنعه ستر، يدرك بطعن مؤلم، ويستحل دم كل مسلم، مساور للأساورة، يجر ذيله على الجبابرة، يتكفن بأرفع الثياب، ويهتك ستر كل حجاب، ولا يحفل ببوَّاب، يرد مناهل العيش العذبة، ويصل الأحراح الرطبة، ولا يمنع من أمير، وهو أحقر من كل حقير، سرُّه مبثوث، وعهده منكوث.

ونقلت من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي: بنات عِرس إنما تلقح من أفواهها، وتلد من آذانها.

ومن عادة هذا الجنس أنه يسرق ما وجد من حليٍّ الذهب والفضة، وتخبئه في جحرها، وإن وجد في البيت حبوبًا خلط بعضها ببعض.

النمل عَمول مواظب، فإذا جمع الحب قطعه كي لا ينبت إذا أصابه الندى أو البلل، ويخرجه ويبسطه عند فم الجحر، حتى إذا يبس أدخله، فمَن جرَّب طبائع النمل أدرك علم أزمان المطر والصحو.

ومن أراد أن يهلك النمل فليدق الكبريت والخربق، وليذره في جحره.

ولا يولد من تزاوج لكنه يخرج منه صغير فيقع في الأرض فيصير بَيضًا، ثم يتصوَّر من البيض بالهيئة التي ترى.

الخنافس إذا شمت ريح الورد ماتت وأجنحتها مدمجة لاصقة بها.

البق والبعوض لا نتاج لهما، وإنما تتحلل من عفن الماء ووسخه ونتنه.

ومن أخذ غصن العنب ووضعه تحت سريره لم يقربه بق ولا بعوض. ومن أراد أن لا يتأذى بالبراغيث فليحفر في وسط البيت حفرة ويملأها دم تيس، فإن البراغيث تجتمع هناك، وإن وضع في الحفرة ورق دفلى ماتت البراغيث.

انتهى ما ذكره أبو حيان في الإمتاع.

ومنه: قيل لذؤيب: أتزعم أنك مفلس لا تقدر على قرض ولا جمع ولا حفالة وبيتك عامر بالفأر؟ فقال علي بن أبي عتيق: الطلاق الثلاث البتة، إن كان يمنعهم من التحوُّل عنا إلا أنهم يسرقون أطعمة الناس، ويأكلونها في بيوتهم لأمنهم فيه، لأنه لا هرَّ هناك.

وعلى ذكر الفأر فما أحسن قول الشيخ أحمد الموال الشهير بالفأر، أنشدنيها المرحوم الفخري بن مكانس:

قلبي صبا نحو بطيخي رائق رق
لما رأى القاعد أخلفوا عليها دق
ومذ قطعها الصبي شقات قلت: الحقْ
يا فأر نلت المنى اعبر لهذا الشق

ومن المداعبات اللطيفة ما كان يتفق لفخر الدين عبد الوهاب، كاتب الدرج، مع الفأر كاتب الدرج، وكان يتأذى ممن ينبزه بهذا اللقب، فاتفق حضورهما عند الأمير قشمر نائب السلطنة الشريفة ليسلِّما عليه حين قد من سفره، فأحضر لهما مشروبًا على العادة، فمسك فخر الدين عبد الوهاب الإناء وقال: ذكروا أن شراب الليمون في الأسفار يسكن الدم إذا فار. قال- فاحتد منه الفأر وقال: كذبت، عمَّن نقلت هذا؟ قال: عن الفارابي! فكان الشاهد أنكى من الزائد.

نقلت من تذكرة العلامة عز الدين الموصلي شيخنا رحمه الله وفقًا يوضع لفقد الذباب من البيت الذي يكون فيه، وصورته أن يوضع يوم الخميس المعروف بخميس البيض قبل طلوع الشمس، بعد صلاة الفجر، ويكون واضعه قد صام أربعة أيام لا يفطر فيها على زفر ولا زهومة، ثم يضعه على هذه الهيئة، ويكون الوضع في ورق لونه رصاصي تربيعًا بالمسطرة محررًا، وهو هذا الوفق:

هلك	الذباب	بإذن الملك	القاهر القدير
***	***	***	***
***	***	***	**
***	**	**	***

وقال ناصر الدين بن النقيب:

ودارٍ خَرابٍ بها قد نزلـ ـتُ ولكن نزلتُ إلى السابعةْ
فلا فرق بين أنِّي أكون بها أو أكون على القارعةْ
فوالله ما دمتُ في أرضها ولا طلعتْ لي بها طالعةْ
ومفردة بالصفات القبا ح وما هي إلا لها جامعةْ
تشاورها هَفَوات الريا ح فتصغي بلا أذْنٍ سامعةْ
إذا ما قرأتُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بها خفت أن تقرأ الواقعةْ
وأخشى بها أن أقيم الصلا ة فستجد حيطانها الراكعة

قال الشيخ شمس الدين بن الصائغ: أنشدني الشيخ تاج الدين عبد الباقي اليماني قال: حضرت مجلس الشيخ جمال الدين بن نباتة فرأيت فيه نملًا كثيرًا فقلت:

ما لي أرى منزل المولى الأديب به نمل تجمَّع في أرجائه زُمَرا

فقال:

لا تعجبن من نَملِ مَنزِلِهِ فالنملُ مِن شأنها أن تتبع الشُعَرا

وعلى ذكر النمل ذكرت ما نقلته من خط الوداعي ما صورته: دب شخص شاهد عدل يقال له النميلة، فعمل فيه عز الدين بن رواحة وأجاد في ما قال:

عتبتُ على نُمَيلةَ في التَّعدِّي وجراءته على ما لا يحلُّ
وقلتُ مقال إنكارٍ عليه: تدبُّ على العدول وأنت عدل
فقال: لقد عتبت عليَّ ظلمًا وهل للنمل غير الدب شغل

من المجرَّبات إذا ظهر النمل في موضع أن يقرؤ عشر مرات في نفس واحد: هَمَّ الغداء والعشاء طويل. فإنه يرحل بإذن الله.

السيد الفاضل شمس الدين بن صاحب موفق الدين علي الآمدي في الحية:

وتخاله في القيظ سوطًا باليًا ملقًّى وفي كانون دملج معصم
وقد استدارت مقلتاه بحمرةٍ فيها تحاكي قطرتين من الدم

وله أيضًا فيه:

وهو حبل حين يمتدُّ أو مثل خيط النهر مهما اضطربا
سببًا للموت وصَّالًا به ولذاك الحبلُ يُدعَى سببا

من كتاب كتبه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر إلى القاضي كمال الدين بن العطار كاتب الدرج السعيد: من منزله خربة اللصوص، من كل صلد تزاحمت به مدارج السيول، وغصت به حلوق الوحول، وغدا شبحًا في صدور السهول، قد جمشت الأقطار وجوه صفاته، وقبحت الأيام والليالي ما لعله من حسن سماته، وأصبح يعاثر في طرق الزروع، كم حصل منه لها أذى، ومحاجركم أطرفت عيون الأرض منه على قذى، كأن أسوَده على الأرض كلف يؤذي الأبصار، وكم خدٍّ به استدار منه أوحش عذار، كم تجمعت فلذة فكانت ظلماتٌ بعضها فوق بعض، ونبت في الفضاء فأحسِنْ بها من نهود تبدو في صدور الأرض، تروع الراعي في المراعي، وتسمع بها قعاقع سهام المنايا فتغدو تراكيش الحيات والأفاعي، من كل أفعى تفترس افتراس الضيغم، وتنملس انملاس الجدول، وتنكمش انكماش السهام، تُفزِع رائيها في المنام، إذا انقبضت صارت عروة، وإذا انبسطت فهي حزام، كم خبَّأت النوائب في أنيابها، وكم لعبت بالأرواح بلعابها، ذات الأوان كالدنيا بينا هي تروق إذا هي تروع، ولين معاطف كالأيام كأنما استدار

بها أشراك للوقوع، كم أخذت للخيام أطنابًا فوق الأطناب، وإذا شاهد الأطباء علاماتها وامتدادها قالوا: هذا الذي يقال: إنه للموت من العلامات والأسباب، كم تصبحت العيون منها بأسود سالخ، وكم أحرق سمها مهربًا من كوره لا هاجه نار الموت وهو له نافخ، ومن عجب أنها تمشي على بطنها ولا تأكل ما تفترس، وتوقد في الليالي المدلهمة عيونها نارًا لا يجد عليها هدى طرف المقتبس.

القاضي فتح الدين بن الشهيد:

أقــول لــنــمــل الــعــذار الــتــي	عــلــى الــخــد دبَّــت: قــفــي تــحــمَّــلــي
حــمــت عســــل الــريــق ألــحــاظــه	إلــى أيــن يــا نــمــل لا تســــبــلــي

بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

يــا جــمــال الــكــتــاب يــا جــمــيــل الــذْ	ذِكــر حــقًّــا ومــن لــه الــعــلــيــاء
لــي بــيــت صــــعــب يــجــاريــه الــ	ــــفــكــر ومــا أن تــحــلَّــه الــبــلــغــاء
ظــاهــر الــعــيــب لا عُــروض لــ	ــه والضــرب والقبض في ذراه ســواء
لا أراه مــن الــحــقــيــف فــلــمَ ذا	جــاز فــيــه الــتــشــعــيــب والإقــواء
لــلــبــراغــيــث فــيــه رقــص	ولــلــبــق زمــيــر ولــلــذبــاب غــنــاء
عــامــل لا أزال فــيــه وهــذا	ك دلــيــلٌ أن لــيــس فــيــه بــنــاء
والــهُ مــمــا اســتــويــت إلــيــه	كــان لــي فــيــه مــن دخــان ســمــاء
عــالــيــات أركــانــه الــبــعــض	لــلــبــعــض فــمــا تــركــيــبــهــن اســتــواء
وكــثــيــر بــه الــتــراب مــهــالٌ	وقــلــيــل بــه الــهــواء والمــاء
وعــتــيــقٌ لســـوء بــخــتــي ولــو كــا	ن عــلــيًّــا لــطــاب فــيــه الــثــواء

منقول من الموجز لابن نفيس: ومما يطرد الهوامَّ من البيت التبخير بأصل الرمان وقضبانه، وأصل السوس، والقنة، والقرون والأظلاف والحوافر، والشعر والحلتيت وورق الغار وحبِّه، ورماد الصنوبر وخصوصًا مع القنة والشونيز والمركبات من هذه.

الحيوانات التي تهرب منها الحشرات

إذا جُعِلَ في البيت لقلق، أو طاووس، أو قنفد، أو ابن عِرس، فإن الهوام تفزع منها وتهرب، وإن ظهرت قتلتها، وكذلك البيضانيات والأبابيل.

طرد الحيات

الكبريت والنوشاذر بالخل يهربها، والخردل يقتلها، وإذا وضع على مسكنها هربت منه.

طرد العقارب

الفجل المشروخ وعصارته إذا مسكت وورقه، والباذَرُوج، وتفل الصائم. والتبخر بالعقرب يهرب العقارب، وكذلك الزرنيخ، وإذا وضع الفجل المقطع على جحرها لم تجسر على الخروج منه.

طرد البراغيث

إذا رُشَّ البيت بطبيخ الحنظل أو نقوعه تماوتت البراغيث وتهاربت، وكذلك العليق والخرنوب ودم التيس، إذا جُعِل في حفرة أوت إليها البراغيث، وكذلك تجتمع على خشبة طليت بشحم القنفد، وريح الكبريت، والدفلى يهربها.

طرد البق والبعوض

التدخين بنشارة خشب الصنوبر، أو بالقلقديس، أو بالشونيز، أو بمجموعها. وهو أجود، أو بالآس اليابس، أو بالكبريت، أو بأخثاء البقر، أو بالحرمل، أو بورق السرو أو جوزه، ورش البيت بطبيخ هذه أو بطبيخ الترمس أو الدلب.

طرد ابن عرس

يطردها ريح السذاب.

طرد الفأر وقتلها

المَرْتَك والخَرْبَقُ والبَنْج، وأصل الكبريت، وبصل الفأر، وهي تتداوى بالسباحة في الماء، فإن لم تجدها ماتت، والتراب الهالك وخبث الحديد، وإذا سلخت الفأرة الذكر أو قطع ذنبها أو خصي وربط بخيط صوف هرب الفأر الباقي والسلخ أقوى.

طرد النمل

دخان النمل نفسه يطرده ويهرب منه.

طرد الذباب

يقتلها الزرنيخ وحده، أو باللبن ودخانه، ودخان الكندر، وطبيخ الخربق الأسود.

طرد الزنابير

بخار الكبريت والثوم.

طرد الخنافس

دخان الدُّلْب وورقه.

طرد الأَرَضة

يطردها الهدهد إذا جعل في البيت، والتدخين بأعضائه وريشه.

طرد السوس

الأفسنتين، والفُوتَنْج، وقشور الأترجِّ، وماء الحنظل الرطب وريشه.

طرد سام أبرص

الزعفران إذا جعل منه في البيت هرب منه.

الباب الخمسون

في وصف الجنان

وما فيها من حور وولدان

عن أبي سعيد الخدري يرفعه: إنَّ الله — جلَّ ذكره — لَمَّا أحاط حائط الجنة لبنةً من ذهب ولبنةً من فضة، وغرس غرسها، قال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال تعالى: طوبى لك منزل الملوك.

وقال زيد بن أرقم: قال رجل لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب. قال: فإن الذي يأكل تكون له الحاجة، والجنة طيب لا خبث فيها. قال: حاجة أحدهم عرق يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بطنه.

دخل داود عليه السلام غارًا من غيران بيت المقدس، فوجد حزقيل يعبد ربه وقد يبس جلده على عظمه، فسلَّم عليه، فقال: أسمعُ صوتَ شعبانَ ناعمٍ، فمن أنت؟ فقال: داود. قال: الذي له كذا وكذا امرأة، وكذا وكذا أَمَة؟ قال: نعم، وأنت في هذه الشدة؟ قال: ما أنا في شدة ولا أنت في نعمة حتى ندخل الجنة!

قال مالك بن دينار: جنات النعيم من جنات الفردوس، وفيها جوارٍ خلقن من ورد الجنة. قيل: ومن يسكنها؟ قال: الذين همُّوا بالمعاصي فلما ذكروا عظمة الله عز وجل راقبوه.

وقال بعض العلماء: في السدس الأخير من الليل تفتح أبواب الجنان، ألا ترى أن أرواح الرياحين تفوح في ذلك الوقت؟

جاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم بن حزام، فباعها من معاوية بمائة ألف درهم، فقال له عبد الله بن الزبير: بِعت مكرمة قريش؟ فقال: ذهبت المكارم إلا من التقوى. يا بن أخي، اشتريت بها دارا في الجنة، أشهدك أني جعلتها في سبيل الله.

ولمؤلفه رحمه الله:

إذا رأيتم قبر خير الورى والمنبر الزاهي وإجلاله
بُشراكم الجنة هَنِئتُمُ ومن يرى هذا فطوبى له

وهنا تمت الأبواب، وبتمام هذا الباب تمَّ الكتاب. وأنا أبتهل إلى الله بلسان التضرع والخضوع، وأسأل لحظات الاعتراف والخشوع، لمتصفحي كتابي هذا وأبوابه، ومتأملي ألفاظه وإعرابه، الصفحَ عما يقفوا عليه من عثرات العبارات والمعاني، والتجاوزَ عما وقع فيه من التقصير والتواني، فالمعترف بذنبه كمن لا ذنب له، ومن لا يقبل العذر فالذنب له.

مَن رام أنْ يَقبل الباري معاذيره فَلْيَقْبَلنْ مُسرعًا ممَّن له اعتذرا

وليقتدِ بقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ۗ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. لا سيما مع استغراق زمانٍ أنا بنكده منوط، وليل ونهار أنا فيهما بطلب القوت مربوط، واعترافي أن في عجومة ظاهره في البيان وعجمة غالبه في اللسان، تمنع عن إدراك حقائق المرادات، والجمع بين دقائق المعاني وحسن العبارات، ولكنني مكره في ذلك لا بطل.

فإن لم يكن نظم القصائد شيمتي وليس جدودي يَعْرُبُ وإِيادُ
فقد تَسْجعُ الورقاءُ وهْي حمامةٌ وقد تنطق الأوتار وهْي جمادُ

ثم قلَّ ما يخلص مصنف كتابٍ من الهفوة، بل الهفوات، وهيهات ثم هيهات أن ينجو الناظم أو المؤلف من العثرة، بل العثرات، خصوصًا مع الممتحنين، بل المتعنِّتين، والحاسدين المتعبين، ولكن رسول الله ﷺ يقول: «من طلب عثرة أخيه ليهتكه طلب الله عثرته فهتكه».

لا تلتمس من مَساوي الناسِ ما سَتَروا فَيَهْتِكَ اللهُ سِترًا من مَساوِيكَا
وَاذْكُر مَحاسن ما فيهم إذا ذُكروا ولا تَعِبْ أحدًا فيه الذي فِيكا

وأنا أقسم على جماعة مُتَصَفِّحيه، أن يتأملوه وينظروا فيه، بعين المحبة والرضا، ويعبروا عنه بلسان الصفاء والوفا، فإن تجد فيه بعيدًا قرِّبه، أو خطأ أصلحه وصوِّبْه:

فـإنْ زلَّ طرفي أو كبا فهي جلبـةٌ يَـزِلُّ بـهـا الـطـرف المـطـهَّـم جـاريـا
فعفوًا جميلًا عن خطأي فإنني أقول كما قد قال من كان شـاكيا
وعين الرضا عن كل عيب كَليلةٌ ولكن عين السَّخط تُبدي المساويا

وبالله أستعين أولًا وآخرًا، وعليه أتوكل باطنًا وظاهرًا، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

المحقق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين. أحسن الله إليكم، وغفر لنا ولكم.

أما بعد؛ فهذا كتاب مطالع البدور في منازل السرور لمؤلفه علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي الدمشقي.

روي عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه قال: إذا نُسخ الكتاب ثلاث مرات ولم يُقابل انقلب بالفارسية. وقد وقفنا على ثلاث طبع نشرت لهذا الكتاب لم نقف على غيرها، وأحسنها — والله المستعان — رديء التحقيق، بالغ التصحيف، نَزر المراجعة. ووجدنا في بعضها العزف عمَّا في النسخ إلى ما استسهلوه ممَّا وجد في غيره من الكتب التي حقِّقت قبلُ وطُبعت وشاعت بين الناس، وأكثر ذلك في الأشعار، وربَّما وجدت البيت في مخطوطات هذا الكتاب أجود وأملح، فتراه تركه وعدل عنه لما وجد في كتاب آخر.

والنثر في تلك الطبعات أشدُّ تصحيفًا وأبعدُ معنًى حتى ربما استغلق فهمُه وانقلب معناه.

على أنَّا لا ندَّعي الكمال لطبعتنا، ولا أنها أقلها خطأً وتصحيفًا، ولا نقول لك بترك غيرها فإن فيها خيرًا كثيرًا استعنَّا به، ولكننا عارضناها على تسع مخطوطات هدانا الله إليها، واضحة البين، كثيرة الفروق، فاجتهدنا فيها ما شاء الله لنا أن نجتهد، فما وجدتَ فيها من خطأ فاعف عنه وصوِّبه تُسأل وتؤجر إن شاء الله، والكتاب مفتوح للناس لا حدَّ عليه.

وحققنا الكتاب على سنتين، وكان الفراغ منه في الثلث الأخير من سادس شهر ربيع الأول، سنة سبع وأربعين وأربعمائة وألف، ولله الحمد والمنَّة.

الفهرس